جمال الغيطاني

كتاب التجليات

الأسفار الثلاثة



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٧

بسم الله الرحمن الرحيم

عفوك ، ورضاك ، ياغفور
ياكريم يارب

.. فلما رجعت بعد أن لم أستطع صبراً ، وكيف أصبر على مالم أحط به علما ، لما اكتمل إيابي ، فرغت إلى نفسى استعيد واسترجع بينما زمن المحن يلوح ويبدو ، صرت فى بوار ، لا تطمئن بى دار ، ولا يستقر لقرارى قرار ، صرت متحركاً وساكنا ، بعد ان كنت أشبه بطير ، أطير من غصن إلى غصن ، والغصن الذى انطلقت منه هو الذى يطير عنى ، عدت محدودا بعد ان كنت طليقا ، وكل محدود محصور ، وكل محصور عاجز ، رجعت بعد ان كنت الطالب والمطلوب ، العاشق والمعشوق فلم يكن رحيلى إلا بحثا عنى ولم تكن هجرتى إلا منى وفىّ وإلىّ ، كدت أصل إلى أصلى ، كدت أنفذ إلى أسرار النار والنور والليل والنهار والشمس والقمر والبرق ونسيم الصبا وخلق الندى والرجع والصدى والغايات وسلمى وليلى واختفاء الشفق وتعاقب الفصول ، كنت قاب قوسين أو أدنى ، لكن غشى عينىّ ما يغشى ، لم أستطع صبرا ، وكيف أقدر على ما لم أحط به خبرا . عدت بعد أن نعمت بأجمل صحبة وأنعم علىّ مولاى بالرفقة ، بعد أن علمنى بعضاً مما لا أعلم . رجعت بعد فراق للأهل والوطن ، بعد أن قطعت اليباب واخترقت الحجب وتساقطت أمامى كل الحواجز التى لاتقدر على اجتيازها الطبيعة الإنسانية ، وأنا مفطور على الرحيل الأبدى ، فلا استيطان لى اصلاً وأبداً ، رجعت فهان علىّ أن

يتلاشى كل ما رأيت ، فعكفت ، ودونت ، لعلى آتى مما رأيت بقبس ، أحياناً وضحت ، وأحياناً فصلت ، وأحياناً رمزت ولوحت ، سترت وما أفصحت ، لكننى بعد أن امتلكت بيانى . وكدت انتهى من الكتابة ، خطر لى خاطر ، أن أفرغ يدى من هذا الأمر الجلل خوفا من قلة التحقيق وعدم قدرتى على التدقيق ، فعزمت ، ومزقت كل ما دونت ، شتته ، وذريته ، وصار كأنه لم يكن ، صار نسيا منسيا ، صار أثرا مندثرا بعد أن كان مسطورا ، وتساءلت ، هل أتى علىّ وعلى تجلياتى حين من الدهر لم نكن شيئاً ؟ وعلى أثر ذلك غربت نجوم عزائمى وفترت همتى ، ولفتنى ذكريات دوامس ، وأصبح اللعاب مرا فى فمى .. وفجأة ، عند ساعة يتقرر فيها الفجر ، صاح بى الهاتف الخفى ...

ياجمال ..

انتبهت ، فإذا بنور ساطع يشرق فى ليل نفسى ، نور ليس مثله مثل حتى ظننت أنى عدت إلى مركز الديوان البهى ، ثم رأيت فى بؤرته ثلاثة وعلى مسافة خلفهم ثلاثة ، وفى منتصف المسافة بينهم واحد ، أما الثلاثة الأول فيتوسطهم حبيبى وقرة عينى ورفيق تجلياتى وملاذ همومى ومقيل عثراتى ، إمامى الحسين سيد الشهداء ، إلى يمينه أبى وإلى يساره عبد الناصر ، أما الثلاثة الواقفون إلى الخلف فملامحهم متغيرة ، تارة أرى إبراهيم ومازناً وخالداً ، وتارة أرى أمى وإخوتى وعيالى ، أو جدتى وخالى وبعض أصحابى وقلة ممن أحببت أو عادونى أو أشخاصاً عرفتهم لمدة طويلة أو لفترة وجيزة أو وقعت عيناى عليهم فى لحظة مجهولة عند مرورى بمقهى أو تطلعى إلى شرفة . أما الواحد الواقف فى المنتصف فعرفت فيه مولاى الشيخ الأكبر محيى الدين بن

عربى .. حدق إلىّ الحسين بنظر ثابت جميل فتعذر النطق علىّ وان تلوت فى خاطرى :

ومن عـــــجب إنى أحن إليهـــــم
وأســـأل شوقـــا عنهـــم وهـــم مـــعى
وتـــبـــكيهـــم عـــينى وهـــم فى سوادهـــا
ويشـكو النوى قلبى وهـم بين أضلعى

أذن سيد الشهداء فتقدم منى الشيخ الأكبر محيى الدين ، خطا نحوى وهو فى موضعه ، لم يفارقه ، كذلك لم أفارق مكانى وان صرنا فى مواجهة ، نظر كل منا إلى الآخر وقتا طويلا فى صمت ، ثم غضضت البصر فانفصلنا دون النطق بكلمة ، ولكن بعد أن فهمت الأمر وأدركت البشارة ، انحسر النور ، ذهبوا عنى ، غير أنى امتثلت ، فعكفت على إعادة تدوين ما كتبت ، فكان هذا الكتاب الذى يحوى تجلياتى وما تخللها من أسفار ومواقف وأحوال ومقامات ورؤى ، وهذا كتاب لايفهمه إلا ذوو الألباب ، وأرباب المجاهدات ، أما إذا أظهر البعض استغلاق الفهم أو الملامة فإننى أتلو : ﴿ قال فما خطبك يا سامرى ، قال بصرت بمالم يبصروا به ﴾ صدق الله العظيم ...

التجليات الأولى
وهي
تجليات الفراق

تجل ساطع

لو أعرف للفراق موطنا ، لسعيت إليه ، وفرقته ..

تجلى التمام

.. بعد أربعين دورة من دورات الأفلاك ، تجلى لى أبي فى اللامكان ، والزمان العجيب ، أفق مضموم غير منبسط ، وأبعاد مدركة بالحس فلا ترى . وجدران مشيدة من مواد لا نعرفها ، ليست خشباً ، أو طوباً ، أما السقف فمن شعاع أحمر ، درجة منه منعزلة متفردة ، يجلس أبي ، يواجهنى بوضع جانبي ، تلك جلسة لم أعتدها منه . خطوت تجاهه بقلب خافق ، واقبال دافع ، لكن عند حد معين ، توقفت ، عرفت انني لا يمكنني الخطو ، لم أحاول فوقفت ، يتجلى أبي فى ثياب دنيوية . قميص أسود من الصوف ، بنطلون أسود ، شعره ناعم ، مسترسل ، طويل ، ملامحه شابة ، مستريحة ، راضية ، وقدرت انني أرى وجهه عندما كان فى العشرينيات ، خلواً من التجاعيد . من سحابات الهموم ، تطلع إلى وتطلعت إليه . شبع مني ، ولم أرتو منه ، لكن دنا الأبدى ، فطلبت الكلام ، وإذا به ينطق ، يصل صوته إلى مسامعى ، صوت ذو وتيرة واحدة ، خلو من التنغيم ، حدثنى بلهجة من

يدلى ببيان من المذياع إلى مستمعين لا يراهم ، وآخرين عنه لا يعرفهم ، قال فاستوعبت ، نطق المحبوب فدونت ..

« .. لا تقلق علىّ يا جمال ، لاتحزن ، كان موتي مريحا فلم أعان ، انتهى الزمن القديم والحديث فى سبع دقائق ، ما قالته أمك ، وما حدثك به أخوتى صحيح .. فلا يضيق صدرك ، المهم .. اخبرنى ، ماذا انتم فاعلون » ؟.

وذهب أبى ..

شرح ذلك التجلى

.. من شرفة البيت أطل ، لوحت بيدى فرد وردوا ، مضيت وعند ناصية الشارع استدرت فرأيت ملامحه ترنو . وضعه السكونى ، كان يرقبنى ، ولم يخطر ببالى الكليل خاطر ، ولم ينفذ نظرى المحدود عبر الغيب ، فمشيت ، وفى اليوم التالى سافرت ، وتنقلت ، ورأيت ، وقابلت ، ابنهجت ، وعملت ، واستمتعت ، ومن حين إلى حين فكرت فيه وتذكرت ، وأخيراً عدت ، فى المطار استقبلتنى زوجتى ضاحكة مبتهجة ، استفسرت ، فقالت إن الجميع بخير ، كلهم بخير ، بعد وصولى البيت ، بعد أن قبلت طفلى النائم . وفردت الهدايا ، لاحظت تبعثر نظراتها فسألت . ترددت فوجفت ، ألححت فارتبكت ، ضاق صدرى بصدرى ، ألححت ، ألححت ، فتطلعت الىّ بعينيها الواسعتين ..

والدك .. تعيش أنت ..

تجلٍّ خاطف

ولما بدا الكون الغريب لناظرى ، حننت إلى الأوطان حنين الركائب .

تجلى المستحيل

.. رأيت جمال عبد الناصر ، المكان محدد ، والزمان معين ، رأيته فى ميدان الدقى . أول الثمانينيات ، التى كانت بعيدة ، وتولى الآن كأطياف ، من قبل لم أره إلا مرة واحدة ، يعبر شارع رمسيس . أقف فوق الرصيف . مر أمامى . بدا قريبا جداً منى . خيل إلىّ أنه رمقنى من خلف زجاج سيارته . ومن قبل رأيته فى يومى العيدين ، الكبير والصغير . لم يكن العيدان يكتملان إلا عندما نشب على أطراف أصابعنا ، ونرقب ظهور الدراجات البخارية . وسيارات الحرس ، ثم عربة المصورين ، ثم يهل على المحتشدين ، بفوديه مشيب ، تحيطه لمعة ، فلا ترى إلا هو . فى تلك السنوات كان أبى يحمل أخى الأصغر ، ثم يطاول بعنقه الواقفين ، فى هذا التجلى رأيته بلا حرس . بلا مصورين ، بلا ضجيج لكنه بدا شاهقا خارج الزمان الأرضى . يفوق وجوده المادى بوجود غير مرئى . الناس حوله ماضون . لا ينتبه أحد . لا يلتفت أحد . اندفعت تجاهه ، رأى اقبالى ، تحول بعينيه ناحيتى ، ولاحظت أنه منهك ، متعب ، قلت محملا صوتى معانى الحنين الذى لا يمكن تفسيره ، والتفسيرات المطلوبة ،. والكلوم المدفونة ..

ايه .. كيف حالك .. مالك ؟

هل تعرفنى ..

ومن لا يعرف من لا يُعرّف ؟ ..

هز رأسه ، وهنا لاحظت أن المشيب طق فى رأسه كله .

– إذن .. أنا فى مصر ..

دهشت .. صاح ..

– ولكنى أرى مالا يجب أن يُرى .

توقف لحظة ، ثم بدأ ينطق كلماته من خزائن الحيرة والتساؤلات ..

– هل اخترق الاسرائيليون الجبهة ؟.

قلت : لا .

– هل وصلت جيوشهم إلى القاهرة ؟.

قلت : لا .

قال ، ماذا أرى إذن ؟ فسر لى ، اشرح لى ، تأخرتمونا فى الزمان ، وتقدمناكم ، أجبنى ، أليست هذه أعلامهم ؟ أليس هؤلاء سياحهم ؟ أليست هذه كتبهم وصحفهم ؟.

قلت : هذا حقيق ، اننى ضد ذلك ، ولكننى لا أجاهر خوفا وتقية ..

قال متعجبا : ماذا جرى ؟ هل انقلبت الآيات ؟؟

بدا صوته غريبا ، بدأ غير حقيق ، سألت نفسى يوما ، أحقا عشت زمانه ؟ هل رأيت عنه وله ؟ لكن هاهو أمامى ، لاحظت أن الناس يتجمعون ، بعضهم يحدق ، وان منهم من أدرك فولى ، ومنهم من عرف فدنا ، قلت والجمع يتزايد :

سأشرح لك .. ولكن فوق كل ذى علم عليم .

تجلى الأمانى

قال تعالى : ﴿ وغرتكم الأمانى ﴾ صدق الله العظيم .

أمانى النفس حديثها بما ليس عندها ، صاحبها خاسر ، يلذ له الزمان بها ، فإذا رجع مع نفسه لم ير فى يده شيئاً ، فحظه كما قال من لا عقل له ..

أمـــانى أن تحصـــل تــكن أحسن المنى
والا فــقــد عشــنــا بها زمــنــا رغــدا

تجلى الانتصار

.. سريت فى النور الأخضر ، فى زمن الزهور المرجو ، فرأيت نفسى أخرج من مدينة رباط الجميل عند شاطئ المحيط ، أرحل ، وأعبر الحدود بلا راد أو مانع ، دخلت سيناء الأبدية ، ورأيت آثار الحرب القديمة ، وهياكل الدبابات . واستعدت لحظات اختراق الشظايا الجسد الإنسانى ، وصرخة الألم . وتذكرت أيامى عندما عملت مراسلا حربيا . أنقل إلى من لا أعرفهم ما يجرى . مايقوم به أبناء الوطن ، كان من الممكن أن أموت فى تلك الأيام التى لا يذكرها إنسان الآن ، كنت سأصبح نسيا منسيا فى زمن السوء ، وزمن التجليات ، استمر سريانى فى الشعاع الأخضر ، عبرت سيناء ، سلكت طرقا ممهدة إلى الدهر الفلسطينى . رأيت اللافتات عربية ، والمقاهى ، والضحكات ، والحياة اليومية ومررت بمدن بدت لنا كحلم لطول ما انعزلت عنا ، ورأيت بقايا حروف عبرية على لافتات صفراء تركت كذكرى وعبرة . كل شىء عاد إلى أصله ، و«إن عدتم عدنا» ، قال دليلى ، لماذا تقرأون ثم تنسون ؟ هل نسيتم أن عدة ممالك قامت هنا تحت علامة الصليب ، واستمرت ما يقرب من قرنين ، جيوش ، وخيول بريد ، ونظم ، وأجهزة دعاية ، وأمراء ، وأتباع ، وفرسان الداوية ، ثم زال هذا كله ، لم يقل أهل ذلك الزمان بالأمر الواقع . تنبهت إلى الغضب فى صوت دليلى ، تنبهت إلى شحوب اللون الأخضر ، إلى أن أوان التجلى ينذر بانتهاء ، رأيت أبى ، هو دليلى ومرشدى ، بدا متعبا ، كما رأيته دائماً فى الأعوام الأخيرة . السنوات التى لم أدرك فى حينها أنها أخيرة ، انتبهت إلى بناء قديم ، مدخله غريب كأنه لايؤدى إلى شىء ، جدرانه من الدبش ، خلو من النوافذ ، قال « أنذرتكم ولم تنتبهوا ، أبديت الإشارة تلو الاشارة فلم تعقلوا ، نبهتكم فتجاهلتم ،

حاولت فتعاميتم ، لماذا الحزن ؟» .

ولى بوجهة الأسيان ، نأى صوته عنى ، تختفى نبراته وتضيع . «على أى حال ، سيأخذ الحزن وقته ، ثم يولى كل شىء ..» هممت بالرد ، فثقل لسانى ..

تجلٍ يقينى

.. ما من شىء يثبت على حاله ، لوحدث ذلك لصار العدم ، كل شىء فى فراق دائم ، المولود يفارق الرحم ، الإنسان يفارق من دنيا إلى آخرة مجهولة بلا آخر، البصر يفارق العين إلى المرئى، ثم يفارق المرئى إلى البصر، الليل يفارق النهار ، والنهار يفارق الليل ، والساعة تفارق الساعة ، والدهر يفارق الدهر ، الذرة فى فراق دائم عن الذرة ، الجسد يعانق الجسد ثم يفارق ، يولج القضيب فى الفرج ، ثم يفارقه ، تنبت الأوراق غضة ، خضراء ، ثم تفارق الأغصان ، الفكرة لا تلحق بالفكرة ، والصورة لاتمكث فى الذهن، يجىء شتاء، ويجىء صيف ، ثم ربيع ، ثم خريف ، كل يفارق إلى حين ، كل فى فراق دائم ، الذات تفارق الذات ، حتى الأشياء التى ظننا أنها باقية أبدا ، حتى الأيام التى اعتقدنا أنها لن تتبدل قط ، ولن تتغير ، ولن تزول ، كل شىء ، كل شىء فى فراق ، كل شىء يتغير ، كل شىء يتغير.. فلنفهم !.

تجلى المحاولة

.. تجلى لى عبد الناصر ثانية ، بدا غاضبا ، لكنه يفعل ، أمر بتنكيس أعلام الأعداء ، وإزالته من فضاء القاهرة ، أمر بإلقاء القبض على جميع

أفراد العدو المتواجدين فى الديار ، من سفير وأعضاء سفارة ، ومندوبين ، وممثلى هيئات ، وجواسيس ، ورسم باعتبارهم أسرى حرب ، أمر ، وأمر ، لم يمتلك قلما وشعارا يوقع به ، إنما طاف بالميادين يزعق ، يصيح ، فالوسائل معدومة ، والحيلة واهية ، والقدرة قصية ، والوجوه غريبة ، والسحن غير معهودة ، والأيام غير الأيام ، والزمن خلاف الزمن ، كان باستطاعته أن يبصر ما لا يبصره الآخرون ، أخذه الهول ، وتملكه جزع ، ما يراه لم يتخيله يوما فى صحو أو منام ، ما يدور قاس ، عبر النهر ، ولمح أطياف الأهرامات وتجلى فى الميدان الكبير ، رآه غيرى ، لم يصدقوا عيونهم ، ولى بعضهم فراراً ، وامتلأوا منه رعبا ، وتعلق به آخرون ، اعتقدوا فيه ، مشوا خلفه ، بثوه ، شكوا إليه ، وعاتبته عجوز عمياء ادركت صوته ، فشا الخبر فى الخلق ، هرول مراسلو الصحف الأجنبية ، استقصوا ، واستفسروا وتحلقوا ، ودنوا ، ظهرت الأخبار فى موجزات الأنباء ، وقع الاضطراب فى أسواق النقد العالمية ، اهتز الدولار ، واضطرب الاسترلينى ، وازدهر الين ، استنفر الناتو والساتو ، وأعلن زعماء حيروت والمابام وما شابهها ، إنها الحرب ! ، من الحوارى خرجت النسوة حاسرات ، مصفقات ، ضارعات ، شاكيات ، خرج جمع من هنا وجمع من هناك ، وأحجم قادة مراكز الشرطة عن اتخاذ قرار انتظاراً لما ستسفر عنه الأحوال ، ارتجفت صدور ، واينعت قلوب ، واختلف آخرون ، وفجأة خرج جند كثيف ، أعمارهم تدور حول العشرين ، يقودهم ضابط يرتدى رداء أسود غطيس ، حلة غريبة ، مليئة بالجيوب ، والطلقات ، يمر بمرحلة الزهو بنجمتى الرتبة التالية للتخرج، والمخايلة بالزى الغريب المستحدث ، أشهر خنجراً ، دفع عبد الناصر فى صدره ، وأومأ، فتدافع الجند ، اقتادوه فتفرق الخلق ، نزل صمت بغيض ، ثقيل ، فأينعت

الهموم ، وتدفقت مياه جديدة فى أنهار البلوى ..

ترتيل

﴿ وشروه بثمن بخس ، دراهم معدودة ، وكانوا فيه من الزاهدين ﴾ .
﴿ والله غالب على أمره ، ولكن أكثر الناس لايعلمون ﴾ .
صدق الله العظيم

تجلى الكدد

رأيت محمد أحمد بن إياس الحنفى المصرى ، بدا مهيبا ، تفوح منه رائحة الريحان الذى ينمو فوق المقابر ، بالضبط كما تخيلته وأنا أقرأ بدائع الزهور فى وقائع الدهور ..

جئتك من قبل ..

قلت :

أذكر عودتك فى عام الهزيمة .. لكنك تركتنى .

قال :

ينأى الحكيم عن حميمه إذا أوحشت الدار ..

قلت :

القلب سليم ، والود بين جوانحى مقيم ..

سألنى ..

لكننى أراك مكدودا .

قلت :

مات أبى وأنا فى غربة ، لم أر اغماضة عينيه ، ولم أحمل جثمانه ، ولم

أشهد لحظة مواراته ، ولم أدر ، ولم أعرف ، ولن أدرك ماذا رأى فى اللحظات الختامية ، أو أى الصور أو الأطياف التى تجلت وتبدت له ..

قال :

هل لك علامة ؟.

قلت :

ثقل قلبى حتى موتى ..

قال :

يا حبيبى ، لا تحجبنك الحيرة عن الحيرة ، أنىّ للمقيد بمعرفة المطلق .

قلت :

زدنى يا خلى ..

قال :

تجلَّ وتجلّ ، ان النائم يرى مالايراه اليقظان ! !.

ثم ذهب ..

تجلٍّ مغربى

.. تجليت لنفسى وأنا على سفر ، أقف فوق رصيف قطار ، أدخل إلى القطار ، أرى أبى فوق الرصيف ، إنه أكبر سنا من أى مرة تجلى لى فيها ، غائر العينين ، تلك النقطة من العمر عندما يمتزج سواد العين ببياضها ، انحنى ، امسك طرف جلبابه بأسنانه ، يحمل عدة حقائب ، كلها مليئة بالكتب ، صحت ..

أبى .. هل سأحتاج هذه الكتب كلها ..

أومأ ، قرأت شفتيه .

أنت على سفر طويل .

ثم تلفت حوله ، بدا حمله ثقيلا ، والحمل يخصنى ، فتعجبت ، ثم تحرك القطار ، بعدت ، ولم أعد قريبا منه ، ازداد النأى ، وبدأ زمن الفراق والفقد من قبل أن أعد له العدة ، حلت ظلمات ، ثم تجلى أبى داخل قصر قديم منمنم الجدران ، فيه نخل وصبار وريحان وزهور صفراء لم نعهدها ، قصر لأحد أقاربه ، أحد أعمامى ، من أين عرفت ؟. لا أدرى .

حال بينى وبينه الحاجز اللامرئى، حوله بساط من سندس أخضر، وفى السماء ألوان لا أسماء لها فى لغات دنيانا ، أخبرنى أن المكاشفة لم تتم بيننا فى دنياه ، رحل وأمور عديدة لا نعرفها عنه ، قلت ، اضرب لى مثلا ، فقال : كان لى أخوان ، مات أكبرهما فى طفولته ، لسبب لا نعرفه ، ومات الآخر فى بداية فتوته عندما كان يسحب بقرة ، جرجرته فجأة ، سحلته ، قلت ، أنت لم تقص علينا ذلك . قال ، وانتم لم تهتموا ، ولم تسألونى ، ثم قال ، دقق النظر هناك تستطيع أن تراهما ، ولكننى عبثا حاولت أن أرى ، عبثا حاولت أن أسمع ، انتبهت إلى تزايد المسافة بيننا ، واحتويت القصر الذى يحتوينى ، كان القصر مغربيا ، والمنمنمات اندلسية ، ولىّ بوجهه عنى ، قال كمن يحدث آخرين ، كنت أباكم ، وأنتم أبنائى ، شببتم ، وأصبحتم رجالاً ، وفتحتم بيوتاً ، ولم تعرفوا شيئاً عنى .

شرح

فما للإنسان يتجاهل ويعمى ، ويمشى فى دجنة ظلها ، حيث لا ظل ولا ماء ؟.

تجلى الأرض والزمان المتغير

.. تلك رقعة محدودة ، عند المفارق ، وآه من المفارق ، فى طريق اليومى الذى اعتدت أن أسلكه ، وطئتها أقدام لم أرها ، وستخطو فوقها أقدام لاتزال فى رحم الغيب ، كانت رمالا وصخرا ومن قبل لهبا ، والآن مرصوفة بالأسفلت ، وبعد بناء مدينتى أصبحت مروية ، نضرة بالخضرة ، ملاعب للخيل ، ثم صارت متنزها حتى أوائل القرن الماضى ، نما العمران ، وتكاثرت المبانى ، وجاء الترام ، لكن طال الوقت أو قصر ، لن تنتصب المبانى إلى أبد ، ولن تبقى المفارق ، ستعلو مبان وقد لا تشيد أخرى وربما انطلق منها الإنسان يوما إلى الفضاء الخارجى ، يلاحق الأفلاك فى مساراتها ، ربما داسها أبى مرارا فى سعيه اليومى ، وقد يدوسها أحد أبنائى ، أو واحد من أحفاد أحفادى ، إنسان منحدر من صلبى لن يسمع عنى ، ولن يدرك أبدا ما عانيت فى زمن السوء ، لأن اسمى سيتساقط كورقة جافة من شجرة الأصل والسلالة ، كما تساقط الذين سبقونى من أجداد جدودى ، آه لو تجلى لى أحدهم ، عاش منذ آلاف الأعوام ، من هو؟ كيف عاش؟ بمن ارتبط؟ اصغى إلى من يقول ، وان عدتم عدنا ، أدرك ان العودة محال ، لأن الدنيا فى فراق دائم عن الدنيا ، أبصر رقعة الأرض فى سفرها عبر الزمن الذى لن أعيشه ، أرى تدفق الحركة فوقها بعد فراق النهالى ، وأتمنى لو أثبت رسالة أو علامة فوقها لمن سيطؤها ، لمن سيعبرها ، لعل وعسى ..

تجلٍّ غامض

رأيت عبد الناصر ، مكشوفا ، حاسرا ، مبهدلا ، أقبلت عليه وعندما تكلم ، تكلم بصوت أبى .

قال لى : نعم ..

قلت له : نعم ..

فبش وهش لفهمى عنه ، وعندما أدركت سر فرحه ، قلت له : لا ..

فارتجف ، وتغير لونه ، وشك فيما عنده .

قال لى : كيف وجدتم الأمر؟.

قلت له : سوء ما بعده سوء .

ضُرب بينى وبينه حجاب رقيق .

قلتُ له : لماذا ؟ .

غمغم ، وتمتم ولم يحر جوابا .

قلت له : لماذا ؟ لماذا ؟.

شغل بنفسه عنى ، فقلت عاتباً : لماذا ، لماذا ، لماذا ؟.

تجلى الحزن

« .. هذا فراق بينى وبينك » :

تجلى الشهيد

رأيت نفسى فى مركب بلا شراع ، تطلعت إلى موج البحر ، فجأة رأيت شخصا على بعد ، مشى على وجه الماء ، لمحت طريقة خطو أبى ، تكلم فأصغيت إلى صوت صاحبى الذى استشهد يوم الجمعة ، التاسع عشر من أكتوبر ، فى الحرب التى قيل إنها آخر الحروب ، عجبت واضطربت فارتج علىّ ، الجسد لأبى ، انحناءة كتفيه لا أخطئها أبداً ، أما الصوت فلصاحبى الذى عرفته ، واحتميت معه بظلام الليل خلف الكثبان ، عندما عبرنا الخليج

والقناة إلى خطوط الأعداء ، قال ، أنا غاضب ، قلت له ، لماذا يا مقتول بشظايا العدو الذى أصبح صديقا ؟ قال ، لأنك لاتطل على امرأتى وعيالى ، ثم اختفى ، رأيت نفسى ماضيا لزيارة أسرة صديق الشهيد ، دخلت البيت بعد غيبة سبع سنوات ، شممت رائحة استقرار ، طبيخ متقن وأثاث فى الظل ومبيدات حشرية وعطر ، تقدمتنى زوجته ، بدا وجهها متوردا ، رأيت حول الجفنين ظلال المساحيق بدلا من العتامة التى أحاطتها عقب رحيله الأبدى ، لاحظت خلو الجدار المواجه من الشهادات وبراءات الأوسمة والنياشين ، جاءت الابنة ، أصبحت عروسا شهية ، ترتدى الجينز ، وزهرة صناعية تتوسط شعرها الناعم . اتصل الحديث ، فدار حول نظام المواعيد الجديدة ، وازدحام النوادى بالأعضاء ، واختفاء مساحيق الغسيل المحلية ، وظهور المساحيق الأجنبية ، وخلو الصحف من الأخبار المثيرة ، وظهور مكاتب المستثمرين الأجانب فى الضاحية لاكتظاظ وسط المدينة ، وارتفاع أسعار الإيجارات ، وتعطل التيار الكهربائى أحياناً . قمت وسلمت وانصرفت ، مشيت بين الناس غير مصغ ، كأننى أدرك فراق صديق الأبدى أول مرة . لم يأتيا على ذكر الكتاب الذى أصدرته عنه ، وأرسلته إليهما، رأيت خلو الدنيا منه ، خلال السنوات السبع التى خلت تجلى لى مرات ، أحييت ذكراه بينى وبين نفسى ، وعندما أصبح العدو صديقا ، وتبدلت الأحوال ورفرفت الأعلام التى طالما نكسناها، تخيلت ردود أفعاله، وصار عزائى أن انفعالاتى ترديد لانفعالاته ، مشيت ، مشيت ، وتجلى لى الماضى القريب ، تجلى صاحبى فى ثيابه القتالية ، اختراقه خطوط العدو الليلية ، مخاطراته ، مفاجآته ، رأيته مقتحما ، ورأيته منسحبا ، لكن غيرى لم يروه ، ولم يلمحوه ، ولم يذكروه ، وأصغيت بقلب تكأكأت عليه الكروب ، وتعاظمت به النوب ، قلب أصبح

مدحوض الحجة ، وخفت أن يتجلى لى ثانية فأنبثه بما لايسره ، فتمنيت الفراق .

شــرح

﴿ .. وجعلنا من بين أيديهم سدا ، ومن خلفهم سدا ، فأغشيناهم ، فهم لا يبصرون ، وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم ، لايؤمنون .. ﴾ .

وَمنها

التجليات الديوانية

بحر البداية

.. لما فهمت ما فهمت ، وعرفت ما عرفت ، وصرت إلى ما صرت إليه ، لما أدركت أن العين تبصر ، والتناول شاسع ، لما أيقنت أن أنفاس الإنسان عزيزة وان النفس الذى يخرج لا يعود ، وانه لا ينبغى أن يصرف إلا فى الأنفس والأعز ، لما ايقنت أن ما فات لن يرجع ، وإن كل شىء يتغير ، وفرق عظيم أن يقرأ الإنسان ذلك . وان يعيشه ويكتوى به ، لما أطلت التأمل والنظر فى الحول ، والعصر ، والدهر ، والثوانى ، والدقائق ، والساعات ، والأيام والأسابيع والشهور والفصول والسنين ، لما تغيرت الأحوال المحدقة بى ، رحل أبى ، وأولج قاتلى قدميه فى موطنى ، ووطئ الأرض التى أول ما لامسها رأسى . ومد ظلاله داخل بيتى ، وهدد بالدنس عشى ، لما ساءت الأحوال ، واكفهر العمر ، لما انحسر ظل أبى ، لما ولما ولما .. لم أنكص على عقبى ، قاومت وهنى ، وغالبت عظيم همى بعد نأى لذاتى ، تأججت ويا للعجب رغباتى ، فعقدت العزم على أن أرى ما لم يره بشر ، وأن أعيش ما لم يخطر على قلب إنسان ، أن انجلى ، وأتجلى ، ثم أتجلى ، وضعت نصيحة شيخى ابن إياس كحلقة فى أذنى ، عندما قال لى : تجلَّ وتجلَّ ، ان النائم يرى ما لا يراه اليقظان ، وهكذا سعيت وسعيت حتى جئت إلى بحر البداية .

وقفت عند شاطئ ، اصغيت لعلى أسمع ، حدقت لعلى أرى ، أرهفت

. لعلى أشعر ، طال انتظارى ، طال وقوفى ، حتى كدت أنثنى ، كدت أرجع ، وفجأة أتانى الهاتف ، صاح باسمى .

ياجمال ..

.. عند اللحظة التى يتقرر فيها الفجر وليال عشر، خفق قلبى فى صدرى خفقة كاد ينخلع منها ، هلعت ، ولم ألم نفسى ، إن الإنسان كان هلوعا ، خاصة إذا جاءه الهاتف الذى لا يأتى إلا فى اللحظات الجسام لينبئ بالجلل من الأمور ، أو لينذر بأمر عظيم ، لكنه لا يبوح ، لا يفصح ، بعد أن تماسكت ، ولملمت نفسى ، وهدأت روحى ، جاءنى صوت عجيب ، غريب ، مجهول المصدر ، فكأنه صادر من الجهات الأربع الأصلية .

ماذا تبغى ؟ .

لم يتلجلج لسانى برغم اضطرابى ، قلت ..

ياحسرة على مافات ، يعذبنى ما انقضى ، وما ينقضى .. أما من وسيلة ؟ .

ولماذا الآن ؟ .

قلت :

ماجرى هزنى ، اطلب الفرصة .. أريد أن أرى الماضى .. أن أرحل إلى المستقبل ..

قيل لى بحنو :

ولماذا الآن ؟

تتميم أول

قلت ، صباح اليوم التالى لعودتى من سفرى سعيت إلى زيارة أبى الزيارة الأولى ، أبى الذى كان ، كان يمشى ، ويسعى ، ويحن ، ويروى ، ويتألم ويستفسر عما نريد ، ثم يحاول أن يلبى ، لم أكن أعرف مثواه ، لأننا فى المدينة لم نبن مأوانا الأبدى ، ليس عن تقصير ، أو غفلة ، إنما عن قلة حيلة ، وصعوبة أحوال ، صحبنى شقيق ، وجارنا ، هما من رأيا لحظة المواراة الأخيرة ، شهدا المعول يزيح الكومة أثر الكومة ، سلكنا الطريق الذى يحزم المدينة ، يمتد خارجها ويؤدى إلى مداخلها ، وعند نقطة محددة رأيت منعطفا على ناصيته حوانيت قديمة ، نجار ، والثانى لإصلاح إطارات العربات المعطوبة ، والثالث لبقال فقير ، والرابع لأدوات البياض والطلاء على مسافة قريبة توجد قمائن حرق الجير ، والخامس لبائع خبز ، والسادس مغلق ، والسابع بلا ملامح ، لم أدر محتواه ، ولجنا ممرا يغفل عن رؤيته العابرون ، ضيقاً مترباً ، مهجوراً . به يبدأ طريق تأبى المركبات دخوله ، حده الأيمن جدران صفراء ، صامتة ، تتخللها أبواب صدئة ، مغلقة ، فى كل لحظة ، بعد كل خطوة ، توقعت أن يتوقفا ، أن يشيرا إلى مدخل بعينه ، لكنهما استمرا ، وتبعتهما ، بعد مسيرة عشر دقائق حان الحين ، عرجنا إلى اليمين ، ثم إلى اليسار ، وقفنا عند مدخل فناء مفتوح ، أشار أخى إلى مساحة من الأرض ، مكشوفة بلا سور ، رمال غامقة ولا نبات ، لا صبار أو ريحان ، قال إن أقاربنا أصحاب المدفن شيدا عينين جديدتين ، لم يحددا مساحتهما بسور ، أبى أول الداخلين ، الراقدين ، دنوت ، تلوت ، بكيت ، ابتعدت ، رحلت وعدت . أحاطا بى ، قلت لنفسى ولم أقل لمخلوق .. أليس فى هذا

جور ؟ أليس فى ذلك قسوة ؟ هذا العمر ، تلك المعاناة الطويلة ، تلك الأيام والليالى ، هل تنتهى هنا وتصبح نسيا منسيا؟ هل يبهت أثره ويضيع خبره هنا ؟ ، هل سيكون كأن لم يكن ؟ أمعنت توغلت ، فطلبت المسعى ..

طرح

ولماذا . لماذا الآن ؟ .

تتميم ثان ..

قلت غير هياب أو وجل ، إننى عشت زمن الحرب ، واجهت الموت ، رأيت استقرار الشظايا بعد مروق . رأيت تفجر المبانى ، والآليات ، رأيت آلام الجراح لحظة الميلاد على الوجوه ، افزعنى مرور المقاتلات الاعتراضية والقاصفات الأرضية على ارتفاع منخفض حتى إننى لمحت ألوان خوذات الطيارين ، رأيت امرأة ، مازلت أذكر ملامحها ، وطول قامتها ، وسواد ثيابها ، وخضرة الوشم على ذقنها ، تعيش قرب الماء ، فى تلك الأيام كان للماء معنى ، الخط الفاصل بيننا وبينهم كان عند الضفتين ، كان للماء معنى ومغزى ، إذا ارتفع رأس أكثر مما قدر له نالته رصاصات القناصة ، كان الوصول إلى الماء مغامرة ، وبطولة ، وعملاً مرموقاً ، أما تزويد الجند المرابطين هناك بالمؤن فلا يقدر عليه إلا كل ذى قلب جسور ، فى المنطقة الزراعية عاشت أم ضيف الله مع أولادها الخمسة ، حفرت خندقا بيديها ، محاوراً للبيت المبنى من طين وعيدان بوص ، أسدلت على مدخله ستارة من قماش

أصفر ، لماذا ؟ حتى لا يجرحهم إنسان أثناء الحركة أو شن الغارات ، وتبادل القصف المدفعى ، هكذا قالت لى .

ولّى هذا كله ، محى ، غابت الصور ، كأن شيئاً لم يكن ، فهل يمحو الزمن الزمن ؟ ..

فصـل

قيل لى ، إن المطلب وعر ، والمبغىٰ عسير ، لكن طريقك ليس بمسدود ، عليك بالديوان ، قلت .. أى ديوان ؟ قيل لى ، لا تكن عجولا ، أمور كثيرة لا تعرفها ولو تكشفت لك الثمرات والنتائج ، بدون اعدادك للعدة لحل بك كرب عظيم ، اصبر ياجمال الصبر الجميلا ، من صبر وعمل نبت وأعطى ، تجلياتك وعرة طرقها لم يسلكها أحد ، اسع إلى الديوان الموكل بتدبير عالمنا المحدود ، اسع إلى رئيسة الديوان ، فإن فهمت فقد أدركت ، وأن أدركت فقد وفقت .. ثم لفنى صمت ..

من مدائن التجليات

بعد طول انتظارى لعل وعسى ، بعد هيهات ، قررت الخوض فى بحر البداية ، لم أخش الغرق ، ولم أرهب البلل ، أبحرت وطال ابحارى ، لقطع المسافات فى البحر زمن يخالف زمن البر ، فكيف الحال فى التجليات ، حيث تتجاور وتتضفر البدايات والنهايات ، لم أدر كم انقضى عندما تجلت لى مدينة يغمرها الضوء الهادئ ، يلفها البحر كما يلف البياض صفار البيضة ، أما

الضوء فليس بنهاري ، وليس بقمري ، وليس وليس .. عرفت وأنا أدنو من أبوابها أن الليل لا يلج النهار هنا ، وأن الأوقات لا تتغير كما عهدت ، إنما تتجاور متوالية ثم تكر كرتها ، تجلى لى بناء شاهق ينبثق من منتصفها لكننى لم أميز التفاصيل ، طفت بأسوارها الشاهقة والتى يعجز البصر الكليل عن رؤية نهاياتها ، بدا لى باب صغير تسبقه قنطرة صلبة من فيروز ، ولجته ، ذهل لبى ، وارتبك نبضى عندما رأيت مبانيها من أطياف ملونة حتى ليخطر للعقل المحدود أن يواصل المشى فيمكنه اختراقها ، لكنه يفاجأ بصد لطيف ، هين ، حازم، لم أستطع إلا المشى فوق الأرصفة البلّورية ، عند المفارق تتقابل اصداء الأضواء وظلال الألوان ، أما المناخ فسبتمبرى ، لا يتبدل ، لا يتغير، امتد الشهر الذى يبدأ فيه الخريف ، أصبح أزلاً ممدودا ، بدايات الخريف ، حيث لا تنطوى النفوس كما يحدث فى الشتاء ، إنما تتأهب لذلك ، بداية انحناء ، فلا بسط ولا انطواء ، لا حر ولا برد ، لا وضوح ساطع ولا قتامة مقبضة ، رأيت أسوارا قصيرة مبنية ، لبناتها من شعاع ، لبنة من ضوء ، ولبنة من ظلال ، ولبنة من شفق ، ولبنة من ألق ، أو هكذا خيل إلى ، فمداركى مقيدة بما عرفته وخبرته ، وما يلق فى صدرى وقلبى من معارف جديدة إنما يلقى بحسبان ، بعد الخطو خطوات عرفت أن المسافات تضيق ، لم أدر كم مر علىّ، كم انقضى ، لكننى لم أتردد ، لم أفكر فى النكوص ، قلت لنفسى إن الممكنات لا تتناهى ، فما بالى باللاممكنات ؟ بعد حين رأيت برجا مستديراً من ضوء أخضر، يتخلله باب مستطيل قمته دائرية ، موارب ، بعد اختلاس النظر لاح لى طريق من ظلال . لكننى لم أدن . توقفت . انتظرت . لم يطل وقوفى إذ نوديت ..

الصباح ..

.. نوديت من مكان خفي ، فتأدبت فى وقفتى ، وأطرقت . ماذا تريد ؟ .

قلت : اسعى إلى رئيسة الديوان ..

ماذا تريد ؟ .

قلت : همى كبير ، لكننى سأوجز ما أرجوه ، ان استعيد ما لا يمكن استعادته . قيل لى ، مطلبك عسير .. لكنك ما وصلت إلى هنا إلا بالمحاولة . اختفى الصوت ، خطوت عبر البرج ، كلّ بصرى عن احتمال البريق وتردد الأضواء والألوان التى لا اسم لها فى عالم الممكنات ، مشيت ، وبعد خطوات أدركت أن الموجودات كلها تتخاطب ..

فائدة

.. فى صحيح الأخبار ، ما من دابة إلا وهى مصيخة يوم الجمعة شفقا من الساعة ، وكان عليه السلام راكبا على بغلة فنفرت عند قبر لما سمعت عذاب صاحبه حتى كادت أن تلقيه ، وقال فى جبل أحد ، هذا جبل نحبه ويحبنا ، وسبح الحصى فى كفه ، وهذا حجر سلم عليه ، ولا تقوم الساعة حتى يحدث الرجل فخذه بما فعل أهله ، وقالت الجلود ، انطقنا الله الذى أنطق كل شىء ، وقد أخبر تعالى ان الظلال ومن فى السموات والأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس فما ترك شيئاً من العالم إلى درجة الإنسان إلا وقد أخبر عنه إنه يسجد لله ، قال : « وإن من شىء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم » .

تتميم

نوديت ..

ياجمال ..

فتوقفت . قيل لى ..

هل جاهدت ؟ .

قلت : حاولت ..

عبرت الميدان متئدا ، تخللت أشجاراً من ذكريات متداخلة ، وصورا متدلية ورغبات منسية ، وامنيات لم تتحقق ، أدركت اننى أوغلت وإن الرجوع محال ، لم يتبق لى إلا المضى ، أدركت ـ والإدراك يبرق فى فؤادى كما تباغتنا روائح الأيام الحلوة المولية ـ إننى قاب قوسين فتحملت غربتى وتأبي وتصبرت ، وهنا تجلى لى طريق ضيق أرصفته من مسك أبيض ، وجوانبه من عنبر مقرور أو هكذا شبه لى ، عند نهايته نوديت : هل طلبت العلم ؟ .

قلت : حاولت ..

نزل برد وسلام وسكون . فتجلى لى ما تحويه المبانى فى جملته وليس فى تفصيله ، ما من حركة فى الدنيا إلا ولها مقابل هنا ، ما من جماد أو نبات ، ما من ثابت أو متحرك إلا وله صورة ومثال ، ما من صوت إلا رجعه هنا ، حتى لحظة تماس الموجة بالموجة أدركت لكننى لم أر ، لكننى عرفت أن منازل المدينة مسكونة ، كل منزل اختص بشيء ، فمنزل للصدى ، ومنزل للصوت ، ومنزل للقلوب ، ومنزل للحجب ، منزل للزيادة ، ومنزل للنقص ، منزل للفقد ومنزل للجمع ، منزل للوجدان ، ومنزل لرفع الشكوك ، ومنزل للجود المخزون ، ومنزل للقهر والخسف والعسف ، ومنزل

للآيات الغريبة ، ومنزل للاستعداد والتأهب ، ومنزل للمباغتة ، ومنزل للسماح والمنع ، ومنزل للفصل ، ومنزل للإلهام ، ومنزل للحظات الوداع ، ومنزل للحظات الأخيرة لرؤية الأحبة ، ومنزل لعبور الجسور ، ومنزل للحنان ، ومنزل للرأفة ، ومنزل للشكر ، ومنزل لتعانق نظرات العشق ، ومنزل لتلامس الأيدى برقة ، ومنزل لتلاحم الأيدى بقوة ، منزل للشكر ، ومنزل للضر ، منزل لليأس ، منزل للنصر ، ومنزل للهزيمة ، منزل للربح ومنزل للخسارة ، منزل لمصادر الضوء ، ومنزل لتألق العيون ، ومنزل لارتجاف الجفون ، ومنزل لانفراج الشفاه ، ومنزل لمفارق الطرق ، ومنزل لمحطات المسافرين ، ومنزل للمودة ، ومنزل للستر ، ومنزل لرفع الضرر ، منزل للسعداء ، ومنزل للأشقياء ، منزل للغرباء ، ومنزل للتائهين ، منزل للجور ، ومنزل للعذاب المحسوس ، منزل للنسب ، منزل للأعراض والتمائم ، منزل للأوضاع ، منزل للكميات ، منزل للهواجس ، والأبصار ، ومنزل لخفقات القلوب ، منزل للميلاد ، ومنزل للموت ، منزل للجزء ، ومنزل للكل ، منزل لما كان ، ومنزل لما يكون ، ومنزل لما سيكون ، ومنزل لما لن يكون ، منزل يضم صور القارات ، ومنزل للمحيطات ، ومنزل للأنهار ، ومنزل للخلجان ، ومنزل للشعاب ، ومنزل للشم الرواسى ، ومنزل للوديان ، ومنزل للكهوف ، منزل للمدن التى كانت ، ومنزل للمدن التى ستكون ، منزل للقرى القابعة ، ومنزل للقرى المنبسطة ، منزل للنواصى المندثرة ، منزل للمداخل المؤدية ، منزل للضواحى ، والميادين التى قامت يوما وستقوم ، منزل للمنعطفات الضيقة ، والحارات ، والأبواب ، ودرجات السلالم ، ومنزل للأبواب التى يسكن خلفها الأحبة ، منزل للأقبية ، ومنزل للقباب ، ومنزل للأبراج ومنزل للقلاع ، ومنزل للمخابئ الحصينة ، ومنزل للمعابد ،

ومنزل للأركان الظليلة ، ومنزل للحدائق ، منزل للأمسيات ، منزل للأيدى الممسكة بالزهور ، منزل للقاءات الصدفة ، ومنزل لما لن يتكرر ، منازل لا ثبات لها ، ولا ثبات لأحد فيها ، أدركت المنازل كلها فى جملتها وليس فيما تحويه ، ولم أتوقف ، لم أسمع ، غير إننى فرحت واستبشرت ، نوديت .

ياجمال ..

قلت : نعم ..

قيل لى : هل أدركت ؟ .

فقلت : ياويلتا على ما فرطت ! !

وصــل ..

.. حل رضا ، غمرنى فسكنت ، عشت لحظات ما بعد سقوط المطر الرذاذى على الضواحى النائية المورقة بالخضرة ، ايقنت بقرب وصولى إلى بعض مما أسعى إليه ، عالمنا الأرضى ملخص ، موجز هنا ، البداية والنهاية ، لا ماضى بعيد ولا مستقبل نائى ، ما كان وسيكون فى تجاور ، ما لا كان وسيكون ، ما كان ولن يكون ، كل شىء فصل تفصيلا ، فجأة انجلى بصرى ، فرأيت الديوان ، لاح لى بعيدا لحظة اقترابى ، بدا شاهقا ليس كمثله شىء فى دنيانا ، ولما رأيته ، رأيته من الجهات الأربع الأصلية ، فكأنى انظر إليه بثمانية عيون ، ألممت بالتفاصيل فكأنى أراه من أعلى ومن أسفل ، لم ألق ما يسعفنى من حروف الكلام ، أقصد كلامى ، حاول ذهنى أن يشبهه بما يعرف فاستدعى مبانى النصب التذكارية ، لمن ماتوا فى الحروب ولم تعرف أسماؤهم أو عناوينهم ، واجهات المعابد الأسيوية المعقدة التراكيب ، مداخل الممرات الجبلية ، أدركت أن المركز هنا ، والمحور هنا ، لم ينادنى صوت ، لم

يروعني هاتف مفاجئ ، لم يرعبني لمس ، إنما خيل إلى أنني محمول ، وأنني أطفو فى فضاء غروبى بلا غمامات ، وتحتى قباب وأهلة وصلبان وأسنة ، قيل لى إن كل شيء هنا ، أيامك وأيام غيرك ، لكن شيئاً واحداً ـ إن جاز تسميته بشيء ـ لا يمكنك رؤيته مهما حاولت ، لن تدركه مهما جاهدت . لن تصل إلى كنهه مهما عانيت ، هجم على ولفنى أسى إنسانى كثيف ، وقبل أى بادرة استفسار منى نوديت .

يا من كان ، يا من تكون ، ولن تكون ..

اطرقت ، إذن .. سأقف بين يدى الطاهرة ، حامية النقاء ، ورئيسة الديوان ، والعضوين النورانيين .

شـرح

الديوان مركز الهيمنة على عالمنا الأرضى ، منه تتقرر الخطوط العامة للمصائر ، وتتحدد الاتجاهات الرئيسية ، وما ينقضى يصير إليه ، بدءاً من الحوادث الجسام حتى همسات طفل لم يخبر الدنيا بعد ، ينعقد مجلسه مساء كل سبت دنيوى ، مدته تبدأ بعد غروب شمسنا حتى شروق الفجر ، خلالها يتقرر ما سيكون فى سبعة أيام دنيوية مقبلة وتنظر المظالم ، وتتقرر العقوبات ، وينصف الحجر من فالقه ، لهذا يفزع المكلومون ، متوسلين برئيسته الطاهرة ، يهتفون : يا رئيسة الديوان ، ولا يضل نداء طريقه إليها مهما كان مصدره ومكانه ، وزمانه ، تصغى رئيسة الديوان ، السيدة زينب إلى أنين المخلوقات جميعها ، حتى أنين الشجر من لسع الرياح ، يساعدها عضوان ، عضو إلى يسارها ، سيد شباب أهل الجنة الحسين عليه السلام ، وإلى يمينها شقيقه الأكبر ، من مات مسموما ، طيب القلب والسيرة ، الحسن عليه السلام

الديـوان

.. ولجت كثيبا من العنبر الأبيض ، بهرنى ضوء ، سرى فى بصرى ظاهرا ، وسرى فى أعصابى باطنا ، سرى فى أجزاء بدنى ، وفى لطائف نفسى أصبحت عينا ، أصبحت سمعا ، فرأيت بكلى ، لم تقيدنى الجهات . فى الوسط تجلَّت لى رئيسة الديوان ملتحفة بوشاح من الندى الذى ينمو على حواف أوراق الزهر ، إلى يسارها الحسين ، إلى يمينها الحسن ، بين أيديهم ما يشبه اللفائف الكبار ، أخذنى البهت ، ثم الأشراق عندما رنت إلى رئيسة الديوان ..

ما وراءك يا جمال ؟ .

قلت :

وجود محدود ، ورغبة فى وجود غير محدود ..

قالت :

ما الذى دعاك إلى الخروج ؟ .

قلت :

حيرتى ، وألمى ، ورغبتى فى الولوج ..

وهنا التفت إلى سيد الشهداء ، صريع كربلاء ، فانشرح صدرى ، وتيسر مرى ، وتهلل قلبى ، وحشت نفسى عن الاندفاع إليه حشمة وتأدبا ورهبة .

قال لى : ماذا يؤرقك ؟ .

قلت : ما كان وما سيكون .

لم أتمالك نفسى ، فقلت مندفعا وما من حجاب بيننا ..

كان أبى يحبك ..

لم يكسفنى لاندفاعى .. أومأ ..

أعرف ذلك ..

قلت : أنت عبق حياتى الأول ، عشت بجوار مرقد رأسك آمن أيامى ..

أومأ : أعرف ذلك ..

قلت : كنا نصلى فى مسجدك العيدين ، وهناك رأينا عبد الناصر ومواكبه فى بدايات النهار ..

هز رأسه : أعرف ذلك ..

تشجعت فقلت : كان أبى ملازما لضريحك ، دائم الطواف حوله ، لم ينقطع عن صلاة به إلا لمرض أو سفر أو غم عظيم ، كان يستجير بك فى أيام الشدة ، وكان يقول لمن يرضى عنه إنه سيقرأ الفاتحة عند مقامك ..

قال : أعرف ذلك ..

قلت ولا مانع يردنى ، ظلالك تلف طفولتى وشبابى ، كان أبى يمسكنى بيد ، ويمسك أخى بيد ، ثم نمضى لزيارتك ، نخلع نعالنا ، ونلج ضريحك ، نقبل أعتابك ونخرج لنطوف بالشوارع القريبة ، باعة البخور ، السبح ، المناديل الملونة ، المصاحف ، كتب السير والملاحم ، واللبان ، والبخور ، الطواقى ، العنبر فى علب صغيرة من الصفيح حجمها يماثل عقلة الأصبع ، والعطور كنا نشرب الخروب ثم نتجه إلى المقهى القريب الملحق بفندق قديم ينزل به بعض أبناء بلدتنا ، كان أبى يزورهم ، يحكى لهم ويسمع منهم ..

قال سيد الشهداء برقة .

أعرف ذلك ..

قلت بحسرة .

تلك أيام ولت بلا رجعة ..

قال : كل شيء وله أوان ..

التفت إلى أخيه الأكبر ، قلت : من أهلة طفولتي تبدو لى لوحة مطبوعة ملونة ، بها الأخضر ، والأصفر ، والأحمر ، يتوسطها والدكما عليه السلام ، يلتحف بعباءة خضراء ، بين يديه سيف فى غمد ، فوقه كتب بلسان عربى « أسد الله الغالب ، على بن أبى طالب » ، إلى يساره يقف الحسين ، وإلى يمينه .. تقف أنت ..

هز الحسن رأسه ، بدا كأنه مغمض العينين ، انس قلبى ، رأيت الابتسامة ألطف من طلة الحبيب ، وأرق من الشعور بالأمن عند طفل ، ذهبت عنى الرجفة ، هدأت ، وفكرت فيما سأصير إليه ، تطلعت إلى رئيسة الديوان فتجلت لى محفوفة بظلال الندى الفجرى ، بهية سمحة ، شرحة ، مستفيضة ، دالة ، منجبة ، نجيبة .. قالت ..

ماذا يحيرك ؟ .

قلت : تبدل الأحوال ..

قالت : وماذا ؟ .

قلت : ما يبلى .. ما يزول ..

قالت : وماذا ؟ .

قلت : ما من يقين باق ..

قال : ثم ماذا ؟ .

قلت : عكوفى على الأمانى ، وانقضاء الأوقات قبل تحققها ..

قالت : ثم ماذا . ثم ماذا ؟ .

قلت : التحول ، والتغير ، والتبدل ، تحيرنى الأشياء فى تفرقها ، وتجمعها ، فى اختلافها ، واتفاقها ، الطاعة والعصيان ، الربح والخسران ،

العبد والحر ، الحياة والموت ، الوصول والفوت ، النهار والليل ، الاعتدال والميل ، البر والبحر ، الشفع ، الوتر ، الصحة ، المرض ، البداية ، النهاية ، الفرح ، الحزن ، الروح والشبح ، الأرض والسماء ، التركيب والتحليل ، الكثير والقليل ، الغذاء ، الأصيل ، البياض والسواد ، الرقاد والسهاد ، الظاهر والباطن ، المتحرك والساكن ، اليابس واللبن ..

توقفت ، كففت ، بعد صمت قالت رئيسة الديوان ..

لأنك حاولت ، لأنك جاهدت ، فسيتجلى لك بعض من بعض ، وليس كل فى كل ، لأنك محدود بوجود مقدر ، ولن يتسع ، ستتجلى لك لمع ، وأشارات ، سيصحبك من حين إلى حين سيد شباب أهل الجنة ، اصبر الصبر الجميل ، فلو مددت الكلام وحاولت السعى وراء الحقائق لكلت يمينك ولحفى القلم ، وضاقت القراطيس والألواح ..

مدت يدها ذات الندى والطل ، مستنى فأصبح البصر حديدا والتناول شاسعا ، قالت ..

ثمة أمر واحد ـ إن جاز تسميته بأمر ـ لن يتجلى لك أبدا ، لا تسأل عنه لأنك لن تحاط به علما مهما أوتيت ، ولن تنفذ إليه ، ولا تتعجل ، إن الإنسان كان عجولاً . قلت ..

قلبي مترع بالدهشة ، والحيرة ، والأمل ، فما من موضع لمزيد .

وَمنـهـا
تجـليـات الأسـفار

السفر الأول
سفر الميلاد

حقيقة ..

كل شيء فى سفر دائم .

بيان ..

طريق أبى فى الحياة غريب ، وطريقى فى طريق أبى غريب ..

اشارة ..

الدنيا منزل من منازل المسافر ، وانها لقنطرة على نهر عظيم جرار .. تعبر ..

التأهب

.. احتوانى صريع كربلاء ، سيد شباب أهل الجنة بعينين سمحتين وجبين وضاء ، ونظرات محب شفوق ، حتى إنى خجلت من التطلع إليه ، تلك رقة لم أعهدها ، وهذا حنان لم يسبغ علىّ مثله ، سررت ، وتبسمت ، وتبشبشت ونزل فى قلبى أمن وشوق ، أنست بعد وحشة ، وأصبحت كأنى فى جماعة

وحشد عظيم اقتربت فشممت له رائحة طيبة ، ونفسا عطريا ، سألنى أنا ..

إلى أين السفر؟.

قلت :

أتطول المسافات ؟.

قال :

الإنسان لا تسهل عليه صعوبات البداية ، إلا إذا عرف شرف الغاية ..

أمسكت بيده ذات الندى والطل .. قلت ..

انى مسلم إليك ذاتى ، لكننى تواق إلى لحظات الميلاد ..

فصل

كل شيء يدور ، تدور الأيام فى الأسابيع ، والأسابيع فى الشهور ، والشهور فى السنين ، والسنين فى الدهور ، نهار يكر على ليل ، وليل على نهار ، فلك يدور ، وخلق يدور ، حروف تدور ، ونعيم يدور ، صيف يدور ، وشتاء يدور ، وخريف ، وربيع يدور ، شقاء يعقب راحة ، وحزن بعد فرح ، وميلاد بعد موت ..

ريحانة من سفرنا الأول

تجلت لى قريتنا فى أقصى الصعيد ، تجلت فى الألوان ، الأصلية ، أما مصدر الضوء فخفى ، .ضوء فجرى ولا فجر ، حمرة شفقية ، ولا شفق ، لا حرارة ولا برودة ، إنما هى اللحظة المواتية ، مع أن اسم اليوم مفقود ، وموقع الشهر مجهول ، والسنة غير معروفة . يوم بعيد ، قصى ، مضموم على نفسه ،

غير متصل بغيره ، وصلت إليه بعد اقلاع ونأى ، تجلت لى البيوت مضمومة ، متساندة فوق مرتفع حتى تبتعد عن مياه النهر زمن الفيضان ، محاطة بنخيل كثيف ، وحقول ، وطرق مترية ، وسواق لم تدر بعد . وأشجار دوم ، وجميز ، وسنط ، وكافور عتيق ، وتين له رائحة عسلية تطغى عند المنحنيات . ألممت بالبيوت ، والبئر البحرية ، والجبانة القبلية . سريت فى القرية ، بصرى حديد ، وغطائى مرفوع ، وصدرى رحب ، سمعى ثاقب ، وقلبى نافذ ، وحواسى مرهفة ، عرفت أنه ما من أحد يمكنه رؤيتى أو الأصغاء إلىّ . وان الحوار ملغى بينى وبين من أرى ، شب فى جنبى فضول ، وعرفت أن اللحظة تدنو ، دخلت البيت ، رأيت ثلاث نساء يقفن ، يرتدين الملابس السوداء الداكنة ، إحداهن قصيرة ، نحيلة ، شعرها جعد ، على ذقنها وشم دائرى أخضر . تجلت لى جدتى ، ترقد بينهن ، وعلى وجهها ألم عظيم ، تبدو لى دماء ، أولى بنظرى بعيدا ، لكننى أعاود التحديق ، تقول المرأة القصيرة على فترات متقاربة إن الفرج وشيك ، وان الطلق تزايد ، وانه مبارك بإذن الله ، رأيت امرأة أخرى نحيلة ، طويلة ، تخرج من المندرة ، وتطلب من رجل يرتدى عمامة من اللباد يلف حولها شال من صوف بنى اللون ، أن يذكر الله حتى يجىء الفرج ، عرفت أنه والد أبى ، جدى . جدى الذى لن يذكر ملامحه أبى ، لأنه مات بعد عامين اثنين من ولادته ، شغلت حينا بملامحه ، وإلى أى حد تنتسب إلىّ ، أو انتسب إليها ؟ فوق مضطبة مجاورة للفرن يتمدد فتى فى السادسة وإلى جواره شقيقه الأصغر ، أعمامى الذين لم أعرفهم لأنى لم أرهم ، وحدثنى أبى عنهم لأول مرة بعد رحيله الأبدى وظهوره فى تجليات الفراق ، حاولت أن ألم بملامحهم ولكن عبثا حاولت ، مع اننى كنت أرى ما لايمكن لبشر أن يروه ، عجيب أن

أطيافا صغيرة ، وتفاصيل ضئيلة ، تغيب عنى ، انتقلت ببصرى إلى داخل المندرة ، ورأيت المرأة القصيرة ، لم أعرف اسمها ، تمسك أبى المولود لتوه ، تضربه ضربا هينا ، لينا ، على ردفيه وظهره ، جاءت الصرخة الأولى نحيلة موجزة ، تملكنى روع ، اقتربت أكثر ، تعجبت عندما مررت من خلال المرأة الثالثة البدينة الصامتة طوال الوقت ، لم أعرف اسمها أيضاً ، التفت إلى جانب قلبى الأيمن ، رأيت صريع كربلاء ، دليلى ، مولاى وصفيى ومرشدى . يغيب عنى إذا غبت عنه بفكرى ، ويبدو لى إذا ما فكرت فيه ، وإذا ورد على بالى ، وضمد خاطرى ، إذا لفتنى حيرة ، أو لفنى خوف ، هو قاب قوسين أو أدنى منى ، لا ينأى ولا يهجرنى ، يرفق بى ، ليس علىّ بضنين ، كنت وجلا ، مروعا ، مأخوذا حتى لا أقدر على البوح أو النطق . كنت كأنى أنا ، كأنى الفرع الذى خرج منه أصله ، كأنى الصدى الذى أحدث صوته ، كأنى الولد الذى أبوه ابنه ، كأنى القوس الذى اتصل بنصله ، كأنى الظل الذى أوجد مصدره ، ذهلت فانثنيت أجوس داخل روحى ، نبهنى حبيبى ، أومأ برأسه الطاهر الذى حُزّ من القفا يوما وتمتم بشفتيه النورانيتين اللتين لثمها أشرف الخلق ، وعبث بهما يزيد بن معاوية ، أومأ باتجاه أبى المولود ، حضنى على اطالة النظر إلى الحبيب المفقود فأمعنت . أبى عمره دقائق ، مغمض العينين ، منبعج الرأس ، تسرع المرأة القصيرة به إلى خارج المندرة ، ملفوف فى جلباب رجالى قديم ، تجىء به إلى والد والدى ، يرفع رأسه ، بوجه خلو من التعابير ، تجرى لحظة المواجهة الأولى ، يبدو جدى حريصا على ألا يظهر سرورا أو غما أو انشراحاً كأنه لو أظهر شيئاً من ذلك سيبدى ضعفا لا يليق بأشداء الرجال ، تشاغلت بالنظر إلى أبى ، رأيت شبها كبيرا بين وجهه وملامح أبيه ، كان مغلق العينين صامتا ، تقرص المرأة انفه

الدقيق برقة ، يصرخ أبي المولود ، وتلك صرخته الثانية ، يفتح عينيه مواجها الضوء للمرة الأولى ، يبتسم جدى ، يقول : «آه يا بن الفرطوس» .. وهنا ذهب ابي ، ولم أعرف اليوم ، والتاريخ ، والسنة ، مع أنى رأيت مارأيت ، وهذا عجيب !!.

اطـلالة

.. التفت إلىّ الرحيم بي ، فأومأ برأسه الجميل وكأنه أدرك ما فكرت فيه أشار إلى بقعة الأرض التى لامسها رأس أبي لحظة خروجه إلى الدنيا ، ذكرنى محبي وحبيبي بأن الموجودات كلها تتكلم فى أسفارى وتجلياتى ، الأصول تتحدث وتجيبنى ، وهنا سمعت ما لاعهد لى به ، مالا أقدر على وصفه لبشر ، ما تضيق به حروف الكلام من كل منطوق ولسان ، أقول وشجنى رقراق معتق ان تلك البقعة كلمتني ، وكان الكلام هامسا ، قالت إن أبي لامسها مرة واحدة ولم تتكرر ، لحظة ولادته ، العجيب انه قضى عدة سنوات فى هذا البيت ، لكنه لم يحب ولم يتمدد ، ولم يمش ، ولم يخط ، ولم يلعب ، لم يلامسها ، ولم يطأها ، وفى آخر زيارة إلى البلدة قبل رحيله الأبدى بشهر واحد ، جاء ، دخل كل البيوت ، سلم ، وتأمل ، واستعاد ، وتذكر ، صافح حتى النساء ، قضى ليلة فى البيت الذى ولد فيه ، بيت أبيه والذى آل إلى أحد أعمامه ظلما ، ـ هذا يطول شرحه ، وسيأتى تفصيله فى موضعه ـ . قضى ليلته فى الساحة الخارجية .

لم يطأنى ، ولم يجلس قربى ، ليس لأن البيت اتسع ، وأن مواضع الحجرات تبدلت ، وأن موضعى الآن صومعة قمح ، أبدا ، لم ينظر إلىّ حتى ، فارقنى ولم يعاودنى لحظة ميلاده .

سكتت بقعة الأرض ، أطلت النظر والتحديق ، كان السؤال يلق فى ذهنى ، وقبل أن ألفظه ألقى الجواب ، هكذا أجابتنى ، قالت إن والد والدى لم يطأها ، وان مرّ فوقها مرات لا تحصى ، لكن أما أن يسبق بقدميه أو يتأخر ، كذلك جدوده . لكن ثمة جد بعيد ، عاش فى الزمن القديم ، اتخذ منى مجلسا ، لم يفارقنى لمدة تسعين عاما ، لم يفارقنى إلا ليقضى حاجته فى موضع معين بين نخيل كثيف اندثرت شجيراته منذ زمن ، عندما جاءنى لأول مرة كان عمره يتجاوز المائة عام .

نظرت إلى جانبى الأيمن حيث دليلى ومرشدى الحسين ، لم يبد مانعا ، لم يظهر اعتراضا ، أومأ فوقع تجلى الفؤاد ، واستعدت الزمن المفقود ، فرأيت جدى ، بدا متين البنية فتيا ، لكنه إذا وقف ينحنى حتى ليلامس رأسه منتصف صدره ، يتمايل إذا خطا ، يقطب إذا نظر ، يرتجف إذا أشار ، يهمس إذا تكلم ، يرتدى الخرق السود . عرفت أنه سليم الحواس . حادها ، مرهفها ، وانه يرى فى الظلام ، ويسمع عن بعد فى ضجيج العاصفة ، سليم الأسنان ، حدثتنى بقعة الأرض فقالت إنها الأسنان التى تنبت بعد سن المائة ، وان ظهورها بدأ بعد عودته من طوافه ، تساءلت .. أى طواف هذا ؟. قالت بقعة الأرض إنها لا تقدر على اخبارى إلا بما جرى فوقها ، أو فى باطنها ، وإذا شئت فلأستقصى من مواطئ اقدامه ، لكننى لم أشأ مفارقة الموضع الذى لامسه أبى عند قدومه إلى الدنيا ، فطلبت الافضاء إلى بما تيسر ، حدثتنى بقعة الأرض فأوجزت وألمحت ، قالت إن جدى البعيد كانت له كرامات واشارات منذ ولادته ، هكذا تحدث بعض الذين جلسوا على مقربة ، قالوا إنه كان يحملق بعينيه ، دائماً فى السماء البعيدة ، وفى رمضان لم يكن يرضع إلا ليلا وفى لحظة مرض ألمت به رفعت أمه يديها إلى السماء ، طلبت له الشفاء فأجابها صوت خفى ، آمين ، وعندما شب لم

يرتكب معصية ، أو زلة ، وفى يوم شتوى غائم ، طرح أحدهم سؤالا عليه ، قال له .. النعامة .. أهى حيوان أم طير؟.. لم يجب . إنما أمعن الفكر ، ثم دار على الناحية كلها ، سأل ، استفسر ، لم يشف غليله ما سمعه ، قرر أن يرحل بحثا عن الاجابة ، اختفى من البلدة ، من الناحية ، لم يظهر له أثر ، ولم يسمع عنه خبر ، حتى عد مفقودا ، ونسيه ناسه ، ساح فى العالم لمدة مائة وعشرين سنة قبل رجوعه إلى الناحية ، ويلزم نفس البقعة التى لامسها رأس أبى ، قضى مائة وعشرين سنة فى نفس الموضع يغزل الصوف ، يمر به الناس فيبتعدون ، أو يومئون ، أما الصبية فيتصايحون ويتساءلون عن هويته عن اسمه ، ومنهم احفاد احفاده . لايعرفهم ولا يعرفونه ، بعضهم يرميه بالحصى ، ونوى البلح فلا يبذل جهدا لدفع الأذى عن نفسه ، فى آخر أيامه قبل أن يختفى نهائياً جاءه رجل مديد القامة ، أبيض الشارب واللحية ، أزهر الثياب ، أنور الجبين ، سأل جدى ، هل عثر على إجابة لسؤاله ؟ هز رأسه من اليمين إلى الشمال ، واختفى لحظة نزول الغسق . وهنا صمتت بقعة الأرض ، وتلاشى التجلى ، سألت ملهوفا ، ما اسم جدى ؟ فلم أتلق إجابة ، ولم يسعفنى حبيبى ، رأيت تغير ذرات التراب ، وتوالى الأيام ، وتعاقب الليالى ، ونزول المطر الشحيح ، ولسع الرياح ، وانطواء الحر ، والبرد ، تقول بقعة الأرض لم يمسنى بشر ، ولم أكن موطئا لإنسان إلا لجدك القصى ورأس أبيك عند مولده ، مع ان موضعى معمور .. قلت وعندى أمل فى وصل الحوار ، والتلقى ، ما اسم جدى البعيد ... ما اسم اليوم الذى ولد فيه أبى ؟ رأيت أبى المولود يرضع الرضعة الأولى ، وأمه تسند رأسه الصغير ، وفمه يحاول الالتصاق بالثدى المنتفخ باللبن . رأيته نائما . رأيته يحرك ذراعيه ، وقدميه ، رأيته يحملق تجاهى ، ينظر إلى مكان وقوفى ، وكنت أتراجع على مهل ، وصوتى داخلى

ملموم . مضموم ، فلا همس ، ولا بوح ...

زمـزمة

إذا ما تجلى لى فكلى نواظر
وان هو ناجانى فكلى مسامع

وصـــل

تجليت برفقة حبيبي إلى يوم الأربعاء ، التاسع من مايو ، سنة خمس وأربعين ، وتسعمائة ، وألف ، تجلت لى أمى متعبة ، مستسلمة ، ورأيت نفسى مولودا فى نفس اللحظة التى ولد فيها أبى ، لم أدر ما بداخلى ولم أحط بكنه معارفى ، وما يدركه حسى . سمعت جدتى تقول لأمى « مبروك .... جاءك ولد » تفتح أمى عينيها ، تتطلع إلىّ ، يحملونى إليها لترانى ، اقتربت لأرى نفسى ، رأسى منبعج ، جسدى مزرق ، يشبه وجهى ملامح أبى لحظة ولادته ، لكن ما من شبه يجمعنى بجدى البعيد ، تقول جدتى ، ماذا تسميه ؟ تقول أمى بإعياء الوالدة التى جاءت إلى الدنيا بمخلوق جديد ، « لن نسميه قبل أن ترسلوا إلى أبيه فى مصر... » ، الوقت فجرى ، والليل يتشقق ، وريح عاصفة تهز الباب الذى يسنده خالى بظهره ، وعيدان البوص الجافة توشك أن تتطاير ، طقس عنيف فى غير أوانه ، تنظر جدتى إلى امرأة اسمها « الدودة » ، رأيتها مرارا فى سنينى الأولى ، زوجها خفير نظامى ، كنت أجلس إليها أمام الفرن وهى تدفع بأقراص العجين عبر فوهته ، وتلقى بالبوص ، والجلة ، والوقيد ، وتحكى لى الحواديت ، امرأة طيبة وكنت أحبها ، ماتت منذ سنوات لم أدر مقدارها مع انقطاعى عن البلدة ، وقلة زياراتى ، وابتعادى ، نسيت ملامحها ، تاهت فى مجاهل طفولتى ، لم أرها إلا فى هذا التجلى بصحبة سيد شباب أهل الجنة ،

تبدو لى أكثر شباباً ، وامتلاء ، هى أول من امسكنى ، وأول من نظر إلىّ قبل أمى ، وقبل أبى ، وقبل جدتى ، أول من ضربنى لتنبعث منى الصرخة الأولى ، رأيت دماء تغطى كومة حشائش خضراء فرشوها تحت أمى ، أول ما لامست ، تقول جدتى ، ادهبى يا دودة إلى ولد حميد ، وخليه يكتب خطاباً إلى أحمد فى مصر ، أطيل النظر إلى جسدّى المولود ، الدقيق الأطراف ، المحدود ، رأيتنى مغمض العينين ، ولا أقوى على مواجهة الضوء ، تعجبت ، وقلت : أهذا أنا ؟ يهز حبيبى الحسين رأسه ، يومئ ، يقول : أنت فى دهشة ، لكنها ليست صورتك الأولى . لسبب خفى ، غمض علىّ ، انتابنى حزن دنيوى خفيف ، فيه لطف ، وشفقة ، وكأن صفيى ومولاى ادرك ما حل بى ، فانثنى يمسح بيده شعرى ، هدأت روحى ، وراق بالى ، وعدت أسافر عبر التجلى ، رأيت ولد حميد يكتب خطابا إلى أبى ، ورأيت الخطاب يصل ، وموظفاً لا أدرى اسمه يقرأ لأبى ، رأيت ارتباك أبى وسروره واختلاجات روحه وارتعاشات ملامحه ، لم أطل النظر ، إذ ألقى سيد الشهداء بطمأنينة محورها اننى سأراه كثيراً فيما بعد ، وسأتملى منه ، رأيت حيرة أبى عندما لايهتدى إلى الطريق الأمثل للتعبير عن انفعالاته ، وعز علىّ أن أراه مرتبكا فناديته ــ خطوات تجاهه ، لكن سيد الشهداء حاشنى برقة ، وحزم ، ما من فائدة ترجى ، الاتصال مقطوع ، الولوج محال ، قلت يا أسفى ، ورأيت أبى يملى خطابا على شخص لا أعرفه ، ويطلب من أمى ، ومن خالى ، ومن جدتى ، أن يسمونى بعبد الرءوف . رأيت أمى تحتضننى ، ورأيت جدتى تتلو التعاويذ ، تمسك بعروس ورقية تثقب مكان العينين بإبرة ، ثقوبا متتالية ، كل وخزة فى عينى إحدى النسوة الحاسدات ، رأيت نفسى أتقيأ ، وكنت ضامرا ، نحيلا ، ارتجف ، وتلفنى رعشة ، اخذنى قلق واشفقت ان يحل بى مكروه ، انتهيت إلى ابتسامة شفيعى ، فأدركت اننى أعيش ، وتعجبت ، كيف أخاف على هذا المولود الذى هو أنا وأنا هو أن

يمت ، رأيت أمي تبكي ، وأدركت أنها تذكر ولديها اللذين رحلا قبل مجيئي ، رأيتها تخشى الفقد والثكل ، هممت أن اطمئنها ، أن أقول لها انني سأعيش ، كدت أنطق ، ثم تذكرت فصمت ، تذكرت قول حبيبي فى الديوان ، لكل شيء زمان ، تقول أمي : « اكتبوا إلى أحمد ليختار اسما غير اسم عبد الرءوف ، لو استمر يحمل هذا الاسم فلن يعيش .. » ، تطمئنها جدتى ، لكنها تصر ، هكذا أنبأتها الرؤيا ، لم تشأ الافصاح ، لكن الولد سيضيع منها ، « اكتبوا إلى أبيه » ، رأيت أبي يتسلم الخطاب الثانى ، ثم يصغى إلى سطوره ، ورأيته يملى الرد ، ويطلب منهم أن يسمونى جمال ، لم يفكر طويلا ، إنما ورد الاسم على خاطره ، ورأيت الشخص الذى أراد أبي أن يطلق اسمه علىّ ، شاب من أقاربه الأقربين ، طويل ، ممتلئ ، يسكن بيتا قريبا من النيل ، ويدرس فى كلية الحقوق ، مات بعد ولادتى بسبعة شهور ، رأيت أبي يبكيه ، ويذكرنى لحظة مواراته التراب ، ويعود من القرافة إلى الحسين ، ويشترى لى جلبابا ، وطاقية ، ورطلاً من الحلوى ، ويرسلها إلى البلدة مع مسافر ضرير ، رأيت أمي راضية هادئة البال ، تهدهدنى ، تغنى لى : « نام نام وأنا أذبح لك جوزين حمام » ، كنت ملفوفا فى خرق سود ، لم أستطع أن أرى وجهى ، أو ملامحى ولم أعرف ما بى ، وان خمنت اننى اعانى ضيقا ما ، ولم أعرف ابن كم شهر أنا ، ثم شغلت عن رؤيتى لنفسى بالاستفسار عن النساء الثلاث اللواتى حضرن ميلاد أبي ، وعرفت انهن رحلن منذ زمن بعيد ، وان أمي لاتذكرهن ، لا تعرفهن ، وشغلت بالمسافة الفاصلة بين بقعة الأرض التى لامسها رأس أبي ، والبقعة التى لامسها رأسى ، وكانت مفروشة بالنبات الأخضر ، فكانت سبعين ذراعا قديما ، تصمت أمي ، أدرك اننى نمت ، تميل علىّ ، تقبلنى ، فيعاودنى حزن فى وقفتى ، لكنه حزن غتيت ، يكاد يعصف بى ، تطرق رأسى ، أخطو تجاه سيد الشهداء مبتعدا عن أمي التى تحملنى نائما وعلى ملامحها استسلام أمره

عجب ، يربت حبيبى رأسى ، فيزداد شجنى ، ويحق لى التأسى ...

حقيقة ..

« .. لم ير أبى لحظة ميلادى ، ولم أر لحظة غيابه الأبدى ، وما بين القوسين سر غربتنا .. » .

تجلى السفر ..

.. لا نزال فى سفر دائم منذ نشاة أصولنا ، إلى ما لانهاية له ، إذا لاح لك منزل تقول فيه ، هذا هو الهدف والغاية ، ثم تنفتح عليك منه دروب وطرائق أخرى ، ما من منزل تشرف عليه إلا وتقول ، هو نهاية المقصد ، وإذا دخلته لا تلبث أن تخرج منه راحلاً ، كم سافرت فى أطوار المخلوقات إلى أن تكونت دما فى أبيك وأمك ثم اجتمعا من أجلك عن قصد لظهورك أو غير قصد ، فانتقلت منيا ، ثم انتقلت من تلك الصورة علقة ، إلى مضغة ، إلى عظم ، ثم كسى العظم لحما ، ثم أنشئت نشأة أخرى ، ثم أخرجت إلى الدنيا فانتقلت إلى الطفولة ، ومن الطفولة إلى الصبا ، ومن الصبا إلى الشباب ، ومن الشباب إلى الفتوة ، ومن الفتوة إلى الكهولة ، ومن الكهولة إلى الشيخوخة ، ومن الشيخوخة إلى الهرم ، ومن الهرم إلى البرزخ ، فما ثمة سكون اصلا ، بل الحركة دائمة فى الدنيا ليلا ونهارا ...

وصل السفر ..

.. كأن استاذى ، وشاهد أيامى ، أدرك ما بى ، وما جال بخاطرى ، وما راودنى ، فتوقفنا فى الصالة العلوية لمستشفى دار الشفا بالعباسية ، أعرف اليوم

واللحظة ، ليست عنى بقصية ، الطابق رابع ومخصص بأكمله للولادة ، رأيت نفسى ارتدى حلة رمادية ولى من العمر واحد وثلاثون عاما وستة شهور وتسعة أيام وأربع ساعات ونصف ، اقف فى الممر المبلط ، لا يصلنا أى صوت من داخل الغرفة المعزولة ، يقف والد زوجتى صامتا ، كذا شقيقها ، ولم يكن أبى حاضرا ، كأن الزمن تقدم به ، ومنذ حول مضى فى الدنيا غريبا ، أو مضينا نحن عنه فى الدنيا غرباء ، ومع أن هذا لا يصح ، ولا يجوز ، لكنه أمر وقع ، ولا حيلة لى الآن إلا أن أهيم ، أتألم وأسعى ، أتجلى وأسافر وأعرف الغربة وأعانى لياليها الدوامس ، وأغرق فى بحورها الطوامس أعانى ثقل الشوق الذى لافائدة ترجى منه ، ويأسرنى الفقد الذى لا راد له ، وأذوق مر الفراق الذى لالقاء بعده ، والنأى الذى لا وصول يليه أو ينهيه ، واتحسر على ما انقضى وما فاتنى بلا فائدة ترجى ، لو عرفت ما عرفت لسمعت وما تكاسلت وما توانيت ، ولما ارتكبت ما ارتكبت ، لكن أنى لى بمعرفة المصير ، كنت جهولا ، عجولا ، خلق الإنسان من عجل ، لم يتبق لى فى الأزمان المغبرة إلا أن أتجلى ، وأسعى ، وألوذ بشفاعة حبيبى ، لعله يرضى ، لعله يخفف ، لعله ينجينى ، رأيت الباب يفتح والطبيب يخرج ، يبدو هادئا ، ينتحى بى ركنا ، يقول إن الولادة طبيعية ، وأنه اضطر إلى اجراء جراحة بسيطة لن تترك أى أثر بالمرة . يقول متداركا ، مبروك جاءك ولد ، ثم يقول الأتعاب ثمانون جنيها ، وعشرون أجرة تخدير ، رأيت يدى تمتد بالمظروف الذى يحوى النقود ، يقول شكرا ، ثم يمضى ، تمر دقائق قبل خروج الممرضة البيضاء تحتضن إلى صدرها لفافة ، تتوقف أمامى ، تطلب من شقيق زوجتى أن يغلق النافذة ، الهواء بارد ، تزيح طرف اللفافة ، أرى عينى تحدقان إلى ابنى المولود ، مستطيل الرأس ، مغمض العينين ، رأيت لحظة

المواجهة بيني وبين ابني ، راعني أنه يشبه ابي شبها شديدا حتى لكأنه نموذج مصغر لوجهه ، كان مغمض العينين ، تمسك الممرضة انفه ، يصرخ مرتين متعاقبتين ، تغطي وجهه ، تقف منتظرة ، رأيت يدى تمتد بالحلاوة ، خمسة جنيهات ، تمضى إلى غرفة المواليد الجدد ، اليوم خميس ، التاسع من ديسمبر عام ستة وسبعين وتسعمائة وألف، مابين مجىء ابنى إلى الدنيا وبين ميلاد شفيعى ودليلى الحسين ، اثنان وتسعون وثلاثمائة وألف سنة هجرية ، وما بين مجيئه وميلاد جمال عبد الناصر ثمانية وخمسون سنة ميلادية . وما بين مجيئه وميلاد أبى مقدار لا أعلمه من السنين والشهور والأيام ، نظرت إلى محي وإمامي ، ابتسم برقة وحنو ، يهز رأسه وكأنه لافائدة من محاولتى ، هل كان أبوك يعرف مقدار عمره ؟ قلت لا ، هل حاول أحدكم معرفة ذلك ؟ قلت لا . قال ، كيف ستعرف ذلك الآن ولماذا ؟ ولم أتكلم لأننى لاحظت لوماً أو ما يشبه ذلك فى نبراته ، لهجة من يعرف ولا يريدنى أن أعرف ، تجلت لى لحظة ميلاد أبى ، ولحظة ميلادى ، ولحظة رؤية ابنى لأول مرة ، رأيت نفسى أوجد ثلاث مرات فى ثلاثة أماكن ، اتلقى ببصر واحد ، وأفهم بعقل واحد ، لم أشأ أن أثقل على صفيّى ، فسألت نفسى بنفسى ، هل تتشابه الملامح فى لحظات البداية ، ثم تختلف عندما يبدأ السفر ، ونفترق فى كل مرحلة ، فلا يتبقى إلا الشبه الخفى ، غير المرصود ، الذى لايعيه عقل ، حتى تتلاشى تماما مع أفول العمر وحلول الهرم ، لماذا لم أهدأ ، ولم يسعفنى مولاى ؟ وتردد داخلى : هذا من أسرار السفر ، أدركت أنه ما من موضع لإجابة ، رأيت نفسى لم أفارق الطابق الرابع ، الردهة خالية ، ولافتة صماء تطلب الصمت حرصا على راحة المرضى ، ورائحة مطهر طبى ، وسكون فى ضوء غسقى فخشعت ، وانتبهت إلى صوت غريب يحدثنى بلغتى ، نبراته

غريبة ، وإيقاعاته عجيبة ، أدركت صدوره من أحد الأحجار المصفوفة فى جدار الطابق الرابع ، يقول لى إنه قبل أن يؤخذ ، وتشذب حروفه ، قبل أن يضعوه فى هذا الجدار كان ملقى فى حقل قريب من المكان ، كانت المنطقة كلها حقولاً خضراء ، قبل أن تجتث وترصف بالأسفلت ، وتقوم المبانى ، وهنا تحولت الموجودات فرأيت الحجر ملقى على مقربة من سكة حديدية ، وأعمدة تلغراف ، وسماء منبسطة ، والوقت ليس بليل ، وليس بنهار ، ورأيت أبى قادما من أقصى المدينة يسعى . رأيته متعبا ، حواف جلبابه مثقلة بتراب ، بدا فتياً و[illegible] عمره ، ولا فى أى السنين هو ، وأن عرفت أنه بلا مأوى ، وأنه فى أيامه الأولى بالعاصمة ، وانه لم يعرف بعد شوارعها ، وانحاءها ، وحاراتها ، ودروبها ، وانه لكى ينتقل من مكان إلى مكان فلا بد أن يسأل ، وأن يستقصى ، وأن يستوثق ، وأن يبرز العناوين المكتوبة ، أدركت أنه يقصد أحد ابناء البلدة فى الضاحية القريبة ، وأن أمامه وقتاً طويلاً ، رأيته ينظر حوله ، رأيت حيرته ، حيرته الخاصة ، المنبعثة من ملامحه ، ومن شقائه ، ومن غُلْبه ، يتوقف فجأة أثناء سيره ويتلفت حوله كأنه يرجو العون من خفى لا يُرى ، يقول «آه يا بوى ..» . يتمدد ، يسند رأسه إلى الحجر ، بعد لحظة يضع ذراعه تحت رأسه .. ذات الحجر الذى حدثنى من موضعه فى جدار المستشفى الذى ولد فيه ابنى ، تجليت داخل التجلى ، سافرت خلال السفر ، ورحلت إلى الرحيل ، بينما الحجر يكرر برتابة : توسدنى أبوك ، توسدنى . نظرت إلى مخلصى ، بدا صامتا ، حتى اخشعنى صمته وأقعدنى سكونه ، وخطر لى ، كيف رأيت ما رأيت ، ولم أر لحظته هو ..

تنبيه ..

لاتـــطـــلـــبوا المولى الحسين بـــأرض شرق أو بـــغـــرب
ودعوا الجمـــيـــع وعـــرجوا نحوى فشـــهـــده بـــقـــلبى

السفر القصى ..

.. هذا سفر صعب ، وما فيه تلميح لا تصريح ، واشارة لا افصاح ، اليوم هو الخامس من شعبان ، السنة الرابعة للهجرة ، امرأة تحدثنى ، لا أعرفها ، تقول إن فاطمة الزهراء أولدته بعد حول من مولد أخيه الحسين ، فجاءها النبي ﷺ وقال : هاتى ابنى ، فدفعته إليه وهو ملفوف بخرقة بيضاء ، فاستبشر به ، واذن فى أذنه اليمنى ، وأقام فى اليسرى ، ثم وضعه فى حجره وبكى ، فقلت ، فداك أبي وأمى يا رسول الله مم بكاؤك ؟.

قال : أبكى لما يصيبه بعدى ...

أسفار الميلاد ..

.. لم أسأل ولم استفسر مع أن الخطوب كثيرة ، والمسائل عديدة بلا حصر ، لكننى خفت ان اضايقه ، أو أخالف له أمرا بدون قصد ، تبعته كظله عندما واصل السفر ، وبعد حين رأيت لحظة ميلاد زهرة من شقائق النعمان ، ورأيت لحظة انشقاق بيضة فى عش صقر يقبع فوق ذروة . ورأيت لحظة موت حوت معمر ، ورأيت لحظة بداية الغمام فى الأعالى ، ورأيت انفلاق حبة قمح ، ولحظة اخصاب نخلة ، رأيت ميلاد جمال عبد الناصر فى حجرة رمادية ببلدة صغيرة نائية ، ورأيت لحظة إخصاب بويضة داخل رحم

امرأة فى مدينة شهباء ، مبانيها بيضاء ، فى أقصى اقليم الشام ، رأيت النطفة ثم العلقة ثم الجنين فى أطوار ، ورأيت الأب يقول بعد الميلاد بدقائق ، سموها « لور » ، التفت إلى وليي ومرشدى متعجبا ، أجابنى باختصار سيكون لك شأن معها فى التجليات المستقبلية ، كدت اتعجب ، كيف سألقاها ، وهى من أقليم بعيد ، وما من فرصة بادية ، لكننى لم أسأل ، رأيت تكور واكتمال كوكب بعيد ، رأيت لحظة فناء نجم خارج المجرة ، رأيت النجم إذا هوى ، لحظة ميلاد البرق ، وتفجر الشرارة ، ورأيت جنين سنبلة ، ميلاد اللبن فى تلافيف الضرع ، رأيت ميلاد الندى ، ظهور الموجة لحظة اكتساب اللون لصفاته ، الأحمر للأحمر والأزرق للأزرق والأصفر للأصفر ، رأيت ميلاد فكرة ، مجىء معنى ، رأيت ميلاد الفراق ، واللقاء ، وارتجافة الفقد ، تدفقت الرؤى ، اغمضت عينى عندما توهجت التجليات ، لا عهد لى بذلك ، تمنيت الفرار من تلك الأسفار ، لكنه شد على يدى ، وانتظر فانتظرت ، حتى خف عنى ذلك الذى روعنى ، وعندئذ مسكت علىّ أنفاسى ، وعدت هادئا ، قريرا ، كأنى غريق بعد النجاة ، كأنى مولود لتوى ، ما طمأننى وقوفه إلى جوارى ، وشده لأزرى ، رأيته يملأ افق المبين ، ليس علىّ بضنين . خطر لى التماس الصفح الجميل لو اننى اخطأت بدون قصد . لكنه هدأنى ، فسلمت من الأذى ، استسلمت وتأدبت ، وسرحت فى كل ما رأيت .. وإذا به يقول بحنو : تجلد فأمامك أسفار طويلة ..

لطيفة شعرية ..

فقلت اخلائى هى الشمس ضوءها
قريب ولكن فى تناولها بعد

تجليات الأسفار

وَمنها

أسفار الغربة

حقيقة

إنى من الراحلين أبداً ، فليس لى استيطان أصلا ..

دمعة

يارب لم نبك من زمان
إلا بكينا على زمان

سفر الابدال

تجلى لى أبى طفلا يحبو ، ثم طفلا يلهو ، فى أى زمن ؟ ما موقع اليوم بين الأيام والسنه بين السنين ؟ هذا ما لم أعرفه وما لم أقف عليه ، لم يطلعنى شفيعى ومولاى ، قدرت تقديرا لكننى لم أستطع أن أحدد ، ابن ثلاثة ؟ أربعة ؟ ربما يدنو من الخامسة

فى هذه الأسفار أثناء مواجهة أبى وأحبابى وغير أحبابى سألقى أنواعا وأنواعاً ، فمواجهة من حيث انى أراه وأجرى من حيث إنه يرانى ، ومقابلة من حيث إنى أراه ويرانى ، مرة أأتنس به ، ومرة يأتنس بى ، ومرة نأتنس

معا ، ومرة يوحشني . رأيته مريضا ، أمه مهمومة ، تعلق إلى رقبته حجاباً مثلثاً ، ترجو شيخ المسجد أن يقرأ له ورداً وأدعية ، تطيل النظر إلى وجه أبي مخطوف اللون ، شاحب الرواء ، تخشى أن يكون الجن قد أبدلوه فى الليل عندما تركته وحيدا ، أبدلوه بطفل عليل من عندهم ، وأضفوا عليه ملامح أبي ، تجيئها الجدة نجمة التى تجاوزت المائة ، نبتت لها الأسنان الخضراء ، تزوجت من جنى مؤمن فى صباها ، لذلك لم تقترن بالرجال قط ، تنصحها بحمل أبي إلى الساقية المهجورة ، تضعه بجوار بئرها الجافة ، وعجلتها الخشبية المكسورة وأن تقف ضارعة ، متوسلة بأصحاب الكرامات وأرباب الطريق ، ترجوهم مساعدتها على استعادة طفلها الصحيح وأن يأخذوا ولدهم المعتل السقيم ، وإذا استحال ذلك فالعوض على الله العلى القدير ، وليأخذوا البديل ، تمضى جدتى ، بقلب دامع تترك أبي وحيدا . لا يعى هجره ، يضمده الليل والسكون ، تتردد حوله أصوات الليل الخلوى الغامض ، خفت على أبي أن يأكله الذئب أو يختطفه بعض السيارة من الغجر الرحل الذين يعبرون القرى وعيونهم على الأطفال وما خف حمله ، وقفت إلى جوار جسمه الضامر ، رجوت مولاى أن يؤنسنى ، فاستجاب لى ، قطعت الليل بطوله ، لكننى قرب الفجر والنجوم تتناقص فى السماء وملامح النخيل تتحدد ، اختلط الزمن علىّ ، وتداخلت الرؤى ، واشتد التجلى فرحلت إلى عدة أماكن فى وقت واحد ، نزلت مدنا متباعدة فى آن معا ، رحلت إلى الأزمان المختلفة ، فكنت أرى شوارع المدينة الواحدة عند بداية انشائها ، وأسمع ضجيج حركتها بعد قرن من زمانها ، صرير باب ، تشقق جدار ، خرير ماء ، وصياح إنسان ، ويعار الشاة ، وخوار البقر ، ونهيق الحمار ، ضجيج المواكب ، زئير الجموع فى أزمنة الاضطرابات ، رأيت الأوقات الخشنة ،

والفترات الآمنة ، تشعبت ، تفرقت . منى رحلت إلى جهات متعددة ، كأنى قسمت إلى عدة أشخاص ، يحركهم عقل واحد ، ويرون الموجودات بعينين اثنين ، ويتكلمون بلسان واحد ، استمر ذلك ، ثم تململت ، وتجمعت ، عدت بعد أن شردت ، كنت أعى ذهابى فى رجوعى ، وإيابى فى ذهابى ، أرى ما سافر منى يأوى إلىّ ، وما رحل منى يستقر عندى ، حتى تم اكتمالى ، فتحت عينى ، فإذا بالصبح ساطع ألق ، أبى ليس فى مكانه ، فزعت ، أخذتنى الرجفة ، وتملكتنى الهدة ، تجيء أمه من بيتها تسعى . رأت مكانه خاليا ، لطمت ، عاطت ، شقت ثيابها ، وعندما مالت لتهيل تراب الأرض فوق رأسها ظهر أبى ، خرج من بين أعواد الذرة ، بدا ضاحكا ، صحيحا ، موردا ، كأن لم يمسسه أذى ، ليس به مرض ، ذهبت عنه العلة ، ضاحت أمه تسأله ، أين كان ؟ ارتمت عليه ، تحسسته ، حملته ، هدأ قلبها ، وبردت نارها ، لم تفض إلى إنسان باستجابة الجن لها ، وإعادتهم طفلها الصحيح ، غير أنى لاحظت ما لم تلحظه هى ، رأيت تغير خطوه ، يمشى بميل إلى الأمام بينما يلوح ظل خفيف لعرج ، وهذا لم يكن به ، ورثناه عنه ، انتقل إلى ابنى ، وابنتى ، وأحفادى من بعدى ، ثم تجلى لى أبى فى فناء البيت ، تقعد أمه مفتوحة العينين ، لكنها لا ترى ، عمياء ، متى جرى ذلك ؟ لم أتلق جوابا ، يبدو أبى فى السادسة أو السابعة ، عرفت أنه يتيم ، وأنه لا يذكر ملامح أبيه الذى رحل فجأة تاركا أباه ابن ثلاثة أعوام وعدة شهور ، وهنا سافرت برجعة إلى ليلة نائية ، جدى شاحب ، متعب ، عاد بعد أن قطع مسافة طويلة مشيا ، لم أعرف الغرض من مشيه ، دخل والعتمة هادئة ، والنجوم بعيدة ، قام ثم قعد ، ابتعد ثم اقترب ، نظر إلى السماء القصية ، إلى نجوم ثلاثة تقع على خط مستقيم ، عندما يتحرك موضعها إلى الشرق يصبح

الفجر واجبا ، لكن النجوم الثلاثة لا تبتعد كثيراً عن مركز السماء ، يروح جدى ويجيء ، يأبى دخول الغرفة التحتية حيث تنام جدتى وإلى جوارها أبى ، يقعد فى الرحبة المكشوفة ، يسعل مرة ، ثم مرة ، ثم مرات ، يهتز جسده حتى ان سعاله يوقظ جدتى ، تتساءل مخضوضة عما به؟ يقول إنه متعب ، وإن صدره يؤلمه ، تخاطبه من داخل الغرفة . تطلب منه أن يدخل . الليل بارد ، يقول إنه ينتظر حلول الفجر ، تسأل جدتى بينما سعاله يهن ثم يهن ، هل أغلى لك ورق الجوافة؟ سعاله يتقطع ، كأن شيئاً يتعثر فى حلقه ، عرفت أن صوتها يبدو له بعيدا ، وان طنينا يبدأ ، وأن داخله يرق ويهوى فى بئر بلا قرار ، وإنه غير قادر على الرد ، وإنه يردد بلسان مثقل... خلاص... خلاص ، وان آخر ماورد على ذهنه من صور صورة ابنه الذى هو أبى ، تخرج جدتى ، تحيط جدى ، تصرخ ، تعول ، وليت نظرى شطر أبى ، مستغرق . نائم ، يحلم بوقيد الفرن ، ورائحة جلود القرب التى يحملها السقاءون على ظهورهم منتفخة بمياه البئر ، غير أنه ظامئ ظمأ شديداً يحمله أبوه ، يستعد ليسقيه ، غير أن رجلا غامضا يصرخ من بعيد ، فيغدو أطفال كثيرون.. يستيقظ مفزوعا ، نظرت إلى يمينى ، رأيت مولاى ، شفافاً ، رهيفا ، أبديت الرغبة بصامت تطق فأذن لى ، عندئذ بدأ معراجى إلى منزل الأحلام..

سفر خاطف

.. رحلت إلى حلم بعيد لأبى فى ليلة لم أدر موقعها من طفولته ، لم أعرف موقع المكان الذى يتمدد فيه . كنت بمفردى لكننى متصل بشفيعى ، تغيرت

الألوان والموجودات ، وأصبحت حى القلب ، فطنا بمواقع الحروف والألفاظ ، ممسكا بجوهر المعانى ، رأيت نفسى ، وكنت أدرى أننى الواقف فى مجال رؤيتى ، رأيت ما فوقى وما تحتى ، ما يحيطنى ، تبدل فجأة وجهى ، أصبح وجه جدى ، لم أروع ولم أفزع ، لأننى كنت أعى أن الواقف هو أنا وان تبدلت ملامحى ، أو تغير حجمى ، أو تلاشى وجودى المادى ، شغلت بما تيسر لبصرى من المكان ، النبات أخضر ، وصحراء قريبة ، خط من بيوت متضامة ، كل بيت من أربعة طوابق ، أبى فى شرفة الطابق الثالث ، ملامحه تراوغنى ، فأراه طفلا ، ثم شابا ، ثم هرما ، ثم تتداخل مراحل العمر.

سألنى :

أنت من ؟ .

فقلت :

أنا جمال ..

فقال :

جمال من ؟ .

فأجبته :

جمال .. الذى سينبت من صلبك وسيكون ابنك ..

بدا حائراً ، لا يفهم ، أدار ظهره لى بعد تحديق ، وإذا به يقف على شاطئ بحر عريض بلا آخر ، بحر متوحد الزرقة كأنه مرآة ، يمسك جفنة معدنية منقوشة ، يملؤها بماء البحر المالح ، يقذف به بعيدا ، يتحول الماء إلى بخار يتصاعد إلى عمق الكون ، تستمر حركة يده ، أدرك أن سنين طويلة مرت عليه ، ينزح ماء البحر ، سألته ..

عم تبحث ؟ .

التفت الىّ ويده لا تتوقف ولا تكف ولا تهن .. قال   عما ضاع مى
لم أدر كم انقضى ، غير انى سمعت الأسماك والحيتان والأصداف والشعاب وسائر مخلوقات البحر تستجير منه وتستغيث : لو استمر سيجف البحر ، وتنكشف القيعان ، وتنتفى الحيوانات ، تنهد البحر مضطرا ، التى بين يدى أبى بما ضاع منه ، هرعت لأعرف ، لكن حيل بينى وبين ذلك ، استدار بعد حين فإذا بجسده ضامر ، وعليه تعب وغبار أيام ثقيلة لا يمكن نفضه ، قلت : عندما تغيب ستمضى فى نفس ساعة رحيل أبيك ، ستقول نفس الكلمات ، لكن لن توجهها إلىّ لأنى لن أكون إلى جوارك ، انتبهت إلى اننى أحاوره بدون كلام ، بمجرد النظر نتحدث ، ليس بيننا كلام معتاد ، والاصطلاح بالنظر أصلا ، كنت إذا نظرت إليه علمت جميع ما يريده منى ، وإذا نظر إلىّ علم جميع ما أريده منه ، فيكون نظرى سؤالاً ، ويكون نظره جوابا ، وقد يكون نظرى جوابا ، ونظره سؤالا ، منى إليه تنتقل أحاسيس جمة ، ومشاعر تضيق عنها ألفاظ الدنيا ولغاتها ولهجاتها ، قال لى ، وردد ..

لكننى لا أعرفك ...
نطقت بالنظر الأسيان ..
أنت لم تنجبنى بعد .

صمت عنى ، آذن سفرى بانتهاء ، انسحبت ، تراجعت بدون خطو ، يعبرنى غمام سابح ، ندف فوقها ندف ، كنت فيما يبدو ثقيل الوطأة على رؤياه فى منامه ، استيقظ مكروش النفس ، حزينا ، رأيت الإمام الحسين إلى جوارى ، وكان أبى فى حدود الثلاثين أو الخامسة والثلاثين ، هكذا قدرت ، يرقد فى بيت غريب عنه ، عرفت أنه ضيف ، وأنه سيمضى فى صباح الغد ،

إلى أين ؟ ، حجب ذلك عنى ، عرفت أنها المرة الأولى التى اقترن فيها بأبى قبل أن ينجبنى ، عرفت انى فى هذه الفترة من عمر الدنيا كنت ذرات متفرقة ، متوزعة ، وعناصر شتى ، بعضها ولج داخله ، وبعضها فى سبيله إليه ، وبعض لم يستدل إليه بعد ، عرفت أن آلاف المواضع احتوتنى ، وأن شيئاً منى ما زال قصيا ، نائياً ، بعيداً عن التحقيق ، رأيته بعد استيقاظى يبذل محاولة لتذكر ملامحى ، رسمى أو اسمى ، لكن تفاصيل الحلم تبددت من ذهنه ، كذا اسمى الذى نطقته ، لكن الحلم ترك احساسا مبهما أقرب إلى الكدر ..

انتهى معراجى الخاطف ...

تلقين ..

.. لما كان العالم أكرى الشكل ، لهذا يحن الإنسان إلى البداية ، النهاية متصلة بالبداية ، لابد من نهاية وإلا ما كان ثمة بداية ، أول النشأة الإنسانية رحم ضيق حيث لا هواء ولا حروف ولا كلم ، وآخرها قبر حيث لا ظل ولا رؤى ، أولها يتمدد على الظهر رضيعا ، وقرب نهايتها يرقد على الظهر هرما ، عاجزا ، أولى الخطى مرتجفة ، مترددة ، وآخر الخطى مرتعشة ، واجفة ، رقبة الوليد مثقلة بالرأس ، تهتز ، يسيل لعاب الفم ، ترتجف الرقبة العجوز . وأيضاً .. يسيل لعاب ، فى الطفولة تلفه الوحدة فيبكى ، فى الهرم تشتد عليه الوحدة فيأسو ولا يبكى ، أولها ظهر منحن كذا آخرها ، عند الخروج إلى الدنيا لا يدرى بشر ماذا يعقل المولود ؟ وعند الخروج من الدنيا لا يدرى إنسان ماذا جال بعقل الراحل وأى صور رأى ، أى فكرة طرأت ؟ هكذا

تلتحم النقطة بالنقطة ، تتصل الدائرة ، ويكتمل الشبه بالعالم الأكرى .
فتعلم ! ! .

سـفـر الـمـوجـودات

تدفق سفرى بصحبة مولاى عبر حجب وفراغات مجهولة لى ، تعجبت إذ يشمل الديوان هذا كله ، عرفت اننى على صلة بسائر الموجودات ، سمعت نداءات الأغصان ، وحوارات الأحجار ، وهسهسات النجوم ، ولغيات الندى ، ولهجات الرياح ، وصريخ النيازك ، واستغاثات الشهب ، وأنين الذرة عند انشطارها ، واصداء تمدد الكون النائى ، كنت أفهم مايلفظ وما يقال ، تتقرب الموجودات ممن أنا برفقته ، تناجيه ، تدعوه ، تؤنسه ، تبدى الاستعداد للبوح ، للنطق ، حدثتنى جدران البيت الذى أقام فيه أبى مع أمه العمياء ، كلمنى الجدار الشرقى عن تحذيرات أمه المتكررة ، ان ينتبه إلى عمه ، أن يأخذ حذره منه ، إنه يبغى به ضراً ، حدثنى الجدار القبلى عن لهفتها عليه إذا خرج ليملأ أو ليقايض بائعاً متجولاً على شىء كأن يستبدل قدح قمح ، بحفنة ترمس ، حدثتنى صومعة القمح والفرن ، والمصطبة الأمامية عن وحدة جدتى ، عن خشيتها الليلية ، عن قيامها ، وتحسسها الطريق إلى ابنها الذى هو أبى ، عن شمها لرائحته ، اصغائها إلى أنفاسه ، ثم تلمسها طريقها إلى الباب ، اغلاقه بالضبة والمفتاح ، واطفاء اللمبة الساروخ حتى لا يستدل غريب أو قريب على مكان نومها ، حدثنى وصداه يولى : تتبدل الحال بالحال تم نزل صمت ، ظل بصرى مشدودا إلى جهته ، إلى الفراغ المؤدى إليه ، حتى أدركت ضياع الأثر ، احتوى الموجودات صمت عجيب لا عهد لى به ، ثلجى قاتم ، كأن أطراف الكون استجابت لشجنى الشفوى الذى

مبعثه خفى عنى ، فى غماره أطلت علىّ نخلة من الباسقات المورقات ، همست إلىّ بنغم طيب فيه أبدية ومحايدة وسر عجيب ، حدثتني عن أبى ، بدأت أرى ما تفضى به إلىّ ، رأيت أبى طفلا ، قدرت انه ابن عامين ، لم أسأل عن عمره لأننى ايقنت من استحالة الرد علىّ لما واجهته من صمت عنى بهذا الصدد ، وان لم تهن رغبتى ، اضمرت النية فى التوجه بفضولى إلى شفيعى ، إلى رئيسة الديوان عندما تحين لحظة قد تكون ملائمة ، لعل وعسى ، رأيته مرحا فى الأرض ، يلعب أمام جدى ، وهنا طلبت الرحيل المباغت ، فرأيت أبى مولودا تهدهده أمه ، تلاعبه ، تناغيه ، تناديه بألفاظ المحبة ، رأيت لسانه صغيراً ، رقيقاً ، عيناه منتفختان لم تتخلصا بعد من زنقة الولادة ، تزايد أساى ، وهن غصنى ، وتضعضع قلبى ، ما أوسع الفارق بين ما أرى ، وبين وجه أبى الذى ودع به الدنيا ، الوجه المثقل بمواقع السنين والأيام ، بالغضون ، بالحنين الذى لم يرتو ، القلب الذى لم يشبع ، والتعب البادى حتى فى لحظات سروره ، لمت نفسى ، وعنفت عمرى ، لأننى عايشته طويلاً ، خبرت لحظات ضيقه ، واطلعت على منابع آلامه ، ولم يدر بخلدى أنه كان طفلاً يومًا ، وأنه هدهد ، وأنه لوعب ، ودوعب ، التمست العذر ، ومن هو مثلى ليس له إلا التماس العذر بعد أن فات الأوان ، ثقلت اعذارى فكتمت عنى ما بى ، رشحت عينى الوسنى فأخفيت دمعى فى أغوار حلقى ، حنت النخلة علىّ ، مالت بجريدها العالى حتى لامسنى . قالت لى الشواشى : لا تحزن ، ستعلم عدد السنين والحساب ، خفف هذا عنى فأنست بعد وحشة ، رأيتها فارعة لا تهتز إلا فى الليالى العاصفة ، قريتنا مسورة بالنخيل ، رحل بصرى إلى الموضع الذى احتز فيه رأس سيد الشهداء . رأيته مضمدا بالنخيل ، حدثتنى نخلة أبى : لكِ عودة إلى كربلاء ، حدثتنى عن موت

جدى ، وتيتم أبى ، وطمع عمه ، واستناده إلى الجزع المتين ، وتخطيطه التراب بعود قش ، وتفكيره فى الأرض التى ورثها أبى ومقدارها فدان ونصف فدان ، وأربع وعشرون نخلة موزعة على البلدة ، أذن لى بالرحيل الخاطف ، فرأيت نفسى أمشى مع خالى عند منحنى ينز رائحة التين العسلية . وفضاء غروبى تتخلله دقات وابور الطحين ، مكتومة ، تتوحد بالفضاء الصامت الغريب المؤدى إلى المجهول ، يتوقف خالى ، يشير إلى نخلة بين النخيلة : هذه نخلة أبيك ، رأيت جزءاً من زمنى المولى ، نصحب أبى ، أنا وأخى الأصغر ، نمشى بين بيوت البلدة ، يظهر عم أبى ، قصير القامة ، نحيفاً ، عمامته كبيرة ، نتراجع ، نتوارى خلف أبى ، لا نمد أيدينا ، إذ نزور البلدة لا نذهب إلى أهل أبى وناسه ، لانقطاعه عنهم منذ زمن ولسماعنا أنهم أرادوا به الأذى ، لكن أى أذى ؟ وكيف ؟ هذا ما لم نحط به علما ولم نعرفه ، رأيت أبى راجعا لتوه من قريتنا ، أطلت التحديق فرأيت عمرى فى حدود الثانية عشرة ، يحكى أبى أخبار سفرته ، ثم يصمت قبل أن يقول ، إنه باع النخلات ، تسأل أمى : ألم يكن ممكنا رهنها ؟ يقول : لم يقبل أحد والمدارس اقتربت والأولاد فى حاجة إلى مصاريف ، وملابس جديدة ، هل يعقل أن يذهبوا بملابس السنة الماضية ؟.. عدت إلى النخلة الوحيدة الفارهة وكنت مقدد الأحزان ، أقبلت عليها ، تلك تمت إلى أبى وإن لم تعد ملكاً له ، تلك عانى من أجل الاحتفاظ بها ما عانى ، ثم باعها لينفق من ثمنها علينا ، أطلت النظر إليها ، مددت البصر ، وهنا نظر إلىَّ إمامى الحسين . فهمت عن صمته ، يطلب ألا أسرع ، أن أحذر العجلة ، إن الإنسان كان عجولا ، عدت اصغى إلى النخلة ، حدثتنى فقالت إنها شهدت أبى من الأعالى يعيش مع أمه العمياء بعد رحيل أبيه أربع أو خمس سنين من عمر الدنيا ، كانت أمه تخشى أقاربه ، وتخاف

الأيام الدانية فتدخر المال القليل ، يقول لها أبى : هاتى لنا لحما نأكله ، تنظر إلى الجهة التى يجلس فيها ، تقول : أنا أعمل من أجلك حتى لا تصيع فى كبرك ، يرتد أبى إلى صمته ، حدقت إليه بالبصر الموله ، قدرت أنه ينسل من طفولته فى تلك السن المبكرة ، وأنه يعول الهم فى عمر لا ينشغل فيه غيره إلا باللهو، لم أره يلعب حيث يجب اللعب، ولايجرى حيث يجب أن يجرى، رأيته يواجه الدنيا صامتا، يقضى جل وقته فى تقشير عيدان البوص وتكوين أشكال متداخلة، يمر على مقربة من المسجد، ويصغى إلى أصوات الأطفال، يرددون وراء الفقيه الحروف ، والكلمات ، فيأسو ، ويتمنى ثم يبتعد ، عادت النخلة تميل علىّ من عل ، غرب زمان أبى ، ورأيت شيخا مهيبا ، قادما من بعيد ، يمشى على هباء ، فانتظرت ما يكون ..

يا من تقضى ..

.. يكتسب ما حولى لونا لا مثيل له فى عالم الحس ، درجة واحدة فلا ظلال ، ولا تموجات ، أزرق وليس بأزرق ، يتقدم الشيخ عبره ، يواجه سيد الشهداء ، لم أسمع حوارا لكننى فهمت أنه يأخذ الاذن ، يستدير حتى يواجهنى ، عرفته ، تعانقت نظراتنا ، لم أكن قد واجهته منذ أن جاءنى بصحبة أحبابى وأوليائى ، عندما تعانقت نظراتنا ، ثم ولى عنى بدون لفظ ، وأشحت عنه بدون كلام ، لكننى نفذت وفعلت .. فى هذه المرة تحدث إلىّ ، قال الشيخ الأكبر محيى الدين بن عربى ..

.. اعلم أن الله تعالى لما خلق آدم عليه السلام ، الذى هو أول جسم انسانى تكون ، وجعله أصلا لوجوه الأجساد الإنسانية ، وفضلت من خميرة طينته فضلا خلق منها النخلة ، فهى أخت آدم ، وهى لنا عمة ..

قلت : تلك نخلة تمت إلى أبي . وكما مضى هو ستمضى هى . طال الأجل أو قصر ، وكل ماضٍ عدم ، وكل مستقبل لا وجود له ، ستجتز يوما ويصفر سعفها ، ثم يجف ويذبل ، سيشق جذعها ، ربما امتد جزء منه فى سقف بيت لا نعرف أهله ، وربما نصب جزء آخر فى جسم جسر خشبى يصل ضفتين متقاربتين لا ندرى من سيطؤه .. قال الشيخ الأكبر..

لا ينجو حذر من قدر..

صمت ثم قال ..

فى منزل البقاء بالديوان ستجد مثيلتها ، مخضرة ، مثمرة دائماً ، ومن عجائب مطعوماتها أنه أى شىء يؤكل منها أو يبلى أو يتساقط ينبت بديل له فى نفس زمان أكله أو قطعه ، إذا قطفت منها ثمرة فزمان قطفك إياها يتكون منها مثلها ، فلا يظهر فيها نقص أصلا ..

سمعت هاتفا خفيا يصيح ..

يا من تقضى ، ولا يقضى عليك ..

واختفى الشيخ الأكبر..

النبــوءة ..

. رأيت علياً بن أبى طالب فى إحدى سفراته يمر بكربلاء ، كان الحسين يافعا بعد ، آمناً عوائل الدهر وعواديه ، رأيت أباه يقف ولا يترجل ، يضطرب قلبه اضطراباً عظيماً ، يطيل النظر إلى البلدة المحاطة بالنخيل ، إلى الفرات ومائه المتدفق ، إلى السماء المرفوعة بغير عمد إلى تراب الأرض ، ثم يبكى ، فيسأله من معه ، لماذا يبكى؟ لكنه لا يجيب

التمهيد ..

.. عادت النخلة الحبيبة تحدثني فأصغيت ، قالت إن عم أبي راح يلف البلدة ، يزور البيوت ويتحدث إلى الأقارب ، إلى الأغراب ، إلى المقيمين ، إلى العابرين ، يكلمهم عن الأرملة العمياء التي مات زوجها وتعيش مع طفلها الذي لا يدرى من أمور الدنيا شيئاً ، انها تمشي على هواها ، تجلب العار للمرحوم شقيقه ولابنه من بعده ، رأيته يجلس عند السواقي وقرب البئر القبلية ، في الرحبة المبللة بضوء القمر والنجوم النائية ، يتكلم بلسانه ويديه . له تهتهة واطراقة . واشارة من أصبعه الصغير ، يردد .. إذا كانت سيرة المرأة بهذا الشكل فهل الولد ـ يقصد أبي ـ من صلب ابيه حقا ؟ .. تحدث طويلا وعينه على الفدان ونصف الفدان من قبل ومن بعد ..

تجلى الوجوه المتتابعة

.. تمهلت نخلتي ، اخضر جذعها ، وابيض سعفها وتباطأ عن الاهتزاز حتى سكن ، سرى داخلي ترتيل خفي ، تساوى عندى القرب والبعد واقترن الشرق بالغرب ، شددت الرحال إلى الجهات الأربع الأصلية وأنا واقف لم أبرح مكاني ، سفرى خاطف ، والبرق حولي بُرَيق ، والأنغام خفية ، مرقت عبر مدن هاجعة في ضوء غروبي واهن ، تمهلت خطاى في ضواحي آوى سكانها داخل بيوتهم فما من إنسان يدل أو يرشد ، ترقرق مكنون فؤادى ، وتبسبست الأزمنة أمامي ، وترددت أصداء اللحظات المارقة ، والأوقات المتباعدة عني ، المنقضية ، وصلت إلى انحاء شاسعة ، رأيت وجوها جمة ، رأيت أيدى تقبض على حفن من تراب كربلاء ، تحمله آينما اتجهت ، رأيت

اللحظات التى فار فيها تراب البقعة المشهودة مختلطا بلون الدم فأنبأ بما سيصير وما سيجرى لمولاى ودليلى ، رأيت وجوها من جيشه قليل العدد ، رأيت وجوها من الجيش الذى عرفته وعرفنى وشهدت حربه قبل اغبرار الزمن ، رأيت وجوها متحلقة حولى ، كالقناديل الهائمة ، رأيت وجوها ظمأى ، وجوها تميل بعد عبور القناة لتقبل الرمال المحررة ، رأيت وجوها باهتة ، وأخرى ساكنة . وجوها ناطقة . وجوها زاعقة ، مصدر الصرخات لحظة الالتحام بالعدو ، رأيت وجوها غائبة ، وأخرى هويتها حاضرة ، وجوها حائرة ، وقلة أبية ، رأيت وجوها مثقلة بالغربة ، بالوحدة ، بالعزلة ، ورأيت وجوها ونيسة ، ضاحكة . رأيت وجوها قادمة إلى الدنيا لتوها وأخرى ماضية إلى مجهول محض ، وجوه ساعية ، وأخرى قاعية ، رأيت وجوها فى وجوه ، مبحرة عبر الشظايا ، تغوص ، تطفو ، تمسك بالحد المتين ، تلك ملامح مفتقدة للأنس ، وهذه متألمة ، وتلك عابسة . وجوه أعرفها . وكثرة أجهلها ، تتوالى المرئيات ، أطياف ، وشفق ، تداخل ، انفراج ، تباعد واقتراب ، فى الخضم لمحت وجها لم أره إلا مرة واحدة فى زمن الجراح النازفة ، أيام وقوع الهزيمة ، توسلت إلى شفيعى أن يوقفنى عنده فاستجاب لى . خاطبته بضمير صارخ وذاكرة جلية ، قلت له : غبت عنى بعد أن رأيتك المرة الأولى والأخيرة ، لكنك باق فى قلبى ، والبقاء الحقيقى فى القلب ، كالموت لا يكتمل إلا إذا استقر فى القلب . وتذكرت بألم ينهل منى ويستقى ، زيارتى لزوجة صديقى الشهيد ، لا مبالاتها ، وتبدد الذكرى ، وسريان النسيان . قلت له : أنت تسكن عندى فى منزلة الصاحب والمثل والقدوة ، قلت : لن أكذب ولن أدعى . قد تمر أيام لا استعيدك فيها ، لكنك حى دائماً إذ تتداعى المعانى حولك ، أنت رأيت أيام الضياع العظمى بداية فقد عصره

بأكمله ، مفتتح زمن البلوى ، كنت لا أطيق العودة إلى بيتى ، أخشى المجوع ، وأخاف الانفراد ، من مقهى إلى مقهى تنقلت ، من شارع إلى شارع ، ظهر الجند المتعبون المنسحبون من خط الدفاع الثانى ، أذكر أحدهم مبهدل الثياب ، منكوش الملامح ، ضجت سيناء بالظمأى ، والقتلى ، وشبعت الضباع والذئاب ، سمعت أصواتها المسترخية فى ليالى يونيو الحارة عند خروجها إلى الخلاء تطلب شم الهواء لتهضم اللحم الآدمى ؛ وقالت إحدى مجندات العدو الذى صار صديقا ..

وصـل فى فصـل

أقول أنا :

عجبت لناسى وقومى ، ينتصرون إذ يهزمون ، ويهزمون عندما ينتصرون ..

وصـل فى وصـل

.. قالت المجندة : غاصت مدرعاتنا فى الأجساد كما تغوص السكين فى الزبد ، وفى حجرة رمادية الطلاء بمبنى احدى الصحف قابلته ، كان مبحوح الصوت بعد طوافه يوما وليلة وجمع من الخلق وراءه يهيب بعبد الناصر ألا يذهب ، ألا يمضى فى تنفيذ ما قاله عندما أطل بوجهه مكروبا من شاشة التلفزيون ، قبل ظهوره بثوان كنت آمل فى مفاجأة يعلنها أو تطور فى أنباء القتال يخفف بدايات جراحاتى ، لكننى عندما رأيت ملامحه الثكلى تضعضعت أمانىّ ، تدكدكت الأيام ، فى الحجرة المطلية باللون الرمادى قال صاحب الوجه المتألم : لا فائدة ترجى من الكلام الآن ، ضاع الوطن الأول ، ويضيع الآن جزء من الوطن الثانى ، ما من حل إلا القتال ، انصرفنا ، افترقنا ، أمام

المبنى سألت صاحبي الذى يعرفه : من يكون ؟ قال إنه فلسطينى يدرس الزراعة فى القاهرة ، وينظم الشعر أما اسمه فمازن أبو غزالة ، توالت الأيام الثقال ، ذكرته والأوجاع متمكنة منى ، وسوء الليالى تلفنى ، كم مر من الزمن حتى قرأت اسمه فى الصفحة الأولى للجرائد؟، ربما شهر أو شهران ، ذات صباح من هذه الصباحات المؤدية إلى الشتاء ، أطل علىّ اسمه من سطور الصفحة الأولى عندما كانت معارك الثأر تنشر فى الصفحات الأولى ، كذا صور الشهداء ، كان ذلك قبل انقلاب الآيات ، وتبدل المعانى ، قبل أن يصبح الأخوة ألد الأعداء ، والاتصال بهم أو التعاطف معهم ، يجعل الواحد منا جاسوسا أو خائنا ـ اذن .. استشهد مازن أبو غزالة ـ أقول استشهد ولا أخشى ـ فوق مرتفعات طوباس ، مازلت أذكر الموقع الذى سالت فيه دماؤه ، ورأى منه الصورة الأخيرة ـ ترى ماهى ؟ ـ مازلت أذكر موضع الخبر من الصفحة ، وعبارات البيان ، ما زلت أذكر طوباس ، اذن .. أنا حى القلب ..

ملتقى خاطف ..

نعم .. الذكرى لمن كان له قلب ..

وصـــل فى وصـــل فى وصـــل

.. رأيت وجه مازن عند انهيار الجسد . جاءته الشظية من جانب الصدر الأيمن ، ولت ملامحه عنى ، رأيت قبسا ضئيلا من يوم كربلاء ، عبد الله بن مسلم بن عقيل يقترب من الإمام الحسين ، يقول : أتأذن لى بالقتال ؟ يقول له

الحسين ، يا بنى كفاك وأهلك القتل ، يقول : يا عم بماذا ألقى جدك محمدا وقد تركتك ، والله لا كان ذلك أبداً ، يتقدم ، يحمل على القوم يقاتل ، يرميه رجل بسهم ، يخترق جانب صدره الأيمن ، يسقط صارخا ، متحشرجا ..

وا أبتاه .. وانقطاع ظهراه ..

تلوح ملامح مازن فى أفق قصى ، زعقت ..

مازن .. عرفت كيف تموت ، ولم نعرف كيف نحيا ..

رأيت وجه جندى عمره يماثل عمرى ، نقف فى خندق محاط بأكياس الرمال وصفائح مضلعة من حديد ، يشير إلى الضفة الأخرى من قناة السويس يقول : بعد قليل تتغير نوبة الحراسة عندهم ، رأيت وجها هائماً ، حائماً كقنديل مضىء معلق بخيوط لا ترى ، لم أعرف صاحبه ، رأيت وجه أبى كما كان يبدو فى تلك الأيام التى لم أكن أدر أنها أخيرة ، رأيته متعبا ، ينظر إلىَّ من داخل عينيه ، وكنا نقف عند محطة للأوتوبيس ، وثمة رجال ونساء ينصرفون ، يتفرقون ، العودة الليلية ، رأيت وجه أبى ، يسعى فى صباح باكر ، يحمل إفطارنا ، طبق الفول ، ودورقا مليئاً باللبن ، رأيته كاملاً ، يرتدى الجلباب ، ويمشى فى طريق أعرفه ، واحفظ ملامحه لكثرة ما عبرته فى صغرى وفى كبرى ، فى مبتدئى وفى خبرى ، طريق يصل بين حارة الدرب الأصفر ، ومدخل حارة الميضئة ، وكان البقال فى موضعه ، والمدرسة الابتدائية ، وتاجر الخضار ، والمسجد الأثرى القديم ، ومدخل الحمام الصغير الضيق ، والمقاعد مرصوصة أمام المقهى ، رأيت هذا كله ، وكان يتكشف لى جزءاً فجزءاً ، لكننى لم أر غير أبى ، الطريق خال تماماً ، لون الضوء برتقالى ، درجة من اللون كونية لا أرضية ، ثم رأيت نفسى فجأة ، ولم يبد

على أبي أنه لا حظني ، أو رآني ، استمر في مشيه وكنت أمشي إلى الخلف ، أواجهه بصدري وملامحي ، يتقدم وأتراجع ، لا أخشى التعثر أو الكبوة ، كنت أرى بظهري ، كنت أواجهه في حركته ، قامتي تماثل قامته ، كل شعرة من رأسي بحذاء شعرة من رأسه ، عيناي تقابلان عينيه ، وأنني يقابل أنفه ، ونفس التعبير الذي أراه على وجهه ، منطبع على وجهي ، ناديته فلم أسمع صوتي ولم يسمعني ، لكن خيل إليَّ أنه التفت إلى جهة ما ، فجأة تراءت وجوه ، تدفقت ملامح ، رأيت وجه الرياح ، وجه المطر ، ملامح الندى ، وجه الظل ، وجه الليل ، وجه النهار ، النهار المشمس والنهار الظليل ، وكان ذلك أشمل من عيني ، من حدقتيَّ المحدودتين ، لم أحتمل ، لذت بحبيبي لكنه شغل عني بالنظر إلى جهة لا أقدر على تحديدها ، جهة ليست من الجهات الأصلية أو الفرعية تطلعت إلى ناحية خاطبتني منها النخلة الباسقة ، لكنني لم أرها ، بل أدركت أن أوانها آذن بانتهاء ، ربما تعاودني فيما بعد ، توارت عني ، صمتت عني ، ولا قدرة لي على انطاقها ، كنت حزينا ولا أخشى الحزن ، فالحزن إذا فقد من القلب خرب ..

تنبيـه

ما يجمعه وقت ، يفرقه وقت .

درس

اعلم أن العالم الدنيوي الذي نحن فيه الآن له انتهاء يؤول إليه لأنه محدث ، وحكم المحدث أن ينقضي ..

أمنيـة

ليت الجاهل يعلم بما ليس يدرى ..

نشـوء الحـيرة

- أطلعنى مولاى وقرة عينى على بعض من أسرار رحيلى ، عرفت أنه من بين رفاق سفرى الأصوات والروائح والأحاسيس ودقائق ما يفنى وما يستحدث ، عرفت أننى إذا أخلصت الاستجابة للتجليات رأيت ، وإذا رأيت سمعت ، وإذا سمعت شعرت ، وإذا شعرت استقصيت ، وإذا استقصيت فهمت وإذا فهمت أدركت ، وهكذا اندفعت ، انجرفت إلى تلك اللحظة النائية من الليل المنطوى فى غيابات الدهر ، رأيت جلدتى نائمة ، أخبرنى الحر الشديد أن الخلق ضجوا منه لطول اقامته ، وثقله ، وقال بعضهم إن مثله لم يقع منذ سنوات ، تخففوا من الثياب ، واحتموا بعتمة الليل ، ضاق صدر أبى ، فصعد إلى أعلى السقيفة ، نام فوق أقراص الجلة الجافة ، وعيدان البوص، كان يرتدى جلباباً قديماً ، ولى وجهه باتجاه السماء، نظر إلى النجوم ، إلى ضباب غامض يتخلل الفراغات ، وهنا أخبرنى نجم قصى أننى مقبل على لحظات سيستعيدها أبى مراراً ، فى أمكنة متباعدة ، فى أوقات مختلفة ، فى الصحو والنوم ، أخبرنى الليل الجليل أن ملامحه أثناء النوم بدت متعبة ، أكبر من عمرها الحقيق ، وأن نومه هادئ ، لا صوت يصدر عنه ، صدره منتظم فى تنفسه ، هذا ما أكده لى أيضاً الهدوء الجنوبى المشحون بالنذر ، وجن قلبى ، تمنيت لو أزعق ، لو أهزه محذراً ، لكننى لم أفعل لاستحالة تحقق ذلك ، هنا نطق الصمت ، سمعت السكون يقول إنه كان

مستكنا ، لايبدده إلا نباح كلب ناءٍ ، أو أصداء بعيدة غامضة المصدر ، قادمة من أعماق الدنيا ، واهتزاز أغصان أو أوراق لمرور حيوان ما عبرها ، وعواء ممطوط لذئب يقعى ، حدثنى الصمت المستكن فقال إن الذين قدموا إلى البيت كانوا حفاة ، تسلقوا الجدار البحرى المبنى من اللبن ، هبطوا الفناء الداخلى ، ثم ولجوا الغرفة ، بركوا على جدتى العمياء ، صرخة ثاقبة ، فيها فزع إنسانى ، ونهاية لا بداية بعدها ، ومباغتة ، وعماء فى عماء ، حدثتنى الصرخة فقالت إنها آخر صوت نطقته قبل أن يكمم فاها ، قبل أن يغوص النصل أربع عشرة مرة فى جسدها ، وهنا كلمنى الذعر الذى ألم بأبى ، قال إن أبى لم يستيقظ بسبب ضجة ، أو صرخة ، كان مستغرقا ، خلوا من الأحلام فى هذه اللحظات لكن ثمة شيئاً غامضاً ، سبباً يستعصى على التفسير ، جعله يقوم لاهث الأنفاس ، قلبه يدق ، وعرقه ينزف ، أكد لى الذعر الذى ألم بأبى أنه لم يوقظه، لكنه حل بروحه وسكن جسده لحظة أن فتح عينيه ، وأن أموراً غامضة رافقته عند تمكنه من أبى ، وأن هذا كله دفعه إلى الجرى ، إلى القفز فوق أسطح البيوت المجاورة ، عاد الصمت ليحدثنى عن نباح الكلاب الذى بدأ ، نباح ليلى منذر متلاحق ، فى هذه اللحظة رأيت القتلة داخل البيت يتقدمهم عم أبى ، يبحثون داخل الصومعة ، فى غرفة الخزين ، فوق الفرن ، ثم صعدوا السطح ، تكسرت عيدان البوص ، وأقراص الجلة تحت أقدامهم ، رأيت النصل الذى قطع الأوردة ، وأنهى حياة جدتى ، خفت أن يعثروا على أبى ، أن يلحقوا به ، رأيت وجه أبى مغموسا فى خوف ورعب وظلمة ، سمعته يردد . استر يارب .. استر يارب ..
أمى ، أمى ، لم يكن قد عرف بعد بما جرى لها ، علمت بمقتل جدتى قبل أن يعلم ، واطلعت عليها فى لحظاتها الأخيرة قبل أن يدرى أو يتخيل اننى سأكون

ابنه ، كنت قريبا منه ، وكان دانياً منى ، حدثتنى مسام جلده عن عرقه الغزير ، رأيت ارتعاش اطرافه ، رأيت تهدجه ، رأيت لحظة ميلاد هذه النظرة التى لازمته حتى فى أوقات مرحه وتخففه من كدوراته ، نظرة الشقاء والضنى ، نظرة تعب وحيرة ، نظرة الرغبة فى الهجوع ، فى التماس الراحة ولو لمقدار محدود من الوقت ، اصغيت إلى صوت نحيل ، اسيان ، لم أدر مصدره ، أو كنهه ، يقول لى أنها ليست بنظرة ، لكنه ملمح أيضاً ، وصفة ، ومعنى وعلامة ، ما رأيته ميلاد الحيرة والخوف من المجهول اللامرئى ، لكنك لم ولن تعرف مقدار الحنين الذى أنهك أباك طوال عمره ، وحزنه الشاحب الرهيف ، الحاد كنصل السكين عند استعادته هذه اللحظة ، قبوعه فى الليل الغميق مطاردا بالموت ، واليقين من أنه لن يرى أمه ثانيا أبداً . لحظات إذ يستعيدها تعكمه وتدهمه ، تضنى الرجفة على خطاه ، والقلق على تعوده ، والسكوت المفاجئ أثناء حديثه ، والغم لحظات سروره ، والشرود عند اصغائه ، وتأتى بالكوابيس إلى نومه ، تدفعه إلى الترديد بصوت مرتفع .. آه يابوى ياأنا .. ابتعد الصوت عنى ، غير اننى رأيت لحظات متوالية متتابعة ، من أزمنة متباعدة ، يجلس فيها أبى صامتا بيننا ، يقول فجأة .. آه .. آه .. يابوى ياأنا . يقعد فى شرفة آخر بيت سكن فيه ، البيت الذى كان بسقفه وجدرانه آخر ما رأى ، يسند رأسه إلى يديه ، يقول فجأة . آه يابوى .. يأكل ، يجلس بين ضيوف جاءونا من البلدة ويتحدث ، يضحك ، ثم يسكت فجأة ، آه يابوى .. يأكل ، يمضغ ، يبلع ، يصمت .. آه يابوى ! يسعل ، يعبر طريقا مزدحما ، يغص بالخلق فى وسط المدينة ، يتوقف ، بينما يعبره الزحام من جميع الجهات ، يقول .. آه يابويا ياأنا ! ..

واقعــة .

ليلة الثامن والعشرين من أكتوبر عام ألف وتسعمائة وثمانين ميلادية ليلة تفصل غروب يوم الإثنين عن شروق الثلاثاء ، عدت بعد سهرى إلى بيت صديق الذى أقضى فيه أيامى بمدينة باريس الأوروبية ، فردت الأريكة بنية اللون المنقوش قماشها بورود زرقاء والتى تتحول إلى سرير ، غسلت وجهى وأسنانى ، وملأت كوبا أحرص على أن يظل قريبا منى أثناء نومى خوفا من ظمأ مفاجئ ، نمت ، لم أدر بماذا حلمت ؟ أو ماذا رأيت ؟ لكننى فزعت من نومى ، قمت مكروبا ، أنفاسى متلاحقة ودقات قلبى متسارعة وعرقى وفير ، وأطرافى مرتجفة ، لم أدر أى حلم رأيت ؟ أو الصوت الذى ايقظنى إن كان هناك صوت ؟ لكن بؤرة ما هزنى كان أبى ، كنت ملهوفا ، خائفا عليه ، وعندى شفقة وحنو عظيمان ، قعدت فى الفراش مرددا بلا توقف ، بلا فواصل سكونية ، مالك يابوى . مالك ؟ ..

ثم تداركت نفسى ، نظرت حولى ، بدأت أعى ، تلك حجرة ليست فى بيتى ، هذا بيت ليس فى مدينتى ، أنا فى مدينة نائية عن موطنى ، أنا فى سفر بعيد عن أبى ، أبى بعيد عنى ، خف كربى ، قلت بصوت مرتفع : هل سأصدق الهواجس ؟ نظرت الى ساعتى ، كانت الثالثة والثلث من فجر يوم الثلاثاء بتوقيت باريس ، نفس توقيت قاهرتى ..

تفســير ..

.. تجلى لى الشيخ الأكبر محيى الدين بن عربى ، ولما كنت لا أقدم على تصرف أو فعل إلا إذا نظرت إلى سيدى الحسين ثم استأذنه بالقول أو النظر ،

لهذا تطلعت إليه ، فأذن لى .. بادرنى الشيخ الأكبر فقال إن ما جرى فى باريس ليس بغريب على بعض الأفراد دون غيرهم وإننى يجب ألا أطيل التفكير فى ذلك لأن أمورا عديدة لاتزال مستعصية على الإدراك لكنها ستعرف يوما ..

لاحظت أنه يتحدث إلىّ بدون أن يقترب منى ، وأن مسافة تفصلنى عنه لم استطع تحديدها ، تبدو لى قريبة ، لكن صوته لا يتغير ، وحجمه فى نظرى لا يدركه نقص أو زيادة حدثنى برقيق اشارة ودقيق عبارة :

رأيت مثل ذلك لوالدى ـ رحمه الله ـ وكان قبل أن يموت بخمسة عشر يوما أخبرنى بموته ، وإنه يموت يوم الأربعاء ، وكذلك كان ، فلما كان يوم موته ـ وكان مريضا شديد المرض ـ استوى قاعدا ، غير مستند ، وقال لى : ياولدى اليوم الرحيل والبقاء ، فقلت له : «كتب الله سلامتك فى سفرك هذا ، وبارك لك فى لقائك !» . ففرح بذلك وقال لى «جزاك الله ياولدى عنى خيراً ، كل ما كنت اسمعه منك تقوله ولا أعرفه وربما كنت أنكر بعضه هوذا أنا أشهده» ، ثم ظهرت على جبينه لمعة بيضاء تخالف لون جسده من غير سوء ، له نور يتلألأ ، فشعر بها الوالد ، ثم إن تلك اللمعة انتشرت على وجهه إلى أن عمت بدنه ، فقبلته وودعته وخرجت من عنده ، وقلت له «أنا أسير إلى المسجد الجامع أن يأتينى نعيك» ، فقال لى : «رح ولا تترك أحدا يدخل علىّ» وجمع أهله وبناته فلما جاء الظهر ، جاءنى نعيه فجئت إليه ، فوجدته على حاله ـ يشك الناظر فيه ـ بين الحياة والموت ، وعلى تلك الحالة دفناه ، فسبحان من يختص برحمته من يشاء ..

قلت : « إذن سافر أبي فى نفس اللحظة التى فزعت فيها ؟ »
قال الشيخ الأكبر :
« نعم » . ثم اختفى ..

ماذا لو؟

ماذا لو أنه نام بالغرفة إلى جوار أمه ؟ ماذا لو أنه لم يفزع من نومه ؟ مادا لو انه لم يول مبتعدا ؟ تساءلت فعدت أراه بجوار أمه ، الليل ثقيل والصمت جاثم ، لم يحدثنى الصمت ولم يشرح لى النجم القصى ، إنما رأيت الظهور المفاجئ للقتلة ، النصال ترتفع وتهوى ، يتمكنون من أبى ، وهنا أحاطنى عماء ، وتبعثرت فى الموجودات ، تفتت إلى ذرات غير مرئية ، وتلاشيت فى منزل النسيان فلم التئم ، ولم أكن نطفة ، ولا علقة ، ولم أكن شيئاً ، لم أنطق ، ولم أبصر ، ولم أصغ ، تبددت ، وذاب وعيى فى لا وعيى ، استغثت ، استنجدت ، امسكنى شفيعى منهيا ذلك التجلى التقيل ، كنت مرعوشا فطبطب علىّ ، واسانى ، وحنا علىّ ، اسر إلىّ بما جرى عندما عاص النصل فى ظهر أبيه على بن أبى طالب ، قال إنه رأى قاتل أبيه بعيبيه لكنه لم يمد إليه يدا ، لم يعذبه كما ادعى بعض المؤرخين من عملاء معاوية أوصى والده بذلك وأنفاسه تتناقص وتمضى إلى التلاشى ، قال له ولأخيه الحسن : عزمت عليكما لما حبستما الرجل فإن مت فاقتلاه ولا تمثلا به . قال مؤسى انه رأى قاتل أبيه بعينيه ، هنا لمحت التأثر فى صوته ، فأطرقت صامتا وأنا متحير ، لا أدرى ماذا أقول ؟ وكيف أواسى أنا من يواسى الدنيا ؟ وكيف أخفف عمن يخفف آلام الشهداء ، أنّى لى بمخاطبة من هو بجراحات الدنيا خبير ، عليم ؟ ، وكأنه أدرك مابى ، فتركنى أعود إلى أبى ، أو أعاد أبى إلىّ

سـلام ..

.. السلام على الأيام الرواحل ، السلام على الأعمار المتقضية ، السلام على البهجة الزائلة ، والبسمة الحانية ، والأنة الشاكية ، واللحظة التى لا يمكن استعادتها أبداً ، السلام على أيام الجهاد ، والثرى الذى احتوى ، والظلال الوارفة ، السلام على ماهو آت ، السلام على الدهر المهلك ، المحيى ، القائم بالسنن ، السلام على الطل والندى .. السلام ، السلام على المن والسلوى ..

السفر إلى البدايات والنهايات ..

. سافرت برفقة إمامى إلى تلك الأيام من حياة أبى ، دنت منى الموجودات بعد طول نأى ، ودنوت منها بعد شتات عجيب ، حدثتنى الليالى المتوالية عن بداية هجاج أبى ، وهيامه على وجهه ، حدثتنى مواطئ قدميه عن خطوه المتعب ، عن كده وتعبه ، عن قعوده، عن قيامه، عن تمدده بقرب السواقى المهجورة ، والآبار التى جفت ، وعند حقول القصب ، عن هربه من عمه الذى سكن البيت ، وراح يبحث عنه ليقتله وتؤول إليه قطعة الأرض والنخلات ، كلمتنى السكونات المسائية ، وافصح لى الصمت الغروبى ، عن خوفه ، عن حذره ، عن افتقاده السقف ، والفراش اللين ، والباب المغلق ، ورائحة الطعام فى القدر الفخارى فوق الكانون ، ورائحة الأرغفة لحظة خروجها من الفرن ، عن قراءته الفاتحة كى يبعد الشياطين والأرواح الشريرة السارحة وأرواح المقتولين الهائمة ، الأرواح التى تظهر للناس فى صور مختلفة ، على هيئة بشر ثم تنقلب إلى صور الحيوانات والسعالى ، تطول وتقصر ، ترسل الشرر ، حدثنى قمر ضنين الضوء غير مكتمل عنه ، عندما لبد بين النخيل فى المنخفض الممتد تحت بيوت

البلدة ، ورؤيته لخيال غريب يمرق عبر السعف المتشابكة ، يقفز يتدلى ، يتقلب ، يقذف أماكن نائية بحجارة مستديرة، لم يدر أبي من أين يتناولها ومن أى جعبة يستخرجها ؟، تلا أبي الفاتحة ، وآية من قصار السور ، اختفى الخيال ، فيما بعد عرف أنه عفريت قاطع طريق ، وأنه يظهر فى الليالى شبه المظلمة ، وانه يقذف مواضع بعيدة جداً بالحجارة ، حدثتنى الليالى المتعاقبة عن ارتعاده ورجفته ، ودعائه ان ينقضى الظلام ، ان يسرع النهار بالمجىء ، عن خوفه من الذئاب ، من الضباع ، خاصة الضباع ، سمع أنها تتعقب الإنسان بصبر ، بإصرار حتى ينال التعب منه ، عندئذ تثب عليه ، تضربه ضربة واحدة ، تطرحه أرضاً ، تبدأ لحس أجزاء معينة من جسده ، ما حول الأست ، باطن القدمين ، حتى تتفكك الأعصاب ، عندئذ تبدأ الالتهام الشره ، كلمتنى نخلة نضرة ، سخية الطرح ، قالت إنها مدينة بوجودها واهتزازها اللطيف ، واخضرار سعفها إلى أبي ، لم يكن ممكنا ان توجد لولا دفنه لنواة بعد أن أكل بلحة صفراء صغيرة مستطيلة ، عاش اياماً على البلح المتساقط وثمار أخرى ، تلك البلحة الصفراء تأملها بعينيه الأرقتين ومسح التراب عنها بيديه ، بعد أن أكلها شرد ذهنه ، ساح بفكره ، وتذكر أمه ، ترحم عليها بصوت عال ، ثم بكى ، واثناء بكائه دفن النواة الصلبة فى الطين ، فوق نفس الموضع تساقطت دمعات من مآقيه ، دموعه أول من روى البداية ، قالت لى النخلة إنها منذ بزوغها إلى الدنيا ، فى نفس اللحظة المماثلة تذرف دمعتين وان جمارها من دمع أبي القديم ، ولن يترف كله إلا إذا ذبحت أو اجتثت من جذرها المتين . تعجبت وتأثرت ، قلت :.

إذن أنت مسقية بدموع أبي ؟ تخترنيها فى رحمك المكنون ؟ قالت النخلة المزهوة النضرة ، لولا أبوك لما كنت ولما تمايل سعفى عند هبوب النسمات ، لما كان طرحى ، واخصابى . كدت اطلب لحظة بزوغ الدمعتين غير ان مفرج كروبى

امسك يدى مسكا هينا لينا حازما ، قادنى فرأيت قبرا وحوله رمال صفراء ناعمة متوحدة اللون كأنها لا تفارق الأصيل أبدا ، منها تنبت شجيرات شاحبة الخضرة ، لم أعهدها ولم أعرف اسما لها ، أشار قائلاً : هذا مثوى أبى أمير المؤمنين ، وتلك الشجيرات منا ونحن منها ، صحبنى إلى رؤية أخرى ، رأيت قبر جمال عبد الناصر الرخامى ، رأيته مهجورا من الحراس ، من الناس ، أما الزمن فتقدم عنى غريب علىّ ، عرفت ان القبر خال منه ، فكدت أستفسر ، لكنه أشار إلى ورود حمراء صغيرة يتخلل كلاً منها دوائر زرقاء ، تتوسط كل دائرة نقطة بيضاء ، قال إن هذه الورود منه وهو منها ، اضمرت السؤال ولم أعين وقتا لنطقه ، صحبنى إلى رؤية تالية ، إلى قبور غير مطروقة ، لا يعرف الطريق إليها إنسان ، لا تزار أيام الأعياد والمواسم ، ولا يقف عند اطرافها باعة الزهور الصفراء الغامقة ، زهور الموت ، ولا يقصدها الفقهاء ، قبور بلا علامات ، تحوى رفات جنود ماتوا فى حروب متتالية ، رأيت سيناء وضفتى القناة وأماكن متباعدة من الوادى ، رأيت خنادق مطمورة لا تبدو معالمها ، وأساسات مدكوكة لقواعد خرسانية اقيمت يوما ، طلع على وجه نسيته ، لم أره فى زمانى الدنيوى إلا للحظة عابرة ، عامل أجهل اسمه من عمال البناء الصعايدة محمول على محفة ، ساقه اليمنى مبتورة أثر غارة من طيران العدو ، العدو بلغة زمنى القديم ، وجه خرج صاحبه من قريته القصية يسعى طلبا للرزق ، جاء مع الترحيلة إلى الجبهة ، تذكرت اين رأيته فى قسم بمستشفى عسكرى غص بالجرحى ، لم يكن قد استقر بعد فوق سرير ، رأسه لا يلامس المحفة ، فى عينيه اسى وخوف من أيام صعبة سيواجهها بلا قدرة ، بلا ساق تعينه وتساعده ، هذا القلق ، تلك الملامح السمراء ، شكل مقدمة الرأس ، ليست غريبة عنى ، لوهلة خطر لى أن ملامح أبى تلقى بظلال ، أشفقت وجزعت أن تكون ساق أبى قد بترت يوماً مع أنها لم تمس بسوء ، وأبى نفسه سافر بلا عودة ،

لكن رحيله لا يمنعنى من الخوف أو الضيق لو فكرت فى احتمال أن مكروها كان سيصيبه يوماً ما ، رأيت أوراقاً مطموسة المحتوى ، وفوارغ ذخيرة ، وأسلاك تليفونات ميدانية مدت عبر الحذر والخشية ، وانفعالات شتى ، رأيت شظايا صدفة ، وسلسلة بها حلقة محفور عليها رقم جندى ، رأيت دروبا فى التيه ، وأصداء نظرات حذرة ، وروائح سابحة فى الأعالى ، أشار مولاى بأصبعه فى حركة دائرية ، قال : هؤلاء من قومك .. هذا منهم ، وهم منه ، ثم صحبنى إلى رؤية تالية ، إلى قبر أبى ، وهلع قلبى ، لم أجده ، إنما رأيت مبنى شاهق الارتفاع ، أبيض ، أصم ، نوافذه مصمتة ، غريب لا أعرف ما بداخله ، رأيت فراشات صغيرة عاجية اللون لا ترى فى ضوء الدنيا العادى ، قال : هذه من أبيك ، وأبيك منها ، قلت ملتاعا ، وهل تعى اننى أنا ، وانها هى هى ؟ وهنا صمت عنى ، عدت إلى أبى الطفل المطارد من عمه ، عدت لتصبح بدايتى فى نهايتى ونهايتى فى بدايتى ، تجلت لى غمامة بيضاء هينة لينة ، تسبح فوق ذرى شاهقة ، جبال بعيدة عن موطنى ، لم يذهب إليها أبى ولم يسمع بها ، رأيت خطوطا نحيلة فوق السفوح المتعرجة ، المتقلبة ، بعد تدقيق ، عرفت أنها مياه ناتجة عن ذوبان الثلوج ، وأنها بدايات الأنهار ، هذه الخيوط النحيلة ستلتقى بخيوط أخرى ، ستكون خطوطاً اغلظ ، تحفر مجرى أعمق ، ثم يلتقى المجرى بالمجرى ، ويصب المنبع فى المصب ، والمصب فى المنبع ، تتوحد البدايات بالنهايات ، والنهايات بالبدايات ، وهكذا تتدفق الأنهار الكبيرة إلى البحار إلى المحيطات إلى الأعالى ، من يرى وهن البداية لا يمكنه تصور عنف النهاية ، انتهت إلى الغمامة تناغينى وتلفت نظرى ، دهشت ، وكنت أرى الغمام فى الأعالى لأول مرة ، أتجول بينه وعبره بلا حاجز ، أخطو فوقه ، وأميل عليه ، وكان بإمكانى أن اتكئ لو أردت ، قالت الغمامة والسماء تلوح منها : أنا أحتوى أبيك ، أنا من أبيك ،

وأبيك منى ، تساءلت : كيف ؟ فقالت والريح طيبة تدفعها إلى مستقر لا أعلمه ، أنها فى ذلك الزمن كانت ماء ثم اصبحت بخاراً ، ثم صارت غماما ، وضبابا وندى ، ثم عادت سيرتها الأولى إلى حين ، فى إحدى مرات التحول والتقلب والتغير كانت جزءاً من مياه ترعة تخترق قرية أبى ، ترعة تمتلئ دائماً بعد الفيضان الذى كان يغرق تلك النواحى ، قالت الغمامة إنها لامست جسد أبى ، تساءلت : كيف جرى ذلك ؟ قالت : كان أبوك يهيم على وجهه ، ويخشى الظهور فى دروب القرية ، لم يكن يمتلك إلا جلباباً وطاقية وسروالاً ، الجلباب تهرأ ، تمزق ، كان أحياناً يغسله ، ينشره فى الشمس ليجف ، وإذا مر إنسان يستر نفسه بالماء ، هكذا نزل إلى الترعة ليحجب عريه أثناء مرور أربعة من الجمالة يسوقون جمالهم المحملة بالقش والحطب والجريد ، قضى وقتاً ليس بالهين لأن ثلاثة جاءوا ، توقفوا ، قرفصوا ، وبدأوا الكلام ، وزادوا وعادوا فيه ، عندما ذهبوا خرج متعباً ، وكنت أنا قطرات أبلل جسده ومسامه ، طرح نفسه فى الشمس ، وكان ذلك أوان تحولى وتغيرى ، فارقت جسد أبيك بخاراً غير مرئى إلى الأعالى ، لكنني أودعته أثراً لم يظهر إلا عندما أوغل فى العمر وتقدم ، قلت : هذا صحيح يا غمامة لا أعرف مرساها أو مجريها ؟ حدثتها عن آلام عاودت أبى فى الأيام الديسمبرية ، إذ يظهر يخطو متثاقلاً ، يكز على أسنانه ، يلفظ الآهة المكتومة ، تلتوى ملامحه ، يكتم الشكوى ، يطلع السلم درجة درجة بصعوبة ، قلت لم يذهب أبى إلى أطباء من تلقاء نفسه ، فى الليالى الشتوية يتمكن منه السعال ، يهتز جسده تطلب أمى منه أن يذهب إلى طبيب ، فيقول بعد أن يهدأ قليلا أنه سيذهب غداً إلى قصر العينى ، ويجىء الغد . ولا يذهب ، يعود أحياناً بأوراق شجر الجوافة ، يغليها فى الماء ، يقول إن ذلك المشروب يشفى السعال ، يطلب منى صحيفة قديمة ، يطبقها ، يضعها على صدره ، لكن السعال لا يخف ، يتكرر فى ليالى الشتاء ، يعقب النوبة

بآهة .. آه يابوى ، لم يذهب إلى طبيب ، لو أنه :.

صحيح ، لكل شيء قدر ، صحيح ، للأعمار حدود ، حدود ، لكن الدنيا أسباب متقابلة ، متعارقة ، متداخلة ، لو ذهب إلى طبيب ! .

ابديت الحسرة القصوى ، غير أن الغمامة قالت : أنت تحدثنى عن أشياء أجهلها ، ما أعرفه ميلاد ذلك الألم ، الذى سرى ثم قضى ، بداية توغله من العصعص ، قلت : هذا موضع لم نحط به خبراً ، قالت : أنت تنسى أو تتناسى .

جزعت لقولها ، فرأيت أبى مستنداً إلى كتفى وعمرى بين الثالثة عشرة والرابعة عشرة ، نقف داخل مستشفى عام ، طبيب شاب يرتدى معطفا أبيض يقول لطبيب آخر : إزمان فى العمود الفقرى ، وسعال مزمن . بدا أبى مستسلما ، صامتا ، كأنه لا يبالى بما يقال ، بما يجرى حوله ، تلك ملامحه التى اعتدتها اثناء المرض ، تقبل سكونى ، انسانى ، وجلد ، رأيت رجلا ينصحه بالذهاب إلى اعرابى فى صحراء الهرم يقوم بعمليات الكى لكنه لم يذهب ، لم يذهب أبداً ! اخبرتنى الغمامة انها طافت فضاءات لا نهاية لها ولامست صخورا لم يرها بشر ، وانها أسرت زمنا فى مناطق الجليد حتى حررها دفء عابر نادر ، التصقت بقضبان حديدية لنوافذ بيوت هاجعة ، وقضبان زنازين عالية ، وكوات فى جدران دور عبادة ، تمددت فوق ألواح زجاجية ، وحطت فوق مداخن باردة ، وأسلاك ، وعلقت فى فضاءات صباحية ، وغروبية ، وليلية ، حتى فرقتها أشعة شمس قطفت إلى ذرى عالية ، خفت المناجاة الغمامية ، نأت عنى ، وأدركت اننى راحل فى الآماد التى لايحدها بصر ولا تقع فى نطاق عينين ، عرفت اننى أدنو من منزل الأصوات الباقية ، حيث كل ما لفظ حى لم يفن ، ولجته فسمعت جملا قيلت فى جلسات مسائية هادئة ، آمنة ، فيها

وصل ، ونجوى ، وكلمات مصاحبة للإيماءات ، ولحظات الإدراك المفاجئ ، وجمل قيلت عند بدايات الطرق المؤدية ، الشروع فى سطر ، وخشية من غيبة ، واستفسار عن وصول ، وتقدير لمسافات ، وتحيات عابرة ، اجهدت سمعى أثناء مروق ، سمعت صيحات حراس حدودية ، ونداءات ليلية تطلب الافصاح ، وسلاماً تعزفه آلات نفخ نحاسية ، ارتعشت تأثراً ، هذا منى ، نوبة رجوع تعقبها نوبة صحيان ، كيف أضل أو أنسى هذه الاعتبارات الطقوسية ، لحظة موارارة جثمان صاحبى بثيابه العسكرية عدا الحذاء الذى خلع عنه وأعقب ذلك تمدده هامدا ، صرخة جندى من رجاله : انظروا انه راض ، هادئ ، زعقة حانية ملوعة من ضابط عرفه وحارب معه : سلم لى على أخى . أمانة لا تنس ، سمعت صوت أبى ، وقف شعرى ، واقشعر جلدى ، صوت أبى ، صوت أبى الذى يشحب فى ذاكرة مسمعى ، ابى يرد عنى ، متى .. لم أعرف ، كان توقفى مستحيلا ، كنت محكوماً بالمضى والسريان الدائم ، أما محاولتى الاستزادة ، فغير ممكنة ، ورغبتى بالبقاء هنا أو هناك لاتلبى فى كل الأحوال ، سمعت حفيف الموج . الموجة إذ تدرك الموجة ، ثم تصفيق ، تصفيق ، هتاف ، عبد الناصر يخطب ، تعجبت ، هل وقع التوحد ؟ الصوت لأبى وادراكى انه لعبد الناصر ، والكلمات نطقها عبد الناصر من قبل ، يوم القناة ، يحكى التاريخ الطويل ، سنقاتل .. سنقاتل .. سنقاتل ، من فوق منبر الأزهر يخطب ، يقول إنه لن يغادر مصر ، إنه باق وان أولاده فى مصر ، لم يرحلوا إلى أى جهة ، الصوت نضر كأنه يخرج لتوه ، عندما لفظ ما سمعت كنت أتنفس هواء الدنيا ، وأعى ظهور شموسها وتعاقب لياليها ومجىء الأعياد وحلول الحزن ونزول الأسى بالنفس ، وكان أبى يمشى فى الأرض ، يضمنا بيت واحد ، ويظلنا سقف واحد ، وأسمع صوته فى الصباح وعند بدايات الليل ، استعدت بعينى عقلى ظهيرة تلك الجمعة ، ميدان مسجد الحسين والزمن خريفى نوفمبرى فيه بدايات

شتاء مقترب ، صفوف من متطوعى المقاومة الشعبية ، يمسكون البنادق ، صوت جماعى يتصاعد ، لايروح من بالى رجل يرتدى جلبابا وجاكتة قصيرة .. بما كانت جلدية .. ربما .

عناوين الصحف تعلن أن بور سعيد دفعت ضريبة الدم ، مشيت وعندى حماس ، ورغبة مجهولة فى المشاركة ، ابتسمت عندما سمعت صوتى فى المدرسة ، أخبر زملائى ـ كنت أكذب ـ أن أحد اقاربنا الأقربين يحارب الآن فى سيناء ، سمعت صوتى فى الحارة ، انادى أخى الأصغر ، أخبره أننى رأيت طائرة معادية تحترق ـ كنت أكذب ـ تلك أيام راحت ، أصواتها باقية ، لكنها شذر ، لا تسمع بترتيب وقوعها ، أصوات هائمة ، يجد بعضها طريقه إلى السمع فأفهم ، والباقى يتبدد ويضيع ، فلا قدرة لى عليه ، أصوات تعيد بعض المذاق ، عبير واهن ، لكن الأيام نفسها تظل بمنأى عنى ، ضائعة ، خطر لى ان ما ضاع لايمكن استعادته ، ولكن طردت الخاطر عنى ، لماذا أسعى إذن .. وكيف يرد مولاى علىّ ؟ أصوات تلك الأيام ، فى الصالة الضيقة نجلس ، صفارة الخطر المتقطعة ، صفارة الأمان المتصلة ، وانفجارات بعيدة ، صوت من عرض الطريق ينادى بحزم ، بلهجة أمر ، مطالبا شخصاً ما أن يطفئ النور ، سمعت صوت أبى ، لكن كنت أعى أنه لعبد الناصر ، عبد الناصر يتكلم بصوت أبى ، حواره الهامس عندما زار قرى الإسماعيلية الأمامية ، والخطر فى بور سعيد على مرمى ، اصغى إلى رياح ، أعرف أنها رياح ذلك اليوم بعينه ، سمعت صوت أبى مرة أخرى لكن المتكلم ليس أبى ، يتحدث إلى جندى فى آخر زيارة ميدانية ، يسأل عن وجبات الطعام ، أتكفى ؟ عن مرات الاستحمام ؟ عن مدى الأسلحة البرية ؟ يتردد الصوت فى غرفة مغلقة ، اجتماع يحضره عدد من قادة كتائب الصواريخ . ما امكانية اسقاط الطائرات الإسرائيلية المغيرة المعربدة بواسطة كمائن متقنة ؟ ما الوسيلة وحائط الصواريخ لم يستكمل بعد ؟ ثم سمعت

صوت أبي من أبى ، يدعو لى ولإخوتى ، يدعو لى ولزوجتى وابنى الذى لن يعى صورته ولن يذكر ملامح جده ، كان عمره عند رحيل أبى ثلاثة أعوام وخمسة شهور ونصف ، خُطى أبى تطوف ضريح الحسين ، سمعت صوته يقول لى متعبا وكان ذلك قبل ثلاث سنوات من سفره الأبدى ، من ارتقائه الضوء وضياعه بين النجوم الذاريات : أنا خلاص يا جمال .. أنا فى النازل . اهتف : لاتقل ذلك يا أبى .. عمرك مديد بإذن الله . لكن خاب فألى وذوى أملى ، اسمع أنات رجل قدم من الريف إلى المدينة فى الزمن المملوكى ولسبب ما قبض عليه وصلب .. يتردد سؤالى ، لماذا الموت ظلما ، لماذا الاجهاز على العمر قبل الأوان ؟ اسمع هتافا ، الاستقلال التام أو الموت الزؤام ، يجيئنى صوت إمامى فى زمن سحيق البعد : أنا ترجمان الخائفين ، أنا صوت من لا صوت له ، إنى لم أخرج مفسدا ولا ظالما وإنما خرجت لطلب الاصلاح فى أمة جدى ، أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر ، فمن قبلنى بقبول الحق فالله أولى بالحق ومن رد علىّ هذا أصبر حتى يحكم الله بينى وبين القوم بالحق وهو خير الحاكمين ، سمعت أمية يقهقه ساخراً عندما بلغه موت الحسن بعد أن دس له السم ، أمية بن هند ماضغة كبد حمزة عم الرسول ، يقول : لله جنود من عسل ! سمعت همهمة ، غمغمة ، مصمصة أسى ، ومهمهة دهشة ، امرأة تستنجد ، امرأة يتعثر طلقها ، امرأة ترجو شخصاً ما ألا يتركها وحيدة فى الدنيا ! لم أدر من أى عصر؟ سمعت تراتيل جنائزية بلغة غامضة ، مندثرة ، لا تفصح عن معانيها ، ولا رموزها ، غير أنها أورثتنى حزنا ثاقبا فريا ، سمعت تدفق ماء فى منطقة صخرية ، سمعت شلالا يهدر ، سمعت موجة ترتد عن الشاطئ ، سمعت خرير صنبور غير محكم الاغلاق ، قطرات مطر متوالية تصطدم بأرض صلبة ، بأرض رخوة بأرض تغطيها الحشائش ، بأوراق نبات كثيف ، بزجاج مقهى عريض ، سمعت الماء يملأ كفى أبى عند الوضوء صباح يوم جمعة ، صوت طائر حط لتوه

على شاطئ بعد رحلة طويلة لا يدرى إنسان مقدارها ، سمعت نداءات طيور تتجمع فى سماء شمالية أسراباً ، مع سريان البرد الخريفى ، تستعد للاتجاه إلى الجنوب ، سمعت كرواناً ليلياً يمرق ، طيور منقرضة هائلة الحجم ، حمامة قمرية تقف فوق ايريال قديم مثبت إلى سور السطح ، الوقت ظهيرة ولعبى توقف ، انتظر خطى أبى فوق السلم ، عودته اليومية ، مرتديا حلته الصفراء ، ممسكا بالطعام أو قرطاس الفاكهة ، صمت ظهيرة ، حارة ، هديل القمرية مستمر ، منقطع ، شجى ، يشى بإيقاع الزمن الخفى ، النائى ، القصى جداً ، اصغى ، لكن صوت عودة أبى لم يبدأ بعد ، صوت جميل يرتل ، يولى قبل ان يفصح ، مطلع نشيد يشيد بأيام كفاحية ، لم أشهدها ولم أعرفها ، نفير نحاسى ، مناجاة انثوية ، حيرة ، فتاة تقول أنها لاتدرى ما يجب ان تفعل ، امرأة تتحدث عن هجر قاس ، صرخة منبعثة من لحظة المتعة الأولى ، صوت حنون ضام رقيق ، يقول ماذا تريد منى ؟ أوشكت أن أجيب ، تلك عبارة قيلت لى ، وأجبت عليها ، لكنها ولت كل ما فى منزل الأصوات ترديد ، ورجع قديم ، اصطكاك ركبتين ، صلصلة ، همس ، أبى يتحدث إلى أمى والليل يتقدم ، يحدثها عن هدايا سيأخذها معه عند سفره إلى البلدة ، أرز ، صابون ، قماش ، موسيقى حانية ، اختلاط اصوات فى مطعم صغير ، اللغة غريبة ، الملاعق تحتك بالأطباق ، صوت تلاقى حافة كأس زجاجية بحافة كأس أخرى ، كباس موقد الغاز ، يتتابع فى سرعة ، تضطرب النيران قبل انتظامها فى وشيش منتظم ، تلك أمى ، الموقد أمامها ، وطعامنا فوقه ، قوائم الطبلية الخشبية تستقر فوق الأرض ، نتحلق حولها ، أبى وأمى واخوتى ، يوزع أبى « مناب » كل منا ، خاصة اللحم ، صوته يرشف الشاى ، اعملوا لى كباية شاى ، صفير غامض ، متصل ، منقطع ، أصوات سحيقة البعد ، وقع اخفاف الجمال على رمال صحراء ، صوت ذرات الرمال المتناثرة المتخلفة عن الخطى ، رواحل

الحسين؟ . ربما صوت امتداد جذور شجيرات فى أراض صحراوية ، أصوات ليلية ، صدى طلقة طائشة ، تميز أذنى بين انفجار وآخر هذا مكتوم ، إذن .. اصاب الهدف . من ؟ أين ؟ كم الخسائر ؟ انفجار يعقبه رنين وصدى ، اذن .. طاش التصويب ، انفجار .. هذا لمدفع ، وذاك لدبابة ، هذا صاروخى وذاك لغم أرضى ، أقف بين من سيعبرون ، أظهر أقصى الود تجاههم ، بعد لحظات سيمضون إلى قدر ، إلى خطر ، إلى عدو انقلب فيما بعد إلى صديق ـ كما قالوا ، كما زعموا ـ سمعت أصوات مرافقى لهم أول مرة ، الحركة الحذرة ، النزول إلى القوارب ، سمعت ايقاع نبضى ، علامات خوفى ، لا أكذب ولن أزعم ولا أدعى غير ما جرى لى على الرغم من مرور الحول أثر الحول ، خفت لكننى حرصت على أن أبدو جلدا ، أستجيب لنظرات صاحبى الهادئة ، النفاذة ، الباحثة فى أغوارى ، سمعت تمايل قارب المطاط عندما نزلت إليه ، سمعت الأبحار معهم عبر الماء والنجوم فوقنا والليل يغشانا ، ابتعادنا عن مواقعنا ، فى البحر ، فى الوحدة ، مع الاتجاه إلى العدو يتزايد القرب الإنسانى ، نزل داخلى أمن ، سمعت اشارات لاسلكية ، وخطواً حذراً ، وخطواً متهوراً ، وخطواً بين .. بين ، سمعت خطى ثابتة ، وخطى مترنحة ، خطى أولى حذرة ، مستكشفة ، واهنة ، غضة ، وخطى أخيرة مرتجفة ضعيفة ، طلقات مباغتة ، صرخات الهجوم وصرخات الدفاع حيث يسترد الإنسان زمنه الوحشى ، سمعت صوت المفاجأة فى أصل جوهره ، مصدره ومنبعه قبل أن يتفرق ويتجزأ ، سمعت الصدى ، التردد الكونى ، الاشارات مجهولة المنبع ، سمعت شجيرات جافة تهيب بى أن أقف ، أن أصغى إليها . طلبت ذلك فوقعت الاستجابة ، تساءلت الشجيرات بصوت قادم من منزل التساؤلات ، لماذا الموت فى الحرب وقد جرى ما جرى ؟ لماذا إذا كانت النتائج معكوسة ؟ لماذا وقتلتنا يتجولون الآن مزهوين فى المدن التى كانت مستعصية ؟ ألم ترهم فى الأحياء القديمة التى لازمها

أبوك وأودع عمره فى كل جزء منها ؟ هم هناك يستفسرون ، يستقصون .. لماذا ؟ وهنا أدركت اننى أفارق منزل الأصوات ، وانني قد أعبره لكن لا أدرى متى ؟ أو كيف ؟ رأيت مساحة من الأرض ، نطقت فقالت : وطأنى صاحبك الذى تحمله فى غدوك ورواحك . هل تذكر زيارتك لزوجته ومعايشتك لنمو الإنسان ، وضياع الوجود الإنسانى ؟ أومأت ، قالت بقعة الأرض : وطأنى أخيراً ثلاثة ، أحدهم هو الذى صوب مدفع البرج الرئيسى ، هو ضاغط زناد الطلقة التى تناثرت إلى شظايا ، إحدى الشظايا اخترقت جانب القلب الأيمن واستقرت ، هنا مسنى ضر غريب فتساءلت : هل جاء قاتل صاحبى إلى هنا ؟، بدا لى صديق الذى كان ! رأيته يمشى واقفاً ويقف ماشياً ، جرحه طرى ينزف ، مازال ينزف ، دمه يبلل القميص الكاكى ، بالضبط عند موقع القلب ، حدثنى فقال إنه يشكرنى لأننى استجبت له عندما جاءنى فى الحلم وطلب منى زيارة أسرته التى كان رباً لها . بدا مهموما ، متقدما فى الضنى ؛ وهذا مالم أعهده منه فى حياته ، فى لحظة بدا لى ما تأخرت فى اكتشافه ، وجهه وجهه ، أما ملامحه فلعبد الناصر ، وعندما تكلم سمعت أبى ، قال : تسأل عن قاتلى ، إنه أول من زاركم ، أجبت وعندى حدة وعتاب : لم يزرنى أحدهم يا إبراهيم . كرر متجاهلا نطق باسمه : إنه أول من زاركم . قلت وحتى يتمكن منى : مالى أناو..؟ قاطعنى بهدوء باتر كاسلوبه فى المباغتة : أول من زاركم انتم الأحياء، بدا حزينا ، سمعته يقول بصوت أبى : لم تكن حياتى كلها إلا حلما . حزنت وتفتتت روحى وصرت كلى غصة ، حرت ، هل أرد على أبى ، أو أحاور صاحبى الشهيد ؟ أو أحملق إلى عبد الناصر ، اعتصمت بالسكينة ، قال : ماذا جرى .. أهو السبات الذى يطول ؟ أم أنه المحاق يبدأ ؟ أم إنه النسيان ؟ ذهب عنى ، أو ذهبوا ، نزل بى ضيق وكدر ، رددت حائراً ، لماذا رحلوا .. وما الجدوى ؟ انتهيت إلى ملاذى الأعظم يرمقنى بما يشبه الاستنكار لما أقول ،

صحت اعذرني يا سيد الشهداء ، ترى ما حل بنا ؟ لم يجبني قلت متهدجا ، اشفق على ضريحك الذى أودعته أمان طفولتى وعمرى الأول ، وعطر أبى ، وجعلته سدرة المنتهى لبلواى فى دنياى ، أنت تعرف ما أجهله ، لم أتأكد من تبدد عبوسه . قلت : أنت ركنى الشديد . يلتفت إلىّ حانياً ، اهتف مطمئنا : الآن حق لى الخوف !..

آيــة

« الله الذى خلقكم من ضعف ، ثم جعل من بعد ضعف قوة ، ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبة » .

صدق الله العظيم

حقيقة

« .. النفوس الإنسانية جبلت على الجزع والخشية فى أصل نشأتها ، الجزع فى الإنسان أقوى منه فى الحيوانات ، أما الشجاعة فأمر عرضى ، ألا ترى الطفل ابن الشهر أو الشهرين ينتفض مفزوعا ، مرتجفا ، من الصوت المفاجئ ...

تعاقب الرؤى

رأيت مولاى الحسين فى رمنه الأصلى ، عصره الأول ، دهره الخاص ، يجلس داخل بيته وحمله ليس بهين ، يستشعر دبيب المقبل ، بداية تغير الأحوال ، تبدلها ، وان ما يبصره لفظيع ، لا تلوح علاماته جلية ، تختفى فلا افصاح ، لكنه يبصر ويرى منذ أن دس السم لشقيقه الأكبر وثمة حزن

لا يغيب ، يكسو محياه الجميل ، ينكت التراب بأصبعه ، أو ترحل نظراته إلى ما لا يراه غيره ، إنه يأخذ جانب الحذر ، يحتاط لنفسه ولمن حوله ، معاوية يستهدفه ، يرسل إلى المدينة عيونه وأرصاده ، صباح كل يوم يرسل والى المدينة تقريرا إلى دمشق ، به حركات الحسين ، معاوية لا يكتفى بذلك ، بل يوفد واحداً من عتاة شرطته السريين ، يستقصى خروج الحسين ودخوله ، تردده على المسجد ، مجاورته لقبر جده المصطفى ، توقفه فى الطرقات ، حديثه إلى الناس ، عطفه على الفقراء ، والغرباء ، شرطياً سرياً آخر أصله رومى ، وشرطياً سرياً ثالثاً ، ورابعاً وخامساً ، كل منهم يجهل الآخر ، لا يدرى ان هناك من يقوم بنفس عمله فى اللحظة ذاتها ، فى دمشق يطلع معاوية ، ويقارن ، رأيت الحسين هادئ الملامح ، أسيان المحيا ، لا يجاهر بعدائه لمعاوية ، لا ينقض العهد الذى أخذه على نفسه ، اقتربت منه ، والظروف حوله جامحة ، اثرياء القوم يلتفون حول معاوية ، الأثرياء القدامى ، والأثرياء الجدد ، المصالح تتوطد وتنمو ، ومصالح تتولد ، والمناصب تتعدد ، والتطلع فى ازدياد ، تتسع الفتوحات ، وتمتد الأمصار ، وتواكبها الاطماع ، بذل الوعود ، وتتعاظم أساليب الترهيب تتنوع ، رأيت أيام حبيبى المنزه ، تنقلت فيها . تنوعت وتكاثرت ، هادئ قصر معاوية فى الشام ، ودهشت بل فزعت لمظاهر الغنى ، هذا الذهب وتلك الفضة ، الخز والديباج ، ثياب معاوية ، تأنقه ، عطره ، رأيت ذكاءه وخبثه ، وتلونه فى المجلس الواحد مرات وقدرته الفائقة على اظهار خلاف ما يبطن ، ولم تكن أيام المصطفى بنائية ، لم يمض على هجرته إلا ثلاثة أو أربعة أو خمسة وأربعون عاماً . من عرفوه وشاهدوه وخاطبوه وقعدوا معه وحاربوا خلفه ما زالوا أحياء ، أما تواضع أبو بكر وزهد عمر فالعهد بهما أقرب . سمعت بأذنى ما قاله معاوية لندمائه فى ليلة صفا فيها

الزمن وراق له : لن يتبقى تأثير لأهل البيت ، النيل علنا من سيد الخلق صعب والخوض فى ذلك وعر ، لكن من يمتون إليه .. سمعت ما هو أشنع ، لم أطق ذلك ولم احتمله فانصرفت ، ثم سلكت طريق فى شرطة معاوية ، رأيت اهتمامه بالشرطة السرية ، وبث اعداد لا حصر لها بين الخلق ، خاصة عجائز النساء اللواتى ينفذن إلى أدق الخبايا ، يستمعون ، يدونون ، يدسون السم لهذا ، أو يكيدون لذلك ، يوزعون الأقاويل ، والاشاعات ، رأيت قادة النواحى ، والولاة ، والساعين إلى البلاط وطلاب الرضا ، والساعين من أجل الترقى والكتبة فى الدواوين ، رأيت الشعراء والقصاصين ، ومصيغى الأمثال ، يحدثون الناس عن أفضال معاوية ، وحلمه وتقواه ، وكرمه ثم كرمه ، ثم يعرجون بقول السوء إلى الإمام الحسن والحسين وكل من والاهما ، رأيت ما أكد لى ــ عبر زمان غير زمانى ــ ان ما يتصوره العقل مستحيل الوقوع ، يمكن حدوثه ، كل شىء يتغير ، لن أتسى ، استمر سفرى فى زمن حبيبى الأوفى عبر منزل الرؤى ، مررت بمحطات غريبة ، رأيت أبى واقفاً ينظر برقة وطمأنينة ، هممت بالنداء عليه ، أخبره أنه فى المدينة المنورة ، على مقربة من قبر الحبيب المصطفى الذى تمنى طوال عمره الحج إليه وزيارة قبره ، وغاب عنا قبل تحقق أمنيته ، قبل أن نحققها له بعد أن أصبحنا قادرين ، آه .. لم نفعل ، رأيته فى زمن الحسين شابا ، حرت ، صحت به ، لكننى كنت مبتعدا عنه كراحلة تنأى بسرعة بالغة عن منطلقها ، راح يتضاءل حجمه ، حتى صار نقطة ، ثم معنى ، وعندئذ رأيت صاحبى الشهيد ، وقفته التى أعرفها ، رأيت دمه طريا فى موضع جرحه ، جاء إلى زمن الحسين يترف ، لحنى ، هممت بالنداء ، لكنه ولى عنى أو استمر ابتعادى ، ثم لمحت جندا كثيفا ، فى جسد كل منهم جرح طرى غير مضموم ، غير ملتئم ، قصانهم

كاكية ، والخوذ رمادية ، والأحذية متربة ، بعضها مبلول بمياه القناة ، كنت قادراً على عد الشعيرات البيض فى رأس أو صدر أىٍّ منهم مع سرعة مروق ، يتأهبون للصياح ، قبل أن يصل صوتهم إلى مسمعى بهدت ، رأيت أبى ، رأيته نحيلا ، ضامر العود ، متعب الخطى ، الشيب يكلل رأسه كله وهذا لم يحدث فى دنياه ، رحل والشيب غير متمكن منه ، أى زمن هذا ؟ ضمنى حنين وانهكنى شجن ، تمنيت التوقف ، لكن سريانى دام عبر منزل الرؤى ، حمت فى المحاق ، وقطعت اليباب الشاسع حتى رسوت عند مولاى الأبى وفى حلقى غصة ، كنت استعيد ملامح أبى المتعبة ، أعى أنه قريب وانه بعيد ، وانه لم يعش هذا الدهر القصى ، كنت أجهل جذره ولا أقف على جده النائى ، برغم ذلك حملت أيامه الصعبة معى فبكيت منها قبل شروق شموسها ورثيت له منها قبل أن تلوح نجومها ، أو تبزغ أقمارها ، وتهب رياحها ، قبل بردها ، قبل حرها ، ندبتها وهى بعد بعيدة لا تزال فى رحم الغيب ، تألمت منها وهى مستقبل لم يأت بعد ، تقدمت فى تلك الأيام الدوارس ، توقفت عند الحبيب ، فاجأتنى رائحة ضريحه فى قاهرتى القديمة ، العبير الحى ، البخور وبقايا المسك والعطور المتبددة وماء الورد والسجاد القديم وخشب الصندل العبق وبرودة الرخام وكساء النجف الأحمر المعلق ، والخزف المنقوش ، والعاج الراقد فى خشب المنبر ، وأوراق المصاحف العتيقة ، وتلؤلؤ المشكاوات ، وعبير الأشواق وتضرعات المكلومين ، وليت بوجهى تجاهه ، لم أره ، فدهمتنى وحشة ، مع انه انبأنى عند ولوجى إلى الديوان أنه سيصحبنى جل الوقت وليس كله ، لفتنى وحدة ، واغرورقت نفسى باليتم ، والفقد ، وخفت حتى كدت أبكى ، لم يطل ذلى ، تجلى لى فى زمنه الدنيوى ، رأيته يجلس والدار غير آمنة ، معاوية مات ، يزيد ابنه يضيق عليه ليأخذ البيعة ، ما يجرى حول مولاى عجيب ، تنقلب الأوضاع ، تنتقل من النقيض إلى النقيض ، ما يجرى عجيب ، يبايع الناس

يزيد ، الدنانير ، المناصب ، الترهيب ، الترغيب ، تحول الخلافة إلى ملكية تورث ، رأيته يفكر فى التقلب ، التحول ، التغير ، مداراة النفوس لما تبطنه النفوس ، النأى عن موضوع الرسالة ، شراء ما يفنى بما يبقى ، يتكدس الجهد فى خزائن القلة ، ويتحول إلى قلائد من ذهب وفضة وأحجار كريمة ، وغير كريمة ، يتجسد السوء فى يزيد ، الفاسق ، شارب الخمر ، عظيم الجثة ، مجدور الوجه ، قبيح الظاهر ، قبيح الباطن ، ها هو فى أعز موقع ، فى أمنع مكانة ، خليفة محمد رسول الله ، يستدير الزمان والعيون ترقب ، أفئدة تلحظ ، أفئدة زائغة ، وأخرى بين بين ، الحق ساطع والحقائق جلية ، البرهان مستقيم ، لكن ما من إنسان يجاهر ، ما من أصبع تشير وتفصح ، الوفود تتوالى على قصر يزيد فى دمشق ، تتوطد أركان دولة الظلم ، تمتد دعائم القهر ، تتبدل المعانى وتتقلب القيم ، الاستثناء قاعدة الوقت ، ماذا يجرى للناس والهجرة لم يمض عليها ستون ؟ كيف تظهر الوجوه خلاف ما تبطنه النفوس ؟ كيف تنطق الألسنة بما يخالف الألسنة والضمائر ؟ كيف تعبر الملامح عما يخالف محتوى الباطن ؟ كيف تتغير الحقائق وتهتز الثوابت ؟ فى الدواوين وأوكار الشرطة السرية ومقارها العلنية تبدى الاقتراحات بقتل الحسين إن لم يبايع ؟ يقول الكثيرون بإهدار دمه ، هو التقى ، النقى ، يعاتب أحدهم والى المدينة ، لماذا لم يقتل الحسين فى داره عندما رفض البيعة ليزيد ؟، تجلى لى الحسين مهموما ، يفكر فى فقراء الدنيا ، الذين يعرفهم والذين لا يعرفهم ، وهُمْ كُثر ، وهم فى كل زمان غير زمانه ، يفكر فى المستقبل الآتى ، الرحمة ، انعدام الخوف والضيق ، التقوى وخوف الحساب ، لا يعنيه أمره هو ، بل إنه لم يفكر فى شخصه أبداً ، لا يتوجه إلى الخلق باعتباره ابن بنت رسول الله ، ولكن لما يمثله جده من معنى ورسالة ، يطرق جميل المحيا حزينا ، يتذكر جماعة من فقراء المدينة ، يتقدمهم رجل شرطة مستتر ، يهتفون ليزيد ، ما يؤلمه أن يتحمس

هؤلاء والضر كله لاحق بهم ، وهم لا يعلمون خبايا الغد ، ازددت اقتراباً منه ، وحنوا عليه ، لم يحدثنى عما أرى وأطالع ، إنما آثر صحبتى إلى أيامه الشداد لأطالع بعينى وأعرف واستخلص العبر واعرف المبتدأ من الخبر ، ترقرقت حنايا قلبى ، تقدمت منه ، خاطبته وأنا معزول عنه ، بينى وبينه ستار لا يرى ، ناجيته وأنا لا أدرى ، أيسمعنى أم لا يسمعنى ؟: مالى أراك بادى الضنى ؟ ثقيل الحمول ، ما لدموع عينيك متجمدة ؟ ما لانسانى عينيك قلقين ؟ ما لاحزانك سوافح ؟ ما لأشجانك بلا حد ؟ تطيل التأمل فى الدهر القُلّب كما أطلت أنا من بعدك ؟ يؤرقك طمس المثل وتحول القيم كما أرقنى ذلك ؟ فى مركز الديوان شكوت إليك حيرتى وغربتى وها أنا أواجه حيرتك ، ليتنى عشت دنياى فى دنياك ، ليتنى قضيت أيامى فى أيامك لأهون عليك ، لأذب عنك السوء ، هنا شعرت بوجوده إلى جوارى ، التفت ، ولم يعد الاشراق عنى ببعيد ، رأيته إلى جوارى ، وفى نفس الوقت رأيته أمامى ، رأيته هو ينظر إلى هو ، لم أدر إلى من أتوجه بحديثى ؟ مولاى الذى يصحبنى يرق لى ، ومولاى الذى أمامى يتأهب لمواجهة البلايا ، يستعد لزمن مدلهم ، مقبل ، قلت مندفعا ، حسن النية ، أبيض السريرة ، ان ما يحيره سوف يحيرنى ، وما يؤرقه سوف يؤرقنى . فى زمنه تحولوا وتبدلوا وتغيروا ، وفى زمنى سيتقلبون ويتقلبون ، الفروق فادحة ، فأين زمنى من زمنه . قلت وأنا أحاوره ..

علمتنى يا شفيعى أن الأشياء تتبدل حتى ما نظن أنه يستعصى على التغيير .

قال وهو يحاورنى .

تذكر أن الأسوأ يتغير إلى الأحسن ، كما يتبدل الأفضل إلى الأردأ ، وإلا لما كان التغير والتبدل فى الأصل ..

قلت وأنا أحاوره ..

عشت يا إمامى زمنك الردىء قرب نهاية عمرك الدنيوى ، أما عمرى فيمضى من خبيث إلى أخبث ، اسمح لى ، دعنى أقص عليك بعضا من زمنى ..

يهز مولاى رأسه ، أقول والصوت منى جريح .

تعرف يا أخضر القلب ، يا طاهر النفس ، أننى شببت وكان أول ما وعيته ، ما أدركته أن وطنا بأكمله انتزع من بنيه ، وأنهم قاسوا هجاجا وشتاتا .

أومأ فتدفقت الشجاعة فى عروق .. قلت أحدثه ..

تحرير فلسطين . دارت الدروس حول هذا الهدف والمعنى ، كذا ترددت الأغانى ، وضعت الكتب والمؤلفات والمحاضرات ، سجلت الرسائل العلمية ، قدمت الأفلام والمسرحيات ، وتم اختيار نوعيات السلاح ، ومشت الطوابير فى القيظ والحر فوق الأراضى ذات النتوءات ، وفوق الأراضى السهلة ، الخضرة والصفرة ، ودفعت الكمائن الليلية ، الاهم ثم الأهم ان دماء نزفت ، وأرواحا أزهقت ، اعزاء راحوا ، مع الزمن أسر الموضع الذى أسرى منه جدك المصطفى ، زعقوا ، فلسطين الجريحة ، فلسطين نارى ، فلسطين عارى ، العودة إلى حدود ١٩٤٨ ، العودة إلى حدود ١٩٦٧ ، ثم العودة إلى حدود ١٩٧٣ ، لكنهم جاءوا يا إمامى إلى عقر دارى ، أنا الذى عشت الحرب ، سمعت هدير طائراتهم فى الأعالى ، تبدو كنقاط بيضاء محومة آتية من ناحية الشمس ، ثم تتفجر الأرض ، رأيت الشظايا لحظة اختراق الأجسام ، رأيت بعينى موت الأحباب ، ورأيت هجرة الأهل لبيوتهم . فى ساحة قرب البحر بمدينة بور سعيد انحنى رجل يرتدى ملابس صفراء ، عامل حكومى فيما أظن ، ركع ، قبل الأرض ، حيث مبع الأصول ومستقر الفروع ،

لا أعرفه ، لكن وجهه عالق بذهني ، لا أدرى ان كان عاد مع العائدين ، أم أصبح نسيا منسيا ، رأيت الأشجار تتوقف عن الطرح والاخصاب بعد أن أفزعتها الشظايا ، وتكالبت الجروح عليها ، فالأشجار تفزع كما يفزع الإنسان ..

قال امامى :

أعرف ذلك ..

قلت وقلبى ينبض وسفرى يشتد :

رأيت وضع الخطط وتكدس الجهود ، واستنفار القديم المنسى ..

قلت بعد وقفة هينة :

كنا نحارب ولم نكن بخائفين .. فكيف .. كيف بعد أن صرنا قادرين ؟ فى ليلة تغير هذا ، رفرف علمنا بجوار علمهم ، تلقت اذاعاتنا المرئية والمسموعة البث المباشر منهم ، رأيت الزى العسكرى المعادى ، ارتفعت أسلحتهم فى تحية ، وروى الوصافون ، المنافقون ، الخانعون ، السباقون إلى الموائد فى كل النواحى اللقاءات الحارة ، المؤثرة ، وارتفعت اللافتات ، وخرجت حشود محشودة ، صفقوا ، وهم لا يعون ، ولا يرون الضرر الآنى والضرر اللاحق ، ثم أصبحت اعلامهم جزءاً من الواقع اليومى ، ماكان مستحيلا تصوره وقع .

أومأ إيماءة ، قلت ..

ثم تدفقوا إلى شوارعنا القديمة ومناطقنا العتيقة ، تغامزوا وتندروا ، ترفعوا وتفحصوا ، لايطيب لهم الجلوس إلا قرب ضريحك ومرقد رأسك ..

قال مولاى وهو يحاورنى :

جهال .. ما من حادث مخلوق من عين وأثر وخبر ، من نجم وشجر ، من رسم وطلل وحكم وعلل . إلا .. ويلحقه التغيير .

خفف عنى حديثه ، وخفف عنى انه ناداني باسمى ، أى أنه خصنى داخل تخصيصه لى بمصاحبته لى ، وهنا رأيت جمال عبد الناصر واقفاً ، مستغرقاً لكنه شاخص إلى ، بدا بعيداً ودانياً ، ثم رأيت أبى يقف عند موضع مغيب الشمس ، تمنيت أن أصل إليه ، رأيته وحيداً ، كان شديد البعد عنى ، لكن بصرى ميز تعبيراً ، رأيته على وجهه ، تعبيراً ومعنى أعرفها ، لحظة عودته إلى البيت حاملا بين يديه افطارنا أو غداءنا أو كسوة العيد ، رأيته ينظر إلى الطرف القصى من الكون ، التفت فرأيت مسلم بن عقيل فى زمنه الخاص ، يصغى ، الحسين يطلب منه أن يمضى إلى الكوفة ، إلى أهلها الذين كاتبوه ، طلبوا منه أن يقدم ، أن يسرع ليقيم العدل ، ليقوم الزمن المعوج ، أن يمحو الظلم ويرسى العدل ، سمعت مسلم يقول له إن هذا البلد مشئوم ، فيه قتل أخوك ، وجرح أبوك ، لكن الحسين يصر ، جاءته الرسل ، ليمض إلى هناك ليجلو الأمر ، فالسكوت على الجور جور ، يمضى مسلم ، مولاى يرنو إلى ، عبد الناصر ، أبى ، رأيت أمى فى الزمن الذى كنا فيه معاً ، رأيت أشقائى ، وزوجتى وأبنائى وأحفادى من بعدى وأصحابى ، أصحابى الذين اختلفت معهم ، وأصحابى الذين رافقتهم ، رأيت من أحببت ، من خفق لهن قلبى ، رأيت كل من جاورت ، فى السكن ، فى الطريق ، فى السفر ، رأيت كل من رأيت ، كل من وقعت عليه عيناى يوماً ، وكل من اقتفى أثرهم بصرى ، كنت أراهم كلهم فى آن واحد معاً . فرضى قلبى ، وأقبل أملى ..

دقيقة ..

التئام الجمع سرور وغبطة ، وحلول الفرقة فكاك وهلاك ، معها تبدأ الحيرة المذمومة التى لا راحة بعدها ثم يقع الضعف الذى لا يليه قوة ، ليت

الجمع يدوم حتى تتحقق الأحلام البسيطة الإنسانية ..

رقيقة

تجلد ، فإن فى الغيب ما شهدته ، وغاب عنك ..

ما كان ، ما سيكون ..

.. ودعت مسلم بن عقيل ، ابن عم مولاى الحسين عند خروجه من مكة ، تجليت له على صورة صاحب له ، رافقته مقداراً من الطريق الوعر غير الممهد ، وعر المسالك ، ثم حاشنى مولاى عن الاستمرار . عرفت فيما بعد ، عرفت بعد أكثر من ألف وثلاثمائة عام أن دليليه ماتا من عطش وحر ، وأنه أبدى التشاؤم لكن قرة عينى ومفرج كربى طلب منه الاستمرار وكنت الرسول الذى حمل إليه الأمر بالاستمرار ، ذهبت إليه فى صورة رجل من صحب الحسين ، ابلغته أمر مولاى ثم تركته فى سفره هذا ، عدت إلى مكة ، عند مشارفها حام حولى ثلاثة من شرطة يزيد ، أخذنى خوف ، وحذر ، نأيت بخطى حثيثة عنهم فرحلت إلى زمن أبى ، أدركته فى لحظة افتقاد مرة وعر علىّ تحمل ثقلها ، وصلت إليه وهو صبى عند أهل أمه لا يقيم فى بيت واحد ، وليس له فراش ثابت ، ولا يظله سقف واحد ، ولا يأكل من ماعون بعينه ، بدا لى هادئاً ، غريباً ، واليتيم غريب كما عرفت بعد مدى طويل ، عندما أصبحت يتيما بلا أب ، رأيته لا يسعى إلى التحرش بإنسان يماثل عمره أو يكبره ، هادئاً ، صامتاً دائماً . يقلقه المأوى ، واللقمة ، لا يخالط الصبية الذين يماثلونه عمراً . بمنأى عنهم ، داخله شعور بتفوق ، وأمل بزمن غامض ينتظره ، زمن سيصبح فيه ذا شأن ، يفكر فى الدنيا الفسيحة ، تلك المدن البعيدة ، وهذه الطرق المؤدية ، وامتداداتها ، فى الموضع الذى تغرب فيه

الشمس ، فى الأزهر حيث أسرار العلم وأسرار الحرف ، لو أن اليتم لم يلحقه ، لكنه يغمض عينيه ويرى لحظة يمكنه فيها قراءة المكتوب وكتابة المقروء ، ليس ذلك عليه ببعيد ، رأيته ينام تحت سقف بيت رجل سقاء ، حدثتنى قطعة جلد قديمة . أصلها موضع من بطن ماعز ، أما الآن فجزء من دلو جلدى معلق إلى بئر عتيقة قل عليها اقبال الشاربين ، قالت إنها لامست ظهر أبى عندما كانت جزءاً من قربة تمتلئ بالماء للظامئين ، كان ينقل الماء إلى بيوت عديدة ، رأيته يمشى متثاقلاً ، يمسك فم القربة بيده الصغيرة ، يلهث عند صعوده أراضى تميل إلى ارتفاع ، يطرق باب بيت كبير ، يدخل ، يفرغ الماء فى الزير ، لا ينظر حوله ، هكذا يجب أن يكون السقاء حتى لو كان صبيا صغيراً ، يجفف عرقه ، درت حوله ، رأيت الحدقتين ، يود أن ينام ، اقتربت منه ، وقفت على مقربة حتى شممت رائحة ثيابه وشعر رأسه ويالعجبى ، إنها نفس الرائحة التى نفذت إلى أنفى فى طفولتى ، كنت انتظر عودته فى الظهيرة ، أجرى ، اتعلق بعنقه ، يحيطنى بيديه لو كانتا فارغتين وينحنى لى لو أنه يحمل قرطاسا به طعمية ساخنة ، أو أرغفة ، أو خضاراً ، أو لحمًا ، أو .. فاكهة ، لم يردنى ، ولم يكسفنى ، كنت أشم رائحته التى تختلط برائحة حلته الصفراء الكاكية ، نفس الرائحة التى وهنت مع الزمن فيما بعد لقلة عناقنا وندرته وتباعدنا ، هى ، هى ، أشمها ، رائحة أبى الخاصة ، تلك ولت ، افلتت منى إلى الأبد ، لم يعد لها مصدر ، ولا أثر عندى ، ربما تبقى شذاها فى ثيابه التى أغلقت عليها حقيبة ولا يساندنى قلبى لأفتحها حتى الآن ، ادركت أنه من رضا مولاى وحنوه علىَّ اتاحته الفرصة لى كى استعيد ذلك العبير الأبوى حتى تمنيت لو أن ذلك لم ينته ، تشاغلت عن وقفته ، وعندما عدت إليه لقيته نائمًا ، متعباً . فتمنيت لو أنى حملت قربة الماء عنه ، لو ساعدته ، لكننى أدركت عبث ذلك ، وقلة جدواه فولجت أحلامه ، رآنى أقف على رصيف قطار ، أنا مسافر وهو مودعى ، قال لى :

رافقتك السلامة .

ثم يقترب منى ، يسألنى ..

لكن أنت من ؟ .

قلت :

أنا ابنك الذى سيكون ..

تهلل وجهه فرأيته شاباً مليحاً ، قال ..

بك تنتهى غربتى ..

أومأت ، لكن تهلله يتقطع فجأة ، يقول وكأنه يحدث نفسه ..

لكننى سأعود كما بدأت ، غريباً ، مقطوعاً .

وهنا بدا متعبا ، عجوزاً ، نحيلا كما بدا فى أيامه الأخيرة ، رفع إلىَّ عينيه ، قال ..

ستسمع بى وتذكرنى ، وتطلبنى فلا تجد ..

جزعت ، صرخت والقطار يتحرك :

سامحنى يا أبى ..

يقف فوق الرصيف ، يداه مبسوطتان إلى أسفل . أسرع القطار فبدأ البعد ولاح القفر ، استيقظ أبى ، خرجت من حلمه العابر ، رأيته فى بيت رجل آخر من أقاربه ، لم أعرف درجة قرابته ، ولم أر لحظة انتقاله من بيت السقاء ، هذا الرجل تخصص فى جنى ثمار النخيل ، رأيت أبى يربط خصره بحبل ، يتسلق الجذوع ، يقطف البلح ، فى الليل يرقد فوق فراش من القش ، فى الليل يجفص ، فى الليل يتقلب ، يتذكر أمه فتدمع عيناه خفية ، يكره أن يراه مخلوق باكياً . وبرغم ضيقه وجوعه وتلطمه كان يشعر أن هذا كله عارض ، مؤقت ، وأن أياماً أخرى فى انتظاره ، وأنها ليست ببعيدة ، فى بيت الرجل لم يشعر أبى

براحة ، كان للرجل أولاد عديدون لم يتركوا أبى فى حاله ، جلس أصغرهم فوق المصطبة ، يطلب منه أن يناوله السطل ليشرب فيناوله أبى ، تطلب منه المرأة أن يحضر لها بعض اقراص الجلة الجافة من فوق السطح فيحضر لها أبى . تطلب منه أن يوقد الفرن فيوقده أبى . ثم رأيته يعمل فى ماكينة الطحين ، يعبئ الأجولة بالدقيق ، الذرات الناعمة تغطى وجهه وذراعيه ، رأيته يلتقط دودة القطن والشمس شديدة الوطأة ، رأيته يسوق قطيع ماعز يقوده باتجاه الترعة ، يصيح به أحدهم فيشمر ثيابه ، يحمل عنزة صغيرة ، يخوض بها الماء الرمادى ، رأيته يعبر الماء يحمل صبيا يصغره بعدة أعوام ، اسمه عبد اللطيف ، رأيته يجدل سعف النخيل الأخضر فى أشكال هندسية صغيرة ، يجمع التين ذا الرائحة العسلية ، يرص أجولة قمح ، يربط أعواد البوص الجافة ، يحمل طاولات العجين ، يصغى إلى أحاديث رجال متقدمين فى العمر يفترشون الرحبة الفسيحة ، من معارفى عنه أنه لم يكن ينسى اسما سمعه ، أو لقبا ، أو حوارا ، أو وجهاً رآه ، أو منحنى طريق ، يعرف كل من فى البلدة ، الأنساب والصلات والجسور غير المرئية بين الأرحام ، يستقصى ويستفسر ليعرف ، يحذر عمه ، يستقصى أخباره ، إذا عرف بمفارقته القرية إلى سفر قصير ، أو تعوده لمرض فإن حموله تخف ، ويتجول فى مدى أوسع وأرحب ، رأيته يجلس خلف جدار من لبن ، بمفرده ، يستريح ، يفكر ، يدبر ، رأيته وحيدا فقوى حزنى وعصف بى ماض بعيد قاس ، أصبح الضوء غريباً ، تقطعت سبلى وتزاحمت استفساراتى ، وحننت إلى صوت لم يبق منه صدى أو أثر ، كذا الملامح المبهمة ، والنغمة الغامضة ، تابعت أبى يمشى فى درب مجهول لى على جانبيه بيوت غريبة ، موصدة ، سعيت وراءه ، أسرع فأسرعت ، ناديته ، لم يلتفت ، دنوت منه ، مددت يدى ، انتبهت إلى ملابسه التى لم أعهدها ، التفت إلىَّ ، تعجبت ، توقفت ، رأيت أمامى مسلم بن عقيل رسول الحسين إلى أهالى الكوفة ، لم أر

ملامح أبي ، كنت فى زمن غير زمنه وغير زمنى ..

لطيفة شعرية

حين قــرى الهوى وقــلــنــا سررنــا
وحســبــنــا من الــفــراق أمــنــا
بــعث الــبين رســلــه فى خــفــاء
فـأبـادوا من شــمــلــنا مـا جـمـعـنا

لطيفة شعرية

كـــــنت السواد لمقــــــلتى
فــــبــكى عــلــيك الــنــاظــر
من شـــاء بــعــدك فــلــيــمت
فـــعــلــيك كــــنت أحـــاذر

لطيفة شعرية

وانى لاستهدى الــريــاح نسـيـمـكـم
إذا هى أقـــبــلت نحوكـــم بهبوب
وأســألها حــمــل السلام إلــيــكـم
فــإن هى يومــاً بـلـغت فـأجـيـبوا ...

سمــاع ..

لما تــيــقــنت أنى لست أبصركــم
أغـــمضت عـــينى فـــلم أر أحـــدا

نوى

وكـــان سراج الوصـــل أزهـــر بـــيـــنـــنـــا
فـــهـــبت بـــه ريح من الـــبين فـــأنـــطـــفـــا

تجلى الوصـل ..

الوصل نقيض القطع ، الوصل حياة والقطع موت ، الوصل أصل ، والقطع عارض ، الوجود مبنى على وصل ، الأنفاس المتصلة تعنى استمرار الحياة فإذا انقطعت الوصلة بين النفسين مات الإنسان ، أما الأجنة فلا تتخلق ، ولا تتكون ، ولا تنبض إلا بعد وصل ..

التنقل والترحال

رأيت ملامح أبي فى جسم عبد الناصر، يرتدى طربوشاً أحمر وجلباباً أخضر من الصوف، هو أبي وهو عبد الناصر، لكن حضورهما لاينتمى إلى العالم المألوف، كذا الحركة والخطو، رأيته يسعى فى طريق ترابه ناعم، يتوقف أمام مقهى ريفى يتجمع فيه الذين هم على سفر، رأيت نفسى أجلس فى ركنه البعيد ، كنت أرى ما بداخله وما بخارجه فى آن معاً ، المقهى فى الكوفة ، يا لعجبي ، مقهى فى زمن لم يوجد فيه مشروب القهوة بعد ، وفى الكوفة .. كيف؟ يتوقف أبي ، يسأل بصوت عبد الناصر ..

جمال ابنى هنا؟

يسكت الرواد والزبائن ، لماذا لا أجيبه؟ لماذا الصمت؟ هممت فثقل لسانى ، جمد صوتى وتعثرت الكلمات فى حلقى ، لماذا لا أقوم؟ لماذا لا

أصحبه ؟ جاوبني صوت أجهل صاحبه ..

أوانك لم يحن بعد ..

انصرف أبي متبعداً ، وحيداً ، مستوحشاً ، الخطى منه ، وميل القامة عند المشي لعبد الناصر ، قام رجل قصير يرتدى زى أهل الكوفة زمن الحسين همس ..

من يرتدى الأخضر والأحمر .. أهو أبوك ؟..

قلت . نعم ..

قال .. هذا لباس النعيم ..

ثم وهن صوته عندما قال ..

لا يزعجك ما ستراه ..

كدت أسأله عم يعنى ؟ لكننى نظرت المقهى خالياً من رواده ، استطالت جدرانه وضاق فراغه وشحب هواؤه ، رأيت مقعدين بلا مساند ، يفصلها مقدار مترين ، يتوسط المسافة مكتب بلا أدراج ، متسخ ، عليه بقع حبر جفت وخطوط وبصمات غامضة ، تلك زنزانة ، داخل سجن ، والسجن من سجون ابن زياد والى الكوفة ، يدخل ضابط مرتدياً الثياب المدنية ، ثياباً من عصرى ، يجفف عرقه بمنديل ورق معطر ، ملامحه ليست غريبة عنى .. لكن متى .. أين ؟ ، لم أحط علما حتى ذلك الوقت ، ينظر إلى طرف حذائه ، يحركه مرات ، تنبعث جلبة ، خطى ، صفع ، بصق ، ركل ، أراهم يدفعون عبد الناصر ، معصوب العينين ، موثق اليدين ، يرتدى الثياب التى رأيته فيها عند ظهوره أول مرة ، القميص الفضفاض ، والبنطلون الواسع ، أوقفوه أمام الجدار ، وبدا لى حريصا على رفع رأسه ، أراه هو والضابط أمامى . اثنين لا ثالث لها ، لا أرى من يدفعون به ، لكننى اسمع احتكاك احذيتهم ،

أصوات وجودهم وحركتهم ، عرفت أنهم من رجال الشرطة السرية قساة القلوب ، عرفت أنهم أول ثلاثة وصلوا إلى الكوفة ليخوفوا الناس من الوقوف إلى جوار الحسين ومناصرته ، فى هذه اللحظة برق خاطرى فأدركت شخص الضابط ، هو من ضربنى وصفعنى ولكمنى وهددنى وسب أمى وأبى ، هو الذى أبدى لى الرقة واللين ثم انقض علىَّ يروم فقأ عينى ، عندما اعتقلت فى أكتوبر عام ستة وستين وتسعمائة وألف ، كان عبد الناصر وقتئذ ملء العيون ، مهاباً قوياً ، جليلاً ، قاسياً على من ابغضوه ، وعلى بعض من أحبوه ، وكان هذا الضابط شاباً مختالاً مزهواً برتبة رائد واسمه منير ، ألم بى غثيان ، وضيق لزج ، ركزت نظراتى على يديه اللتين صفعتا وجهى ، وقبضتيه اللتين سددتا اللكمات إلى صدرى ، واستعدت ما ملأ علىَّ خاطرى بعد خروجى من المعتقل . أن أرى من صفعنى ، من سبنى ، تزايد ضيقى وتمنيت مفارقة هذه الزنزانة فى هذه اللحظات ترددت على مقربة منى أنفاس خفاف ، لطاف ، التفت ، إبتل قلبى بالسكينة ، شفيعى يقف على مقربة ، أنست روحى ، وعمرت جسور الرضا والوئام فرحلت لتوى إلى مدينة الكوفة ذاتها ، تجلى لى مسلم بن عقيل فى درجة من النور الأحمرانى مستمدة من مكونات الديوان الشعشعانية ، نظرت إلى قرة عينى ، إلى الحسين ، وجهه مضوع بالحنين ، مأوى ومرقد للطف الجميل ، انجذبت إلى محياه الرقراق فشف قلبى وتمنيت لو دام على وقت النظر إليه ، عرفت أن الشوق الإنسانى القديم يملأ عليه كيانه وهو يواجه ابن عمه ومبعوثه ، هاهو مسلم ، تجلى لى فى لحظة تضاءل تشاؤمه الذى رافقه منذ موت دليله ، بايعه أربعون ألفاً من أهل الكوفة ، يكتب إلى الحسين ، «أقبل فإن الخلق معك» ، رجال الشرطة يرفعون الأمر إلى حاكم الكوفة ، ينبهونه إلى خطورة ما يجرى ، يتجه الحاكم إلى المسجد ، يصعد إلى

المنبر، يحمد الله ويثنى عليه ، يطلب من القوم ألا يسارعوا إلى الفتنة والتفرقة ، يصيح فيه أحد رجال يزيد ..

هذا رأى المستضعفين ..

يقول ..

لأن أكون من المستضعفين وأنا فى طاعة الله أحب الىَّ من أن أكون قوياً فى معصية الله . رأيت التقارير تدبج بالحبر السرى فى مقار الشرطة ومأوى العيون الخفية المبثوثة ، يراجعها ويضيف إليها هذا الضابط الذى لا يغيب عنى بملامحه ، تخرج التقارير إلى دمشق ، تنبه وتحذر من أمير الكوفة النعمان ، تحذر من تقواه ، من نظافة يده ، والأدهى .. تعاطفه مع الحسين ، الضابط لم ير يزيداً أبداً ، لكنه يدرك المطلوب تماماً ، ينصح بتغيير أمير الكوفة بآخر يقدر على الامساك بزمام الوقت ، إنه يضمر غرضاً خفياً ، أن يسند إليه منصب أعلى ، ربما فى دمشق نفسها ، منصب يمكنه من جمع قدر لا بأس به من الثروة ، والحوطة على مساحة أرض ، هناك الأقل منه ، استولوا على الضياع واشتروا الجوارى الحسان ، إنه يتخيل نفسه سارحا فى البرية ، أو سائحا فى المدن ، يلتقى صدفة بالحسين ، يمسك به ، يطعنه ، يحتز رأسه ، يذهب إلى يزيد ، يقول له ، قتلت من ادعى أنه أحق منك ، قتلت من جرؤ فامتنع عن مبايعتك ، ثم يتأهب لتلقى العطايا والمنح ، تجلى لى يزيد فى دمشق ، وعندما بدت لى ملامحه دهشت ، تلك ملامح أعرفها ، طالعتنى وضقت بها ، رأيتها ونفرت منها ، أبصرتها عن قرب واحتقرت صاحبها ، كيف جاء إلى هنا ؟ لم أشأ الاسترسال فى الدهشة فكتمت وحجبت ، تجلى لى وأمر الحسين يقلقه ، ما يتحدث به الحسين ولى زمنه ، حديث زهاد لم يعد له محل ، قيم مندثرة ، إنه يسعى إلى أردأ الخلق فيوليهم ، وإلى أحطهم فيعينهم ، لا يثق أبداً بمن

ثبت صلاحه ، لا يقرب من عرف بورعه وتقواه ، إنه مقدم على لحظات تغير وتحول ، وتلك لا تحتاج إلى من يمسك العصا من الوسط ، المهم الآن ، من يوليه امارة الكوفة ؟ من ؟ إنه يستعرض التقارير ، يصغى إلى هذا وذاك ، يتأمل الأوصاف والسمات ، لا يستغرق وقتاً طويلاً ، يهتدى إليه ، إنه فاجر ، قاس ، لم يعرف صلة الرحم ، ولم يرق يوما لمسكين ، عشوم ، غليظ العبارة على من لا يستحق ، إنه عبيد الله بن زيادة أمير البصرة ، الوقت لا يحتمل ، يصدر الأمر بتولية ابن زياد ، أن يتوجه فوراً إلى الكوفة ، تجلى لى عبيد الله بن زياد ، قبيل خروجه من البصيرة تتاح له الفرصة كى يبدى الولاء ويعلن ، عندما ابلغوه أنهم قبضوا على رسول الحسين إلى البصرة أمر بإحضاره إلى الميدان الكبير ، استل سيفه وضرب عنقه ، هكذا رأيت مقتل أول رسول فى الإسلام ، اغمد ابن زياد سيفه بدون أن يمسح ما علق به من دم ، خطب فى الناس ، قال إن يزيد ولاه الكوفة ، وأنه عزم على المسير إليها ، وأنه استخلف أخاه عثمان بن زياد ، حذرهم ، هددهم ، خوفهم ، أقسم أن يأخذ الأدنى بالأقصى ، والبرىء ، بالمذنب ، رأيته يستدعى هذا الضابط ، يطلب منه أن يرسل عيونه الخفية إلى الكوفة ، ليندسوا ، ليتحدثوا عن بطشه وقسوة قلبه ، وسخائه على من يتبعه ، ثم سأل الضابط ابن زمنى عن الحسين ، عن زيه ، وعن عاداته ، فى صحوه ، فى نومه ، ولوازم عباداته ، وصفة مجلسه ، وطعامه ، ومواعيد تناوله ، وساعات نومه ، وعده الضابط أن يقدم إليه تقارير تفى بكل ما يطلب ، فى نهاية نهار خرج من البصرة وعليه رداء أبيض وعمامة سوداء ، تلثم فى منتصف الطريق ، الأخبار عنده تقول إن الكوفة ملتفة حول مسلم بن عقيل ، وأن أكثر من أربعين ألفاً بايعوا الحسين ، إذن .. التحوط ضرورة ، والحذر واجب سديد ، رأيت ابن زياد

يعبر أسوار الكوفة متخفيا فى لباس الحسين ، بعض الناس يرونه فيظنون أنه الإمام قد جاء ، يقولون ..

مرحبا يا ابن بنت رسول الله . قدمت خير مقدم ..

وهنا سافرت وأنا واقف ، عدت إلى تلك الزنزانة ، رأيت هذا الضابط بعينه ، بملامحه ، بقامته الممتلئة ، لكنه يرتدى الثياب التى رأيته فيها أول مرة ، يدور حول المكتب ، يقف أمام عبد الناصر معصوب العينين ، يسأل بصوت مغاير لصوته .

لماذا قدمت إلينا ؟

تمر دقيقة ..

ترتفع يد الضابط مفرودة الأصابع ، تهوى على الوجه الذى طالما أطل وأشرق وحنا ، يتوقف الضابط ليرى تأثير الصفعة الأولى ، تماماً كما جرى معى . العجيب أننى تألمت وتوجعت كأن المضروب أنا ، كأن المعذب أنا ، تمضى دقيقتان كاملتان ، ترتفع اليد مرة أخرى ، الصفعة أثر الصفعة ، لم أسمع آهة ، ولم تصدر أنة ، أحمر جلد الوجنتين ، وأحمرت راحة يد الضابط ، خفت أن تصدر عنى صرخة فزع ، كنت موصولا به ، فى سعى إليه ، خفق قلبى خفقة ذات مدلول ومعنى ، أمامى عبد الناصر ، والحضور لأبى ، الرائحة له ، رائحة ثيابه عند عودته اليومية ، الرائحة التى لا يمكن لى أن اخطئها أبداً والرائحة التى لن يتكرر مذاقها أبداً ، عبير زمنى الآمن ، وعطرى المتبدد ، تعاقبت أيام وليالٍ مكتملة الأهلة ، صحوة سماواتها ، رائقة ظلالها ، عذب نداها ، ساعاتها مدتنى بالمنى وشوقتنى إلى ما أهوى وما أحب ، حتى إذا اتصلت بأسبابى نفست علىَّ به الدنيا واستكثرته علىَّ ، فسعت بالتشتيت إلى الألفة ، وبالفرقة إلى الالتئام ، وبالمر إلى المسرة ، وبالنقص إلى الجمع ،

فكسفت بهجتى ، وأرهقت نضرتى بالفراق ، ويبست جذع وصلى ، واجدبت اخضرارى ، تشتتنا فى الآفاق بعد أن ضمنا وقت واحد ، وجمعتنا أرض واحدة ، وأظلتنا سماء واحدة ، ولمتنا ليالٍ فقيرة مادتها ، غنى محتواها ، وانفعلنا بكبرياء ضد عدو استهدف ذلنا ، تمزقنا .. وقد كنا كالأعضاء ، المؤتلفة ، اللدنة ، المنعطفة وها هو أبى يهان ، ويصفع ، فتتهدد أيامى ، ويتبدد معناى ، وتذوى الرائحة الغالية ، يترمد قلبى ، لا أقص رؤياى على أحد ، ألوذ بالنظر إلى ونسى وعاصمى ، يبدو شجيا ، بوجهه يعشش حزن قديم كبقايا الدمع فى المآق ، لم يخطئ بصرى ، ولم يكل ، ولم يخن فهمى وادراكى .

يزعق الضابط فجأة بعد تراجعه ثلاث خطوات ..

كيف تضربونه ؟ .

روعت ، زلزلت زلزالا ، اللغة غريبة ، لم أتعلم مخارجها فى طفولتى ولم أتهج حروفها ، يقشعر بدنى ، لغتى العربية غير متداولة ، محظور النطق بها أو الحوار ، التحية ، والنداء على الحبيب أو القريب ، وترجمة المشاعر ، والبوح بعبارات الحب ، واللطف ، والأنس ، والنكتة اللاذعة ، محظور التخاطب بها عبر الدواوين ، أو تلقينها للأطفال الذين تتفتح عيونهم على دنيا غريبة ، فى أى زمن أسود رسوت ، وفى أى وقت أغبر استقر سفرى ؟ تدكدك قلبى الموهن . ينزع الضابط العصابة عن عينى عبد الناصر ، يفك قيد يديه ، يشير إلى المقعد القصير بلا مسند ، يجلس إلى المكتب ، يبرز علبة سجائر خضراء نفس العلبة التى مدها إلىَّ واعتذرت لأننى غير مدخن ، يهز عبد الناصر رأسه ، أكاد أثب ، إنها نفس هزة رأس أبى ، لا يمكن أن أتوه عنها ، هزة

دماغه ، عندما يكظم ضيقًا ، أو يخفى غيظا ، يفتعل الضابط الود والرغبة فى القُربى ، يقول ..

«تعرف أننى أدركت أيامك ، أننى انتمى إلى جيل يطلق عليه اسمك ، رأيتك مراراً ولكن ليس عن قرب ، فلم يكن لمثلى أن يحلم بلقائك ، تأثرت بكلماتك وطربت للأغانى التى ذكرتك ، أنت باق ، وإن تكن هنا فهذا سوء فهم . أنتَ لم يقبض عليك مختلسا وإن حاولوا اتهامك بعد موتك ، لم يقبض عليك مرتشيا وإن صرحوا بما يشوه سيرتك .. نحن لم نصدقهم ، صحيح أنك الآن أمامى ، لكن اعذرنى ليس الأمر بيدى ، أننى أؤدى واجبات وظيفتى ، لا تنس أننى حلت بينهم وبينك .. الذين ضربوك لم يسمعوا عنك ، اسمك لم يذكر منذ زمن بعيد ، صورك لم تنشر ، تماثيلك هدمت ، كنت مصدرا للتهديد وأنت فى قبرك ، لا تنس أننى حشتهم عنك ، لا تنس انك فى زمن غير زمانك .. عبد الناصر ، لماذا قدمت ؟ لماذا ؟.

اسمع همهمة ، أسافر إلى ابن زياد مرة أخرى .

مرحبا .. مرحبا .. قدمت خير مقدم ..

لا يكلم الناس الذين ظنوه الإمام الحسين ، لا يلتفت يمنة أو يسرة ، يصل إلى القصر ، يبرز المراسيم ، يستدعى الضابط ، يأمره بإخراج جميع الغرباء من المدينة ، يأمره بحشد جمع من حثالة الاعراب ، وبذل الوعود لهم ، ستصرف لهم مكاييل الشعير إذا مشوا فى طرقات الكوفة هاتفين ليزيد ، وسبوا الحسين ، يأمره بأن يرتدى رجال الشرطة ملابس عامة الناس ، وأن يتولوا هم الصياح ، والهتاف حتى لا تفلت الأمور ، يأمر بتفتيش المدينة بحثا عن مسلم بن عقيل رسول الحسين وإمساكه حيا أو ميتا ، تلك مهمة عاجلة ، يأمر بضرب أعناق عدد من عابرى السبيل على مرأى أكبر عدد من الناس ،

والمناداة عليهم ، انهم من رجال الحسين ، يبدى الضابط حماساً زائداً ، وعد بما يثلج صدر ابن زياد ، يقول ابن زياد إنه يريد رسما وافيا دقيقا لكافة مخارج الكوفة ، ومداخلها ، ودروبها ، وتعداداً وافياً دقيقاً لبيوتها ، وحصراً لأصحابها ، يريد مسحاً شاملاً لجميع الطرق المطروقة والمهجورة حتى مسافة ثلاث ليالى سفر ، كذا المواضع التى يسهل عندها الاقتراب من الفرات لأخذ المياه ، والمواضع التى يخف فيها النخيل والنبات ، والتى يغزر فيها ، والقرى ، والمحلات ، يطلب بث العيون فى كل منها ، وإذا كان بعضها مهجورا فليمض عدد من الشرطة المتخفين للاقامة فيها ، يصغى الضابط ، تلك اطراقته التى أعرفها ، ملامحه التى سبقت حملقته إلىّ وسبه أمى وأبى فجأة ، ملامحه التى تواجه عبد الناصر فى موضع آخر من سفرى هذا ، يخرج من القصر ، اسمعه يمنى النفس بسماع مديح ، لعل أخباره تبلغ يزيداً فى الشام ، لعل اسمه يذكر هناك فيصدر مرسوماً بترقيته ، لعل ما تشتهيه النفس يتحقق ، لعل وعسى ، ينبث ضباطه وعسسه ، كل يبدى الهمة ، كل طامح فى رضاء قائد الشرطة عليه ، كل يخشى عيونا مدسوسة لا يدرى بها ، بعضهم طافوا بالطرقات زاعقين ، يسبون الحسين أضفوا حماساً على أصواتهم ، شدوا من ملامحهم شأن من يصطنع أمراً فيظهر الانفعال الزائد ظنا منه أن هذا يقنع الآخرين . رأيت الجند يمسكون ثلاثة غرباء ، ثلاثة من عابرى السبيل ، لم يثبت عليهم ذنب ، لم يعرف لواحد منهم اسم . ضربت أعناقهم أمام القصر بغية تخويف وترهيب ، أمسكت بلحظة تغير نادرة ، لحظة رجحان كفة على كفة ، لحظة تبدل المواقف ، سمعت قولا يتردد : ما لنا وما للحسين ؟ ، توقفت عند طريق النطق ، النبض الخفى للحروف ، الصيغة يتردد هذا كله من لغة إلى لغة ، من لهجة أخرى ، من زمن إلى زمن ، عندما تتعامى البصائر ، كثيرون لم

ينتظروا ، جاهروا بحماسهم ليزيد ، لابن زياد ، انقلبوا ولفظوا نقيض ما قالوا ، قطبوا الحواجب ، زموا الشفاه ، كأنهم كانوا فى غى ثم أدركوا ، درت بعينى ، بنظرى حولى ، أين مسلم بن عقيل ، أين ؟ رأيت الضابط عابساً يواجه عبد الناصر ، يلقى السؤال تلو السؤال .

لماذا ظهرت ؟ لماذا جئت ؟ إلى من تحدثت فى ميدان الدقى ، هل دفعتك دولة أجنبية ؟ هل تقف وراءك جهة ما ؟.

ينطق اسئلته بإيقاع سريع ، كأنه يتعمد المباغتة ، والارباك ، أدركت أن الأساليب لم تتبدل وإن اختلفت الحقب ، هكذا سألنى الضابط ، أنظر إلى صمت عبد الناصر ، إلى عينيه الواسعتين ، لم تفقدا بعد قدرتهما على النفاذ ، يغض الضابط بصره خفية لثوان معدودات ، يفلت من نطاقهما لحظات ، يبدو السكوت مقلقا ، يسأل ..

لماذا تجمع الناس حولك .. لماذا أحاطوا بك ، من أخبرهم بظهورك ؟.

يستمر الصمت والامتناع ، تتوتر لهجة التساؤل ، يشير بيده ، يدخل إلى الزنزانة ثلاثة ، لا يراهم عبد الناصر إنما يشعر بهم غير أنه لم يهتز ، لم يبدر منه ما بدر منى عندما دخل اثنان من المخبرين السريين المخصصين فى الجلد واستنطاق المتهمين ، وقوفهم إلى الخلف يحدث قلقا ويبث اضطرابا فى النفس ، تصبح الضربة متوقعة فى أى لحظة ، والضربة غير المرئية تؤلم أشد . ألتفت فنهانى الضابط ، بسرعة رأيت ملامح شاب أسمر اللون ، نحيف ، يرتدى قيمصاً وبنطلوناً . قيمصا أبيض مخططاً ، وبنطلوناً رمادياً . قميصاً قصير الأكمام وبنطلوناً واسعاً ، كان يمسك بخيزرانة ، لم أعرف اسمه ، ولم أسمع مخلوقاً يناديه ، نهرنى الضابط وسبنى ، عرفت أنهم يحرصون حرصاً شديداً على ألا يتعرف الضحية إلى معذبه ، إلى جلاده ، لهذا يتخذون أسماء غير

اسمائهم ، ويمشون بين الناس حذرين ، فى تلك اللحظة اضطربت ، كنت موزعا بين مواجهة الضابط والإجابة على أسئلته وبين انتظار الضربة . وآلمنى انتظار الضرب أشد من وقعه على جسمى عندما بدأ . عبد الناصر لم يلتفت ، لم ترف جفونه ، هذا عجيب ، ولم يتفق لإنسان ممن جلسوا أمام الضابط طوال مدة خدمته أن احتفظ بثباته هكذا .

لماذا هاجمت أصحابنا ، لماذا حرضت على تنكيس أعلامهم ؟.

عبد الناصر لا يخفى تعجبه ، لكنه لا يبديه نطقا ، على مهل يستدير بوجهه ، تستقر نظراته باتجاه مولاى .. هل يراه ؟ هل يرانى ؟ تتعلق عيناه بالجهة التى يتضوع منها عبير الحسين . تطوف بهما مناجاة استعصى علّى فهمها ، أو النفاذ إلى مكنونها ، وتلك حيرة ألمت بى مراراً فى مواجهة عينى أبى الهادئتين، الاسيانتين ، عندما يطول صمته وتعمق وحدته وينظر إلىّ ناسجاً التأويل والاستفسارات والشروح العصية ، وكان آخر عهدى بذلك فى شرفة البيت قبل سفرى عندما حدق إلىّ وأغدق تحنانه علىّ وكف لسانه عن التعبير حتى أننى استسلمت لنظراته ، ولكننى لم أفهم ، لم أعرف أن المتبقى من عمره وقتئذ أحد عشر يوماً لن تزيد ولن تنقص . ليتنى رحت فى الطوفة بطوفة ، ليتنى قابلت النظرة بالنظرة والحنين بالحنين ، والشوق بالشوق ، ليتنى ! ، هل كان يتزود من ملامحى قبل سفره الطويل ؟ ليتنى أدرى ! ، لا يمكننى أن أجزم ، غير أن لنظراته هذه مقاماً ، وموقفاً ، لا أقدر على التطرق إليهما الآن فلم أتأهل بعد ، وذلك لعظم ما بهما ، واستغلاقه علىّ ، ها هو مسلم ابن عقيل يقول لهانئ بن عروة ..

اتيتك لتضيفنى وتجيرنى .

يقول هانئ .

لقد كلفتني شططا ، لولا دخولك دارى وثقتك بى لأحببت أن تنصرف لشأنك غير أنه لزمني من ذلك زمام .. أدخل .. أدخل ..

رأيت ابن زياد يقصد بيت هانئ ، يتجه بقصد زيارته أثناء توعكه ، هذا فى الظاهر ، ويستميله فى الواقع ، هانئ ذو عزوة ، وقوة ، رأيت الخادم يخبر هانئ أن ابن زياد بالباب ، هانئ يستدعى مسلمًا ، يدفع إليه بسيف ، يطلب منه أن يقف خلف الستار ، سيرتب جلوس ابن زياد بحيث يولى ظهره إلى الستائر ، وعندما يخلع عمامته فليعتبر مسلم هذه الحركة بمثابة إشارة لكى ينقض ، ليجتث شره ، يقف مسلم مختفياً ، يدخل ابن زياد يصحبه حاجبه ، مسلم فى مخبئه ، وجهه منقبض ، خدقت بالبصر المتين فلمحت وجنتى أبى ، وضمة فمه ، وتجعيدة جبهته ، وموقع عينيه فوق العينين ، وقلق عينيه عندما تصبح الحيرة شارته إذ يفكر أو يشرع أو يقدم على شيء تأباه نفسه وتكرهه روحه ، رأيت «هانئ» يرفع عمامته ، لكن مسلم لا يتحرك ، لا يقدم ، بدا لى أنه لن يفعل ، دهشت ، خفت لا .. بل ذعرت وغضبت ، هانئ يرفع عمامته للمرة الثانية .. يضيق نفسى ، ماذا جرى لابن عقيل ؟ وهنا تجلى له صوتى ، سمعنى ولم يرنى ، سمعنى ولم يسمعنى غيره .. قلت له حاثا ..

أقدم ..

يلتفت ، وجهه عذب ، تأسره حيرة .. يقول ..

هل اقتل مسلما غيلة ؟

يتملك صوتى حنق ، أقول ..

ابن زياد قاتل ، ستقتل مجرما ، ابن زياد سيقتلك ، سيمثل بك ، سيلقى برأسك من فوق سور القصر ، سيمنع الماء عن مولاى الحسين ، سيأمر بقتله

وحز رأسه ، سيشهره فى شوارع الكوفة ، سيسبى نساء الحسين ، سيوشك على قتل ابنه ، اقتله ، ربما غير قتله الأسوأ إلى الأحسن ، إلى الأفضل .. أقدم .. يقول :

لا إيمان لمن قتل مسلما ، هكذا سمعت رسول الله يقول .. لن أقتله غدراً أبداً ..

لمحت ابن زياد يتأهب للانصراف ، اندلعت خواطرى وجن فكرى ، تبعثرت فى شواردى ، مددت يدى أبغى اختطاف السيف لكن يدى غاصت فى المقبض ، كأنى أمسك بالهواء ، أو أقبض على ضباب ، خوى داخلى ، سمع ابن عقيل صوتى متعبا ، واهنا ..

لماذا ؟ لماذا لن تمضى ساعات إلا ويقتل هانئ الذى يستضيفك ويخفيك ، سيرسل ابن زياد ضابطا من عتاة ضباطه ، سيتخفى ويبحث عنك ويتبع الحيلة حتى يصل إليك ، ضابط غير معروف لك ، ولا لأهل الكوفة ، لكننى أعرفه ، وأحفظ ملامحه لماذا ؟ لماذا ؟ كان من الممكن أن يتبدل الزمان ، يسأل ابن عقيل متعجبا ..

ولكن صوت من أنت ؟.

نوديت من ركن خفى ..

جهال .. هذا ليس لك ، وأنت ليس له ..

خرجت أقتفى أثر ابن زياد ، ما يشغله ، أين يختفى مسلم ؟ لو قبض عليه ومثل به علنا سينهى هذا تردد الخائفين من الجهر بعداوة الحسين ، أما المتذبذبون فسيحسمون دخائلهم ، وهؤلاء كثرة يجب أن يوجه إليهم جل جهده الآن ، لكن قبل هذا كله أين مسلم بن عقيل؟ رأيت هذا الضابط يرتدى زى ذلك الزمان ، دققت النظر إليه يتقن دوره حتى كدت أصدقه وأنا الذى رأيت منه ما

رأيت ، عندما أخبره أحدهم أنه سيأخذه إلى ابن عقيل زعقت محذرا لكن صوتى لم ينفذ عبر الحجب ، لم يقدر على قطع المسافة من زمنى الذى أحاطنى فى هذه اللحظة كما تحيط المشيمة بالجنين . رأيت ابن زياد يستدعى « هانئ » ، يواجهه ، اقتربت تحفزت ، يرد هانئ :

والله لا أجيئك به أبداً . أنا أجيئك بضيفى لتقتله .

يرفع ابن زياد قضيبه ، يضربه على وجهه . لا يتردد لحظة أمام مكانة هانئ وشيخوخته ، يدرك ابن زياد أن أخطر ما يواجهه الآن جملة تلفظ وقد تتردد . تلك أخطر من جند كثيف . خرجت من القصر فزعا أعدو فى شوارع الكوفة ، يتردد صوتى صارخاً فيسمعه البعض ولا يسمعه آخرون ، ولم أعرف سر ذلك . واستغلق الأمر علىَّ . وإن اضمرت الاستفسار ، صرخت منبئا بمقتل هانئ ، فكنت أنا من أفضى إلى أهالى الكوفة بالنبأ . عدوت إلى مسلم لأحثه ، فى الطريق ابن عقيل يشهر سيفه فحمدت الله وأثنيت عليه ، حوله جمع وحشد ، إنه فى عدة وعدد ، كم رأيت . ربما ثلاثة أو أربعة آلاف ، يمضون إلى القصر ، ينسحب رجال الشرطة . يخلون الطرقات والميادين والنواصى ، يتردد الضابط . ماذا لو دارت الدائرة ماذا لو انقلبت الآية ؟ اذن ليتوارى مؤقتاً . أو ليتشاغل بأمر ما حتى تتضح رياح الغلبة قادمة من أى جانب ؟ يحاصر ابن زياد . معه فى القصر ثلاثون من العسس ، وعشرون من الوجهاء ، يأمر ابن زياد العسس بالتسلل إلى الخارج . يندسون . يخوفون الناس مغبة القتال ، رأيت الضوء الأحمرانى يضمد بيوت الكوفة وشواشى نخيلها ، العسس ، العسس ، كل منهم موعود بمكافأة سخية . دراهم . وقمح ، وشعير ، ومنصب ، ولفتة سنية . يندسون . ينتشرون . يهمسون . يرغبون ، يحذرون ، يخذلون الناس ، يمنون أهل الطاعة ، يذكون الطمع ، كنت أرقب

انتشارهم وهمسهم فى الآذان حينا وجهرهم بالقول ، رأيت الضابط يهمس ويوسوس ، كنت فردا ، والعسس جمعا ، صوتى غير مأذون له بالوصول إلا فى أوقات لا أعلمها ، كنت عاجزاً وهم قادرون ، ألمى عظيم لعجز القدرة عن مواجهة القدرة . عندما يواجه الإنسان عصراً بأكمله ، وزمنا رديئاً مقبلاً ، ومما يزيد فى وعورة المقام ، وصعوبة الحال ، رؤية الخلق يتحمسون لما هو ضدهم ، ويتصايحون من أجل ما يضرهم ، وهذا مقام وعر ، والكلام فيه خطر ، وقد عشته فى زمنى الدنيوى عندما رأيت بعضا من قومى وناسى يهتفون ويهللون للصلح مع الأعداء ، يهتفون لصلح ما هو بصلح ، ويرفعون الأيدى تحية لقاتليهم ، إلى هذا ألمحت ، وذلك ما عنيت عندما قلت عجبت لقومى ينتصرون عندما يهزمون ، ويهزمون عندما ينتصرون ، لكن هناك معانى أخرى ومقامات وعرة ، سأخوضها عندما يؤذن لى بذلك . ذلك تقدير العزيز العليم ، أما الآن فأغلق ذلك الباب خشية وتقية ، رأيت الخذلان ، ودبيب الوهن إلى أعضاد الرجال ، سمعت الرجل يقول للرجل : انصرف فإن الخطر شديد . سمعت شابا عفيا يهمس : يا روح ما بعدك روح . سمعت امرأة تقول لرجلها : غدا يأتيك أهل الشام فماذا ستفعل فى الحرب ؟ دم لعيالك . رأيت رجلا ينسحب ، رأيت رجلين . رأيت جمعا ينفصل . تغلق البيوت على أصحابها ، يتحول الخذلان إلى انفضاض ، إلى نكوص ، إلى هروب ، يأفل النهار ، ابن عقيل يحاصر القصر ومعه ألف . ينتبه إلى قلة العدة والعدد ، يتراجع إلى وسط المدينة ، ابن عقيل الآن فى خمسمائة ، يخترق شارعاً جانبياً ، يخرج منه ومعه ثلاثمائة . يدخل إلى المسجد فى مائة . يحين وقت الصلاة ، يصطف وراءه ثلاثون . يسلم يميناً ، يسلم يساراً ، إنه بمفرده تماماً الآن ، ما من رجل حوله ، ما من صاحب ، ما من نصير ، يخرج إلى الليل المكتمل ، إلى اقفرار الطرق ، رأيت الضابط فى ناحية من الكوفة ومعه عسس ، يظهر الهمة ، ابن عقيل غريب ، ما من يدله على

بيت يأويه ، أو شخص يجيره ، يمضى ، يبتعد عن المسجد ، يعمق السكون عندما يختفى الخلق ويعز النصير. وينأى الرفيق ويقبع الرجال خلف جدران البيت ، ابن عقيل يمضى من درب إلى درب . إنه مكلوم وخائف ، حزين لخذلانه ، وخائف على إمامه الحسين ، كيف يبلغه بما جرى ؟ كيف يثنيه عن المجىء ؟ كيف يتصل به الآن ؟ من يحمل الرسالة وأين المطايا أين ؟ إن ضنا ثقيلا يحل به . كيف يتم التحول ؟ كيف ، يتراجع الجمع ، يتستر الخذلان بالخذلان ؟ يلتفت ، لكنه واهم ، ما من صوت خلفه ، ما من دبيب ، لم يكن باستطاعته رؤيتى أو سماع خطوى لكنه شعر بى . فى نفسه جزع ، لكن ما يحيره السهولة التى تبدد بها الجمع ، تبدو الدنيا غامضة والنفوس مستعصية ، التفت إلى الحسين ، وددت لو أرجوه تمكينى من التخفيف على ابن عقيل ، ألجمنى مقدار ما يفيض على وجهه من حنو وتأثر ، عدت إلى ابن عقيل ، سعيت ، وددت لو أحذره من اللجوء إلى بيت المرأة ، تمنيت لو أخبره عن ابنها الذى سيرشد جند ابن زياد إليه . كيف أعرف ولا انطق ؟ لكن الديوان لم يأذن لى ، لم يرفع الحجب بينى وبينه ، غير أن طبيعتى الإنسانية تغلبت علىَّ فاندفعت أجرى زاعقاً ..

يا ابن عقيل احذر ..

لم يلتفت .

يا ابن عقيل انتبه ..

توقفت ، بدأ يستدير إلىَّ ليتخذ وضعاً يواجهنى به ، وما لبث أمرى أن اضطرب ، وقذف بى فى منزل الدهشة والروع ، أمامى أبى ، رأيته متعباً ، غريباً ، عليه ثقل الأيام ، معفر الثياب ، وكان وجهه على مثال وجهه فى العام الذى لم أدر فى حينه أنه الأخير ، العام الذى تضاءل فيه جسده ، وشحب

حجمه ، وضاقت حدقتا عينيه ، ووهنت ضحكته ، وتباطأت حركته ، وقوى سعاله ، قلت بعد أن خفت دهشتى ..

ماذا تفعل فى الكوفة يا أبى ؟.

لم يجبنى ، رددت .

أبى ، أنت فى أرض لم تطأها أبداً ، أنت غريب مثلى .

يدوم صمته عنى ، تدهمنى وحشة ، يبرد داخلى ، أصير فى غم ، رأيت نفسى بعين نفسى ، رأيتنى فى بلد غريب انزله والعصر مقبض ، بلد لا أعرف فيه أحداً ، لا ينتظرنى أحد ، ولا أقصد انساناً ، لا أدرى أين مبيتى ؟ لا أعرف مأواى ؟ الكل يسرع حولى ، والنوافذ مغلقة ، وضوء المصابيح يلوح من خلف زجاج بعضها فيشى بجلسة ليلية ، ودفء ورائحة طعام ، فيتضاعف حرمانى ، وتعمق وحدتى ، رأيت أبى والهموم متكأكئة عليه ، هذا وجهه عندما شكالى وحدته ، وأن لا أحد يكلمه ، وكل مشغول بنفسه ، قلت :

ضيعت زمنى معك ، دعنى اصحبك الآن ..

يمد يده باسطاً أصابعه ، يمنعنى .. اذن .. هو يسمعنى ، متى أسمع ومتى لا أسمع ؟ متى تنزل الحجب ومتى ترتفع ؟ لا أدرى ، عندما يحين الأوان سأسأل الديوان ، أبى يشير إلىَّ ، اشارته على رأس القرب ، ورأس البعد حاسمة ، لم أحاول ، رأيت مصدر الشفق بالقرب منه ، منبعه الذى يصدر منه ويفيض مؤذناً بلحظات الغروب ، فى الجهة المقابلة رأيت صفيى ، عرفت أنه فى شغل عنى ، ليل دامس ، لكننى كنت قادراً على النفاذ فيه بنظرى وكأنه نهار ساطع مشمس ، أرى السواقى والأبراج والجسور المؤدية ، والأراضى التى تنز بالماء ، وجرذان الجحور والنخيل ، اهتزاز شوارب صراصير الليل فى سعيها ، كان بمقدورى احصاء خيوط بيوت العنكبوت ، كنت أرى

ما أمامى. وما ورائى ، لا تحول دونى حواجز ، كنت أرى شيئين مختلفين من زمنين متباعدين ، اصغيت فسمعت أنين التراب ، وضيق جذور النبات بتربة مستعصية ، ثم رأيت ظلا يعدو ، رأيت بيوت الكوفة مطلة على دروب جهينة قريتى ، أما النخيل الكثيف ، فنخيل البصيرة ، والهواء الجاف من الحجاز ، والنجوم البادية من سماء بحر عدن ، والرائحة من مداخل طولكرم ، تدفق مياه القنوات وسرعتها من فاس المغربية أما المياه ذاتها فمن عيون اليمن ، يطالعنى أبى ، إنه صبى مفزوع ، أنفاسه عجلى ، وقلبه مهرول ، رأيت عمه يعدو وراءه رأيتهما معاً ، مع أن كلاً منهما لا يرى الآخر ، طريق ملتو يفصلهما ، عمه يجرى بعد أن لمحه ، يبغى خنقه ، الخلاص منه والانفراد بالبيت والأرض والنخلات ، أبى يجرى ، ما من مغيث ، ما من منقذ ، صرخت انبثه بمكان عمى ، لم أدر .. هل وصله صوتى أم لا؟. لكننى رأيته يقفز سور جرن قديم ، يحفر لنفسه فى كوم تبن ، اسمع صوتا يخاطبنى فيه ثبوتية ، وديمومة ، إنه ضوء النجم القصى . قال إن ما رأيته وما تراه سيحفر علامة داخل أبيك . سيعاوده ذلك فى صحوه ونومه ، وسيعاوده فى آخر ساعة قضاها نائماً قبل رحيله سألت ..

أهى الصورة الأخيرة التى ستلوح له من الدنيا ؟
لم يجبنى النجم القصى . سألت ..
أى تاريخ هذا ، ما موقع اللحظة من الزمن المعدود ؟
لكن الحوار انقطع

سمعت شجوا وأنينا ، يبعد عم أبى أو من هو فى مقام جدى ، رأيت أبى يرتجف كفرخ مبلول ، مع قدوم الفجر يدخل رجل ، يشعر بوجود أبى ، يتساءل : من إنس أم جن؟ يقل خوف أبى ، يتحدث إلى الرجل بما

جرى . يصحبه إلى داخل البيت ، يضع أمامه صحنا فيه لبن ساخن ورغيف وقطعة جبن يقول أبى بصوته كما بدا فى السنوات الأخيرة ..

والله لم أذق لقمة منذ يومين .

يربت الرجل على كتفه ، يؤلمنى جوعه ، وخوفه ، وحزنه ، وضيقه ، فأبسط يدى أمام عينى ، أقول متأسياً ، حسبى !.

إيضاح ..

.. حدثنى خالى فى الزمن الذى خلا من أبى ، وغودر فيه قلبى ، قال إنه يذكر رجلا اسمه عبد الكريم زيدان ، كان المرحوم يوده كثيراً ، فى كل زيارة إلى البلدة لا ينساه ، يحضر له شيئاً ، قماش جلباب ، فى مرة أخرى شمسية ، أو سبحة من خشب الصندل عطر الرائحة يحرص على شرائها من جوار ضريح الحسين ، علبة حلوى طحينية ، أو شالاً قطنياً من الغورية ، قبل أن يموت عبد الكريم زيدان بشهرين جاء أبى إلى البلدة وزاره ، حمل إليه صندوقا صغيراً ، فيه سكر ، وشاى ، وخمس قطع من الصابون المعطر ..

تجلى سريانى ..

رحيلى دؤوب وشفيعى يؤنسنى ، لا تفزعنى البوادى ، ولا تصرفنى الهواجم ، ألبس كل ما أنا مؤهل له ، من رداء شوق ، وقميص هوى ، وصدار وجد ، وسترة حنين ، تتكشف لى الزواهر ، وتبرق لى نجومى الطوالع ، تبصر عيناى ما لا يبصر ، تناولى شاسع وادراكى فسيح ، أما شجنى فرهيف ، يتغير حالى مع أنفاسى ، يدوم سفرى ، ويستحيل

استيطانى ، أسافر فى وقوفى ، وأقف فى سفرى ، لا تأخذنى سنة ولا نوم ، ولا ترهقنى مشقة أو غفلة ، ولا تمس ذاكرتى علة ، ولا تهددنى عزلة برفقة حبيبى ، لا تلحقنى آفة ، فطوفة بطوفة ، ونظرة بنظرة ، وحنين بحنين ، وشوق بشوق .. وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان ؟..

رقيقة ..

أحبكم ما دمت حيا فإن مت يحبكم عظمى فى التراب رميم

وصل فى وصل

.. يدوم صمت عبد الناصر فلا رد ، يومئ الضابط ، تحتك أحذية الحراس الثلاثة ، تشى بالقسوة التى تدنو ، أشعر بحضور عبد الناصر الجليل ، الوعر ، هيكله الفاره الذى يفوق وجوده المادى ، ومشيب فوديه ، وتلك الألفة المرققة ، رأيت مواكبه عندما كان مكتملا غير منقوص ، لم يمل بعد إلى محاق ، كان لحناً لم يتم ، واطلالة فى اشراقات الأعياد ، وانتظار لطلاته ، كان وكنت وكان أبى ، وكنا شملا ملتئما ، والزمان فى ظاهره نضر يخفى ولا يعلن ، يبطن ولا يظهر ، لا يبوح ، لا يشى بما هو آت ، بعوامض العيب ، يستعصى على الأبصار المحدقة ، رأيت بأسى تهدل جلده ، وانكسارة ظهره ، وتعبه فى مواجهة هذا الضابط القادم من منازل الضر والبلوى ، إنه حليق الذقن ، مدبوغ الجلد ، نفس الرائحة التى وخزت شعيرات أنفى وأنا معصوب العينين ، لا حول لى ولا قوة ، رأيت صغره فى مواجهة الكبر المدفون ، والضآلة فى مواجهة الشمول ، والتقييد يقابل الحركة ، الماء الآسن والماء

الآجن ، الماء العطن والماء المزهر السلسبيل ، ينتفض الضابط ، لا يخفى هياجه ، يخالف الأصول التى تعلمها .

لا ترد إذن .. أنت لا تعرف ماذا ينتظرك ؟ ..

يقف الضابط فجأة ، ينظر إلى مدخل زنزانة التحقيق ، أرى وجوها مطلة ، وجوها اسرائيلية ، وأخرى أمريكية ، ممثلين عن الموساد ، والاستخبارات العسكرية ، ومدير المخابرات المركزية . يختفى الضابط من مجال بصرى ، تتمطى ظلال ، وتتردد الأصوات متعاقبة ..

أنت متهم بمعاداة أصحاب النهى والأمر .. فى العالم .

أنت بنيت السد ..

عاديت الأسياد فى البيت الأبيض ، والبنتاجون والسينيت ..

انحزت إلى الفقير وعاديت الغنى .

تطلعت إلى المستقبل ..

تتكاثر الأصوات ، تختلط ، بصعوبة أميزه عندما كان فتياً عفياً وأيامه واعدة ، يعلن تأميم القناة ، الناس يصفقون ، يزأرون ، أين ذهبوا ، أين راحوا ؟ اسمه يعلن التحدى ، يستعيد مجد الأيام القصية ، يبث العزيمة ، لم يكن لدينا جهاز راديو . خرجت من غرفتنا فوق السطح ، شببت على قدمى ، وأمسكت بيدى حافة السور فالتصق بجلدى طلاء مقشور بللته الرطوبة ، صوته قادم من الطابق الأرضى ، عبر المنور ، يتصاعد ، والليل فى أوله ، وإذ أرفع رأسى ، أرى لوحة اعلانية تضىء فى الأفق البعيد بالأحمر والأزرق ، فوق السطح جلست ، أرتدى جلباباً بنى اللون ، أبى يقف فى الركن بجوار عصا الايريال الخشبى لراديو الجيران ، نحملق فى السماء ، ثلاث طائرات على ارتفاع منخفض تعقبها ثلاث أخرى ، تصعد إلينا الست

روحية ، يسألها أبي عما جرى فى البلد فتقول انه الجيش ، وأن الملك انتهى ، والناس يقولون إن الجيش سيرخص الحاجة ، ويجعل ركوب المواصلات مجانا ، صباح اليوم التالى نزلت . قطعت الطريق من مدخل حارتنا ، مررت بدكان الباجورى ، ومحمد الخضرى ، وجلال الطعمجى ، وتوقفت عند عم محمد بائع الصحف ، اشتريت الأهرام ، الصفحة الأولى ، صورة كبيرة لقائد الثورة تتوسط الصفحة ، وصورة أقل حجمًا له ، ينظر نظرة جانبية ، نحيل ، أنفه كبير ، بهى الطلعة ، صور أخرى متساوية الحجم ، فوق السطح تمدد فوق ظهره ، يسند رأسه إلى الجدار ، رحت أقرأ له الأسماء ، لم نتوقف عنده بالذات . صحبنى أبي وصحب أخى إذكان يحرص على صحبتنا . ذهب بنا إلى ملعب فى خلاء الدراسة ، مدرجات خشبية ، ومدعورن [illegible] بيب ولافتات من تجار الحى ترحب بالقادة الأحرار ، سمعت أن الشرطة ستقدم عرضاً ، رأيت بالونات منتفخة فى أرض الملعب المفروشة برمل أصفر غامق ، من أقصى الملعب تنطلق خيول يركبها فرسان بثياب مزركشة ، يعدون ، يركضون ، يفجرون البالونات ، يعلو تصفيق ، ثم تمر طوابير كشافة ، رأيت المناديل الخضراء حول أعناقهم والحبال البيضاء التى تنتهى بالصفارات ، وأحزمة جلدية تتدلى منها خناجر ، يلتفون ناحية موضع من المنصة ، يرفعون أيديهم ، فى هذا الموضع كان هو ، لم أره . لكننى سمعت صوته . وكان مجلجلا ، تتخلله وقفات . تلك أول مرة أسمعه ، انصرفنا ، وسقانا أبي عصير القصب ، سمعت صوته بعد توالى السنين مهموما يعلن الانكسارة وضياع الجند ، وتلك بداية المحاق ، وأول اشارات الغروب الذى أثقلنا واعتم نشأتنا ، وأجهز على ما أجهز غير أنه لم يلحق الضر بالعصر الذى سمعته فيه أول مرة ، ولا بخطو أبي عند صحبتنا له ، ومشيه معنا ، لم يلحق الضر وان ولّى هذا كله فلا انكفئ لأراه إلا داخل رحيلى هذا ، أما فى عالم الحس فإدراكه وعر ومحال ،

وإن كنت أودعت اللحظات مقدارا من وجودى ، ومسافة من زمنى ، سمعت ركلا ، ثم صفعا ، لكننى لم أسمع انينا أو صراخاً أو استجداء مرحمة مع أنه تجاوز الخمسين وآخر عهدنا به كان مثقلا بالأوجاع وداء السكر وعطب القلب ، احتد الأمر ، تداخلت الأصوات ، استطعت تمييز ضيق الأنفاس وتفتق الجرح وانين العصب ، تتكاثر علىّ الأصوات والرؤى ، تتطاير حولى شظايا زمنى ، الذى هو بعض زمنه ، أود لو أطلب التفسيرات . تأخذنى هزات الشجى ، يشملنى أسى ، يضمدنى جرح ، يثقل علىَّ فأهرع موليا ، أسمع بكاء قديماً . أنظر ويا ليتنى ما نظرت ، مسلم ابن عقيل محطم الأسنان ، مدلى الفك ، عطشه شديد ، عيناه تدمعان بعد وقوعه فى الأسر ، إنه عاجز ، محاط ، مسلوب السيف بعد أن صال وجال ، يقول أحد الواقفين : إن من يطلب مثل الذى تطلب إذا نزل به مثل الذى نزل بك لم يبك . يقول ابن عقيل : والله ما لنفسى أبكى ، ولا لها من القتل أرثى ، لكننى أبكى لأهلى المقبلين أبكى للحسين ، وآل الحسين . اسمع رجفة ، ألتفت ، أرى مولاى يأسو ويحزن ، أرى جبينه الوضاء يتغضن ، أمسكت نفسى عن نفسى ، صمت عن النظر ، كففت عن الفضول ، توجعت ، أمثل محبوبى يتألم ولو للحظة ؟ نسيت أنه كان بشراً سوياً ، لكن لم يدم ذلك ، إذ وهنت على مهل شمسى ، واصفر كونى ، ودنا ليلى ، وبدت فى أفق أول نجومى الذاريات ، امتلأت حاسة شمى برائحة تراب بلدتنا ، ورائحة البئر القديمة التى غطيت جدرانها بالطحالب الخضراء ، ورائحة قواديس الساقية ، وهذا كله عبر الفراغات إلى رئتى أبى ، وطرق مناماته ، رأيت أضواء البيوت فى الكوفة ، ورأيت نملة سوداء تدب فى ليل أليل على صخرة صماء ، تواصل سعيى وكنت غير مكتمل بعد وإذا اكتمل الإنسان يرحل كالناقلة إذ تتم حمولتها تبحر أو تقلع أو تتحرك وثمة عودة . لكن الإنسان هو الوحيد الذى يكتمل فيمضى ولكن بلا رجعة .. فالنجا ، النجا ..

خـاطـرة ..

.. الموت موتان ، موت أعظم وموت أصغر ، أما الموت الأعظم فيتمثل فى السكوت على الجور ، والتغاضى عن الزيف ، واخماد الضمائر ، وغض البصر عن الحق المهضوم والتشاغل عنه بطلب المنصب الزائل ، والمال المكتنز ، كذا الرضا بالأمر الواقع والنأى عن محاولة تغييره والتقاعس عن الجهاد ، أما الموت الأصغر فهو بطلان الحواس ، وتوقف الأنفاس ، وهجوع القلب ، وبرودة الجسد عند مفارقة الروح ويبوسة الأطراف ...

الـخـرجـات

.. تلك لحظة شروقية ولا شروق ، حمرة وصفرة وزرقة بعيدة وشفافية غامضة ، فى النور الرقيق الحنون رئيسة الديوان ، ستنا الطاهرة زينب ، سنية ، عذبة ، مطمئنة ، ودالة ، تملأ الجهات الأربع ، هذا مولانا الحسن متولياً على النواحى الواقعة إلى يمين الموجودات ، أما ذاك فلب الضياء ومبدد العتمة ، سيد الشهداء وشفيعى ودليلى وأمانى فى خوفى . لم أدر موضعى أو فى أى جانب أنا ؟ انفلق الضياء عن قرية مبانيها متجاورة ومتباعدة ، طرقاتها رملية ، تلك لحظة الحسين من مكة ، يصحبه أهله وصحبه ، تتهادى رحله ، والدرب وعرة ، أما المقصد فالكوفة ، قيل له أن يسلك طريقاً جانبية لكنه أبى ، إنه يمضى فوق الأرض التى مهدتها أقدام المسافرين ، لا يخشى عيون يزيد المدسوسة ، قلبه منقبض ، والشواهد عكرة ، لكن الانقباض قد يعقبه بسط ، والضيق ربما تلاه فرج ، أما السكوت عن الضيم فهو الهلاك المبين ، قبل خروجه طاف بمكة ، تذكر المواضع الأول . تلك التى تمهل عندها ،

والتى آوى إليها ، والتى هزه الحنين فى ظلالها ، تلك التى شهدت أيامه الأولى عندما كان أبوه غضاً وغصنه مورقاً وكان جده الكريم يملأ الدنيا ، استعاد اللحظات الآمنة ، أيام طفولته فى المدينة ، واللعب ، وهذه الربى ، وتمنى لو ألقى نظرة ربما تكون الأخيرة ، تذكرت هذه النسمات التى تتسلل عبر قيظ الصحراء ، لثم بعينيه الكعبة ، شرب ماء زمزم ، طاف بالزوايا والأركان ، تلك التى أودع عند كل منها مقداراً من الأيام الرواحل ، خاطر يهب على روحه قاسياً فى رقته ، حاداً فى رهافته ، ينبئه أنه لن يرى هذا كله ، يحاول اقصاءه، يمضى إلى تفرقة ما فاض عن حاجته على الفقراء والمرضى ، فى لحظة خاطفة استكان وجهه لتعبير غريب لازمه ولم يفارقه ، يودع مكة ، يخرج ، على الطريق المؤدية يلتقى الفرزدق ، يسأل عن حال القوم ، يقول الفرزدق حزيناً إن قلوبهم معه ، وسيوفهم عليه . إذن الأمر كما حدثه قلبه ، يستمر رحيله ، خروج ولا دخول ، المصير المنتظر يتكشف له عند كل خطوة ، يستدير الزمن ، ينهل من منزل الضر والبلوى ، بعد مرحلة أخرى يقابله رسول ابن عقيل ، يفضى إليه بالأنباء الموجعة ، بالأخبار الجسام .. إذن ، لم يعد المصير مجهولاً ، هذا هو الحسين فى ركبه.. وضاء ، عازم ، مرقرق الفؤاد ، صادق النوايا ، ليواجه بعمره من يريدون شد حياة الخلق إلى الوراء ، إلى عصور الجاهلية الأولى ، إلى ما يثقل الوجود الإنسانى المحدود بالشقاء ، فى ركن قصى من قلبه المكلوم أمل بمواجهة القوم ، مجادلتهم ، محاولة ثنيهم عن تقاعسهم ، وخوفهم من السلطان الزائل ، لكن الخواطر تنبئه بما سيجرى وما سيكون من سفح دمه . فليكن عمره محدوداً ، ولكن ما سيحدثه قتله على أيديهم سيتأجج بعد أن يبدأ مجرد جذوة ، إنه يوشك أن يرى بعينيه ما سيجرى هنا نظرت إلى مركز الديوان ، أعضاؤه وأوتاده وأركانه يرقبون

ويصغون ، حسينى ينظر إلى نفسه بنفسه ، فى خاطرى تكأكأت الأفكار والقول ، ما من مجال للحديث إليهم ، ليس بوسعى إلا التلقى ، كنت هادئاً غير مستوحش ، يخرج الحسين إلى كربلاء ، رأيته ، واستعاد الديوان معى اللحظات الجسام ، رأيته ، ورأيت بعده خروج الندى والطل ، رأيت خروج الزهر من الأكمام ، وخروج الموجة من رحم الموجة ، خروج اللحظة من اللحظة ، رأيت خروج النظرة إلى المنظور ، ولحظة خروج النهار من الليل ، وخروج النجم من باطن الكون ، خروج الدمعة ، رأيت ما أحدثه خروج عبد الناصر فى ذلك الزمان الغريب ، الناس يتحدثون عن ظهوره ، يؤكد الذين شاهدوا الواقعة فى ميدان الدقى أنه هو . الملامح ملامحه ، والقسمات نفس القسمات التى تحملها الصور القديمة . والقسمات نفس القسمات التى تحملها الصور القديمة . يؤكد رجل متعب أنه لا يمكن أن يخطئ وجهه أبداً ، تقسم فتاة شابة لم تعش زمنه الدنيوى أن صوته الزاعق هو هو نفس الصوت الذى اصغت إليه طويلاً خلال التسجيل المتداول سراً ، يقول فلاح فى البرارى القصية إن عبد الناصر جاء ملبياً نداء الذين لا حول لهم ولا سند . وأنه جاء لأن هذا البلد محمى بآل البيت ، فيه الحسين ، والسيدة زينب رئيسة الديوان ، وسيدى زين العابدين ، والسيدة فاطمة النبوية ، والسيدة سكينة ، والسيدة رقية ، والسيدة نفيسة ، رحمهم الله أجمعين ، يؤكد صحفى شاب أن عبد الناصر هرب من سجنه ، وأنه خرج ، خرج مضمد الجبين ، به عرج خفيف ، وأنه شوهد فى عربة أجرة بصحبة ثلاثة لا يعرفهم ، وأن تهريبه تم بعد تدبير عظيم ، رأيت الحيطة والحذر ، جنوداً غرباء يقفون عند المفارق ، يشهرون الأسلحة العجيبة ، يدققون فى المارة ، يتفرسون فى الملامح ، والهويات ، وأوراق اثبات الشخصية ، رأيت رجال المخابرات المركزية يوقفون

القطارات ، والسيارات ، ويقلبون الحمولات ، ويمسكون بالمنافذ ، أيقنت أن ثمة أمراً يجرى لكننى لم أقف عليه ، كدت أسأل ، لكنى رحلت إلى لحظة ماضية فرأيت عبد الناصر مرتدياً زيه العسكرى ، لحظة خروجه معلناً الثورة ، ثم تبدلت الرؤيا فإذا به فى صحراء نائية يدبر أمراً ، وكان فى قلة وعرفت أنه سيكون من أمره ما يكون ، رأيت الخفقة تخرج من الخفقة ، والدم يضخه القلب فيتدفق ويسعى ، ليس للإنسان إلا ما سعى ، سبحانك ! ، تتبدل أنفاسى فأرى خروج أبى من البلدة ، من قريته ، من موضعه الأول وأيامه الأولى ، يمشى مع مثيل له فى العمر اسمه عمر ، يسعيان باتجاه الجسر ، يولى أبى ظهره للبيوت ، يودع دنيا ويستقبل دنيا ، الأولى معروفة والثانية مجهولة ، يتوقف ، يستدير ، البيوت يداريها النخيل والدوم والسنط واللبخ ، عيناه تدمعان ، لا يهون عليه فراق البلدة إلى أرض لم يرها ولم يطأها ، لا تهون عليه جهينة مع أنه شرب المر فيها ، سقاه عمه التوتياء والمر والحنظل ، صبغ أيامه بالنيلة ، أوشك على الفتك به ، أوثقه ذات ليلة واتجه به إلى الترعة قاصداً اثقاله بالحجارة واغراقه لولا الصدفة التى دفعت إلى طريقه برجل طيب ، باشجاويش النقطة واسمه أحمد حسين ، ولولا ضابط النقطة واسمه أبو حشيش ، ولكل منهما مواقف ومقامات وأحوال سترد فى موضعها عندما يحين الحين ويأذن الكريم ، ويسمح لى أركان الديوان ، جعلنى الله من الساعين إليهم دائمًا ، ومن الطوافين حولهم ، والمتمسحين بأعتابهم وأطراف مقاماتهم وأطياف ظهورهم . رأيت أبى يدمع عند الجسر ، عند اختفاء البيوت التى لم يعرفها إلا دائمًا على اعتابها ، رأيته يدمع لأنه يعرف أن ما كان لن يكون ، إنه عندما يعود إلى البلدة يوماً ، قرب أو بعد ، سيجد أن كل ما يعرفه قد نأى عنه بدرجه أو أخرى ، هذا ما أدركه أبى وهو غض العمر ، وهو معنى لم

أصل أنا إليه إلا بعد أن نالت السهام منى وكثرت جراحاتى ، استغرق أبى عامين يعد نفسه للخروج بعد أن صار عيشه صعباً ، فى ليلة طقت الفكرة فى رأسه فخشيها وأرجف خيفة منها ، شجعه وقوى قلبه رجل طيب اسمه محمد على ، استفسر أبى عن مصر ، عن الحياة فيها ، عن شكل بيوتها ، عن سبل الرزق ، والمسعى ، والمأوى ، وعناوين الأقارب ، حفظها وتلاها مرات بينه وبين نفسه ، عزم ثم انثنى ثم عزم ، استدار الزمن الأكرى ، فرأيت أبى الذى أعرفه عند شروعه فى سفر لزيارة ولى من أولياء الله أو لزيارة أحمد حسين رجل البوليس الذى انقذه ، رأيته عندما يروح ويجىء يسأل عن مواعيد القطارات ، السريع منها والبطىء . ثم شرائه الهدايا ، احضاره القفة الفارغة المجدولة من الخوص ، يرتب اللفافات ثم يفرغها ، يخرج ما وضعه ، يحاذر أن يضع الشاى بجوار الصابون ، يلف الأكياس بورق جريدة قديمة ، يرتب الأشياء من جديد ، فى الليل يتقلب ، وإلى المحطة يصل قبل ميعاد القطار بساعات ، هذا قلقه كما عرفته مع أن سفراته تلك موقوتة ، سفرات لها رجعات ، أى حيرة ؟ أى أسى ؟ أى شجن ؟ أى ليال ثقال مرت عليه قبل أن تحين لحظة خروجه من البلدة

وصديرى داخلى ، سروالين من الدمور ، إلى صدره يضم عشرة جنيهات ، ما ادخره عبر سنوات من عائد الفدان ونصف الفدان ، نظرت إلى مولاى وقبلة قلبى وحنينى .. الحسين . أدرك ما جال بخاطرى ، جاءنى الجواب ، عرفت أن أبى ضاق بالدنيا حتى بدت له أحيانا أضيق من ثقب ابرة ، لكن كان لديه فضول ، وعنده أمل ، سيعطى هذه الجنيهات العشرة لأحد المعارف فى مصر ، سيرجوه أن يلحقه مجاوراً بالأزهر ، سيتعلم ، سيعرف الحرف من الحرف ، سيفسر الكلم ، وسيقرأ القرآن ، والأحاديث ، والتفاسير ، سيتلو .

ويكتب . ويتفقه ، سيعرف الدنيا فالجهل عماء ، سيحاول أن يعرف مواقع النجوم ، ودورات الشمس والقمر ، وأسماء الأزهار ، وتواريخ العظماء والسير ، كان أبي مولعاً بتتبع الانساب ، كل بلدة ومن انجبت ؟ والوقوف على أعمال الناس فى الأزمنة الممحية ، كان حاد الذاكرة فإذا سمع اسمًا لا ينساه أبداً ، وإذ مر بيوم شتوى غائم فلا يروح بدرجات ضوئه الرمادية من وعيه أبداً ، وإذا جلس فى جمع فإنه يذكر ترتيب جلوسهم ولون أرديتهم بعد انقضاء عشرات السنين ، كان يذكر أسماء الأيام التى غزر فيها المطر أو اشتد الحر على غير عادته فى عام بعيد ، تلك ذاكرة لم تخب أبداً حتى ليلة الثامن والعشرين من أكتوبر ، الليلة التى كنت فيها نائيا عنه . أتابع الخطى التى بتواليها يكتمل خروجه إلى مصر ، مصر ضروعها كثيرة ولن يعدم مورد رزق يعينه حتى يتعلم ، حتى يقرأ ويكتب ، حتى يعرف ما لا ترويه الألسنة شفاهة ، ها هو يقطع جزءاً طويلاً من الطريق المؤدى إلى طهطا ، أول المدن فى طريقه ، وهنا وقع لى ماكنت أرجوه ، أذن لى الديوان كله بالظهور لأبى ، تجليت له على الطريق ، كنت شاباً فى العشرين ، ارتدى جلباباً أبيض وطاقية من الصوف وأقبض على عصا من الخيزران ، ولم أدر.. ملامحى أهى ملامحى أم ملامح أخرى ؟ يتقدم منى أبى ، أرقبه يمشى والعالم خلو منى بعد ! يتجاوزنى ، يعود إلى ، يسألنى عن المسافة المتبقية إلى طهطا يسألنى ورفيق رحلته بعيد عنا ، والنهار مليح حان ، تسنح لى الفرصة فأتملى من وجهه ، أرصد مواطن الحزن والحنين حول عينيه ، وفمه ، يتصل الشجو الغامض منى إليه ، ومنه إلىَّ ، أصف له الطريق ، أذكر له منحنى بين النخيل ، ومصرف لابد من عبوره عند قرية الطليحات وجزء مبتل ، طينى ، عليه أن يتجنبه ، ومنزل لثرى حوله كلاب ، فليحذرها ، وشمس ربما تشتد ظهراً ، إذن فلا

يخوض فى حقول الذرة والممرات التى تتخللها ، ليلزم الطريق ستظلله أشجارها ، يشكرنى ، ويدعو لى بالستر ، يكاد يسألنى ، من أنا ؟ لكنه يخجل ، يستدير فأصيح عليه ، يلتفت ودهشة تحتويه «أتعرفنى يا ابن الناس» ؟ ، يبتسم له فمى ، تمتد يدى بالخيزرانه ، أقول «رافقتك السلامة .. يبدو أن سفرك طويل ، خذ هذه لتمنع الكلاب عنك » ، يدعو لى مرة أخرى ، يستدير ممسكاً بالعصا ، وتلك عصا احتفظ بها طوال عمره ، حتى فى أيام غضبه وهجره البيت كان يصحبها معه ، عصا لم أدر مصدرها إلا فى أسفارى ، أما منشؤها ومنبتها فهذا ما لم أحط به خبراً ، من توكأ عليها ، وأى مآرب كانت فيها ؟ وعلى أى الأغنام أو الحيوانات هشت ، وإلى أى الصور تحولت ؟؟ فهذا ما لم أحط به خبراً . ها هو ينصرف عنى ، يمد الخطو ليلحق بصاحبه ، يحاوره ، تمنيت له السلامة ، توجهت إلى رئيسة الديوان أن تحيطه برعايتها فى خروجه هذا ، ينقصنى وجودى الذى تم قبل أن أبدأ ، افترق قبل أن أتجمع . أسأل عن السنة ، تجيئنى الإجابة هذه المرة . إنه العام الثالث والعشرون بعد التسعمائة والألف التالية على ميلاد السيد المسيح ، لكن لم يفص إلىّ باليوم أو الشهر ، وإن تجلت لى معارف تعجبت منها ، لحظة مفارقته حدود البلدة ، حطت يمامة مهاجرة فوق بقعة مجاورة لمقابر قديمة جنوب الفسطاط ، وسطعت شمس فوق رمال صحراوية تقع شرق العباسية ، أحصى رجل اسمه الرمالى مقداراً من المال ، وتلقى طالب حقوق اسمه محمد خلف هدية من نابولى ، علبة حلوى محشوة باللوز ، كان ما بين خروجه ولحظة خروجه الأبدى من الدنيا سبع وخمسون سنة ، ولحظة ميلاد أمى يومان اثنان ولحظة ميلادى اثنان وعشرون عاماً ، وزواجه من أمى ست عشرة سنة ، وكان بين خروجه وخروج الحسين إلى كربلاء ألف ومائتان وثلاث وأربعون سنة ميلادية ، وبين

خروجه وخروج عبد الناصر من الدنيا سبعة وأربعين سنة ، وبين خروجه ومجىء الاسرائيليين إلى مصر أربع وخمسون سنة ، وكان بين مجيئهم ورحيله عنا ثلاث سنوات ، وكانت مدة إقامته فى الدنيا ثمانين عاماً ـ كما قالت أمى ـ وتسعين ـ كما قالت عمتى ـ وأكثر من مائة ـ كما أكد أحد أقاربه المعمرين . أما السجلات الرسمية فقالت ، اثنان وستون ، عبثاً حاولت أن أعرف الحقيقة من مولاى ، من سيدتنا الطاهرة ، امتنع عنى ذلك ، عدت إلى أبى . هفهفت حوله وهو يركب مع صاحبه عربة بضاعة فى قطار بطىء يتجه إلى مصر تهاديت بجوار ركب الحسين السارى إلى الكوفة ، تأكد لى هرب عبد الناصر من سجنه ، تنقلت وتتابعت حركتى ، تشتد رآى ، يعود الحسين إلى جوارى .. آسف .. أعود أنا إليه ، يطبطب علىّ ، يتحن علىّ ، يقوى عصدى ، يثبت قلبى . أقول ..

غربتى فى ازدياد بعد كل ما تجلى لى

يقول

كل ما خلق لابد أن يرجع إلى ماكان عليه ، هذا مقطوع به

الحنين فى عينى أبى يعاودنى ، قلبى مثقل ، ملامح عبد الناصر فى مواجهة الضابط ، آلام ابن عقيل ، أقول ..

أخشى ما ينتظرنى

يقول :

ليت الجاهل يعلم بما ليس يدرى

أقول .

ردنى

يقول

ألا تؤمن ؟.

قلت :

بلى .. ولكن ليطمئن قلبى ..

وهنا رأيته فى موضع قصى من الديوان . وجلت ، فلم استطع كتمان ما بى ، تساءلت ..

فى أى اصقاع نسافر ؟ فى أى رحم ينبت النسيان ؟ أى ميشمة ثقيلة تحتوى الذكرى ؟ أى مثوى يخفى الأيام. والليالى ..

رأيت الحسين غاضباً ، يواجهنى .

ألم أقل لك ..

انكسرت ، وانكسر خاطرى ، وصار لعابى مراً ، لم ألفظ ، قال :

ألم أحذرك .. ثمة شىء واحد لا تسأل عنه أبداً ..

ركضت دقات قلبى تأسفا وحسرة ..

راح من أمامى ، رأيته فى موضعه من الديوان ، لم أدر إن كنت عدت إلى ما بدأت منه ، أم أننى فى موضعى الصحيح ؟

توجع وأنين ..

لقد لاقيت من أسفارى هذه تعباً ونصباً .

المـــوَاقــف

موقف

التأهب

هي الشمس إلا أن للشمس غيبة
وهذا الذي نعنيه ليس يغيب

أوقفني في موقف التأهب ، ثم فارقني ، هجرني ونأى عني فصرت إلى غربة وقفر بعد أنس وألفة ، صرت إلى جفوة بعد وصل ومودة ورحمة ، صرت بمفردي ، غريباً في غربتي ، نائياً في نأيي ، بعيداً في بعادي ، لكنني أشبه بمن يستجمع كافة قواه تأهباً لانطلاق عظيم ، كنت قادراً على رؤية ما أمامي وما ورائي ، فوقي وتحتي بدون حركة من عيني أو رأسي ، صرت بصراً كلي ، كأني الناظر والمنظور إليه كأني الرائي والمرئي ، رأيت طائراً عجيباً لا عهد لي بمثله في طيور الدنيا قد من ضوء ولطيف ، ريشه يجمع لألوان الدنيا ، أما رأسه فرأس بشرية ، ووجهه آدمي ، حدثني قلبي أنني أعرف الملامح لكنني لم أتمكن من تدقيق بصري لشدة الألق فعرفت أن أوان معرفتي له لم يحن بعد ، رأيته يحوم في سماء الديوان ، ولكنها محيطة بالديوان إحاطة بياض البيضة بصفارها ، بدا لي الطائر العجيب محلقاً إلى أعلى وإلى أسفل ، صعوده هبوط ، ونزوله طلوع ، وإذا به ينطق ، فيأمرني بالتأهب ، فخضعت واستجبت ، لم أنتبه خوفي وإن انحصرت الدهشة لأن مولاي

فارقنى وهو الصاحب والرفيق والدليل الذى به اهتدى ، سكت ، وإن عرفت أن كل ما يرد على عقلى من خواطر ، وكل ما يرعش قلبى من أحاسيس معروف مدرك لسادة الديوان سادتى ، عند نقطة بعينها رأيت رجلين يقفان فيما يشبه الضباب، وخطر لقلبى أن شذا أيامهما شديد القرب منى، أخبرانى بالصمت أنهما تلقياً أمراً كالذى تلقيته ، ثم أوضحا لى مقصدنا ، ونهاية وجهتنا ، كربلاء ونقطة قصية من الزمن ، ولينا وجهتنا صوب كربلاء ، وعرفت أننى فى بداية الموقف ، وهذا موقف هين ، له من الألوان الرمادى ، ومن الأيام الأحد ، ومن ساعات النهار ما قبل شروق الشمس ، ومن الحرارة بداية شدتها ، ومن حالات العيون لحظة ما قبل خروج الدمع ، ومن القلب خفقته الوهى عند سماع النذير الثقيل . بدأ سفرنا وتبدلت علينا الألوان ، مررنا بسواد حالك كالرخام الأسود أو القطيفة الليلكية ، وزرقة صافية كلون الفيروز عند نشأته ، ثم رأينا ضوءاً ثاقباً نحيلاً يخترق الديوان من أقصاه إلى أدناه ، ثم تعددت أجسام غريبة تشبه المذنبات ، أو النيازك أو الشهب ، وأخرى لا ندرى عن طبيعتها أو هويتها شيئاً ، تقبل علينا فيظن المبصر لها أنها ستخترقنا ، ستغرقنا ، لكنها تعبرنا ، أو نعبرها فلا يلحقنا أذى أبداً ، تداخلت كواكب قديمة ، وأخرى حديثة ، كما يتداخل شرر النار ، تعامدت ، وتجمعت فى خط مستقيم ، ثم سعت فى أثر بعضها ، لكنها لم تتصادم ، كل فى فلك يسبحون ، وتعاقبت المرئيات علينا بسرعة تغير الخواطر ، فقلت لا يكون هذا إلا لأمر جلل ، توالت الألون علىَّ ، ألوان جديدة لا عهد لى بها ، وليس لها مقابل فى عالم الأسماء والأوصاف ، ومن حين إلى حين يمرق ظل طائر الضوء المشع الذى أمرنى فعرفت أنه رفيق سفرنا هذا ، لم أفكر فى صاحبىَّ لشدة ما تعاقب علينا لكننى أدركت أن أوان الدنو يقترب ، ولاحظت

أننى كلما اقتربت ابتعدا عنى ، حتى اختفيا عنى عندما انتهى رحيلى ، وأوشك على الانجلاء ليلى . هنا انغرس الخاطر السديد فأرجف وعيى ، كيف لم أعرفها ، كيف لم أدرك الملامح المبهمة فى جملتها وتفصيلها ، كيف وقد طالعتها عمراً . أبى عن قرب ، وعبد الناصر عن بعد ممزوج بقربى ، كيف لم أخاطب كلا منهما باسمه ، كيف أرحل بصحبة أبى وتداخلنى غربة ، كيف لم أقترب منه حتى وإن شاغلتنى الأفلاك والرؤى . غاص سؤال فى وجدانى . أهى بداية النسيان

تذكرت صديقاً قديماً يكبرنى سناً ، وكنت ملوعاً مغموساً فى حزن طرى كالقار الساخن السائل ، قال صاحبى : أنت فى حاجة إلى عام كامل كى تنسى ، لم أرد ، استنكرت ما سمعت ، تساءلت بينى وبين نفسى ، كيف يخطر له أننى سأنسى ذات يوم حتى وإن بدا بعيداً ، وكأنه انتبه وخمن ما جال بخاطرى فقال مواسياً ، كل الأشياء تولد صغيرة وتكبر ، عدا الحزن فإنه يولد كبيراً ثم يصغر . ضقت بقوله هذا ، وضقت بتذكرى له فى موقفى ، لكن عسعسة الصبح البعيد عن زمنى الدنيوى ، وتنفسى هذا النهار الذى لم أعشه أبداً أخذنى ، وجدت نفسى بمنأى عن عصرى ، فى كربلاء ، أمامى معسكر مولاى الحسين، خيامه مضروبة، لم يتبق معه إلا أهله، وأقرب الأقربين ، أما اليوم فهو الثالث من أيام عطش الحسين ، حيل بينه وبين الماء ، فى المواجهة جند يزيد ، إنه العام الخامس والستون المنقضى على هجرة شفيعنا المصطفى محمد رسول الله ، إنه العاشر من محرم ، إنه الجمعة ، ضممت مولاى بنظراتى ، ولففت صغيره الرضيع القاسم فى غرارة قلبى ، وتوقف فجأة عن الطواف ببصرى ، رأيت صاحبىَّ اللذين رحلا معى عبر موقف التأهب ، رأيتهما أو هكذا شبه لى ، أبى وعبد الناصر ، يرتديان زى العصر ، ويمسكان أسلحة العصر ، ويقفان بين صحب الحسين الذين بقوا معه ولم يفارقوه

وتأهبوا للظمأ وانقطاع المدد ، بقيا معه ، مع خاصة خاصته ، أخلنى العجب ، فانطويت تحت لواء الحبيب الأوفى ، الحبيب المنزه ، مرآة الحق ، ومجلى الغموض ، عين القدر وعطر أيامى التى لم تأت بعد ، كنت أرى ولا يرانى أحد ، وعندما جف حلقى ، واشتد عطشى عرفت أننى أكابد ما عاناه القوم ، عرفت أن موقف التأهب ولّى ، عرفت أن القدر سابق ، والقضاء لاحق ..

موقف الظمأ

«بل هم فى لبس من خلق جديد»

صدق الله العظيم

.. صرت بين أهل الحسين وصحبه ، حصارهم حصارى ، وتعبهم تعبى ، وظمأهم ظمئى ، غير أنى خصصت دون الكل بقدرتى على التنقل بين موضعهم المحاصر ومواقع من يحولون بينهم وبين ماء الفرات البارد الرطب ، لم أكن أدرى إلام سينتهى أمرى ؟ وهل سأقضى أم لا ؟ وإذا قبضت هنا فهل سيتلاشى خبرى ، وينقطع جذرى ، ثم لا أوجد فى المستقبل البعيد الذى اتيت منه ، أقصيت التساؤلات التى محورها ذاتى وتملكنى شوق إلى السعى فى أثر أبى ، أبى الذى رحل عنى بالموت وصار قدرى أن أقضى نصيبى الباق لى فى الدنيا بدون طلعاته ، بدون أن أصغى إلى نوبات سعاله الليلية فى الأيام الشتوية ، أو قدميه عند صعوده السريع والذى أبطأ مع تقدم عمره ، ودبيب الوهن إليه ، بدون أن أنتظر دقات يديه على باب بيتنا وقد كان هو تعريشة سقفه ، وأمنه الليلى من الطوارق الغريبة ، والمفاجآت الداهمة ، كان ضوءه

المنير، صرت أقضي ما تبقى لي من عمر بدون شعوري أنه هناك . في مكان ما ، وأنه باستطاعتي السعي إليه فأراه ، وأصافحه ، وأجلس إليه ، أضمه بالنظر وقد أشيح عنه أخاطبه بالنطق فيستجيب ، ما تبقى من زمني يخلو الآن من توقع مقابلته فجأة في طريق ما ، ما اسم ذلك اليوم البعيد ؟ كنت أركب القطار القادم من الضواحي ، عندما رأيته يقف منتظراً عبور المزلقان ، لابد أنه شتاء ما إذ كان أبي يرتدي المعطف القديم الوحيد عنده ، ما اسم ذلك اليوم ، ما اسمه ؟. تلفت حولي وأنا في أرض غريبة ، أرض غير أرضي وزمن غير زمني ، رمال جافة وشمس حارقة والماء بعيد ، وأفواه ظمأى بين فاهي ، وأمل واه في النجاة ، هذا ابن مولاي الحسين القاسم ، الرضيع ، مذبوح من رقبته بسهم ، لم يوار الثرى ، يخرج أبوه ، يحمله بين يديه ، يشهد السماء على ما يجري لأحفاد رسوله الكريم وعترته وآله ، عاينت ذلك بعيني ، وبصري ، ولم أكن محارباً ، ولم أرم بسهم أبداً . لم أقذف رمحاً غير أني وددت لو مكنت من هذا كله ثم وجهته إلى القتلة ، أعرف أنني أواجه قلوباً قست ، ونفوساً تعامت ، وأنه ما من فؤاد سيرق أو يحنو ، وعهدي بالقلوب إذا ألفها حال القسوة فلن ينقص ذلك من قسوتها شيئاً ، أرى مولاي مكروباً لكنه لا يخاف الدنو من نهاية محتومة إنما يؤلمه ويحز في روحه ذلك الظمأ البادي على أقرب الأقربين ، لم أدر ما أفعل ، غير أنني رأيت أبي يسعى باتجاه النهر ، هذا خطوه الذي أعرف ، عدوت في أثره والرمال تتناثر عند عقبي .

أبي ..

ولم يلتفت إليّ ، زدت من ركضي حتى جاورته ، ثم سبقته وملت بوجهي لأرى وجهه ، لأتملى وأتحقق ..

تعال إلى النهر ..

هكذا . بالصمت أمرني ، سررت لأنه عرفني ، ولأنني تملت من وجهه ، من ملامحه ، قدرت أنه فى الخمسين أو الستين ، وإذا شئت الدقة فإنه أبي كما كان يطالعني وجهه أثناء دراستى الإعدادية ، عند مدخل شبابي وفتوتى ، عندما كان عفياً يستيقظ فى أيام الشتاء الباردة ، ويسمع صوت قبقابه الخشبي فى البيت يضرب البلاط ، ثم يفتح الباب ، يغلقه اغلاقاً هيناً رقيقاً ، ثم ينزل السلم ، أسمع خطواته فى البداية قريبة ، قوية ، ثم تتضاءل فوق بلاط الحارة المرصوفة بالحجارة المضلعة حتى تتلاشى فتذوب يقظتى وأروح فى نوم عميق ، يبتعد أبي ، وآه من البعد ، ها هو بجوارى فى أرض لم يحدثنى عنها أبداً ، يسرع فى اتجاه النهر ممسكاً بقربة جلدية بنية اللون ، مقددة الجلد ، فمنذ وقت طويل لم تنتفخ بالمياه ولم تقطر قطرة منها ، عرفت أنها القربة التى كان يحملها فوق ظهره ، أو بمعنى أدق وأوفى ، القربة التى سيحملها فى صباه الآتى عندما سيعمل سقاء ينقل الماء إلى من سيأوونه زمناً ، ما أراه يمت إلى دهر بعيد لم يأت أوانه بعد ولم يحن حينه ، ولم تولد بعد الحيوانات التى ستسلخ جلودها وتصنع منها تلك القربة التى أراها الآن ، وهنا سر غامض ، والاستفسار عنه مؤجل الآن ، الموقف وعر ، والقلب طافح بالشحون ، بما يكون ولن يكون ، فالأمر عجيب ! ، لو تجرأت وسألت ، ربما تجلب جرأتى الضيق بى ، والضيق بى يؤدى إلى السخط عليّ ، والسخط يعقبه البعاد ، والبعاد يقصيني عن الديوان ، وإقصائى يعني حرمانى . لذا لزمت الصمت ، انتبهت إلى أن صوت أبي ليس صوته ، الصوت لعبد الناصر ، وسرعة جريه لمازن ، واطراقته لإبراهيم الرفاعى ، توحد بهم وتوحدوا به فاحتواهم واحتووه ، صار مجمع المحبين الذين رحلوا قبل الأوان ، أحببت عديدين على القرب والبعد وهم الآن واحد ، أبي مضاف والآخرون مضافون

إليه ، وقد يتبدل الحال ، فيتفرق أبي بينهم ، ذلك قدر لا أعلمه ، دونى ودون إدراكه سرابيل مدلهمات وصعاب وأى صعاب ؟. استمر ركضى إلى جواره ، أنا الذى لم أركض إلى جواره فى حياتى الدنيوية ، لم أركض فى صغرى لأنه كان يحنو علىّ ويأخذ بيدى ولم أركض بعد نضجى لتباعد المسافات بيننا ، وفى هذا الموقف أقر بذنبى فأنا المسئول عن الجفوة للما حقت علىّ الشقوة ، هذا يقين مدرك ، ثابت ، كلما خطوت خطوة تزايد عطشى ، عانيت ظمأ أهل الحسين وصحبه ، وظمأ أبى ومن توحدوا به ، وزاد علىّ ظمأ غريب ، ظمأ غير مدرك بالحواس الخمس ، موجع ، مقلق للراحات ، يقلق ويقض مضجعى ، ويرض كبدى ، ظمأ جهم ، لا أدرى مصدره ، ولا ترويه أنهار الدنيا وأمطارها ، وهذا أصعب أنواع الظمأ وأوعرها ، نما وتدبب فصار ذا ثلاث شعب تتوه فيها الخطى ويضل القطا فشعاب يؤدى إلى أبى ، وآخر يفضى إلى مولاى ، وثالث ينتهى عند من أحببتهم ، فى يوم عاشوراء هذا ، الماء منعدم عن أحبتى ، واليبوسة فى ازدياد ، والمدد منقطع ، آلمنى سلوك الشعاب الوعرة إلى أبى فعظم ظمئى إلى أيامنا الأولى ، إلى لحظات لا ولن أعيها ، إلى وجهه وما ارتسم عليه من تعبيرات عندما ضمنى أول مرة ، وكنت بعد لحمًا طرياً لا يعى إلا جوعه أو بوله أو برازه دون أن يسميهم ، يرتدى جلباباً من قماش الكستور فى الشتاء والزفير أو البوبلين فى الصيف وجاكتة وهبها له أحدهم ، فى مرات زياراته القليلة لبيتى بعد زواجى كان يجىء ولا يطيل المكوث ولهذه الزيارات مقام آخر سيجىء عندما يأذن الديوان بذلك ويسمح التجلى ، ولكن أعى فى خضم لحمتى جلوسه الهادئ المستكين الخجول ، ونظره إلى محمد ولدى ، ومداعبته له بحذر خشية أن يبدو منه خطأ ما . هكذا أظن وأعى ، سألته ، هل يشبهنى محمد فى طفولتى ؟

فاوماً برأسه المثقل بهموم الوحدة ، رأسه الذى تضاءل حجمه فى آخر سنى عمرى ، قال : نعم يشبهك ، ثم صار يردد ذلك فى كل مرة يزورنا فيها ، عندما يجىء محمد مندفعاً ، يقف أمامه لحظات ، فيحتضنه أبى لحظة لا تدوم ثم ينظر إلىّ ، كأنه يتذكر سؤالى ، وكأن السؤال ما زال عالقاً بلا إجابة . كأنه يرضينى ، وكأنه يبدد الصمت فيقول : إنه يشبهك عندما كنت طفلاً . لم يعش أبى مشاعر الجد كما يجب أن تعاش ، لم يشبع من حفيده ، ابن ابنه الوحيد الذى رآه ، من ذرية من أنجبهم فقد جاءت ابنتى الصغرى بعد رحيله عنا بسبعة شهور إلا عشرة أيام، وعن أبى وحفيده الذى هو ابنى حديث يطول لايناسبه هذا الموقف لما يتضمنه من دقائق مؤلمة، توجعنى، تقض مضجعى وتجرح أيامى المتبقية ولو فتحت الباب فيه الآن فكأنى اسدد سهام جيش يزيد إلى كيس قلبى، هذا ما لا طاقة لى به، تزايد ظمئى إلى رائحته التى كنت أشمها فى سنينى الأولى ولهذه السنين مقام خاص هو مقام الأمان . فمنذ أن ولت وابتعدت ولّى أمنى وضمرت أمانى ، وصرت مطارداً فى حياتى ، وتلك عوامل يطول شرحها لكن بالامكان أن أفتح طاقة صغيرة على هذا المقام الجميل فأرى منها أبى وعودته عند الظهيرة ، وخطوه النشيط ، وبين يديه طعامنا وقوتنا ، وتردد أنفاسه الليلية ، وإمساكى ليده فى طريق مزدحم ثم تلك الرائحة ، رائحته هو ، صدى ظمئى وظمأ الحسين وأهله ، ما من أحد يرق لهم ، وما من قوة ترق لى . أو تقربنى من هذه اللحظة القديمة التى ستندثر معى ، ولن يتبقى منها إلا شظايا وأصداء فى منزل الرؤى الباقية ، ولو قصصت فحواها على أى إنسان لسخر منى وهزأ بى ، فما الذى تعنيه عودة أبى عند الظهيرة فى يوم من أيام طفولتى عند الآخرين ؟ ما الذى تعنيه كل هذه اللحظات، يا أحبتى لكم . ومن سيدرك حقيقة ظمئى هذا ؟ أقدم ما أعيه من

ذاكرتى التى تغص الآن بالناس والمدن والشوارع البعيدة والنواصى والمقاهى والجبال والوديان التى لا أعرفها والغض والحب والحنين ، والتجليات والأخيلة ، ازيح هذا كله وأصل إلى لحظة نائية من أيام الحرب ، كان عمرى ثلاث سنوات ، نسكن فى غرفة وحيدة فوق سطح بيت من خمسة طوابق ، سقفها مرتفع ، تحمله سبع عشرة دعامة خشبية ، كثيراً ما رقد أبى فوق ظهره فى لحظات راحته أو انسه أو اطمئنانه إلى الغد الآتى ، يبدأ فى احصائها بصوت مرتفع ، ثم يتذكر أياماً بعينها فيقرن كلا منها بدعامة ، ويتذكر شخصيات عرفها فيطلق على كل دعامة اسمًا ، فى تلك الأيام التى عشتها بوجودى الحسى والمعنوى ، واجترتها بأعضائى كافة ودقات قلبى وتوالى أنفاسى ودفق دمى ، انطلقت صفارات الانذار عاوية ، واخترقت سماء القاهرة حزم ضوئية حادة منبعثة من الأرض إلى السماء تبحث عن الطائرات الحومة ، وفى السماء يتفجر الظلام للحظات بأضواء الفوانيس التى تلقيها الطائرات المغيرة لتكشف المدينة المستورة بليل كثيف . فى هذه الليلة اشتد القصف فقال أبى : سننزل عند الست وجيدة فى الطابق الأرضى من الحارة صاح البعض مطالبين ساكنى الطوابق العليا بالنزول إلى الأدوار السفلى ، واطفاء الأضواء تماماً . أمى حامل ، وفى رحمها يتكون شقيق الذى أصبح فيما بعد اسمه اسماعيل ، نزلنا عند الست وجيدة وانقسمنا ، أمى ذهبت إلى حجرة تجمع فيها نساء البيت كله ، بقيت فى الصالة ، تحدث الرجال عن الشظايا التى تقطع المسافات وتحز الرقاب ، تكلموا عن شعراوى ابن الباشجاويش أبو أحمد ساكن الطابق الثالث ، تطوع للقتال مع الفدائيين ، حكى أبوه عن دبابة اسمها النمر عند العدو ، مصفحة ، لكنهم قصفوها بطلقة من نوع خاص قسمتها إلى نصفين ، أصغيت ، ازددت التصاقاً بأبى ، لذت بجانبه عندما

كان جانبه يؤمنني ويبدد خوفي ، ويذود عني الكروب ، من بعيد انفجارات متلاحقة ، قال قائل منهم ، الضرب ناحية العباسية ، استمر صمت للحظات ، قال أحدهم ، ألطف يالطيف ، انتهت الغارة ، واضيئت الأنوار بعد صفارة الأمان ، صعدت أمي السلم متمهلة ، في هذه الليلة نمت قريباً من أبي ، من حين إلى حين كنت استيقظ لأطمئن أنه بقربي . وفي هذه الليلة بدأ حصار عبد الناصر في الفالوجة ، وضيق العدو خناقه عليهم ، ونزفت دماء في مواقع أخرى ، وفي كربلاء اشتد الرمي على مضارب الحسين ، وكان بإمكاني الرؤية من سائر جهاتي واستيعاب ما أراه بحيث لا يؤثر ما أراه أمامي على ما أراه خلفي ، وكنت ملهوفاً على ري ظمئي الحسي وظمئي المعنوى ، الماء يدنو منا ونحن ندنو منه ، ماء الفرات الرمادى المختلط بلون أحمر باهت ، متدفق من منابع بعيدة إلى مصب لا نراه . رأيت الحر الذى جاء لقتال الحسين ثم اختار جانبه ، سمعته يصيح بجند يزيد ، «دعوتموه حتى إذا أتاكم اسلمتموه وزعمتم انكم قاتلو أنفسكم دونه ثم عدوتم عليه ، لتقتلوه ، أمسكتم بنفسه وأحطتم به ، منعتموه من التوجه في بلاد الله العريضة فأصبح كالأسير لا يملك لنفسه نفعاً ، ولا يدفع عنها ضراً ومنعتموه ومن معه عن ماء الفرات الجارى ، تتمرغ فيه خنازير السواد وكلابه وها هو وأهله قد صرعهم العطش ، بئس ما خلفتم محمداً في ذريته لاسقاكم الله يوم الظمأ العظيم، لم تتوبوا وتنزحوا عما أنتم عليه ، لاسقاكم الله يوم الظمأ» ، رأيت عمر بن سعد يقوم ويأخذ سهمًا فيرمى به ، يقول : اشهدوا لى أنى أول من رمى فزعقت صارخاً ، أى شهادة تطلبها يا أحمق ؟ تاه صوتى وتبدد ، لم تصغ اذان القوم ولم تسمع ، يبدأ هجومهم على أهل الحسين وصحبه ، هو قلة وهم في عدد وعدة ،يدنو أبي من ماء الفرات ، يعاودني الظمأ القاسى ، يشردمنى

ويبددنى ، ظمئت إلى لحظة أخرى، تكمن فى البداية ، حننت إليها حنين الغريب ، المحاصر، المقطوع عن النصير والمدد، لحظة تائهة فى رحم الأيام التى خرجت إليها وحيداً ، دليلى وإمامى هو الحسين، ولا دليل لى غيره، حتى رسوت فى هذا اليوم الحزين لأشهد ما أشهد ، خرجت إلى ترحالى هذا ولا حيلة لى، وقد تركت ما بيدى ، ولم أسند أمرى إلا إليه لأنى لم استشر انساناً ، انما قادتنى إلى الديوان عذاباتى ، وتيهى عنى ، خرجت عن أيامى إلى أيامى خروج الميت عن أهله وماله ، ولم أكن أدرى ، أن ظمئى سيقرن بالحنين إلى بدايتى ، إلى لحظات لن يتذكرها غيرى ، تقبع فى كنز مكوناتى الدفينة ، حجرتنا الوحيدة بعد انتهاء بياضها ذات يوم أجهل الآن اسمه وموقعه ، أمى ترتدى جلباباً أبيض ، عفية ، شابة ، لم تنل منها الأيام بعد ، تساعد أبى فى نصب سرير حديدى أسود القوائم ، كل قائم ينتهى بحلية نحاسية صفراء . فى ركن الحجرة ، فوق قطعة قماش ملون ، يرقد اسماعيل أخى ، ابن شهور وربما ابن أسابيع .. لا أعرف الآن ، لكننى أرى وجهه الأبيض المستدير ، وعينيه المحدقتين إلى السقف ، تبحثان عن شىء غامض يطول بحث الصغار عنه ، ملفوف فى جلباب أسود . بعد ولادته جاءت إلى أمى امرأة قاسم التاجر ، وبعد انصرافها ، ارتفعت حرارة اسماعيل أخى ، أدركته الرعشة ، جاءت أمى بقطعة شبة وألقتها فوق صفيحة ساخنة، تشكلت القطعة بوجوه عديدة ثم استقرت على وجه شديد الشبه بالست فتحية ، ثم جاءت أمى بعروس ورقية وراحت تثقبها بإبرة ، وتردد ، فى عينك يا فتحية . وحدث أن شفى أخى ، راحت عنه الرجفة وزالت الرعشة . وقررت أمى أن ترتدى السواد . وأن تحجبه عن العيون . أصبح عطشى جارفاً إلى تلك اللحظة القصية . لحظة تائهة ، ضائعة ، تقبع فى النصف الثانى من يوم مجهول الهوية لى ، رأيتها وأنا بأرض كربلاء قبل أوانها بمئات الأعوام . العطش ينال منى والسهام تنال السهام فى اتجاه مولاى . يعقبنى أبى إلى أدنى نقطة تنحدر

صوب النهر ، هذا خطو أبي ، هذا إطار وجوده الجسماني عندما تأخذه اللهفة لقضاء حاجة ، يميل ، يغطس بالقربة كلها فتمتلئ مرة واحدة ، يتتعها من النهر ، فإذا بها منتفخة تشر ماء ، المرتقى وعر ، لكنه يجاهد ثقل حمله ، بينما أميل إلى النهر لأملأ الكيس الذى يخصني وألقى به بين يدى ، ولما لامستنى برودة المياه تعاظم ظمئى ، وحننت إلى ظل ظليل يغطى خضرة حديقة ننتظر فيها عودة أبي إلينا بعد انتهائه من عمله ، اعتاد أن يصحبنا من حين إلى حين ، نزور المتحف الزراعى المجاور للوزارة ، يدخل من بابه الفسيح القديم ونحن فى إثره ، يحيى من يقفون بالباب ، فيردون التحية بأحسن منها ، يقول أحدهم ، «أهلاً .. عم أحمد » ، ويقول آخر أهلاً يا أحمد ، يتقدمنا إلى داخل المبنى ، وفى قلبي الصغير شعور بالفخر والاعتزاز ، لأبي معروف هنا ، لا يدفع ثمن التذاكر ، يعرف كل من فى المكان ، الموظفين ، وزملاءه السعاة ، نطوف بالفتارين الزجاجية التى تحوى الحبوب وأنواعها ، والخبز وأشكاله ، وآلات الزرع والحرث ، ولوحات مطابقة لرسوم قديمة فوق جدران المعابد الفرعونية ، ثم نطيل الوقوف أمام تماثيل من شمع أو جبس ، يشير أبي إلى تمثال شيخ البلد قائلاً لأمى : ألا يشبه الشيخ هزيدى ؟ ، ثم نعجب بالهودج المحمول فوق جملين ، بداخله عروس جميلة ، لا يتعجلنا أبي ، إنما يدعونا أن ننظر ونتأمل ، يختار لنا مكاناً ، ظليلاً فى الحديقة الكبيرة ، ثم يقول لنا إنه سيذهب إلى الوزارة ، سيتسلم البوستة ويوزعها ، ظل هذا عمله لسنوات عديدة ، يفارقنا فلا نغادر أماكننا ولا نبرح مواضعنا حتى يرجع إلينا ، كنا ننظر رجوعه ونرنو إليه ونشتاق إلى طلعته ، وكان تأخره عنا يثير خوفنا واضطرابنا وتوجسنا ، غير أن ذلك لم يدم معنا ، فقد مات هذا الإحساس مع تقدمنا فى العمر وتفرقنا عن بعض ، وكان ذلك أول غروب أبي . يبدو قادماً نحونا خطواته مسرعة ، متمايلة ، نفس الخطى التى يهرع بها إلى الحسين وأهله الآن ، ملت على

الفرات ، شرعت فى بل ريق ، فى تناول جرعة أروى بها عطشى المقدد ، لكننى تذكرت أن أبى ملأ قربته ولم يذق الماء أبداً ، فأخذنى الخجل مما شرعت فيه ، حملت كيسى وقلت : عسانى أرضى بذلك أبى ، أرضيه بعد فوات الأوان وقد اغضبته مرات بلا حصر ، وكأنه أدرك ما جال عندى ، وما ضاعف كلومى وأحزانى ، فصاح ينبهنى إلى الموقف الذى أنا فيه ..

فلما الأحباب وعر .

سعيت فى أثره ، ارتقيت المنحدر ، رأيت المكان كله كأنى أراه من نقطة معلقة فى الفراغ ، كأنى أحوم محلقاً . أرقب ما يجرى تحتى ، كنت أرى الكل حتى نفسى ، كمن يرى نفسه فى الحلم . كذا كنت قادراً على الشعور بما يجرى داخلى ، وزاد علىّ فى هذا الموقف أمر خصصت به ، ولم أعهد مثله من قبل ، لا عندى ، ولا عند الآخرين ممن سلكوا طرقاً مشابهة لطريقى ، ومن ذلك قدرتى على الشعور بما يطوف بأى من مشاعر ، كأنى هو ، وكأنه أنا ، ثم زاد ذلك ، فأصبحت قادراً على التألم لحظة انبعاث الألم فى كيان مولاى ومرشدى الحسين ، ثم اتسع ذلك ، فشعرت بالام زين العابدين ، وأخيه القاسم ، وأبناء مسلم بن عقيل ، ثم فاض ما خصنى ، فلم يعد مقصوراً على الآلام الجسمانية ، إنما تعدى ذلك إلى ما يجول بالنفوس والخواطر ، وكل ما جرى فى هذا الموقف مؤلم فظيع ، وأيسره شجى ، ومن ذلك ما توالى على نفس الحر بن يزيد بدءاً من لحظة تردده ، حتى انضمامه إلى الحسين ، صرت أنا الحر بن يزيد ، عملى.. جندى من جنود ابن زياد والى الكوفه ، مقصدى ، محاربة الحسين ، والحيلوله دون وروده ماء الفرات ، كان عزمه عزمى ، ومقصده مقصدى ، ثم صارت هواجسه هواجسى ، وتردده ترددى ، ثم أخذنى ألمه الذى هو ألمى ، ماذا سأفعل ، وكيف سأواجه ربى يوم الحساب ،

خاف وخفت ، خشي وخشيت ، ندم وندمت ، اختار واخترت . الوقوف إلى جانب مولاى . ثم صرت إلى ما صرت إليه ، فما من رمية سهم تصيب واحداً من أهل الحسين إلا وتحدث نفس التأثير عندى ، فى نفس الموضع المصاب، صرت مجمعاً لكل آلام ذلك اليوم الجلل ، منذ مشرق الشمس وحتى اللحظة التى اجتث فيها رأس الحسين، نزفت دمائى بمقدار مانزفه الكل ، عرفت فزع الإنسان إذ تلطمه حجارة المقالع ، وألمه عندما تنغرس فيه السهام المدببة ، وعطش الطفل الرضيع ، وجزع المرأة التى يرى أحبابها يصرعون بين يديها ، وهلعها خشية الانتهاك قسراً ، وفى حلقى اشتد الظمأ فكدت اتضعضع ، ولم يكن وقوفى هذا الموقف ممكناً إلا لأمر جلل ، ولعقاب شديد أستحقه ، أو لحكمة خفية تضيق مفاهيمى عن إدراكها ، وبرغم كل عذاباتى ، بقى أبى محور وعى ، وبؤرته ، وبؤبؤ عينى ، أما مولاى الحسين فقبلتى ، ومهجرى ، يزعق أبى ..

آه يا بوى يا أنا .. آه يا قتيلهم ..

أرجفت زعقته كيانى ، أنها أقصى مراتب الألم الرجولى فى صعيد بلدتنا النائية عن كربلاء بالزمان والمكان ، عندما يصرخ الرجل هكذا ، يعنى ذلك نزول المصيبة ، وقلة الحيلة ، وطلب الغوث ، فالرجل لا يصرخ عندنا إلا لمصيبة تقصر عنها الحروف المنطوقة ، ولا تستوعبها كافة أشكال المخاطبة ، تطلعت من سائر جهاتى فرأيت المياه التى نجح أبى فى ملء القربة بها مسكوبة ، متسربة بين ذرات الرمال ، اخترقها سهم ، فى نفس اللحظة انسكبت مياه كيسى ، رأيت انتفاضة أبى ، رأيت ألمه المروع وأدركنى ، رأيت أبى الذى عاش عمره كله ولم يتشاجر مع إنسان ، ولم يصفع وجنة ، ولم يسدد قبضته إلى مخلوق ، لم يصفع شخصاً ، أبى الذى يكره العراك

ويمقته ، ها هو يشهر حساماً يمانياً مصقولاً ، ويسعى بخطاه المألوفة لبصرى ، أدركت أن من كان يحتويهم انفصلوا عنه ، أحلق نظرى بهم ، كأنى أراهم من خلال ضباب ، أعرف أن هذا عبد الناصر ، وأن هذا ابراهيم ، وأن ذاك مازن ، وثمة آخر لا أعرفه أبداً ، لكننى لا أرى ملامح وجوههم ، أو لون أرديتهم ، يقف أبى بين يدى مولاى ، يقول أبى بصوته وهو صوتى ..

مولاى أتأذن لى بالقتال ؟

كان حال أبى حالى ، فترقرقت روحى ، وتشفشفت ، وتببست وصار الكيان بما يحتويه اريجاً مزهراً ، يذوب أبى وأذوب معه ، يتشجّن بالشجن ، أبى الذى لم يعرف من الحسين إلا الطواف بضريح رأسه ، وتقبيل أعتابه ، واللوذ به عند الشدة ، ها هو يقف أمامه قبل أن يوجد أو يولد ، يراه وجهاً لوجه ، تتردد أنفاسه فى مواجهة أنفاس الحبيب ، ولو تحقق التمنى لتلقى عنه لظى الشمس ، وعطش بدلاً منه ، وتألم نيابة عنه ، عاتبت فى خاطرى المؤرخين الذين سيجيئون ، عاتبت أبا مخنف ، وابن كثير ، والدينورى ، والطبرى ، والرواة المجهولين ، عاتبتهم لأنهم لم ولن يذكروا أبى وصحبه ، ومجيئهم إلى كربلاء .

مولاى .. أتأذن لى بالقتال؟

يكرر أبى بينما يرنو إليه الشفيع ، العذب ، النورانى ، ولم أدر الإجابة ..

من أسرار هذا الموقف

.. اعلم وفقك الله وبصرك بما بصرت به ، أنا الذى كنت ضالاً فهدانى ، ونائيا فقربنى، وأدنانى ، وتائهاً فدلنى ، وغياً فعقلنى ، ومعذباً فخفف جروحاتى ، اعلم أيها الفطن اللبيب أن الحزن لا يكون إلا على ماضٍ ، وأن الظمأ لا يكون

إلا إلى مفقود . وأن الشوق لا يكون إلا إلى غائب كذا الحنين ، اعلم أن الظمأ نوعان ، حسى ونوعى ، فالأول يقع لافتقاد الماء ، وإن كان ذلك ليس شرطاً بالضرورة ، فربما يعب الإنسان الماء غبًا ، ويتعاظم ظمؤه ، هذا معروف فى بعض حالات المرض ، وربما يواجه البحر أو يبحر فيه ، البحر ملآن لكن ما فيه لن يسعف الظامئ أما الظمأ المعنوى فغير متناه ، منه الحنين إلى المفقود ، إلى الزمن الذى ليس فى المتناول ، إلى رؤية محبوب غائب ولم يعد فى امكاننا إدراك طلاته وطلعاته ، إلى لحظة نائية لم تبق سواها من سنين عديدة ، إلى رائحة عبرت حواسنا فى زمن قصى ، إلى وقفة عند ناصية منسية لم تدم غير ثوان إلى صفير قاطرة تمضى، لا نعرف إلى أين أو بمن لكنها تحرك الأسى وترجعنا إلى ذكرى الأحباب البعيدة ، إلى حفيف فستان ، إلى مذاق طعام ألفنا طاهيه ، اعتدناه ثم رحل عنا ، إلى ممشى فى حديقة ، إلى ظل مئذنة ، إلى رائحة بساط عتيق ، وربما إلى جلسة ود انتهى وما عاد . قد يكون الظمأ لمعرفة الحقيقة والكنه الغامض ، للاطلاع على سر الأشياء وغوامض الموجودات ، إلى ما ينقضى ، ما يفلت منها ، ما يتسرب بين أيدينا ، الظمأ حال ، ومعنى ، تتعدد فيه الأوجه ، معرفته لا تتطلب الوعى به لأنه ملازم للنشأة الإنسانية ، يبكى المولود إذ يظمأ ، قلنا إن الحنين درجة من درجاته ، كذا الشوق ، والالتياع ، كل منهم تشتد وطأته بغياب المفقود ، كل أنواع الظمأ تسكن باللقاء ، يهب القلب ، يهفو إلى غائب فإذا ورد سكن ، تماماً كما يرد الظامئ جدول المياه ، والحنين والشوق لا يصح تعلقهما بحاضر ، إنما متعلقهما دائمًا بغائب ، هذا ما استقرت عليه الأحوال ، وما أدركته العقول وما عبرت عنه المهج . لكن ما جرى لى فى كربلاء غريب ، رأيت أبى ، وكان ممكناً لاشتياقى أن يهدأ ، أن أعبر جسر الفقد ، لكن ما جرى لى

عجيب ! كلما أحدقت البصر اشتقت أكثر ، وفى كل نظرة تجمعنى بمن أحب ، ألقى الفقد ، وزاد علىّ الأمر ، فكنت أعى أن ما أراه خيالا وإن كان حقيقة ، أننى متفرج ، أننى أحلم ، وهذا من قلة النعم علىّ ، ولم أكن بحاجة إلى طول تأمل كى أعى أنه قد زج بى إلى عذاب عريب ، لم أنبأ به ولم يخطر لبشر ، وأن هذا قدرى فى المواقف كلها ، وأنى كلما قاربت على الرى ، تبدل أمرى فتجدد ظمئى ، أمر الله تعالى نبيه أن يقول : ربى زدنى علمًا ، ومن طلب الزيادة يظل ظامئًا أبداً لا يعرف حداً ولا منتهى . صار شوقى إلى أحبابى دائمًا أبداً ، صرت كشارب البحر كلما ازددت شرباً ازددت عطشاً وأضمرت النية أن أسأل ، فهذا أمر جديد علىّ ، منذ أن بدأت رحلتى بصحبة مولاى ، فلم أدر بالضبط ماذاجنيت ، وهنا نظر يطول ، ومعانٍ تتعدد ، أخشى التصريح بها لذا أقتصر... فسامحونى !

موقف الحنين

.. عظم الحنين فاكتمل ، صار موقفاً عظيم القدر ، منه يلوح الماضى ، يقترن بالحزن ، جوهره جلل ، وعبرته مفجعة ، فالحنين يا سادتى أول درجات النسيان ، والحنين لا يرد بنفس القوة فى كل مرة يهب فيها ، يكون فى أوله عفياً قوياً ، ثم ينقص ، ثم يضعف ، ثم يهن ، يأتى النسيان الذى يلفه ويطويه ، الحنين كالدهر لا يرى ، له من النهار ساعة الأصيل ، ومن الليل أوله ، ومن الفصول نذر الخريف ، ومن أحوال الحرارة رطوبتها ، ومن الأوقات لحظة توارى الشمس خلف الغمام فى يوم شتوى ، ومن مكنون الذكريات أحلاها وأغلاها ، ومن أحوال القلب الخفق المتعب ، ومن الورود

بقايا رائحتها، ومن العلوم علم ماكان، أوقفنى فى ركن قصى من أرض كربلاء فحيل بينى وبين القتال ، لم يعد لى إلا الفرجة ، فرأيت أبى ومن جاءوا معه ، يقاتلون بين الحسين ، وكنت واجفاً ، فالقلة تواجه الكثرة . وقديماً قال لى أبى . الكثرة غلبت الشجاعة ، حوصرت بالحنين وحنينى هنا عجيب ، كنت أحن إلى ماض ومستقبل معاً ، هذا حالى وأنا فى زمن قبل زمنى ، أرى ميلادى قبل حمل أمى بى ، أرى ذهابى قبل مجيئى ، وفقدى قبل وجودى ، وغيابى قبل حضورى ، وأمسى قبل يومى وغدى ، حننت إلى لحظات ولت وكنت أعى أنها لم تأت بعد ، كنت أرى ما سيجرى فيها ، وأننى مدركها ، وأننى سأبكيها بعد فوات الأوان ، ولن يذكرها أحد غيرى فعمرها مقدر بعمرى ، ولن يعرفها إنسان ولن يسعى من أجلها إلى الديوان ، أنها فى موضع مامنه ، وشاء مولاى ، وشاءت رئيسة الديوان أن أراها من زمن سابق على زمنى ، من موقف أرى فيه أبى مقاتلاً بين يدى مولاى ، فى أول الموقف اكتسحنى الحنين فذرانى ، هفا قلبى إلى صباحات شديدة النأى ، أيام الجمع ، عطلة أبى الأسبوعية . لن يرتدى حلة العمل الصفراء ويخرج إلى الوزارة ، إنما يمضى إلى ضريح الحسين ومسجده ، يصلى الفجر ، ويعود مع ضوء النهار الأول إلينا ، فى يده اليمنى طبق ملىء بالفول ، وفى اليمنى كوب زجاجى كبير ملىء باللبن ، الفول من رجل مشهور حلبى الأصل ، لا يبيع إلا قبل شروق الشمس ، ولأحباب الحسين فقط ، وعند ظهور الشمس يتوقف وينصرف ، مذاق حبات الفول فى فمى ، مع أن عصوراً آتية تفصلنى عنه ، وسنوات مولية تبعده عنى ، كذا اللبن الدسم ، يأتى أبى بصحيفة ، «المصرى»، كتب اسمها فوق راية خضراء مرفوفة عليها هلال أبيض وثلاثة نجوم ، تشعل أمى الموقد ، تدفع الكباس مرات ، تضع الاناء النحاسى وبداخله قطعة

السمن ، وعندما تنصهر تماماً ، تفرد العجينة ، وتنتظر اصفرار الفطيرة ، ثم تخرجه على مهل ، ترشه بالسكر ، بعد الشبع ، يجلس أبى مسنداً ظهره إلى الجدار ، يشير بأصبعه إلى الحروف ، اقبع إلى جواره ، أتابع أصابعه فى حركتها البطيئة ، ومنه أعرف القراءة قبل دخولى المدارس ، حفظت شكل الحروف ، منه هو الذى لم يتلق تعليمًا ، هو من خبت أحلامه القديمة ، وصار لا يدخل الأزهر إلا مصلياً ، بعد أن كان يأمل دخوله طالباً للعلم والسر ، ربما تنتابه نشوة أو روح مرح ، يبدأ فى قراءة خبر لا وجود له ، يتحدث عن مقابلاته مع دولة رئيس الوزراء ، والمسئولين وخبر عن تقديم استقالته إلى وزير الزراعة ، لأن صحته لا تسمح له بمواصلة العمل ، وخبر عن عدم قبول استقالته . يتقدم نهار الجمعة ، يوم العطلة ، بطىء الحركة ، يتوضأ ، ثم يصحبنا إلى ضريح الحسين ، أنا وأخى ، يضيق المسجد بالمصلين ، يفترشون الحصير والصحف فوق الأرصفة المحيطة ، تنتهى الصلاة وفى جبهتى أثر السجود ، وفى أنفى رائحة الابسطة العتيقة أو الحصير القديم . **ومن قبل ومن بعد رائحة المسجد الظليل والتى لن تتبدد من أعماق حسى حتى أقضى ، ويدخلون بجثمانى إلى مسجد سيدى وحبيبى ودليلى الحسين ، للصلاة على ، تلك وصيتى ، تماماً كما كان مسجد الشفيع آخر مكان دخله جثمان أبى ثم خرج منه خروجاً لا دخول بعده ، وملفوفاً بغطاء لا سفور يليه ، تلك وصيتى يا أحبابى ، وياحفاظ نسيم ودى ، فبالله لا تنسوا .**

كنت أتعلق بيد أبى اليمنى ، وأخى بيده اليسرى ، نطوف بالضريح ، نمسك قضبان المقصورة الفضية ، نحتوى بالرهبة العمامة الخضراء التى تعلو الشاهد ، ويتصارع فى أنوفنا مزيج من روائح ، للظلال الدائمة رائحة ، لبقايا العطور ، لأنفاس القابعين فى الأركان ، للرخام رائحة ، لأغطية النجد..

المصنوعة من قماش أحمر ، للزجاج الملون الذى تنفذ منه الشمس ، زرقاء ، خضراء ، برتقالية ، للفراغ داخل الضريح رائحة ، للمصاحف القديمة ، للركع السجود ، نخرج والنهار منتصف والضوء منكسر ، نقف أمام دكان صغير ، صغير جداً ، يشترى لنا أبى الخروب ، يقدمه البائع فى طاسات نحاسية ، نتمهل فى تذوقه ، الطعم مسكر عذب ، أورثتنى هذه الوقفة عشقاً لمشروب الخروب ، صار له عندى أثر حسى وأثر لا يدرك أبداً . ولو قصدت الافاضة فيه فلن يكفينى تسويد صفحات طوال غير أنى أخشى الاطناب وثقل الاسهاب فأتساءل فقط ، أين المذاق القديم ، أين ؟ لم أدر أن عبير المشروب غامق اللون سيصحبنى إلى نهاية عمرى المقدر ، وأن عبيره الرطب سيرعش أغشية قلبى ، ويرقرق فؤادى ، ويقوينى على الحنين المرهف ، نمضى إلى فندق قديم مجاور لضريح الحبيب ، إليه يجىء ناس البلدة ، يجلس إليهم أبى ، يستفسر منهم عن أحوال الأهل ، الحى والميت ، تجول عيناى بالمكان ، مطبعة فى نهاية الفناء الفسيح .. الفسيح ؟ ماله الآن لم يعد فسيحاً ، ماله ضاق وانكمش بعد أن اشتد عودى وتعددت سنينى ، ماله يبدو لى محدوداً ، كئيباً ، وقد كان مرتع طفولتى ، والمكان الذى ينشرح فيه قلبى ؟، يجىء الشاى فى أكواب صغيرة تضيق عند منتصفها ، تتغير وجوه وتتبدل ملامح ، لكن فى كل مرة نرى الحاج عبده مدير الفندق ، نوبى الأصل ، يرتدى الجلباب البلدى والطربوش التركى ، وعبد المقصود أفندى كاتب الفندق ، بدين ، يرتدى بدلة ذات صديرى أفرنجى من الصوف ، صيفاً وشتاء لايغيرها ولا يبدلها ، يجلس فى مقصورة زجاجية ، يرد على التليفون ، يسجل الطلبات التى تخرج من البوفيه إلى الحجرات ، يرفع يده محيياً من حين إلى حين ، فى صدر الصالون الداخلى ، فوق أريكة جلدية يجلس رجل مغربى ملتحفاً بعباءة من الصوف الأبيض ، عظيم اللحية ، أخضر العينين ، أتطلع إليه من بعيد ، يقول لأبى إنه خرج من

بلاده البعيدة ماشيا على قدميه ، وأنه عبر البحار والصحارى ، وصل إلى الهند ، قضى عمره كله يبحث عن موضع يمكنه الرقاد فيه بهدوء بال وطمأنينة ، وأنه بعد أن لف ودار وتزوج عدة مرات أثناء رحيله وطوافه ، لم يجد مثل هذا المكان القريب من ضريح الحسين القاهرى ، سكن الفندق ، ومنذ مجيئه البعيد لم يفارقه أبداً إلا للصلاة فى المسجد والطواف بمثوى الرأس الشريف ، فندق الكلوب العصرى القديم ، والخادم عمر الأسود بعينيه الفسيحتين ومشيه الصامت ، وتحيته الموجزة لأبى ، الباب الحديدى المؤدى إلى الفناء ، حننت إلى مكان آخر ، دكان ترزى بلدى ، مكانه ممر ضيق فى مواجهة مسجد الحبيب ، أرضية الدكان ترتفع عن الطريق مقدار نصف المتر ، مكسوة بخشب ، الجدارن الثلاثة مغطاة بفتارين زجاجية بداخلها قطع قماش ، يخلع أبى الحذاء ، يتربع فى مواجهة الحاج الصاوى الذى يرتدى نظارة طبية ذات اطار معدنى تنزلق حتى طرف أنفه ، ويغطى أصبعه الوسطى من يده اليمنى بكستبان يحميها من وخز الابرة ، يفرد القماش على ركبتيه ، قماش القفاطين والجلابيب والعباءات ، حننت إلى وجهه ، وطاقيته ، وحافة الصديرى الذى يبدو من تحت قفطانه ، إلى البساط الأفغانى القديم ، رأيت هذا البساط ، لكننى لم أميز ألوانه كما كنت أراها فى الزمن القديم ، ظلال مبهمة طمست نقوشه عنى ، كذا جلباب أبى هلع قلبى عندما نظرت إليه ، كنت أعى بالنظر والحنين والشعور أن الجالس هو أبى ، أدرك حدود جسده ، وهيئته إذ يجلس مطرقاً ، غير أن ما دهانى وفرانى أن ملامح وجهه فى هذه السن ، فى ذلك العمر غابت عنى ، راحت منى ، لم يسعفنى البصر الكليل ، وقسا علىّ الحنين إلى الملامح ، كيف كانت ، كيف ضحكته واطراقته ، ولحظة بدئه الحديث ، كيف اشارة يده ، كيف .. كيف ؟ تاهت منى ملامحه ، كأنه يسعى فى ليل

غسيق ، أو تحول بيني وبينه غيوم ، أو اشتد عليّ قصر نظرى ، روعت فصرخت ...

مولاى وإمامى .. هذا أول النسيان ..

لم يجبنى ، فتجسد لى اليتم الذى بدأ مع رحيل أبى ، لكننى أدركت أن من يهيمن على الديوان سمعنى ، تمنيت لو قربنى منه ، لكنه لم يحن عليّ ، قلت ودمعى يسبق قولى ..

أنى وجل ..

ومرّ صمت ، ثم أتانى صوت الطاهرة رئيسة الديوان ..

لا تكن من القانطين ..

عاودت النظر ، وعاودنى الحنين فرأيت أبى ولم أر ملامح وجهه ، أراه ولا أراه .. قلت : ما زاغ البصر وما طغى ..

قالت :

أو لم نعمركم ، ما يتذكر فيه من تذكر ..

قلت :

البصر يغر ..

قالت :

اصبر .. لقد وصلت إلى زمن لم تكن بالغه إلا بشق الأنفس ..

آنسنى الصوت الذى صيغ من عبير المنى ، وجوهر الحنين ، والألفاظ نتيقة الياقوتية ، من سر النظر ، غير أن الحنين غمرنى ممتزجاً بوحشة ، فقلت ارات منهنهة كأنى انقلبت طفلاً .

تلك بداية النسيان .

جاءنى صوت خافت غامض كقوس قزح

لقد نسيت ، واليوم تُنسى ..
قلت دامعاً ، مخلخل القلب ..
تلك بداية النسيان ..

.. صمتوا كلهم عنى . انقطعت رئيسة الديوان عنى ، ولم يطل مولاى علىّ ، كدت أسأل ، لماذا أمر بما لم أعهده ؟ لماذا أرى أبى الآن ، وأشم عبيره ، وأعى لون الضوء فى النهار البعيد ، ولافتات الدكاكين ، وملامح بعض المارة ولون معطف تاجر الموبيليا القديمة الذى اعتاد أبى أن يحييه ، لماذا أرى هذا كله ولا أرى ملامحه ؟ لماذا يخيل إلىّ أن حرقة الفراق أخف ؟ لماذا أدرك أنه راحل من قديم ، مع أنه أمامى ، لماذا لم أعهد ذلك فى أسفار الغربة عندما رافقنى مولاى ، ولم يتخل عنى ، كدت انطق الاستفسار ، لكن الهاتف الخفى حذرنى ..

ليس لك ان تسأل عما لم تحط به علمًا .. ألم يخبرك الإمام الحسين بذلك ..

أمسكت علىّ أنفاسى ، وعدت أحدق إلى أبى ، إلى هذه اللحظة التى تشبثت بها ، وهذا من عجائب موقف الحنين ، تبينت أنه بإمكانى أن أمسك وجدى أو شعورى ، فإذا رأيت أو حننت إلى لحظة نائية كان ممكناً لى أن أثبتها إلى حين ، ولو كنت أمر بحزن غامر ثم جاءنى من لا أرغب فى إظهاره له ، أوقف حزنى ، أو أساى ، أو فرحى ، فإذا خلوت بنفسى أرسلته من جديد واسترسلت فيه ، عاودت النظر ، لكننى أيقينت من فقدى ملامح أبى فى هذه اللحظة ، هذا ما تأكدت منه ، تكاثفت علىّ الظلال ، ولم أدر ، أهى ظلال معنوية ، أم ظلال حسية ، ولما اشتد علىّ حالى وعظم وجلى ، تحولت ، تغيرت ، تبدلت كلى ، أصبحت ذلك الخياط ، أصبحت أنا

صاحب الدكان ، أتربع بعد صلاة الجمعة ، على مهل أسرج الخيط ، وأقص القماش بالمقص الكبير المتين القديم الذى لا يوجد مثله الآن ، أحمد ربى الذى أعطانى القدرة فى هذا العمر على ايلاج الخيط فى ثقب الإبرة ، وحفظ مقاسات زبائنى فى دماغى ، أحمده لأنه أبقى حبال ودى متصلة بزبائنى وجلهم من كرام الناس المستورين ، مشايخ أزهر ، وتجار خان ، وأبناء أصول من بلاد بعيدة ، ورحم الله الشيخ هاشم الكبير الذى كان يجىء إلى مصر مرتين فى السنة من قريته جهينة فى أقصى الصعيد ، ينزل فى فندق البرلمان بالعتبة ، كان يجىء لغرضين اثنين لا ثالث لهما ، الأول تأدية فرائض الصلاة الخمس فى مسجد مولانا وحبيبنا ، والثانى لتفصيل ملابسه عندى ، كان مهيباً ، من رجال الزمن الحلو القديم ، الزمن الذى كنت اترك فيه دكانى مفتوحاً ، أقضى حاجتى وأرجع لأجد كل شىء كما فارقته ، حتى صبى المقهى لا يجرؤ على استرداد فنجانه وكوبه الفارغين إلا بعد عودتى ، رحم الله الزمن الجميل ، ينظر إلىّ أحمد الغيطانى ، ينتظر مجىء خلف بك الذى كان سبباً فى جريان رزقه ، ثم زواجه ، وانجابه ولديه ، يجلسان صامتين ، متأدبين ، ربما يشعران بضيق ، ربما يرغبان فى الجرى ، فى اللعب ، لا يمشى أحمد بدونهما منذ أن عرف جمال المشى ، كذا الثانى ، أحمد من بقايا الناس الطيبين ، لم يكن يفارق الشيخ هاشم الكبير ، يصحبه من الفندق إلى المسجد ، إلى آل البيت ، فى الصباح الباكر قبل ذهابه إلى الوزارة يمر به ، بعد غياب الشيخ هاشم رحمه الله لم ينقطع أحمد عنى ، دائمًا يتقصّى عن القادمين من جهينة ، يصحبهم ، يدلهم ، ينفق وقته معهم ، لو شاء لأصبح تاجراً كبيراً ، زميله الذى خرج معه ، عمر الماخوت ، من أثرياء سوق العتبة الآن ، يجىء إلى الحسين فى عربة حنطور يجرها جوادان مطهمان ، تاجر سمك كبير ، عرفنى

أحمد به عندما أشار إليه ذات عصر وأسرع إليه ودعاه إلى كوب شاى عندى ولكن الماخوت اعتذر بضيق وقته ، قال أحمد مشيراً إلى العربة ذات الجرس: هل تصدق، خرجنا من البلدة معاً وجئنا إلى مصر فى عربة موتى ! . قلت له : لو شئت لأصبحت مثله ، قال لى : الدنيا حظوظ .. المهم أن أربى أولادى الآن وأجنبهم ما عرفته من غُلب ، من شقاء . أحمد يقضى عمره فى الصحبة ، فى ود الآخرين ، فى الرفقة ، فى أداء الواجب . عزاء هنا ، وفرح هناك ، إلى زيارة مريض ، لو دنا أجلى وحانت ساعتى ، سيكون من أول الساعين فى جنازتى ، ممن يحملون نعشى ، وسيكون ممن يترحمون علىّ ، ويتذكرون كلما مر بدكانى ، وربما يجىء إلى قبرى فى الأعياد والمواسم ، يجلس صامتاً ، خجولاً ، ولو تكلم فإن حكاياته لن تنتهى ، نبيه ، يتذكر أدق التفاصيل ، مطلع على الأنساب والأصول ، مسكين ، ولو أنه التحق بالأزهر ، ولو تلقى تعليمًا ، لصار له شأن ، جازى الله أولاد الحرام ، لكن الله عوضه ذرية صالحة ، يقول لى دائمًا إنه لو تسول بجوار مقام الحسين فسيفعل حتى يتم ولداه تعليمهما ، لكنه يتبع قوله بالدعاء : ربى لا تحوجنى إلى مخلوق . تكل يدى ، لم تعد الصحة هى الصحة ، لكن الدكان أحسن لى من القعدة ، أتمنى لو يستردنى الله مكانى ، أخشى رقدة قد تطول ، هنا انتظر أصحابى الذى أأتنس بهم . يجيئون ، يقعدون ، لا نتبادل كلاماً كثيراً ، لكن معهم تتصل الونسة ، منذ خمسين سنة لم تتبدل جلستى ، يتغير الزبائن ، ويتوافد الأغراب علىّ ويمر آلاف المارة بين حدقتى عينى ، لكن الدكان على حاله ، أما الأيام البعيدة فلا نملك ازاءها إلا الحنين ، أما الأيام الخالية من الصحبة فصعبة ، لا يكون الأنس إلا بالكثرة ، والتفرقة أول الوحشة والانكسار ، أول الغياب .

آه يا أحمد .. يا غيطانى يا ابن الناس الطيبين ..

انظر إليه ، كأنه فهم عنى ، ملت إليه كى أراه ، كأنه بعيد عنى ، قربت عويناتى ، لكننى لم أر ملامحه ، ناديته ..

يا غيطانى ..

شعرت بصوته لكننى لم اسمعه ، عجباً ، عجباً ، رجعت إلى أصلى فأصبحت أنا جمال مرة أخرى ، عدت لاهث الأنفاس ، كأنى ارتقيت منحدراً وعراً بقلب عليل . وعندما اكتمل ابصارى غرب عنى أبى ، كذا الدكان ، وشق علىَّ أن أفارقه قبل رؤية ملامحه ، لكن الهاتف الخفى أهاب بى ، لا فائدة، ما من أمل يرجى ، وعرفت أن ملامح الإنسان تتبدل فى كل لحظة ، وأن الوجه الواحد يحتوى وجوهاً بلا حصر ، وأنه ما من ملامح ثابتة أبداً ، فالتغير يقع مع الموضع والضوء والبرد والحر ، والحزن والفرح ، والضيق والانشراح ، والشرود والتركيز ، وأننا نقضى الأوقات الطويلة نطالع وجه الحبيب القريب ، ونتملى منه ، ونحفظ عنه ، ونهتز له ، ولا ندرى أبداً أن ما نراه الآن ليس ما سنطالعه بعد لحظات أو فى الغد ، وتحجب عنا الغفلة الإنسانية حقيقة فحواها ومضمونها ، أن تلك الملامح التى نتطلع إليها الآن ، والتى يخيل إليها أنها لن تمحى أبداً من أذهاننا وذكرياتنا المثقلة وأنها لن تغرب أبدا ، هذه الملامح ستبهت يوماً مع الفراق ، مع البعاد ، ولن يخطر لنا أبداً أننا سنجتهد يوماً فى استعادة ملامح أقرب الأقربين ولكن عبثاً ، تبهت ذكرى الشيء الذى لم نتخيل يوماً أنه سيبهت أبداً ، آه ، كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام ، ما من أمل يرجى فى استعادة ملامح أبى عند هذه اللحظة بذاتها ، لا بل كل اللحظات ، بل إننى عندما أتذكره أو اتخيله إنما استرجع أو اتخيل شيئاً مختلفاً ، علامة باهتة تقول ، هنا كان أبى ،

إشارة بعيدة ، أما الواقع فقد ولى ، انطوى ، هتف بي الهاتف أننى رأيت من
أبى أقصى ما يمكن لى أن أراه من خلال عينى الحاج الصاوى ، صاحب
الدكان الذى ولى ، الدكان الذى اندثرت معالمه تماماً فى زمانى الدنيوى ،
أصبح بوتيكاً يبيع معاجين الأسنان الأجنبية ، والألبان ، والحلوى ، وأدوات
الحلاقة ، والمجوهرات الصناعية ، تبدل كل ما رآه أبى ، وما انطبع فى
حدقتيه ، تبدل كما تبدلت ملامحه عندى ، ولأن وهن الذكرى وضعفها بين
القلب فقد قوى علىَّ الحنين واشتد حتى لم أكن بقادر على الراحة فى أى
وضع ، وقوف أو جلوس ، أما الهرب فى النوم فلا محل له فى الديوان ، هبَّ
علىَّ الحنين كرائحة مكان مهجور مغلق ظل المسك مقبوراً فيه سبعة آلاف عام
من عمر دنياى ، عرفت أن الحنين جالب للمودة والرحمة ، ولكن يا أسفى ،
فى غير أوانهما ، فى غير موضعهما ، فى غير مقامهما يغذيان الحنين ، والحنين
عابر يهب كالخواطر ، والخواطر أيضاً عابرة ، وليست مقيمة ، لا تبقى فى
القلب إلا مقدار هبوبها ، لكنها تورث ألماً غير منظور ، وأشد الأوجاع ما كان
خفياً ، هل سمع إنسان بخاطرة اتخذت من قلب سكنا ، لا تقيم الخواطر
بالقلوب إلا زمن مرورها وهذا زمن لا يمكن قياسه بحساباتنا الإنسانية ، قال
شيخى الأكبر محيى الدين إن لله سفراء إلى قلب عبده يسمون الخواطر، لا
إقامة لهم فى قلب العبد إلا زمن مرورهم عليه ، فيؤدون ما أرسلوا به إليه من
غير إقامة لأن الله خلقهم على صورة رسالة ما أرسلوا به ، فكل خاطر عينه ،
وعرفت أنا أن هبوب الحنين سيكون بمقدار ما أرى . والأهم بمقدار ما بقى
حيا فى أعماق من الأيام البعيدة ، حننت إلى صحبة مولاى الحسين ، شرفت
به . إلى ظهوره، إلى أخذه بيدى ، إلى عطفه علىَّ ، إلى الأنس بى ، ضريح

رأسه مقصدى ، أسافر فأطوف به قبل رحيلى . ثم يصبح بؤرة حنينى إلى وطنى ، وأثر عودتى أهرع إليه فكأننى أجدد إقامتى فى دارى ، عندما سعيت إليه فى الديوان تركت كل ما بيدى ، لم أسند أمرى إلى أحد ، لم استشر إنساناً ، ولم أفكر فى مولود أو ولد ، جئت إلى الديوان متجرداً ، خرجت من واقعى إليه كخروج الميت عن أهله وماله ، لهذا حق لى الآن الرغبة فى رؤيته وشرع لى الأمل فى اطلالة منه علىَّ ، ولكنه لم يهلّ ، لم يلح ، لم يبد ، فلقنى الخذلان والهجر ، ثم هذا الحنين من جديد فرأيت طريقاً مزدحماً ، دققت النظر ، رأيت أبى ، يصحبنى أنا وأخى إلى زيارة ضابط بوليس سابق اسمه أبو حشيش ، يقصد بنا عمارة تقع فى موضع ما بالقرب من ميدان الجيش ، أجهل موقعها الآن ، ولا أعرفها على الرغم من أننى أذكر طلاءها الأصفر ، وسلالمها المرتفعة ، وخشب الباب بنى اللون والممر الطويل المؤدى إليه ، رأيت أبى ورأيت أخى ورأيت نفسى ، كنت أمشى خلفهم ، لا أتخطاهم ولا أتجاوزهم ، فى حجرة الاستقبال وقفت فى ركن قصى ، يدخل رجل ، إنه أبو حشيش ، لا أرى ملامحه ، أشعر بفرحة أبى وهو يشير إلينا :
جمال ابنى الأكبر وهذا إسماعيل الأصغر .

لم أكن أعرف وقتئذ أنه الضابط الذى أنقذ أبى ، هذا ما عرفته بعد رحيله عنا ، كان خالى يتحدث عن طفولة أبى عندما ذكر اسم الضابط الذى آوى أبى فى النقطة ، ها هو أبى ينظر إليه ، كأنه يقول ، لولا أنك نجيتنى من أهلى وناسى ، لولا أنك أخذت العهد والميثاق على عمى بعدم التعرض لى لما انجبتهما ، ولما سعيت ، رأيت أبى يصحبنا إلى بيت خلف بك ، البيت القديم فى الظاهر ، فسيح ، متعدد الحجرات ، صالة متسعة ، وسجاد ثمين معلق إلى الجدار ، ودولاب كبير من خشب ثمين مزدحم بمجلدات قانون، اللغات

عربية ، وأجنبية ، أود النظر عن قرب ، غير أنى أخشى الخطأ غير المقصود فاحجم ، رأيت الابن الأكبر لخلف بك يلعب باتومويبل صغير ، يدفعه فيجرى ، ونحن ننظر إليه ولا نشاركه ، رأيت أبى يصحبنا إلى متاجر شارع الموسكى ، يشترى لى عربة اطفاء ، ولإسماعيل تراماً بداخله رجال ونساء وكمسارى يعلق حقيبة جلدية ، تلك عادة لم تنقطع إلا مع تقدم الزمن بنا ، فى العيد الصغير والعيد الكبير لعبة لكل منها ، وثوب جديد ، رأيت أبى يتمدد فى الغرفة الوحيدة ، يقول إنه سيأتى لكل منا بطائر يمكنه الطيران فى فراغ الحجرة ، من حين إلى آخر أسأله عن هذا الطائر العجيب ، لكننا لم نره مطلقاً رأيته يصحبنا إلى سينما أوليمبيا فى شارع عبد العزيز ، ومنظر فى فيلم لا أذكر اسمه ، قارب فى بحر ، وشكوكو يغنى ، رأيت المدخل الخلفى لصالة السينما الامامية ، طلاء الجدران الجيرى أصفر ، ومعدات اطفاء حمراء اللون معلقة ، ورائحة عتيقة ، ربما للرطوبة المنبعثة من الممر الذى لا تطوله الشمس أبداً . رأيت، سوق الخضار الكبير ، ودكان الحاج عمر الماخوت تاجر السمك الكبير ، مجرى صغير أمام الدكان تصب فيه مياه الغسيل القادمة من داخله ، من جلستنا نرى غطاء الثلاجة الخشبى الثقيل ، العمال يرصون قطع الثلج فوق السمك ، مناضد نحاسية مستديرة قوائمها معدنية ، مزدحمة بأكواب الشربات ، والشاى ، وكوب صغير تطل منه أعواد النعناع الأخضر ، الحاج عمر غارق فى الظلال يرتدى الجلباب البلدى والطربوش الأحمر ، وعلى مقربة تقف عربته الخاصة ، مربوط إليها جوادان أسودان ، عليهما سرجان يلمعان ، أمام كل منهما جوال ملىء بالتبن أو الشعير لست أدرى ، وفوق منضدة مرتفعة عند مدخل الدكان فونغراف ذو بوق كبير ، عاد الحاج عمر الماخوت من الحجاز بعد أن حج للمره الرابعة ، يصغى أبى ، ينظر مشوقاً إلى

حديث عن زمزم وزحام الحجاج فى منى، ويوم الوقوف بعرفات، يصغى أبى، ولم أكن أدرى أنه يتمنى ويتمنى ! أرى لوكاندة البرلمان القديمة المطلة على ميدان العتبة ، الطلاء الرمادى ، الأقواس التى تحد الممر الذى يقع أمامها ، مدخلها ونوافذها المستطيلة ، وحجراتها الفسيحة مرتفعة الأسقف ، والحاج محمود أحمد من بلدتنا ، يرتاح بعد أن أجريت له عملية جراحية ، يزوره أبى مرتين يومياً ، يصحبنا إليه ، ينظر إلينا ، يقول : ما شاء الله يا أحمد.. أولادك كبروا.. بجوار السرير سلة فيها فطيرة، وإلى جوارها بطيخة كبيرة الحجم ، يطلب من أبى أن يقطع من الفطيرة ، من البطيخة ، أبدى تمنعاً ، بينما يسيل لعابى داخل فمى ، يشجعنى الحاج محمود : خذ يا جمال ، أبوك رجل كريم ولا يقول لأ أبداً . رأيت أبى فى مكتب سكرتير مدرسة عبد الرحمن كتخدا الابتدائية ، ابراهيم أفندى ، أرى وجهه ، ونقطة مستديرة من وشم أخضر تتصدر جبهته ، يقول أبى إنه سيدفع أول الشهر ، السبت القادم ، يقول ابراهيم أفندى : بإمكانك ألا تدفع لو قدمت شهادة فقر ، يقول أبى : هذا فأل سيئ ، أنها أول مصاريف أدفعها للولد . رأيت ميدان العتبة الخضراء ، أبى يصحبنى إلى الوزارة ، موقف العربات يتوسط ميدان العتبة ، عربات شركة الثورن كروفت بطلائها الأخضر والأبيض ، أطل عبر النافذة الخلفية ، كوبرى قصر النيل ، ثم ينقطع ما أرى لحظة نزولنا بالقرب من الميدان الفسيح دكان كواء ، تنزل إليه ثلاث درجات تهبط به عن مستوى الشارع ، يحمل أبى ياقات بيضاء تخص خلف بك ، أرى أبى يصحبنى إلى محطة مصر ، ينتظر خالى القادم من البلدة، يشير إلى القضبان الحديدية قائلاً ، أنه خط الصعيد ، لا انتبه إلى صوته المضمخ بالحنين فى لحظتها أنما اعيه بعد ذلك بسنوات طوال ، كذا رقاده فى ساعات راحته ، وتخيله لحركة

القطارات المسافرة ، يقول : الآن يتحرك قطار الثامنة ، يقف بالمراكز ، أما قطار الثانية عشرة فيقف بالمديريات فقط لأنه سريع . الآن يوشك قطار الصحافة على دخول طهطا . الآن يقوم قطار الرابعة والنصف من أسيوط . أرى رصيف المحطة مرة أخرى ، يمسك أبي بيدى ، يصيح : يا محمد على ، يا محمد على ، يطل خالى من نافذة القطار ، يناول أبي القفة التى تحوى «الزيارة» . فى صالة البيت الصغير تمزق أمى القماش الذى يغطيها ، فوق الخبز الشمسى والبلح المجفف تتمدد أوزة مذبوحة وحمام ، يقول خالى : أسلقيهم حتى لا يتعفنوا . ينشط أبي . يخرج ، يجيء ، يهمس لأمى ، راجياً منها ألا تشكو لشقيقها وأن تدع أيام إقامته فى مصر تمضى بهدوء ، وأنه سيلبى كل ما تطلبه ، ولن يزعق أبداً . يصحب خالى فى الليلة الأولى إلى مقهى أحمد عفيفى ليدخن المعسل ، وفى اليوم التالى إلى الأضرحة التى تضم مراقد آل البيت ، إلى سيدنا الحسين ، والسيدة زينب ، والسيدة نفيسة ، والسيدة رقية . إلى سيدى زين العابدين ، يبدو خالى ضجراً ، أصفر الوجه ، مزموم التقاطيع ، ويفهم أبي ، ينزل إلى فندق الكلوب العصرى ، يتجه إليه وجلاً ، خائفاً ، يكره ويخاف ما سيقدم عليه ، لكنه يريد أن يرضى نسيبه ، يهمس فى أذن عمر الخادم ، يرجوه أن يوفر له فص أفيون ، وصل نسيبه من البلدة ، ثم يكرر عليه : إنها ليست له ، والله العظيم ليست له ولن تمصه ، فى البيت يقول لأمى همساً . هل أنت راضية .. لقد أحضرت ما أراده من أجلك ، وتجيب أمى بهزة من رأسها ، إنها راضية . رأيت أبي يصحبنى إلى مقبرة رجل لا أدرى اسمه ، بناؤها حجرى ، بابها حديدى ، حوض رخامى مليء بالنبات ، بالريحان ، الوقت عصر ، لهذا ظلت رائحة الريحان تعنى عندى دائماً الموت ، رأيت سطح بيتنا القديم ، نخرج من الغرفة ، يحملني أبي فوق

ذراعيه ، ينظر إلى الأفق الملتهب بنيران صفراء ، بألسنة لهب ، يقول أبى ، هذه النيران ناحية غمرة ، وتلك ناحية قصر النيل ، يخفق قلبى ، هذا يوم يمكننى تحديده ، السادس والعشرون من يناير عام ألف وتسعمائة وخمسين وليس للذاكرتى أدنى فضل فى معرفته أو الإشارة إليه ، إنه يوم معروف دونته كتب التاريخ التى تعى الأحداث الجسام . ها أنا أجلس فوق السطح ، يتحدث عن شاب من بلدتنا ضبطوه فى البيت يحلب نفسه ، يقول إن من يفعل ذلك يجن أو يموت ، فوق السطح يحكى أبى عن رجل اسمه العياط موظف فى الوزارة ، ضايقه ، فى صوته ألم وشكوى . أقف بين طرفى الملاءة المنشورة فوق حبال الغسيل ، أدعو على هذا العياط ، يدرك قلبى هم أبى وكربه ، غير أنه يقول لى ، لاتتمن الأذى لمخلوق ، يأبى أن ادعو على الرجل لأن دعوات الأطفال تستجيب لها السماء بسرعة ، أدرك تعبه وأنه يفضفض عن نفسه لأمى ، أراه يمسك مقشة يقتل بها ثعباناً وجده يزحف بجوار دورة المياه ، يقول لأمى : هاتى جازاً لنشعل فيه النيران ، لابد أن تضيع رائحته تماماً لأن وليفته ستسعى وراءه بحثاً عنه ، أمى تخاف الثعابين والأبراص ، إذ يظهر أحدها يتقدم هو منه ، لو طرق الباب طارق على غير انتظار يفتح هو ، إذا مشينا فى الشارع نكون فوق الرصيف ويمشى هو ناحية عرض الطريق ، نأكل فيناله هو نصيبه آخرنا ، تجلس أمى الباب ، ترتدى جلباباً أبيض ، تعصب رأسها بمنديل ملون ، ننتظر سماع خطاه فوق السلم ، لوقع خطاه صوت لم يصدر قط إلا عنه ، كلما طرقاته المتتابعة للباب ، ها نحن ننتظره فى صالة البيت الضيقة ، ننتظر خطاه ، فى صالة بيت الدرب الأصفر الذى انتقلنا إليه زمناً ، أرى نفسى بعد عودتى من عملى ، أجلس فى غرفتى بعد أن صارت لى غرفة تخصنى ، يرن الجرس ، أسمع صوت أبى فى

الصالة ، ربما أقوم إليه ، وربما أبقى مكانى حتى يفتح هو الباب ، وربما لا يفتحه ، أرى نفسى أثناء زياراتى إلى البيت بعد أن صار لى بيت وأسرة ، اسمع صوته فى الصالة يقول : لقد جئت مبكراً كى أرى «جمال» ، ها هو بينى ، يرن الجرس رنات متعاقبة ، وهذه رنات لم تتردد أبداً بعد سفره الأبدى ، يدخل إلى الصالون ، يجلس ، فى نفس المقعد ، تطول فترات الصمت . يدعو لى بالستر والنعمة ، فأدرك أنه أوشك على الذهاب ، يقوم ، يقول إنه سيمضى ، فأطلب أن يبقى ، يقول إنه سيزور شخصاً يقيم فى مكان قريب ، أقول : لكن مشوار عودتك طويل ، ستتأخر ، يقول إنه سيرجع مبكراً ، قبل أن يفتح الباب يقول إنه سيدعو لى ولزوجتى ولابنى عند مقام الحسين ، يرفع يديه ، يطلب من العلى القدير أن يهبنا الصحة ، والعافية ، وأن يحوش عنا أولاد الحرام ، وأن يمتعنا بنعمه ، أقف عند بداية السلم . فى هذه اللحظات الأخيرة، أظهر الود، أردد، مع السلامة، خذ بالك من نفسك ، يجيئنى صوته : الله يسلمك يا بنى ، ادخل ، ادخل من البرد . أدخل متعباً ، وعندما أسند رأسى إلى الوسادة أحن إليه وألوم نفسى ، كان يجب أن استبقيه ، كان يجب أن يقضى ليلته عندى ، لا يجب أن أدعه ينصرف بسرعة . أقول لنفسى ، فى المرة القادمة لن أدعه يذهب هكذا ، فى المرة القادمة ... ، لكن هذه المرة لم تأت قط ، ولم يعرفها عنى قط ، مرة أخرى أصغى إلى خطواته القديمة ، قدومه وذهابه ، اقترابه وابتعاده ، ثم تغيب عنى ، اتلفت حائراً حولى ، لو اسعى إلى أرجاء الديوان ، إلى منزل الأصوات الباقية ، افتش عن هذه الخطى ، انقب عن أصدائها ، لكن كيف واين ؟ عند هذا الحد تتزايد هجرى ، وعظم خوالى ، وتزايد فقر روحى المدقع ، الأصوات لا تستجيب لذاكرتى الخاصة ، لا تلبى التمنى ، أما الحنين فيربك عند اضطرامه ، ويجلب

النسيان الذى لاراد له ، والنسيان يأتى بالجفوة ، والجفوة موت ، كذا سأنسى يوماً ، لقد نسيت واليوم أُنسى ، انقسم عمرى إلى عمرين متباعدين ، عمر سمعت فيه خطو أبي ، بشرى الألفة والأمان ، وعمر جف منها ، حننت إلى الانتظار القديم ، لم أسمع صوتاً ، لم يقع صدى ، أدركت أننى على شفا حفرة من موقف الخذلان والندم ، وأن مقامى سيمتد ، سيطول ، وعذابى متدرج ، توسلت وتضرعت ، رجوت سيدى ودليلى أن يرجئ دنوى منه لأن قلبي مثقل ، وضميرى دام ، وعطر ودى منقطع ، وحنينى فى تكاثف كثيف ، آه يا مولاى ، إن لم تأخذ بيدى فإلى من أكل أمرى ، وعلى من أعرض وفالى وغدرى؟ ولمن أبدى حججى واعذارى؟ بمساعدتك رأيت وعرفت ، فهل سمعت حنينى ورجائى ، هل ترحم قلة حيلتى إزاء الحنين الوعر ، ذكرت ما سطره شيخ من شيوخى الاجلاء . ذكرته والحنين متمكن منى ، سلام على نسيم كان يصل من الحبيب إلى قلب كلّ عنه كل طبيب ، نعم ! وسلام على روح كان يهدى لعلامة القبول والرضا . صار كرباً بحسرة على مافات وما مضى . بل سلام على ليل كان يلتقى طرفاه بأنس ، يفتن عليه الجن والإنس ، بل سلام على لحظ كان ينتعش به العاثر ، ويتجدد بنوره الداثر ، بل سلام على حرم كان لا يدب فيه واش ولا رقيب ، ولا يحل به ظنين ولا قريب ، بل سلام على رسائل كانت ترد بعتب يحترق به القلب ، ولطف يحيا به الروح ، بل سلام على علامات كلما طرق خيالها هاجت البلابل ، وتقطعت السلاسل ، بل سلام على مصافحة كانت الكبد بها تذوب ، وعلى معانقة كانت الأمانى بها تثوب ، بل سلام على مجلس ، كان ممتلئاً بحديث حلو جرى مع الحبيب ، ليس لأحد من الخلق فى تعريضه وتصريحه نصيب ، بل سلام على يقظة كانت مقصورة على

الشوق إليه والوجد به ، بل سلام على رقاد كان الحلم يعرضه ويجلوه بأكثر مما كانت النفوس تتمناه وتهواه .

نؤمّل عيشاً فى حياة زهيدةٍ
أضرت بأبدانٍ لنا وقلب
وما خيُر عيش لا يزال مفزعاً
بفوت نعيم أو بموت حبيب

هكذا مدت ميدا ، وصار الرسو أبعد الأمور عنى ، الحنين إلى الحنين يداهمنى ، حنين إلى ما عشت وعرفت ، وحنين إلى حنينى ، صرت موزعاً متفرقاً ، ولأنى ، لأنى ، حق على العقاب ، وهنا خفف الله عنى ففتح علىَّ بتجلٍّ ..

تجلٍّ عابر

.. هذا تجلٍّ عابر ، بمثابة نقطة بين مرحلتين ، ولحظة تلتقط فيها الأنفاس بين عذابين ، بدأت أطفو إلى أعلى عليين ، ولم يساورنى الخوف أن أرد أسفل سافلين ، ثبت أمرى عند نقطة مرتفعة ، حدقت بالبصر الحديد ، رأيت عالمنا الأرضى كله ، مستديراً ، جميلاً ، مبهراً ، رأيت داخل شكله الاكرى الأشكال كافة من طول وعرض واستقامة وعوج وتربيع وتثليث ، رأيت القارات كلها فى تفصيلها وفى جملتها . رأيت البحار وما تحوى والجبال وما تحمل والشهب ومقاصدها ، والغمام ، رأيت المدن وحركتها ، والقرى ، والمدقات والشوارع ، والمنحنيات كلها ، ثم طاوعنى بصرى ، فأصبحت أرى ما أشاء ، ما أتمناه أرغبه ، دون أن يغيب عنى الكل ، كأنى أرى الدنيا كلها

وفى نفس اللحظة أرى علامة مرور صغيرة عند ناصية مجهولة ، أرى المدينة ، وأرى زهوراً ملونة مطلة من سلة معدنية بيضاء معلقة إلى نافذة من طابقين فى إحدى بناياتها . أو منمنمات خشبية تتصدر باب بيت قديم ، بل امكننى قراءة عناوين الكتب فى واجهات المكتبات ، حام بصرى وحط كفرخ حمام متعب على المواضع التى عرفتها طفلاً ، وصبياً ، وشاباً ، ثم رجلاً مكتملاً ، وهنا أفيض علىّ بقدرة خصتنى دون غيرى ممن سبقونى فى التجلى ، وهى قدرتى على رؤية المكان فى زمانين أو عدة أزمنة ، كل ذلك فى نظرة واحدة ، وأول من رأيت أبى ، ها هو يسعى فى صباح باكر والندى يقطر ، ها هو يمشى فى ظهيرة مزدحمة ، رأيته على طريق مهجور بين قريتين ، ثم رأيته يصحبنى ها هو متجه إلى عمله ، إلى المصلى الذى يقع فى الطابق التحتى من مبنى الوزارة ، إلى الحديقة المجاورة حيث يتمدد عندما يدركه التعب ، ها هو فى شارع قصر الشوق ، صباح شتوى ، لا يرتدى إلا جلباباً ، ثم يقف فى الطريق ، وقد أصبح وجوده علامة على الحيرة التى هى فى أصل النشأة الإنسانية ، الدكاكين مغلقة عدا دكان السنى بائع الخبز والدقيق ، يطيل النظر ، يعقد يديه خلف ظهره ، رجل يمسك الأرغفة الساخنة التى وصلت من الفرن لتوها ، ينتظر أبى انصرافه ، ثم يتقدم ، يلقى السلام بصوت خفيض ، وهذا صوت لم أعهده فى رحيلى الطويل هذا إلا بعد زواجه وانجابه لى ، لنا ، يطلب ستة أرغفة ، ثم يقول للرجل الملتحى : ويكتمل لك بهذا ثلاثون قرشاً ، يقول : لم يتبق الكثير على بداية الشهر ، يقول الملتحى : ولا يهمك يا أحمد ، كان الله فى العون . عندئذ يتشجع أبى فيطلب خمسة قروش ، ويكتمل المبلغ بذلك خمسة وثلاثين . أدقق النظر حتى أرى الشعيرات النامية على يده وعند مفاصل أصبعه ، كذلك التصاوير على الورقة المالية الصغيرة . أراه فى نفس الوقت ،

يمد يده بالطبق الفارغ إلى سيد بائع الفول ، ها هو راجع إلى البيت ، لقد جاءنا بإفطار اليوم ، أراه يدخل مقهى ، يتوقف عند مدخله ، يقول السلام عليكم ، فيرد عليه كل الجالسين : وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته ، كنت أرى هذا كله فى آن واحد معاً ولم يكن يغيب عن بصرى فى ذات الوقت رحيل السحب ، وتكون الثلوج ، ودوران الأرض حول محورها . وبرد الزلازل ، وهبوب الأعاصير ، وهذا أمر يطول شرحه ، ويقصر عنه أدق الوصف ، رأيته يتقدم من عربة لنقل الموتى ، تقف فى شارع جانبى بمدينة طهطا ، ابتهجت ، هذا هو أبى الذى رأيته راحلاً عن البلدة كما رأيته فى أسفار الغربة ، يقترب أبى من العربة ، يسأل سائقها ..

من الميت ؟

رجل من بنها ..

وهل سيدفن فى طنطا ؟.

لا .. فى بنها . سأسافر به الليلة ..

يقول أبى :

هل تصحبنى معك ؟

ينظر إليه السائق العجوز ، المرهق بالوحدة ..

إلى أين ؟.

نسعى إلى مصر .. إلى لقمة العيش ..

يقول الرجل ، وقد مال قلبه إلى أبى وعطف ..

تعالى يا بنى .. الطريق طويل وسنسلى بعضنا ..

يتقدم عمر الماخوت ، يسأل ..

ستأخذ منا كم ؟؟ .

يبتسم السائق القديم ..

تكفى الصحبة الطيبة ..

يعود الماخوت إلى أبى ، يبدى ضيقاً ، هل يسعيان إلى مصر فى عربة لنقل الموتى ؟ هذا شؤم ، يقول أبى إن الأعمار بيد الله ، ولكل أجل كتاب ، وأنه شاء أن نرحل إلى مصر راكبين ، هذه العربة ، فهل نخالف مشيئته ؟ ، تابعتها بنظرى ، تابعتها وأنا مفاجأ ، فى دهشة ، تلك هى المرة الأولى التى أُحاط بالوسيلة التى جاء بها أبى إلى مصر ، عربة موتى ، عندئذ سمعت صوتاً معاتباً ..

وهل اهتممت بالاستفسار يوماً ؟

.. آه . مولاى الحسين يطالعنى بوجهه النورانى بعد طول غيبة ، يحبق إلى بعينين رأيتهما فى كربلاء لحظة اصابته بالجرح الحادى عشر ، اختلط علىّ الفرح بالشفقة لمحبوبى ومولاى فخررت من حالق صعقا !!! .

مـوقـف
اللقـاء ، والتلـقى

.السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، أفقت يا أحبابى الكرام من صعقى وغشيتى فإذا بى فى ميدان باب الحديد ، سنة مجهولة ، وشهر لا يمكننى تسميته ، ويوم مجهول الاسم ، لم اعن بالسؤال ، وفيما يبدو أن هذا من نذر اليأس ، واليأس خطوة تجاه النسيان ، أدركت أنه يوقفنى فى موقف اللقاء والتلقى ، حيث درجة أخرى من العذاب المنزل بى والذى أتلقاه صاغرًا ، هذا موقف له علوم جمة ، منها علم الجمع والكثرة ، وعلم الفرقة ، وعلم الطول والعرض ، وعلم الأصل والظل ، وعلم الزمان ، وعلم الظن ، وعلم الخشية ،

وعلم الجهل بما سيأتى . له من لحظات النهار لحظة انبلاج الصبح ، ومن الرياح ريح المبوب ، ومن درجات روائح الأزهار الرائحة الولود ، وله من الوضع الإنسانى التحديق ، ومن حركات اليد السلام والمصافحة ، وله من الأحوال الدهشة والحذر معًا ، والمنزل المقابل له فى الديوان منزل ما كان وما سيكون ، علمت من الإلقاء فى معارفى اننى فى زمن لم أولد فيه بعد ، واننى ما زلت مشتتًا بين العناصر ، ولا وجود حسّيًا لى ، إنما أنا هنا بوعيي القديم ، وإننى أنتظر أبى ، وإننى سأصير ضامًا ، ومضمومًا ، وقبل أى فرصة للاستفسار تطلعت إلى مدخل الميدان من الناحية القبلية ، عربة نقل الموتى ، تتوقف ، يفتح بابها الايمن ، منه ينزل أبى ، عند وقوع بصرى عليه اصبحت أنا هو ، صرت أنا أبى ، صرت المصباح والمشكاة والفتيل والزجاجة واللهب معًا ، أشعر بتعب الطريق وغباره وخوف من الأرض التى لم تطأها قدماى من قبل وشوق لزيارة ضريح الحبيب الحسين ، وآل البيت وتساؤل عما سيحدث لى واين أكون فى مثل هذه الساعة عندما يجىء الغد ، ومن يمر الآن ، بالضبط الآن فوق الجسر المؤدى إلى المنحنى فى البلدة التى صارت بعيدة ، نائية ، وحذر من أهل السوء المتربصين بالغرباء ، وقبل هذا وبعده ود عميق تجاه السائق العجوز الذى اقتسم طعامه المصرور فى منديل أحمر كبير معنا ، وطوال الطريق كان يفسح لنا مكانًا إلى جواره فيلملم جسده ليتسع المقعد المستطيل لى وللماخوت صاحبى ، وكلما مررنا ببلدة أو مدينة كبيرة عرّفنا بها وحكى لنا عنها ، وقص علينا بعضًا مما جرى له فيها ، توقف بنا أمام المقاهى الصغيرة التى تقع خارج المدن ، ودعانا للنزول ، وأقسم ألا ندفع مليمًا واحدًا مقابل الشاى وشوربة العدس الساخنة ، يقول لنا : أنتما مقبلان على غربة ، والغربة تحتاج إلى كل مليم خرجتما به من البلدة ، كان فرحًا بنا ، وطوال الطريق الطويل ، لم يتوقف إلا أمام دكاكين

الحانوتية الذين يعرفهم واحدًا ، واحدًا ، يبادلهم السلام والمودة ، ويسألهم عن الحال والأولاد ، يقدمنا إليهم وكأننا أعز الناس عنده ، قال لنا إنهم الوحيدون الذين يمكن له التوقف عندهم ، وأن يأتنس بهم فى سفره الطويل ورفقته للموتى حيث لا يقبل أحد على مشاركته فيه بعكسنا نحن ، كان يشير إلينا ويقول ، إخوانى فى الطريق ، رجل طيب ساقته العناية إلينا ، خفف عنى الضيق ، وهوّن بداية غربتى فى بلدتى التى لم تسعنى وغلقّت ضبات أبوابها فى وجهى ، وسقتنى المر وبخلت علىّ أقرب القلوب . يفتح باب السيارة الأيمن ، يقول : ربنا يجعل البركة فى سكتكم ويسوق إلى طريقكم أولاد الحلال ، قلت : يهون علينا فراقك يا شيخ لكن هكذا حال الدنيا ، ثم لاحظت أن المانخوت صامت فخفت أن يظن الرجل الطيب الجفوة منه ، قلت : يعنى لو نزلت انا وعمر صاحبى إلى بنها كيف نستدل إليك ؟ يضحك ، فى بنها حانوتى واحد ، اسال عنه ، ستجدنى ، قلت : والله يا عم لو فتح الله علىِ ورزقنى باللقمة الحلال سأجىء إليك وأزورك. يصافحنا ، تهتز عندما يديرها ، ألمح من الطاقة الضيقة طرف النعش المثبت إلى الأرضية ، يشير إلينا بذراعه ، .. السلامة ، استدير إلى الميدان الفسيح ، وزحمة الخلق من كل جنس ، آه .. كبيرة ، واسعة والله يا مصر ، سكككك لا أول لها ولا آخر ، ربنا يقسم لى اللقمة الحلال فيك ، ويغنينى عن سؤال الناس ، ولا يحوجنى إلى أحد ، ضروعك كثيرة ، والرزق فيك ، والأزهر ، والعلم ، ساعدنى يارب علىّ أن احفظ كتابك ، وأفهمه ، وأكون من قرائه ، وغطنى بالستر ، مبنى كبير حوله سور من الحديد ، المبانى عالية ، والشوارع صلبة الأرضية ، والناس كثيرون ، أسأل واحدًا منهم ..

.. وهنا أصبحت أنا أبى ، وأصبحت كذلك الرجل الذى سأله أبى ، كنت

كاتبًا عموميًا فى طريقى إلى المحكمة الشرعية لأقعد فى نفس المكان الذى لم أغيره منذ عشرين سنة ، حافظتى تحت ابطى ، أوراق الدمغة الرسمية ، والورق الأبيض ، وعلبة صغيرة فى جيبى ، فيها الختامة ، وقطعة ورق صغيرة ، لتجفيف المداد ، تقدم منى قروى صعيدى فى عمر الشباب . سألنى عن مبنى محطة مصر ، أشرت إليه بسرعة ، فقال : أكثر الله خيرك . بعد أن تجاوزته التفت ورائى ، ورأيته يتحدث إلى زميل له ، فقلت لنفسى ، ربما ينزلان مصر أول مرة ..

تطلعت بعينى أبى ، ولاحظت أن الماخوت قلق ، لا يستقر على حال ، شارد بفكره فنويت أن اسأله ، خشيت أن يكون شيء ما قد ضايقه منى ، أردت أن أخفف عنه فسألته ، هل تخاف المدينة ؟ أم تعمل ألف حساب وحساب لأيام ما زالت طى الغيب ؟ أم يفكر فى الأهل اللذين فارقهم فى البلدة ، رجوته ألا يعول الهم ، قلت له إن اللقمة لو عزت فسأحرمها على فمى وأعطيها لك ، وأن الهدمة لو ضاقت سأخلعها عن جسمى وأغطيك بها ، قلت له إن من خلقنا لن ينسانا ، يا رجل كن خلى البال ..، قاطعنى فجأة .. اسمع يا ولد خوى ..

نطقت بلسان الماخوت ، وهكذا اطلعت على النية المضمرة ، والرغبة المؤجلة ، قلت بلسانه مؤجلاً الافصاح عن حقيقة ما فى باطنى ..

تعال يا أحمد ، نفطر فى أى مطعم ونشرب شاى مصر..

قلت بلسان أبى :

قروشنا قليلة ياماخوت ..

يحدثنى قلبى ـ قلب أبى ـ بأن الماخوت يخفى شيئًا عنى ..

دخلنا إلى معطم فول وفلافل ، أول لقمة تقسم لى فى مصر ، بسم الله

الرحمن الرحيم ، اللهم اجعلها مباركة ، من مكاننا نرى الرائح والغادى ومبى محطة مصر ، منه تقوم القطارات وإليه تصل ، لا أعرف اليوم الذى سأقف داخلها وانتظر القطار إلى طهطا ، إلى جهينة ، قلت ..

والله لم يكن هناك « داعى » ..

نظرت بعينى الماخوت ، وصار فكره فكرى .

« .. بعد أن ننتهى من الأكل سأدفع الحساب ، لن أطلب منه مليما ، عندما ألقى نفسى فى لحظة مناسبة أقول له ، مع السلامة ، لكل منا طريق ، لم ولن أصارحه بعنوان المعلم هريدى فى حلقة-السمك ، أنا لا أعرف هذه الحلقة ، ولكننى سأسأل ، ومن يسأل لا يضل . المعلم قريبى وسيساعدنى ، ويمكنه أن يلمنى فى الأيام الأولى ، يستضيفنى ، حتى أن لم يتسع لى بيته أنام فى دكانه ، وثقل واحد ليس كثقل اثنين ، لو ذهبت إليه مع أحمد ، ربما قال : لم يكتف بنفسه ، إنما جاء معه بشخص آخر ، وهذه عيوب أهل البلدة ومتاعبهم وبلاويهم ، بعد خروجنا من المطعم يبدو أحمد راضيًا ، لكن قبل أن ينسى العزومة ، وقبل ضياع اثرها ، أقول ..

شوف يابو خاله ..

اصغيت بأذنى أبى ، وبسمعه وبقلبه الذى بدأ يدرك ويفهم ، مثل هذه اللهجة تنذر بحسم ، بقول فصل ، اصغيت إلى الماخوت ، يقول إنه يجب أن يفارقنى هنا ، وأنه سيقوم بمشوار ربما كان فيه سبب لرزق كلينا ، شعرت أننى شقى ، سأحرم من الصحبة ، وسأقابل مصر وحيدًا ، الماخوت يكذب علىَّ أنا من قرصتنى الأيام ونالت منى ، أفهم ذلك ، لقد رتب أموره من جهينة ، بيّت النية لكنه لم يفضفض لى ، ولم أشأ أن اثقل عليه ، ولا أن أمنعه ولا أن أحوش عنه رزقه .

ربنا يسهل لك ، فرقتك صعبة لأننا مشيناها معًا ، لكن رح شوف نفسك ..

سمعت الماخوت بأذنى ابى ..

يوم أو يومين وأجىء إليك ..

يكذب عليَّ ، اين سيجيئنى ؟ أنا الذى لا سقف يغطيه ، ولا عنوان لى ، ولا وجهة ، يصعب عليَّ أن يتركنى ، يتجعد حلقى ويتمرر ريقى لكننى صافحته ، وتمنيت له السلامة ، وأوصيته بنفسه خيرًا وأنا بحاجة إلى من يوصينى بنفسى ، ورجوت الكريم الحليم أن يبعد عنه أولاد الحرام ، يهز رأسه ، يعطينى ظهره ، ويسرع كأنه يتمنى لو غاب عنى بسرعة ، نسى حتى أن يصافحنى ، إلى من الآن ؟؟ إلى أين؟؟ سأمسك نفسى ، وأسأل عن الطريق إلى مقام الحسين ، أزوره ، وأطلب منه الحماية ، وأن ينتبه إلىَّ فى غربتى ، وأن يبعد عنى أولاد الحرام ، فأنا بلا أم ، بلا أب ، ولا أحد يعنيه أن يسأل عنى أو يستقصى أحوالى ، ولو ضربنى ، لو صدمنى هذا الترام ، أو تلك العربة ، فسأروح على نفسى ، وينتهى خبرى ، مقطوع من شجرة ، وأنا لا أعرف المكتوب لى فيك يا مصر .

وهنا صرت فراشًا يعمل فى متجر أقمشة ، ومنيفاتورة ، أمضى إلى البوستة لأشترى عدة طوابع ، عندما اعترضنى قروى ، صعيدى ، تفوح منه رائحة البلدة طازجة ،

ـ أين الطريق إلى الحسين يا عم ؟

يبدو حائرًا ، ولولا أنى فى عجلة ، لضحكت منه ، وسليت نفسى ، قلت له .

ـ يظهر أنك صعيدى بشوكك .

ينظر إلىّ ، كأنه لم يفهم ، بسرعة أشرت بيدى إلى اتجاه ميدان العتبة المؤدى إلى مقام الحسين..

.. وللحظة عابرة عجبت ، وحزنت لأننى خاطبت ابى بمثل هذا اللسان المعوج ، ولأننى ضايقته وإن لم يبد عليه ذلك ، ضقت وإن كان لسانى لسان غيرى ، لكن ما الحيلة ، وهذا ما جرى ، وهذا ما قدر لى أن أمر به فى هذا الموقف الغريب ، أصبحت ابى مرة أخرى ، تتبعت الرجل بنظرى ، لا بد أن أسأل شخصاً آخر ، لكن بعد أن يختفى هذا عن نظرى ، ربما يضللنى ، ألم يضحك منى؟ آه منكم يا ناس مصر. مثلى الآن كعود ذرة فى غيط كمون ، لا أحد ينتبه إلىّ ، والشوارع تضيق بمن فيها. ولكنهم بعاد عنى بعدًا نافرًا ، الغريب فى جهينة إذا ظهر عند الجسر يلتف الناس حوله ، ويدلونه ، ويستضيفونه إذا اقترب الليل ، ويطعمونه إذا كانت ساعة الطعام ، لكن كل من أراهم حولى غرباء عن بعضهم ، ياه ، الميدان فسيح ، عريض ، سأسأل أى أفندى ، لكن قبل السؤال لأملأ عينى ، فهذا أول ما أراه من مصر ، مصر التى لا أعرف المقسوم لى فيها..

« .. هنا وقع لى أمر عجيب ، وهو من أسرار هذا الموقف ، أنا أبى . اعتدت هذا وأنا أعرف كل ما عاناه . لكننى صرت أيضاً كل ما وقع عليه نظره أول مرة ، فكنت ولم أكن ، انطق فى سكوتى ، واسكت فى نطقى ، امشى فى وقوفى ، واقف فى مشى ، صرت صبياً حافى القدمين ، ممزق الجلباب ، يمسك علبة من الصفيح ، وكنت قلب أبى الذى اشفق عليه . صرت حمالاً عجوزاً ، هرماً ، فوق ظهره جوال ثقيل ، يحكم توازنه فوق ظهره ، وصرت سائق حنطور يجلس منتظراً ، وعندما نظرت إلى هذا الصعيدى الحائر لم أعن بالتوقف عنده ، فمنظره لايدل على أنه سيركب ، إنه واحد من هؤلاء الذين يظهرون كل

يوم فى الميدان ، وبعد فترة تطول أو تقصر ، ربما يطوف بالمقاهى حاملاً سلة فيها السميط والجبن والبيض ، وربما يطوف حاملاً حقيبة بها قصان ، وملابس داخلية ، وجوارب قطنية ، وأمشاط ، وربما يصادفه الحظ فيصير معلماً له صولة وتطل من فمه أسنان ذهبية ، ويمتطى فى المساء «كاريتا» يجرها زوج من الخيول المدللة غير التى يمتطيها فى الصباح ، حظوظ وأرزاق ، صرت السؤال الذى جال بخاطر أبى. ترى كم يأخذ منى لو أوصلنى إلى مقام الحسين؟ وكنت الاجابة أيضاً : لا داعى يا أحمد ، ادخر قروشك للأيام القادمة ، لا أحد يعرف ما ينتظرك . صرت نشالاً يتأهب لركوب الترام ، وصرت بصاصاً يرتدى معطفاً وجلباباً ، وصرت جندياً نوبياً من الهجانة ، وكنت خاطرة فى فؤاد أبى ، هل يوجد الهجانة فى مصر أيضاً ؟، وكنت الصورة التى تداعت إلى ذهنه ، عشرات الجنود السود يركبون الجمال ، يهاجمون القرية ، يصرخون ، ينادون الرجال بصيغة الأنثى ، خشى بيتك ، خشى بيتك ! صرت امرأة ترتدى خلخالاً ، صرت بائع ترمس يرص قراطيس الورق فى صفوف طويلة فوق عربة اليد الخشبية وكنت المشترى ، صرت فاكهياً ، وصرت بواباً لفندق عتيق من طابقين ، وكنت السؤال : بكم اقضى الليلة فيه إذا ضاق بى الحال ؟ صرت بقالاً ، وزبوناً وحيداً فى مطعم ، وجندياً للمرور ، وسائقاً لعربة كبيرة وسائقاً لمركبة صغيرة ، وراكباً لدراجة ، وسائقاً لترام يرتدى الطربوش والحلة الصفراء يضع منديلاً حول عنقه ، صرت سائقاً لقطار يعبر الطريق متجهاً إلى محطة مصر ، وفتاة صغيرة تدحرج طوقاً ، وشيخاً عجوزاً يسعى ليؤم المصلين ، وبائع مخطوطات قديمة وتلميذاً يشوط حجراً صغيراً ، وبائعاً لحلوى غزل البنات ، وكودية زار ، وموسيقياً يحمل عوداً مغطى بقماش أخضر يتجه إلى مقهى لينتظر أصحاب الأفراح والحفلات ، لعل وعسى . صرت مدخناً لنرجيلة يجلس أمام

دكان يبيع علب القطيفة الفارغة ، وصباغ أقمشة ، وجندياً من قوة المطافئ ، ومستشاراً يمشى فى تؤدة ، وامرأة شابة جاءت هاربة من قريتها بالوجه البحرى ، تحاول ان تبدو ثابتة غير وجلة حتى لايطمع الطامعون ، ولا تلفت النظر ، صرت عاملاً فى البلدية يشعل مصابيح الغاز عند الغروب ويطفئها بعد انبلاج الضوء ، وباشا بدينا يرتدى الطربوش وبدلة التشريفة يركب عربة مكشوفة ، كنت نسمة هواء رطبة تخفف تعب أبى ، كنت حدقتيه المتسعتين . لكل ما يراه بدهشة بكر ، كنت الدهشة نفسها ، والسؤال الحائر ، والاجابة المبهمة ، والأحاسيس الغامضة ، والخوف الغض ، كنت خطاه المسرعة إذ يعبر الطرقات ، وخطاه المتمهلة أمام كل جديد يراه ، وخطاه الساعية ، كنت مواطئ قدميه ومدرجة جسره ، والأرصفة التى مشى عليها ، ومداخل البيوت التى مر بها ، وجدران البيوت التى تطلع إليها ، وحشائش حديقة الأزبكية التى استراح فوقها ، كنت حجراً ، ونباتاً ، ولافتة منسية ، كنت انحناءة ، ولفتة ، وإيماءه وَجْلى ، وانطباعة أولى ، وخاطرة ، وحيرة ، وتساؤلاً ، أى تصرف يجب أن يفعله ، وأى حديث ينبغى التفوه به ، كنت الخفقة المباغتة التى تعقب الخشية ، والإدراك بأن قسماً من العمر ولى ، ولن يرجع ، وكنت الحسرة التى تعقب ذلك ، كنت الرهبة من غد آت ، وكنت وهن الساقين ، والظمأ ، والتضرع الصامت إلى مرقد الإمام الحسين الذى سيصل إليه أول مرة بعد قليل ، كنت كل ماعاناه أبى فى هذه اللحظات الأولى ، وهذا عذابى فى ذلك الموقف .

مـوقـف
كان وسيكون ..

رأيت المشرق والمغرب معاً
واتكأت على الموضع الذى تغرب فيه الشمس

.. وهذا موقف تتنوع فيه الأسباب ، تبدو واضحة أحياناً ، وتدق مرات أخرى فتخفى ، البعض تكون راحته فى لقاء محبوبه ، والبعض تكون راحته فى قهر عدوه ، ومنهم من تكون راحته فى الفوت ، وأنا جميع هؤلاء ، أحطت علماً قبل الوقوف اننى سألقى حبيبين ، وسيظل الحبيبان واحداً ، واننى سأنعم بالقرب بقدر ما سأشقى بها ، لأن كل ما رأيته وسأراه زائل ، كل من عليها فان ، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام ، سبحان من ألقى بى فى ذلك الموقف الغريب ، فيه اتخذت صورة غير صورتى ، وهيئة مغايرة لهيئتى ، ثم دفع بى إلى زمن غير زمنى ، لكنه زمن عجيب تتجاور فيه الأزمنة ، فثمة ما أراه من عصر مضى ، وشىء آخر أراه لكنه من زمن لم يحن حينه بعد ، والزمانان متجاوران ، وأنا بين البينين ، لا يمكننى إدراك فى أى زمن منهما أعيش ، وحتى لا يقع اضطراب ، ولا يحدث شتات ، فأنا حريص عليك أيها المطلع اللبيب ، أذن لى إمام المجاهدين ، بشرح موجز بسيط ، فمن ذلك أقول ، إننى جئت زمن أبى القديم ، جئته وأنا رجل تجاوز الخامسة والاربعين ، وهذا عمر لم أبلغه عند بدء تدوينى لتلك التجليات ، سواء فى التدوين الأول الذى مزقته ، أو التدوين الثانى الذى لم ينته بعد ، كما أنى لا أدرى هل سأطيل إلى هذه السن ، أن ينقطع حبلى قبل ذلك الحين ، ذلك أن ما عشته كان صعبًا ، كما أن عصرى

كان قفرًا ، تراكم عليّ وعلى زمنى سوء الحظ فخبنا ، وتمكن من ربوع وطنى الدنس والانكسار ، فيه بارت بضاعتى وكسدت سوقى ، كتمت صراخى ، وتجنبت انتهاكى ، وهدد اللئام عرضى ، دار قومى مع الأخف الأسهل ، ونأوا عن كنف النزاهة ، وظنوا فى ابتعادهم عن طوارق الحدثان راحة وأمناً ، استكانوا إلى مواقف الخزى والاذلال ، وقنعوا بالمتيسر من الحال ، وتجاهلوا الحكمة ، ونأى الأنس ، وانتفت المودة ، أما المحاسن فقد فرت ، والفضائل كسيحة ، والآمال عاثرة ، والمستقبل مسدود ، اعذرنى أيها المطلع اللبيب إذ كدت أفيض وأسهب ، فتلك مراسم حالى فى زمنى الأعوج ، وهذا حديث يطول ، ويبعدنى عن مقصدى ، فاسمح لى بالعودة إلى ما كنت على وشك قصه وروايته ..

كان وسيكون

.. وهكذا وجدت نفسى فى الخامسة والأربعين ، وأنا لم أولد بعد ، كنت مشرفاً على فرن كبير من أفران الحاج الرمالى عندما جاءنى رجل من نواحى بلدتى يصحب شاباً حيياً ، حديث عهد بمصر ، قال لى إنه يرجونى مساعدة أحمد هذا فى الالتحاق بعمل ، أى عمل يأكل منه « عيش » ، يقيه حاجة السؤال ، ويبعده عن أولاد الحرام ، أحد أقاربه ضحك عليه وسلبه الجنيهات التى ادخرها وجاء بها من البلدة يضمها إلى صدره بعد أن خيط عليها بالابرة والفتلة ، وعده هذا القريب الجافى أن يساعده فى الانضمام إلى طلبة الأزهر، ثم راوغه ، وماطله ، حتى كاد أحمد ان يمد يده إلى الناس ، لكنه لم يفعل فهو عزيز النفس ، تقلب فى أعمال مضنية ، قاسية ، إذ عمل حمالاً يفرغ الأحجار من المراكب فى

مرسى روض الفرج ، وعمل فى دكان عصير قصب ، يكسر الزعازيع ويقشر العيدان ، وعمل فى مصبغة خيوط ، لكنها أعمال لم تدم ، كلها مؤقتة ، قصيرة الأجل ، كما أنه طامح إلى بدء تعليمه فلعل وعسى ان يجد فسحة من وقت ، حدقت ببصرى ، وكان بصرى يسمع عنى ويرى ، فكنت أرى أبى فى مخزن القصب عندما يذكر الرجل ذلك ، ويخل بى تعبه ، وأرى ساقيه ترتعشان فوق السقالة الممتدة من شاطئ النيل إلى المركب ، فأنوء بثقل الحجارة ، وتزكم أنفى رائحة النيلة فى المصبغة ، حدقت إلى أبى ، وكتمت حنينى كما يدرأ الغريب عنه هجمات الحنين إلى وطنه ، سألت أبى الذى لم يصبح بعد أبى ، أى تعليم يقصد؟ فقال إن الله لو أذن له فسيتعلم القراءة والكتابة ثم يرجع إلى البلدة فقيهاً ، وأن اقامته فى مصر مؤقتة ، مصر بلد كبير ، والغريب يضيع فيها ، وهو لم يخلق للعيش هنا ، إنما غايته العودة إلى جهينة ، وهنا وقع لى كشف خاطف ، فاطلعت على قبس من خبايا أبى التى لم أقف عليها قط فى حياته ، رأيت كيف أنه عاش منذ يوم وصوله إلى مصر، وحتى يوم رحيله الأخروى ،هو يعتبر أن إقامته فى مصر موقوتة ، نفذت إلى ترددات صوته الخفى ، فسمعته فى حقب متتالية ..

سأتعلم وأرجع ..
بعد عملى فى الوزارة سأطلب نقلى الى البلدة .
بعد أن يتعلم الأولاد فى مصر سأرجع إلى البلدة
بعد تخرج جمال .
بعد تخرج إسماعيل ، بعد أنْ أطمئن على نوال ، والصغير على ..
بعد انتهاء خدمتى لا مقام لى فى مصر ، الأولاد كبروا وتشاغلوا عنى ..
سأسافر لأموت هناك ، فى الأرض التى خرجت منها ، فلا أكلف أولادى

عناء دفنى وجنازتى ، وأرحل خفيفاً لملاقاة ربى ..

ولم يتحقق ذلك قط ..

عرفت من هذا الكشف ان أبى عاش فى مصر أربعين أو خمسين سنة ، وان هذا العمر الكامل كان موقوتاً عنده ، لهذا لم يختلط بناس مصر ، ولم يتزوج من مصر ، وصان لهجته الريفية ، وسعى دائماً إلى أهل بلدته فى مصر..

وهنا انتهى الكشف الوامض ، الخاطف ، عدت إلى أبى ملوماً ، محسوراً ، مشفقاً ، لكننى لم أبد ذلك ، قلت له إنه سيركب فى كل يوم عربة يجرها حصان ، عربة خضراء مغلقة ، لها بابان خلفيان يغلقان ، برتاج حديدى ، داخلها أرفف فوقها أقفاص الخبز ، خبز مستدير ، طازج يجب ان يصل إلى البيوت ساخناً ، وهذا يقتضى السرعة ، والخفة ، والأمانة ، هذه عربة الرواتب ، أما البيوت فلناس من علية القوم ، لهم مقام وجاه ، ستمضى إليهم ثلاث مرات يومياً ، خبز الافطار ، والغداء ، والعشاء ، جولة طويلة ، ينتهى اليوم فيرجع إلى الفرن متعباً ، مرهقاً ، ينتحى ركناً قصياً اذنت له بالنوم فيه عندما علمت أنه لم يتخذ مسكناً بعد ، قبلت على وعد منه ان يبحث عن غرفة ارتحت ، ثم وثقت فيه عندما علمت بجده فى البحث عن مأوى . ثم تبدل خاطرى . نظرت إليه باعتباره أبى الذى سيكون ، فترقرقت حناناً ، غير أنى لم أكن قادراً على اخباره من أكون ، لم يُسمح لى بذلك ، وعندما تشتد رغبتى ، وتقوى ، حتى انى أشرع فى ذلك على الرغم من عدم الأذن لى ، وأتأهب لإخباره بحقيقتى وبما هو آت ، يثقل عندئذ لسانى ، ويضيع منى الكلام ، فيتملكنى البهت ، وتقوم الحجب أمامى ، فانقطع عن المستقبل ، وتعمى رؤيتى ، وتتعثر أفكارى . ثم تبدلت هيئتى ، وتغير الموقف علىّ ، أصبحت أنا السائق ، أمسك الأعنة ، واسوط الجوادين ، أتوقف أمام البيوت حتى ينزل

أحمد ـ الذى هو أبى ـ يفتح الباب الخلفى ، ويتناول الراتب المخصص ، كنت ارقب همته وأراه يغض البصر حياء عند الوقوف أمام الأبواب المفتوحة ، مع أنها أبواب خارجية تؤدى إلى حدائق أو أفنية فسيحة ، لكن مما لفت نظرى وشد انتباهى سؤاله عن أصحاب البيوت ، من باشوات ، ومشايخ ، ورجال علم ، وتجار كبار ، عن عائلاتهم ، وأصهارهم ، عن حوادث كبيرة اشتركوا فيها ، يبدو لى دائماً وكأنه يضمر أمراً ينوى التعبير عنه لتوه لكنه لا يفعل ، يشرق وجهه ويصفو عندما نقترب من ميدان الحسين ، فى كل مرة يقول ..

شاء الله يا حسين ..

إنه يستجير به ليحميه ، ويدرأ عنه الضيق ، ويبعد عنه أولاد الحرام ، كنت اصغى إلى حكاياته العديدة ، عن رجال من جهينة ، وأصحاب بيوت كبيرة ملأوا الدنيا هيبة ، اختالوا وزهوا وأفاضوا بكرمهم ، وسخائهم وانحنت لهم الجباه ثم رحلوا ، بعضهم لم يخلف اثراً يذكر ، وبعضهم خلف ذرية فاسدة ، بعد جولتنا اليومية نعود معاً ، يصحبنى إلى الأسطبل ، يحل الحصانين ، ندفع معاً العربة إلى ركنها ، ثم نمشى معاً ، يعود بمفرده إلى الفرن . إنه متعب ، مرهق ، يأكل عشاءه البسيط ، الذى لايتغير إلا فى أحوال عابرة عند ذهابه لزيارة شيخ جاء من جهينة ، أو إلى فرح ، إذا دعى إلى العشاء يتناول عندئذ المرق ، واللحم ، والفطير ، أما عشاؤه اليومى ، فرغيف من خبز الفرن ، وقطعة جبن ، وقرن فلفل ، أو شريحة خيار مخلل ، يدخل الفرن ، يمتلئ فراغها برائحة الوقود والدخان ، والعجين المتخمر ونشارة الخشب ، يصعد فوق طاولات العجين يقلب الطاولة الأخيرة حتى لاتلتصق بقايا العجين وذرات الدقيق بجسده وثيابه وهنا وقع لى كشف بطىء ، متأن ، لكنه ثاقب ، نافذ ، له عندى تأثير عظيم ، وبمقتضاه اطلعت على بعض من خواطره الليلية ،

والأصوات التى اعتاد سماعها ، ومنها دبيب فئران ، وصرصار ليل ، وصفير غامض يتردد فى ساعة معينة ، وخطوات تقترب ثم تبتعد ، وباب يفتح ثم يغلق فى مكان ما ، ونداء مجهول ، وخطوات جندى الدورية ، يتأكد من متانة أقفال الدكاكين ، وآهة مكتومة ، وصفير قطار يعبر الخلاء البعيد ، صوت الحنين ، وآذان الفجر من المسجد القديم ، عسعسة الليل ، وأصواته المبهمة التى ربما يجىء بعضها من أعماق الكون السحيق ، وتنفس الصباح ، عندئذ يقوم متحسساً طريقه فى عتمة الفرن ، متجنباً التعثر فى الأوانى والطاولات والحواجز إلى حوض المياه ، كان محظوراً عليه إشعال عود ثقاب ، أو أى ضوء خوفاً من الحريق ، ولم يكن قادراً على مغادرة الفرن لسببين خشية من اللصوص ، ولأن الباب مغلق برتاج خارجى ، كان أشبه بالحبس ، أما الخواطر الليلية ، والتى تبدأ عقب تمدد جسده المنهك ، وإغماضه عينيه ، وتلاوته الفاتحة ليبعد عنه الشياطين ، مرت أمامى خواطره خلال هذا الكشف ، وكنت أراها كما تراءت لمخيلة أبى ، تماماً ، تثير عندى ما أثارته عنده هو لحظة ورودها عليه وفراقها له ، فإذا كان التأثير حزناً حزنت حزنه ، وإذا كان حنيناً ـ وهذا هو الغالب ـ حننت حنينه ، وإذا كان مرحاً وبهجة ابتهجت مثله ، وإذا نفّس عن ضيقه بنطقه فجأة : ياكريم ، ياحليم ، مدد ياحسين . أو غنى فجأة ، أو ضرب ركبته بقبضة يده ، كنت أفعل مثله ، أما عن خواطره فعرفت منها حنينه إلى الجسر ، وأيام الدميرة ، ورائحة التين العسلية ، ومذاق البلح الناضج المتساقط تحت النخيل ، وتخيله لنخلاته التى اغترب عنها ، وأوان نضجها ، وجمعه السوباطات وذهابه بها إلى الرجل الطيب الباشجاويش أحمد حسين الذى انقذه من الموت ، وعلى يديه كتب له عمر جديد ، اين هم الآن ؟ كذا امرأته الطيبة ، انعم الله عليها بالخلفة ، كل ما يتمنيانه أن ينجبا طفلاً أو طفلة ، والله

سيدعو لهما عند مقام الحسين بعد صلاة الجمعة القادمة ، وعندما تسمح الظروف ، ويرضى عنه الحال ، ويسافر إلى جهينة ، وسيعرج فى الطريق إلى بلدة الحاج قنديل شرق النيل ، سيشترى صابوناً ، وأرزاً . وقماش جلباب للمرأة الطيبة التى حنت عليه كأم ، وقدمت إليه اللبن والمخروطة فى الصباح ، سينزل من القطار فى دير مواس ، ويعبر النيل إلى الحاج قنديل ، سيسر الرجل لرؤيته ، وعندما يجيء ناس البلدة لتحيته سيقول أمامهم ، ان عمراً جديداً كتب له على يد عمه أحمد حسين ، سيجلس متأدباً بحضرته ، ولن يضع ساقاً فوق الأخرى أمامه أبداً إذا جلس على دكة ، ولن يمشى أمامه ، وعند فراقه سيقبل يده كما يقبل الابن يد ابيه ، وعندما يركب القارب سيقول له بصوت عال ، ادع لى . ثم يبحر القارب ، ويلف الشاطئ غمام ، وتنأى ملامح الطيبين ، ومن الملامح يبدو وجه السائق الطيب الذى اصطحبه من طهطا إلى مصر ، لو مر بينها سيميل إليه ، بنها قريبة من مصر ، قد لا يذكره الرجل ، سيقول له ، أنا من ركبت معك ، كان معى صاحبى . ترى ما حال الماخوت الآن ؟ لم يره منذ زمن ، لكنه سمع بأخباره ، يرددها ناس جهينة الذين يلتقون بعد صلاة الجمعة فى مقهى العجم أمام مسجد سيدنا الحسين ، بعد أن عمل أياماً معدودات مع هريدى تاجر السمك ، سمع يوماً قائلاً يقول إنه ذاهب إلى معسكرات الجيش الإنجليزى فى العباسية ، فسأله ، أتصحبنى معك ؟، أومأ الرجل ، ذهبا إلى هناك حيث أقيم مزاد لبيع أشياء قديمة ، هياكل عربات ، وصناديق ، وملابس ، قروش الماخوت قليلة ، فى نهاية المزاد بقى صندوق زجاجى تطل منه اسلاك وأنابيب قصيرة ، وقال آخرون إنه جسم غير معروف من حديد وزجاج ، اشتراه الماخوت بجنيه وثلاثين قرشاً ، ربما أعجبه منظره ، ربما هذه الروح الغريبة لديه ، عند باب المعسكر نزل رجل بدين من عربة ملاكى ، دخل ثم عاد

مسرعاً ، لحق الماخوت عند مفارق الطرق ، سأل : بكم اشتريت هذه ؟ قال الماخوت كذباً ـ هكذا يقولون ـ عشرة جنيهات ، قال البدين ، خذ .. هذه عشرين ، أعرض الماخوت عنه وأولاه ظهره ، قال البدين ملهوفاً ، هذه أربعين ، خطا الماخوت مبتعداً عنه ، من هنا إلى هناك اخرج البدين ثلاثمائة جنيه وأقسم أيماناً مغلظة انه لايمتلك الآن مليماً فوقها ، عندئذ استدار إليه الماخوت وبل طرف اصبعه ، عد الثلاثمائة ورقة ، ورقة ، ورقة ، ثم سلم الرجل هذا الجسم الغريب ، يوشك الآن أن يصبح أكبر من المعلم هريدى نفسه ، يقولون إنه اتفق مع فندق كبير على توريد كميات من السمك ، دنيا ! حظوظ ، ربنا يسهل له ، يبدو قطار قبلى ، القاطرة السوداء تنفث البخار والدخان ، يتوالى الهدير المتتابع فى بداية تحركها ، وصفارة غامقة ، منذرة ببدء الغربة ، أو العودة ، رصيف المحطة ، كثيراً ما ذهب وتوقف وتابع بعينيه رحيل القطارات ، يودعها بعينيه ، حتى تختفى العربة الأخيرة عند المنحنى ، ثم يسود الرصيف ذلك الفراغ الذى يعقب رحيل القطارات وانصراف المودعين والحمالين ، وموظفى المصلحة ، يخلف هذا غصة وحزن عنده . يعود إلى الأزهر ، صحن المسجد المحاط بالأروقة ، وظلال الأعمدة ساعة العصارى ، وعصافير تطير إلى أعالى المآذن ، وملمس رخام الأرضية ، درس العصر ، الشيخ صالح الجعفرى ، مهيب الهيئة ، يسند ظهره إلى أحد الأعمدة فى الباحة المغطاة ، مهيب الهيئة ، يحيطه المريدون ، رجل صالح وله بركة وكرامات ، جاء من السودان ، ولم يفارق الأزهر إلا للصلاة فى مسجد الحبيب الحسين ، سيجىء يوم يمكنه الانتظام ، متابعة الدروس ، فهم كل ما يقال ، لكن قبل هذا كله يجب فك الخط ، واتقان القراءة ، لعن الله الحظ العاثر ، لو أنَّ لديه فائضاً من الوقت ، على أية حال هذا عمل مؤقت ، سيدخر من القروش

الأربعة قرشاً كل يوم ، حتى يمكنه أن ينفق على نفسه ، سيعيش بأقل القليل ، والحمد لله ، لا أحد وراءه ، ولا أحد أمامه ، ما من مسئولية تثقل عاتقه إلا مسئولية نفسه ، تختلط الشوارع المؤدية إلى الأزهر ، إلى الحسين ، إلى جهينة البعيدة ، تتداخل المقاهي ودكاكين المانيفاتورة ، والسجاد ، والنحاس ، والفضة المصقولة ، والفلاحات الجالسات على الرصيف ، أمامهن اقفاص الفراخ ، وأواني الجبن القريش ، وقرب مملوءة باللبن الرائب ، وأكوام البصل الأخضر ، وأقراص الحلوى ، والملاءات اللف ، الأرداف واضحة المعالم ، البراقع ، اليشمك الذهبي ، وجه مستدير وعينان مكحولتان ، نساء مصر ، آه منهن ، يوماً ما سيكون له بيت ، وامرأة تنتظر عودته ، واطفال يتهللون عندما يرونه ، يتعلقون به ، يمتطون ظهره ، يحبو بهم ، يصحبهم إلى الحدائق ، إلى الحسين ، إلى مقهى العجم ، إلى المتحف ، إلى المعارف والأحباب ، أطفال لا يعرفون الشقاء الذى عرفه ، ولا الغلب الذى ذاقه ، إذا طلبوا منه ورغبوا اتى إليهم بما يطلبون وبما يرغبون ..

عند هذا الحد انتهى الكشف ، أغمض أبي عينيه نائماً ، ولم يكن من اسرار هذا الكشف الولوج إلى احلامه ، أو الاطلاع على مكنوناتها ، انتهى الكشف وعندى ألم عظيم ، آخر صور ترد عليه قبل نومه ، قبل انحلال يقظته ، رؤى قوامها بيت ، فيه امرأة ، وأطفال ، وباب يغلق عليهم معه ، ورائحة طعام تنتظره بعد رجوعه من عمل لم يتضح له .. ، صرت فى وجد غريب ، معذب لى ، قاس برقته عليّ ، وبعد انتهاء الكشف دهمني فوق هذا خوف عجيب ، خاصة واننى لم أدر الخطوة التالية من ذلك الموقف . تعاظم خوفى وتسربت البرودة الثلجية إلى أعماق ، تخلخل عضدى ، واضطرب داخلى ، فكأنى اقف عند نهاية الدنيا وأوشك على الفقد الذى لاراد بعده ، وعند هذا الحد الذى

كدت أتهاوى معه ، نوديت بصوت هو صوت محبوبة قديمة لى تأنيساً لى ، فحننت إلى ذلك وتعجبت من سماع هذا اللسان فى ذلك الموقف ، ولم أدر المراد بى ، هدأت ، ولكن لم يخف عذابى ، ولم تهن وحدتى ، بعد حين لم أدر مقداره بان لى عبد الناصر ، وعرفت أنه فى هجاج مروع ، وانه يقاسى محناً جمة، وانه مطلوب، وانهم جادون فى اثره. وانه يسعى إلى الاختفاء وما من معين . انه مهجور من صحبه ، من العصر الذى صال فيه وجال ، وقف وشمخ ، أقام وشيد ، حدقت ، فرأيته يمشى فى الشارع المؤدى إلى الفرن ، إلى حيث يعمل أبى ، وعرفت أن لعبد الناصر فى هذا الموقف وجودين ، فوجود طبيعى ، من حيث انه طالب فى مدرسة ثانوية بالإسكندرية ، يرتدى الطربوش والبدلة ، نحيف ، طويل القامة ، كبير الأنف ، إذن .. استطيع تحديد العلامة الزمنية ، النصف الأول من الثلاثينيات ، لكننى رددت خائباً عندما تذكرت ان لكل موجود فى هذا الموقف زمانه ، وان الأزمنة متجاورة ، متداخلة ، فلا حد ، ولا غد ولا أمس ، ولا فصل ، لاقبل ولا بعد لا علامة ، ولا ظاهرة طبيعية ، ولا حدث بعينه يمكن اتخاذه علامة ، لهذا لم أعرف ابدا كم مضى على أبى فى مصر مع أنى رأيت لحظة وصوله ، وعانيت كل ما عاناه جملة وليس تفصيلاً ، ولا شك ان ذلك لحكمة تخفى علىّ ولأمر يصعب وصولى إلى كنهه . أما الوجود الآخر لعبد الناصر، فوجوده فى تلك التجليات وهذا ملتقى ملىء بالأسرار ، رأيته يتوقف أمام الفرن والوقت غروبى ، والسماء البادية فوق البيوت حمراء اللون ، والليل متأهب ، قريب ، ويخرج إليه أبى ، إنه يعرفه ، وآية ذلك انه هش له ، وصافحه ، ثم سأله ..

جائع ؟.

ها هو يهز رأسه ، يمشى أبى إلى جواره ، اتبين فى هذه اللحظة حفرة طويلة

ممتدة اسفل الجدران يجرى فيها ماء صاف لاتشويه شائبة ، يطلب أبي منه ان ينتظره تحت عمود ينتهى بمصباح غازى لم يضأ بعد ، يتجه أبي إلى دكان يبيع الفول والطعمية ، انه يعرف البائع ويناديه باسمه غير أنى لم أسمعه ، يطلب منه أبي أن يتوصى به لأن ضيفاً عزيزاً نزل عليه من البلدة ، لم يشأ أبي أن يفصح عن اسم ضيفه ، أو درجة قرابته أو معرفته به ، إذن .. يعرف أبي ما أعرفه ، يعرف أنه مطارد ، وان أثره مقتفى ، وان فى صحبته خطراً ، وبالرغم من أن حظى عند هذه النقطة من الموقف كان المراقبة ، والرؤية لا غير ، فقد أتيح لى استعادة بعض مما عرفته ، كان أبي يتأثر ويحزن كلما سمع عن شخص كان عزيزاً ونال الزمن منه ، أو تبدل عليه الحال ، فنسيه قومه ، وهجره الذين التفوا حوله يوماً ، استعدت أسفه عندما جاء وزير سابق ـ نسيت اسمه الذى أخبرنى به ـ كان يقف بمدخل مكتب الاستعلامات متعباً بشيخوخته ، متكئاً إلى عصاه ، يطلبون منه إبراز بطاقته ، تصادف دخول أبي ، رآه فعرفه ، كان أبي بعد تقدمه فى العمر ، ينادونه : ياعم أحمد ، ولا يسندون إليه عملاً بعينه ، صار يقضى وقته كله فى المصلى ، إما مصلياً ، أو متمدداً فوق الأرض ، راحلاً بعينيه عبر السقف إلى مجهول بعيد وكان بعض الموظفين القدامى يطلبون منه أن يقرأ لهم الفاتحة عند مقام الحسين ، عرف عنه فى تلك السنين التى كانت اخيرة بأنه من أحباب الحسين ، يقول أبي لموظفى الاستعلامات : ألا تعرفون معالى الوزير .. تفضل .. تفضل ياباشا ، ينظر إليه الرجل متسائلاً ، وهل تعرفنى يابنى ؟. يخاطب أبي قائلا : يابنى ، مع انه يتجاوزه عمراً ، لكن هذا شأن بعض من تولوا المسئولية زمناً مديداً ، يقول أبي بصوت مرتفع ، صورتك معلقة فوق فى مكتب الوزير .. من لايعرف معاليك ؟، كان أبي يقول لى عند نهاية روايته متأسفاً : تصور .. لم يعرفه أحد ، دنيا ! ، كان يبدو عليه الأسف بعد عودته

من الذكرى السنوية لوفاة زعيم سياسى قديم من الصعيد ، يقول لى : تصور .. إن الذكرى لا يحضرها إلا ثلاثة أشخاص ، حتى أولاده لا يحضرون ، وبعد أن تموت زوجته فلن تقام أبداً . ها هو أبى يستدير حاملاً أرغفة ساخنة ، وجبنا ، وحلوى طحينية ، يتجه إلى عبد الناصر ، يمشيان فى الظل ، يقول أبى لنفسه ـ وقد وقفت على حديثه الصامت ـ إنه كان مهدداً دائماً بالفصل ، كان باستطاعة أى مدير أن يفصله لأتفه سبب ، أن يحرمه من رزقه ، ورزق عياله ، لكن بعد أن جاء عبد الناصر انتهى ذلك ، يقول لنفسه كما قال لى مراراً بنفس الألفاظ نفس الايقاع ، لقد انصف عبد الناصر الضعيف من القوى والفقير من الغنى ، ولو لم يفعل ذلك لكفاه ، انه يمشى الآن ، عنده تأثر عظيم ، فعبد الناصر الذى لن يراه الا من خلال زحام المواكب ، مخذول ، مطارد ، الزمن الذى أراه زمن الثلاثينيات ، هذا مؤكد ، فأبى وحيد ، لم يتزوج بعد ، وهو يعمل فى الفرن ، وراتبه اليومى أربعة قروش لا تزيد وإنما قد تنقص إذا أخطأ . أما عبد الناصر فيمت إلى زمن بعيد سيأتى ، يستدعى أبى ما تم فى المستقبل كأنه ماض ، فيصير كل ما سيحدث قد حدث ، وهذا غريب علىّ ، وخارج طاقة مفاهيمى المحدودة . ومداركى الإنسانية ، ولم أفهم أبدا ، كيف يمت كل منهما إلى زمن مختلف ، ويمشيان معاً ، يتحدثان ، ويأكلان ، وينظر كل منهما إلى الآخر ، ولأن خطاهما تتتابع ، فلم يعد بوسعى إلا تأجيل التساؤلات ، وتراكم الدهشة والروع ، ها هو يصحب عبد الناصر إلى حجرة صغيرة تقع فى بيت قديم فناؤه فسيح . تقف فيه عربة قديمة مهملة تغطيها شبكة صيد عريضة يتخلل اطرافها قواقع بحرية . تضىء المدخل لمبة صغيرة ، يتراقص فتيلها المشتعل عند أول هبة هواء ، دخلا إلى البيت ، تراجعت إلى مدخل الحارة ، حارة الانشاء ، اتيح لى ان اطلع على اسم الحارة ، أما متى سكن أبى هذه الحجرة؟ كيف استأجرها؟ ،

فهذا ما لم أقف له على أجوبة ، ولو شاء سادتى وأسيادى فى الديوان اطلاعى لأطلعونى ، وهنا استعدت أمراً حيرنى ، فبعد رحيل أبى عن دنيانا تلك ، اقتضى الأمر استخراج أوراق عديدة حتى يتم صرف المعاش الحكومى ، وقام أخى إسماعيل بذلك كله لغيابى وسفرى المشئوم ، وكانت إحدى البطاقات القديمة تحمل عنواناً لم نطلع عليه من قبل ، ولم ينم إلى علمنا أن والدى أقام به ، حارة الانشاء بمنطقة السيدة زينب ، حرنا ، متى آوى أبى إلى ذلك المكان الذى لم يذكره لنا قط ، متى رقد فوق هذا الموضع ، ومتى رآه بعينيه اللتين أدركهما الآن البلى وصارا فوهتين مظلمتين ، هو لم يذكر لنا ذلك ، ولم يطلعنا على تلك الأيام التى قضاها فى حارة الانشاء ، وكان بعض من تقصيرنا اننا لم نسأله ، حاولت تفسير الأمر لخاطرى فقلت إنه ربما عنوان أحد أقاربه أو معارفه ، كتبه أبى فى بطاقته القديمة تلك عندما كان بلا عنوان ، بلا سكن يخصه ، بلا باب يحمل مفتاح رتاجه ويغلقه على نفسه ، ويرقد خلفه . لكن ها هو إمامى فى نفس ذلك العنوان ، نفس الحجرة ، كنت بمعزل عنهما ، أراهما ولا يريانى ، اسمعهما ولا يسمعان تردد أنفاسى ، ولا يشمان رائحتى ، انتبهت إلى اننى أجلس بينهما ، غير أن وضعى عجيب ، فأنا لا ألامس الأرض بمقعدى ، إنما أتربع فى الهواء ، فى الفراغ ، وأتكئ على لا شىء ، تبدو الحجرة كابية لخلوها من الأثاث تماماً دق أبى فى الجدار ثلاثة مسامير إلى الجدار ، علق إليها جلباباً وصديرياً وسروالاً طويلاً ، فوق الأرض فرش سجادة منسوجة من بقايا قماش قديم ، عند طرفها الأيمن اسند حذاءه ، كان يسند إليه رأسه كوسادة ، يبدو خجلاً من شحوب المكان وضيقه وعتمته ، لكن عبد الناصر يبدو راضياً ، يتخاطب مع أبى بالنظر ، فلا صوت يسمع لهما ، ولا تهتز شفاههما لمخارج الحروف ، وكنت افهم عنهما ، عبد الناصر يقول إن الغربة انهكته ، لم يتخيل

يوماً أنه سيقاسى الغربة بأرض تقع على ضفتى النيل ، يجاوبه أبى بالنظر ، يطمئنه بدون نطق ، يقول عبد الناصر إن الشدة التى يقاسيها الآن فاقت كل ماعرفه ، لم يتصور أبداً ان تقع عيناه يوماً على هذا العلم فى فضاء مصر ، ويقرأ فى صحيفة مصرية ، يومية ، إعلاناً يدعو ناس مصر إلى قضاء العطلة الصيفية فى دولة إسرائيل ، قرب الميدان الذى مازال اسمه التحرير توقف أمام شركة سياحية ، ينطق اسمها بالإنجليزية ، ويكتب بالحروف العربية ، قرأ لافتة معلقة على الواجهة الزجاجية ، أسعار الرحلات للفرد وللوفود الجماعية . مواعيد قيام الأوتوبيسات المكيفة ، والطائرات ، من تل أبيب إلى القاهرة ومن القاهرة إلى تل أبيب . يشير أبى إلى الطعام حتى لايتوقف ضيفه ، بينما يبطئ من المضغ ، يأكل القليل خشية ألا تكفيهما الكمية ، كما أنه لن ينهى طعامه إلا إذا اكتفى الضيف . من الممكن أن يتحمل قلة الشبع ، أن ينام بجوعه ، ولكن الضيف يجب ان يشبع ، يتابع عبد الناصر التعبير عن مكنون نفسه بالنظر فيقول إنه عندما جاء إلى ذلك الزمان وجد الناس فى دهشة ، وبعد دخوله السجن ، وهروبه منه وتجوله بين الخلق رصد شحوب هذه الدهشة ، بل إن الكثيرين اعتادوا تلك الأخبار عن سفرهم ، وعن وجودهم ، وقراءة ومشاهدة بعض المسئولين هنا يشيدون بالعلاقات الودية ، قلت عندئذ من موضعى وبالنطق : بعض هؤلاء أنت تعرفهم ، كانوا على مقربة منك . ولاحظت ان صوتى لم يصل إليهما فلزمت السكوت وان لاحظت إطراقه أبى ، وخيل لى أنه يود لو قال ما قلته لكنه آثر ألا يؤلم الرجل فى محنته ، ولما فهمت ذلك لمت رعونتى . يقول عبد الناصر : لم يتبعنى إلا قلة . يقول أبى : القلة أول حد الكثرة . يقول عبد الناصر : الناس عابسة وجوههم، الملامح تغيرت. يقول أبى : هذا زمن صعب ، يقول عبد الناصر : فى جولاتى القديمة كنت أرقب أقدام المارة ،

أراهم يرتدون الأحذية ، الحفاء قليل ، فينشرح صدرى وأنام مرتاحاً ، أعرف انى على الطريق السليم وان تعاظمت الصعاب . يقول أبى : حقاً .. لقد انصفت أهل الفقر من أهل الغنى . يقول عبد الناصر : اليوم عندما كنت فى الطريق إليك رأيت امرأة ترتدى جلباباً أسود ، تحمل رضيعاً ، وتمسك بيد طفل صغير ربما فى الخامسة ، ربما فى السادسة ، والطفل حافى القدمين بينما الشمس متقدة ، والأرض ملتهبة .. تردى الحال ، أنى غريب هاهنا . يبسط أبى يده ملامساً موضع قلبه : وأنا غريب مثلك ، ولكن الغريب للغريب نسيب ، وبالغريب والغريب معاً تنتفى الغربة . يتنهد عبد الناصر بالأنفاس ، يتساءل : كيف جرى هذا كله ؟. عندئذ لم استطع أن امنع نفسى عن النطق فقلت : تركت لنا خليفة السوء ، انت الذى اخترته ، خليفتك هو الذى قوض عهدك ، كررت : انت الذى اخترته ، لم يسمعنى ، واضمرت السؤال ، حتى إذا مازالت الحجب بينى وبينه واجهته به ، وطلبت الاجابة ، رحت أتابع أبى عندما قام لينفض التراب عن السجادة ، يفردها ، يرجوه بالنظر أن يتمدد ، يسأل عبد الناصر : وأنت .. اين ستنام ؟، يقول أبى إنه أعتاد الشقاء طوال عمره ، ولا شىء يريحه مثل الأرض . يقول عبد الناصر : نم إلى جوارى . لكن أبى يرجوه أن ينام فغدا ينتظرهم سفر عظيم. عظيم، هكذا وصف أبى ذلك الرحيل ، ولم أقف على سر، ولم أدر كنه الطريق . ولم أعلم الوجهة، وإن داخلنى خوف من هجوم مفاجئ ، يقول أبى : إذا قلقت ليلاً أو احتجت أى شىء، أيقظنى ولا تتردد ، لايجيب إنما يتمدد صامتاً ، متأثراً بما يبديه أبى تجاهه ، لايزال فى العالم خير: هذا رجل فقير لم يكن باستطاعته مد يده لملامسة يدى . كان نائياً عنى وكنت بمعزل عنه . وها هو يعرض نفسه لخطر جسيم غير مبال ، يوفر لى اللقمة والمأوى ، أما الذين عرفونى ، وسعوا للقرب منى ،

واقتفوا خطاى ، فيستقصون اخبارى ، ويقتفون أثرى ، يريدون اقتلاع عودتى ونفيى عن عصر راق لهم ، يتمدد عبد الناصر ، تبدو قامته أطول فى رقدته مما تبدو فى وقوفه ، نام ونام أبى ، ولم أنم ، ولم يطرق الوسن جفنى وهنا فائدة لا بد من ابرازها ، فمنذ رضاء الديوان عنى ، والسماح لى ، فقد انتفت عنى بعض الصفات الجسمية المصاحبة للطبيعة الإنسانية .ومن ذلك دوام يقظتى وانتفاء النوم عنى ، فلا نوم ولا اغفاءه انما يقظة دائمة يتوهج خلالها وعى كأنه ضوء ساطع ، وهذا مالم يعانه بشر ومالم يعرفه أنس من قبل ، ربما يشحب هذا الضوء ويهن لكنه لاينقطع ، أما النقلات ففاجئة . وهنا يجب ان أفصح قليلاً أيها القارئ الكريم والولى الحميم ، فالحواجز كلها مرفوعة أمامى منذ ولوجى الديوان . فلا زمان ، ولا مكان ، ولا حاجز حسياً ، ولا حاجز شعورياً ، ولا حاجز أرضياً ولا فلكياً ، ومن ذلك انتقالى بيسر مع أنفاسى ، من حال إلى حال ومن زمن إلى زمن ومن حيز إلى حيز مع تغير أنفاسى ، فمع شهيق انتقل إلى عصر قادم ، وعند زفيرى أصير إلى زمن مضى ، أو أكون طفلاً ثم أصبح شيخاً ، وسبحان من هو كل يوم فى شأن ، سنفرغ لكم أيها الثقلان . لكن يجب التنويه والاشارة إلى أن رغبتى أو قدرتى ليستا المحرك لانتقالى أو مشاهدتى ، إنما كنت مستسلماً لمن شاء ربى ان تكون مقاديرى بيده ، فحينا يعذبنى ، وحيناً ينعمنى ، ولكن أبيح لى كل ما يباح للخواطر والمشاعر الإنسانية ، ومن ذلك التساؤل ، والندم ،والدهشة ، والخوف ، والحزن ، والحنين ، والروع ، والفزع ، والألم الحسى ، والمعنوى ، كذا الفضول ، والضيق ، والسخط ، وسائر الأحوال التى تعرفها الطبيعة البشرية ، وهكذا لم أعرف النوم فى تلك الليلة لأن النوم غريب عنى فى رحيلى الدائم هذا . بقيت جالساً معلقاً فى الفراغ مشرفاً على رقاد جسدنيهما مطلاً عليهما ، أحصى أنفاسهما ، واصغى إلى الليل ، صرت بمثابة

الحارس لنومها من كل طارق مفاجئ ، أو كابوس مفزع . أو حلم ثقيل ، أو ألم يقض مضجعها . كان أخشى ما أخشاه هجمة مباغتة ، فأنبهها قبل فوات الأوان ، غير أن سهرى عليها ولى ، كذا حرصى ، كما ينتهى كل شيء ، كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام ، شقشق الفجر وتنفس ، وهاهو الصبح يعسعس ، يقوم أبى محاذراً إيقاظ ضيفه ، يخرج ، ثم يرجع حاملاً علبة من الصفيح مملوءة باللبن الساخن ، يسكب محتوياتها فى كوبين زجاجيين ، برفق يهز كتف عبد الناصر ، يخرجان معاً قبل أن يكثر المارة فى الطرقات ، ويتعاظم السعى والخطر ، تبعتهما ، ونالت منى الدهشة عندما خطوا وخطوت خلفهما ، خرجا وخرجت وراءهما ، زالت حارة الانشاء ، اختفت البيوت ، تبدلت الأرض غير الأرض ، والعصر بغير العصر ، تلك أرض مجدبة مؤدية إلى كربلاء ، إلى الكوفة ، وعندما حاذيتهما لأتملى من ملامحهما ، رأيتها مصبوغة بملامح هذا الزمن البعيد ، فلكل عصر قسمات بشرية ، عرفت ان هذا الموقف آذن بانتهاء ، والسلام ..

موقف

الندم

فلا يخوض غمرات هذا الجهاد
إلا موفق سعيد يمشى
على الأرض حياً وهو شهيد

.. عندما وصل أبى بصحبة عبد الناصر إلى زمن الكوفة القديم كان مفصولاً من عمله ، فاقداً لمورد رزقه الوحيد ، وسبب ذلك خطاب وصل

إليه من أحد أقاربه فى البلدة ، كتب على المظروف هذا العنوان : إلى حضرة المحترم الرمالى بك صاحب أفران الرمالى ، ومنه إلى المحترم أحمد الغيطانى . تساءل البك بدهشة : من يكون هذا ؟ فقيل له إنه عامل بفرن الخبز البلدى ، فغضب غضباً عظيماً ، وتعجب من تلك الوقاحة ، كيف يجرؤ عامل فقير ان يجعل منه وسيطاً ، يتلقى رسائله عن طريقه ، ثم طلب من المعلم أن يسوى حساب الغيطانى هذا ، وأن يخلى سبيله . قال أبى لعبد الناصر وبيوت الكوفة تلوح من بعد ، والنخيل حولها باسق ، والله ياسيدى لم أعط عنوانى لأى إنسان . ولكنه تدبير من عمى لأخسر عملى وأفقد رزقى . قال لعبد الناصر : أحسن سنينى تلك التى قضيتها بالفرن ، قال عبد الناصر : كل ماض يبدو لمن عاشه جميلاً حتى وإن امتلأ بالصعاب . يبدو أبى حزيناً ، يقول عبد الناصر مخففاً : ولكن لولا الوظيفة لما تزوجت ، ولما أنجبت ذريتك التى عاش منها أربعة . لاحت الحسرة فى صوت أبى : أربعة .. ماذا فعل لى أولادى الأربعة ؟. قال عبد الناصر : أنت ربيتهم أحسن تربية . وعلمتهم ، لا تتأسف يا أحمد على مافات واغفر لهم وسامحهم . قال أبى متداركاً : لا أتحامل ولكننى أعاتب ، وقبل خروجى من الدنيا ، قلت لهم سامحونى . فسامحونى ، ومن أسفى أن أنفاسى لم تسعفنى ، كذا وهن قلبى ، فلم انطق بغفرانى لهم ، ولم يسمعوا الكلمة منى ، ويعلم ربى انى حافظ حتى الآن ودهم ، ومن حين إلى حين أرجو الذهاب إليهم فأطوف بهم ، أراهم ولا يروننى ، وأسمع منهم ولا يسمعوننى لم يكن ابنى جمال الأكبر حاضراً لحظة فراق الدنيا ، وكنت مستوحشاً ذلك الرحيل الذى لا أدرى إلى أين يؤدى بى . وعند مفارقة روحى لجسدى زعقت زعقة أيقظته من رقاده فى هذا البلد الغريب ، البعيد . غير أنى هدهدت روحه كما كنت أهدهده صغيراً .

طمأنته ، فعاد إلى سباته . يتنهد أبي : الأولاد .. والله وحشونى الأولاد . وهنا جريت حتى حاذيته . أوليته وجهى . صحت : انظر .. انى بجانبك . غير أنه لم يسمعنى ولم يرنى . فأطل دمعى ، وعدت أسعى فى أثرهما وألقى فى معارف أن من أسرار هذا الموقف ذلك الحاجز بينى وبينهما . أراهما واسمعهما ، ولكنهما لايشعران بى ، وان حالى هو كونى تابعاً. لاألتقى بهما أبداً، وان كل ماأراه سيضاء بتلك الدرجة من النور الواهن ، الشاحب خفيف الحمرة والذى يتخلل السحب العالية أثر مغيب الشمس مباشرة . وان الرائحة المصاحبة لى فى ذلك الموقف ، رائحة المطر العتيق الذى مضى على نزوله زمن وجمعت قطراته فى شقوق رخوة أو حنايا نبات ، وتلك رائحة مؤلمة للشجون ، مثيرة لما مضى ، وان كل ما أسمعه يمت إلى مقام الصبا ، أما علوم هذا الموقف فكلها مندثرة ، ملغزة ، ولا مقابل لها فى عالم الأسماء المعهود لنا ، يقول عبد الناصر : انى حزين مثلك ، حزين لأن من استأمنته خاننى ، ومن وثقت به نقض عهودى . وهنا يقول أبي بحزم عجيب : أتيت لنا بخليفة السوء . يصمت عبد الناصر ثم يقول : ابتعدنا كثيراً . يقول أبي الذى هو ثانى اثنين يلجان ليل الكوفة : لاتحزن ان الله معنا ومنذ هذه اللحظة ، وعلى أثر هذا القول افترقا . مضى كل منهما فى درب غير الدرب الذى مضى فيه الآخر ، كذا انقطع نظرى عنهما ، وغابت اخبارهما ، عدت غريباً ، فقلت لأتدبر ما مررت به ، ولأتمعن فيما سطرته ولأسترجع فيما ذكرته ، ولتأخذنى عبرة من البصر لبصيرتى ، ومن سرى لسريرتى ، فقد استشعرت دبيب المحن ، وزمن الكدورات ، فإن اهتديت فقد عرفت ، وان تعاميت بعدما رأيت ما رأيت فقد وهبت . ملكتنى الزفرات الحرى شوقاً إليهما ، كما اختنق حلقى بغصة عندما رأيتهما أول مرة خوف الفراق ، تزايد شحوبى ، وغزانى ضيق سرمدى ،

وتساءلت : هل سيسعى ابنى أو أحد احفادى فى اثرى ، ويلج الديوان بحثاً عن ذكرى بعد أن أكون قد صرت نسياً منسياً ودهرى كله قد ولى ، وكأنه لم يك شيئاً ؟. تبدل وضعى ، فصرت جالساً فى مسجد قديم من مساجد الكوفة ، أرضه مغطاة بالحصير ، وسقفه من جذوع النخيل ، أصبحت قاعداً بين القاعدين ، فى مواجهتى أبى ، واجهته بعينى وكيانى . وعند هذا الحد من ذلك الموقف سمح لى بأن أراه بحواسى كافة ، وكان يبدو فى عمر لم أعرفه فيه ، فلا هو شبابه ، ولا هو شيخوخته ، يتحدث إلى القوم مذكراً اياهم بتخاذلهم عن نصرة الحسين ، مثيراً فيهم التلاوم ، موقداً جذوة الندم . ثم تبدل موقعى فصرت مراقباً لجلسة داخل بيت فسيح لوجيه من وجهاء الكوفة ، انه سليمان بن صرد الخزاعى ، وهو رجل كان له صحبة مع النبى، عليه الصلاة والسلام ، عرفه ، وجلس إليه ، وسمع منه مباشرة أما بقية القوم فهم ، المسيب بن نجبة الفزارى ، وكان من أصحاب على وخيارهم ، وعبد الله بن سعد بن نفيل الأزدى ، وعبد الله بن وائل التميمى ، ورفاعة بن شداد البجلى . يتحدث إليهم بعربية فصحى لم أسمع لسانه ينطق بها ، أبى الذى عاش ما يقرب من نصف قرن فى مصر لم يغير لهجته الصعيدية أبداً ، ولم يتكلم تلك اللهجة القاهرية ، حتى انى كنت أخجل من التحدث بها فى حضرته ، أو فى حضور أمى ، فينقلب لسانى ، وأتكلم كما يتكلم هو وكما سمعته منذ أن وعيت ، وحتى فراقى له ظهر يوم الجمعة قبل سفرى المشئوم . عندما نظر إلى وأطال النظر ، يتحدث أبى إلى وجهاء القوم : لقد ابتليتم بطول العمر، والتعرض لطول الفتن فارغبوا إلى ربكم ألاَّ يجعلكم ممن يقول لهم غدًا « أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير » ، قال أمير المؤمنين على أن العمر الذى أعذر الله فيه إلى ابن آدم ستون سنة ، وليس

فيكم رجل إلا وقد بلغه ، لقد بلغتكم كتب الحسين ، وقدمت عليكم رسله ، وأعذر إليكم يسألكم نصره عوداً وبدءاً وعلانية وسراً ، فبخلتم عنه بأنفسكم حتى قتل إلى جانبكم . لا أنتم نصرتموه بأيديكم ، ولا جادلتم عنه بألسنتكم . ولا قويتموه بأولادكم وأموالكم ، فما عذركم إلى ربكم ، وعند لقاء نبيكم وقد قتل فيكم ولده وحبيبه ، وذريته ونسله ، لا .. والله ، لا عذر دون أن تقتلوا قاتله والموالين عليه ، أو تقتلوا فى طلب ذلك .. ، ثم تبدل موقعى فأصبحت مصغياً مع مصغين آخرين إلى أبى ، المكان سوق الكوفة داخل خيمة منسوجة من شعر الجمل ، يقول : إنى والله لخائف ألا يكون آخرنا إلى هذا الدهر الذى نكدت فيه العيشة ، وعظمت فيه الرزية ، وشمل فيه الجور أولى الفضل . كنتم تمدون اعناقكم إلى قدوم آل نبينا وتمنيهم بالنصر وتحثونهم على القدوم ، فلما قدموا توانيتم، وعجزتم وتربصتم، وانتظرتم مايكون حتى قتل فيكم ولد نبينا وسلالته وعصارته وبضعة من لحمه ودمه ، إذ جعل يستصرخ فلا يصرخ ، ويسأل النصف فلا يعطاه ، اتخذه الفاسقون غرضاً للنيل ودرية للرماح حتى قتلوه ، عدوا عليه فسلبوه ، وما أن فرغ أبى ، حتى وقف أحد القوم واسمه خالد بن سعد بن نفيل فقال : أما أنا فوالله لو أعلم أن قتلى نفسى يخرجنى من ذنبى ، ويرضى ربها لقتلتها . ولكن هذا أمر به قوم كانوا قبلنا ونهينا عنه ، فأشهد الله ومن حضر من المسلمين ان كل ما أصبحت أملكه سوى سلاحى الذى أقاتل به عدوى صدقة على المسلمين ، أقويهم به على قتال القاسطين. يقوم رجل اسمه المعتمر حنش بن ربيعة الكنانى ، يقول : وأنا أشهدكم على مثل ذلك .

ثم يقف رجل لا يُكشف لى اسمه فيقول : وأنا .

ويقول آخر أسود الوجه مثل ذلك ، يقول آخرون ما قاله الأولون ، ينزل

صمت ، ويقوى الضوء الشفقى ، ولما عاودت النظر كان أبى قد ذهب ، فانفغرت فجوة فى صدرى ، كذا فى صدور القوم ، يذرفون دموعاً سخية . يندمون ، وتقول الأفئدة الموجوعة : ليتنا وقفنا إلى جانب الحسين . ليتنا متنا معه . وتدور عيناى بحثاً عن أثر أبى بيها يقول فكرى لهم . لماذا الحسرة وقد فات الأوان؟ كان بمرمى النظر منكم ، ولما مضى ، لما انقضى تحركت الضمائر واستيقظت المشاعر ، خلق الإنسان من الندم ، درت بعينى غير أننى لم ألقه ، تضببت مواطئ خطاى ، وأوغلت فى دروب الغربة ، واضطربت أحوالى ، فلا جلوس يريحى ولا نوم يأتينى ، ولا وقوف يشغلنى ولا مشى يلهينى ، ولا السعى إليه يوصلنى ، اشتد على الندم فأثخنتنى عناصره من كل صوب ، رزحت تحت وطأة العكارة . وتركز كيانى حول لحظة فائتة . مرت بى ، وموقعها يوم الأربعاء السابق على سفرى ، لم أكن أدرى يوم الأربعاء أنه بقى لأبى ثلاثة عشر يوماً ، ولم أكن أعلم يوم سفرى أنه قد بقى له عشرة أيام ، تبدو الأيام التى تسبق اليوم المعين عادية، تكر كرها بكل ما تحفل به، لا تبدو نذر ولا تلوح علامات وان كان الأمر يختلف بالنسبة للإنسان الموشك على الرحيل ، فثمة شيء غامض يتحرك عنده وينذره باقتراب الموت ، ولايحدده ، بل يوحى به ويشى بخطاه الخفية ، بأنه مقترب من جهة ما غير محددة ، انه قريب ، وانه سيطبق بعد حين لم يطل ، وقد عرفت فيما بعد شواهد جمة أكدت لى ان أبى استشعر دنو يومه قبل وقت أبعد مما ظننت ، وسأذكرها فى موضعها ان شاء ربى الكريم وأمد فى أجلى حتى أدون ذلك ، لاتدرى نفس بأى أرض تموت ، وانى لأسأل نفسى مرة أخرى عن تلك البقعة من الأرض التى سأسند إليها رأسى ، وأغمض عينى تأهباً لرحيلى ، أين هى ، وفى أى حيز تقع ؟ كل ما يمر بنا فى تلك الأيام القليلة التى تسبق الموت

لا يلفت النظر ولا يستوقفه ، فإذا ما وقعت الواقعة ، استعدنا ذلك .
وسرعان ما نستعيد الحوارات ، نتذكر أدق التفاصيل ، والإيماءات وحركات الأيدى ، تبدو كل جملة لفظت أو كل نظرة ذات دلالة ، منبئة بما سيلى ذلك ، تماماً كالمرة الأولى التى يطالعنا فيها وجه الحبيب ، فالمرة الأخيرة التى لن يتكرر بعدها لقاء . من عمر التواصل ، من مرات الأنس والبشرى والمفاجاة والخلاف والنشوة نذكر دائماً البداية والنهاية فى يوم الأربعاء المنقضى هذا ، كنت فى زيارة لصديق انجز عملاً ، وكان مكان زيارتى على مسيرة ربع ساعة من مكان عمل أبى ، كانت الساعة تتجاوز الواحدة ظهراً عندما انصرفت ومشيت عدة خطوات ، وهنا خطر لى خاطر ، ان أعرج على الوزارة ، فى مثل هذا الوقت يعود أبى إلى القسم الذى يعمل فيه ليوقع فى دفتر الانصراف ، ابهجنى الخاطر ، فعندما يرانى سيسر كثيراً ، سيرتبك قليلاً لفرط بهجته فى البداية سيطلب منى أن أمكث قليلاً حتى اشرب شاياً أو قهوة ، وقد يطلب منى أن أصحبه لأصافح بعض الموظفين القدامى ، يقدم ابنه الأكبر إلى من عرفوه منذ عشرات السنين يتحمل الضيق ويقاسى الشدائد ليربى أولاده . قلت لنفسى : كان يصحبنا إلى كل مكان فى طفولتنا ، فى الطريق يلبى رغباتنا ، فلما شببنا واشتدت سواعدنا واستقلت عوالمنا واتسعت مداركنا ، وتعددت علاقاتنا ، وهجرناه ولم نعد نصحبه ، ولم نعد ندرى شيئاً عن رفاق طريقه ، وأناس وحدته ، سررت لما جال بخاطرى ، ومشيت فى طريقى إلى مبنى الوزارة ، توقفت عند مفترق ريثما أعبر الطريق ، نظرت حولى خوفاً ، من العربات المسرعة ، لمحت عربة أجرة خالية قادمة ، انحنيت قليلاً ، ولحظة مرورها بمحاذاتى صحت « باب اللوق باريس » ، لم أتوقع وقوفه ، خاصة أن الطرق المؤدية إلى باب اللوق مزدحمة وسائقى عربات الأجرة

يرفضون الاستجابة ، غير أن السائق توقف ، أومأ لى ، « تفضل » . كررت « باب اللوق » ، أومأ مجيباً ، يبدو أنه خارج إلى يوم عمله لتوه ، وبعض من السائقين يتجنبون الامتناع فى بداية يومهم خشية تعثر الرزق ومفاجآت الطريق ، مررت بسرعة أمام مبنى الوزارة الذى كان يضم أبى وقتئذ فى موضع ما منه ، أما الآن فقد خلا منه إلى الأبد ، ولم يعد أى أثر لإمكانية توقعى رؤيته صدفة يعبر الميدان المؤدى إلى المدخل ، نظرت إلى المبنى ، لم يخرج مشروعى عن كونه خاطرة وفكرة لم تتحقق ورغبة لم تتجسد ، قلت لنفسى : سأزوره فى فرصة أخرى . هكذا ضننت عليه بمفاجأة كانت ستسره ، بددت فرحة كانت ستواتيه فى اليوم الثالث عشر المتبقى له ، لو أعرف ، ليتنى فعلت . كنت فى مدينة الكوفة ، وفى زمن ينأى عن زمنى مئات الأعوام عندما دهمنى النوم المروع فبكيت ولكن بكائى لم يخفف مابى. كيف ضيعت ما ضيعت وقد كان ذلك فى متناول يدى وملك يمينى ؟ إلى هذا الحد تشاغلت عنه أو شغلتنى الدنيا . عصرت قبضتى يدى ، عضضت النواجذ ، تعاظم ألمى ، وعند هذا الحد من شروع هلاكى وبدء محوى شعرت بيد حانية تمس رأسى ، تطلعت فرأيت سيدنا شيخ العارفين ، مولاى محيى الدين ، نظرت إليه ، أذن لى ، فقمت من كبوتى مشى فتبعته ، كان مهيباً فى نظرى ، ذقنه من شعر أسود عميق ، طال صمته وحرت فى مغزى ظهوره لى عند هذا الحد من ذلك الموقف ، والعجيب اننى مع التركيز فيه ، ومع ترديدى .. نعمت بالصاحب والصحبة بعد معاناتى ، جعلنى الله ممن اقتفوا اثره ومشوا على مدرجته حتى التحق بدرجته ، آمين . غير أن ندمى لم يخف ولم يبل . بل زاد علىّ ماهو أدعى وأمر ، فقد زال عنى الظل والفىء ، صرت فى قيظ لاهب ، فجأة نطق سيدنا فقال : .

عندك شيء ؟

جهرت على الفور بمكنونى ..

توسط لى ياشيخ العارفين عند الديوان ، عند رئيسته الطاهرة ، عند عضوية النورانيين ، عند حبيبى ورفيق هجراتى ودليل أسفارى والغائب عنى منذ حين وليس لمن كان مثلى أن يسأل عن ..

يستمر شيخى فى النظر إلىّ .

عندك شيء ؟

أصيح :

أريد أن تبدل هذه اللحظة تبديلاً ، أن أتذكرها فأتذكر اننى مررت بأبى وزرته ، أن استعيدها فأراه يستقبلنى ويتهلل لرؤيتى ويجلسنى إلى جواره ..

قال شيخ العارفين ..

هذا أمر صعب المرتقى ..

أقول .

ولكن ليس شيء على الله ببعيد ..

قال الإمام الأكبر :

بالأمس نسيت ، واليوم تُنسى ..

ثم قال ..

إن كنت ذا فطنة فقد أومأنا إليك بما هو الأمر عليك ، بل صرحنا بذلك وتحملنا فى ذلك ما ينسب إلينا ..

قلت :

لكننى اليومَ وحيد ..

غاب عنى فصرخت :

أمثلونى بين يدى مولاى الشهيد ..

عندئذ امطرنى الندم بوابله ، وبلغ من شدته أنه صرعنى وبعد حين لم أدر مقداره أفقت ، ولكن ندمى بدأ من جديد .. من نفس اللحظة التى أدركت فيها خطئى وجرمى وتقصيرى . ثم يتزايد حتى أفقد وعيى ، وأفيق لأعانيه من جديد ، يولد مرة أخرى داخلى عفياً مرة إثر مرة إثر أخرى ، كنت عاجزاً عن الخلاص منه أو التخفيف من وقعه ، لأنه داخلى ، وكيف أخرج منى ؟ وكلما بلى تبدل ندماً عفياً ، وأنا لا أستطيع فكاكاً ، وتلك الشواظ تلهبنى ، صرخت ..

أليس فى مقدوركم التخفيف عنى ؟

لم يجبنى أحد . ولم يرد صوت . وعند حد مقدر ظهر شيخنا مرة أخرى ، اقترب منى فى دوامة عذابى حتى وقف وأنا ملقى صريع . رأسى بحذاء قدميه ، انتظرت ، ولما سمعته يقول ..

أمازلت عند مطلبك ..

قلت

ليس ذلك بأمر بعيد ..

عندئذ أخرج من ثنايا جبته نصلاً أبيض حامياً ، أمسك بشعر رأسى ، أشهر النصل ، ثم هوى به ، ففصل رأسى عن جسدى . اقتلعه وأمسكه بيده ، فصرت أنظر إلى جثة نفسى بلا رأس بينما يقطر الدم من رقبتى ، ويتدفق من عروق المجزوزة ، شعرت بيده تتراخى عن شعرى ، وللحظة خيل إلىّ انه يمسك رأسى ، لكننى انتبهت إلى أننى طاف ، معلق ، لقد صرت فى خلق جديد ..

* * *

موقف النجم

«.. لا أقسم بمواقع النجوم
وإنه لقسم لو تعلمون عظيم ..»
صدق الله العظيم

.. صرت رأساً بلا بدن ، وبدناً بلا رأس ، ولكم صعب عليّ حالى ورثيت نفسى ، وأشفقت عليّ عندما رأيت بعينى رأسى جثتى بلا رأس أول مرة ، واطلعت بعينى حواسى على رأسى الطافى المنقطع عن جذره ، عرفت ان جمال الجسم البشرى وكماله فى اتصاله ، انه قائم على بعضه ، لو عزل عضو عن سائر الجسد لبدا بلا معنى ، غريباً فى وجوده ، ضعيفاً فى مظهره ، واهناً فى جوهره . مثيراً للرثاء ، للشجن ، أصبح لى ظلان بعد ان كان لى ظل واحد ، اتبعه ويتبعنى ، أطويه وأبسطه وأحياناً يلفنى ، لكن بدت ذراعى غريبة عنى ، خاصة يدى ، وأصابعى التى طالما ضممتها وفردتها وأمسكت بها القرطاس والقلم ، فى عزلة اعضائى تجسد ضعف النشأة الإنسانية المجبولة على الكل والجمع والوحدة ، رثيت لقدمى ، لصدرى ، لقضيبى الذى عبثت به فى صغرى وكبرى ، وأولجته فى فروج شتى ، أنه بمنأى عنى ، لا يطاوعنى ، ولا يستجيب ، يدى لا تقدر على مداعبته ، أو الاحاطة به أوهدهدته ، لا يتقدمنى ولا يعبر عوالم انثوية ، لكم بدا رخواً وكأنه قد من خرقة بالية ، رثيت لنفسى ، صار لكل عضو توجه مغاير ، هكذا ارتفع رأسى بعد أن ألقيت نظرة التياع على بقية جسمى ، سبحت فى سماء مدينة الكوفة ، رأيت

من عل عال المدينة مضمومة ، ململومة مضمدة بالنخيل والشجر ، ثم تزايد ارتفاعي فرأيت الكوفة وكربلاء معاً ، استعدت بأسى أحوالي في موقف الظمأ . ورؤيتي لحبيبي ومولاي الحسين وهو محاصر ، ممنوع من ماء الفرات . حدقت ببصري الجديد فرأيت ذلك الموضع الذي اجتث عنده رأس مولاي الطاهر ، وهذا موقع لا يعلمه الآن من البشر الفانين غيري ، ولا يمكن لآدمي تعيينه سواي ، لكنني لا استطيع البوح به في تدويني هذا ، لقد خصصت بذلك أثناء محنتي ، وما خصني لا يمكنني نشره إلا بإذن ، والاذن لم يقع ، لذا أسكت ، كنت غير قادر على النزول بذلك الموضع والوقوف به ، وابداء الحزن على ما جرى ، كما كنت غير قادر على النزول إلى كربلاء ، والوقوف عند مرقد سيدي وسيد ساداتي ، كيف أنزل وأنا بلا قدمين اسعى بهما ، كيف أطرق باباً من بيوتها وما من يد تأتمر بأمري ، فأصافح من أشاء ، وأشير إلى من أشير . يستمر تحليقي في لحظات غروبية كابية ، ولم أكن أدري ما أفعله عندما يجيء الليل ، هل سأحط على الأرض حطاً ، أو آوي إلى قمة جبل يعصمني

من الأذى المجهول ، أو أركن إلى موقع لا يلحق ما تبقى مني ضيق أو مضايقة . كنت لا أدري كيف سيكون مرقدي وهل سيكون لي استيقاظ ومنام ، اضطجاع وركوع ، كنت محكوماً بخلفيتي الدنيوية ، لا قدرة لي على تصور ما سيلحق بي . قلت بلساني : فلأصبر على ما أصابني ، يطول تحليقي ، أسبح في غمام ، أعبره ويعبرني . وعندما بدأ الشفق يغمق ، بدأت أعرف جوعاً غريباً ، مريباً ، جديداً على أحوالي ، جوعاً شاحباً ، لكنه ثقيل ، لم أعهده أبداً ، لا يحركه خواء معدة ، ولا انقطاع زمن عن طعام ، ولا شهوة ، ولأنني مازلت قادراً على التشبيه والاستعارة حاولت أنْ أعثر له على مثل . وجدت صعوبة جمة ، غير أن أقرب الأحوال امتلاء مثانة بالبول

والعجز عن اطلاقه ، ربما يشبه مقدمات الاغماء ، غير انه ظل جوعاً لم أعرفه قط . وعند حد معين لم أدر طبيعته الزمانية أو المكانية ، نوديت ..

ياجمال ..

نظرت إلى نقطة من السماء بعيدة ، لأنه لارقبة عندى ، فقد حركت جفنى وعينى ، كالعاجز ، الراقد ، ينظر حوله ولا يتغير موضعه ، ولا جسده ، رأيت نقطة خضراء ، درجة ليست بزمردية ، ولا زرعية ، ولا ربيعة ، أو خريفية ، لاتقترب من الصفرة ، ولا من الزرقة ، ومن المعروف ان اللون الأخضر ينشأ من اختلاط اللونين الأساسيين الأصفر والأزرق ، وبقدر غلبة أحدهما على الآخر ، تتحدد درجة الخضرة ، أعلم ان من علوم هذا الموقف علم الألوان ، واسرارها ، غير ان لون النقطة الأخضر لم تقع عيناى على مثله ، مشع ، براق ، وهادئ أيضاً ، واضح كزرقة البحر فى المواضع العميقة ، وفضية القمر فى الليالى الصافية ، وضوء الصبح ، حدقت بعينى ، تقترب النقطة الخضراء منى ، أستكين فلا أرحل ، إذا بها طائر لكننى لم أتبين ملامحه ، قادم من سمت القبلة ، يتيامن ثم يشرق ، ثم يطير إلى الجنوب ، ثم يبعد تجاه الشمال ، كل هذا وهو فى دنو مستمر منى ، حتى صار فى مواجهتى فإذا به ضياء خالص ، ونور صرف ، ومن ذلك تتشكل الملامح الإنسانية التى تعلقت بها غير مصدق ، وعندما اكتمل وجه الطائر الآدمى ، زعقت ..

أنت .. انت .

لم أعرفه إلا فى صور المحاكمة المطبوعة والمرئية . مدثراً بالبياض ، يلف قضبان القفص الحديدى ، كذا صور الهجوم ، يندفع فى قلب النهار ، عبر مركز الضوء ، معه صحبة صدورهم عارية داخل مرمى الخطر كله ، يقتحم المنصة ليلخص زمناً ، وينقذ أمه ، عرفته فى الصور المرئية التى التقطت على

عجل ، ينزل من عربة النقل ، يلق القنبلة ، ثم يعود فى ثوان ليمسك المدفع ، عرفته بخيالى وها هو أمامى . حراً من كل قيد ، مكشوفاً من كافة الحجب ، طائراً أخضر من ضوء . هاهو يثبت جناحية حتى يستمر معلقاً فى الفراغ ، أقول بحنان عظيم ..

خالد ، تكلمت أنا وفعلت أنت ، تمنيت أنا ، وتمنى غيرى ، وأديت أنت ..

يهز رأسه الذى دقت ملامحه وصار فى هيئة وحجم رأس طائر ، لم يجبنى ، إنما قرب فمه من فمى ، وكنت غير قادر على عناقه لأننى بلا ذراعين لا أقدر على الدنو منه لأننى مسير ، محكوم بمن يوجهنى ، فإذا شاء تقدمت ، وان رغب ارتفعت ، وان اراد ابتعدت ، ليس بأمرى شىء ، ثبت وضعى فى مواجهته ، فلم أضمه إلا بعينى ، ولم أحطه إلا بنظراتى ، كان عندى شجن مديد أود لو بحت به . لكن فمى تطلع إلى فمه كما يتطلع الطفل إلى ثدى أمه قبل الرضاعة ، عندئذ قطر فى فمى ثلاث قطرات من شراب طيب حلو يشبه عسل النحل المصفى ، لكنه ليس بالعسل ، تذوقت واستحسنت ، عرفت أنه اطعمنى ما يشبه المن والسلوى ، فتحت عينى والشبع يملأنى ، والجوع قصى عنى ، نسيت مذاق أى طعام تناولته طيلة عمرى . يرتفع خالد ، يثبت عند نقطة مرتفعة متطلعاً إلى رأسى وكأنه يطمئن علىّ ، عندئذ رأيت فجوة حمراء فى مقدمة صدره ، بقعة ضوء قانٍ تقطر دماً حقيقياً وكأن للضوء عروقاً ، بالضبط فى موضع القلب ، صحت .

هل تألمت ؟.

جاءنى صوته من موضع شروق الشمس ..

أعطانى الله من هذه القوة لكن الله قوانى عليها ..

رأيت قطرات الدم تندمج بالفضاء الكونى ، تدور مع الأفلاك ، تولد مع جديدها ولا تندثر مع قديمها الذى حان أوان فنائه . رأيتها تمد الحمرة المصاحبة لبزوغ الفجر على ضفتى النيل ، تصبغ اطراف النخيل ، وشواشى الأشجار الفارهة وفى عتمة الليل تستقر قطرة على هيئة نجم فى السماء ، نجم صغير بين النجوم التى تزحم السماء ، لكنه ينفرد عن غيره بأمور جمة ، وخصائص دقيقة . منها ما يظهر ، ومنها مايخفى ، من ذلك انه لا يرى إلا فى سماء وادى النيل ، ولا يمكن رصده إلا من فوق تلال الوادى ، وجبل المقطم ، وجبل عتاقة ، وجبل الجلالة ، وجبل موسى ، ومن ذرى كثبان الصحراء الغربية ، لا يختفى طوال فصلى الربيع والخريف وينأى قليلاً . قليلاً فى فصلى الصيف والشتاء . يلمع عند تمام نضج المحاصيل ، واكتمال خضرة الشجر ، ولمعان عروق المناجم فى ضوء النجوم . وبخلاف النجوم كلها ، يمكنك تحديد موضعه وضوئه القانى عبر السماء الغاصة بالأفلاك ، وهنا أحاول أن آتيكم بقبس مما يختص به هذا النجم العجيب بين النجوم ، فى الطعام مثلاً يختص نجم الثريا بالحلاوة . والدب القطبى بالمرارة ، والسها بالحرافة . والشعرى اليمانية بالدسومة ولنجم خالد المذاق الطيب . وفى الألوان ينسب السواد الحالك إلى السها . والبياض المشوب بصفرة إلى الدب القطبى ، والشقرة إلى الشعرى اليمانية وما ينتج عن امتزاج لونين إلى الثريا . ولنجم خالد الحمرة القانية . والزرقة البحرية ، والخضرة الضبابية . وفى الأمكنة ، اختص الدب القطبى بالجبال الجرداء ، والصحارى ، والسجون ، والشعرى بالأراضى الخشنة ، ومواضع النيران ، والقلاع . وللثريا السهول ، والبقاع ، والوهاد غير المأهولة ، وبيوت الملوك والسلاطين ، وللسها الرمال ، والكثبان والأسواق الدائمة، والأسواق الموسمية، والمنازل القائمة على الطرق .

والنواصى المؤدية إلى البساتين . ولنجم خالد ، كل أرض سهلة ، والمدقات ، والمكان الندى ، والصفاف . كذا الأبنية العتيقة . وفى الطيور يختص الدب القطبى بالكراكى ، والبجع . والنعام ، أما الشعرى فبالديوك والقمارى ، وللثريا طيور المساء ، وطيور الليل ، والسها بالعصافير المهاجرة والأسراب ، أما نجم خالد فله النسر والعندليب والعقاب . ومن مراحل العمر ينسب إلى الدب القطبى الشيخوخة ، والشباب إلى الثريا ، والفتوة إلى الشعرى ، والطفولة إلى السها ، ولنجم خالد العمر الجميل الذى ولى . وفى الأعضاء ينسب الرأس للدب ، والصدر والخصر والاليتين للثريا ، والكبد للشعرى اليمانية ، والذراعين ، وأطراف الأصابع للسها ، كذا الساقين ، ولنجم خالد القلب والشرايين . وفى الأنساب يختص الدب بالأجداد ، والسها بالأشقاء ، والثريا بالأمهات ، والشعرى بالآباء ، ولنجم خالد الأولاد وأولاد الأولاد . وفى الأخلاق الباطنة ينسب للدب اضطراب الرأى ، وللثريا التفكير والتأمل ، وللشعرى الغضب والحمق ، وللسها الزهو والاستقالة والذكاء ، والفطنة ، ولنجم خالد الحلم والثورة . وفى الأشجار يختص الدب بالكافور ، والشعرى بالورد الفارسى ، والسها بالصنوبر والأرز ، والصندل الأبيض ، والثرى بالأبنوس ، ولنجم خالد النخيل والصفصاف . وفى الأصوات . للدب الهمهمة . وللشعرى الحديث بصوت خفيض ، وللسها الهمس ، وللثريا الصياح . ولنجم خالد صرخة المولود الأولى أيها القارئ الحميم . هذا جزء من كل وما أوردته كل من بعض ، فالسر عظيم ارفع البصر حدق إلى الشرق ستراه . لاتمل النظر . ضوءه الواهن سيلفت انتباهك ، وكلما اطلت النظر اتضح لك كنهه واسفر لك عن نتف من سره . واذكر ان هذا النجم الوليد قطرة من دماء خالد الذى خلصك وخلصنى . هذا ما عرفته فى طفوى

ورحيلي عبر الفراغات والفضاءات ، ومما أود قوله ، أنه سيأتي حين من الدهر يهتدي به كل من يسعى في البر ، أو يخوض مياه النيل مسافراً ، غير أن اكتشافه كعلامة ثابتة يحتاج إلى زمن ، وخبرة ، وعلم ، وطول دراية ، ودقة ملاحظة . بالضبط كما انقضى وقت طويل وسنين لا يعرف مقدارها قبل أن يكتشف الإنسان موقع الدب والسها والثريا والشعرى اليمانية وكوكبة العرس وزحل والمشترى وأطراف المجرة ، ها أنا أنبه وأشير ، لا أضن بمعارفي ، ولا أبخل بما اطلعت عليه ، وخصصت به في ذروة محنتي بعد انفصال رأسي عن جسدي . هأنذا أصرخ ، عسى أن يرى أهلي وقومي ما رأيت ، وأن يعرفوا ما عرفت ، وان يهتدوا إلى موقع ذلك النجم كما اهتديت ، فانتبه ياغافل ! .

* * *

موقف الشدة

﴿ ومن شر غاسق إذا وقب ﴾

.. يارب خفف جروحاتي ، أنت السميع العليم ، تمنيت لو طال الحوار واتصل ، لكن خالد ارتفع ، خلف عندي الرضا والامتلاء والشبع الغريب . عرفت ان قدراً من الرحمة لحقني ، وانني قد لا أخلد في عذاب الندم الشديد ، جعلني الله وجعل القراء والسامعين من أهل الرحمة الخالصة ، آمين . عرفت ان

ما حل بي من نعمة موقوته ترجع أسبابه إلى زمني الدنيوى ، وان لم أقف على تفاصيله ، وان وعدت انني سأطلع عليها فيما بعد . هذا لحكمة خفية ، ضممت جهلي فى رأسي ، واستسلمت لطفوى ، تتبدل عليّ الأحوال ، أميل مع كل ريح صرصر ، وأتهدهد مع كل نسمة ، حتى رأيت من علٍ شاهق الزمن السحيق ، فدرت فى الفراغ ، وأوتيت البصر الحديد ، ها هو أبي وعبد الناصر يسعيان فى صحراء قريبة من نهر الفرات ، معهما جمع لم استطع ان أحصيه ، غير أنه لا يتجاوز العشرات ، أمكن لى تمييز بعض الملامح ، فرأيت صاحبي الذى استشهد ظهر الجمعة ، ورأيت « مازن أبو غزالة » ، وجمعاً من صحبه استشهدوا بعده ، بعضهم طبعت صوره ، وألصقت على الجدران ، ثم نزعت فى بلادى عندما أصبح العدو صديقاً وجاءت وفودهم تترى بغير قتال ، لمحت اصحاب بخالد الأربعة ، ألقى فى معارفى انهم قاموا بجهد جهيد ، بذروا الندم فى نفوس القوم ، وحركوا الضمائر التى ماتت ولم تتحرك لنجدة الحسين ، وان الندم تحرك وقوى ، قام نفر هنا وهناك يطالب بدم الحسين ، والثأر له ، لم أدر إلى أين وجهتهم ، هل يقصدون شخصاً بعينه ، أم أنهم يسعون خلف جماعة من قتلة الحسين ، خاصة وان عبد الناصر حدد اسماءهم ، وعين أماكن تواجدهم ، وبث العيون فى أعقابهم ، ورصد سكناتهم وحركاتهم وتتبع مواطئ أقدامهم ، حتى يسهل الانقضاض على كل من رمى الحبيب بسهم أو صوب إليه مقلاعاً أو أصابه بجرح ، هو وأهله وصحبه ، أما أبي فسعى إلى كل من خذل الحبيب ، أوقد فى الصدور ناراً بطيئاً اشتعالها صعباً إخمادها ، وكان ذلك بداية ندم القوم واحزانهم على خذلانهم الحسين ، وعلى مصرعه حتى يومنا هذا ، وإلى ان يحين الحين . لاحظت بدء نزول الليل ، حمت فى عتمته حولهم ، تعرفت بحاسة شمى إلى رائحة أبي ، فاستعدت من جديد مرات عناقنا

النائية ولحظات قربنا ومرات صفائنا ، رأيت يدى اليمنى تسوى وتمهد الأرض الخشنة لمرقده أما يدى اليسرى فتهش عنه وعن صحبه هوام الليل . وكان ذلك غريباً مستحدثاً علىّ . أن أرى عضواً من جسدى لا يأتمر بأمرى ، ولا يتحرك بإشارات خفية منى ، غير موصول بى ، مقطوعاً ما بينه وبينى ، ما بينى وبينى ، حمت فوقهم أرقب أخطار الليل لعلى أحذرهم ، أو أنذرهم ، كيف يصلهم صوتى ؟ هذا مالم أعلمه . غير أننى قلت : ربما أتت النوايا بالوسائل . ولما دنا الصبح وانجلى قام عبد الناصر فحمد الله كثيراً واثنى عليه ، وبعد صلاة الغداة قام خطيباً فى جمعه ، فقال بصوت حزين ، ونبرات ثكلى ، ذكرتنى بظهوره ليلة الثامن من يونيو ، وكانت مساء خميس ، وإعلانه الهزيمة ثم التنحى ، ها هو يبدأفيقول :

«إن الله أذن فى فراقنا هذا اليوم فعليكم بالصبر واحتمال الشدة ..»

ثم صفهم للحرب ، فكان تعدادهم سبعين ما بين راكب وراجل ، وخيل إلى أنهم دون ذلك ، جعل مازناً فى الميمنة ، وحُسَين صاحب خالد فى الميسرة ، وأعطى رايته لأبى ، ثم أمر بحطب وقصب ان يترك فى موطئ من الأرض يشبه الخندق مخافة أن يأتوهم من ورائهم . فنفعهم ذلك . ومن النقطة التى تعلقت بها فى الفراغ حملقت دهشاً ، مشمئزاً ، إذ رأيت من لا أطيق ذكره ، من خلف عبد الناصر فى حكم مصر ـ لعنه الله ـ ، أقبل فبقى فى الخلف ، جباناً كعهده فى عمره ، يدبر ويدفع بغيره لينفذ ، وفى الوقت الملائم ينجو بنفسه ، كان فى عدة آلاف من الجنود ، وخدام الاحتكارات الأجنبية ، جنود يرتدون الحرب فى زمن ابن معاوية قاتل الحسين . وجنود يرتدون الزى الخفى للموساد ، ومقاتلين من قوة الانتشار السريع الأمريكية ، ومرتزقة مجهولى الهوية ، وأرباب بنوك ، وأصحاب شركات للمياه الغازية ، ومقاولين ،

وسماسرة ، وتجار آثار ، وكانوا يرفعون راياتهم ، وعليها اعلانات عن اجهزة تكييف للساخن والبارد ، وثلاجات ذات بابين ، وسيارات ، وعباءات حريرية ، وطائرات حربية تستخدم فى أربعين جيشاً ، وطلاء جديد للأظافر النسائية ، وماكينات حلاقة كهربائية وراية تعلن عن فوائد مصرفية . رام مازن أن يرميهم بسهم فمنعه عبد الناصر قائلاً : اكره ان أبدأهم بالرمية الأولى . ولما نظر إلى جمعهم كالسيل ، إلى سلاحهم ، وإلى لافتات صوتية تطالبهم بالاستسلام ، وصوت مذيع إسرائيلى يعلن فى مكبر صوت يدوى : قف وفكر ، سلم تسلم ، سنضمن لك جرعة ماء ، وطعاماً ، وأدوية ، رفع عبد الناصر يديه بالدعاء وقال : اللهم انت ثقتى فى كل كرب ، ورجائى عند كل شدة ، كم رأيت من كرب يهن فيه الفؤاد وتقل فيه الحيلة ، ويخذل فيه الصديق ، ويشمت فيه العدو ، انزلته بك وشكوته إليك رغبة منى إليك ، لم أكن أدرى أن هؤلاء كانوا يجتمعون على النيل منى ويتوحدون على قصد واحد ، وهو القضاء على ، ومحو أثرى ، وتشويه سيرتى . وقد كنت غافلاً عن ذلك الذى يقودهم ، أنا من دفعته حتى وقف بجوارى وعينته نائباً لغيبتى وحضورى ، وأعترف بعد فوات الأوان ان الغشاوة غطت عينى حيناً من الزمن ، وكان الثمن الذى دفعته وسفحته بلادى وامتى باهظاً ..

يسود صمت للحظات ، يزعق بينهم زاعق ، وإذا به ضابط اسرائيلى يرتدى غطاء الرأس القرمزى الخاص برجال المظلات ..

هل فيكم إبراهيم الرفاعى ؟.

يصيح أبى مجيباً ..

نعم .. هذا هو .

ويشير إلى صاحبى الذى استشهد ظهر الجمعة التاسع عشر من أكتوبر ..

يزعق الضابط الأسرائيلى ..

هل فيكم إبراهيم زيدان ؟.

يجيب أبى :

نعم .. هذا هو ..

ويشير إلى صاحبى الذى استشهد فوق التبة رقم سبعة شرق القناة . صباح الأربعاء العاشر من اكتوبر ..

هل فيكم إبراهيم عبد التواب ؟

نعم .. هذا هو ..

يشير أبى إلى صاحبى الذى استشهد يوم الرابع عشر من يناير بعد مائة وأربعة وثلاثين يوماً من الحصار فى موقع كبريت شرق القناة ..

يضحك الضابط الاسرائيلى ، يضحك ، يضحك .

لماذا حاربتم ؟ لماذا دربتم ، وجاهدتم ، لماذا قُتلتم ؟ أعلامنا فى فضاء بلادكم ، وجنودى مروا أمام بيوتكم ، والتقطوا الصور التذكارية عند قبوركم ، وغازلوا بناتكم ، أما أنتم فقد نسيتم ولن يقوم ذكر لكم .. بل إن اياماً لم تشهدوها يخشى بنو وطنكم فيها الاشادة بكم ، أو التلميح إليكم .

يزعق أبى ..

سأحرقك حرقاً ..

يردد المذيع الأسرائيلى :

قف وفكر ، سلم تسلم .

يقول أبى ..

اللهم خذه إلى النار ..

يندفع ضابط المظلات الإسرائيلى راكباً فرساً ، كان بينه وبين أبى أرض

واطئة فعثر الفرس بحجر فتعلقت قدمه بالركاب ، أخذت الفرس تصرب به كل حجر وشجر حتى مات فوق ربوة يقف إبراهيم الرفاعى ، أراه مهموماً ، يداه تلامسان خصره تماماً كما عهدته فى أيام الحرب الطوال ، غير ان ضيقاً يجعل ملامحه غريبة عنى ، هاهو يقترب من أبى ، يسأله ..

أصحيح ما ذكره ذلك الضابط الاسرائيلى ..

أبى واجم ، تنزل به حيرة ، لا يدرى ما يقول ، ينظر الرفاعى إلى جثة الضابط الاسرائيلى وبه غموض . قال ريتشارد آلن ضابط الاستخبارات الأمريكية وكان أحد الذين شهدوا ذلك الموقف : كنت فى أول الخيل التى تقدمت لحرب عبد الناصر وصحبه ، وكنت معيناً كواحد من الحرس الخاص ، تقدمت لعلى أصيب رأسه فأحظى بعلاوة أو ترقية . فلما رأيت ما جرى لضابط المظلات الاسرائيلى تشاءمت ، وتذكرت الجسارة التى بدت عند منصة العرض بعد ان أكدت لنا التقارير أن قومه وهنت عزائمهم ، وانهم انشغلوا بلقمة الخبز اليومية عن كل ما عداها بعد أن صيرناها عزيزة المنال عندهم ، خف حماسى ، تراجعت ، لن أزج بنفسى حتى لا ألقى ما ألقى .

ورأيت شيخاً جليلاً ، مهيباً ، قاهرى المولد ، والنشأة والممات ، وهو أستاذى ، عظيم القدر ، صاحب الشرف ، والقدر ، والهيبة ، هو من نصحنى بالتجلى ، لأن النائم يرى ما لايراه اليقظان . تقدم ابن إياس من عبد الناصر ، طلب منه الاذن بالكلام ، فأذن له .. يتقدم ، ثم ينادى .

« . يامعشر القوم ، انكم تنقادون لأرذل الناس ، وأحطهم شأناً وقدراً ، من لم أعرف مثيلاً له بين من عرفت ، لو عنده عشر مقدار ما لدى أجبنكم من الشجاعة فليبرز الآن ، إنه يسمعنى . أيها الجلف ، الداعر ، الجافى ، ألم تكن تهرع إلى عبد الناصر جاثياً ، ألم تجبن عن ملاقاته منفرداً ، وعن الاتصال به إلا

من خلال وسيط ؟ هل خاطبته يوماً باسمه مجرداً كما ادعيت ؟ ألم تهلل لكل ما بدر منه ، ولكل ما أسفر عنه ؟ ثم ولاك فاستخلفت فقلبت وتنكرت ، وعاديت الفقراء والمعدومين وكل من كد لأجلهم ؟ حرضت ضده ، وضد مبادئه ، وهو غائب لا يستطيع رداً أو دفعاً ، وفرطت فيما فرطت ، وهذا لم يتفق مثله لخاير بك سلفك الذى سلم مصر المحروسة إلى العثمانيين . لم ترع للدماء هؤلاء حرمة ، ولم تصن لهم ذكرى ، والآن تجيء متخفياً مختبئاً وراء عدد وعدة ، وهم يولون وجوههم تجاه الثأر لابن بنت رسول الله ، تمنع عنهم ماء الفرات كما منعه قتلة حبيبنا ومولانا . تحول بين الماء وبين هذا الجمع شريف المقصد ..

يهز الرفاعى رأسه أسى وحسرة ..

إذن ما قاله الضابط الإسرائيلى صحيح .. متنا بلا دية ..

يردد المذيع الصهيونى ..

قف وفكر .. سلم تسلم .

يصيح شبث بن ربعى أحد قتلة الحسين مخاطباً ابن إياس ..

اسكت أيها الشيخ الخرف ، قد أكثرت من الكلام فاكفف عنا ، ألم يكفك ما دونت فى كتبك المهجورة التى لا يقرؤها أحد ، والله ليعطش الجمع كما عطش الذين قبلهم .

يرتفع صوت ابن إياس .

لاسقاكم الله يوم القيامة .. بئس القوم أنتم ..

يأمر الجلف الجافى برميه ، يصيبه سهم فى كتفه ، يجرح ابن اياس .

رأيت أبى يصرخ ..

يا أتباع قتلة الحسين ، يا عبيد الأمة ، يا شذاذ الآفاق ، يا عسس ، ياسماسرة ، ياقتلة أولاد الأنبياء ، والله ان الغدر فيكم لقديم ياأخبث ثمر ..

يسأل ولیم کیزی مدير المخابرات المركزية ..

من هذا ؟

قيل لى انه رجل فقير ، لم تنشر الصحف اسمه ، ولم ير فى حفلات الاستقبال ، ولم يمش فى جنازته علية القوم ، لم يتقدمها مندوب من رئاسة الجمهورية ، أو باقات زهور ، لم يمسك طيلة حياته بالدولار ، كما أنه لم يعرف التوكيلات السياحية ، ولم ير البحر إلا مرتين عندما سافر إلى مدينة الإسكندرية فى مهمة رسمية ، ولم يجلس ساعة متصلة فى غرفة مكيفة الهواء ، ولم يرتد إلا ملابس مصنوعة من قماش محلى .

يقول موشى ديان ضاحكاً .

انحارب جمعاً فيه مثل هذا ؟ ، إنا لمنتصرون ..

يردد المذيع ..

سلم تسلم ، أمامك الحياة الهينة فلا تكن من الهالكين ، من دعوكم تخلوا عنكم ، من وعدوكم بالمؤازرة خذلوكم ، أنتم محاصرون من جميع الجهات ، ولا أمل يرجى لكم ، أيها المحارب . قف وفكر الق برمحك ، حطم سيفك .. سلم سهامك ..

يتقدم أبي حاملاً الراية ، يمسكها بيد ، ويشهر سيفاً باليد الأخرى ، انه أول من برز إلى الحرب ، قاتل قتالاً شديداً حتى قتل نيفاً وأربعين رجلاً ، تكاثر الجمع عليه ، رأيت نصلاً يصيب ساقه ، وعرفت عندئذ أصل تلك الندبة الغائرة فى ساقه اليمنى ، والتى تأملتها طفلاً ، وتحسستها عندما كنت أقعد أمامه ، يداعبنى وأداعبه ، وتأملتها كبيراً عندما كان جلبابه ينحسر قليلاً ، غير أننى كنت أحيد ببصرى فلا استفسر ، تلك الندبة لابد وانها اختفت الآن بعد ان دب البلى إلى جسمه فى القبر ، وضاعت ضمن ماضاع إلى الأبد من ملامحه طرت

مرتفعاً ، وطرت منخفضاً ، وعندما انجلى الغبار رأيت الراية فى يد صاحبى إبراهيم عبد التواب ، لم أقف لأبى على أثر ، شغلت بالبحث عنه ، لكننى لم أره ، وعجبت ، وان كان عجبى الآن أخف عن ذى قبل لكثرة ما رأيت ، وغرابة ما جرى لى ، أقول أيها المتلقى الفطن انه ألقى فى فهمى اننى سألقى أبى مرات أخرى . وان هذا ليس آخر عهدى به ، وان ما أشهده وما شهدته ليس بالمحط الأخير ، فالترحال مازال ممتداً ، وعلم مداه عند ربى ، سبحانه ، لا أشرك به أحداً. طمأننى إدراك ذلك. وعددته من علامات الرحمة بى، والرفق بحالى، مع إننى مجتث الرأس من القفا، لاجسد لى، دمى يقطر، فيختلط بالغيوم والشفق، والضوء الذى يسبق شروق الشمس، ويندمج بقوس قزح، لم أدر كيف سألقى أبى، هل سأقابله كما قابلته من قبل، أم أننى سأحوم حوله، يفصلنا بعد، ويمنعنا نأى، وأنا مغموس فى الغربة، أنظر إلى مايجرى، فأرى خروج مازن «أبو غزالة» قاتل كالليث حتى قتل. يدعو له عبد الناصر..

اللهم ارحمه ، وادخله الجنة

يخرج إبراهيم زيدان ، ادقق النظر محاولاً متابعتهم ، غير أننى لم أقدر ، علا التراب ، وسال الدم ، أرى رشق السهام كالمطر ، اصغى إلى عبد الناصر يقول لصحبه ...

قوموا رحمكم الله إلى الموت الذى لابد منه ، فإن هذه السهام رسل القوم إليكم ..

يخرج القائمقام محمد عبيد ، وفرّان مجهول الاسم قتل فى شارع مراسينة بمنطقة السيدة زينب خلال ثورة العام التاسع عشر بعد الألف والتسعمائة .. يقولان لعبد الناصر..

السلام عليك يا أبا خالد ، انا جئنا لنقتل بين يديك ، وندفع عنك ..

يقول ..

يرحمكما الله ..

استدناهما منه ، فدنوا وهما دامعان ، قال ..

ما يبكيكما يا جنديّ العزيزين ، فوالله إني لأرجو أن تكونا بعد ساعة قريرى العين ، قالا : جعلنا الله فداء أمتنا ، ما على أنفسنا نبكي ولكن نبكي عليك ، نراك وقد احيط بك ، كل من ادعى الولاء لك ولمبادئك يوماً يقف حائلاً بينك وبين الماء ، قال : جزاكما الله خيراً .. قالا : السلام عليك ورحمة الله يا نصير المهضومين والضعفاء ، قال : السلام عليكما ورحمة الله وبركاته ، فقاتلا بالقرب منه حتى قتلا .

وهنا سمعت اريبل شارون يقول للجلف الجافي : أتدرى من نقاتل ؟ إننا نقاتل فرسان العصر وأهل البصائر وقوماً مستميتين ، لايبرز إليهم أحد منا إلا قتلوه على قلتهم وصعوبة احوالهم ، ظننت ان ظهورنا المفاجئ الصاعق سيقضى عليهم ، ظننتهم سيستسلمون .

ثم حمل الجنرال موشى ديان على ميمنة عبد الناصر ، فثبتوا له ، وجثوا على الركب ، وشرعوا الرماح ، فلم تقدم الخيل ، ولما استدارت رشقها اصحاب عبد الناصر بالنبل ، فصرعوا جون فوستر دالاس ، موردخاى جور ، والعزيز هنرى ، ثم حمل جمع من قوات الانتشار السريع على ميسرة عبد الناصر ، وثار من شدة القتال غبار شديد وما ان انجلى إلا ومصطفى أبو هاشم عامل البترول السويسى المنشأ والممات صريع ، وإلى جواره عويس بائع الفجل السريح الأرزق ، ومرجان النوبى ، ومشى إليهم عبد الناصر ، قال : يرحمكما الله . يدنو الفريق عبد المنعم رياض ، يقول : يعز على مصرعكم ! أدعو الله أن يدخلكم الجنة . قال مصطفى أبو هاشم : بشرك الله بالخير ، قال الفريق عبد

المنعم رياض : لولا أنى أعلم ان فى الأثر من ساعتى هذه لأحببت ان توصينى بكل ما أهمك . فقال له مصطفى : إنى أوصيك بهذه . وأشار إلى راية عبد الناصر ، ثم انشد :

نصروك أحـــيـــاء وعــــنــــد مماتهم
يوصى بــنصرتك الشــفــيــق شــفــيــقــا

ثم حمل جيمى كارتر ، فى جمع من أصحابه على أصحاب عبد الناصر ، فتصدى لهم أحمد عرابى ومعه عشرة ، فكشفوهم وقتلوا منهم الكسندر هيج ، وقتل ثمانية من أصحاب عبد الناصر بينهم أحمد عرابى . كان الرجل بعد الرجل يأتى إليه فيقول : السلام عليكم ورحمة الله يا نصير الفقراء ، ونصير الوطن . فيجيبه عبد الناصر قائلاً : وعليك السلام ، ثم يقرأ : « ومنهم من قضى نحبه ومنه من ينتظر ، وما بدلوا تبديلا » ولم ينقض وقت طويل حتى قتلوا جميعاً فيما عدا سبعة وقفوا يذودون عن عبد الناصر الهجمات الأخيرة ، سبعة لاغير ، وهم ماسح أحذية ، قتل أثناء قصف مدينة بور سعيد العشوائى ، ودفن تحت الردم ، ولم يسأل عنه أحد ، ولم يستفسر عن غيبته أحد ، ولم يتحر مصيره مخلوق لأنه كان غريباً ، كذا لم يعثر على جثته فى زمنه ، وغلام يرتدى زياً قديما وعمامة خضراء صغيرة لم أدر إلى أى عصر ينتمى شفيق سدراك ، واحداً ممن عرفت ، ممن استشهدوا يوم السادس عشر من أكتوبر ، كذا رأيت جواد حسنى ، وعصام الدالى . وجندى مجهول الاسم عندى ، ورجل مغربى جاء إلى مصر عابراً وأقام فى زمن بعيد ، سمع بأخطار الفرنجة فخرج مع الخارجين للمغازاة فى سبيل الله . وقاتل حتى قتل . يبرز كل منهم إلى أثر صاحبه حتى لم يتبق إلا الغلام ، فعانق عبد الناصر عناقاً مريراً ، يتقدم راجلاً ، يعترضه الجنرال رفائيل ايتان ، يضربه فيصرعه ، ينادى الغلام ..

يا ابتاه عليك السلام منى ...

تنهمر السهام ، والطلقات الخارقة الحارقة حتى يصير درع عبد الناصر مرشوقاً كالقنفذ ، يبقى مطروحاً على الأرض ملياً ، ولو رغبوا قتله لفعلوا ، يصيح الجلف الجافى من بعيد ..

ويحكم .. ماذا تنتظرون ... اقتلوه ..

تحاملوا عليه من كل جانب . ضربه الجنرال أريل شارون على كتفه الأيمن ، وضربه جون فوستر دالاس على كتفه الأيسر . وضربه رونالد ريجان على عاتقه ثم انتزع مناحيم بيجن الرمح فطعنه فى بوانى صدره . ورماه جيرالد فورد بسهم فوقع فى نحره ، وعندئذ اشاروا للجلف الجافى ، أذنوا له ، فتقدم محمياً بهم ، صدره مغطى بالقميص الواقى ، حول معصمه ساعة تنذره بأى خطر قريب ، وعصا تحوى فيما تحوى جهازاً يطلق مادة مخدرة لمن يريد الاقتراب منه لإلحاق الأذى به . وفيما بعد قالت صحيفة الواشنطن بوست إن حمايته كلفت دافع الضرائب الأمريكى ثلاثة مليارات من الدولارات . هكذا يكون هو أغلى العبيد سعراً منذ أن عرف العبيد ، عندما اقترب من عبد الناصر اعطوه سيفاً ، يغمض عينيه ، يهوى بالسيف فيحتز الرقبة ، عندئذ بدأ القوم سلبه ، فأخذ قميصه الجنرال الكسندر هيج ، واخذ سراويله عثمان أحمد عثمان المقاول ، واخذ درعه مناحيم بيجين ، واخذ قطيفة له كانت من خز امرأة الجلف وزوجته لعنها الله . وأخذ خاتمه الياهو بن اليسار ، واخذ فردة صندل كان يرتديه ذلك المذيع الذى قرأ الانذار تلو الانذار .

كنت أحملق مذبوحاً من الألم فوق ذبحى الفعلى ، ها أنا أسمع وأرى ، ولا أفعل ، لا أقدر ، هذا حبيب اكتملت دورته ، تجرعت الغصص ، فغمرنى حال دونى ودون الرسم عندى ، ينتابنى ضيق ، يلف ما تبقى منى ، غائب

ستطول غيبته عنى ، فلا وعوده ستتردد في سمعى ، ولا صوته سيصرف عنى ترحاً ، ولا ظهوره سيلوح لى ، وعندما تتردد سيرته ، سنقول ، كان هنا يسعى ، وكان هنا يخطب ، وكان هنا يلوح ، وكان يعد .. كان . انتبهت إلى حالى ، وإذا بى ارتفع وأعلو ، رأيت ما بين المشرق والمغرب مجللاً بسواد عقيم ، دققت ، تحققت ، وعندئذ اطلعت على عجب عجاب ، انهن نساء مصر كافة ، من أزمنة متعاقبة ، مختلفة ، من مضارب خيام ، وعشش بوص ، وبيوت من الطين ، أزياؤهن متنوعة ، كذا أغطية رءوسهن ، لكن ما يجمع بينهن أنهن متشحات بسواد قديم ، ينحن ، يبكين ، يتضرعن ، يرثين الليث المولى ، ويجزعن للمركب الموحولة الجانحة ، رأيت جدتى كما عرفتها فى طفولتى ، نحيلة ، طويلة ، تلتحف بالشُقة الصعيدية ، رأيت جدتى أم أبى عمياء لاترى ، رأيت جدة لى عاشت فى زمن بعيد ، رأيت أمى واختى وجارتنا القديمة وامرأتى وزميلاتى وكل من وقعت عليهن عيناى صدفة فى طرقات مدينتى والقرى التى رحلت إليها ، وبائعات فقيرات يفترشن الأرض بجوار الأضرحة ، والمزارات وفساقى الموتى ، رأيت امرأة العزيز ، ورايت شجرة الدر ، ونساء الأحياء البلدية اللواتى خرجن متظاهرات ، رأيت نساء حاسرات ونساء محجبات ، نساء يقرأن ويتحدثن بعدة ألسنة ، ونساء لايميزن الحرف من الحرف ، رأيت نساء خرجن من بطون الحوارى فى تلك الليلة المظلمة التى أعلن فيها عبد الناصر التنحى ، كن حافيات ، يجهلن وجهتهن فى الظلام ، والمدينة الخائفة ، ارتفعت إلى مسافات أعلى فغابت عنى اصواتهن ، عرفت انى رأيت حشداً لم يتفق ان تجمع مثله من قبل فى عالمنا الأرضى ، وانهن لو وقفن صفاً واحداً لأحطن كوكبنا الأرضى سبع مرات عند خط الاستواء ، تمنيت لوجلت بينهن ، لو اصغيت إلى لغاتهن ولهجاتهن ، بعضهاقديم مندثر لم افهمه ، ومنها الذى لم تولد حروفه بعد ،

غير انني نأيت ، ابطأ زمني ، ركلت الحسرة فى فؤادى ، رددت : صبرا على النائبات صبرا . فكرت فى ابى ، اين هو ، اين ؟ عندما كدت اغمض عيني يأساً ، وان أولى بعيداً عن وجودى ، لمحت مولاى وسيدى ، فخفضت جفني لأنى لا أقدر ان اخفض رأسي ، قلت : هلل يا فؤادى وكبر ، مازال أمامى مقدار ما بين الثريا والثرى . انقلبت احوالى ، فعرفت ذرا الفرح الإنسانى ، تمنيت لو أجلت لحظة التلاقى حتى لا تنقضى حلاوتها وتصبح ماضياً لا يمكنني استعادته ، اتجهت إليه على مهل مؤجلاً النعمة ، والصبوة ، شغلنى مرأى وجهه عن كل ما عرفته من كدورات ، حمت حوله ، وعندما أذن لى حططت على كتفه الأيمن ، فبللت ثيابه بدمائى ، لأن عنقى يترف ولم يكف ، استكنت ، وصار من عزائى انى مذبوح القفا مثله ، لم اعن بالسؤال عن مصيرى أو عما سيجرى ، وهل سيلتئم شمل رأسى وبدنى ؟كنت فرحاً برؤياه . حتى أنى صرت رقيقة الوصل بين الخشن واللين . بين الحار والبارد ، بين الحزن والفرح . بين المظلم والمضىء . كنت فى حركة داخلى حتى وسع رأسى المحزوز العالم كله . فلم اطق نفسى ، لقد فهمت البشارة . آويت إلى كتفه كما يأوى طفل إلى حضن أبيه الذى عاد بعد زمن بعيد . نظرت فرأيت جثمان عبد الناصر ، عارياً بلا رأس ، ألقى فى معارفى ان أبى يمشى الآن ، يسعى فى مكان شديد . علت انعم بالقرب واستنشق الشوق من اعطاف الحبيب .. قلت :

الغريب من جافاه الحبيب .

اجابنى سيدى ، سيد ساداتى ..

بل الغريب من واصله الحبيب ..

قلت : أما والحال هكذا ، فاسمح لى بالبكاء على أحوال احدثت هذه الجفوة ، شرعت ادمع ، مردداً ، حسبى الله ونعم الوكيل ..

موقف الجمع

لعل انحدار الدمع يعقب راحة
من الوجد أو يشفى نجى البلابل

.. خالق الأصيل والظل وما بينهما ، فإن شاء حسر ، وإن شاء أسبغ ، فالق الحب والنوى ، فإن أراد جمع وإن رغب فرق ، فاتق الرتق ، فإن شاء قرب وأدنى ، وإن شاء اقصى ، مجيب لدعوة الداعى ، فإن شاء أعطى وإن شاء منع . أوقفنى فى موقف الجمع وأنا ناقص ، وليس لناقص أن يسأل عما ليس بناقص ، كنت رأسًا فقط ، أما الجسد فبعيد ، لا استقرار لى ، ولا جنب عندى اضطجع عليه ، وأصعب أنواع الرحيل عندما يرحل الإنسان داخل ذاته ، فتمر به الدنيا ولا ينالها ، وهذا من عذاب الدنيا ، أوقفنى وليس لى ساقان ، أو ذراعان ، هكذا تم انتقالى من موقف الشدة إلى موقف الجمع ، وهو موقف صعب ، له من أيام الاسبوع يوم الجمعة ، ومن النهار اللحظات الفاصلة بين الثانية والثانية ، ومن الليل لحظة انتصافه ، أنتمى إلى اليوم الراحل أو إلى اليوم المقبل ؟، ومن الشهور فبراير اقصر الشهور عمرًا ، الشهور كلها تسبقه أو تلحقه ، محيطة به إحاطة الأشقاء الكبار بأخيهم الأصغر ، له من الألوان قوس قزح بدرجاته ، ومن الطبيعة اكتمال أوراق الشجر فى الربيع قبل فراق الأغصان الخريفى ، علومه جمة ، فمنها علم اللقاء ، وعلم إضافة الحرف إلى الحرف ليكتمل المعنى ، وعلم وقوف الكواكب على خط مستقيم ، واقتران الشمس بالقمر ، وظهور النجوم وعلم ارجاع الأشياء إلى أصولها ، وعلم الزوال

والحكمة منه ، وعلم كل من عليها فان ، وعلم لا تدرى نفس بأى أرض تموت ولا تدرى نفس ماذا تكسب غداً ، وعلم اللحظات القديمة ، وفيه علم الطول والعرض ، وما ينتج إذا تجاورا ، وعلم نجوى ، وعلم سلوى ، وعلم المولعين بالوصل ، وعلم لحظة استقرار الشعور بالفراق ، وعلم اللحظة الأخيرة التى لن نرى بعدها أحبابًا نعرفهم أو مكانًا ارتبطنا به ، وقضينا فيه زمنًا ، وترديدنا الصامت : وهل سنرى ما رأيناه مرة أخرى ؟ وهل تكون الرجعى ؟، كذا علم اجترار الزمن القديم ، والأشواق المجهولة وعلم الخشوع المطلق عند المرور بالطلل الدارس ، والشجر المجتث ، والمياه التى جفت فى القنوات القديمة . والسواقى العتيقة التى كفت عن الدوران ، والمقاهى التى أغلقت أبوابها وانفض منها السمار والأغراب والعابرون وعلم انطواء الدهر ، وعلم تلامس الشفاه التلاقى بينه وبين حبيبه . وأما العلوم التى تخصنى فى هذا الموقف فعديدة ، منها علم ضعفى وقلة حيلتى . اعلم أيها المتلقى الفطن أننى ضعيف . أضعف مما تتصور ، وأرق مما تتخيل ، وقلبى لا يقوى على استعادة الزمن القديم ، وعشقى الذى لن يعود ، كما لا أقدر على وصل وريقة شجرة بغصنها الذى انفصلت عنه ، ومن علومى علم الفرق بين نهار اتوقع عند انتهائه رجوع أبى إلى البيت ، أو مجيئه إلى بيتى ـ عندما أصبحت ربًا لبيت ، وصرت أبًا بدورى ، ومرورى بمبنى الوزارة وأنا أعرف أنه فى مكان ما منه ـ وبين نهار أعرف أنه سينقضى وأننى لن أراه أبدًا ، ويقينى أننى لن اسمع خطواته فوق السلم ، ولا طرقاته فوق الباب ، كذا علم نسيان الأصوات ، مذاقها ، وترددها ، تلك الأصوات التى قضينا زمنًا نصغى إليها ، ونحاورها ، وبعد غيابها يخيل إلينا إنها معنا وأنها لن تغيب قط . حتى تجىء اللحظة التى نكتشف فيها فجأة أننا لن نستعيدها أبدًا . أننا نسيناها. أنها غابت إلى الأبد ، وأن ترددها من حين إلى حين فى الذاكرة الإنسانية لن

يدل عليها قط. تذكرت النعمة التي حلت بي عندما مررت بمنزل الأصوات الباقية. لكنها نعمة موقوتة شأن النعم كلها، هذه علوم جمة، لو افضت فيها وشرحت فسأطيل وافصل، وهذا يرضيني، ويهدئني، لكنني أخشى عليك الملل أو الضيق أيها المتلقي عني، لذا سأتجاوز واحدثك عن رحيلي في هذا الموقف إلى زمن لم أولد فيها بعد، زمن لم استنشق هواءه، ولم تقع عيناي على فراغاته، وفضاءاته، سبح رأسي في ثلاثينيات قرننا العشرين هذا الذي ولدت فيه، وربما أموت فيه، لا تدري نفس بأي أرض تموت، رأيت رؤيا سررت بها، إذ أنها لم تتحقق لغيري، حلقت في فضاء ميدان الحسين القاهري، وكنت أرى ولا يراني أحد، درت حول المئذنة النحيلة الرشيقة السامقة، سددت بصري إلى الدكاكين والمقهى القديم، فرأيته هو، رأيت أصلي، ورأيت الجذع الذي تفرع منه غصني، رأيت أبي، الحبيب القريب الذي نأى، وبذهابه وموته مات جزء من عمري قد يكون أطول وأغنى وأعمق من الجزء المتبقي، مات جزء من تاريخي، ليس للإنسان إلا ما سعى، بالأمس نسيت وغداً أنسى، صرت مقطوع الجذر، والريح يمكنها اقتلاعي، صرت متأهباً للدوران الدائرة علي، وتمكن النائبة مني، ولم أعد ما كنتُ غير بعيد، رأيت أبي الذي لن اصغي إلى صوته في حياتي الدنيوية المتبقية، ولن أحاوره، إذ ولى زمن المؤانسة وراحت أوقات الغبطة برؤيته، خاصة زمن طفولتي، وقد كنت أبتهج في بادية سنيني، وأصير قرير العين، ناعم الأحلام، مطمئناً لمجيء الغد، عندما أنام إلى جواره، وافتح عيني في الصباح فألقاه بجواري، ويزداد فرحي عندما أعلم أن اليوم عطلة وأنه باق معنا، لكن لما يبست وشببت واشتد عودي، ولّى زمن القرب ولم أعد أنام إلى جواره، ليت العهد يعود، ليتني أنعم بجواره، بالحديث إليه، ليته أذن لي بلقاء، أقول ذلك وأنا أراه من موضع

تحليق ، واتابع خطوه أثناء عبور الميدان ، أراه فى لحظة يستحيل على غيرى أن يراه فيها ، إنه قادم من موقف الشدة حيث كان يحمل الراية ويشهر السيف اليمانى ، رأيت الندبة فى ساقه لم تلتئم بعد ، حدقت فتبينت غباراً يتخلل شعره ، ذرات رمال من تلك الصحراء التى حوصر فيها مع صحبه ، عرفت من أين جاءت هذه الذرات لكننى لم أعرف إلى أين ستمضى بعد مفارقتها لرأسه ، وهنا أوتيت كشفاً مناسباً للموقف فرأيت هذه الذرات وقد توزعت على سبعين موضعًا من الدنيا بعد مفارقتها لرأسه وبعد رحيله الأبدى ، لو ذكرتها كلها ، لو احصيتها للآن لاستوعبت مجلداً يصعب حمله ، احطت برحلة كل منها ، عرفت كيف وصلت كل ذرة إلى الوضع الذى وصلت إليه ، انتهى الكشف وحططت فوق شرفة المئذنة الدائرية ، ومما خصصت به قدرتى الاحاطة بعدة أشياء فى وقت واحد ، كأن أصغى إلى أحاديث عدة وأميز كلا منها ، أو أرى ما يجرى فى مكانين متباعدين أو أكثر ، ها هو أبى يقف أمام مقهى العجم ، إنه مقهى قديم اندثر فى خمسينيات قرننا العشرين . وموضعه الآن فى زمنك أيها المتلقى عنى مجموعة من الدكاكين تتغير المعالم ، وتتبدل المبانى ، لكن الأرض التى عرفت وقع خطاه هى هى ، كم من أماكن تردد عليها ، وكم من أبواب طرقها ، وحشايا استند إليها ، ومقاعد ودكك جلس فوقها ، ثم زالت ، تفككت ، تفرقت أجزاؤها ، وددت لو تعقبت أثر كل ما لامسه أبى ، أو وقعت عيناه عليه ، لعل شيئًا ما يحتفظ بأثر غامض منه ، لم تتحقق رغبتى ، لكننى تلقيت وعداً جميلاً باحتمال وقوع ذلك ، عندما يحين الوقت والموضع المناسبان ، ها هو يتردد ، لا يدخل المقهى ، لو جلس بمفرده سيطلب كوب شاى أو فنجان قهوة ، سيكلفه ذلك خمس مليمات ، وهو فى حاجة إلى المليم الواحد ، فمنذ أمد وهو بلا عمل ، منذ أن فارقت يداه راية عبد الناصر ، منذ أن رحل عن

تلك الموقعة بطريقة ما ، وقع عليه الاختيار ليبقى ، وليقص ما جرى على أجيال متعاقبة ، وفى أزمنة متباعدة ، حتى لا يضيع ما جرى كما ضاعت أمور جمة ، غير أنه الآن بلا مورد رزق ، منقطع ، وحيد ، ومدخره القديم ينفد ، والأمانى الكبار تخف ظلالها ، والعمر يجرى ، ها هو يلمح احد أقاربه ، إبراهيم ، وإبراهيم هذا عرفته فى صغرى ، وفى كبرى ، يمت إليه بصلة قرابة ، كان آخر من زاره أبى ليلة الثلاثاء ، ليلة الثامن والعشرين من أكتوبر ، يتشجع أبى فيدخل المقهى ، يصافحه إبراهيم ، يسأله عن أحواله ، يقول أبى إن الدنيا كلها مغلقة فى وجهه ، يقول إبراهيم إن الفرج قريب ، يقول إن خلف بك سيأتى ، ها هو خلف بك يصغى إلى أبى ، أبى مطرق ، وإطراقته هذه واحدة من اطراقات عديدة أدت إلى تغيير بعض مما تصور أنه لن يتغير ، وإلى وهن ما تصور أنه لن يهن أبداً ، اطرقات متفرقة ، كل منها وقعت فى زمن ، شعر ببعضها ، ولم يشعر بالأخرى ، لم يلحظ ترابطها ، وتتابعها ، وتأثير كل منها . بحيث أدت إلى وضع لم يتوقعه ، وتراجع عن نوايا لم يتصوره . إنها تلك اللحظات التى تمر بنا ، ولا ننتبه ، لكن بعد حين طال أو قصر يحدث التغير ، يصبح الإنسان ليس هو ، مع أنه هو هو ، لم يتغير ولم يتبدل ، ها هو يدارى خوفه وقلقه بينما باطنه يأمل وتلك أحاسيس شتى جهلناها ولم نطلع على مكنونها ، ولم نقف على أسرارها ، كذلك هذه اللحظة بعينها ، وقد عاودت أبى مراراً ، وكانت آخر مرات استرجاعها يوم الأحد الموافق للسادس والعشرين من شهر أكتوبر. ومن الأمور العجيبة التى وقفت عليها أنه استعادها فى حضورى مراراً . لكننى لم ألحظ ذلك ولم أنتبه ، وأنّى لى أن أقف على سر العلاقة بين تغير ملامحه الذى يكاد لا يرى أو يرصد ، وبين ما يجول فى خاطره ، وهذا علم قائم بذاته ، غامض ، وأسراره بلا حصر ، والعجيب الغريب أن أبى

أثناء استعادته لهذه اللحظة كان دائمًا يخشى ألا تنتهى به إلى النتيجة التى انتهت إليها فى ذلك الزمان البعيد . وقد عرفت يا أحبائى مثل هذا الشعور مع فارق فى الموقف . حدث أثناء سهرى عند صديق حميم ، دعانا ذات ليلة إلى العشاء ، ثم جاء بجهاز العرض ، رأينا ستة أفلام متعاقبة ، رأينا العربة التى تجر المدفع عيار ١٣٠ ملليمترا ، تتوقف فى مواجهة المنصة ، ونزول خالد منها ، وعودته الخاطفة ليتناول مدفعه ثم تقدمه الجسور ليفنى الزمن الخسيس ، ليقضى على الجلف الجافى ، ليثأر مما جرى ويجرى ، وما وقع منه فى موقف الشدة عندما منع الماء عن الداعين إلى الثأر من مقتل مولانا وسيدنا ، وفى كل مرة نرى فيلمًا جديدًا ، وتتوقف العربة ، أخشى ألا تنتهى اللحظات إلى ما انتهت إليه ، أخشى أن يعاق خالد ، ألا يتم ما بدأه ، وكأنى أعيش وقوع الحدث نفسه بدون معرفة نتيجته . ها هو خلف بك يصغى بوجه جاد الملامح شأن من يقبض بيده على سلطة ، ومن يقدر على تقرير أمر ، بعد أن اصغى طلب ـ بدون النظر إلى أبى ـ أن يكتب طلبًا ، وأن يأتى به ، لعل وعسى ، يرفع أبى صوته بالدعاء ، ينصرف ، أراه فى مكان قريب يمسك ورقة بيضاء . إنه حائر ، لابد أن يلحق بخلف بك قبل ذهابه ، تلك فرصة قد لا تسنح مرة أخرى . لكن من يكتب الطلب ؟ لو .. لو أنه تلقى قدرًا من التعليم . لو التحق بالازهر ، ليس من اللائق أن يطلب من خلف بك كتابة الطلب له ، عند هذا الحد وقع عجب ، ومع أن العجائب تواردت علىّ حتى لم أعد أعجب لشىء ، إلا أن ما جرى اذهلنى وأنا رأس مقطوع بلا جسد ، لكننى رأيت جسدى يمضى أمامى ، أمام أبى ، يتصل برأس ليس هو رأسى ، ويحمل وجهًا ليس وجهى ، وعندما دققت النظر تخايلت لعينى ملامح عبد الناصر ، لكننى لم أثق أنه هو ، غير أننى تأكدت من جسدى ، إذ كنت أشعر به وأنا فى مرقدى على حافة الشرفة الدائرية لمسجد

الحبيب المتزه ، والشفيع الأوفى ، تلك يدى ، وهذا صدرى ، هذه اصابعى ، أدركنى شوق نادر ، شوق من نفس إلى نفس ، لفتنى وحشة ، وحن رأسى إلى جذعى ، ورقت هامتى لجذرى ، وهذا شعور خصصت به ولم يتفق وقوعه لأحد من بنى البشر ، حتى لمشايخى الأجلاء ، إذ أن أحدًا منهم لم يقف مثل موقفى ، ها هى قدماى تخطوان على مقربة من أبى ، يسعى تجاهى ، يطلب السماح بلحظات قليلة من الوقت الغالى ومساعدته على كتابة هذا الطلب من سطور قليلة ، عندئذ امتدت يدى إلى جيب تلك الثياب التى كانت تستر جسدى تناولت قلمًا ، نزعت غطاءه ، وفوق منضدة مستديرة من نحاس أمام دكان يبيع الخرز الملون ، والخزف العتيق ، بدأت يدى اليمنى تكتب الطلب الذى أخبر أبى عن مضمونه شفاهة ، فخطت يدى التى بمعزل عنى ، ما نصه ..

السيد صاحب العزة والمعالى وكيل وزارة الزراعة .

تحية طيبة ،

أتقدم إلى معاليكم ، راجيًا مساعدتى فى الحصول على عمل باليومية كعتال ، حيث أنى رجل فقير وأعول أسرة كبيرة .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

مقدمه لجنابكم

.. تمتد يدى بالقلم ، يتناوله أبى ، على مهل يوقع ...

أحمد الغيطانى

تأثرت بالصيغة البسيطة والكلمات القليلة ، كما أنى فوجئت بشىء لم أعرفه

أبدًا ، وما أكثر الأشياء التى لا أعرفها عن أبى ، آه يا أسفى ، ولم أكن أيها المتلقى الفطن جاحدًا به ، لا والله العظيم ، لكنه زمنى القبيح ، وغفلة الطبيعة الإنسانية ، عرفت أن أبى تقدم للعمل كعتال ، وأنه قضى زمنًا يحمل أجولة بذور القطن فى قسم البذرة . وقد كنت أعرف دائمًا أنه ساع يحمل الخطابات ويفرقها ، هذا واقع حقيقى لكنه لم يبدأ ولم يتحقق إلا بعد عمله أربع سنوات فى قسم البذرة ، وهذه الحقيقة موقعها علم تواضع الآمال ، وهو علم يخصنا كلنا ، أما ما يخص أبى منه فكثير ، وقد تواضعت آماله بعد التحاقه ، وبعد زواجه ، صار انتقاله من عمله كعتال يحمل الأجولة إلى ساع يفرق البريد أمرًا يستحق المجاهدة ، وأشد أهمية من التحاقة بالأزهر . أمنيته الأولى ، وهنا معانٍ عديدة يتضمنها هذا العلم وقفت على بعضها ، فمن ذلك أنه ليس كل من مد يده نال ما يطلب ولا كل من نام حلم بما يريد ، ولا كل من ادعى سلم له بدعواه ، ولا كل من دعا اجيب ، ولا كل من وصل ود ، ولا كل من بكى أرضى ، ولا كل من منع خاب ، ولا كل من سبح غرق ، ولا كل من خُوف ارتعد ، ولا كل من أومن اطمأن ، وفى موقعى هذا استعدت أمرًا جرى قبل أن يجرى ، وتم قبل أن يبدأ ، إذ جال برأسى عندما ذهبت إلى الوزارة ، وصعدت مع شقيقى الأصغر إلى قسم التحقيقات القانونية ، مررت بالطرقة التى كان يجلس فيها ، دخلت لأنهى اجراءات صرف المعاش لأمى ولشقيقتى التى لم تتزوج بعد ، جلست إلى مكتب أحد الموظفين ، والحق أنهم قابلونى بالرحمة ، وغضوا البصر عندما ذرفت دمع الحزن ، بعد أن رأيت جدولاً يضم اسماء عاملين استحقوا مكافأة ، كان اسم أبى مدرجًا ، إلا أن خطا طويلاً بالمداد الأحمر انطلق امامه يسد جميع الخانات ، وينتهى بعبارة تقول إنه توفى فى ٢٨ / ١٠ / ١٩٨٠ ، قلبت الأوراق فى ملف الخدمة ، طلبت إجازة ،

وكشوف ، وتوقيعات أبى ، وقعها فى أيام شتوية باردة ، وأيام صيفية ، فى أيام ممطرة ، وأيام صافية ، فى الصباح وعند الظهيرة ، وعند المساء ، وهو حزين ، وهو فرح ، وهو يفكر فينا ، وهو خلى البال ، وقلبت الأوراق ، حتى وقعت عيناى على أول ورقة بالملف ، استوقفتنى ، إنه خطى ، الطلب الذى كتبته يدى أثناء انفصال رأسى ، وتفرق جسدى ، تأثرت بالصيغة البسيطة ، رأيت لحظة من لحظات أبى ، هذا الطلب البسيط إحدى المقدمات التى أدت إلى وجودى الدنيوى ، قرأت ما عليه من تأشيرات ، توقفت عند تأشيرة بقلم أحمر انيق الخط ، « يعين بأجر يومى قدره خمسة قروش » ، خمسة قروش صاغ ، عدت إلى موقفى هذا ، استدعيت ما لم يقع بعد ، رأيت الطلب بعد رحيل أبى . ولون الحبر القديم ، والورقة البيضاء التى اصفر لون اطرافها ، تستقر الآن فى موقع مجهول لى ، خزانة حكومية عتيقة ، أو مخزن فى طابق أرضى ، رأيت أبى فى الوزارة ، أيام عمله الأولى ، ها هو يستجمع همته ، وقواه ، رأيت ساقيه ترتجفان تحت ثقل الاجولة ، تتوتر عروقهما ، يزداد باطنهما التصاقًا وقربًا من الأرض ، وكان بمقدورى تحديد وتمييز هذه المواضع التى توقف عندها لحظات عابرة ليحكم وضع حمله الثقيل على ظهره . كان يضع طرف جلبابه الإمامى بين أسنانه ويرفع يديه إلى الخلف بينما يرقد الجوال الملىء بالبذرة فوق ظهره المنحنى ، عند حد معلوم تبدلت ساقا أبى بساقىَّ أنا ، كذا تبدلت سلسلة ظهره بدءًا من فقرات العنق السبع وحتى العصعص ، صار ثقله ثقلى ، وأنينه أنينى ، وألمه المكتوم ألمى ، وارتجافه ارتجافى ، وقد وجدت ذلك عظيمًا خاصة وأن آهة واحدة لم تصدر عنه ، حتى لا يظنونه ضعيفًا ، غير قادر على التحمّل ، ارهقنى ثقل الحمل الأول ، والذى كاد أبى يسقط تحته لولا أنه تمالك نفسه والله سلم ! ، كان الفارق بين ظهرى وظهر أبى ، وساقى وساق أبى أنه غالب المر

زمنًا ، وقاسى الأوجاع دهرًا ، وحمل قرب المياه فى البلدة ، وأغنام أقاربه وعدى بها مصارف المياه ، أما ظهرى أنا وساقاى فلم تتعودا حمل الأثقال لأنه هو جنبنى ذلك بكده ، وحمانى بتعبه ، وعندما اعتقلنى الضابط والمخبر وأخذوا عشرات من كتبى ، حملها أبى فوق ظهره حتى العربة الرمادية التى وقفت تنتظر عند مدخل الحارة ، خفت أن اخذل أبى فلا يتحمل ظهرى ثقل الاجولة ، أن تلتوى قدماى ، عندئذ يفقد رزقه ، وهذا من الأسباب التى أضيفت إلى جملة أسباب عذابى ، ثم اشتد الأمر فحمل ظهرى فى مرة واحدة مقدار ما حمله أبى فى يوم واحد ، ثم فى أسبوع واحد ، ثم فى شهر كامل ، ثم فى مدة عمله كعتال ، وبرغم تعاظم عذابى ، وشدته على جسمى ، فقد كان نعيمى فى بلائى ، ودوائى فى دائى ، وراحتى فى تعبى ، ذلك أنى رأيت قسمًا من جسدى ملتئمًا بأبى ، إلى درجة أننى حلمت بنعمة لا حرمان بعدها ، ووصل لا هجر يعقبه ، وأمن لا خوف يدهمه ، كما أنى ملكت الدليل على اتصال أعضائى المنفصلة عنى برأسى ، فقد عانى رأسى ما تعانيه اعضائى ، تلقى منها وأخذ عنها ، فعرفت أن ثمة وصلاً محتملاً ، وخيطًا غير مرئى لم ينقطع ، وشملاً لم يتبدد تمامًا ، رضيت بما حل بى ، ففى هذا عقاب عادل لجفائى ، وعدم اهتمامى بالسؤال والاستفسار عن غضون غارت فى وجه أبى ، ونظرة أسى لم أعها إلا بعد اختفائه عنى ، وذهابه الأبدى ، وانعدام امكانية التلقى والرد بيننا ، واليأس التام من التلاقى ، حمت فوقه عند رجوعه من الوزارة فى الدقى إلى سكنه القريب من الحسين ، أراه ولا يرانى ، يمشى وحيدًا من الدقى يعبر الكبارى فوق النيل ، يقطع الطريق متمهلاً ، يتلفت حوله أحيانًا ، يرتفع صوته بغناء صعيدى فيه حنين إلى المنبت والمنشأ ، يسلى النفس فى غربتها ، ويدفع ويوفر ثمن تذكرة الترام ، أو الأوتوبيس ، رأيته يستيقظ نشيطًا فى غرفته التى لا تحتوى

إلا على حصيرة قديمة ، نفس الحجرة التى آوى فيها عبد الناصر ليلة قبل ظهورهما معًا فى كربلاء ، يتوضأ ، يصلى ، ثم يدعو الله الستر ، أن يغمض عنه عيون أولاد الحرام ، وأن يبارك له فى ماله ، ها هو يقطع الطريق من العطوف إلى الدق فى صباح باكر مندى ، يصلى قبل أن يصلوا ، وينتظر ، ثم تبدأ أحواله ، فأعانى كل ما عانى ، وأقاسى كل ما قاسى ، رأيته يوم الجمعة يستيقظ نشيطًا ، فرحًا ، إنه اليوم الذى يمضى فيه الوقت الأطول إلى جوار ضريح الحسين الحبيب. ، بعد الصلاة يمضى إلى مقهى العجم ، يلمح خلف بك فيمضى إليه ، يحييه فى أدب ، ويقف على مبعدة يسيرة لا يقربه لكن فى غير ذلة ، خلو من أى إحساس بالضعة ، يحمل تجاهه الود العظيم ، إنه السبب فى جريان رزقه ، وكانت تلك الوقفة وهذه الطلة بداية لعلاقة بينهما تقلبت بها الأحوال ، وأمدتها الظروف بالمد والجزر ، واستمرت حتى ذلك اليوم الذى كنت أجهل موقعه قبل أن يجىء ، الثامن والعشرون من أكتوبر ، ها هو خلف بك يسأل أبى عن أحواله . أبى يحمد الله ، يدعو له بالعمر المديد ، كان أبى يقول أحيانًا ، اللهم لا تجعل يومه قبل يومى ، وكنت أنا أخشى رحيل خلف بك فجأة ، لأننى أعرف أن حزن أبى سيكون هائلاً ، ولأن ثمة هاجسًا حدثنى دائمًا ، أن رباطًا خفيا يشد مصير كل منهما إلى الآخر ، وقد أطال الله عمر خلف بك سنة ونصف سنة بعد رحيل أبى ، ولا تزال البقايا الغالية والتى تحوى ملابسه وأوراقًا شتى ، تضم شالاً حريريًا عليه رسم الكعبة أهداه إلى أبى أثر عودته من أرض الحجاز ، كان أبى شديد الاعتزاز بهذا الشال ، يفرده ، ويطبقه بعناية ، ويحفظه من كل سوء ، يعرضه للهواء ، ولا يلفه حول عنقه إلا فى المناسبات التى يندر حدوثها ، كذلك احتفظ بورقة من مجلة المصور بها تحقيق عن محكمة الخليفة ، وقاضيها محمد خلف الحسينى ، ويرجع تاريخه إلى أوائل

الخمسينيات ، ولو أنى قلبت فى مجلدات المجلة القديمة لعثرت عليه غير أنى لم أفعل حتى الآن . فى صغرى ، وفى ساعات صفاء أبى ، أجلس إلى جواره طفلاً وأقرأ له هذا التحقيق الصحفى ، يصغى مسروراً ، وعندما كبرت وشببت وتشعبت طرقنا ، وتعددت سبلنا لم أقرأه له أبداً . أسأل نفسى الآن بلا فائدة ترجى ، لماذا وقد كنت قريباً منه بقلبى ، لماذا لم أنطق ، ولم أعبر ، فما وصله منى شحيح ، شحيح ، هذا ذنب ينوء به ظهرى ، فالنجا ، النجا ، فى يوم الجمعة هذا يقابل أهل البلدة ، القادمين ، أو المقيمين فى مصر ، يرحب بهم ، وينفق ما معه فى دعوة الذين نزلوا مصر أول مرة ، وقد يصر على صحبتهم إلى بيته المتواضع إن عز المأوى للقادم الغريب ، هذا ما فعله مع كثيرين ، وكم من أهالى بلدتنا الذين جاءوا فقراء معدومين ، تمددوا فوق هذه الحصيرة لياليهم الأولى ، ثم مضوا عنه ، ودارت بهم الأيام فأصبحوا من أهل الثراء ، والجاه ، وكنت على وشك أن أذكر العديد من الأسماء التى أعرف ، لولا أننى امتنعت أيها القارئ الفطن ، إذ أعلم أن ذلك لن يرضى أبى فى غيبته الأبدية عنى ، وربما اعتبره منى تشهيراً بقوم أسدى إليهم معروفاً ضئيلاً ، والحق إننى لم اسمع منه هو ، بل سمعت بما قام به من أمى وخالى وأعمامى وآخرين ، يرحمنا الله من بعده ، ها هو يسعى ليطل على مريض من أقاربه ، أو معارفه ، أو ليشارك فى فرح ، يقضى واجباً هنا وآخر هناك ، يضحك عندما يجد نفسه فى رفقة وأنس ، يقص الأحداث القديمة ، والأنساب والقرابات ، والدرجات التى شغلها كبار المشهورين قبل أن يصبحوا وزراء ، أو باشوات ، أو زعماء ، كان يقول أحياناً ، أقربهم إلى نفسى عبد الناصر لأنه أنصف الفقير من الغنى ، ولأن والده كان رجلاً بسيطاً مثلى ، انتبهت أثناء تهويمى كما ينتبه الغافل ، رصدت مرور لحظة عبرت بأبى كرفة رمش ، لحظة استقر فيها وهن تسلل إلى رغبته

القديمة ، المؤجلة ، أى الدراسة فى الأزهر. لا أقول انقطاع الرغبة ، أو اندثارها.، عسى أن تعينى الكلمات على التعبير عما رأيته من فضائى الذى اسبح فيه إنها لحظة مارقة لايرصدها الوعى، ولا يدركها فى حينها، ثم تتكرر على فترات متقاربة أو متباعدة ، فتضعف همة ، أو تتفسخ فكرة ، أو تفتر عزيمة ، طرح النوايا القديمة لا يثمر فجأة ، لا يتقرر بغتة ، انما يتولد على مهل ، يتسلل بطيئًا ، ثم يندلع فجأة كلهيب شمعة ، يبدو مستقرًا ، مرسلاً ضوءه ، لفترة ، ثم يتوهج لثانية ، ويعود ليخبو.، غير أنى رصدت اللحظة الأولى لانثناء أبى عن مقصده القديم ، وتلك لحظة بدت كخفقة عابرة ، أثناء مروره ما بين شجرتين قائمتين حتى الآن ، بحذاء النيل عند منطقة العجوزة ، غير أن شعورًا لم يفارقه ، ومؤداه أن كل ما يمر من ظروف وعرة عابر ، وأن ثمة وضعًا أفضل ينتظره ، وأن ثمة واقعًا مريحًا سيصل إليه يومًا ، لعلى أكون قد وفقت فى شرحى لما رأيت ، يحوم رأسى ويسبح فى فضاءات مصر ، رحلت مع الاصائل إلى الجنوب ، إلى جهينة ، ها هو أبى يعود لأول مرة بعد خروجه مضطرًا ، وبعد عدد من السنوات لم أدر مقدارها ، لأن مولاى واركان الديوان لم يطلعونى على تاريخ خروجه أو عودته ، وذلك كعقاب لى على عدم معرفتى منه مباشرة ، رأيت عينى أبى ، وشوقه ، ولهفته على رؤية كل المواضع ذات المعنى والدلالة ، اصغى إليه يتحدث فى رحبة بين البيوت ، الجالس إليه هو الشيخ عبد اللطيف محمد على ، والشيخ هاشم الكبير ، قال الشيخ عبد اللطيف إن الوقت قد حان ليكمل نصف دينه ، العمر يتقدم به ، ولم يعد صغيرًا ، أم أنه ينتظر حتى تلف عليه امرأة من نساء مصر فتطويه ، لماذا لا يفكر والبلدة أمامه مليئة ، مزدحمة . قال الشيخ هاشم الكبير إن هذا صحيح ، وإذا كان الله قد يسر له الرزق الحلال فلماذا يتأخر؟، أطرق أبى وفى النفس حاجات شتى ، لكنه قال إن عمله صعب ،

وعائده قليل . خمسة قروش ، هل تفتح بيتًا ، الزواج مسئولية . دنوت منهم ، كنت موجودًا وغير موجود ، اراهم ولا يرونني ، هذا وجه أبي ، وتلك حيرته التي أعرف ملامحها وترقرقها . لا أدري ، لماذا أدركني الحزن فجأة ، فارتفعت محلقًا في فضاء البلدة ، ذرفت دموعًا تساقطت فوق الدرب الذي يقسم البيوت إلى شقين متواجهين ، ولم ينتبه بعد لأن دموعي قليلة ، شاحبة ، ولأن أوان المطر لا يزال بعيداً ، نظرت إلى البلدة من عل ، فرأيتها مضمومة ، محاطة بالنخيل ، والبيوت الصغيرة ، في أحدها ولد أبي ، وفي بيت آخر يجلس الآن ، وكنت أجهل موضع جسدي ، معزولاً عنه ، غريبًا ، فالاختلاف سمة زمني ، لا تتشابه أحوالي فيه ، ليس في كل حين أخص بالدعة ، ولا في كل وقت أناغي بلحن مطرب ، كنت عرضة لعتاب غامض ليس ينقطع ، وبلاء محومًا أدركني ، طرف منه ، أمر ثقيل بدأ بفراق أبي .. لن يرتفع . وضيق وكمد لتواجد عدوى في وطني ، يتنفس الهواء ذاته ، وشوق لرؤية عبد الناصر الذي يبدو لي الآن حلمًا بعيدًا ، لمت نفسي لأني ضقت به في زمنه ، وهذا قدر الإنسان ، لا يعرف جوهره إلا بعد انقضائه ، ولا يدرك كماله إلا بعد أفوله فكان ندمي على أحبابي في مقدار ندم الذين تخلوا عن الحسين ، ولم ينصروه ، ولم يخرجوا لنجدته حيًا وانفاسه مترددة وقلبه خافق . وكان وجدي ممزقًا ، مشتتًا ، زمني العجيب يجمع ويفرق ، فإذا اينعت نفسي بالأمنيات ، اختلجت خواطري بالظنون ، وإذا انتعشت آمالي بالتوقع ، تضببت غاياتي وصعبت ، وإذا تحركت إرادتي هددها الذبول ، آه ، ما من ذكر إلا وادركه نسيان ، وكما نسيت غدًا أنسى ، ما من حب إلا شعثه السلو . عواطف ملأتني يومًا ، تهت بها ، واختلت ، وظننت أنها لن تبيد أبدًا ، ثم جاء حين من الدهر على عواطفي فأصبحت بددًا ، غربت وأفلت ، جاء زمن بردت فيه نار قلبي ، آه ، ما من

وجد إلا أدركه النقص ، وما من فؤاد إلا كدر بالريب ، وما من سمع أصغى إلا وبرم ، وما من لسان اسهب إلا كف ، ما من عين بكت أبداً ، وما من خاطر استقر وتمهل ، ما من قريب إلا أصبح بعيدا ، وما من حبيب إلا صار غريبًا ، هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئًا ، ما نحن وكل الموجودات إلا خواطر غير مقيمة فى ذاكرة الزمن . لكن .. أى زمن ، ما الزمن ؟ ما الدهر ؟ ما الوقت ؟. صحت فى طوافى الليلى وأنا هائم بلا مستقر ، بلا مأوى .

يا حبيبى .. يا مولاى ، يا مجير أبى ..

لم يجيبنى الحسين ، تمثل لى بشرًا سويًا ، وكائنًا مكتملاً ، لا يدركه نقص إنسانى .

قلت بلسان حيرتى ..

إلى أى مجال ارحل ؟ فى أى فراغ اتحرك ؟ أى قوة تدفعنى ؟ لماذا الأفول ؟ لماذا النسيان ، لماذا لا أختار ميعاد غروبى قبل أى يلوح ضوء شفق ؟ الزمن ، إنه الدهر ، أى شىء هو ؟!

ينظر إلى ، يصمت ! يرتج عندى ، لقد فهمت عنه ، تلت حطيئتى الثانية ، وسوس لى فؤادى ، واغرتنى خواطرى ، فقلت وتساءلت عما يجب ألا اسأل عنه ، لو سألته عما لم احط به علمًا للمرة الثالثة ، سيبلى وجودى ، وأعود إلى سيرتى الأولى ، ستصير تلك التجليات كلها إلى عدم فى عدم ، اسدل جفنى تائبًا ، مستغفرًا ، راجيًا العفو عنى ، اشعر بنأيه الوئيد ، بابتعاد الحبيب ، يعاودنى ذلك الجوع الذى لا تحركه معدة ، هذا الحرمان الذى لا تغذيه شهوة . يسقط ظل علىَّ ، يجيئنى خالد فى طيرانه الأبدى ، أبدى الدهشته البريئة ..

هل تعرف أيضاً ذلك الزمان ؟

وبدون أن يلفظ ، بدون أن يجيبنى ، تلقيت المعارف والحقائق ، فمنذ وقوفه

معصوب العينين فى صباح ذلك الخميس الباكر أمام فرقة الاعدام ، صباح ذلك الخميس المنتمى إلى زمنى ، تحرر هو وصحبه من كافة القيود ، فلك هو زمان العبر كله ، وتولى صاحبه الثانى الزمن الآتى ، واختص صاحبه الثالث بالزمن الآفل ، واحاط صاحبه الرابع بالأزمنة ذات الشواهد والدلالات ، أما صاحبه الخامس فكان من أصحاب الزمن الحاضر وهم قلة ، تحولوا إلى خمسة طيور من ضوء ، وزهر ، وندى ، وضباب ، وظل ، صيغ خالد من ضوء ، وترى عبد الحميد فتوشك أن تهتف ، ما لهذا الطائر وريشه الغريب فإذا دنوت منه وجدت أوراقًا من زهور الدنيا ، أما حسين فصيغ من ذلك الضباب الذى يرى عند الفجر . وكان عطا من قطرات الندى ، يدنو من قرص الشمس فلا يتبخر ولا يتلاشى ، ويحوم حول الاحباب فى ذروة الحرارة فيلطف ويخفف ، أما عبد السلام فله الظل والنجوى ، صار مأواهم الدهر ، وتجوالهم عبر الأبد ، واختص خالد بأمور جمة ، اذكر منها وقصدى ضرب المثال لا الحصر ، أوكل إليه رى كل صنوف النبات فى بر مصر ، فهو الذى يسقى تلك الصفصافات المظللة ، وأشجار النخيل فى أبديتها ، وغصن الريحان اليتيم الحزين الذى نما بالقرب من قبر أبى ، وهو الذى يحمل بذور اللقاح عبر الفراغات من زهرة إلى زهرة ، وهو الذى ينذر بالخطر إذ يلوح ، زلزالاً كان أو صاعقة كونية ، وأخذ صوته ذلك الهاتف الخفى الذى يصيح بالناس فى أعماق الليل ، والذى نادانى فى بدء تجلياتى ودعانى إلى الرحيل فاستجبت ، كذا فهو الذى أوكلته رئيسة الديوان بإطعامى ، رنوت إليه ، اغدقت بعينى عرفانى له ، واعجابى بجرأته ، وشجاعته ، وثأره لنا من الجلف الجافى ، كدت استفسر منه عن الحين المقدر الذى سنتبادل فيه الحديث ، متى أسأله فيجيبنى ؟ متى أحاوره ويحاورنى ؟ لكنه قطر فى فمى المن والسلوى ، الرضاب العذب ، أشار بجناحه الأيمن إلى هناك ،

عرفت أنه يشير إلى أبي ، فعدت أنظر إلى أصلى ، رأيت ظهيرة جهينة الحادة ، وشممت رائحة الخبيز ، والأفران الموقدة ، وأجولة الطحين ، وقواديس السواقى المصنوعة من الجلد والمضمخة بماء الأعماق ، يجلس أبي إلى الشيخ عبد اللطيف ، الشمس فى الزوال ، ونسمة تعبر سعف النخلات البحرية ، وعجوز يتثاءب فى المسجد القريب ، وثلاثة صبية يلعبون السيجة ، وجمل يركع محملاً بالبوص عند المخزن البحرى ، وجدتى عائشة تقول لأمى التى لا تزال بكرًا : اخرجى بهذه الأرغفة إلى جدتك نجمة ، أمى تلف الخبز الساخن فى طرف طرحتها السوداء ، تخطو خارج البيت ، قبل أن تستدير إلى جهة اليمين مدت الخطى ، يبدو أنها تحت الرجلين ، يقعدان فى الظل ، وعند الخطوة السابعة بعد خروجها من باب البيت تقع عينا أبي عليها ، يدركه شعور غامض ، حيرة ، ونشوة ، وأطياف من عالم المرأة الذى لا يزال مجهولاً عنده ، قبل أن تختفى عند المنحنى يسأل ..

ابنة من هذه ؟

يجيبه الشيخ عبد اللطيف ..

ابنة على باشا .

الشيخ على باشا المداح ؟؟

يجيبه الشيخ عبد اللطيف ..

نعم .. يرحمه الله ، لم يعوضنا الله بصوت يشبه صوته ..

يقول بعد اطراقة قصيرة ..

اسمع يا أحمد .. أخطبها لك !
فينظر إليه أبي حائرًا ، خجلاً ، لا يجيب .. » .

* * *

السفر الثانى

بسم الله الرحمن الرحيم

ولا حول ولا قوة إلا بالله

« .. فاجتمعنا لمعان

وافترقنا لمعان

أما الأمر فظل محصوراً فى أربع حقائق

الأول والآخر ، والظاهر والباطن .. »

مـــدرج

تعبت ، نعم ، أنا الغريب الحائر ، الراحل ، الغائب ، الموزع ، المفرق ، المشتت ، أنا المحكوم عليه بفقدان الاستيطان . أنا محزوز الرأس من القفا ، كحبيبي وصفيي ودليلي فى غربتى ومرشدى فى فقدى وطمأنينتى فى تيهى ، نور طريقى الملهم الموعر ، مولاى الحسين ، الضنين علىّ بما يعلم مع أنى لم أضن فداخلى مباح ، وتمكنونى مفصح عنه ، استغفرك يا من ليس كمثله شىء . فأين أنا منه؟ أين أين وما بيننا مثل ما بين الثريا والثرى ، ما بين العلو والسفل؟ تعبت لما تبددت . وصار وجودى لا يماثله وجود . أحن وأصبو لعل وعسى . لكن خاب فألى ، ما رأيته لم يرو ظمئى ولم يهدئ روحى التى لا أدرى مستقرها ومأواها ، رأسى المحوم أم جسدى المنى عنى ؟ تعبت فتوسلت إلى بنى الأكرمين ، حتى لا أشك فيما عندى ، خاصة أن قديمى يبهت وموجوداتى تهن .

كان ممكنا ألا أبوح بشقاى ، فالكتمان من طبعى لولا أنى أمرت بالافشاء والعلن ، لذا أشهدكم يا أحبائى واخوانى ـ جنبّكم خالق ما عانيت ـ أشهدكم أنا الضعيف ، حزين الفؤاد ، فى كل لحظة وطرفة ، أننى مؤمن ، موقن ، واثق ، مسلم بأن الفراق حق . وأن اللقاء حق ، وأن الصرخة الأولى حق . كذا الاطلالة الأخيرة من الحدقتين ، خفقة القلب الوهى حق ،

ودقته التى لا دقة بعدها حق ، أن الوجود حق ، وأن العدم حق ، البداية حق ، والنهاية حق ، والأسى على ما راح حق ، وأن الجمال حق ، والقبح حق ، والكمال حق ، كذا النقص ، أن سماع النداء حق ، والصمم حق ، النطق ، الصمت ، القدرة ، العجز ، والعلم الأعم ، والجهل الأتم حق ، وأن البعد والقرب والدنو حق ، وأن الفناء والبقاء والاصلاح والعطب والبحر والبر والوسع والضيق والقسمة والسلامة والرجوع وعنصر الحياة وشجر الماء والنحر والعقاب والمحق والشفاء والمرض والبكاء والضحك والارتفاع والخفض ومداواة الكلوم ، هذا كله حق . كذا الطى والنشر ، والأسباب الموصلة ، والأنساب المتسلسلة ، والشم الرواسى ، والجذور الموغلة الضاربة ، والاتصال ، والانفصال ، والخيال ، والمثال ، أشهدكم أن مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لايبغيان حق ، أشهدكم أن الحق حق ، فاشهدوا يا حفاظ ودى ، ورعاة نسيمى أننى أسلم بهذا تسليما كثيرا . لكننى أذكركم أن خالقى وخالقكم ابتلانا نحن ثمر النشأة الإنسانية ببلاء ما ابتلى به أحدا من خلقه ، إما ليسعدنا أو ليشقينا على حسب توفيقنا إلى استعماله ، فكان البلاء أن خلق فينا الفكر ، لذا أكاشفكم بأننى لست بغافل أو مستسلم لأحوالى ، حتى لو أيقنت أن ذلك من طبيعة البشر.

أقمت فى أفق وعيى مراصد أرقب منها الدنو الواهن ، وأستشعر هذا الدبيب الرهيف ذا الكنه الغريب ، أقصد النسيان الذى هو عدو ، فى دنياى الحسية ، تباعدت زيارات أبى ، لم يعد يطرق أحلامى . لم أعد أحاور نفسى بعد استيقاظى فأسأل: هل رأيته، وكيف بدا لى ؟ وقد كنت أسأل فى الشهور التى تلت رحيله عنا. والرؤى يا أحبائى أمرها عجب ، منها ما نتذكره ونعيش معه فترات طويلة ، ومنها ما نستوحشه ، ومنها ما نتهلل له ونستبشر ،

ومنها ما ينبثنا ، أو هكذا يبدو لنا ، ومنها مايتبدد عند رجوعنا إلى عالم الحس ، ومنها ما يعيد إلينا ماتبدد منا ، فنستعيد الشذى والعبق والصوت المفتقد . بعضها نتذكره إثر صحونا ، ومنها ما نستعيده بعد انقضاء ساعات إذا أثارنا أمر ذا صلة ، وقد اتفق لى هذا وماهو أكثر ، وما سأذكره فى موضعه ، لكن ما أعيه ناصعا أن أبى لم يزرنى فى منامى منذ أمد ، عندما اقترب اكتمال عام على رحيله استرجعت مامر ، بذلت الجهد والمحاولة . فى مثل هذا اليوم رأيته لآخر مرة ، سابع عشر أكتوبر واليوم جمعة ، بعد سنة وافق يوم سبت ، وهذا شأن التقويم الميلادى لحركة الأفلاك ، تثبت الأعداد وتتحرك الأيام ، يتقدم اليوم يوما فيوما حتى يلتحم بموقعه القديم ، يندمج بنفسه ، أول الدائرة آخرها . نقطة البدء نقطة النهاية ، رأيت دخوله علينا عائدا من صلاة الجمعة ، متهللا ، باسطا ذراعيه ، « أهلا » ، مع اكتمال العام الثانى ومجىء السابع عشر يوم أحد ، حاولت أن أتذكر ، أى ثياب كان يرتدى ؟ ما لونها ؟ لست واثقا ، وقلة اليقين تولد الحيرة ، والله يا اخوانى إن الأمر حيرة ، إن الأمر حيرة .. لكن مما يصلنى بعض عكارتى ، اننى أذكر الحوار الذى جرى فى مضمونه وليس فى نصه ، سألنى : إلى أى البلاد ترحل ؟ قلت : إيطاليا وفرنسا . فبدت عليه دهشة البسطاء الأولى ، وفرحة الأب الذى أنجب فسوى واكتمل ابنه وصار يرحل بمفرده إلى بلاد لم ولن يطأها ولن يراها بعينيه ، تمتم : ماشاء الله ، ماشاء الله ، خرجت إلى الشرفة أدخن النرجيلة التى يعدها أخى الأصغر كلما جئت البيت الذى فيه نشأت ، جاء أبى ، وكان مجيئا هادئا لا تسبقه مقدمات ، أراه الآن مستريح الملامح ، راضى النظرات ، وكأنى أراه من صغرى عندما كان نشيطا فى خطوه ، والتجاعيد قصية عنه ، أراه على غير ماكان يبدو فى اللحظة ذاتها ، فكأنه

أعار مخيلتى صورته القديمة لأراه فيها كلما حاولت استعادته ، جلس هادئا راضيا ، ثم التفت إلىّ وأطال كمن يتزود أو ليثبت ملامحى فى ذهنه الذى سينأى ولا ندرى ، ثم أغدق علىّ من نظراته النسيمية ، وتلك لايمكن النفاذ إلى كنهها لحظة ترقرقها ، لكنها تفصح للغافل بعد تمامها ، وبعد انقضاء أوانها ، فسبحان من له الدوام ، وإذا أوتى الإنسان نقاء البصيرة ، وصفاء الرؤية ، وشدة التدقيق ، فربما يسأل نفسه : لماذا يتطلع إلىّ هكذا؟ ، ولا تلوح الإجابة من طى الحجب وربما تشى بفحواها بعد فوات الأوان ، وآه من الفوت ، وعدم القدرة على إدراك الشىء فى حينه ، ليت الجاهل يعلم بما ليس يدرى.

أرى نظراته الهادئة الموشاة بالرضا والسكينة والدعة والرغبة فى التزود قبل الرحيل ، رضا من اقترب ، وطمأنينة من يدنو من التسليم والاستسلام لما قدر ، رضا من أتم وأوفى فاكتمل وقارب على الرحيل ، هذه النظرات الأصيلية الواهنة المشرعة للغروب والمحاق ، فهى بين بين ، لاعصر ولا مغرب ، لا صبح ولا ظهر ، نظرات من دنا وتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى . تطلعوا يا أحيائى إلى ذوى القربى منكم ، ربما ترونها وتعرفونها إذا علمتم ، لكن أنى لكم ذلك ؟ أنى لكم ؟. نفس هذه النظرات أغدقتها أمى علىّ بعد حين مقدر ولم انتبه ولم أعرف ولم أتنبأ حتى ، أنه يعلم السر وما يخفى ، فأنىّ لى أنا المحدود المقيد العلم بما سيكون ؟ لما طال سكون أبى ، ولم يحول النظر عنى واستمر يسلم ويتملى منى وأنا غافل ، ولما انقضى الكنه الغامض أردت إنهاء ذلك الصمت فقلت « تركت مع أمى خمسة جنيهات لترسلها إلى عمتى » ، قال لى « وسع الله عليك وبارك لك فى ابنك وبيتك » ، بعد اطراقة حاد خلالها عنى قال : « وجنيه لأسرة عبد الرحمن » وأتبع سؤاله بتعبير وهزة رأس مهونا علىّ الطلب ، وعبد الرحمن هذا رجل

فقير كان من خدام الحسين ، يجاور ضريحه القاهرى ، ينفض الغبار عن العتبات المؤدية ، أو يزيل شيئا ما علق بالسجاد أو الرخام ، أو يساعد عجوزا خانه الخطو ، يحمل فى بعض ساعات النهار أو الليل صندوق الأصباغ ، يمضى إلى مقهى الفيشاوى القريب القديم ، كان نحيلا ، طويلا ، أسمر ، حاد الملامح ، وقد يحلو لبعض الرواد أن يمزح فيناديه «عبد الرحمن .. تعال امسح الحذاء» . إذ يرانى يقبل علىّ ، يصافحنى ، يستفسر عن أبى الطيب ابن الطيبين ويوصينى به خيرا ، ثم يقطب عينيه «إنه حبيب الحسين» ، وأقول له «هذا أمر لايحتاج إلى وصية ياعم عبد الرحمن» ، فى زمن لايمكننى تحديده بالدقة المرجوة اختفى ، لم أفكر فيه ، ولم يلفت غيابه نظرى ، حتى أخبرنى أبى متأثرا برحيله ، وأنه فارق أسرة فيها صغار . سألت : أكان متزوجا ؟، قال نعم ، وعائلته فى مقابر الخفير يسكنون حوشا قديما ، تأسف أبى عليه لأن الرجل لم يذكره أحد ، ولا يذهب إلى أولاده أحد ، ولم ينتبه إلى غيابه أحد ، صار يمضى إلى عائلته ، يقدم إلى الأولاد بعض ما يفيض عن الحاجة أو يقتصده ، وهذا أدق من حيث المعنى ، لأن أبى عاش جل عمره لايفيض عن حاجته شىء . كان يطلب منى أو من أخى إسماعيل لقلة ذات يده . بعد عودته إلى صمته سألنى «أجىء لأودعك فى المطار» قلت لا تتعب ، اعتدت السفر ، ليتنى استجبت ، لرأيته بعد مشاهدتى تلك ، أذكر ضياع الفرصة فأندم ، مع أن اللحظات كلها ولت وصارت إلى عدم ، لست بقادر على تحديد اللحظة التى وقعت عينى عليه آخر مرة ، بعد نزولى إلى الشارع ، بعد وقوفى إلى جوار العربة الصغيرة رفعت رأسى ، يداه متلامستان ، رأيت أمى ، إخوتى ، ولم أر حثيث الخطى الذى هو أقرب إلينا من حبل الوريد ، لا أدرى موقع اللحظة من حركة الأفلاك ، اعذرونى يا

إخوانى لو أطلت وفصلت ، أعرف أنها لحظة لاتعنى شيئا عندكم ، لكنها بالنسبة لى عمر ومعنى وهوى ، فاحتملونى ولا تملونى لا أراكم خالق بعضاً مما عانيته ، أزعم الآن والسنون تلفنى بكرها والعمر ينطوى كطى السجل للكتب ، انى لا أنسى ما وقعت عليه عينى فى مجمله وليس فى تفصيله ، بعد تبدد الثوابت ، بعد تشتتها فى الكون الغريب ، حاولت مطابقة اللحظه باللحظة ، والموقف بالموقف . ومن نبع حنينى أروى أحاسيسى علها تتكرر ، لكننى أشبه بمن يحاول رى ظامئ من ظل الماء ، أو ينحت من أريج زهر شمها يوما تمثالا لمن أحب .. فأين القرب ؟ وأين البعد من البعد ؟ رحت أردد بينى وبينى ، منذ عام لم يكن متبقيا له إلا سبعة أيام ، ستة ، أربعة ، يومان ، وعندما طلع صباح الواقعة كان الأربعاء يقابل الثلاثاء ، عقدت الهمة وقصدت زيارة المثوى ، والأربعاء يوم لم يعتد قومى زيارة موتاهم فيه . قطعت الطريق المترب الأصفر ، والشمس لافحة ، والخلق قليل ، والشواهد حجرية ، علامات على حد الأبدية ، لم ألق عم عبده حارس القبور ، بابا مقفل ، دخلت وحدى ، الجزء الذى يرقد فيه أبى لم يحدد بسور بعد ، مكشوف للطريق ، وهذا يضايقنى ، وقد عقدت العزم وأضمرت النية على بناء مقبرة انقل إليها أبى حتى لايكون ضيفا على آخرين ، حتى لايكون غريبا فى رقدته كما عاش ، حتى تكون رقدتنا إلى جواره ، عسى أن تساعدنى ظروفى عسى . قعدت فوق حجر عند موضع قدميه ، اصغيت إلى رياح جافة حارة تهب فترتد بين الجدران المتقابلة ، والأبواب المغلقة ، حدثت أبى بكلام كثير بددت به صمتى ، عللت النفس أنه ربما يصغى ، وتساءلت عما جرى للجثمان فى هذا العام المنقضى ، وكيف يبدو الآن ؟ كنت كلما جئت أسأل عم عبده : هل جاور أبى ميت آخر ؟ حتى نهاية العام الثانى بقى أبى وحيدا ، تطلعت الى

الأرض المنبسطة ، والجدران العتيقة ، والمصاطب والشواهد ، رقود يجهل كل منهم الآخر ، جيران لكن لا يتزاورون .. ناجيت أبي : لن أغيب ، لن تتباعد المدد بين زياراتي إليك . قمت بعد مكث ساعة أو أكثر . بسطت اليدين ، واليدان محل القبض والعطاء ، لذا كان بسطها علامة السؤال والتسليم ورجاء الإجابة ، والسؤال حال افتقار ، وحاجة إلى الإجابة ، وعندما بسطت يدى لمن يرانى ولا أراه كنت مفتقرا إلى الكثير ، لى ولأهلى ولمن صاحبت ولمن أحببت ، لذا سكت ولم أنطق ، بل توسلت بعينى ورجوت ، وتلوت فاتحة الكتاب ثم ألقيت السلام مودعا ، وتراجعت حتى المنحنى كيلا أولى أبى ظهرى ، استدرت مستقبلا الطريق ودمعى نافر وقلبى ساج ، كنت بحاجة إلى من يشرح لى القضية ، فالأمر عسر ، والسر جلل ! ، حل العام الثانى ، وفيه اعتدت القسم برحمة أبى ، وقد قضيت زمنا أنفى فيه أى خاطرة توحى لى أن بصرى لن يقع عليه ، وأن لفظ « أبى » اختفى من قاموس ندائى ، اسمحوا لى أن أذكر واقعة ربما حوت علامة . اذ حدث بعد رحيله ان ذهبت إلى طبيب اختص بعلم القلوب وجراحتها ، وأثناء تدوينه بعض الملاحظات عن علتى كبسنى بخاطر عجيب ، وإن بدا فى لحظته مألوفا معقولا متزنا ، أليس هذا الرجل عالماً بالقلوب ؟ إذن .. ألا يقدر على بث الحياة فيما همد منها وسكن خفقة وبطل هفوه وتوقف نبضه ؟ لم أنطق الخاطر المباغت ، وتذكرت زيارتى لصاحب لى ميسور حاله ، ولحظة دخولى حديقة بيته ، رأيت بستانيا عمره يقارب العمر الذى رحل فيه أبى ، حضوره يماثل حضور الراحل الكريم ، فاندفعت تجاهه حتى أنى رأيت فى عينيه دهشة مهذبة ، وفى صباح شتوى كنت اجتاز باب بيتى عندما رأيت والد امرأتى ، أم عيالى ، فعانقته عناقا حارا وهفوت نحوه ، وكأنى أرى فى كل أب ظلا من ظل أبى ، غير أننى دائما

ارتد ملوما محسورا ، وأوعر الآلام مايقع عند التيقن من استحالة الغرض ، هذا مقطوع به فانتبهوا ، يوم تبلى السرائر فما له من قوة ولا ناصر ، جنبكم خالقى ـ وجنبى ـ السهو والإهمال ، والغفلة والزلة . فى ذلك العام الثانى ، كم رأيت من رجال يشبهون أبى ولم أتوقف لأنقب ملامحهم ، بل إننى كففت عن تأمل أقاربى الأقربين ومحاولة تلمس الشبه الخفى أتذكرون ياإخوانى ـ فى السفر إلى الحق ـ اكتمال العام الأول على رحيل جمال عبد الناصر؟ ، ميدان العباسية والطرق المؤدية مزدحمة غاصة . الوفود تترى ، والجماعات تتوالى والخلق كثير ، والممر وبهو المسجد يفيض بالورود . فى العام التالى لم يعد الجمع هو الجمع ، وفى الثالث قل المدد ، وفى الرابع اتسعت المسافات ، وصار الضريح وجهة المخلصين الأشداء المحبين ، صار مانظنه قريبا بعيدا ، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لايعلمون . لكننى استأذنكم بإتمام مناجاتى والافضاء بمضمونى ، فأقول إننى رأيت غرباء ، فقراء ، لم تتح لهم فرصة الوقوف بين يديه يوما . لم يعرفهم وعرفوه ، رأيتهم يسعون إليه فرادى ، يتوقف القادم من الريف أو أحشاء المدن . يطلبون له الرحمة ، والله يا أحبابى رأيت يوما عجوزا تبكى تقعى أمام الرخام البارد ولا تخشى عيون وأرصاد الجلف الجافى الذى بدد وضيع آثار صوته ، وصادر من شدا له يوما بالغناء الجميل ، وشوه السيرة الزكية ، استخف قومه فأطاعوه فكانوا من الخاسرين آه .. كل شىء يجرى إلى أجل مسمى والذكرى تمضى لمستقر لها .. النسيان ... كيف كان مزور عام على استشهادك ياابن بنت الحبيب المصطفى ؟ من زارك سرا ، ومن ذكرك علانية ، ومن أقسم على الثأر لك ؟ ، وهل يستمر بكاء الحزانى فى كربلاء ؟ للذكرى أطوار ومراتب ، فأبى الذى كان يبدو لنا بعد شهر من رحيله ليس هو الذى ذكرناه بعد سنة ، ومولاى الشفيع الذى

أينع فى قلوب المحبين النادمين بعد عام ، ليس هو من تبكيه دموع من عاشوا زمني . كذا عبد الناصر . وسيجىء اليوم الذى لن يذكر فيه إلا فى السياق العابر ، ثم يلوح زمن يبهت فيه هذا كله ، فالغواث يا اخوانى المحبين . كيف يمكن صون ما كان من حشر الماضى وبعد المستقبل الآتى وصعوبة المسافات ؟ كيف ؟ من أجل هذا خرجت وحاولت . وجاهدت حتى وصلت إلى سادتى فى الديوان وألقيت عندهم بركى وحططت رحلى وفصلت خطتى ، وكان من أمرى ما كان ، ولم أعد أدرى كم انقضى وكم تبقى ؟ ومن مرشدى من بعد مولاى الحبيب الشهيد ؟ إذا تحركت فإلى من ؟ وإذا اجتمعت فبمن ؟ وإذا افترقت فعمن ؟ كل ما مررت به كنت منفصلا عنه حتى وان اندمجت فيه ، قصيا عنه وان دنوت ، قال مولاى الحسين : إن اتبعتنى فثمة ما يجب ألا تسأل فيه ، وقد وقع الخطأ منى ، لكننى لم أبلغ بعد الحد الذى تحق عليّ فيه الجفوة الأتم . مع أنى كتمت ولم أبح ، فى مواضع كثيرة كان لابد أن أسأل فيها واستفسر عنها فإلى من أحيل شيئا من نصبى وحيرتى ؟ ، هذا كله ثقيل عليّ ، فأنا وان بدوت ثابتا راسخا ، وأحيانا جهما صعب التقبل ، فإننى أرق مما يلوح للناظر ، وأشف مما يخيل للرائى . لا إله إلا هو يعلم السر وما يخفى ، إنه على كل شىء قدير ، بكيت لأننى فى نأى دائم عنى وعمن أحببت ، وكل ما تعلقت به يفلت منى . صرت معلقا فى فراغ عتيم ، ما من نجوم بادية ، ولا يابسة مأمولة ، افتقدت العلامة ، وتاهت الدلالة ، فتذكرت قول شيخى الأكبر سيد العارفين محيى الدين ، ان الهم يولد كبيرا ويصغر كلما دام واستصحبه الإنسان ، حتى ان المعاقب بالضرب ما يحس به إلا فى أول ما يقع به مقدارا قليلا ، ثم لما يتخدر موقع الضرب فلا يشعر به ، كذا الأحزان . كثيرا ما أحاول جاهدا استعادة صوت أبى ، وعبثا أحاول ، فالأصوات أول

ما يستسلم للنسيان ، ثم تتبعها العادات الصغيرة ، كطريقة النظر إلى الموجودات وحركة الأيدى عند الحديث والاضطجاعة ، ولوازم الحديث ، وهيئة الضحك والاطراق عند التفكير وجوهر الحضور. يندغم هذا، وتبهت الفواصل ، ثم يتلخص الوجود الذى كان فى لفظ «أبى» ، «أمى» ، «صاحبى» ، وددت سماعه لكن لم يتيسر ذلك ، تمنيت الرجعى إلى منزل الأصوات الباقية لكن عبثا التمنى. نطقت بعتابى لمولاى وصفيى وإمامى الحسين. أفى مثل حالى ينأى الخليل عن خليله ؟ أتصبح قصيا وأنا بحاجة إلى الأنس ، لو بقى الإنسان وحيدا لهلك ، سمى إنسانا من الأنس ، خمسة حروف متصلة أول ثلاثة منها أنس ، وهذا عين الحاجة ، فلو انقطع الأنس لامتنعت الأسباب ، كنت خائفا فى ترحالى هذا ، لأن وجودى تشتت ، فرأسى هنا واطرافى موزعة ، لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة ، كنت وعيا مكتملا فى كيان منقوص. بكيت وأنا عاجز عن تجفيف دمعى ، فالصلة مقطوعة بينى وبين يدى ، ناجيت شفيعى أن يحن علىّ ، فالساعة آتية لا ريب فيها ، فاصفح الصفح الجميل ، وهنا هفوت كلى إذ رأيت الطائر الأخضر مألوف الوجه لى ، محبوبه عندى ، مَطْعَمِى ، رفرف خالد حولى ، وتأهبت لأفتح فاهى مستقبلا زادى فأشبع بعد جوع ، وأطمئن بعد خوف ، وأستريح بعد كد ومشقة ، لكنه لم يفعل كما عودنى. اقترب مادا جناحيه الضوئيين ، كفكف دمعى ، ونزح من همى ، فدعوت خالقى أن يطمئنه فى أبديته ، وألا يضيمه أبدا ، وأن يعوضه شبابه الذى لم يتمه ، تبعته صاغرا مطيعا ، لمستكينا هادئا وأنا لا أعلم المراد بى. مررنا بفضاءات وفراغات لا مقابل لها فى العالم الإنسانى. لكن انشغالى بمقصدنا جذبنى عن تأملها. إلى أى محط سننتهى ؟ وأبغض الحيرة الجهل بالوجهة. عند حد معين مقدر اتخذ

خالد سبيله فى المجهول سربا فعلت وحيدا بدون وحدة . إذ أنبأنى حسى الإنسانى أنى مقبل على لحظات عجب ، ثم بدأ إلقاء المعارف فى وعيى فعلمت أننى أدنو من الديوان ، لكن من جهة تخالف الجهة التى جئت منها أول مرة ، دنوت من سادنى ، انتظرت الإذن . علمت أن قدومى ليس كمجيئى أول مرة ، وأننى مستدع ولست ساعيا ، تطلعت وأنا خلو من الدهشة الأولى . مولاتى وسيدتى الطاهرة فى الموضع نفسه . وفى هذه المرة خيل إلىّ أن إطراقتها تشى بشبه من إطراقة أمى ، فحننت وملت ميلا ، وتلألأ الألق الجميل فى عينى حتى صرت غير قادر على التزود فأغمضت حدقتى . وليت قبلة إمامى الحسين ، وفاض أساى فخاطبته بوجهتى وليس بنطق ..

ــ لماذا تركتنى يا قرة أعين؟

لم يجبنى ، لكننى أعرف أنه يسمع ما تبطنه نفسى ، واجهته بملامح طفل ضل عن والديه فى قفر ، فهجره الأمن والظمأ والمأوى ، ولما ظهرا له مرة أخرى لم يبك ولم يهرع معانقا ، إنما وقف صامتا يعاتب ويشكو ، إنها اللحظات التى تمهد للبكاء المرير ، فيها الخوف من عودة الوقت الوعر والوحدة والفرحة باجتماع الشمل ، ولما تصارع هذا كله غلب الخرس وغاب النطق ، تقول رئيسة الديوان ..

ــ تشكو التعب ؟

أوجز ..

ــ ما بدأت منه أعود إليه ..

تقول لى :

ــ اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا ..

ــ هذا يقينى ..

تقول لى :

ـ ومن ضل فإنما يضل عليها ..

ـ ليس للإنسان إلا ما سعى ..

ثم يتزل صمت ، جاءنى الإذن بالنظر إلى اكسير قلبى ونن بؤبؤ عينى .

عندى طيف عتاب وغمام أمل وعبير رجاء ، فكيف لمن هو مثلى أن يعاتبه ؟

ـ مولاى .. لا أرجو إلا المودة فى القربى ؟.

يقول الشفوق ، نزهة الناظرين ، وموضع الانصاف ..

ـ إنك كادح إلى ربك كدحا فملاقيه ..

ـ أولى شوق وآخرى تودد إليك .

يقول :

ـ ألم أقل إنك لن تستطيع معى صبرا ؟.

أتضرع ..

ـ يا نبع الصفاء يا مشرق المودة ، تعذبنى قلة حيلتى ، وصعوبة الطريق ..

يقول ميراث الوارثين ، ودرة أصداف القرار المكين ..

ـ إنك كادح إلى ربك كدحا فملاقيه ..

ـ يا إمامى . لم يعد حالى حالى ، جئتك ملوعا بالفقد ، ولما أطلعتنى على ما أفلت منى .. افتقدته أكثر ..

يقول صاحب الثغر العذب المنكوث بعصا الظالمين ..

ـ كل شىء بقدر .

استمر فى قولى لعل وعسى .

ـ رأيت بعضا مما سعيت إليه ، هذا حق ، شاهدت مالم يتح لغيرى ،

هذا حق ، صحبتنى ، وهذا شرف عظيم لم يحظ به إنسان من العالمين ، لكننى كنت متفرجا ، مبددا . لم أكن فاعلا ..

يقول مراد الطالبين ، ونهاية مقصد الساعين ..

ـ وجودك محدود وتبغى وجودا غير محدود ..

أهتف :

ـ أعنّى ..

يجيبنى :

ـ أعن نفسك ..

أتوسل :

ـ تبهت الذكريات عندى ..

يقول :

ـ اسع ..

أفيض :

ـ يا حبيبى ، يا مغرب الأسرار ، يالطيف المنن ، يا رفيق الاشارة ، ما أبغيه لحظة تبقى ولا تفنى ..

يقول :

ـ كل يوم هو فى شأن ..

أشرح :

ـ مجرد لحظة عابرة ، تقع فيها عينى على من فقدت ، على من ضاع منى ، على من طواه العدم ..

يقول شفيعى :

ـ لايفنى أب له ابن ..

أقول :

ـ لكننى قصرت ..

تقول سيدتى ذات اللطف النورانى :

ـ بل ضيعت ما ضيعت ..

أستفسر خجلا :

ـ ماذا ضيعنى ، وفى أى حيز فقدت ؟

يبتسم :

ـ ألم أقل إنك لن تستطيع معى صبرا ..

ارتددت إلى صمتى ، ضاق اللفظ ، اتسع المعنى ، صعب المراد واستغلق المقصود ، وصار ما أراه قريبا منى ، غير أنى خفت الفقد فنطقت :

ـ وعزتك عندى ، ستجدنى صابرا ولن أعصى لك أمرا ..

وهنا سمعت مولاى الحسن طيب القلب :

ـ جمال ، أتحنا لك ما رأيت لأنك سقتنا فيما جئتنا له ، لكن المتاح مقدر بأول وآخر ، وحتى تقر عينا فإن منتهاك لم يحن بعد ..

وهنا نطقت رئيسة الديوان :

ـ أم تظن أنك مقدر بوجود لا يبلى وعمر لا يفنى ؟؟.

أجيب :

ـ لا وجلالك عندى .

تقول :

ـ كل من عليها فان ..

أهمس حزينا الحزن كله ، أسيانا الأسى المر ..

ـ عفوك يانقية ، رضاك ياطاهرة ، كان أملى استعادة ما ضيعته فإذا بى أضيع

ماتبقى لى ، ظننت أننى وصلت بينما أنا فى عين الفصل ، ظننت أننى اجتمعت وأنا فى عين الفرق ..

ينطق أمامى :

ـ لست مهملا ولن تترك سدى ..

يتزل قوله بردا وسلاما علىّ . تقول رئيسة الديوان ..

ـ أمامك المقامات ، فسلم وافهم واكتم ، دليلك شيخ العارفين محيي الدين ..

.. وهنا غمرنى خوف ، ألم يحتز رأسى ؟ ألم يفرقنى عن بعضى ؟ ها هو ذا يقف مهيبا ، بالضبط كما رأيته أول مرة . لمحت شبها يجمعه بعظيم ممن عرفتهم أول فتوتى ، وبداية تلمسى الطريق ، الشيخ أمين الخولى الذى أنار بصائر عدة . وليس هذا بالمقام المناسب لأفصل معرفتى به ، رأيت شيخى محيي الدين بن عربى يقبض على قلبى فى كفه اليمنى ، يفك المنديل المنسوج من الضوء الغروبى والموشى بظلال النجوم ، يبسط راحته فيفك أسره ، يسعى قلبى ، نعم .. يمشى ، قلبى أنا المنتزع من وطنه الذى هو صدرى ، ها هو ذا حى ينبض ، هذا خفقه ونبضه ، أتعرف إلى الخفقة المتعبة التى أصغى إليها الأطباء طويلا فى دنيا حسى ، قبل أن يصرحوا لى بتعب قلبى نتيجة علة قديمة ، وكأنه لاينقصه إلا عطب مادى مع انه ناء وفاض . هاهو ذا يسعى ، ثم يسجد ، يسجد على مرأى منى أمام الديوان كله ، يستدير تجاه مولاى الحسين ، أصبح قلبى يرى ، فى الصدر أعمى لأن الصدر حجاب عليه ، والآن له رؤيته ، يختار وجهته بمنأى عنى ، فأنا التابع وهو المتبوع ، يتناوله مولاى الحسين بيديه ، يرفعه ، يتأمله ، يهمس إليه بما أجهل ، يسلمه إلى شقيقته الطاهرة النورانية رئيسة الديوان . تنظر إليه ، تغدق عليه الرحمة ، فيهدأ ميدى ويكف زلزالى ، ليس بوسعى إلا المراقبة فلا أعلم المراد بى أو

بقلبي ، كفانى رضا أن الحبيب أحاطه بأنامله وأسبغ عليه العناية ، وبث النفس العطرى حوله ، رئيسة الديوان تطيل النظر ، تمسك جنبيه ، تباعد ما بينهما فينغلق كالثمرة ، ينقسم إلى قسمين موصولين برقيقة واهية ، فينفصل ويتصل ، فى دنيا حسى خفت اجراء عملية لإصلاح علتى ، عندما علمت انى أغيب عن وعيى ، وأن الطبيب المداوى يشق صدرى ويستخرجه ويغرز فيه المشرط والرباط ، كنت أجزع ولا يغمض لى جفن كلما تخيلت ذلك ، وها هو ذا قلبى منفصل عنى ، ولست بفاقد شعورى ، ولا أدرى المراد بى وبه ، هاهو ذا قلبى شطران ، يفيض ما بداخله ، تتدفق أحزانى ، فيض لاينقطع وسيل لا ينتهى ، عديدة لاحصر لها : حزن على ما ولى وافتقد وهذا أعظمها ، وحزن على أحبابى الراحلين ، وعشقى القديم وآمال لم تتحقق ، وحزنى على ديار فارقتها ، وأرض أخرى لم أكن بالغها إلا بشق الأنفس ، وحزنى على أمسيات لطاف ، ولحظات قصار ، اتصل فيها الود بين العيون ، وأصغيت فيها إلى الأحبة اصغاء جميلا ، ولحظات وُدِّعت فيها ، حزنى على الشفق ، ونزول الغسق ، وحزنى على نسمة لن ترجع ، بحزنى الغامض ، مجهول الكنه والأسباب ، وحزنى الداهم المفاجئ الغتيت الذى يقبضنى من كافة جهاتى ، وحزنى السارى عندى على مهل فيكدر شربى ويعتم هواى ، وحزنى على أحزانى ، يفيض هذا كله من قلبى ، حتى إنى تعجبت ، كيف اتسع حيزى لهذا كله ؟ لاحظت ان سيد عرش قلبى والمتولى على خفقاته ! يرجع الطرف بينى وبين مكنونى ، فرق فؤادى لى وصعب علىّ حالى ، دمعت دمعتين ، وهنا تناولت رئيسة الديوان قلبى كالوليد وعلى مهل غمسته فى وعاء الحنين ، ثم غمسته فى وعاء الشوق ، ثم الآمال ، ثم الرجاء ، ثم بللته بالرضا والصبر الجميل ، ثم جمعت أحزانى التى فاضت ، واستخلصت لبها ودسته فى غرارة كيس قلبى الدفين ، ثم غسلت هذا كله فى الشفق الوردى ، وهذا جوهر

وجودى ، وخلاصة سرى الذى لم يطلع عليه مخلوق ، فاحفظوه عنى يا هواة ودى ، حفظكم خالق من كل سوء . لما فرغت رئيسة الديوان نظرت إلىّ ، فتعاظم عندى الوداد ، ورأيت فيها هيئة أمى عندما تتأملنى صامتة ، تنطق فى سكوتها بما يعجز اللسان عنه من حنو ورفق وشفقة بى . تمد قلبى إلى شيخ العارفين ، يلتفت إلىّ ..

ـ قلبك عندى أمانة ..

أسأل :

ـ لم ؟.

ـ حتى لا يتحول ..

أولىٌ بوجهى تجاه حبيبى ، أنطق من حزنى وخوفى .

ـ أتنفينى عنك ؟

يقول أنور الجبين :

ـ هذا شيخك فى مقاماتك .. اتبعه ، واخلص ، تكن من الكُمل ..

إذن . أوصانى تاج فؤادى ونبراسى ، فأسلمت أمرى ، وسكن ميدى . لكن بقى عندى خوفى من شيخى ، خوف التلميذ فى مواجهة أستاذه ، وخشية المريد إذ يخلو إلى شيخه ، ورهبة الطالب الذى يجدّ فى أثر مطلوبه ، بقى خوفى والخوف لايكون إلا مع الجهل ، فلم أدر ما سيصير إليه أمرى مع شيخى ، خفت مع أنى لم أخف عندما صحبت مولاى الحسين ، فهو الأمن وان أخافنى ، وهو الرضا وان أسخطنى ، وهو الرحيم لى وان كدرنى أو عاقبنى ، أما فزعى الأكبر الآن ، ان يكون هذا آخر عهدى به : فلا تدرى نفس مادا تكسب غدا ، ولا تدرى نفس بأى أرض تموت ، لم أصرح بما عندى وإن أيقنت ما من شىء يخفى على سادتى ، غير أننى لم أتأكد ان كان شيخى يحاط علما ؟ فارقت مركز الديوان

وعندى حنين إلى قلبي ، حنين لا يصحبه خفق ، فقلبي منى ، صار لى قانونى الخاص ، وحالى الذى لا حال مثله ، هاهو ذا شيخى الأكبر يسعى ، يخطو مهيبا ، لاتنقص المسافة بينى وبينه ، عبرنا منازل الديوان ، والحنين إلى سادتى يشتد ويقوى ، ألم يغسل فيه قلبي ؟. تبدو من بعد سحيق شجرة ، أو تكوينا يشبه شجرة ازداد اقترابا ، هذا جذع بعيد فى أسفل سافلين ، وفروعها ضاربة فى أعلى عليين ، لايقدر بصرى على الإحاطة بها ، وكلما اقتربنا ازددت يقينا باستحالة وصفى لها ، أو تصويرها لكم ، ولكننى باذل جهدى غير مدخر ما فى وسعى ، وخالقى المعين فلا شبيه لها فى الأوصاف التى أعرف :

ـ تلك شجرة الخلق .

أخذنى البهت ، وفى اللحظة ذاتها اتئنست بشيخى ، هو سيد العارفين الذى اهتديت على يديه قبل أن أراه ، وصحبته قبل أن ألقاه ، وحدثنى قبل أن أسمعه ، وشرح لى قبل أن يعلمنى بعضا مما يعلم ، وزادنى اطمئنانا شبهه الغريب بشيخى أمين الخولى ـ رحمه الله ـ غير أن ماشاب أمنى وكدر طمأنينتى أنه هو الذى حز عنقى ، وهذا أنا ، المحكوم عليه بألا يأمن أبدا حتى فى لحظات أنسه ، شيخى الأكبر يحدثنى :

ـ تلك شجرة لم يرها آدمى قبلك ، فأبشر بالخطوة .

لكل مخلوق من أنس وطير وحيوان وجن ورقة .

هنا ، يبدأ برعمها مع بدئه فى الحياة الدنيوية .

ثم تنمو مع نموه ، لاتتقدمه ولا تتأخره إنما توازيه .

تخضر مع شبابه وتصفر مع شيخوخته ، وعند الأجل .

المسمى يدب إليها الوهن فتسقط عند تمام النضج .

إذا نضج الثمر سقط ، وتلك لحظة مقدرة فى اللوح .

المرصود حيث ما كان وما سيكون

أصغيت ، ما أطلع عليه لم يره بشر إلا المصطفون من الكُمل ، مع ذلك أضمرت فصولا لم أفه عنه ولم أصرح به حول اللوح المرصود ، تمنيت لو أقف على مصيرى وما هو مقدر لى . ومصائر إخوانى ، لم أبح الآن إذ يسعى شيخى وأسعى خلفه ، كنت أرى الفروع والأوراق فى جملتها وليس فى تفصيلها ، حيرنى مصدر الضوء الخفى ، فلم تعهده عينى فى دنياى ، سمعت ما يشبه الصراخ أو الاستغاثة فوجف فؤادى وتبلبل خاطرى ، ثم هدأ حالى لما عرفت أن هذا مصاحب لسقوط أوراق وانفصالها عن أغصانها وأن آجالا حانت وتمت ، رأيت أوراقا تتهادى وكأن رياحا خفية هينة حنونا تحملها قبل ذهابها إلى الهو السحيق . وقع عندى أسى ، فأوانى خريفى كذا مطلعى ، والخريف يا أحبابى حد بين حدين ، كالفاتر بين الماء الساخن والبارد ، وكالصوت بين المخافتة والجهر ، وكالتبسم بين الضحك والبكاء ، وكالاغفاءة بين النوم واليقظة ، وكالنوم بين الموت والحياة ، مرج البحرين يلتقيان ، بينهما برزخ لا يبغيان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان . استوثقت أن كينونتى خريفية ، لذا قدر علىّ الأسى الدائم المصاحب لى حتى فى ذرى بهجتى ، والذى يدفعنى إلى الصمت المفاجئ ، أو الإطراقة المباغتة ، بدون أن يبدو علىّ أو يلوح عندى ، وظل هذا مجهولا لأقرب أحبتى ، عدا اثنتين ، الأولى أمى ، والثانية سأبوح لكم باسمها إذ أنها ليست مصاحبة لى فى نشأتى الأولى ، رحم الله أيامى مع الأحباب الخُلّص ، ولو اتسع المجال وتيسرت السبل فسأعقد فصلا خاصا بالخريف ، فالحديث طويل والأمر جلل . رأيت أوراقا لم تزل بعد خضراء تبتر فجأة ، تهوى ، واستحال علىّ رؤية المقر . قلت لشيخى الأكبر :

ـ أين منبتها وكيف غرسها ؟.

قال لى إن الشجرة المثمرة إنما تنبت بالحبة التى ينمو بها أصلها ، فإذا غرست

تلك الحبة وغذيت وربيت حتى نبتتْ وفرعت وأورقت واهتزت وأثمرت . فإذا نظرت تلك الشجرة رأيتها فى تلك الحبة التى نبتت منها هذه الشجرة ، فالحبة فى البداية نطفة حتى أظهرت صورة الشجرة ، والشجرة فى النهاية بها ظهرت فأظهرت تلك الحبة ، فهى من الوجود وهى للوجود ..

قلت : لا أفهم .

قال لى ان مثال ذلك تاجر عمد إلى فراشه وبزه فطواه فى خزانة ملكه وعبأه أثوابا بعضها فوق بعض ، فأول ثوب دمجه وطواه هو آخر ثوب أظهره وأبداه .

ثم قال لى إن كل شىء فى الكون الحسى من الحوادث ، كالنقص والزيادة ، والغيب والشهادة . والأعمال والأحوال ، والقول والفعل ، والتوق والذوق ، ولطائف المعارف فمن ثمرها ، كذا البعد والقرب ، والمقامات ومناجاة . العارفين ومشاهدات المحبين ، وعالم الصورة والمعنى ..

ثم قال لى : ما أنت إلا ثمرة من ثمارها ، وطرح من طروحاتها ..

ثم قال لى : أعرف ماتفكر فيه .. لكنك لو أردت الاحاطة بها فأنت فى حاجة إلى عمر يماثل عمر الكون ، لكننى آتيك بما تقدر عليه وأقدر قبل أن يرتد إليك طوفك .. انظر .

.. يتأخر عنى ، لماذا لم يتقدمنى ؟ سبح رأسى حتى نقطة لم أستطع التقدم بعدها ، تطلعت ، لو أن قلبى معى لانخلعت ضلوعى وتصدعت من خفقه ، أواجه غصنى ، أحدق فى وريقتى ، حاولت النظر إلى نقطة التقاء غصنى بفرع الشجرة لكننى لم أقدر ، تمنيت أن أدرك قوته واحتماله واستنتاج المتبقى ، استعصى على ، فالظلال مبهمة والتشابك وعر ، تلك حياتى ، الآفل منها والمقبل ، كل قديمى ومحدثى وما سأصير إليه ، أراها خطوطا نحيلة على الورقة التى لا أدرى متى ستهوى ؟ غشانى الحزن الخريفى الذى أعرف ، الغروبى الذى طالما أوجعنى الوجع

المهين ، كأنى أرى عمرى بعد الختام والقفل . تمنيت لو شرعت فى المكوث حتى أوقن أن ورقتى لن تسقط أبدا . أن أثبتها بيدى ، أن أرعـاها ، أن أرقبها . لكن أين يُداى ؟ ومن يمكننى ، لو أعرف الآن متى سأقضى وإلام المصير ؟.

ـ فى اللوح المرصود ..

تطلعت بعينى المثقلتين بكسوف ثقيل إلى شيخى فى الطريق ..

ـ وما السبيل ؟

ـ اسأل سادة الديوان .. هذا ليس عندى ..

ـ أى وسيلة إليهم ، وهل أراهم مرة أخرى ؟ كيف الطريق إلى معرفة المحو والإثبات ؟ غمزنى شيخى فى مؤخرة رأسى ..

ـ ارحل .. ولا تكن ممن أقام وحل ..

ـ إنى من الراحلين أبدا ، لكننى أود لو أرى ..

قاطعنى :

ـ انظر ..

فأطعت ، رأيت الأشكال كلها من طول وعرض وانحناء واستقامة واستدارة ، وتثليث وتربيع ، تلك الليالى كلها . الشروق والغروب ، والفجر ومصادر الكآبة ، والبراعم التى تنبت الحنين ، وغصون الآمال الرطيبة ، وجذور الكدورة ، وتشابك هذا بذاك ، وثمر الانقباض ، طافت بى الخواطر وحمت حول مصدرها . أوقفنى عند البدء فنفذت بالبصر الحديد إلى ليل بعيد ، تلك ذراتى مشتتة فى دماء أبى وخلاياه . وتلك كامنة عند أمى ، رأيت شطرى من أمى يلتحم بجزئى من أبى وأنا شىء ولاشىء، التفت إلى شيخى أى أننى درت برأسى التى هى كلى . فهم عنى بالصمت ، سمح لى فسددت البصر إلى ورقة أمى ، دهمتنى فزعة إذ رأيت وهنها وضعفها واصفرارها ، عكمنى حزن وفرانى ضيق ، تلك

مصيرها إلى انفصال وشيك ، لو دار بى هذا الخاطر قبل ذهاب أبى لنحت النواح الثاقب ، لوليت فرارا وملئت رعبا ، لكننى تألمت ألما مصيره إلى محو ، بررت ذلك بأن هذا مصيرى أيضا ، وربما كنت لها من السابقين ، لكننى جاهل لا أدرى ، دعوت خالقى أن يذهب عنها الصفرة ، أن يبيد وهنها ، أن يبدله اخضراراً لكن هل رأى أحدكم ياأوليائى ورقة شجر تخضر بعد صفرة، أو تينع بعد ذبول؟ إذا رأى أحدكم مثل هذا فليرشدنى ، ليدلنى ، دلكم خالقى على الطرق الآمنة . والدروب السهلة الموصلة إلى الأمان وجنبكم سكتى المعطشة .. آمين ! .

لكن ماذا جرى عندى ؟ وقد كان مجرد خاطر فراق أبى أو أمى يهمى فى مقلتى الدمع ؟ مالى أوشك على الخضوع والامتثال لرحيل أبى ؟ وللتعايش مع يقينى بأننى لن أراه أبدا ؟ مالى أستبق فأتخيل أحيانا أحزانى على اقلاع روح أمى ؟ مالى أحزن لنفسى ؟ حتى أننى لأرثى وجودى وأوانى المغيرب قبل تمامه ؟ مالى وماذا جرى لى ؟ والله أنا فى حيرة مذمومة ياخطارى ، الأمر حيرة ، الأمر حيرة ! ! .

يأمرنى شيخى أن أسدد البصر ، أرى تلك اللحظة من هذه الليلة جدران حجرة فى بيت قديم ، قريب من الأزهر ، لمبة الغاز مطفأة فى الغرفة الوحيدة التى لاتؤدى إلى غرفة أخرى ، مسامير مدقوقة فى الجدار ، علقت إلى رءوسها البارزة جلابيب أبى وفستان أسود لأمى ، وقميص داخلى بصلى اللون ، سبحان من أنعم علىّ بالكشف فجعلنى أرى اللون فى العتمة . والمعنى الغائر فى العيون ، فى الركن حشية يتمدد فوقها أخى الذى ظهرت ورقته قبلى ، اسمه كمال ، لم أر أخى الأكبر واسمه خلف ، حل به الطوى قبل البسط ، تلملمت أيامه القصار وانطوت ، مضت ، لم ينم برعمه ولم يمتد غصنه فى شجرة الكون ، أما أخى كمال هذا فقد رأيته ولم أره ، رأيته فى العمر الذى ينسى فيه كل شىء ويمحى من الذاكرة الواعية ، إذ غاب عنا وأنا ابن عامين إلا أربعة أيام ، فسبحان من له الدوام ، فى

الناحية اليمنى مرتبة محشوة قطنا يتمدد فوقها من هما أصلى وفصلى ، رأيت قفة من خوص مجدول بها ثياب وأربعة أرغفة شمسية من خبز قريتنا ، فوق صحيفة مطوية وكيس تفوح منه رائحة ملوخية ناشفة ، هذا موقد غاز وتلك حلة من نحاس ، وهذا براد شاى من الصاج الأزرق منقط بدوائر بيضاء وأربعة أكواب من زجاج . أبى بين النوم واليقظة . ضجر ، أرق ، قلق ، يتذكر ما قاله عمر النوبى خادم فندق الكلوب العصرى ، انه عند الأرق يناغش امرأته ، يطلبها فيهمد فينام ، رأيت قضيب أبى مولج فى فرج أمى ، خجلت ، ولا أخفيكم يا إخوانى كسوف وحرجى ، فقد كشفت أمرا كان ينبغى أن يُستر ، لكننى مأمور بالتصريح ، أديت الواجب ، فاعذرونى ولا تلومونى ، أنار الله بصائركم ، وخلص من الشبه أدلتكم ، هكذا وقفت على أول مشروعى ، ورأيت أول سعيى فى الحياة الدنيا عندما سعى شطرى من أبى ليلتحم بجزئى من أمى ، علمت أن برعمى فى شجرة الكون مسبق بالضجر والأرق والقلق والضيق والخشية من الغد الآتى ، علمت أننى بدأت غريبا وسأعيش غريبا كأبى ، كما بدأنا أول خلق نعيده ، سأنتهى كما بدأت ، هذا ما لازمنى وما صاحبنى ، بعد أن رأيت ما رأيت خشيت مالا يجوز الخشية منه ، ألا أوجد مع أنى وجدت بالفعل ، ماذا كنت سأصير إليه لو أن النوم غلب أبى ؟ لو ان أمى لم تستجب ؟ لو أنه استلقى على الظهر واندفق منيه فى حلم ليلى ؟ لو ان الذرات المؤدية إلى تكونى ضلت طريقها إليه ؟ ماذا لو أن أمى لم تخرج فى ذلك اليوم ولم تعبر الرحبة ولم يرها أبى ولم يسأل الشيخ عبد اللطيف : ابنة من ؟ فيجيبه : أزوجها لك ؟.

ـ تساؤل طالما راودك ..

بوغت ، شيخى الأكبر يصغى إلى سريرتى ، يُبتسم لى ابتسامة لم ترحنى ، يقول لى قبل أن أنطق :

ـ بل تمنيت ..

تألمت ، قال بتأن بالغ :

ـ بلى . وددت أبا غيره .

ـ هذا بعيد عنى ..

ـ وكنت تخجل من التصريح بوظيفته وعمله كساع .

أسبلت جفنى كبديل لإطراقة رأسى .

ـ كان ذلك فى زمن جاهليتى ، قبل هدايتى وانحيازى إلى الفقراء أمثالى ، ومحاولتى تبديد الظروف المؤدية بهذا إلى فقر ، وذلك إلى ثراء ..

ـ هذا حق ، وما ذكرته أنا حق ..

ـ سيدى .. لم أتخيل الفراق أبدا ، كنت أصغى إلى القرآن الكريم يصف يوم الهول الأكبر ، يوم تذهل كل مرضعة عما أرضعت ، وأحزن لمجرد تصورى أننى سأشغل عنها يوم الحشر الأعظم ..

يقول شيخى الأكبر :

ـ كنت صغيرا ، ضعيفا ، فى حاجة إليها ..

أتضرع :

ـ مولاى ، أنت تقسو علىّ ..

ـ يا ولدى ، أنا أعلم الناس بما كابدت ، أعلم أن الشفقة ملازمة لسفرنا هذا . لكن للحقيقة قيظ مقض موجع ، يابنى ما من سؤال إلا له جواب ، فتأهب لتحل بمقام الاغتراب .

ـ أيطول مقامى ؟.

ـ ستلق ما كنت ستصير إليه لو أن ذراتك المكونة لوجودك افترقت وضلت وما سعت .

ـ وأبي ؟.

ـ أبيها ؟.

ـ أبي الذى من أجله خرجت ، من أجله جئت إلى الديوان.

يبتسم ، لكنها ابتسامة تقضقض سكينتى..

ـ أتذكره ؟.

أتوجع :

ـ مولاى .. لست بضنين.

يملس شعرى :

ـ ارحل ..

أدرك أننا نتأى عن شجرة الخلق ، نفارق نموها وطرحها ، كمالها ونقصانها ، نلج خلاء كله غماء ، أعى أن الظلال التى رأيتها تتخلل الغصون والأوراق ماهى إلا المصائر البديلة ، انتبه إلى شيخى الأكبر يخاطبنى بلا صوت ، بلا نطق ، تخرج المفاهيم من عنده إلى عندى :

ـ لما كان الخالق كل يوم هو فى شأن ، كان تقليب العالم من حال إلى حال مع الأنفاس ، فلا يثبت العالم قط على حالة واحدة ، لأن الله خلاق على الدوام ، ولو بقى العالم على حالة واحدة زمانين لاتصف بالغنى عن الله ، ولكن الناس فى لبس من خلق جديد ، فسبحان من أعطى أصل الكشف والوجود التنزه فى تقليب الأحوال والمشاهدة لمن كل يوم هو فى شأن .. فافهم !

* * *

مقـام الاغـتراب ..

﴿ .. على أن نُبَدِّلَ أمثْلكُم وننشئكُم فى مالا تعْلَمون . ولقد علِمتُم النشأةَ الأولىَ فَلَوْلاَ تَذَكَّرُونَ ﴾

صدق الله العظيم

.. أبدأ بالاعتذار ، فالمقام مبهم ، والحال غالب ، وعندما سطرت ما ذقته وعلمته أول مرة كان الأمر سهلاً عليّ ، وبعد تمزيق ما كتبت ، وبعد أن أمرني شيخي الأكبر بإعادة ما دونت ، لقيت العسر والمشقة ، خاصة وأنا لست أنا ، كما أن وجودي ليس وجودي ، وهنا أصمت فلا أبوح ، فثمة سر عظيم أعدكم بالكشف عنه في المقام الأصح والأوان المواتي . نعم .. فالمهم وعر . وعليّ أن أدرك ما بين الظل والأصل ، والصلة بين الرائحة والزهرة ، أن أرى بعيني مادة الفكرة ، أن أسبح من المصب إلى المنبع بلا مدد ، خلواً من المعاونة أو مساعدة مرجوة ، عليّ التشبث بمالا يثبت أبداً ، بما يفلت وينأى دائما وتعجز القدرة الإنسانية عن ادراكه أو اللحاق به ، ولولا التكليف لما أتممت ، لهذا لو بدا الأمر صعبا في موضع ، مستغلقا أحيانا ، ألتمس العذر ، لكن صدقوني في كل ما أسر به أو أعلنه. فلم أحرف ، ولم أبدل القول الملقى عليّ ، ولم أموه ، ولم أكذب ، لم أتحامل ، ولم أجامل ، ولم أدون خلاف ما عرفت أو رأيت ، هذا حق ، وسادتي أركان الديوان ، وشيوخي ، الأفاضل ، وأصحابي في الطريق ، وكلهم عليّ شهود ، أصرح بهذا عند بداية المقام لأنني واجهت ما استغلق عليّ ، وما لايمكن التعبير عنه بمفردات النطق والكتابة . من ذلك على سبيل المثال لا الحصر ، أن وجودي الجثماني المختصر في رأسي ، امتزج بوعيي ، وصار

بديلا عنه أحيانا ، أى أن وعيي أصبح عوضا ، من ذلك ادراكى لحركتى دون قدمين ، وقبضى على المحسوسات دون يدين ، ونظرى إلى المرئيات بلا عينين ، واصغائى دون أذنين أقول أنا التائه مفتقد المضجع والمقر ، انى أطعت فتبعت شيخى الأكبر حتى انتهى سعينا إلى مدينة غريبة عنى مألوفة عندى ، غريبة لأنى لم أجتز بواباتها ، لم أحط بمطاراتها ، لم أرتد مقاهيها ، ولم أتأمل واجهات بيوتها ، ولم أعبر الجسور المؤدية إليها ، ولم يتبدل هواى فى طرقاتها ، مألوفة لى إذ خالجنى يقين أننى عشت بها زمنا ، وأننى أنفقت من عمرى فيها قدرا ، متى ؟ هذا مالم أقف عليه كيف ؟ لم أجد الإجابة . وسبحان علام الغيوب ، رأيتها كلها كأنى أقف فى نقطة شاهقة من فضائها ، أسطح البيوت محدبة ، بعضها مكسو بقرميد أحمر ، أبراج كاتدرائيات ضخمة ، ومئذنة وحيدة مغربية الهيئة ، جدران رمادية ، ونوافذ مستطيلة ، شرفات قليلة مغطاة ، أرصفة عريضة ، وأحواض مستطيلة للزهور ، ومقاعد متباعدة لجلوس المتعبين ، ومراسى قوارب ، وسفن صغيرة ترسو فوق مياه نهر يتخللها ، نهر ليس فى اتساع النيل الذى أعرفه ، نيلى العريض المهيب القديم ، النيل غريب الصمت كما وصفه شاعر من صحبى فى زمنى ــ الأبنودى ــ وهو يهجو الجلف الجافى حيا ، لعنه الله أبدا ، رأيت جسورا حجرية على جانبيها تماثيل برونزية لآلهة قدامى فى هيئة بشر ، وأعمدة اضاءة استوحى صانعوها الأغصان المورقة ، تنتهى بمصابيح تشبه تلك التى رأيتها فى زمن صباى معلقة إلى جانبى عربات الحنطور التى كانت تصطف عند مدخل شارع الأزهر ، رأيت المطر متجمعا فى وهاد الطريق وعند نهاية الأرصفة المنحدرة تلتصق قطراته بأوراق الشجر المصفرة والجذوع المجدبة ، وأسوار الحدائق وزجاج مقصورات التليفون العمومية ، والمقاعد الخشبية المتباعدة ، إذن .. جئت فى زمن المطر الشتوى ، يداخلنى

انقباض ، لو ان قلبي معى لتسارع خفقه ، لكنه منى عنى ، ذلك تقدير العزيز العليم ، أعرف ضيقى عند نزولى وحيدا إلى مدينة أول مرة ، لا يعرفنى فيها أحد ، لاينتظرنى أحد ، عندئذ يدهمنى حنين إلى زمن فارقت ، وأقسى ما كابدته فى عمرى الدنيوى الحنين إلى ماليس فى متناولى ، هذا سر كدوراتى ، ولب عذابى ، فى اللحظات الأولى لا أطيق البقاء ، أتمنى لو بقيت وما فارقت ، لو اقمت وما غادرت ، أتمنى الاستيطان أنا المفطور على الرحيل الأبدى ، وعند تدوينى ذلك الجزء من هذا المقام تجلت لى أمى فأحاطتنى دهشة من كافة جهاتى ، تلك المرة الأولى منذ سلوكى الطريق . تواجهنى ، تقف أمامى ، تغدق علىّ حنانا غزيرا ، ومودة ، ورغبة دائمة فى القربى ، ورقة ، وتهديني سلاما كثيرا ، لم أدر إلى أى مرحلة من عمرها تنتمى ملامحها؟ إلى شبابها أم شتاء عمرها؟ تغطى رأسها طرحة بيضاء ، وترتدى جلبابا أبيض ، والوشم الأخضر يلمع وكأنه وشى ذقنها بالأمس ، لماذا تتجلى لى؟ ماذا جرى؟ تقلقلت، وتمنيت الرجعى إلى شجرة الكون لأستوثق ثبات ورقتها وبقائها ، بدأ عندى حزن غامض غريب لم أعهده أنا الذى ظننت أننى خبرت الأحزان كلها ، حزن هادئ ممض يدفع بدمعى إلى مشارف المآقى ، لكنه لايسكبه فيظل حبيسا. حزن فاتر بين بين فلا يفنى ولا يزول، ولا يبلغ حده الأقصى، يبدأ عندى القلق الممض الموجع ، قلق الابن البعيد المسافر الغائب ، ينبئه الشعور الدفين أن أعز الناس عنده لحقه أذى ، يود الاطمئنان ، لكن ما من نبأ يقين ، بينما تعصف به الهواجس وتغريه الظنون ، وبقدر مايود أن يهتدى ، غير أنه يتمنى لو ظل على جهله حتى لايفجع بالنبأ العظيم ، كلا ستعلمون ، ثم كلا ستعلمون ، علم اليقين ، وقت أمى الذى تواجهنى به شفق وان لم أدر أهو شفق ما قبل ، أم ما بعد الغروب؟ أما زمنى فختلط أمره علىّ ، وهذا ما أعتمنى ،

أن يكون لها زمن ، وان يكون لى زمنى ، فاحجب غضبك ومقتك عنا ياعلام الغيوب .

ـ ياجمال ..

تطلعت بعينىّ ، أجبتها بحبي وخضوعى ورغبتى فى الدنو ..

ـ ألم تسمع أن الدنيا لا قرار لها وانها تتقلب ؟؟.

قلت : نعم ..

قالت لى : اجعل فصلا فى ذلك المقام لهذا المعنى ..

انتهى التجلى فولت ورحلت ، امتثلت لمطلب نن عينى ، من كان رحمها أول موطن لى فى هذا الكون ، استخرت الله وبدأت الكتابة ..

فصل

.. جنبكم الله يا أحبائى الغفلة ، وبسط سرائركم ، وخفف الحنين ، وجنبكم اللوعة والحيرة المذمومة ، والنأى البغيض عن الأحبة ، واليأس التام من لقائهم ، وقاكم الله لظى الغربة ، وثلوجة الوحدة .

اعلموا أن أصل الأشياء التفرقة ، لا أذاقكم ربى مرارة الفرقة ، يحن الإنسان إلى بلد أو مكان خلاف ماعرف وألف ، ويبذل الجهد والنفس الوعر الأشق ظنا منه أن سيلقى الراحة التى يفتقد ، ويحقق الأمل الذى عجز عن الوصول إليه ، ويبلغ المأرب الذى سعى دوما إليه ، حتى إذا سافر أو هاجر أو انتقل ، وأصبح البعيد قريبا ، والقريب بعيدا ، حن إلى الوطن الأول ، والموضع الأصلى ، ورأى فيه مالم يره أثناء كونه حاضرا معاشا ، عندئذ يحن ويهفو ويتذكر فيأسو ، وربما ضاق الإنسان بزمن معين حتى إذا ولى وصار ماضيا

مفتقدا حن إليه ، فالحنين لا يكون إلا لماض أدبر ، وقد قاسيت هذا كله ، حتى أنني أهفو أحيانا إلى لحظات من زمن سجني وتقييد حريتي ، واستعيدها فأتبسم وأنا فى جمع وصحبة .

وعند هذا الحد من التقييد الذى بدأته امتثالا لمطلب أمى ، رأيت مولاى وشيخى الأكبر يميل علىّ ، فصرْت أخط ما يمليه هو ، وليس لى من الأمر شىء

وصل فى فصل

أملى شيخى محيي الدين ما نصه :

.. إنه لايوجد أحد راضيا بحاله فى الوجود أصلا ، ولذلك علة أصلية وهى أن الحق كل يوم هو فى شأن ، فما تجد أحدا من صالح ولا غير صالح إلا ويطلب الانتقال من حاله ، هذا هو السارى ، ولا ترى أحداً إلا وهو يذم زمانه ويحمد ما مضى وخلا من الأزمان ، وليس زمانه إلا حاله منذ وجدت هذه النشأة ، وأى زمان كان فيه بنو آدم فى وقت آدم نفسه ، حتى ذكر أنه قال فى نظم له بلسانه ما ترجمته .

تغيرت البلاد ومن عليها   فوجه الأرض مغبر قبيح

فالإنسان يذم يومه ، ويمدح أمسه ، وهو الإنسان عينه لاغيره ، وقد كان أمس يذم يومه ، ويمدح أمسه ، وهو الإنسان عينه لا غيره ، إن الإنسان مجبول على القلق من الضيق وطلب الانفساح والانفراج عنه ، ويتخيل أن كل ماهو خارج عنه فيه الانفساح من هذا الضيق الذى هو فيه ، وذلك أن الإنسان إذا كان فى حال مامن الأحوال فإنه مقبوض عليه بذلك الحال لإحاطته به ، فيحد

نفسه محصورا ، ويرى ما خرج عن ذلك الحصر انه انفساح وانفراج ، لأن الأمر الخارج عن حاله ما هو واحد بعينه فيضيق عليه الأمر ، فلهذا يجد السعة فيما عدا حاله الذى هو عليه ، فإذا خرج من ذلك إلى الاتساع المتوهم ، فيجد الانفراج فيما فاته ، والضيق فيما احاطه ، فيطلب الإفراج عنه ، كما طلبه فى الحال الأول ، فلا يزال هذا ديدنه والله يخرجه من اسم إلى اسم دائما ، أبدا ..

انتهى ذلك ..

رُجْعَى إلى ذلك المقـام

كلما بدأت غربتى ، تنتابنى خشية موت الفجأة ، فلا أرى الأهل والصحب ، غزانى هذا الخوف عند مقدمى هذه المدينة التى لا أعلم ما سيجرى لى فيها ، وأين مأواى ؟ يبدأ دنوى ، أجىء من جانبها الأيمن ، هذا الطريق السريع ، وتلك الأشجار المنمقة ، متجاورة فى خطوط متساوية ، جذوعها نحيلة ، تبدأ غصونها التفرق والتفرع عند المنتصف ، ثم تتجمع فيما يشبه الاكليل ، الحدائق تتخلل البيوت وتحف الحدود الخارجية بما يشبه الاطار الأخضر ، مداخل البيوت منطوية لاتفصح ، الستائر مسدلة ، تنبعث أضواء خافتة تشى ولا تشى ، العربات تمرق مسرعة ، لافتات الأرقام صفراء ، قطعت مسافة لا أدرى ان كنت سابحا أو طافيا ، يصير احساسى بوجودى عجيبا وكأنى أبدأ النشأة الأخرى ، تلك نافورة متعددة الشعب تطلق مياهها إلى علو ، تتخللها الأضواء الناصعة فتتلألأ عبر القطرات الماسية ، رأيت نافورة ميدان التحرير فى قاهرتى النائية عنى ، كان ذلك أول زمن عبدالناصر ، عيد من أعياد الجيش ، أبى يحمل أخى على الأصغر ، أمى تمسك يد أختى وإسماعيل إلى

جوارى ، فى الحديقة جمع ومارة ونحن كل ملتئم ، نتفرج على الأضواء الملونة الحمراء والصفراء والزرقاء ، وموسيقى تعزف من مكانا ما ، واعلان ملون يبرق فوق عمارة مرتفعة مطلة على الميدان ، النافورة انشاء حديث ، والسماء نائية ، والزمن آمن ، والليل فى بدايته وأبى يشير بيده ناحية النهر يقول لنا إن ثكنات الجيش الإنجليزى كانت عند هذه الناحية . وأمى تطرق صامتة ، رأيت نهارا مجهولا نائيا غائبا نقف فى حديقة الحرية التى تتوسط الجزيرة ، نواجه كاميرا تستند إلى ثلاث قوائم خشبية ، ورجل عجوز يدس رأسه فى كيس مفتوح من القماش الأسود ويطل ليشير بيده حتى تعدل وقفتنا . وهذه صورة يتيمة وحيدة نجتمع فيها معا . ولو أنها معى لنظرت فيها ولقيت من هذا الزمن المندثر أثرا ، أين هى الآن ؟ اسألوا يا اخوانى هذا الضابط العتيت الذى طرق بابنا فى الفجر ، وأرعب أمى وأرجف أبى وأفزع اخوتى مما ترك أثرا غائرا فى شقيق الأصغر على لم يمح حتى كتابتى هذا ، رأيت إخراجه أوراقى وكراريسى وصورى ، استولى على هذا كله ، فجردنى من كنز ذكرياتى ، حتى صورى مع زملاء دراستى الابتدائية والاعدادية ، جردنى من كل أثر احتفظت به حتى العام السادس والستين بعد التسعمائة والألف ، فلم يعد لى من ذلك الزمن المنقضى ما يحتفظ بملامح أحبتى . تلك الصورة راحت فيما راح ، ونافورة ميدان التحرير زالت كذا نسمات العصارى التى هفت وبللت فؤادنا ، وتلك النسمة العفية التى تخللت شعر أمى المطل من تحت الطرحة فحركت خصلة منه وبدلت موضعها على الجبين ، راح هذا كله كأنه لم يكن ، فسبحان من له الدوام ! ، رأيت ثلاثة مقاه متجاورة ، مقاعدها مصفوفة وراء حواجز زجاجية ، مظلاتها حمراء ، تقى الجلوس برد النواصى ورذاذ المطر ، أين أنا ؟ لم يكشف لى ذلك ، وعندما تأهبت لألقى نظرة على طريق فسيح يصعد من الميدان إلى مرتفع يتخلله درج

حجرى ، رأيتنى أسعى ، فصحت من روعى ..

ـ إذن ، أنا فى خلق جديد ..

وأتانى صوت شيخى الأكبر من حيث لا أدرى .

ـ بل أنت فى خلق بديل ..

انقطع الصوت فشيخى ليس فى مجال بصرى وان أدركت أننى فى متناوله ، لم أر ملامحى ، فكنت كمن ينظر فى المرآة فيرى شخصا غيره ، هو هو لكن ليس هو ، أو من يضع رأسه بين وسادتين فيصغى إلى قلبه ، نبضه آت من داخله ويبدو وكأنه قادم من خارجه . فسبحان من يعلم ما فى الصدور ، هذا ما كنت سأصير إليه إذن لو أنى لم أنشأ النشأة الأولى ، شاب طويل القامة ، نحيلها ، بنى الشعر ، حواجبه كثة ، خطاه مسرعة بعكس خطاى المتسمة بالتمهل والتأنى ، الشوارع خالية ، هذا أنا ، لكن من أكون وإلام بعثت ؟ من أين جئت وإلى أين ؟ كنت كمن يرى نفسه فى حلم . يرى نفسه من الخارج لكنه يفكر ويشعر ويتألم ويحاور الآخرين ، وهنا ألقى فى وعيى بعض أسرار هذا المقام ، ومنها أننى سأعيش خلق هذا ، غير أن ثمة كرامة خصصت بها وهى احتفاظى بحيانى الأولى فى أصل وعيى ، أما هذا الفتى فلن يعى ، ذلك أن الكرامة خصت وجودى القديم ، ومن أسرار هذا المقام أيضا أن الأمور كلها لن تتجلى وبعضها يسير هين ، من ذلك اسم هذه المدينة وموقعها ، مضيت أتعقب ظلى وأثرى حتى حلت بى ، فأصبح البصر واحدا ، وإن بقيت أنا أنا وهو هو ، مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان ، شعرت بملمس ملابسه على جسده الذى هو جسدى ، وبرودة الهواء تلفح وجهه الذى هو وجهى ، ومسنى حزنه فصار حزنى ، وهنا دخل عليه حنينى إلى موطنى فأينع حنينه ونما وإن حن إلى أصول أجهلها وأمور لم أعهدها ، إلى بيت قديم يقع فى نفس المدينة التى أحببتها

وضقت بها أحيانا ضيق الحبيب من حبيبه ، قاهرتى .. إذن ، المنبت واحد ، سبحانك يا فالق الحب والنوى ، فى هذا البيت جد وجدة ، وخالة ، وأبناء خالتى تلك ، فتى يماثل عمرى ، وفتاة تصغرنى بثلاثة أعوام ، ومكتبة قديمة مزدحمة بالكتب ، وشرفة تطل على ميدان باب اللوق ، وأضواء مآذن رمضانية ، وطرقات خالية عند الغروب والافطار بعد صوم يوم طويل ، ورائحة سمك مقلى عند ناصية ، وضجة مقهى ، ورجل يرتدى جلبابا أبيض ويحمل فوق رأسه سلة ضخمة يبرز منها السميط والكعك وعيدان الجرجير والجبن الرومى وشطائر الطماطم والخيار يسند السلة فوق صندوق معدنى داخله مفاتيح كهربائية أمام بار قديم، لايظهر الرجل إلا بعد العاشرة مساء، شاطئ النيل والقعاد أمام المياه المتدفقة على مهل ، ومما غذى الحنين افتقاد النخيل الكثيف ، والأيام الطفولية الأولى ، والرحلات المدرسية إلى الأهرام وحلوان والقناطر الخيرية ، أسرع الخطى فالوقت يتبدد ، والليل موغل والنذر تنبئ بتساقط الثلوج ، والخطر يكمن فى الشوارع ويحلق بالمتجولين فرادى ، والماضين بلا صحبة وأنا غريب ، صحيح اننى أتقن لغتها كواحد من أبنائها ، لكن فى كل سنة لابد من موافقة لتجديد اقامتنا سنة أخرى ، الأجانب هنا مكروهون حتى لو قضى كل منهم عمره كله ، ولو هاجمنى أحد أبناء هذه المدينة فلن تنصفنى منه الشرطة، بل ستنصفه علىّ، إذن أنا أجنبى ، وهذا أغرب ما صادفنى، أن أصير أجنبيا أنا الذى قضيت أصل وجودى أأتنس بالوطن ، « لا أقسم بهذا البلد ، وأنت حل بهذا البلد ، ووالد وما ولد ، لقد خلقنا الإنسان فى كبد » ، وأى كبد أقسى من أن يكون الإنسان أجنبيا ، دائما تحذرنى أمى ، وتذكرنى وتنبه على أن أحذر الدخول فى مشاجرة أو أصيب شخصا أثناء لعب عنيف ، أفضل لى أن أرجع إلى البيت ، هكذا يجب أن أسرع ، هكذا علمت لأول مرة

من خواطره ـ أى خواطرى ـ أننى أعيش هنا كأجنبى ، وأننى أعيش مع أبى ، وان أمى تعمل فى أحد البنوك ، وان لم أدر طبيعة عملها أو عمل أبى ، تلهفت لرؤيته ، ماهيته ، كيف يبدو ، كم عمره ؟ لماذا فارق موطنه ، وجاء إلى هنا ؟، وعند هذا الحد نشب داخلى حنين إلى أبى أنا ، إلى أمى أنا ، ذكرت أبى والأسى ينهل منى ، وحدة الحيرة تقطعنى ، أى زمن هذا ؟ هل يسعى أبى وتسعى أمى الآن أو أنهما رحلا منذ زمن ؟ وأين أمى التى بدأ قلقى عليها منذ تجليها لى ومخاطبتها لى ، ثم طلبها أن اخصص فصلا ، كلما استعدت هيئتها ارتعدت، فالسماح الذى شف فى عينيها كان رقراقا حانيا، كذا الطيبة، وهذا التعبير الغامض فى عينيها والذى لا أجد له وصفا إلا أنه أقرب إلى الإفصاح عن السلام النهائى ، السلام الذى يعقب آخر الخطى واتمام المرحلة ، هل يخاف الإنسان من نظرة حب وحنان تصله من عينى أمه ؟، نعم ، إذا كان ما بهما يفوق طاقة البشر ، ويوحى بمجهول ، فالستر والرحمة يا من خلقت آدم بين الماء والطين ، احمها ، وخفف عنها وخيب ظنونى بحق جاه حبيبك المصطفى ، حننت إلى أصلى عندما ايقنت اننى أوغل فى ذلك المقام حتى وددت مفارقته ، ظهور أم أخرى لى بعث التشاؤم عندى ، فالستر ، الستر ! ، لا أنكر أن فضولا تملكنى ، غير أن خروجى عن أصلى أربكنى وأحزننى ، كأننى سأصير بددا ، ليس لى إلا ما سعيت ، لذا نطقت لأول مرة « يرحمك الله يا أبى » ، وقد حشت نفسى زمنا ليس امتناعا لكن رفضا لرحيله وانكارا ليقينى أننى لن أراه مرة أخرى عندما كان الألم نصلا مغمدا فى قلبى لا يقعدنى لا يوقفنى ، لا يريحنى ولايرهقنى ولايذيقنى الوسن ، كان الطيبون الأقربون يقولون لى ، ماذا أنت فاعل له الآن ؟ ليس بوسعك إلا أن تطلب له الرحمة وأن تقرأ له الفاتحة . أسمع هذا فلا أزداد إلا عصيا ، طلبى الرحمة يعنى أنه ميت وهو عندى حى ، كم

استمر ذلك ؟ شهوراً ؟ سنين ؟ لا يمكننى التحديد ، لكننى مع كر الأوقات الذى لايمكن رده صرت أقسم « ورحمة أبى »، ثم لا أنطق إلا صدقا ، ومن يدرى . ربما أقسم يوما كذبا ، عندئذ يكون النسيان قد اكتمل ، والأساس الحى عندى قد احتضر ، تلك عقباى إذن ؟ الغوات يا مرادى الأصفى يامن نأيت عنى ، وضننت علىّ بصحبتك ، يا حسينى ! ربما تعلم ان نسيانى مكتمل ولم تصرح لى شفقة علىّ ، النجا ياشيخى الأكبر ، يا محيى الدين . لم يجبنى صوت ، ولم يرتد الىّ صدى ، استمر سعيى ، عبرت طريقا رئيسيا ، رأيت امرأة ترتدى معطفا جلديا تتحدث داخل مقصورة التليفون، المخازن مغلقة، الأزياء فى عتمة الفتارين ، الصيدلية ، متجر لبيع اللبن والأجبان ، اعلان عن فيلم ، فتاة طويلة الشعر عارية الصدر تتعلق برجل أشيب ، اعلان عن حقائب سفر ، مبيد حشرى ، أسرعت إلى الشارع الجانبى ، على الناصية مطعم صغير لبيع الوجبات السريعة والشطائر المحشوة باللحم أو السجق أو الجبن المفروم ، عند مدخل الشارع معرض قديم للسجاد الشرقى ، يعرض فى الفاترينة قطعا صغيرة ، مدندشة من الحرير ، وكأسا عتيقا زجاجيا أزرق ، وعقدا من محار ، يحلو لى ويطيب توقفى وتأملى النقوش الغامضة حتى عندما يكون المتجر مغلقا والعتمة مستبدة ، إنها المنطقة الراقية من المدينة ومجرد السكنى هنا تدل على التميز الاجتماعى ، لكن قبل المجىء إليها مررنا بمختلف أقسامها ، خاصة ابى الذى نزلها فى البداية وسكن حجرة وحيدة مع خمسة من المهاجرين العرب ، تلك أيامه الأولى هنا القاسية التى يندر حديثه عنها ، منزل رقم (١) ، (٢) ، (٣) ، (٥) ، تلك البوابة الحديدية السوداء ، أخرجت حلقة مفاتيح ، مفتاح مدبب ولجته فى تقب يتخلل لوحة معدنية معلقة إلى جوار الباب ، يصدر صوت معدنى مختصر ، حجرة الحارسة مغلقة ، بعد الثامنة ليلاً غير مسئولة عن

فتح الباب ، كذا أيام الآحاد ، لمحتها من خلال زجاج النافذة المغطاة بستائر شفافة تجلس إلى منضدة فى مواجهة زوجها عامل البناء ، كلاهما صامت ، اعبر الفناء ، مغطى بسجاد أحمر اللون ، قبل أن ألج باب السلم الداخلى استدرت ، الطريق عبر البوابة ، قطرات المطر تلمع فوق سيارة منتظرة ، للبيت رائحة خاصة ، خليط من رائحة القدم والدهان الخشبى والطلاء الراسخ القديم ، وآثار باهتة لعطور يتطيب بها نساء عبرن ، تذكرت أنا ـ وليس أنا ـ البيوت التى عشنا فيها معا ، وضمت أيامنا المنقرضة المولية بلا رجعى ، بدءا من الحجرة الوحيدة فوق السطح فى حارة الطبلاوى التى أول ما فتحت عليها عينى ، وشقة الدرب الأصفر ، وأيام المشقة فيها لارتفاع إيجارها وتجاوزه طاقة أبى ، ثم عودتنا مرة أخرى إلى درب الطبلاوى ، ثم انتقالنا إلى باب الشعرية ، فالمطرية شهرين لا غير ، حتى استقررنا فى مدينة نصر الذى كان سقف مسكننا فيها آخر ما رأى أبى ، وهنا برق عندى فى هذا المقام تفسير لأمر رأيته فى أسفارى لحظة ميلاد أبى ، عندما وقعت عيناى على منطقة صحراوية مهجورة ممتدة شمال القاهرة ، لايطرقها إنسان ، ولم يخطر ببال أن العمران سيمتد إليها وأن البيوت ستقوم فيها ، مبان متجاورة ، آخر ما شيد للفقراء ورقيق الحال فى زمن عبد الناصر بعدها وبعده لم توضع طوبة فوق طوبة من أجل عامة الناس ، وصار المأوى على القادر صعباً ، فسبحان الذى منحنا المأوى قبل زمن الجلف ، وإلا لصرنا إلى أرصفة وضياع ، قبل بداية الحرب التى قيل إنها آخر الحروب شهرين انتقلنا إليها ، لم يكن للعمارة باب خارجى يغلق ليلا وحارس ، كذا جميع البيوت التى عشنا فيها وتورع عمرنا عليها ، وما أبعد الشقة بين ما عشته فى أصل وجودى ، ونشأتى البديلة ، أى باب هذا وأين أنا من هذه الاحتياطات ، الباب المكهرب والباب المغلق والباب المانع والباب المؤدى إلى المسكن الذى

أعيش فيه ، كأنى ألج بيتا غريبا أول مرة مع أنى أعيش فيه ، أتوقف ، الباب خشبه عتيق ، تتوسطه يد مضمومة نحاسية ، أمسك حلقة مفاتيحى ، مفتاح قديم الطراز ، تهب رائحة الأماكن المغلقة ، هواء رطب غير متجدد ، ظلال مستقرة لا تتحرك ، وأثاث وآثار تدخين ، تمتد يدى إلى مفتاح الكهرباء الذى أعرف مكانه بوضعى الجديد وأجهله بخلقى الأصلى ، إلى اليسار غرفة الاستقبال والمائدة ، أدرت مدفأة الزيت ، البيت قديم ويخلو من التدفئة الشاملة ، أخلع جاكتى المبطنة بالفرو الصناعى ، ألقيتها فوق المقعد المجاور ، ستنهرنى أمى وتذكرنى بضرورة وضع كل شىء فى مكانه ، إنها تعود مرهقة وما ترجوه أن يخففا عنها العبء ، من يأكل فى طبق فليغسله ، ليريحاها قليلا ، أنا جائع ، منذ الصباح لم آكل إلا رغيفا بالجبن ، أدخل المطبخ الفسيح ، فى الحوض المعدنى كومة من الأطباق المتسخة ، علبة الشاى مفتوحة ، ماذا آكل ؟ تهب البرودة من الثلاجة ، تتجاور علب الجبن فوق الرف العلوى ، جبن أصفر ، جبن مطبوخ ، جبن بالصلصة ، أمى تفضل الجبن المخلوط بالثوم ، الخبز ، أين الخبز؟ تضعه أمى فى الدرج التحتى المغلق داخل أكياس من النايلون حتى لايجف ، سحبت الدرج .. خال ، لم يعد أبى خلال النهار ولن يرجع قبل منتصف الليل ، أغادر البيت فى ساعة مبكرة فلا تتاح لنا اللقيا إلا فى أيام الأجازات ، فى الصباح الباكر أمر أمام غرفته على أطراف أصابعى خشية اقلاقه ، لا يصحو قبل التاسعة أما أمى فتكون قد فارقت البيت قبل استيقاظى وأحيانا أجد رسالة منها فوق رخام المنضدة الصغيرة بجوار الباب ، تتمنى لى يوما طيبا ، وتنبهنى إلى موضع طعام الإفطار والغداء ، وقد توصينى بشراء شىء ما عند عودتى ، وفى الأغلب الأعم أنسى ، وهنا رأيت فى وجودى الأصلى حارتنا القديمة فحننت ، تلك رائحة الظهيرة التى طالما استنشقت ، الغسيل

المدلى من الشرفات والذى قارب أن يجف ، رائحة ثقلية بدأت تفوح ، فعودة الرجال اقتربت ، لم يتأخر أبى عنا ، لم تحل الثالثة عصرا إلا وهو بيننا ، يظهر عند المنحنى حيث فرن الحاج ناصيف ، أسرع زاعقا ، « بابا جه » ، « بابا جه » ، يتقدم عبر الحارة بخطاه السريعة ، يمناه تنحرف قليلا مما يجعله يميل إلى الأمام قليلا ، وهذا تغير بدأ معه بعد أن أودعته أمه الليل وتركته وحيدا أثر علته خوفا من ابدال الجن له ، وقد عاينت ذلك بنفسى فى أسفار الغربة ، سفر الابدال ، فسبحان مغير الأحوال ، يرجع ومعه الخبز الساخن والغموس ، طعمية ساخنة وباذنجان مقلى ، أو سمك ، وإذا تيسر الحال فيرجع مبكرا ، يقول إنه استأذن ساعة ، أو أوصى صاحباً له وزميلاً أن يوقع له فى دفتر الانصراف ، يجىء بالخضار ولفافة ورق مبقعة بدماء لحم الضأن الطازج ، لم يتغير ميعاده قط ، وإذا تأخر تتعلق أبصارنا قلقة ، واجفة بالطريق ، ندعو أن يحفظه الله من الطريق وشروره ، من السوء ، من البغضاء ، من أولاد الحرام ، ولا نهدأ إلا عندما نراه يعبر المنحنى أو نسمع خطاه وليس لغيره مثلها ، رأيته يعود مبتهجا فى الليالى النائيات ، رأيته يعود مبتهجا مرحا ، يبسط أمامنا البلح أو التين ومرة تفاحا أحمر اللون ، لابد أن خالى أرسل إليه إيجار نصف الفدان ، رأيته يطعمنا ثمار القشدة الخضراء ، وأبو فروة ، توقد أمى وابور الجاز ، فتطقطق الحبات بنية اللون فوق قطعة الصفيح الساخنة ، والله يا اخوانى لم أذق هذه القشدة كذا أبو فروة منذ ذلك الحين ، منذ أن جلس أبى ضاحكا ، يخاطب شخصا لا نراه بصوت مرتفع ثم يقهقه ، يوزع علينا الثمار ولا يتذوق هو ، بينما تنهمك أمى جادة راضية فى إعداد شاى ، أو تطبيق غسيل ، رأيته يصحو مبكرا فجر الجمعة ، نسمع نزول المياه ، يتوضأ ، يمضى إلى ضريح سيدنا الحسين ، يصلى ، ومع إطلالة الشمس يعود ، يجىء باللبن ، بطبق الفول ، فى

أيام الجمع لا يشترى الفول إلا من رجل قديم اسمه أبو حجر ، يقف بعربته قرب ضريح الإمام الشهيد ، لا يبيع إلا لأحباب الحسين ، ولا يمسك المغرفة إلا بعد انتهاء صلاة الفجر ، حتى إذا ما اقترب بزوغ الشمس ، للم حاجاته ، وكف عن البيع ، يدفع عربته بسرعة يتوارى فى حارة أم الغلام ، لم يتكرر مذاق فوله عندى منذ أن رحل ، ناعم كالزبد ، مغموس فى الثوم وزيت الزيتون ، يميل لونه البنى إلى صفرة، يعود أبى متأبطا جريدة، إما الأهرام أو المصرى، أرى الأهرامات الثلاثة وصور الصفحة الأولى لرجال يرتدون الطرابيش ، أرى علم مصر الأخضر ذا الهلال الأبيض والنجوم الثلاثة ، يرفرف فى مقدمة جريدة المصرى ، يسند أبى دماغه إلى الجدار ، يفتح صفحة الوفيات ، وبقدرته الشاحبة على القراءة يشير بأصبعه إلى الحروف التى تشكل أسماء الراحلين ، حفظت أشكال الحروف من استقامة وانحناء ونزول الميم والنون ، فتعلمت منه أن أقرأ قبل دخولى المدرسة ، فسبحان من علم نبيه الأمى الأسرار كلها ، رأيت أمى عبر هذه الصباحات البعيدة تقلى الفطائر ، أو الزلابية ، أو تظل مستيقظة بعد ذهابه إلى صلاة الفجر ، تعد المخروطة ، بين النوم واليقظة ، أشم رائحة العجين أثناء طهوه على البخار ، حلة من نحاس يوضع بها الماء المغلى وفوقها مصفاة محزمة بشريط من القماش ، داخلها شرائح العجين الرفيعة ، رائحة انصهار السمن ، الحليب السكرى والوعد بإفطار لايتكرر كثيرا ، وهذا افطار أيامى الغروبية ، التى اكتملت ولن ترجع ، لم أعرف له شبيها أو مثيلا أو مذاقا قريبا بعد أن تبددت بين السنين ورحلت عبر بلاد الخلق ، ويكفيه أنه كان إفطارا مغمورا بالأمن وانتفاء الخشية ، واتمام القربى من أبى وأمى ، أبى وأمى فى وجودى الأصلى ، أما أبى الذى أنتظره الآن ، كذلك أمى فلا أعرف عنهما شيئا بعد ، يضايقنى جوع وضجر ، وتضمنى وحدة ، تدق ساعة حادة الرنين فى

مكان ناء ، نفس الرنين الليلي ، علامة ، خلعت حذائي الضخم ، أخشى الخطو به فوق الأرضية المكسوة بالخشب ، يحدث صريرا يقلق سكان الطابق التحتي ، عندئذ يستدعون البوليس وما أيسر ذلك هنا لهم ، وما أمره وأقساه علينا نحن الأجانب ، سكان البيت لايخفون ضيقهم من سكنانا ، في الليل أرغب في الاستحمام ، غير أن تدفق المياه من الدش يقلق الجيران ، الراديو لا أسمعه إلا هامسا ، ماذا آكل الآن ؟ شرائح السمك المدخن تحتاج إلى خبز ، كذا اللحم المحفوظ والسلامي ، المربى تجزع لها نفسي ، الزبادي .. زبادي بالمشمس ، بالليمون ، بالفراولة ، زبادي بالتفاح ، أتناول علبة وملعقة صغيرة ، أرجع إلى الصالون ، لو رأتني أمي ستغضب ، كيف آكل هنا ؟ يجب أن أترفق بها هي التي لاتجد الوقت لتهرش شعر رأسها ، يرن التليفون ، تقع عيناي على سبعة كتب متوسطة الحجم ، دواوين شعر ، شعر أنشده أبي ، أبي في نشأتي الأخرى شاعر ، وشاعر كبير ، لماذا هو هنا ؟ ما الأمر ؟ ينطق البيت بما لا أفهمه ، وبما لا يريحني ، كذا ملامحي ، ونبراتي التي أصغيت إليها عندما أمسكت بالسماعة ، إنها أمي ، تسألني .. أين كنت يا ضائع ؟ تقول : اتصلت مرارا ولم يجبني أحد ، أسأل : متى ستعودين ؟ تقول في الحادية عشرة والربع ، أجيب باختصار : سأكون نائما ، تقول إن ثمة فطائر محشوة باللحم والشامبينيون في درج الثلاجة التحتي ، ما عليّ إلا تسخينها ، إذن . لن أراها الليلة ، لو أنها رجعت مبكرة لحاورتها ، وأصغيت إليها وأصغت إلي ، شعرت بلهفتها عليّ ، وشعرت أيضا بعجلتها ، اختلست وقتا لتكلمني ، تمنيت لو اكتملت جلستنا الليلية، كلانا في الثياب المنزلية والدفء، دائما أرى أمي وأبي في ثياب الخروج ، بعد انتهاء المكالمة تضاعف خوائي ، أفضل انتظار رنين الجرس على انهاء مكالمة كنت أتوقعها ، خاصة إذا لم يكن عندي ما أفعله ..

الوصـل الأول من هذا المقام

.. فى لحظات الكشف عن الحقائق القديمة التى أجهلها ، ما عم منها وما خص ، لا أدرك كل شيء بالضرورة، فأحيانا أرى فقط ما أرى، بدون أن أعرف ما أشاهده ، وبعد حين مقدر يُلقى فى معارفى التوضيح والتفسير لما أكون قد أبصرته من قبل ، فتكتمل الرؤية ، ليس كل ما يراه الإنسان يدرك كنهه وطبيعته ، ألا ينظر الطفل إلى الأشياء كلها ، لكنه لايعرف كل مايرى ، كذلك ، لايدرك كل ما يقرأ ، وقد تظل الكلمات صماء لا تشى بمكنونها للقارئ الغافل ، الذى لم يؤت علما بقدر. عند بداية هذا الوصل رأيت طفلة سمراء ذات جدائل ، تحمل على ظهرها حقيبة جلدية بنية اللون ، تمشى بجوار سيدة ممتلئة ترتدى ثوبا أسود اللون ، تدخل الطفلة من باب مدرسة عالية الجدران ، تضم كنيسة حمراء الطلاء ، تقف المرأة وحولها نساء أخريات ، ترقب الطفلة التى وقفت تنظر حولها إلى الصغيرات الأخريات ، لم تبك ، ولم يبد عليها ارتباك وقد سر ذلك المرأة فأبدت ارتياحا ، ثم رأيت فتاة ربما تبلغ الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة ، تركب دراجة ، تعبر ميدانا فسيحا ، خلفها فوق مقعد الدراجة الخلفى حقيبة بها أقمشة ولفات خيط ، وزراير ، توزع هذه البضاعة المحدودة على البيوت ، عرفت أن أباها يعيش فى مكان بعيد ، متزوج بأخرى، وأن أمها أبت الطلاق لأن من سيجيء ليتزوج إحدى البنات سيتردد طويلا عندما يعلم أنها مطلقة ، الأب لا يفى بحاجة البيت ، الابنة الكبرى تساعد أمها فى توزيع بعض البضاعة ، أمها أصبحت مشهورة كدلالة تبيع الأقمشة واللوازم النسائية لعائلات الضاحية التى تجد سيداتها نصبا فى الذهاب إلى سوق العاصمة ومتاجرها ، عندما دارت الفتاة بالدراجة إلى شارع جانبى ، ضيق ، مستقيم ، على جانبيه أشجار ضخمة متباعدة ، وعند نزولها عرفت ان الضاحية

قريبة من قاهرتى ، إذن . فأنا لست ببعيد ، رأيت الفتاة تعمل فى مصنع للنسيج ، يبدو عمرها أكبر ، غير أن ملامحها لم تتغير ، وقفت على بعض من مكنون قلبها ، ضيق بحالها ، وخشية على أسرتها ، وإشفاق على أمها ، وتساؤل يلى التساؤل : لماذا تقلق وتسعى من أجل زاد يومها ؟ ، ويفيض الزاد عن حاجة البعض ، لماذا الكد من نصيبها ، والراحة من نصيب آخرين ؟ رأيت يومها المجهد فى تفصيله وجملته ، من عمل فى المصنع القريب ، ومواصلة الدرس فى ذلك المعهد الليلى ، اطلعت على همها اليومى الكبير ، ان تجد الأم وان يجد اخوتها الزاد فى الأطباق عندما تحين مواعيد الوجبات ، إنها هى محور الجرى واللهاث ، والقلق الذى لاينتهى ، والخوف الدائم مما سيجىء به الغد . ومما ستطلع عليه الشمس ، وهل ستجد غدا ما يفى بالحاجة ، قلق ممض ريب فقار قلبها لايفارقه ولا ينتزع منه ، رأيت ما يحدثه هذا القلق لخفقاتها من اختلال ، وهزة لا تلحظ ، رأيتها من حيث رقتها ، وحزنها ، وانفرادها بنفسها آخر النهار وقبل النوم ، عند اغماض عينيها ، تجاور شقيقاتها وأخاها الوحيد ، تولى وجهها ناحية الجدار ، لايمكن لإنسان ان يراها ، ولا يقدر مخلوق على ملاحظة ما يتعاقب على وجهها ، تبكى أو تدمع وربما تبسمت ، أو مطت شفتيها ، أو نطقت هامسة جملا غير متصلة ، مرة فى لغتها العربية التى فطرت عليها ، ومرة فى هذه اللغة الأجنبية التى تتقنها إذ بدأت تعلمها منذ سنوات فى مدرسة البعثة الأجنبية ، وهنا عرفت أن هذه الطفلة التى رأيتها فى أول ذلك الوصل ماهى إلا هذه الفتاة ، وما أبعد الشبه بين ملامح الطفولة واكتمال الأنوثة ، ان قلقها الليلى يتجدد تخشى موت الفجأة ، ان يقع لها حادث مفاجئ يصيبها بعجز ، لاتدرى ماذا سيجرى لأمها وإخوتها بعد مفارقتهم أو عدم قدرتها على العمل ، رأيتها تبتسم ولم أدر لماذا ؟ ، وهنا عرفت الحقيقة المخفاة ، ماهى إلا أمى فى خلق

البديل ، أمى التى تحدثت إليها عبر التليفون فى هذه المدينة الأجنبية . ولم أدر سر العلاقة بين وجودها فى هذه الضاحية ، وحياتها وحياتى فى تلك البلاد البعيدة ، أضمرت الاستفسار ، والأمل فى أن أعرف وأقف ، عند هذه النقطة من ذلك الوصل توجهت بخاطرى إلى شيخى الأكبر ، اتجهت إليه كما يتجه الابن إلى أبيه . وكما ينظر المريد إلى شيخه ، وكما يتعلق التائه بدليله . طلبت العلم بأمر وجودى الأصلى ، وفهم عنى ، إذ أدركنى ما يشبه الغيرة المخالطة للضيق والكمد ، إذ كيف اطلع على بعض من حياة أمى فى خلق البديل ولا أرى أم وجودى الأصلى ، كذلك داخلنى حنين إلى أمى فأومأ لى وترفق بى ، رأيت خروج أمى إلى الدنيا من رحم جدتى عائشة رحمها الله ، وكان ذلك لحظة وصول أبى القاهرة أول مرة ، وفى البيت ذاته الذى كانت أرضه أول ما لامست رأسى ، فى الغرفة ذاتها ، غير أن موضع نزول أمى يبعد عن موضعى سبعة أشبار كاملة . رأيت جدتى عائشة . امرأة سمراء ، طويلة ، نحيلة . يتوسط جبينها وشم أخضر ، وعلى ذقنها وشم دائرى يقارب شكل الزهرة ، النساء يحطن بها ، الدودة ، من تلقتنى عند وصولى إلى هذا الكون الغريب ، هى من تلقت أمى أيضا ، وقد نظرت طويلا إلى المولودة ، إلى عينيها المغمضتين وساقيها المثنيتين وأنفها الدقيق ، وكان بإمكانى أن أرى ملامح أمى التى أعرف فى قسمات الوجه ، يتردد فى سمعى صوت الهاتف الذى جاءنى عند بداية سعيى إلى الديوان .. ليس بوسعى إلا أن أصغى وأن أمتثل .

تأمل رقدتها الأولى ..

يزعق بعد سكتة ..

ـ يا غافل ..

ثم غاب الهاتف ، رأسها ملتفت إلى الجهة اليسرى ، غير قادر على

الحركة ، لا يزال لون جسدها محتقنا ، بقع خضراء صغيرة على وجهها ورقبتها ، تقول الدودة إن هذا طبيعى بسبب زنقة الولادة ، أهذا البطن الصغير يحتوى رحما سيكون أول أوطانى ، هل سأتقلب داخله ثم أفارقه ، وأمشى فى الأرض مرحا حينا وحزينا حينا آخر؟ تأمل رقدتها .. لماذا نادانى الهاتف ، لماذا خاطبنى هنا ، وظهور صوته فى حيز الحس لا يكون إلا لأمر جلل ، أيقنت أن المقصود أمر يصعب علىّ فهمه الآن مهما بذلت ، مهما حاولت ، فلأنتظر لعل وعسى ، انتقلت من حيرتى إلى راحتى . إذ اكتمل عندى مالم يتم حتى لشيوخى فى الطريق ، ذلك أنى رأيت ميلاد أبى وأمى ، فالحمد لله ، وقفت على العلم بها كطفلة تلعب أمام البيت مع بنات يماثلنها سنا وعمرا ، لاحظت تمهلها أثناء اللعب ، وشرودها هنيهات . ونظرها إلى البعيد ، وقد حاولت الفهم والنفاذ ، لكننى أيقنت انه من المستحيل علىّ أن أعرف فى أى الأمور تفكر أو اطلع على خواطرها ، أو الصور التى تعبر ذهنها ، أخبرت ان هذا من الغوامض المستعصية أمامى ومن العقبات التى لايمكن تخطيها أو تجاوزها ، كنت كمن يبسط كفيه ليقبض على الماء ليبلغ فاه ، وما هو ببالغه ، أرى ميلادها .. نعم ، أراها فى هذا العمر.. نعم ، أراها قبل أن تنجبنى .. هذا جائز ، بل إنه واقع حدث ، أما أن أعرف ما يجول بخاطرها الآن عند رؤيتى لها أثناء لعبها ، فهذا باب مغلق لا فائدة ترجى من طرقه أو محاولة فتحه حتى مع التوسل والرجاء ، فأيقنت أن ما جال بخواطرها وما مر بها فى مقام العدم . عندى ، فلا فائدة ترجى ، لهذا صمتُّ وإن لم ينقطع رجائى ولم يتبدد أملى، لكننى أضمرت وما نطقت، وإن كنت أعلم ان باطنى مكشوف لسادتى ، وانهم أقرب إلىّ من دمى فى عروقى ، كنت ظامئا إلى أمى ، وهذا العطش إلى رؤيتها بدأ عندى منذ تجليها لى أول مرة

أتناء سفرى فى بداية هذا المقام المبارك بإذن الله ، رأيتها والليل عاصف ، ورياح شديدة تهز سعف النخيل وشواشى النبات وأطراف الحطب فوق البيوت ، أمى فتاة مكتملة ، خمنت أنها فى السادسة عشرة ، إلى جوارها جدتى التى نحل قوامها ونقص وزنها وتقدد وجهها وتدبب ذقنها ، حتى كأننى اطالع امرأة أخرى غير التى رأيتها لولا بقايا الزمن القديم فى الملامح ، أمى ممتلئة قليلا ، تلف وجهها بطرحة سوداء ، شقيقها الذى سيصبح خالى يسند باب البيت بظهره ، فالمزلاج الخشبى يرتج ولا يكفى ، والهواء شديد ، جدتى تقول ، استر يا كريم ، عندما تهب الرياح عنيفة هكذا ، فلابد أنهم قوم من الجن يتعاركون، يتحاربون، وما هذا الهبوب إلا أنفاسهم الغاضبة، استر يا كريم، أتساءل والليل حولى عاصف، أين جدى؟ أين والد أمى، وهنا تقلب بى الزمن كما تتقلب الأنفاس ، فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون ، رأيت والد أمى ، ولأننى لم أشاهده أبدا ، ولم أجلس إليه ، ولم يداعبنى طفلا ، ولم يلاعبنى صبيا ، ولأنه لم يخلف لى صورة ، أو أثراً يدل على هيئته ، فلم أعلم به إلا من حيث ما يلقى فى معارفى ، عرفت انه شيخ موقر موفور الهيبة فى البلدة ، له كلمة مسموعة ، وحرمة ، يؤم المصلين ، يؤذن لأوقات الصلاة الخمسة بصوت جميل ، عذب ، قوى ، يسمع فى سائر أنحاء البلدة ويتجاوز فضاءها إلى النجوع المجاورة والكفور القريبة ، بعض مشايخ البلدة ورجالها المعمرين وأصحاب الكلمة فيها يقصدونه ويقفون على مقربة يصغون إلى أذانه الشجى الورع ، الصاعد إلى السماء كعين ماء سلسبيل ، يتدفق ماؤها من أسفل إلى أعلى ، فسبحان من بيده الملك وهو على كل شىء قدير. لكنه اشتهر فى النواحى بمديحه للحبيب المصطفى ، يقبض عصا من معدن، بطرفها قطعة دقيقة من حديد ، تلك أنغامه التى ترتل عليها

سيرة مَنْ ظلله السحاب ، ولان الحصى تحت قدميه ، من أسرى به ربه ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، علمت انه ملجأ للعجزة والمرضى والممسوسين والعاجزين عن إتيان نسائهم ، يكتب لهم الأحجبة والتعاويذ ، يقرأ فى آذان الأطفال الأدعية ، بينما تلمس يده جباههم الملتهبة ومواضع الألم ، وحتى زمن تدوينى هذا يذكره المعمرون من أهالى جهينة بلدتنا ، ويقولون إن جمال صوته لم يعوض حتى الآن ، أمى لاتذكره ، لا تعيه ، رحل مبكرا ، قبل الأوان ، ذات ليلة عاد إلى البيت بعد صلاة العشاء وتأهب للنوم فوق المصطبة المواجهة لباب البيت ، وبجواره صندوق خشبى عتيق ملىء بالكتب القديمة التى اصفر لونها ورق ، تخللته الثقوب ، ومخطوطات كتبت بالقلم الغريب ، وقد أدركت فى طفولتى بعضا مما تبقى منها ، لايرتاح جدى إلا عند رقاده على مقربة من صندوق كتبه هذا ، بعد نفض ما قد يكون علق به من غبار ، اغلقت جدتى الباب بالضبة ، وتهيأ للرقاد ، إلا أن طرقا يرتفع ، وصياحا يعلو ، يخرج جدى مستعيذا بالله ، عدد من رجال البلدة الذين اعتادوا السهر عند دكان حميد البقال ، قال قائل منهم ان جملا عفيا قد برك عند الجسر ، ويأبى الحركة ، وانه يقطع الطريق على الرائح والغادى منذ الغروب ، وان صاحبه فى حزن عظيم ، يقول إنه اشتراه منذ أيام بمال كثير ، وان من يستطيع مداواته وعلاجه شخص واحد فى هذه البلدة ، وسمى جدى والد أمى ، وهم يرجون جدى ان يسرع ليداوى الجمل والجمال ، دخل جدى إلى البيت ، ارتدى جبته وقفطانه وعمامته حتى ان جدتى سألته عن ضرورة ذلك والليل مسدل والمسافة قريبة ، غير انه صافحها مصافحة المحبين ، ودخل الغرفة ، فقرأ الفاتحة فى أذن أمى التى ماتزال بعد طفلة ، وفى أذن شقيقها الذى كان صبيا فى الحادية عشرة ، وتمتم فى اذنيه

عقب فاتحة الكتاب بما لم يسمعه إنسان ، ثم خرج إلى الجماعة وجدتى فى عجب وانقباض ، عند وصولهم إلى الجسر حلق إلى الجمّال ، وكان غريب الهيئة ، ليس من أهل النواحى المجاورة ، يعبر الجسر لأول مرة ، لم يره أحد ، ولم يعرفه أحد ، قيل إن الجمل عند وصول جدى سكن وان جدى نظر مرة أخرى إلى الجمال وقال بلهجة الموقن العارف : هل جئت ؟، كانت لهجته غريبة ، غير ان كل من صحبه لم ينتبه إلى غرابتها إلا فيما بعد ، وذلك شأن كل الأحاديث العادية التى يتبادلها الخلق والتى لا تلفت انتباها ، ولا يتوقف عندها خاطر ، لكن إذا وقع حدث مفاجئ خارق ، أو حلت مصيبة ، استعاد الكل ما قيل ، فيرون فى العادى غير المألوف ، وما قيل بشكل عابر ينتمى إلى النفيس من الألفاظ ، حمحم الجمل ، طلب جدى ممن صحبوه أن يبتعدوا قليلا فتراجعوا ، اعتلى سنام الجمل المغطى بمقعد مدثر بالصوف ، شب الجمل على قائميه الأماميين ، ثم بدأ الخطو مسلما قياده للرجل الغريب ، وبعد خطوات معدودات خرج من دائرة رؤية الواقفين ، ومنذ هذه اللحظة لم تقع عين على جدى ، ولم يدل على اثره إنسان ، فيما عدا أوهام بدت للبعض بعد ذلك لم يثبت صحتها ، بكت جدتى ، وبعد مرور سنة نصحوها بإقامة مأتم وتقبل العزاء فى رجلها ، لكنها أبت ، كان يخالجها شعور غامض أنها ستلقاه يوما ، أما الآن فيجب الانتباه إلى الوديعة المعلقة إلى رقبتها ، ابنها وابنتها ، هما من تبقيا لها بعد أن مات ثلاثة كلهن إناث أنجبتهن بعد مجيء الأبن الاكبر ، وكانت أمى الرابعة وهى التى عاشت ، لابد أن تربيهما وتحميهما وتدفع عنهما الأذى ، إذ تسمع من يقرن اسم زوجها بالمرحوم تغضب وتقول إنه لم يمت ، وإنه لبى نداء خفيا ، يستعصى فهمه على أهالى النواحى كلها . ويوما ما سيرجع ، فى فجر يوم شتوى بارد قطعت الدودة العجوز الرحبة جريا من بيتها

إلى بيت جدتى ، طرقت الباب ، أيقظت النيام ، كانت ترتجف ، قالت إن باب عشتها طرقه طارق ، ولما قالت من ؟ أجابها صوت : الشيخ على ، فتحت الباب ، رأته يقف إلى جوار جملٍ أبيض اللون كالحليب ، سألها عن أحوالها وعن أحوال عائشة امرأته ، وولديه ، وعندما سألته ، لماذا لا يرجع إلى بيته ؟ قال إن الأوان لم يحن ، والكريم لم يأذن بعد ، ثم غرب فى الطريق .

قالت إن جسمها كله ينتفض منذ أن فارقها ، بدأ الشك على وجوه النساء اللواتى هرعن مستفسرات ، غير أن جدتى سألتها عن شكله وأحواله ، هل بدا متعبا ؟ وما حال ثيابه ؟ ، أكدت الدودة انه متورد الوجه ، مستدير كالرغيف ، أما عباءته فبيضاء حريرية ، ثم انصرفت ، ولم يرها أحد بعد ذلك إلا ذاهلة .

فيما تلا ذلك من سنوات ترددت أقاويل عن ظهور الجمل الأبيض براكبه ، مرة عند الحد الشرقى لزمام البلدة من الأرض المزروعة ، ومرة عند سور الجبانة جهة الغرب ، ومرة عند البئر ، وتصغى جدتى إلى ما تسمعه صامتة ، لم تكن قد تجاوزت السابعة والعشرين عندما ذهب ، بعد سبع سنوات جاءها الحاج هريدى وهو مستور الحال وعنده نخل كثير ، طلبها على سنة الله ورسوله ، قال إنه استفتى شيخا كبيرا فى بندر سوهاج فأفتاه أن طلاقها يجوز شرعا ، صدته بحزم صارم ، قالت إنها ماتزال ، على ذمة رجل

خرجت جدتى إلى الأسواق ، باعت واشترت ، القمح والذرة والشعير والسمسم ، حاورت وجادلت ، وشيئا فشيئا استقر فى البلدة ان عائشة وهبت عمرها لولديها فلم تعد ترد على ذهن رجل لا من قريب أو بعيد ، وهذا عرف قديم ، عندما تدفع الظروف بامرأة شابة إلى منازلة الحياة وحيدة ، فلا يطمع فيها أحد ، ولا ينظر إليها أحد ، ويحق لها السعى وراء الرزق ، والوقوف فى

زحام الاسواق ، معها تعلم الابن ـ الذى هو خالى ـ المكيال والاصناف من اين يأتى بها ، كيف يبيعها ؟.

عند هذا الحد من ذلك المقام تمنيت لو أوغل أكثر ، غير أن مشيئتى ليست طوعى ، كذلك منحدرى ومرتقاى ، نبهنى شيخى الأكبر إلى أن ذلك الوصل من هذا المقام قد قارب على الانتهاء ، وانتى مهما حاولت فلن يتكشف لى أكثر مما هو مقدر ، رجوته أن أرى أمى فيما تبقى لى ، فاستجاب لى ، واطلعنى على وجهها لحظة ابلاغ جدتى لها الخبر ، أحمد ولد الغيطانى يطلبها ، تلوح بيدها ، خفت رفضها الزواج من أبى ، ومن ثم لا انشأ النشأة الأولى ، مع أنى نتاج لها ، لكن هذا خوف غامض محير غريب له مقام ومكنون عظيم ، لو اطلعت على اليسير منه لاضطرب حالى، تقدم إلى أمى من قبل رجل من النجع المجاور، هو عبده السقاء ، يحمل المياه إلى البيوت ، عنده أكثر من عشر قرب يؤجرها، كما انه يصنع العديد منها ويرتق التالف منها، وكافة السقائين يعرفونه ويقصدونه من البلاد المجاورة، كما انه طيب السيرة، وهذا طبيعى، فلا يعمل الرجل سقاء إلا بعد ثبوت امره، ألا يدخل البيوت على النساء والرجال فى الغيبة ؟ ، أبت أمى الزواج منه ، إنها لاتطيق رائحة جلود القرب، فهل ستعيش معها؟.

قالت جدتى : إنه رجل محمود السيرة وسيسترك يا ابنتى . صمتت أمى ، ولم تعاود جدتى الحديث ، لم تسع إلى مضايقة ابنتها أبدا . فقد جاءها جدى فى المنام ، وأوصاها خيرا بابنته ، فالطفلة وحيدة ، وهو غائب غيبة لا يعلم مداها إلا رازق الطير ومحيي العظام وهى رميم ، كان جدى يقف فوق غمام سابح ولا أرض تحته ، كتمت جدتى ولم تبح ، ولم يعلم به سواى فى هذا الوصل ، ومن قبل عاينت بنفسى بقاء الأصوات ، وسمعتها بعد فنائها ، ودخلت إلى أحلام أبى ، لكن أن تبقى مادة الحلم ولا تتبدد ، فهذا مما خصصت به ، وأخبرنى

شيخى الأكبر أن أحلامى وكل مارأيت فى منامى منذ اغماضى عينى لأول مرة فى هذه الدنيا فى متناولى ، ويمكننى الاطلاع عليها ، فقط .. عندما يحين الأوان المقدر ، وقال لى ان مثل هذا لم يتفق له ، فشعرت بخجل ، اذ تميزت عليه بأمر حتى وان بدا ضئيلا ، لكنه أليس القائل ان الفروع محل الثمر ، رجعت إلى أمى البكر ، إنها صامتة ، سكوتها الذى ينطق ، هى لم تر أبى من قبل ، ومن أين لها أن تعرفه ؟ تسمع عنه منذ طفولتها ، فما جرى لأحمد الغيطانى شائع ، معروف ، فى البلدة ، هو اليتيم الشقى ، اضطهده عمه ، وشرع فى قتله ، لكن الله نجاه وحماه ، ما جعل قلبها يحن ، إنه يعمل فى مصر ، يعنى ستذهب لتعيش هناك ، مصر الفسيحة ، أم الدنيا ، مرقد آل البيت والأولياء الصالحين ، سيدنا الحسين ، سيدتنا الطاهرة زينب ، سيدى زين العابدين ، السيدة عائشة ، وهنا سمعت الهاتف يصيح بى ..

ـ انتبه ..

فتجلى لى ضريح السيدة عائشة رضى الله عنها وأرضاها ، مسجد جميل عربى الزخارف ، منمنم ، مفروش بالحصير ، والهدوء ، والاستكانة ، فطفت به وانتبهت كما أمرنى الهاتف ولم أفهم فعدت إلى أمى ، تجلس هادئة متأملة ، ستترك البلدة والرحبة والبنات اللواتى يسألنها دائما ولا يخفين رائحة الشماتة « متى تتزوجين يابخيته ؟ » ، « ألم يتكلم عليك أحد يا بخيته » ، « ألم يجئك أحد يا بخيتة ؟ » ، يعرفن أن عمرها تقدم عاما أو عامين عن العمر الذى تعارف الناس هنا على زواج البنت عند بلوغه ، الرابعة أو الخامسة عشرة ، تضيق بغمزاتهن ، تفضل النأى عنهن ، وإذا اضطرت لمجالستهن تصمت اتقاء لخبثهن وطول ألسنتهن ، رأيت خالى يفضى إلى الشيخ عبد اللطيف محمد على بالرضا والقبول ، ورأيت أبى ، فانتهى هذا الوصل ، والسلام ..

الوصل الثانى من هذا المقام..

.. فأين الشوق إلى زمن الحياة المنصرم ؟ وأين الأسى على كل نفيس لن يرجع ؟ من أين وإلى أين ؟ أين الأين ؟. هذا أبى فى اخضرار فتوته ، قبل غروبه بواحد وأربعين عاما مما تعدون ، يقطع الطريق الطويل عائدا إلى البلدة فى أجازة ، يدفع ثمن التذكرة من راتبه الضئيل ، ادخره قرشا قرشا ، يركب قطار الثامنة صباحا المتجه إلى قبلى.

أقول يا سادتى إن سفرى إلى جهينة ثانى موطن لى بعد رحم أمى لا يكتمل إلا بركوب هذا القطار الذى يتحرك فى الثامنة صباحا منذ سنوات نائية وحتى الآن ، فى أيام تدوينى هذا ، وإلى أن يتبدل ميعاد قيامه المخطط ونظم الجداول ، فلو جرى ذلك يوما ـ وحتما سيجرى ـ فتذكروا أن قلبين إنسانيين عاشا وتعلقا به ، وحنّا لركوبه ، وأرسل تخيله عندهما الشجو والشجن ، الأول قلب أبى رحمه ربى ، والثانى قلبى العليل ، المنتزع من صدرى ، المصرور فى منديل ، القائم عليه شيخى الأكبر ، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

أقول وهذا ثابت قائم معى حتى يومى ، إنه لا معنى لسفرى بدون هذا ، على الرغم من رحيلى فى قطار السابعة والنصف السريع الفاخر وثير المقاعد ذلك أننا لم نسافر إلا فيه وبه قبل أن تنال يد النقص منا ، قبل تبدل الدنيا أو تبدلنا نحن ، والله لا أدرى يا اخوانى.

هذا أبى يعد المحطات ، يتعجل طى الطريق ، إذ يمر بدير مواس ، ينظر جهة الشرق حيث يقيم الرجل الطيب الذى أنقذه من موت . الباشجاويش أحمد حسين ، فى عودته سيزوره ، ويمكث عنده يوما أو يومين ، فى قطار الثامنة يسلى النفس بالنظر من النافذة حينا ، والحديث إلى جيران الرحلة ، يسافر

فى فيض من حنينه وحزنه وفرحه ، فحنينه إلى الأرض التى رآها أول ما لامس ، حتى أيام الشقاء تبدو عزيزة ، لأنها ماض يستعصى نيله ، صحيح أنه ماض عاناه ويخشاه ، لكنه الآن منه بمأمن ، أما حزنه فلاضطراره إلى مفارقة هذه الديار ، وهؤلاء الناس الذين حنوا عليه ورقوا له وفتحوا له بيوتهم ، وأمنوه من جوع ومن خوف ، كذلك فراقه لتلك النخلات ، والمنحنيات ورائحة الماء فى قواديس السواقى ، ورائحة الطحين الطازج ورائحة الخبيز واشتعال البوص داخل الأفران ، وقعدة الجسر ومذاق بلح النخلات عند تمام نضجه ، والتين العسلى ، والشاى فى الأسواق التى تُنصب فى أيام معلومة ، وعندما اطلعت على ذلك علمت أن هذا كله صار عندى ، أما فرحه فلرجوعه أياما معدودات ، وهذا يجسد أمله الذى أضمره ولم يهن ، أن يرجع يوما إلى جهينة ، فيستقر وينعم بالعيش ، وقد عرفت هذا الشعور خاصة فرحة عند عودته إلى البلدة عندما سافرت عقب غروب أبى ، وكان سفرى لرؤية عمتى ، اخته غير الشقيقة ، عندما وصلت مدينة طهطا واجتزت دروبها وخرجت منها إلى الطريق المؤدى إلى جهينة ، هفهفت علىّ ريح غريب ومسنى وجد ملك علىّ روحى ، فخفق قلبى وهو هادئ ، وتجاوز نظرى المدى وهو ثابت ، وعند المدخل المؤدى رأيت النخيل الكثيف فحننت حنين الغريب الغائب إلى أصله ، والمنفى إلى موطنه ، والعائد بعد شتات وهجاج ، بداخله خوف ألا يعرفه أهله الأقربون ، حزنت إذ رأيت النخيل ، مامن شىء من الموجودات يقوى علىّ الحنين إلى الماضى كشجر النخيل ، ربما لأنه ثابت قديم ويندر تمايله حتى مع الريح الصرصر ، ربما لأنه راسخ فكأنه أفلت من العدم ، هل رأى أحد منكم شجرة نخيل تسقط محتضرة ؟ ، حتى إذا انقطعت المياه وجفت الآبار وكف الهواء عن حمل بذور اللقاح تظل واقفة فيظن الناظر أنها منتصبة مورفة وهى ميتة

مختصرة ، كعصا سليمان الحكيم التى ظل مستندا إليها بعد رحيله ومماته فأطاعه الجن والطير ظنا منهم انه يقف حيا ، حتى إذا تمكن السوس من الخشب انقصفت العصا فهوت وهوى ، سبحان محيى العظام وهى رميم ، فى الطريق فرحت وخفت أحمالى إذ كنت اقطع ما قطعه أبى ، وأنظر إلى ما نظر إليه ، كأننى أنوب عنه أو أعيد السيرة ، وهنا اطلعت على لحظة مندثرة موقعها هذا المقام ، لحظة من عمر تلك الناحية ، جهينة ، إنه العام التاسع والثلاثون بعد الألف وتسعمائة ، حيث مقدار المدة المتبقية على وصولى إلى هذا الكون الغريب ست سنوات ، وكان عبد الناصر فى هذه اللحظة بعينها ابن واحد وعشرين ، والزمن المتبقى على مجىء خالد إلى هذه الدنيا ثلاث وعشرون ، أما وقوفه أمام فريق ضرب النار فبعد ثلاثة وأربعين، وقفت على السنة ولم أعرف اليوم، لا اسمه، ولا موقعه ، إنه يعلم السر وما يخفى ، وهنا أوضح أمراً طالما حيرنى ، وقد أدركته بعد صحبة لمولاى وضياء عينى الحسين ، وسيدى ابن عربى شيخى الأكبر ، فكل ما أهملت الاستفسار عنه لن يكشف لى سره ، خاصة علامات الزمن ، ومن ذلك عمر أبى الحقيق ، ومقدار السنين التى عاشها فى هذه الدنيا وأمور أخرى جمة ، وإداركى بعض ما حرم علىّ من علامات فهمى لأسرار الطريق ، جعلنى ربى من المسافرين دائما به ومعه وإليه ، رأيت لحظة أن أمسكت يد أبى بيد الرجل الذى سيصبح فيما بعد خالى ، والذى سأعايش فقدانه ضياء عينيه ، وسيقدر لى أن أصحبه إلى الأطباء ، والإصغاء منفردا فى حجرة جانبية إلى الحقيقة النهائية بفقدان بصره ، بإظلام هاتين العينين المحدقتين الآن إلى أبى . لمحت شعيرات يد أبى اليمنى ، وتلك ستظل مطلة من جلده إلى ما بعد ولادتى ومجيئى إلى هذا الكون ، ثم تبدل بشعيرات أخرى تصحبه حتى همود يده وتمددها إلى جواره ، هذا ما ألقى فى معارفى ، وهو من الدقائق التى لاتخطر لى

ببال ، ولم أفكر فيها ، ولم تدر بخلدى أبدا ، رأيت شاهدى العقد ، الشيخ عبد اللطيف ، ورجل آخر أجهله ، كان الأمر يتم فى هدوء ، بلا مظاهر عرس كتلك التى أعرفها وأعهدها ، وقد حدقت فى المأذون طويلا ، ورأيت ملامحه ، وثيابه ، ولفات عمامته وسمك نعليه ، أقول إننى أدركت هذا الرجل بعد رحيل أبى وجلست فى مواجهته وعلى مقربة منه ، كان ذلك فى سفرى الثانى إلى البلدة بعد رحيل من انجبنى وربانى وأحسن تقويمى .

حضرت عرسا لأحد أقاربى فى نهار حار ، قائظ ، جلسنا فى المضيفة ، وكان ذلك بعد آذان الظهر ، قعدت على دكة مفروشة ببساط قديم ملون بخطوط طولية حمراء وخضراء ، عتيق ، مترئ الحواف ، عرفت فى هذا الوصل ان جلوسى كان فى موضع اعتاد أبى ان يشغله كلما جاء إلى هذه المضيفة ، وهو مكان قريب من الطريق يتيح رؤية الرائح والغادى ، فسررت لذلك وارتحت ، نظرت إلى المأذون ، ترسخ يقينى انى أعرفه وأننى رأيته رؤية قديمة ، وبعد ان غطى اليدين بالمنديل الأبيض وتلا عبارات الطلب والقبول ، وقال إن هذا الزواج يتم على مذهب الإمام أبى حنيفة رضى الله عنه ، مال علىّ الشيخ عبد اللطيف ، قال لى : إنه المأذون الذى عقد لأبيك .

أعدت النظر ، ويقينى يتزايد انى شاهدته من قبل ، مكتمل الصحة برغم تقدم العمر ، عنى ، أهو أكبر من أبى ؟ . رحل أبى وبقى هو ، لو أن أبى عرف الراحة ، لو أن شقاءه أخف ، وهنا ألقى فى معارفى أسرار جمة أمرت بألا أفشيها أو أفصح عنها أو ألمح ، ولو فعلت لخالفت ، لذا أمسك عنانى مخافة أن يغلبنى الوسواس فأكشف ما حرم علىّ كشفه ، وعند هذا الحد لاحظت نأى شيخى الأكبر عنى ، تمنيت الاقتراب منه والائتناس به خاصة انه مرشدى الأول ، وعلى يديه تجلت لى علامات الهداية ، ولى به عناية عظيمة ،

ناديته بخواطرى فلم يجبنى ، خفت ، خاصة أننى دائم المقارنة بين صحبتى له ، وصحبتى لمولاى ونورى الأتم سيدى الحسين ، معه كنت كالطفل تجاه أبيه ، يأمن له وان خافه ، يهرع إليه وان عاقبه ، يسعى إلى القرب منه وان جافاه ، أما شيخى فأرهبه ، عندى خشية منه كالتلميذ فى مواجهة أستاذه. خاصة أنه يقبض على قلبى ، ينظر إلى من بعيد نظرة مثقلة باللوم ، فتسنح لى الفرصة ، أخاطبه بغير نطق ، لماذا تقسو علىّ يا سيدى وأنا فى كنفك ؟ لماذا وأنا فى حمايتك ؟ لماذا وأنا طوعك ؟ لماذا وقلبى عندك ؟ لماذا وأنا التابع لك ؟ أهذا نصيبى منك ؟ إن كان ذلك كذلك فأنا راض ، قابل ، مطيع ، لم يجبنى ، وشعرت بقلبى يتقلب فى كفه ، لم أدر لماذا صمته عنى ؟ غير انه عندما أشار تبعت اشارته فرأيت نفسى فى نشأتى الأخرى ، متمددا فوق سريرى ، متطلعا إلى جدران حجرتى المغطاة بصور كبيرة لمطربين يصرخون أمام مكبرات الصوت ، وصورة لفتاة ناضجة النهدين ، مُشرعة حلمتيهما ، وصورة عن أطفال جوعى ، منتفخى البطون فى مكان فقير من هذه الدنيا ، وصورة بالحجم الطبيعى لأرنستو شى جيفارا ، كنت ممددا بكامل ثيابى فوق السرير ، ولاحظت طول قامتى فى وجودى هذا للمرة الثانية ، وهذا الطول يبدو واضحا أثناء نومى ، وذلك لانحنائى عند مشيى ، رأيت ملامحى متهدلة ، متعبة ، شفتى مرتخيتين ، وعلى وجهى هذا الضعف الإنسانى المصاحب للنوم والمثير أحيانا للشفقة ، ألا يشفق الإنسان على من يحب إذا رآه نائما ، ضعيفا ، وقد ينحنى ليقبله ، فما الأمر وقد رأيت نفسى نائما ، متمددا ، ليس بيدى من الأمر شىء ، حتى ان اشفاقى طغى على فضولى ، طفت بى ، ونظرت إلى ملابسى المبعثرة ، ورأيت عدة أحذية ضخمة ، ودهشت إذ رأيت حذاء للتزحلق ، مع أنه لا محل للدهشة ، ولكن دهشتى تخص نشأتى الأولى ، التى لم أعرف فيها

الترحلق على الجليد ، رأيت صندوقا للسيجار ممتلئا بعملات معدنية تنتمى إلى دول شتى ، ورضيت عندما رأيت قطعا معدنية مصرية ، خمسة ، عشرة قروش ، وعملة فضية صدرت فى عيد النصر . رأيت كتبا باللغات الثلاث ، الانجليزية ، والفرنسية ، وقليلاً بالعربية ، كان أحد الكتب مفتوحا ، لم أتمه بعد ، تلك حجرتى إذن ، لم أعرف هذه الفوضى ولا هذه اللوحات صارخة الألوان ، لكننى عرفت مثل صورة جيفارا هذه ، أهدتنى اياها محبوبة قديمة لى عرفتها قدرا من الزمن ، وأحببتها غير أن حبها لم يبق منه شىء عندى ، وقد كدت أهلك فيها ، إن عذابها كان غراما ، كانت متعلقة بآخر ، وقبل رحيلها إليه فى البلد الذى أقام فيه أهدتنى صورة جيفارا هذه ، بعد سنوات معدودات جاءت إلىّ وكانت راغبة فى إحياء وجدى القديم ، وبعد أن نكحتها مرة زال كل ما علق بى يوما تجاهها ، وهذا له مقام آخر ، ربما فصلت فيه الأمر وأحطتكم به علما إذا مد الله فى أجلى المقدر وثبتنى فى شجرة الكون وقوى عضدى ، انتبهت إلى وجود شيخى الأكبر معى ، فى الحجرة ذاتها ، بينما قطرات المطر تتساقط فى الخارج مصطدمة بسقف معدنى قريب فتحدث أصواتا متتابعة ضخمها الصمت الليلى ، يبدو اننى اعتدتها فلم تقلق نومى ، شغلنى تطلع شيخى إلىّ ، نظرته غريبة ، لم أدر مكنونها أو مرامها ، وتلك نظرة علقت بى ، وستعاودنى فى نأيه وعند احتجابه عنى ، وقد عرفت فى حياتى الدنيوية مثل ذلك ، تمضى العمر برفقة الأقربين حتى إذا سعى الفراق واكتمل ، تبعه النسيان مهما اجتهدنا فى قهره ، فما من شىء مخلد ، وأول ما يغطيه النسيان فروق ما بين الأيام ، ثم الحوارات ، أما القعدات والرفقة التى كانت فنذكرها فى مجملها وليس فى تفصيلها ، ثم لانقدر إلا على مشاهدة نتف مارقة منها يُنسى . أما الأمر الذى يستعصى على النسيان زمنا غير هين فما يتعلق بالنظرة ، كنت ومازلت

أرى عيني من أحببت ، عينا أبي ترمقانني بنظرة معينة طالعني بها ذات يوم بعيد ، أقوى ما استدعيه إلى ذاكرتي ، طبيعة تلك النظرة ، في تجريدها وليس في اتصالها بأي شيء ولو فصلت لأفضت ، ولكنني أخشى الاطالة ، وهذا غير مقصور على الحبيب الغالي الذي انجبني ، ولكن يتصل بكل من عرفت ثم فارقت إن كرها أو بمشيئتي فتأمل تفهم ! ، تلك نظرة شيخي التي ستصحبني بعده ، كحضور الحسين المتدفق الذي لايفارقني قط ، سمعت خطى مسرعة لامرأة ، دقات الكعبين على خشب الممر المؤدي إلى الغرفة ، تدخل مسرعة ، تتوقف ، تقول ، نمت بدون عشاء يا حبيبي ؟، تلك أمي إذن ؟.

ضقت برؤيتها وحننت إلى أمي ، غير انني دفعت دفعا للنظر إليها ، سمراء ، رقيقة الشفتين ، وطويلة الأنف ، بيضاوية الذقن ، واسعة العينين ، يبدوان من خلف نظارة طبية ليست سميكة وليست رقيقة ، نحيفة ، طويلة ، قلقة في وجودها المنظور واللامرئي . توحي للمشاهد عند ظهورها أنها لن تستقر طويلا ، وانها ستخرج بعد لحظات قصار من دائرة البصر ، حضورها حي ، لكنه موتر متوتر ، عرفت أنها لن تراني إلا في نشأتي الأخرى ، أما أنا فكنت أراها مرتين ، مرة من حيث نشأتي الأصلية ومرة من حيث نشأتي الأخرى هي أمي وليست أمي ، وهذا من أغرب ما صادفني ، وان كنت لا أدري ماسينتظرني وما سأصير إليه . تمعنت بملامحها فتزايد ضيقي لوجود أم لي ، وغمرني فيض من حنين إلى أصل نشأتي الأولى ، غير ان الحال لم يتبدل عليّ ، وبقيت في مواجهة أمي هذه ، ولاحظت انحسار قميصها عن ظهرها عند ركوعها إلى جواري وأنا نائم . فتكشفت لي مساحة من ظهرها انحسر عنها الجزء الأسفل من ثوبها المكون من قطعتين ، فداريت النظر خجلا وان لاحظت استدارة ردفيها ومتانتها فضقت لتعلق ذلك بوعيي ، ولمت نفسي وان عللت هذا بأنني أريد اقصاء فكرة ان هذه

أمى غيرة منى على أمى أنا ، رفعت وجهها ولم يكن غريبا عن تلك الفتاة الصغيرة التى رأيتها من قبل تدخل المدرسة ، وتركب الدراجة وتعول الهم ، تعجبت لتغير المصائر وغرابة وجهها ، فماذا يربط بين الحال الذى رأيتها عليه فى المشاهدة الأولى ، وما أطالعه الآن ، البلد غير البلد ، والبيت خلاف البيت ، فما أبعد الشقة بين نشأة الجذور والمدى الذى تنتهى إليه آخر الفروع . وما أوسع المسافة بين صلابة الجذع ولين الثمرة ، وما أنأى الفرق بين حدة الشوك ورقة الزهر ، يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ، يولج الليل فى النهار ، ويولج النهار فى الليل ، وكل فى فلك يسبحون .

كنت مرة على سفر يا إخوانى إلى بلد عربى ، وفى المطار قابلت نبيل وامرأته وعياله ، عرفت نبيل هذا فى حارتنا صبيا صغيرا يتجنب اللعب مع الصبية وكان هو الولد الوحيد الذى يرتدى ساعة حقيقية حول معصمه ، وله اخت بيضاء من كل سوء ، جميلة ، اسمها سهير ، أما والداه فقصيران ، ممتلئان ، متماثلا القامة ، بيض البشرة ، يقال إن أصلها تركى ، يخرجان فى صمت ، يرجعان فى صمت ، لم يسمع أحد صوتاً مرتفعا يخرج من بيتهم ، ولم تشتبك أمه فى مشاجرة مع إحدى نساء الحارة ، قالت أم نبيل مرة ان نكبة عابرة حلت بأسرتهم التركية مماضطرهم إلى سكنى الحارة ، كانت أمه تطل من النافذة مددا طويلة لاتشير إلى جارة ، ولا تومئ . ولا تتبادل الحديث ، لايبدو إلا وجهها المستدير كطبق الفضة ، يجاورها أحيانا نبيل هذا ، رأيت نبيل فعرفنى وعرفته ، صافحنى وصافحته ، سألنى عن وجهتى فأفصحت ، وسألته فشكا إلى حاله ، وفشله فى العثور على مسكن له ولزوجته وولديه ، ولما صعب عليه السفر إلى بلد نفطى ، قبل عقد العمل فى إحدى البلدان الأفريقية ، وذكر لى بوروندى ، فتساءلت عن موقعها ؟ قال لى انه لا يعلم عنها شيئا ، لكن لابد من الاغتراب

زمنا حتى تتحسن الأحوال ، ثم تصافحنا ، وافترقنا ، كل إلى وجهته ، ولا أدرى فى أى موضع هو من الأرض الآن ؟.

ومرة أخرى يا إخوانى كنت فى مدينة باريس الأوروبية وكان حال الوحدة غالبا علىّ ، فشرعت أمشى للفسحة فى شارع البيجال ، أنظر متعجبا إلى نساء شبه عاريات فى برودة ثلجية يعرضن أجسادهن للراغبين فى الإيجار ، ومن خلف واجهة زجاجية لكشك يبيع الشطائر نادانى شخص باسمى ، تعجبت واستربت ، وعبثا حاولت استعادة الملامح ، قال لى : ألا تعرفنى ؟، ثم قال لى إنه رآنى عندما كنت أزور موقعا مطلا على قناة السويس فى زمن الحرب ضد إسرائيل ، عندما كنت أنقل الأخبار إلى بنى وطنى الكرام ، أبديت اعتذارى ، إذ اننى التقيت بالكثيرين ، وتلك أيام صارت الآن بعيدة بعيدة ، ثم أبديت دهشتى وعجبى ، ما الذى جاء بجندى الاستطلاع هنا ؟، ضحك وقال إنها رحلة طويلة ، لكنه ضاق بما صارت إليه الأحوال فى الوطن الحبيب القريب ، وبعد انتهاء خدمته العسكرية بدا له طريق الأمل مسدودا ، موصدا ، فالراتب قليل ، والوضع عسير ، والفساد ضارب ، وأسافل الناس صاروا فى الأعالى ، ولا أحد يفكر فى الفقراء ، كيف كان سيتزوج ، والأمل معدوم فى حصوله على مسكن من حجرة واحدة يأوى إليه ؟ وكل ما يعين على الحياة صار فى غير المتناول ؟ كان لابد من الرحيل ، جاء فى إثر صاحب له هنا ، عمل بائعا للصحف ، وبائعا للورد عند مداخل محطات المترو ، ثم استقر به الحال هنا يعمل فى إعداد السندويتشات منذ نزول الليل وحتى انبلاج الصبح ، وهذا عمل وعر لا يقبل عليه أبناء البلد ، لكنه مضطر ، والمضطر يركب الصعب ، بالغ فى ترحيبى وأصر على اكرامى ، وان مانعته ، فكلانا فى غربة حتى وان كانت غربتى موقوتة وغربته دائمة ، فارقته والأسى ينهل

مني ، فهل كان لى أن أصدق عندما رأيته مرتديا خوذته ، ممتشقا سلاحه ، متأهبا لعبور الليل والاخطار إلى قلب خطوط العدو ، أنه بعد عشر سنوات سيقف فى هذا الموضع من العالم ، واننى سألقاه ويلقانى.

ولكن مالى أبعد يا اخوانى ، إنى محدثكم عن بعض رفاق صديقى الذى استشهد ظهر الجمعة التاسع عشر من أكتوبر. وعند هذا الحد من ذلك المقام تجلت لى أمى للمرة الثانية ، فى هيئتها الحنون ، الوديعة ، وابتسمت لى ، فقلت بخواطرى ، ما الأمر يا أمى ؟ ماذا جرى لك ؟ ولماذا تبدين بعيدة وانت قريبة ، وماذا يعنى تجليك هذا ، رأيتها تقف فى أرض قاحلة ، صخرية ، وتحت قدمها اليمنى تنبع عين ماء عذب فرات لذة للشاربين ينساب إلى أسفل فى مجرى نحيل تحدده سلفا أوضاع الصخور وتعرجات القشرة الأرضية ، ما لأمى وهذا النبع ، هى التى لم تطأ أرضا قاحلة طوال عمرها ؟ لكنها لم تجبنى على استفسارات خواطرى ، إنما أمرتنى ألا أسهب ، وأن أوجز ، وان أتبع شيخى الأكبر ، وان أتم وقوفى على نشأتى الأخرى ، ولم يكن بوسعى إلا الطاعة والامتثال ، وان تعاظم قلقى وارتوى حزنى من نبع جديد ، فالطف ياذا الجلال والإكرام ، إنك على كل شيء قدير..

الوصل الثالث من هذا المقام

.. تأكد لى ان ليس كل من رأى ، عرف مارأى ، وان من رأى ليس كمن علم ، تبعت أمى فى نشأتى الأخرى بعد أن تركتنى أغط فى نومى ، تقف أمام صوان محفور فى الجدار ، تدس يدها فى الرف العلوى ، لم أعرف ماذا أمسكت ولكننى رأيت الاطمئنان على وجهها . تتجه إلى المطبخ الفسيح ، تتناول علبة كبريت كبيرة وهذا حجم لم أعهده ، صندوق صغير مقسم إلى

خانات ، تشعل الموقد ، تضع فوق الشعلة المتأججة وعاء به أرز مخلوط بحبات سمراء ، ربما زبيب أو بندق ، تضع إناء آخر فوق الشعلة الأخرى به مرق ولحم ، من الأول غرفت مقدار قبضة ، من الثانى اضافت إلى الأرز قطعة وأربع ملاعق مليئة بالمرق ، تتجه إلى الصالون ، تجلس فوق الأريكة القريبة من المدخل ، تلتهم الطعام بسرعة ، تمضغ بسرعة وتزدرد أسرع ، أتابعها بعينى الفضول ، وليس برغبة الابن فى معرفة كل شىء عن أمه ، والفرق لايخفى على الفطن بين الفضول والرغبة فى المعرفة ، كما ان نظرى إليها يختلف عن نظرى إلى أمى أنا ، أمى التى يتضاعف حنينى وقلقى عليها كلما طال مكثى فى هذا المقام ، وتلك مشاعر صعب التصريح بها ، عسر شرحها ، إذ اننى خصصت بها ، وانفردت ، هذا مقام ذقته أنا ولم يذقه غيرى. فإذا غمض منه جانب ، فالعذر.

كنت أواجهها ولا ترانى ، غير انى لاحظت اختلاج نظراتها ، وتثبيتها البصر تجاه الفراغ المعلق به رأسى ، حتى قوى ظنى أنها تشعر بوجودى ، ولم يتفضل شيخى الأكبر القابض على قلبى بالايضاح ، تفرغ من طعامها ، تجمع حبات الأرز المتبقية ، تضع الطبق فوق المنضدة المجاورة ، تلفظ .. آه ، نفس الايقاع الذى طالما لفظ به أبى آهة الأرهاق والضنى ، حتى إنى عجبت ، أثمة علاقة ؟ أم هو التعب الإنسانى وحد مخارج الآهة عندها وعنده ؟ ، إلى اليمين مذياع داخل دولاب زجاجى ، يعلوه جهاز للاسطوانات ، وفوقه صورة لعبد الناصر ، يبدو أشيب الفودين ، تنتمى إلى ما قبل زمن الهزيمة والانكسار ، عرفت أنها متعلقة به ، تستعيد ايامه ، وتحتفظ ببعض من خطبه ، واغنيات من عصره ، وانها فى لحظات الشجو والفراغ من ثقل المشاغل تصغى إليها وقد تبكى ، تنظر إلى الهاتف ، تمسك السماعة ، تفكر فى إدارة القرص ، لكنها لاتفعل ، يميل رأسها بطيئا ، تنعس ، أدنو ، أرى شعيرات بيضاء ، شممت

رائحتها ، رائحة ليست جديدة على ، ليست مجهولة لى ، فبينى وبين الروائح وطيد صلة ، وما من رائحة علقت بأنفى اندثرت قط ، وإذا تكررت بعد مدى تنبعث حية ، كأنها تأتينى من وقتها ومصدرها الأصلى ، عند انتقالها من اليقظة إلى النوم ولجت رؤاها ، فقابلتها وقابلتنى . ودنوت منها ودنت منى . لم تر إلا رأسى ، لكنها لم تظن أبدا ولم تلحظ أنه غير متصل بجسد ، سألتها . فتطلعت إلىّ ، وهنا رأيت جمالها الخاص الدفين ، فعلمت بعضا مما أريد أن أعلمه . ألممت بالوضع من وجه ، وبقيت جاهلا به من وجوه ، إذ لا يعلم الشيء من كافة أوجهه إلا الكريم المتعالى ، كنت على وشك أن أطلب منها صحبتى إلى عملها الصباحى ، وعملها المسائى ، وان ترينى جهاز الهاتف الذى تتصل بى عبره ، مرة لتطمئن على عودتى من المدرسة ، ومرة للتأكد انى أكلت ، ومرة لتتأكد عما إذا كنت بمفردى أم انى فى صحبة ؟ ومرة لتكرر على ضرورة الحذر عند فتح صمام السخان ، ولتذكرنى بموضع الصابون المعطر ، واللوف البلدى الذى وصلنا أخيرا فى مصر ، اللوف الذى لاشيء مثله يدعك الجلد ، وليس هذا الاسفنج الصناعى ، كنت على وشك ، لولا أن المفتاح دار فى الباب ، انتهت رؤاها ، وراحت ترقب الباب قابعة ، فى المدخل ظهر ، إذن .. هذا هو أبى ، أراه لأول مرة ، من صلبه ينحدر وجودى الآخر ، ومن غصنه ينبت فرعى البديل ، خيل الىّ انى قابلته ، ناديته ، وأصغيت إليه ، لكن اين ومتى ؟ واجهته ، حمت حوله ، يخلع حذاءه وجوربه ويمدد ساقيه فوق منضدة صغيرة . لم تفتنى نظراتها إلى قعدته ، وهنا لاحظت انكساراً فى عينيه ، كأن وجهه مهزوما فى معركة لم تبرد نيرانها بعد ، أرهفت أذنى إلى حوارهما الليلى . يقول إنه تناول عشاءه ، يقول إن أخبار مصر كماهى ، ان الجلف سيخطب غدا ، يقول إنه مامن يوم يمر إلا. ويظهر فى التليفزيون ، تقول أمى ،

كابوس ... تمر فترة صمت ، يقول إنه لم يصل أحد من مصر ، تقول أمى : يقل القادمون مع دخول الشتاء ، لا يجىء إلا المضطر ، بعد لحظة تقول : والله الوحشة زادت يامصر ، يتجدد الصمت ، عرفت انهما تحدثا عن الجلف الجافى ، وان الفترة تقع من السنوات التى اشتدت فيها مصائبه ، لم استطع تحديدها على وجه الدقة وان خمنت أنها تلى الحرب التى استشهد فيها صاحبى ، عادا إلى الحديث غير ان صوتهما لم يصلنى ، رأيت حركة شفاهما وتعبيرات وجهيهما ، قلت لعل ثمة علة لذلك ، بقيت حتى حانت لحظة مفارقتهما الغرفة ، أمى تتقدم أبى ، تتوقف أمام الباب الأول ، تهز رأسها فى اللحظة التى يدفع فيها أبى الباب الثانى ، حجرتان متجاورتان متباعدتان ، أما غرفتى أنا فتلك التى فى نهاية الممر حيث أرقد ممددا نائما بكامل ثيابى ، ابقى فى فضاء الممر ، أشعر بقرب أبى منى لكننى لا أراه ، لا أدرى كم مر على ، لا أعلم إن كان ذلك فى الليلة نفسها أم تلك ليال أخرى متعاقبة ، متداخلة ، فالزمان والمكان لايقيداننى ، أحار ، أتبع من ؟ أرقب من ؟ غير ان حيرتى لم تدم ، إذ رأيت أبى وأمى معا ، كل فى حجرته ، لكننى أراهما فى وقت واحد ، وألم بهما رغم تباعدهما عن بعضهما ، وهذا بعض مما خصصت به فى رحيلى هذا ، هاهى ذى أمى مرتدية قميص نوم أصفر ، تندس تحت الغطاء ، عيناها مفتوحتان والظلام حالك ، ستظل جائعة أبدا إلى النوم ، تود لو نالت حظها من الراحة ، لو أغمضت عينيها بدون أن تضبط المنبه على السادسة إلا ربعا ، جميع أبناء هذا البلد يعملون خمسة أيام ، ويرتاحون يومين ، تزدحم بهم الطرقات المؤدية إلى الريف ، إلى الغابات ، إلى الشواطئ ، لكنها غريبة ، وابنها ، وزوجها ، غرباء ولاسند ، لاشىء يقيهم مخاطر هذه الغربة إلا مدخر كاف تكفى فوائده لضمان الحد الأدنى إذا ما طردوا يوما ما ، وحتى الآن لم يتوافر السند ، لو تنام ، المبنى هادئ ، ما من أصوات ، فى مصر تضج الشوارع الآن بالحركة ، لكم تود أن

تمشى فى الشارع المؤدى إلى الحديقة اليابانية صباح جمعة ، فى الأجازات تبدو المدينة هنا مهجورة ، تضاعف الخواء ، وتكثف الوحدة ، أيام الجمع والآحاد فى مصر مسترخية ، رضية ، تخلو فيها شوارع القاهرة من ضجيج بقية الأيام ، لكنها لم تعرف الوحشة أبدا ، ولم تبعث على الانقباض قط ، إلا إذا اعتصم القلب المحزون بحزنه ، تتثاءب ، يتمدد أبى . اطفأ الأضواء عدا الضوء الأحمر الخافت جدا للساعة الرقمية ، برغم العتمة أراه كأنه فى وهج النهار حتى يمكننى احصاء شعيراته البيضاء ، وملاحظة اختلاجات جفونه ، يستلقى على ظهره مفتوح العينين ، يحملق إلى لاشىء ، أعرف ان هذه اللحظات ذرى عذاباته ، تنطوى الأيام والشعر لايزداد إلا نأيا ، ولحظات الوهج القديم تأبى المعاودة ، يسأله بعض ممن يلتقون به عن جديده ، فيقول إنه مشغول فى عمل ملحمى ، حتى ان صحفا كتبت أخباراً ، واتصل به الناشر البيروتى ، أرى أمى فى خلوتها الليلية ، تواجه الجدار بعينين مفتوحتين ، تنسحب تماما إلى داخلها ، لم تسمع أى حركة غير عادية من الغرفة المجاورة ، تدرك أنه مستيقظ وان لم تره ، عندما انتقلوا إلى هذا المسكن ، قالت له ان كل شىء يمكن ترتيبه كما كان فى مصر ، المكتب فى مواجهة الباب ، والكتب متراصة على الحائط المقابل ، والسرير الضيق بالقرب من النافذة ، حتى إنه قال مبتهجا ، كأنى لم أفارق بيتنا فى المعادى ، حتى لون السجادة .. من أين جئت بها ؟، استبشرت خيرا ، فالأحوال ليست معسرة ، وهى لاتألوا جهدا حتى لاتكلفه فوق مايطيق ، وحتى تظل مساحة زمنية كافية لايشغله فيها شاغل ، لاتسعها الدنيا من البهجة ، وتتبدد كل متاعبها ، وينتهى لهاثها الداخلى ، عندما يخرج بين الحين والحين من مكتبه ، يداعبها ، أو يجلس أمامها صامتا ، تحرص عندئذ أن يكون كل ماتقوم به ردوداً لأفعاله ، ومجاوبة على مايبدو منه ، تعرف انه انجز أو بسبيله إلى اتمام أمر بدأ :

فى العتمة ألمح أسى أمى هذه ، بل إنها تهز رأسها وتوشك ان تمصمص شفتيها ، ليت لو دام ذلك ، لم تزدد معه الأيام إلا صعوبة ، أصبح كالولود التى أصابها عقم فصارت عاقرا فجأة ، فلم تعد الدنيا هى الدنيا ، تغير طعم كل شيء ، هاهو ذا أبى ضجر ، متهاو ، يواجه نفسه بالحجة تلو الحجة ، فى البدء عنه مجيئه إلى هذه المدينة التى طالما تغنى وحلم بها كان الحال صعبا والاقامة غير إنسانية ، والمرقد خشن ، حتى الحمام كان يضطر إلى قطع مسافة ليستحم مرة فى الأسبوع ، فالحجرة التى سكنها مدة من الزمن كانت خلوا منه ، وهذا مالم يعتده فى مصر.

علل النفس ان كثيرا من كبار المبدعين الذين نزلوا هذه المدينة عرفوا ضنكا أشد مما قاساه ، أما هو فلم يطل به الأمر ، إذ حصل على عمل فى المكتب الثقافى لتلك السفارة ، أصبح يمكنه الجلوس على مقهى فترات طويلة ، ودفع ثمن مايشربه ، هنا لكى تجلس يجب ان تجدد ماتطلبه على فترات زمنية متقاربة ، تذكر بأسى مقاهى وسط المدينة ومصر الجديدة ، والجيزة ، وتهلل النادل عند ظهوره ، وافساحه المكان له ، ربما يقضى نصف نهار لايشرب إلا فنجانا من القهوة ، الأمر هنا مختلف ، أمكنه ان يتناول العشاء فى هذه المطاعم التى لم يكن يجرؤ على دخولها ، ان يزور المتاحف فى غير الأيام التى تفتح فيها مجانا لمن لايقدر . بل دعا فتاة ثم امرأة أخرى إلى العشاء ثم تكرر ذلك ، بل إنه صار يقضى الاجازات كأهالى البلد خارج المدينة وعرف فندقا صغيرا فى المنطقة الشمالية .. لكن الخواطر لم تواتيه . والاشراقات لم تنبعث ، قال إنها فترة الاستيعاب ، فالمتاحف عديدة ، ودور السينما لايمكن له أن يلم بما تعرضه ولو تفرغ لذلك ، أما المسارح فيحول دونها جهله باللغة ، ألمح أمى فى رقدتها ، أدرك أنها ليلة أخرى ، إذ أن القميص غير القميص ، كما أنها تلف شعرها حول

اسطوانات صغيرة من البلاستيك ، ما يضايقها حتى الذروة انعكاس التوترات على الولد . نعم .. أنا فى نظرها ولد حتى وان خط شاربى ، كانت دائما تتمنى ابنة ، تكون هى الأقرب ، ولكن بعد مجيئها هنا حمدت الله أنه لم يرزقها ابنة ، كانت ستشب وتنمو هنا ، كان قلقها عليها سيصبح مضاعفا ، إنها تخاف علىّ ، وعندما شمت رائحة النبيذ جعلتنى أقسم لها أنها المرة الأولى والأخيرة ، وحذرتنى مراراً من الماريجوانا ، والحبوب ، وهذه الأشياء المنتشرة بين طلبة المدارس هنا ، لكنها بدت مسرورة عندما قلت لها إننى جامعت آن واكتشفت اننى الرجل الأول ، وصارت تفارق البيت عندما تجىء آن وتتركنا معا ، لكن عصبية أبى تقلقها ، وزعيقه كثيرا أمامى ولى ، وبعده عنى ، وعدم جلوسه معى ، وعدم اصطحابه لى كما كان الأمر فى مصر ، ربما أدى هذا إلى تضخيم عزلتى ، إلى الذهاب مع من هم مثلى كما يحدث كثيرا هنا وتتلقى الأسر ذلك كأمر عادى ، يسأل أبى هذا نفسه ، أكان لابد أن ينتقل بزوجته وابنه ؟ أكان من الضرورى ان يوافق امرأته على رغبتها فى المجىء معه ؟ لكن أليس هو الذى شعر بالوحشة هنا ؟ ألم يعلل النفس بأن الأمور ربما صارت إلى الأفضل بعد مجيئها ؟ خاصة أنه خشى عليهما التعرض لمكروه فى مصر بعد مجيئه إلى هنا ، وتكرار ظهور اسمه موقعا على بيانات تدين مايقوم به الجلف الجافى ؟، ألم يقل إن امرأته تتقن لغة البلاد ، وانها سترعى شئونه اليومية وتزيح عن كاهله عبئا ؟ ثم ان وجودهما معه سيكثف احساسه بالوطن الذى صار بعيدا عنه بالمسافة المكانية ، جاءا ، ولم يكن صعبا عليها ان تلتحق بعمل ، ثم عمل اضافى فى المساء ، بدت قلقة مفتقدة الأمان القديم ، خاصة ان شوطا كبيرا يجب أن يقطعه الولد حتى يسند نفسه ، يجب أن توفر له مدخرا معقولا ، الحق أنها ساعدته أيضا عندما شرع فى تعلم لغة هذه الديار ، أقبل متحمسا ، فى مصر ضايقه ان العديد ممن زاملوه

يتقنون لغة أجنبية ، أما هو فلم يساعده الحظ لظروف دراسته الأزهرية ، حقق تقدما ، وعندما أتم قراءة كتاب بدون ان يرجع إلى القاموس ، مشى فى الأرض مُرحا ، وانبسط كل البسط لكن الشعر لم يجئ ، كل المحاولات توقفت عند البدايات ، صار مكنونه خاويا وأرضه جدباء ، وفروعه لاتثمر . ها هى ذى أمى تتذكر أول مشادة بينهما هنا ، عندما قال لها انه كان من الممكن له ان يثمر لولا الأعباء العائلية ، انفجرت فيه ، عن أية أعباء تتحدث ، ولد واحد وزوجة تطحن نفسها ليلا نهارا ، عن أية أعباء يتكلم ؟ هل يدرى بمصاريف هذا البيت ؟ إن مرتبه لايكفى دفع إيجاره ؟ عن أية أعباء ! إنها تنتحر لتوفر له ساعة أو ساعتين ، لكنه لايشعر ، ولا يرحم ، توقعت أن يكون رده عنيفا ، لكنها فوجئت به يصمت ، وكتفاه ترتفعان قليلا ، ورقبته تغوص ، تقصر ، وعيناه تضيقان ، وحتى ظهر اليوم التالى لم يفتح باب حجرته ، وعند عودتها فى المساء قررت ان تكون رقيقة معه ، ان تدعوه إلى عشاء فى مطعم يحبه يقع داخل الغابة التى تحيط المدينة ، غير أنه لم يعد إلا بعد استغراقها فى النوم ، بدأ يقضى خارج البيت أوقاتا أطول ، خاصة تلك الساعات الليلية التى اعتاد الجلوس فيها إلى المكتب ، هو الذى لم يختل نظامه طوال عشرين سنة عاشاها معا إلا لمرض أو كدر عام أو خاص ، لم يكن صعبا ان تدرك النأى الذى بدأ ، والخرق الذى اتسع ، وبدت لها ايامها فى مصر حلما موغلا فى البعد ، فى غير متناولها ، حتى تمنت لو أنهم بقوا معا ، وان أدى ذلك إلى دخوله السجن ، لكن الأمر كان أصعب عليه من السجن ، كان من المستحيل ان يقبل ما أرادوه منه ، مستحيل ، هى التى شجعته وآزرته وقوت عزمه على الخروج إلى حين مقدر حتى تتبدل الأحوال ، كان يفضى إليها بكل بواعث قلقه وضنكه ، ويستلقى بجوارها كطفل ، وتخشى هى على دخائله المرهفة وتدفع عنه بقدر ما تستطيع ، لكنه

الآن لم يعد يفضي ، ولم يعد يتكلم ، وما يدور بداخله أكثر بكثير مما يبديه ، ادرك أبي هذا وهو يفكر فيّ . ما الذى يربطه به ؟ ابنه ؟ ماذا يعنى هذا ؟ امتداده ؟ أى امتداد ؟ له حياته المنفصلة ، سيحمل اسمه بعد موته ؟ وماذا سيعود عليه بعد أن يكون نسيا منسيا ؟ سيغمض عينيه ولن يفتحها ذات يوم ، وسيحزن عليه ابنه ـ الذى هو أنا ـ يوما أو بعض يوم ، ثم ينساه ، قد لاتطلع عليه شمس باكر ، يصغى إلى قلبه ، يتتابه خوف مباغت ، ان تتوقف الدفقات ، ألاّ يرى مشرق الشمس ، هذا أمر استجد عليه ، عند تأمله الأيام الرمادية من خلف زجاج المقهى ، ينظر إلى المارة ، إلى اللافتات ، إلى مروق العربات ، إلى حركة الشارع فى ظلال البرد ، فجأة يرى هذا كله بعينى إنسان آخر ، ربما ابنه ، امرأته ، أو شخص يجهله سيعيش بعده ، يخشى الموت فجأة بعيدا عن البيت الذى عاش فيه صباه ، والبيت الذى عاش فيه شبابه ، بدون أن يرى طرقات الضاحية الهادئة ، كان كل من يسكنها يعرف الآخر ، قربهم التليفون قبل استبداله بالتليفون الأوتوماتيكى ، كان إذا أراد أن يتصل بصاحب له من الضاحية ، يطلب من عامل التليفون الرقم ، وأثناء الانتظار قد يصغى إلى متكلم آخر يطلب رقما ، فيتعارفان ، كانت الأيام غير الأيام ، كان ذلك فى مصر قبل ان تتبدل الأحوال . يخاف ان يبلغه يوما خبر موت أمه أو أبيه وهو عنهما بعيد ، هل تصور أن هذا ما سيصير إليه حاله هنا فى هذه المدينة التى يتمنى الكثيرون قضاء أسبوع فيها ، وها هو ذا يعيش ، يعمل فيها ، كيف كان يمشى آمنا فى مصر وجيبه خلو إلا من قروش قليلة ، ولا يأمن هنا وعنده ما يكفى ويفيض ؟ كثيرا ما فكر فى العودة ، أن يركب الطائرة وينزل فى مطار القاهرة ، وليكن ما يكون ، لكنه يتخيل ما ينتظره ويصبح لعابه مرا ، مجىء المخبر الليلى وبيده ورقة الاستدعاء ، وفى المكتب الكئيب يبدأ الحوار الملتوى . والطلب .

الذى يقول طالبه انه يسير ، فى البيت يرن التليفون ، هذه المكالمات الغامضة ، وفى الطريق لا يخفون انهم فى أثره ، أثناء تجواله هنا تطرقه خواطر الموت ، يتنازع أمره بينه وبين نفسه ، يشعر بالرثاء لوجوده حتى يوشك أن يبكى ، ومهما حاول فلا ينجو من الغم ، وفى هذه اللحظات الليلية تتزايد عليه الخواطر السود ، عندما كان فى عمر ابنه هذا كان افق العالم مفتوحا ، والغد بلا حد ، والمعانى فى متناول اليد ، حتى سنوات السجن القديمة لم يهن فيها عزمه ، ولم ينكسر عضده ، ماذا جرى فى السنوات التى سبقت رحيله ؟ تشاغل كل بنفسه ، وافتقدت الحميمية ، وبسط الجلف ظلاله على الحياة فررها وسوّدها ، أتأمل أنا وجه أبى هذا ، تتعاقب على وجهه تعبيرات شتى ، ها هو يفكر فى مرة أخرى ، ألا يقصر فى حق ابنه ؟ نعم ... لم يسأله عن أحواله فى المدرسة ، لايعرف اسماء أصحابه ، أمه تغلق عليه ، لاينقصه شىء ، لكن هذا لايكفى ، لابد أن يقترب منه ، من الغد سيبدأ ، لابد ... فالديار أجنبية ، والولد دائم الحنين إلى أصحابه فى مصر ، وإلى أيامه فى مصر ، يتمنى لو سافر ، يخشى ان يحتجزوه ، ان يمنعوا عودته .

أحيانا يقلقه مشيه مع فتيان هذا البلد ، ان تسرى إليه عاداتهم ، عقاقير المخدر ، الشذوذ ، أى شذوذ ؟ يفزعه ذلك ، لاينتفض خوفا إلا إذا تخيل أمرا محدقا بمؤخرة ابنه ـ التى هى مؤخرتى ـ من المهم أن يقترب منه ، أن يتخذه صاحبا حتى يسر إليه بكل ما يلقاه ولا يخفى عنه أمرا ، ليبدأ غدا ، سيسأله عن المدرسة ، لا .. بل سيدعوه إلى مقهى بعيد ، سيتبسط معه ، سيفضى إليه بعض همه ، سيحدثه عن ضيقه بعمله فى هذه السفارة ، عن اضطراره الصمت عند حديثهم عن بلدهم ورجلهم ومنجزاتهم ، عن صحة كل مواقفهم ، ليس له ان يبدى رأيا ، بل حقه معدوم أصلا ، لابد

من المسايرة إما صمتا أو نطقا ، هو الذى لم يكف أبدا فى مصر عن الجهر والعلن ، سيقول لابنه ان هذا من عظيم عذاباته ، غدا سيبدأ واقعا جديدا ، غدا سيكف عن الهيام فى الطرقات ، وقضاء الوقت متأملا المارة من خلف زجاج المقاهى . لو اتصلت به فلن يلبى دعوتها ، غدا سيدخر طاقته ويرجع مبكرا ويبدأ القراءة ، يغمض عينيه بينما خواطره الليلية تشحب على مهل ، وافكاره تنقلب إلى رؤى ، علمت ان أبى هذا يغمض عينيه متحمسا ، مثقلا بالنوايا . وإذ يصحو يتبدد منه كل عزم ، ويتعلل بكثرة المشاغل والاضطرار إلى عمل لايحبه والغربة ، يصبح وفكره فى حيرة ، وعلمه فى شبهة ، رأيته نائما ، ملامحه مضمومة ، كمن على اذنيه وقر ، وعلى رؤاه غشاوة ، وحركت رقدته عندى شفقة ، شفقة الكبير على الصغير ، مع أنه هو الكبير وأنا الصغير ، وتزايد أساى لما بقيت فى هذا البيت المضمد بالليل والغربة والهجران ، وقد كنت أحذر فى بداية هذا المقام أى اندماج أو رابطة تنشأ عندى تجاه ما سأجده وألقاه فى حياتى تلك ، وذلك حرصا منى وغيرة وتأكيدا لذاتى على ارتباطى بنشأتى الأولى وبقائها معى حتى فى سريانى عبر حياتى البديلة وفى ذرى اغترابى ، لكن أثمة ما يبقى حقا ؟، كل من عليها فان ، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام ..

انتهى ذلك الوصل من هذا المقام ..

الوصل الرابع من هذا المقام

.. ل . و . ر ، تلك آيات قلبى العليل الحزين ، المقطوع منى ، المنفصل عنى ، فلما كانت الأزمنة يا أحبائى ثلاثة ، ماض ، وحاضر ، ومستقبل ، لذا كانت الأحوال ثلاثة ، فالحزن على الماضى ، والفرح فى الحاضر ، والخوف

من المستقبل ، وقد عرفت الثلاثة ، غير أن الكلوم غلبت عندى ، فأنا والله لست بغافل عن الحاضر المنقلب إلى ماض ، ولست بساه عن المستقبل الآتى اللاحق بالماضى ، أليس كل ماض بعيد ، وكل آت قريب ؟، الحزن متمكن عندى ، مقيم ، مستوطن ، فلا تغتروا إذا ما رأيتمونى باسماً أو ضاحكا ، المأتم منصوب ، دائما فى حشاشتى ، أعز من أحببت ولّى عنى ، وأرق من عشقت راح منى ، ولثقل ما أنوء به شرعت مراراً فى الكف عن تدوينى ، لولا الأمر والعبارة ، أما الهدف فلا يزال بعيدا ، والدنو صعب ، وجدتنى فى زمن لم أعشه وبلد لم أزره . وجودى غير مدرك بالحواس ، لاتقع عين علىّ ، ولا تصغى إذن إلى صوتى لو نطقت ، فلا وجود لى مع وجودى ، من غربة إلى غربة ، فلا تحزن يا فؤادى ولا تدمعى ياعينى ، ولا تنتكس ياقلبى القصى عنى ، وادركنى يا صاحب الدم المراق هدرا فى هجير كربلاء .

كنت كمن يرى مشهدا فى حلم وهو غير ماثل فيه ، فيرى ولا عينين ، ويسمع بلا أذنين ، ويدرك بلا إدراك . وهذا والله عجيب . لكنه ما عاينت ، فهل اكتم عنكم سرى ؟ كلا ستعلمون ، ثم كلا ستعلمون .

هذه بلاد جبلية ، تغطيها الثلوج ، قراها متباعدة ، ومن مدينة صغيرة رأيت ركباً يخرج ، وباشا متدثراً بالأغطية يركب الزحافة الوسطى فعرفت أن الزمن عثمانى ، وجهه أبيض ، ملامحه ليست غريبة ، لكن أين ؟ لم أدر ولم أتذكر ، إنه يفارق المدينة مغضوبا عليه ، معزولا بفرمان سلطانى ، منفيا ، رأيته يقطع ودياناً وجبالا ، لا يتوقف إلا فيما ندر ، كنت أرى وجهه قريبا كأنى أوشك أن أعانقه ، وكنت أشم جلد معطفه المبطن بفرو ثمين ، رأيت دخوله ، مدينة شهباء ، مبانيها بيضاء ، فى أقصى إقليم الشام ، رأيت استقراره فى بيت فسيح لايفارقه قط ، رأيت تعاقب الفصول ، كان الشتاء

يبدأ أمامى وينتهى قبل أن يرتد إلىّ طرفى ، كذا الربيع والصيف والخريف ، والأشجار تغرس وتنمو وتشيخ فى لمح البصر ، والجداول تمتلئ بماء جار يتجمد ويفيض فى لحظتين متعاقبتين ، والمبانى تقوم وتزول ويدركها التصدع ، والأضرحة تقوم وتندثر .

رأيت فيما رأيت الباشا تتوالى عليه الشهور والسنون ، ينكح وامرأته تحمل وتلد فى مقدار ثانية مما تعدون ، رأيت خروج الحفيدة التاسعة من رحم أمها إلى تلك الحياة الدنيا ، كدت أصيح إذ رأيت اللحظة من قبل ، فى أسفار الميلاد ، وكان مولاى الحسين على مقربة منى - معذرة - بل أنا على مقربة منه ، فإليه تنسب الموجودات ، قال لى مرشدى الأوفى حينئذ : سيكون لك شأن معها .

آه يا خير أدلتى ، لم تركتنى ؟ لم هجرتنى ؟ أين أنت ؟ أنا حبيبك المفصول الرأس مثلك . أنا الباكى عليك ، الموجوع من أجلك ، اغثنى يا وضاء ، ياسيد أحبتى ، تعال ، أقبل ، وأنا أرى مولد هذه البنية ، ثم تقدمها فى العمر ، تحبو ، تمشى ، تتكلم بلسان متعثر ، ثم بلسان طلق وصوت مليح ، ينبت نهداها ، تفارق الشهباء إلى دمشق عاصمة إقليم الشام ، رأيتها تعانق شخصا . تتحسس ظهره العارى ، ثم رحيلها عن بر الشام كله إلى هذه المدينة الأوروبية ، ترحل عنها وبها الليالى ، وما هذا إلا عرض لذلك الحق غير المنظور ، الظاهر ، الباطن ، والذى نسميه الزمن ، وتلك كنية إنسانية ، بها من الاشارة ظل ، وليس لها من الافصاح شىء ، لكن ثمة دلائل بدأت تلوح ، وَلَكَمْ حيرتنى وسهدتنى واقضتنى ، غير أننى الآن غير قادر على التنبيه ، حتى التلميح اعجز عنه ، شغلت بتتبع زمن هذه البنية ، حتى استقر بى الوصل عند ليلة شتوية باردة .

. الساعة تشير إلى الرابعة ، والغروب مكتمل ، ترحل الشمس مبكرة عن هذه الديار ، فى نفس اللحظة تغمر بيوت وشوارع وحوارى قاهرتى ، رأيتها فى صالة بيت صغير ، تستند إلى منضدة بلا طلاء ، مغطاة بكتب لم اتبين أى مضمون تحوى ، لم أقرأ عناوينها ، إذ حجبت عنى بغشاوة ، رأيت أوراقا مرتبة ، وصندوقا يحوى بطاقات بيضاء ، وعلبة خشبية دائرية محلاة بصدف البحر الأعظم ، تطل منها أقلام مختلفة ألوانها وأحجامها ، مقعدها بلا مسند ، وعلى الجدار لوحة ملونة لمسجد متعدد القباب ، باسق المآذن ، يطل على بحر أزرق ، وفوقه سماء فيها غمام ، وخلفه غابة من خضرة ، بهجة للناظرين ، وفى أقصى الركن الأيمن ثلاث حشايا متجاورة فوق الأرض ، فراش ينتهى بوسادة لصق الجدار الذى تتوسطه نافذة مستطيلة تبدأ من أرضية الغرفة حيث يبدأ حاجز حديدى إلى مدى ، فتلك شرفة ولا شرفة ، ستارة شفافة تحجب أنظار المتطفلين ، تؤدى الصالة إلى غرفة النوم ، لكننى لم ألجها ، ولم أقف على ما بداخلها ، انتهى طوافى بالبيت ، عدت أنظر إلى هذه البنية متسائلا ، مالى ومالها ؟ فلم أعرفها ، ولم ألتق بها فى أيامى ، تذكرت صوت سيدى الحسين وكأنى اسمعه الآن ، ألم أقل لك إنك لن تستطيع معى صبرا ، فوجفت وتوقفت . وتعشمت ، خفت .. هل أخطأت وأنا لا أدرى خطئى الثالث ، علمت أن النذر تلوح ، وان ما يقلقل سكونى يعمل عمله البطىء ، تركز بصرى على البنية ، تتأهب لخروج ، ترتدى جاكتة جلدية بنية اللون عليها زخارف ألوانها سلافية . أحمر وأخضر وأصفر وأبيض ، مبطنة بفرو أبيض ، تضع فوق رأسها طاقية عالية الجوانب ، تمسك حقيبة من صوف قديم مجدول ، تخرج ملبية دعوة صاحبة لها من بلدتها دعت صديقين ، احدهما مصرى ، وهنا ارتفعت فرأيت المدينة كلها بين يدى

كالكرة » دققت البصر فرأيتها تسعى عبر طريق مضاء بمصابيح عتيقة الطراز ، وبلاط الرصيف يلمع ، المطر الذى كف يبلل اسطح البيوت المحدبة ، وأبراج الارسال الإذاعية القائمة فوق جبل يحد المدينة من الناحية الشمالية ، لإفتات الإعلان الضوئية توشحت بضباب ، خضعت المدينة للبرد فلا تسمع إلا همسا وصيحة نائية شاردة هنا أو هناك ، وهنا رأيتنى فى نشأتى الأخرى ، أدخل باب بيت قديم قريب من المنطقة الجامعية ، أتجاهل المصعد فأقفز درج السلم ، فحسدت نفسى لأننى لا أقدر على ذلك ، خاصة بعد تجاوزى الثلاثين واكتشاف أمر العلة فى قلبى القديم ، رأيت مصافحتى لشابين من أهل البلاد ، وآخر لم أدر موطنه ، وشابة أخرى ، جلست فوق حشية وأنا ملم بالمناسبة ، احتفال بسيط بمناسبة اجتياز المرحلة الثانية ، لم أدر ما هى تلك المرحلة ، ما موقعها وما موضعها وإلى أى مستوى تؤدى ؟.

فوق طاولة من خشب أطباق ، باذنجان مفروم ، وحمص مطحون ، وزبادى ، وشرائح لحم ، وطبق عمدة ملىء بأرز متوج بلحم مفروم ، وصلصة حمراء كثيفة متعة للطاعمين ، أحد الجالسين ، يعالج سدادة من فلين ، لزجاجة نبيذ وردى ، كانت درجة الحرارة داخل الغرفة تقارب الثلاثين ، ومدفأة الزيت تبث حرارتها بثبات ، فى الخارج ما دون الصفر بعشر درجات ، وثمة منخفض جوى حاد فوق الجزء الغربى من القارة ، والفرصة مهيأة لسقوط ثلوج ، والقمر فى أقرب مدار له إلى الأرض ، وعلى مسافة سحيقة خارج المجرة يكتمل تكوين نجم عملاق ، وأما المريخ وعطارد والزهرة وزحل والمشترى وسائر التوابع فكل فى فلك يسبحون ، كانت الساعة الخامسة مكتمل أمرها ، وتجاوزتها سبع ثوان عندما دخلت الغرفة هذه البنية ، تطلعت ، فرأيتها تدخل مباشرة إلى المكان ، وإلىّ ، ليس دخولها كأى دخول

آخر ، لاتخطو وإنما تنساب . لا تمشى وإنما تسرى ، تنحنى إلى الأمام هونا وكأنها توشك أن تحنو ، أو ستهدئ كربا ، أو ستخفف ضيقا ، أو تهدهد طفلا ، أو ستفضى ببشرى ، كأنها تمشى فوق الماء ، وعندما سلمت وقعدت لم يكن وجودها إلا همسا ، ولم يكن حضورها إلا شجوا ، وبعد انقضاء وقت لم يكن دخولها قد انقضى بعد ، والمعروف ، المشهود ، أن الدخول عامة فيه لذة ، لذة الداخل من البرد إلى الدفء والداخل بصحبة تعبه على أمل الخلاص وطرحه خارجا ، ودخول الذكر فى الفرج ، ودخول الفاتح المنتصر ، ودخول الواردات على الأفئدة ، ليس لدخولها مثل ، دخول يحرك المكنون ، يثير الأمل ، يسقط حجبا ، والدخول علامة الحاضر .

كان دخول أبى قريته جهينة من بواعث ومسببات مسراته ، أما دخوله البيت علينا ونحن لم نزل بعد صغارا فكان يعنى اكتمال أماننا وراحة معنانا ، أما دخول قرة عينى الحسين إلى الكوفة فلم يتحقق ، وكان دخول صاحبى الشهيد إلى أرض العدو لحظة ذروة وتأهب لفناء .

رب سائل لى : وماذا عن دخول القبر؟ أجيب قائلا إنه دخول عالم نجهله من ناحية ، وخروج أيضا ، خروج عن عالمنا ، لذا أعده خروجا قبل أن يكون دخولاً ، والخروج جالب للحزن ، والحيرة المذمومة ، والخوف للجهل بما سيكون ، والحديث عنه له مقام مغاير ليس هذا أوانه أو مكانه ، أما الدخول فصاحب للراحة والدعة ، لما استقر دخولها وتمكن ، قدمها لى أحد الجالسين فقال عنى : صاحبنا المصرى ، وكانت الفرصة لأسدد بصرى ، فرأيت الوجه الجميل الرقراق ، ولاحظت أنها تشير بيدها اليسرى ، وتتناول الطعام بيدها اليسرى ، وتتكئ إلى اليُمنى ، بعد دقائق عاودت النظر . ياللعجب كأنى أمام انثى أخرى ، جمالها يزداد عمقا ، شفتاها تحددتا ونظراتها

أعمق ، صار وجودها مشعاً قويا بعد أن بدأ خافتا ، قال صاحبي يغرفني :
لور .

تذكرت أسفار الميلاد ، عندما اختار لها أبوها اسم لور ، غير أنى من حيث نشأتى الأخرى ارتحت لوقع الاسم وان بعث عندى خاطراً لم أقف على كنهه وحرك عندى سرا لم أقدر على حله ، لاحظت أنها لاتتكلم كثيرا ، مقلة ، ليس عن شح ، إنما عن فيض ، تجيب بالنظر وتشارك بالإيماءة ، وإذا حان الحين تتفتح شفتاها فتزهر كلمة ، ويولد لفظ أو لفظان ، وقد تكتمل جملة ، كل حرف مصحوب بابتسامة ، وابتسامتها يا إخوانى عجب ، لاحظت من حيث نشأتها الأولى ذلك الشبه الخفى الظاهر بينها وبين جدها الباشا الذى لم تره هى ، وربما تجهله ، كما أنى وجدت فى ملامحها شبها وقربى بوجه تمنيت لو ألقاه فى هذه الدنيا ، ومن حيث نشأتى الأخرى لاحظت جمال وجودها الحسى ، ترتدى بنطلونا من القطيفة السوداء يحدد بوضوح جلى الاستدارات ، وخطوط الالتقاء ونقاط التفرق بين اعضائها المكنونة ، أما قميص الصوف الأحمر الغامق فلم يخف نهوض صدرها فى غير افراط ، وفى هذه اللحظة اكتمل توهج عينيها أو خيل الىّ ذلك ، ومن وجودى الأصلى دققت النظر ، وداخلنى يقين انى رأيتها من قبل ، لكن متى ؟، لم أعرف ، كيف ؟ لم أدر ، علت يقينى بأن وجهها هادئ ، مألوف للناظرين مع أنه لا مثيل له ، سهل ممتنع ، لكن السر الذى تكشف لى فى هذا الوصل ، ان ثمة جسرا بينى وبينى ، بين نشأتى الأولى ، وخلق البديل ، ونشوئى فى كينونات أخرى ، سأفيض وأفصل إذا سمح المقام ، أدركت لتوى ان سراً بدأ بعد أن تكشف لى سر ، تقترح صاحبة لور عليها أن تغنى ، تلتفت إلى صاحبيها الأجنبيين ، تقول إن ما سيسمعانه مفاجأة وان صوتها لا مثيل له ، وانه أفضل

الدروس لتعلم اللغة العربية التي يكدان لتعلمها ، تبتسم لور . عندئذ نظرت إليها
نظرا ثابتا وليس عابرا ، أقمت بعيني على ملامحها ولم أتردد مختلسا ، رأيت جمالها
في بهاء مستمر وألق ، لاتتردد لور ، لا يبدو عليها خجل ، تعدل من جلستها
فتستند إلى مقدمة ركبتها اليمنى ، وتحيط ركبتها اليسرى بأصابع يديها ، تبدأ ،
تبدأ فأصغي إلى مطلع الموشح القادم من الزمن الأندلسي ، يحن وجهها حنينا
ضافيا كافيا ، ويفيض حتى يغمرني ، يملأ صدري ويتيسر أمري ويحلل عقدة
قولي ، فترحل إليها أنفاسي ، وتسعى إليها دقات قلبي ، وتسافر رحلي بأيامي
صوبها ، الفلاة ، الفلاة ، يقوم في التو مهرجاني ، ويبدأ موسمي ، ينتظم فلكي
في دوراته ، يفني سكوني ويتبدد صمتي ويبدأ صخبي ، وينهمر غيثي بعد طول
جدب ، استحسن ، اصفق ، اتمايل حتى يدهش الجمع ، وتخصني لور بطرفة
نظر ، تقول مضيفتنا : اظهر على حقيقتك ، ولم يدر أحد انني أزيح الحجب
وأدنو من معرفة السبب ، غزاني صوتها السلسبيلي ، الزيزفوني ، الأكاسي ،
الغروبي ، الشروقي ، المسائي ، الربيعي ، البري ، البحري ، الندي . وأثار
عندي الحنين والحنان ، وهدهدني إلى أيام حلوة مرت عندي ولم أعشها ،
وبعث هنيهات جميلة عبرتني ولم أشهدها ، وذكرني بدفء موطني القديم
فكدت أنوح ، وأتى الي بأمي وكدها ، وتعبها ، فوددت لو رأيتها للتو فأضمها
وتضمني ، وقربني من أبي في غربته فرثيت لانكساره البادي ، وانكفائه الدائم
على ما يكنه ، واقلاعه متسللا دائما من وقته المعهود ونفسه وشعره الذي ما عاد
يأتي .

تنتهي لور فتستسلم كل قلاعي ، وتمهد كل ودياني ، وتسفر كل أقبيتي
وتظهر دفائني . يحين أوان الانصراف ، ابدى الرغبة في المصاحبة عبر طريق
العودة ، فتومئ إيماءة دالة مختصرة ، تحذرها صاحبتها وصاحبتي ، ان حماسي
الزائد والمخالف لطبيعتي ينذر بتغير في أحوالي ربما ادى إلى خطر . تقول لور

ضاحكة إنها لاتخشى، تبدو جادة فجأة فتتحدد ملامحها وتبدو كأنها رموز دالة على ملامح أخرى لا تُرى ولا تلمح إنما توحي ، تتمنى للجميع ليلة طيبة ، وعندما أغلق الباب ، وصرنا إلى الدرج ، بمفردنا ، نزل عليّ بهت فلم اتكلم ، ماذا أقول ؟ لفنى خجل فتعثرت حروف نطق فكأنى كنت أحتمى بالجمع والصحبة لأقول ما أملاه الفيض عليّ حتى إذا انفردنا تعثرت وارتبكت لم أعد ادرى ما يقال ، وهنا ادركتنى فى نشأتى الأولى مشاعر صعب الافصاح عنها ، لكنها تتضمن شفقة على حالى فى نشأتى الثانية ، ألا أشبهه ؟ ألست مثله ؟ أطوى ولا ابسط . لكننى لم أشبهنى فى اندفاعه تجاهها ، وان كنت لا أخفى ولا أنكر اننى درت فى فلكها عندما رأيتها ، حتى وددت لو أبدو أمامها فتدركنى من حيث نشأتى الأولى لا الثانية ، ظهورها فى هذا المقام وزعنى بين النشأتين وشتتنى بين الوجودين. لذا ضقت بصمتى هذا ، وارتبكت من حيث الوجود الثانى ، وارتحت إليه من حيث انه يتيح لنشأتى الأولى طول النظر والتملى منها ، غير ان الصمت لم يدم ، إذ اقترحت هى اسراع الخطى حتى نصل مدخل محطة المترو ، تقول إنها تكره النزول إلى هذه الأنفاق خاصة فى الليل ، وصعود السلالم والممرات التى تصل الأرصفة ، أقول : إذن لنركب عربة أجرة ، قلت ما قلته والمطر يبث رذاذا خفيفا ينبئ باستمرار طويل ، أما الرياح فباردة تفاجئنا بهبات حادة خاصة عند النواصى وافتراق الطرقات ، فتضطر إلى انحناء ، أسارع بفتح مظلتى وبسطها فوقها ، تزيحها مبتسمة حتى تحجب عنى المطر ، أقول همسا « أنا لايهم » ، تبتسم ، فأحب ابتسامتها حبا لذاته حتى أتمنى المعاودة ، وعندما هممنا بالركوب تساءلت عن شارعها ، تلفظ اسمه بأناقة عطرية وإيقاع مزهرى ، ودغدغنى نطقها للراء ، إذ أنه وسط بين نطق حرف الغين والراء ، فهى لاتفصح عن

الراء افصاحا تاما وفى الوقت عينه توحى بالغين وتشى عنها ، كذلك التقاء اللام بالواو عندها ، فكأنه نزول من عل للأخذ بيد سفل ، أما خروج الفاء فهو التحديد عينه ، فى الطريق تتوالى الأضواء علينا من مصابيح عتيقة ولافتات اعلانية وصيدليات خافرة ، أسألها عن سنواتها المنقضية هنا فتقول سبعا ، وانها توشك على الانتهاء من رسالتها العلمية ، وأنها تعمل فى تدريس اللغة العربية لأبناء العمال المهاجرين . صمت آخر . لماذا لم تعرفى طريقك إلى الإذاعة .. إن صوتك أجمل ؟؟ تضحك فأحب ضحكتها حبا ثالثا لذاته ، ضحكة مقتصدة حانية ، إنها لم تفكر فى ذلك قط ، كانت تغنى فى حفلات المدرسة ثم الجامعة وجلسات الأصحاب ، صمت آخر . عندئذ نطقت بلسان وجودى الأول ، أريد أن أعرف كل شىء عنك ؟، ولدهشتى التى لم تنفذ بعد ، فوجئت بلسانى فى وجودى الثانى ينطق نفس العبارة ، أريد ان أعرف كل شىء عنك ، هكذا أنطقت نفسى بنفسى ، وناب لسانى عن لسانى ، ولأن التساؤل كان مفاجئا ، فإذا بها تنظر إلىّ والعجب لا يخفى ، تهمس : كل شىء ؟ أومئ وأنا فى حيرة من أمرى فى وجودى الثانى ، كيف واتتنى هذه الجرأة ، وما الذى انطقنى ؟. صمت ، تتوقف العربة أمام بيت تلتقى عنده ثلاثة شوارع ، أقول قبل ذهابها عنى ، هل يمكننى الحديث إليك ؟ تنطق باختصار سبعة أرقام ، لا أملك ورقا ، أخط الأرقام على باطن كفى ، تومئ فأحب إيماءتها حبا رابعا لذاته ، أطلب من السائق الانتظار حتى تتوارى داخل البيت ، حتى اسمع صوت المصعد ، هى طالعة الآن وقلبى طالع ، اجتاز الطرق كأنى أراها أول مرة ، أما ولوجى البيت فمغاير لكل مرة ، كأنى استوثقت سلامة البنية وصحة النظام بعد ظن خاطئ ، انتظرت عودة أمى ولم أنم ، جاءت متعبة ، قبلتها وعانقتها واشفقت عليها لإرهاقها

البادى ، منذ وقت طويل لم أخل إليها وهذا غريب ، لم أجلس إلى أبي ولم يجلس الىّ ، قالت لى باسمة : لابد أننى اخفى عنها امرا ، هل تخفى عن أمك شيئا ، قالت ، أهو حب جديد ؟ ، أومأت .

من ؟ قلت ، حلبية من الشام ، قالت ، عربية ؟ قلت نعم ، قالت ، ستعرفنى بها ؟، قلت نعم . عندما يحين الأوان ، ومتى يحين الأوان ؟ قلت ؟ لا أدرى ، قالت ، صفها ، قلت ، لاتوصف ، بدت سعيدة ، قالت ، أنت غارق ، قلت ، حتى القاع ، قالت ، زدتنى شوقا لرؤياها ، ثم طلبت منى ان أنام بقربها الليلة . أومأت ، فقامت نشيطة مبتهجة ، إذن .. سنأكل معا ، فى هذا الليل تقاربنا وقالت لى قبل ان ترحل عبر نومها ، لابد أن تعرفنى بها ، فقلت مؤكداً . استيقظت والنهار أحد ، لن أذهب إلى المدرسة ، يمكننى النوم كما أشاء ، أو الاستلقاء إلى مدى ، واستعدت من حيث نشأتى الأولى استيقاظى صباح الجمع ، ادراكى فى اللحظات الأولى ان اليوم عطلة ، صوت الموقد الغازى ، رائحة الزلابية التى تقليها أمى ، أو الأقراص الصغيرة التى تسويها ثم تغرقها بالسمن ، وعودة أبي من صلاة الفجر ، ودورق الحليب الدسم ، واكتمالنا حول الطبلية قصيرة القوائم ، ادركت اننى غبت عن وجودى الأول ، واننى أكاد أفقد ما خرجت من أجله ، لكن الفضول الإنسانى غلبنى وطغى ، فعدت الىّ ، رأيت نفسى ، اغسل وجهى ، احلق ذقنى ، أؤجل لحظة شروعى فى الاتصال حتى أعيش متعتها بدلا من انقضائها ، أفضل توقعها بدلا من استعادتها ، والغريب اننى من حيث النشأة الأولى تعجلت سماع صوتها حتى أننى استبطأت الخطى وضقت منى ، على مهل أمد يدى ، وقبل اتمام الرقم أغلق الخط ، ثم أعيد الكرة وأنا ألفظ الأرقام رقما ، رقما ، بصوت مرتفع ، انتظر رنين الجرس ، يجيئنى صوت غير

الصوت ، أجنبي عني ، غريب لم تألفه أذني ، يقول إن الرقم صحيح ، ولكن مثل هذا الاسم لا يوجد هنا ، يتبدل اليوم وتنهمر الكدورات ، تتصل أمي ، هل افطرت ؟ هل ستخرج ؟ ثم تتساءل ، مالك ؟ قلت ، لاشيء . قالت ، متى سترى صاحبتك ؟ قلت ، لا أدري ، قالت ، حدث شيء ، قلت ، لا ، قالت ، لا .. بل حدث شيء ، قلت ، إذن حدث ، قالت ، ماذا ؟ قلت ، عندما تجيئين ، قالت ، وحياتك أخبرني الآن ، فقلت ، انني أفضل الصمت الآن ، لم أخرج ولم أبدل ثيابي ولم يتغير على الحال ، فقد ثبت كمدى وتمكن قهرى مني ، وأحدق بي ضيق ، ولم أقدر على مد يدى إلى الراديو ، عند العصر كنت في خسر ، احتجت سماع الصوت الإنساني ، فأدرت القرص ، لأحادث صاحبتي وصاحبة لور ، لعلي آتي منها بقبس ، أما حجتي الظاهرة فتوجيه شكرى على دعوتي ، جاءني صوتها ، فسلمت وشكرت ، ثم حدثتني عن مظاهرة ستنطلق غدا من الميدان الرئيسي احتجاجا ، قالت ، من المهم حضورى إذ يجب ان تبدو المظاهرة مهيبة المنظر كثيرة العدد أمام الصحافة والاعلام ، كدت استفسر عن لور ، وهل تجيء أيضا ، لكنني فوجئت بها تقول لى ان لور خابرتها صباح اليوم وطلبت منها الاتصال بي ، إذ أملتني الرقم الأخير خطأ ، إنه سبعة بدلا من ستة ، سهو تعتذر عنه لور ، ربما سببه العجلة أو المطر ، ودعت صاحبتي بطيء الأنفاس ، لم أضع السماعة مكانها ، أخاف أن أدير الرقم ، لكنني عزمت وتوكلت ثم أصغيت إلى رنين الجرس الذى لم يستمر طويلا ، رسا عندى صوتها فارتفعت الكآبة وتأجلت الاستقالة ، واتضحت الصفة ، ومن وجودى الأول رنوت مرتاحا إلى وجودى الثاني ، رأيت علامة هذا اليوم الشتوى ، واحطت ببعض ما احاطني ، وكانت أشياء متباعدة لا اتفاق ظاهراً بينها ،

ومن ذلك الرصيف الأيمن المؤدى إلى البيت ، واجهة معرض السجاد ياقوتية الظل ، والقطع الصغيرة الدقيقة النقش ، تقول اللافتات إنها صنعت فى قرى نائية بأواسط آسيا ، وصوت المرأة التى تناولنى الشطائر عندما تقول لى شكرا بلغة موطنها ، السلم الكهربائى الذى يستمر فى الحركة حتى توقف القطارات تماما ، وقطرات المطر التى تأبى مفارقة أوراق الأشجار ، أحببت لونها الأخضر السخى ، حيث يلد اللون من لونين مختلفين لا وجود محسوساً لأحدهما فى اللون الناتج عنهما ، أحيانا تكون الغلبة للأصفر ، وأحيانا للأزرق ، لكن لا يظهر الأصفر ولا الأزرق ، يندمج كل منهما فى الآخر ليتكون الأخضر ، كذا سائر الألوان ، وهكذا حالى مع حالى عند هذا الحد من ذلك المقام ، إذ تداخل وجودى فى وجودى ، أحيانا اتغلب بنشأتى الأولى على نشأتى الثانية ، ولكن دون ان تظهر نشأتى الأولى فى نشأتى الثانية ، وعندما اتجهت فرحا إلى هذه الكنيسة الأثرية الشهيرة ، مقصد الزوار والسائحين ، كنت أمشى فى الأرض مرحا ، أبسطها كل البسط ، ولم أدر أيهما أنا ، فالخطى لى ، واللهفة لهفتى ، هذا ما خبرته عبر أعوامى الطوال المندثرة التى لن تعود ، عندما اتجه إلى لقاء محبوبة لى ، يخفت وجودى ويشف كيانى . وأرغب الحديث إلى كل من يلتقينى أو تقع عليه عينى ، وعندما رأيت سيدة عجوزاً تمسك سلة من خوص ملون تطل منها وردات ملونة ، اشتريت وردتين ، وقبل الموعد بست دقائق ، قبل ان يستقر العقرب الصغير على الرقم الرابع ، والكبير على الثانى عشر ، كنت أقف متأملا واجهة الكنيسة وزخارفها الجصية ، اسأل نفسى ، من أى جهة ستأتى ؟ من أى ناحية ستظهر ؟ فى أى لباس ستبدو ؟ أى كلمات ستقال فى اللحظات الأولى ، وبوجودى الأول أتساءل ، كم من اللقاءات جرت فى نفس المكان ؟ وكم

من الأيدى تصافحت ؟ وكم من المصائر التقت ؟ وتفرقت ؟، فى السماء غمامات رمادية ، وعلى القنطرة الحجرية مجموعة أجانب متدثرين بالملابس الشتوية ، وفوق الأرض تحط حمامات آمنة ، من مكان بعيد تنبعث موسيقى ، يجيئنى الصوت فجأة ، مساء الخير ، ألتفت متهللا ، يطالعنى وجهها المخملى الهادئ ، عاد الفتى رتقا ، والفرق جمعا فأبقيت يدها بين يدى مقدار لحظات ، تساءلت ، إلى أين ترغبين ؟، قالت : إننى أحب ضفة النهر أيضا ، واننى جئت إليه مرارا ، أرقب مياهه الرمادية لكن بمفردى . ولكن ألن تشعرى بالبرد ؟ ، قالت ، إذا زادت الوطأة لنمض إلى مقهى ، قلت ضاحكا ، ان هذه المدينة لا يوجد فيها إلا المقاهى ، والحدائق ، ثم أضفت .. وصوتك ، ثم قلت ، ان مقاهى القاهرة شىء مختلف تماما ، ثم قلت اننى لم أر الشام للأسف ، لكننى يوما سأذهب إليه ، واننى اعتبر اقامتى هنا موقوتة مهما طالت ، شاء أبى ، شاءت أمى ، أم لا . ثم قلت ان الأشجار تبدو أجمل فى الربيع ، وان الغصون العارية تثير انقباضى ، قلت إننى أحب المطر وأعشق رؤيته من خلف حاجز زجاجى ، لكن الأيام الرمادية تمدنى بكآبة ، وأننى اقتنص مرات ظهور الشمس وأولى وجهى إلى حديقة النباتات ، أخلع قميصى ، وأتمدد عارى الصدر ، أما فى مصر فالشمس مقيمة أبدا ، عندى جوع إلى هذه الشمس . لكن أبى يقول إنهم أفسدوا كل شىء ، وان الأيام غير الأيام ، قلت ضاحكا إننى سأبلغ الثامنة عشرة فى أبريل ، قلت إننى لا أصدق ، وجهها لا يوحى أبدا ، كأنها زميلتى فى الدراسة ، ضحكت وقلت إننى لم أضحك من قلبى منذ زمن بعيد ، ساعات عديدة أقضيها بمفردى هذه الشوارع الخالية من المارة قاسية على الغريب ، وأنا غريب ، سكت لحظة تشاغلت خلالها بالنظر إلى قارب كبير مغطى بزجاج

شفاف ، تبدو صفوف المقاعد خالية ، يركبه الأجانب ليروا معالم المدينة من النهر ، التفت إليها ، وجودها الهمسي يجعلها صفة لا موصوفة ، كأنها خلقت فى المساحة التى تفصل الضوء عن الظل ، والشذا عن مصدره ، ظل الندى على الندى ، تسليم الليل على النهار ، تردد أشعة الشمس على الغمام فى الأعالى ، تنظر إلى مياه النهر ، إلى درجات حجرية قديمة محفورة فى الشاطئ المنحدر ، على مهل تلتفت إلىّ ..
« ماذا تريد منى ؟ »

اختصار موجز ، وحيرة غاربة ، اتوقف عند مفترق ، واحلق عند حدين ، أتردد بين إجابة وسؤال ، فى وجودى الثانى حيرة ، مابينهما استقر صمتى ، غير أن ذلك لم يدم ، أقول ـ ولا أدرى بأى اللسانين نطقت ؟ ـ « أريدك أنت » ، تولى وجهها شطر النهر ، أمد يدى ، ألمس أطراف أصابعها ، مشارف وجودها الحسى ، احتوى يدها الدقيقة ، الرقيقة بين يدى ، تلتفت إلىّ ، ما بين شفتيها انفراجة رقيقة لا تلحظ كخط الأفق الفاصل بين الأرض والسماء ، يُحددْ ولا يحُدَدَ ، أما عيناها فطاقتان على عالم أجهله ، تشع بالنظر سؤالها الذى نطقته منذ لحظات ، ماذا تريد منى ؟ ، يهفو قلبى فى صدرى ، ويتقلب بين كفى شيخى الأكبر . وهنا رأيت شفتىّ تنطقان ، لكننى لا أسمع ، رأيت إيماءاتها الصامتة . ولم أدرك جل ما قلت ، يضايقنى هذا ، مع أنى لم أنطق كلمات كثيرة أو جملا معدودة ، وعللت ذلك بأن ما يقال فى اللقاءات الأولى لا يمكن استعادته كاملا ، بل يجرى فيه الأمر بمجمله ولا يدرك فى تفصيله ، ولأننى اجتزت منزل الأصوات الباقية ، وانقطع أملى فى العودة إليه ، واستحال رجوعى فقد يئست من قدرتى على معرفة ما قلته ، والغريب العجيب اننى من حين إلى حين أرى

دخولها عليّ أول مرة ، ولحظة خلعها الجاكت المبطن بالفرو ذى النقوش السلافية ، أعلم أن الإنسان الذى سمى إنسانا من النسيان لا ينسى اللحظة الأولى ، ولا اللحظة الأخيرة ، أما ما بين القوسين فيندمج ، تطمس معالمه ، تنطفئ فترات وتبرق أخرى ، ربما ينسى زمن بأكمله ، تختفى تضاريسه ، لكن لحظة البداية ولحظة النهاية لا توليان أبدا ، أما التفاصيل الدقاق فمن العبث محاولة استعادتها ، أبدا ، أبدا.

انظر من وجودى الغريب ، أرى نفسى دانيا منها ، محيطا خصرها بذراعى فتميل إلى صدرى ، وتسبل جفنيها العلويين ، أغطى شفتيها بشفتى ، أزداد قربا حتى أرى الشعيرات التى يسرى عبرها الدم البادية فى جفنيها المسدلين ، فى حضنى تبدو أصغر وأدق ، وعلى صدرى فرشت رائحتها التى لم أعرف مثيلا لها ، بين ذراعى أدفأ ، وكأننى ألملم حمامة طال بها السفر ، تدب الحرارة فى جسدى ، تسرى الرغبة عندى ، وتتحرك الشهوة فىّ ، ولم أكن خجلا من التصاق بها وشعورها بقسوة رغبتى وشدتها ، وتلك جرأة دهشت لها ، لم تواتنى فى هذه السن عندما مررت بها ، أنا الذى لم أعرف امرأة إلا فى الثانية والعشرين ، لا أكف ، تندس يدى ما بين ثيابها ، فكأنى رأيت لون بشرتها بيدى ، تزداد ميلا نحوى واستكانة ، يصير وجودها حنينا ومحنة ، وشفقة ، ورقة ، ومنة ، حرك هذا عندى الرغبة فى القربى ، وتلك رغبة منقوصة لغياب جسدى عنى ، فلم يعد من نصيبى إلا النظر منى إلىّ ، والدهشة منى علىّ ، والحسد ، والتمنى لو كنت أنى أنى ، وهذا عجيب ، ولم يتفق لأحد غيرى ، حتى مشايخى الأجلاء ممن مهدوا لى الطريق وعرفونى به ، وأخذت عنهم فيه وله ، حتى رفاقى وإخوانى الذين اتبعت خطاهم ونوّر علمهم عقلى ، هذا خصصت به ، وان كان مؤلما ، انفردت به وان كان

معذبا ، مضنيا ، انتبهت إلى حركة جسدها فى ابتعاده عنى ، بينما تغمق مياه النهر ويطل الليل عند الحافة ، وتدنو السماء من الأرض ، اكتمل انفصالها عنى ، وأنا متوهج العروق ، طامعٌ فى الباق ، انطق فأسمع نفسى « حرام عليك » ، مشيرا إلى توتر حالى ، فأجابتنى « وحرام عليك » ، فعرفت أننى تهيأت لها وأنها تهيأت لى ، وأن ما تمكن منى تمكن منها ، وما سرى عندى سرى عندها ، فلأت يدى ، واستوثقت أمرى ، ورغبت الضم والعناق ، والاحتواء ، غير أنها اعرضت عنى برفق ، وحنو ، قالت « امهلنى ، إننى فى حاجة إلى قرار » ، ثم قالت « إنى مضطربة » ، ثم كررت « إنى مضطربة » ثم قالت « إنى فى حاجة إلى قرار » ، لم أعاود الكرة ، هل يصير قربها إلى بعد ؟ وما كان بيننا منذ لحظات ، أينقلب إلى ذكرى ؟ أشراقة ثم ولت ؟، تساءلت بصوت خفيض « متى تقررين ؟ » قالت « إنى بحاجة إلى فرصة ، إنى مضطربة » ، تساءلت « أيطول الأمر ؟ » ، قالت « لا » ، بدا لى نطقها لحرف « لا » عجبا ، فيها العمق الأقصى ، والرجع الآتى ، وبشائر الحنين ونسيم المودة ، وعبق القرب حتى وإن وقع الفراق ، منطوقها لا يشبهه منطوق ، ومخارج حروفها لا مقابل لها ولا مثل ، تنطق كأنها تتذكر زمنا جميلا ، تحن إلى عمر آمن ، مفتقد ، أو تلمح إلى مكان عزيز ، أو غائب عزيز ليس فى متناول البصر ، فمن اين لها البحة الأسيانة ، والفيض الشجونى ؟. رأيت خلق البديل فى البيت ، ولم أعلم أهو اليوم نفسه أم يوم تال . بمفردى ، فأبى غائب ، وأمى لم ترجع بعد ، عبر الهاتف يجيئنى صوت لور الشفقى ، المؤيد السوسنى ، تقول لى أنا « يمكنك ان تجيء وتقضى الليل معى ان شئت » ، أطوى الشوارع طيا ، ادخل المصعد الضيق ، اضغط المفتاح ، يرتفع محدثا ضجيجا فى تلك الهدأة السكونية ، اقف فى الطابق الثالث ، احدق فى رقم الشقة ، يرن الجرس مرة

واحدة ، يصغى قلبى الخافق إلى وقع خطاها المقترب ، تفتح الباب ، تقف بوجودها الأفق المفتوح أمام وجهى ومقصدى فيلين سعيى ، فأخطو إلى الداخل ، ولأنى رأيت البيت من حيث نشأتى الأولى قبل ان ترانى فلم أركز البصر على الجدران ، أو صورة المسجد الجميل ، ولأنى ألج المكان أول مرة من خلال نشأتى الثانية فبدوت مترددا ، غير ان تأثير وجودى فى وجودى لم يخف على ، إذ شعرت شعورا خفيا أننى رأيت المكان من قبل ، متى وأين ؟ هذا ما لم أعلمه أبدا من خلال وجودى الثانى المحدود ، خلعت حذائى ، وجوربى ، وجاكتى ، وقعدت عند حافة الحشايا المتجاورة خضراء اللون ، والتى تشكل فراشا بجوار الجدار ، بينما جلست على حافة المقعد ، تدس يديها المبسوطتين المتجاورتين المتلاحقتين ، براحتيها بين ركبتيها ، سألتنى « تعشيت » ، أومأت ، وكنت انظر إلى الطاولة البسيطة المثقلة بالكتب ، والأقلام ، والصناديق الصغيرة الممتلئة بأوراق البحث ، إنها تجلس هنا إذن ؟، تخلع قميصها الأحمر النبيذى ، يفصح جسدها عن ألق خمرىّ مطعم بحمرة ، وكتفين مستديرتين ، أرى عنقها بأكمله من المنبت ، تمد يدها إلى الخلف ، تفك المشد الأبيض الشفاف الرهيف ، ينفر نهداها كالنبأ العظيم أو الخوف المفاجئ ، أما الحلمتان فهمستان ورديتان ، دائريتان ، سخيتان ، دالتان مدلتان مومئتان ، نضاحتا الهوى ، أرى عريها مكتملا فتتم أركان الحقائق ، وتنجلى المعرفة ، اسعى حوله بنظرى واطوف فلا تبدى خجلا ولا تدارى ، بل تقبل علىّ ، تساعدنى على فك قميصى ، تمسح شعرى ، تدللنى ، تهدهدنى ، فتعيدنى إلى سيرتى الأولى ، أحيطها وتحيط بى ، اقبلها وتقبلنى ، أرغب فى ان تظللنى أنفاسها من كافة جهاتى ، وكلما حننت عليها ازداد حنانا على روحى ، أما من جهة وجودى المنقوص ، حيث أنا رأس بلا جسد يسعى على قدمين ، كنت متفرقا بين مشاعر شتى ، أرقب سرعة تطور ما يجرى ، فما بين وقوع عينى عليها أول مرة ، وما بين

تقبيلي لها عند ضفة النهر سبعون ساعة ، وما بين ضمي لها واكتمال عرينا سبع ساعات زمنية ، وهذا لم يتفق لى مع كل اللواتى هفا إليهن قلبي وحبا . إنى أمام شيء جديد على بحكم وضعى القديم ، حتى أننى ارتبكت ، وسرى اضطرابى هذا إلى وجودى بين أحضانها فلم يتم أمرى بعد ان كنت عفيا ، تقول لى « دعنى اساعدك » ، غير ان ميراثى الشرقى أبى واستكبر ، تقول لى « تعال إلى جوارى ، أرغب ان اكلمك ، اسمعك ، وتسمعنى » ، أضحك مداريا خجلى « حدث عطب فنى » ، انفصل عنها ، وهكذا حال هذه الحياة الدنيا ، اتصال يعقبه انفصال ، تلاق وتفرق ، فسبحان من له الدوام وحده ، من ناحيتى تحرك أمر غامض فى فؤادى ، لم أدر كنهه بداية ، لكننى لما أطلت النظر إلى العناق والمهامسة ، أدركت اننى أغار عليها منى مع أنى أنى ، ولأن الغيرة لاحت واسفرت فقد وعيت عشقى لها وبداية تحركه ، حتى تمنيت أن أكون أنا هو مع أنى هو ، وهو أنا ، وددت لو ان قلبي معى فى صدرى ، فعلامة المحبة خفق القلب ، حرت فى أمرى ، فشغلت نفسى بالطواف بها ، تعجبت إذ تبلغ النشأة الإنسانية هذا الحد من الكمال والدقة ، والرقة ، سهرت عليها بعد نومها ، رأيت وجهى متعبا ، غير راض ، لأننى لم أتم ما بدأت ، حتى ظننت بنفسى الظنون ، وحرت فيما ستظنه عنى ، غير أنى أقول الحق والحقيقة ، فلم تشعرنى أبدا بضيق أو حرج ، لم تبد لى ما يجعل المكروه يصيبنى ، تأملتنى بالنظر الجميل ، رغبت فى توسد ذراعى ، ظننت أننا سنضطجع على السرير فى الحجرة الداخلية ، غير أنها لزمت نفس المكان فتمددنا فوق الحشية وأحاطنا ليل عقيم من الأصوات ، كنت بجوارها ، وكنت أتمنى وأذوب شوقاً لأرقد على مقربة منها ، اضمها أو تضمنى ، مع أنى طيلة وجودى البشرى لا أطيق اقتراب انفاس مخلوق منى ، إذ عندما ألج النوم أفضل الوحدة والانكماش والانطواء حتى لتلامس ركبتى صدرى ، طفت بفضاء الحجرة . حططت برأسى فى

متناول أنفاسها ، أتلقاها على وجنتى فأنتشى واكتمل وأنا منقوص ، أنىّ لى بذراعين ، وساقين وصدر ادنيه من صدرها ، وقلب أسمعها به خفق ، أنىّ لى ذلك ، شغلت بها النفس عنى فلم أكف عن الطواف حولها ، بدا لى استسلامها للنوم مزهريا ، وسنيا ، همسيا ، نجوميا فى البعد السحيق ، عند الفجر انتبهت إلى اقتراب شيخى الأكبر منى ، فتأدبت وأنهيت الحملقة ، ولاحظت بطرف الكليل أنه يقبض على قلبى المصرور فى منديله بكلتا يديه وليس بيد واحدة ، وأنا فى مواجهته اخجل من نفسى خجلى الأول من أبى ، لم أتحدث إليه مرة واحدة فى عمرى عن امرأة عرفتها ، أو عشقتها ، أبدا ، وبعد ان فتحت بيتا ، وفى زياراته القليلة إلىّ ، وعند انصرافه يدعو لى « متعك الله » ، فأشعر بظل من خجل ، تلك بقايا النشأة الأولى التى اندثر وما عادت ، بل ولت بلا أمل فى الرجعى ، وكل يوم يمضى لايزيدنى إلا بعدا ونأيا ، لذا حق لى الحزن ليس لأن كل مفقود نفيس ، وكل مستحيل مرغوب ، وكل عزيز غائب تحن إليه النفس وتهفو ، بل ، لأنها آمن أيامى ، هذا حق أقر به وأعيه فى صحوى ومنامى ، وهذا من لطائف منته على ، قال لى شيخى الأكبر ، نفعنى الله ببركته وغزير علمه وزاده حرصا على سلامة قلبى القابض عليه . قال لى ..

ـ ذكر إنما أنت مذكر ..

قلت :

ـ لست على نفسى بمسيطر ..

قال :

ـ ارفق ، ولا تنس أنك أنت هو ، وهو أنت ..

مع بدء حديثه صار السكون أعمق ، وانفاسها لا تسمع ، أرى صدرها يعلو بشهيق وينخفض بزفير ، وكنت قد أغمضت عينى ونمت ، أما عناقنا

فلطيف ، كثيف ، ويبدو أن رقدتنا وبدء هيامى دفعا شيخى الأكبر إلى التبسط معى ، قال لى ـ وصوته عبق بالوجد ـ ان الحقيقة تجلت له فى زمن قصى ، وكان مجاورا وقتئذ بمكة ، وكان لشيخ من أصحابه بنت عذراء ، طفلة هيفاء ، تقيد النظر ، وتحير المناظر ، تسمى بالنظام ، وتلقب بعين الشمس والبها ، من العالمات الزاهدات السابحات ، شيخة الحرمين ـ ساحرة الطرف ، إن أسهبت اتعبت ، وان أوجزت أعجزت ، يتيمة دهرها . عالية الهمم ، قال لى إنه نظم فيها بعض خاطر الاشتياق ، فأعرب عن نفس تواقة ، ونبه على ما عنده من العلاقة ، اهتماما منه بالأمر القديم : وإيثارا لمجلسها الكريم ، فكل اسم ذكره فعنها كان يكنى ، وكل دار ندبها فدارها يعنى ، قال لى إنه نظم فيها قصائد رقيقة جميلة ثم اضطر لشرحها ، ذلك ان بعض فقهاء حلب انكروا ما فيها من أسرار إلهية ، قال لى ، إن المنكرين لما سمعوا شرحه ثابوا إلى الله سبحانه وتعالى ورجعوا ، قال لى شيخى الأكبر بعد اطراقة . فتدبر ياجمال فيما تمر به ، إن ما تشهده لم يشهده أحد قبلك ، وما تشعر به لم يطرأ على قلب غير قلبك ، ولا تظن أن الأسرار كلها تكشفت لك ، فما كل شىء تبصره تفهمه ، سكت ، وكنت فى رضا ، واطمئنان ، ورغبة لا تحد فى الافضاء بكل ما عندى وما فى سريرتى إليه ، ذلك أنه رفع حجاب الكلفة وخاطبنى باسمى مجردا ، وباح لى بالهوى القديم ، فوددت البوح بمكنونى ، وهذا مخالف لطبيعتى ، ذلك أنى صموت ، كتوم ، اجارى من أواجهه وأنا راحل عنه ، أقيم مع من يصاحبنى وأنا بعيد ، ألم أخبركم من قبل أحبائى واخوتى فى الطريق أننى راحل أبدا ، فلا استيطان لى أصلا فأنا مستوطن بلا وطن ، ومقيم بغير سكن ، غير أن طبعى هذا تبدل ، معى حسينى ومع من أحببت ، خاصة هذه البنية ، فخصالى فى نشأتى الأخرى متشابهة إلى

حد بعيد بما أنا عليه فى وجودى الأولى ، ومن ذلك قلة حديثىْ حتى فى افضالى ، واستتارى ، حتى ان أمى الثانية كانت تضربنى على يدى وتقول لى «أه لو أعرف فى أى شيء تفكر ؟، أو تصيح فجأة ، انطق ياأخى » ، أما أمى أنا ، أم نشأتى الأولى ، فكانت تفهمنى بالنظر ، وتدركنى بالصمت ، نتواجه ساكتين فتعرف عنى الكثير ، واعرف عنها القليل ، وإذ أودعها عند سفر أو بدء غيبة ، نفترق ، فلا نتبادل القبل ، لا نتعانق ، ولكن جسر القلبين سليم ، وبحر الود جار متصل ، كذا حالى مع أبى ، أما أمى الثانية فتقبلنى فى الغدو والرواح ، تنادينى بالتدليل والتصغير ، وتطلب منى ان اطمئنها على مكانى ، لأن انقطاع خبرى عنها يربك أحوالها ويرجف فؤادها ، ويشغلها عن عملها ، وتقول لى دائما إن عملها هذا مصدر أماننا فى الديار الغربية ، وان أحوال أبى لاتطمئن أبدا ، تريد ادخار شيء للزمن يؤمننى ، تخشى ان يقعدها مرض ، أو حادث مفاجئ ، ربما يشط أبى شططا ، فمنذ ابتعادنا عن مصر ، وانقطاعه عن الشعر ، تشعر أنه يعيش معنا حياة مؤقتة ، وأنه قد يهجرنا يوما ، فهل تدعنى أواجه الحياة بمفردى فى الغربة ، لايمكنها تخيل ذلك ، فما البال لو وقع ؟، فى عصر يوم غارب سألتها ، لماذا لا ترجع ؟ قالت لى ، هل ترضى السجن لأبيك ؟، ثم قالت ، هل تقبل له ان يعمل معهم ؟، ثم قالت ، كيف نرجع وهذا العلم الغريب يرفرف ؟ قلت لها ، لماذا لا نرجع ونلق به ؟ فقالت لى ، وهل نقدر ؟، عندئذ استأنفت صمتى ، وهنا علمت أن كل ما عرفته عن أمى الثانية كان مادة حلمى وصورة فى رقدتى بجوار لور ، ويبدو ان امرا ثقيلا نفذ إلى رؤياى ايقظنى ، وهنا احتجب عنى شيخى وممسك قلبى ، نظرت إلى نفسى ، افتح عينى وأثر الرؤيا فى انفاسى ، حتى اننى حننت إلى أمى حنينا قويا ، أتأمل الوجود المجاور لى ، الساكن

الحى ، هدوء نومها المحتوى لحيوية جسدها متتالى الاستدارات ، متناسق النسب ، نحول الخصر ، واكتمال الردفين فى غير افراط ، وانبساط الساقين ورشاقة أصابعها ، اتذكر تمثال مدام ريكاميه ، كأنه اتخذ وضع النوم بعد سريان الحياة فيه ، تتقلب فتوليني ظهرها ، ألامس مفرق ردفيها بجسمى فتلب عندى حرارة واشتياق عظيم ، برفق اتخلل شعرها بأصابعى ، أقبل كتفها ، تستدير إلى ، على مهل تطفو تجاهى قادمة من أغوار النوم ، تقبلنى وأقبلها ، آخذها وتأخذنى ، اتجاوزها وتتجاوزنى ، نتحد ، تغمض عينيها لكننى أبقى عينى مفتوحتين ، ارقب ميلاد النشوة ، وانفراج الشفتين بعد تيسر الأمر ، أما أنا فى وجودى الأول ، فقد كنت منفصلا مع أنى متحد ، هى قريبة منى ونائية عنى ، اقتربت منها ومنى ، مررت بينها وبينى ، رأيت متعتها ومتعتى ، تمنيت لو أنى مكانى ، لو احتويتها بدلا منى ، لو اخذتها عنى ، لكن أنى لى ذلك وأنا ناقص غير مكتمل . تأكد عندى فى لحظة الأندماج القدسية أننى أهواها ، وأن هواى بدأ عندما رأيتها وحيدة فى حجرتها قبل ذهابها إلى مسكن صاحبتها ، قبل بدء غنائها ، قبل ولوجها قلبى الثانى ، ضقت منى ، وأحطت نفسى بنظراتى ، فغريمى ذاتى ، ومنافسى هواى ، ومن أخذها عنى هو أنا ، ومن احتواها شخصى ، احطت وجودى الآخر بنظراتى وأنا كاره لى ، مستنفر منى ، ولما لاحظت اقترابها من ذروة الأوج ثبت بصرى فسمعت تأوهها المضموم ، ورأيت انتفاضة جسدها كأنها زلزلت زلزالا ، رأيت نضج اشتياقى وكمال متعتى ، كنت أرى لذتى ولا أشعر بها لغياب جسدى عنى ، وتوزعه وتشتته ، رأيت يديها تسبحان فوق ظهرى ، فذكرتنى اصابعها بترقرق ضوء القمر عبر فجوات الغيوم ، يتم رسونا وينتهى سفر كل منا عبر الآخر ، نتمدد هادئين ، يحتضن كل منا الآخر ، ارتاح راحتين ، فراحة من حيث أنى

فرغتُ واصلحت عطي ورتقت فتق الذى كان أول الليل ، وراحة أخرى لأن ما أثار غيرتى منى قد انتهى ، غير أنى لم تمض دقائق معدودات حتى شرعت اطلبها مرة ثانية ، دهشت ، ضقت ، حام رأسى فى فراغ الغرفة حتى كدت اصطدم بسقفها وقطر دمى ، غير أنى عللت الفرق بينى وبينى ، فوجودى الأول يقترب من الأربعين بقلب معطوب وجسد مثخن بجراح زمن السوء ، أما وجودى الثانى فلا يزال غضا ، لم يتجاوز العشرين ، دققت النظر فى الفروق بينى وبينى ، قامتى الأولى أقل طولا ، غير ان جبهة رأسى اعرض ، وقضيبى الأول أطول قليلا ، فسرنى ذلك واراحنى ، أما يدى فنبسطة ، واصابعى فنحيلة متناسقة ، ويدى عريضة وأكثر امتلاء ، وكانت بشرتى سمراء قمحية ، أما بشرتى هذه فبيضاء وشعرى بنى غزير ، أما شعرى الأول فأسود خفيف ، تساقط معظمه ، عند بلوغى هذا المقام ، وأوشكت صلعتى ان تكتمل ، امعن النظر وأنا ألج كونها للمرة الرابعة ، كأن وجودها ازداد تركيزا ، اقتربت اطرافها وصارت كلا مدملجا ، تفرغ ، تطلق آهة ، ينكفئ رأسها جانبا ، أقول « تعبت ؟ » ، تولى وجهها تجاهى ، « الحب يريحنى » ، كأن التعب أضفى على صوتها ورائحتها كثافة ، أصير إلى عبق منها ، اتخلل شعرها مرارا ، التفتت فجأة ، تقبلنى ، أتخدر ، اتهدهد ، من ناحية أخرى ضقت إلى الذروة بما بينى وبينها ، إذ تعاظم حرمانى وارتوائى معا ، حرمان لأنى أنا لست أنا ، فأنا الفاعل والمحروم من الفعل ، بل أتمناه ، أفرغ من وصالها لخامس مرة ، مهدود ، متعب ، منتش ، بينما الفرحة عظيمة ، والرضا أتم ، هى تستلقى ريانة ، مسقية ، ساقية ، متوردة ، تنفرج شفتاها انفراجا خفيفا ، يبدو مابينهما كاتصال النهر بالبحر ، عند المصب ، أقوم لأتناول منديلا ورقيا اجفف به عرقها قبل عرقى ورضاها قبل رضاى ، تنظر

إلى ممتنة ، مكتملة الازدهار ، يطلع الفجر علينا ، ننظره عبر الستارة المسدلة ، وثنايا متعتنا ، فى الضوء المعذرى نجلس متواجهين ، عرايا تماما إلا من صدقنا ، تتطلع إلى ، واتطلع إليها ، ارغب فى الاحاطة بكل شىء عنها ، وفوق كل ذى علم عليم ..

فصل فى وصل ..

.. تتطلع إلىّ ، وانظر إليها ، وإذا بى أفاجأ فى وجودى الأول بأننى أنا هى ، انظر بعينيها الىّ ، وأفكر بمنطوقها فىّ ، أنا فى نظرها مضىء ، حى ، أبدو أجمل إذ اتخلص من إطراقتى واكتئابى ، خاصة بعد أن تم الشبع والرى ، عندما كنت أدفع بنفسى داخلها أميل برأسى ، أتوسد كتفها فتلمسنى بكفها ، سرها هذا كثيرا ، وسررت أنا أيضا ، فتلك المرة الأولى التى أرى نفسى بعينى أنثى ، كنت لدهشتى أشعر بلذتها ولذتى ، فأنا هى ، والفاعل والمفعول واحد ، والمكنون والمتكون فيه واحد ، والمعطى والمتلقى واحد ، وكثيرا ما سألت نفسى ، كيف متعة الأنثى ؟ اتشبه متعة الرجل ، ذلك أنى خبرت متعة الذكر ، ورأيت آثار نشوة الإناث على وجوههن ، لكننى فى هذا الفصل وقفت على مالم يقف عليه غيرى ، واحطت بما لم يحط به قبلى رجل وامرأة ، إنها تردد كلما اطالت النظر إلىّ ، لكم هو حنون ، كم هو رقيق ، اثناء المطر مد مظلته وترك القطرات تبلله ، لكم يمكن اساءة فهمه ، سررت لأن هذا خبىء طبيعتى ، ولكم عانيت يا صحبى من سوء الفهم عند الآخرين ، غير أن ما حيرنى توقفها المتأنى عند يقينها أننى أخفى أمرا ، وأن ظلا غير مرئى ورائى ، واننى بقدر ما أبدو مرحا بقدر ما أدارى شجنا يفوق

الشجون ويتخطى مدى عمرى الغض ، وبقدر ما أبدو فتيا بقدر ما أضمر شعورا بالهرم ، وكلما حدقت الىّ ، ازداد يقينها أننى أصحب ظلا غير مرئى لآخر ، حرت من ناحيتى فى سر ذلك ، لكننى عللته بوجودى الأول المصاحب لوجودى الثانى ، فلابد ان اطلالتى عليها تلقى ظلا غير مرئى ، ألا يفاجئنا ـ ونحن بمفردنا ـ شعور مبهم بأنه ثمة وجودا خفيا يجاورنا أو يصحبنا ، ونحن لا ندرى كنهه أو طبيعته ، تطرق ، تنظر إلى الأرض ، تقول لنفسها إنه يشبه أباه ، فأضطرب الاضطراب الأعظم ، واتساءل ، أى أب تعنى ؟ أتعرف أبى وأنا جهول لا أدرى ، وعند هذا الحد انتهى الفصل ..

عودة إلى الوصل الرابع من هذا المقام

.. أقترح ان نقابل النهار فى الشارع ، ان نتناول إفطارنا فى مقهى قريب تحبه ، تبدى حماسا ، تنهض ، تعبر الصالة سابحة فى أنوثتها وبهائها ، قبل خروجنا استفسرت عن مكان نومها ، وجلوسها ، وساعات عودتها ، وبقائها هنا وانصرافها ، وميعاد إغماض عينيها للنوم ، والموسيقى التى تعشق سماعها ، والموسيقى التى تحزنها وتشجيها ، والموسيقى التى تبهجها ، والأغنيات التى تصحبها ، وعن الكاتب الذى تأنس إلى عالمه ، وعن زجاجات الدواء التى لمحتها عندما دخلت لأغسل وجهى فوق الرف الزجاجى ، وعن أوقات نزهتها ، والحديقة التى ترتادها ، وعن آخر مرة سافرت فيها إلى موطنها الأصلى ، وعن مرات اتصالها بشقيقتها المقيمة فى أمريكا ، وأمها المصرة على البقاء فى بيروت وتأبى مفارقتها ، وعن الجريدة التى كان يمتلكها أبوها ، وعن المرض الذى ألم بها بعد رحيله ، وعن المستشفى الذى عولجت فيه ، وسألتها

عن طلائع الليل الداجى فى عينيها ، وهذا الغمام فى نظراتها إذا استفسرت عن والدها ، هل آلمتها ؟ ، قبل خروجنا قبلتها ، فاستكانت إلىّ ولاصقت برأسها صدرى فرغبت التلاشى هنا ، بين مقام قلبها وقبلة عينيها ، ننزل السلم المغطى ببساط أحمر قديم ومثبت إلى الدرجات بقوائم نحاسية ، الشارع رمادى والسماء رمادية والصباح يروى الأشجان الأولى ، المقهى فتح أبوابه ، والمناضد صفت والبخار تصاعد من أوعية غلى القهوة والشاى ، زجاجى الواجهة يشرف على ميدان صغير مبلط بالحجارة القديمة ، من خلاله أرى الشارع الذى تسكنه بأتمة ، شارعاً آخر مجاوراً ضيقا ، على جانبيه دكاكين لبيع الخضار ، واللحم ، والحلوى ، شرقى المظهر لذا حننت إلى أسواق قاهرتى القديمة ، وتحرك اشتياقى إليها ، تقول لى إنها تحب هذا المقهى فى ساعات النهار الأولى ، وتأمل السوق لأنه يذكرها بمدينتها ، يبدو عليها أسى ، تعجبت لتشابه المعانى والخواطر ولم أصرح ، خفت ان تظن فى قصدى المجاملة ، كنا نجلس بقرب الباب ، وكلما نخل داخل أو خرج خارج ، تدفقت لفحة هواء بارد غير أنى لم أبال ، فهذا مقعدها الذى تحبه ، ومنه تتابع الطريق ، والمارة ، والمطر ، وندف الثلج ، والمظلات فى أيدى المسرعين ، وحاملى باقات الورود ، وأرغفة الخبز ، والحاجات البيتية ، والممسكات بأيدى اطفالهن ، والمتعبين والحيارى من أبناء السبيل ، بعد مدى من إطراقة حزينة اشفقت خلالها عليها ، تقول لى أنا إنها كادت تجن بعد رحيل أبيها ، وأنها هامت أياما طويلة فى الشوارع والطرقات ، عندئذ ضغطت بوجودى الأصلى على وجودى البديل وسألت بلسانى عبر لسانى الثانى وهذا مسموح لى به ، « وكم استمر حزنك العنى ؟ » ، تقول « عامان » ، تصمت ، ثم تقول لى إنها خلال الشهور الأولى التى تلت رحيله لم تتخيل يوما

أنها ستعشق وتسافر وتتمتع بلون الضوء ومجيء الدفء وتتعرى لأشعة الشمس ، لكن الزمن ...، فهمت عنها بوجودى الأول ولم أدرك تماما بوجودى الثانى ، تقول قبل شروعى فى النطق ، إنها كانت تمشى فى الطرقات تبحث عنه بين الوجوه فلا تجد ، وتتوقع ظهوره فجأة عند المنحنيات فلا يبدو ، وتتوهم ان قامة هذا تشبهه فتهرع لكنها ترتد خائبة لمرأى الملامح الغريبة عنها ، وعند لحظة معينة لا تدرى متى على وجه التحديد ادركت أنه فارقها إلى أبد مجهول ، إلى سر دفين لايمكن الأفصاح عنه قط ، صار هذا الخاطر يفاجئها فتتوقف أثناء مشيها ، وتمشى إذا كانت واقفة ، تقوم إذا كانت جالسة ، وتقعد إذا كانت واقفة ، فلا المشى هدأها ، ولا الجلوس اراحها ، ولا الاضطجاع خفف عنها ، ولا الرحيل سلاها ، سكتت ، وهنا قوى تعلق بها وازداد من ناحية وجودى الأول ، فكلانا يتيم الأب ، وهى كأنها تروى عنى ، تقول إن الحساسية بدأت فى رئتيها ، اضطرت إلى دخول المستشفى ، التقت بالرجل البولونى ، كان وحيدا فى تلك المدينة ، والبلاد ديار غربة له تماما مثلها ، عندما رأته سعت إليه ، كان قد تجاوز الستين ، كثيرا ما توسدت صدره ، كانت العقاقير المهدئة متمكنة منه ، ولم تكن تطلب منه ما تطلبه الأنثى من الذكر ، لكنه كان يبغى ، وحتى لاتغضبه كانت ترضى ، وتستسلم وتحاول مساعدته ، وفى كل مرة تقول له إنها لاتريد منه هذا ، لاتنشد إلا الصحبة ، فينهرها ، ثم يبكى متعبا ، ويقول إنها أشبه بامرأة تمتلك مقدارا كبيرا من المال ، وتحتاج إلى شراء القليل ، وهو لايمتلك شيئا وينقصه الكثير ، تقول إنه يتصل بها أحيانا ، وانه يبكى ، ويهدد بالانتحار ، ثم يرجوها أن تسامحه ، وأن تغض ، أقول والغيرة تنشب مخالبها فى أغوارى ، هذه علاقة ضارة ، بل خطرة ، تجيبنى بلسان غريب ، لغة هذه البلاد التى

أجهلها ، جاوبتها من حيث وجودى الثانى ، ولم أفقه قولى بوجودى الأصلى ، فضقت لذلك ، وتمنيت لو تبدلت فحللت محلى وشغلت مكانى ، غير ان ذلك عسير ، تعود إلى الاعتصام بصمتها الذى بدأ يحيرنى وان استعذبته ، فى اطراقتها معنى ، وفى تيهها أدلة ، وفى جلستها الصامتة تفسير كامل وبرنامج أوفى ، تحن إلى ابيها وتأسو ، انتبه فى وجودى الأول والأصلى ان غيبتى طالت ، واننى منذ مدى ، منذ ان بدأت هذا المقام لم أره ، لم أر أمى ، والغريب ان حنينى إليهما صار متساويا ، متلازما ، فماذا جرى ياذا الجلال والإكرام ، تقت إلى تجلى أبى لى ، إلى أمى ، إلى أصلى وفصلى ، لمت نفسى إذ انشغلت بلور ، حتى أخذتنى عن مقصدى ، وتساءلت ، أهو اكتمال النسيان ، أهو الموت النهائى والأبدى لمن أحببت ، ولمن خرجت إلى تجلياتى من أجله ، تمنيت العودة إليه ، مع أن تعلق بلور عمق وتأصل وتمكن ، الوحشة ادركتنى ، والذنب اقضنى ، لكن ألق فى معارفى ان هذا المقام لم ينته بعد . واننى سأنتقل إلى طور جديد ، لن أرى فيه الأمور فى تسلسلها ، إنما سأراها فى تجمعها وتجاورها ، فتأهبت كارها ، وحسبى الله هو نعم الوكيل ..

الوصل الخامس من هذا المقام

.. يقول استاذى أبو حيان ، وهو من شيوخى فى الطريق ، ومن أدلتى إلى الغاية ، وهو من الأجلاء القدامى الذين اضاءوا لى الدُجى ، يقول ـ رحمه ربى ـ إن النفس وان كان متصلا فإنه مرتد ، والزمان وان كان متصلا فإنه منفصل ، والوقت وان كان مساعدا فإنه خاذل ، والكتوم وان كان جلدا فإنه باذل ، رأيت أبا حيان عند انتقالى من الوصل الرابع إلى هذا الوصل

المبارك بإذن الله ، وكل ما حولى عدم محض ، وعندما هممت باللحاق به للحديث إليه والاستفسار منه والأخذ عنه ، انتبهنا فى آن واحد إلى ظل الشيخ الأكبر فأحجمت وسكنت وذهب عنى أبو حيان ، اختفى شيخى القديم كما ظهر ، عدت إلى وحدة وخواء ، حزنت على نفسى . إذ سأغمض عينى يوما ولا افتحها قط ، كما أغمض عينيه أبى ، وجمال عبد الناصر ، ومازن ، وإبراهيم ، وخالد ، وكل صحبى الذين راحوا ، فمالنا من شافعين ، ولا صديق حميم ، لكم رجوت واملت ان يتأخر مغيب شموسهم ، وألا تنطوى ظلالهم ، كما أدعو وارنو إلى بقاء شمسى ، ونأى ليلى ، هكذا جئت هذا الوصل بفؤاد كابى ، وفكر حزين ، ودمع على أهبة ، ليس ذلك والله العظيم لأنى ذكرت غيابى ورحيلى قبل أوانه فى حين آخر مقدر فأنا موقن الآن ان الموت هو اكتمال الدائرة الكبرى ، وكلما طويت عاما من عمرى وولجت عاما آخر ـ لا أدرى ان كنت سأتمه ـ قل خوفى منه ، وخفت رهبتى ، وشحبت حيرتى ، كمن بلغ من العمر آخره ـ مع أنى مازلت شابا عفيا لكنه زمن السوء ـ يودع أحبابه ، ويرثى أصحابه ، فإذا خطر له الموت بدا له فى رحيلهم هم عزاء له ، يقول ، لقد سبقونى ، وهل أنا أفضل حالا ، أو اعز مآلا ، أبدا يا إخوانى ، إنما اكتئابى وغيمتى لأنى ذكرت أحبابى وهم كثر ، وعيت وادركت أننى بمنأى عن الكرام الأقربين ، وان المدى يتسع ، والوقت يطول ، والزمن مساعد على النسيان ، وكما نسيت اليوم تنسى ، فسبحان من له الدوام ، لما حامت هذه الخواطر عندى وأحدقت بتراثى ، وبددت اطلالتها بعضا من مدخرى ، لاح انزعاجى ، عند هذا الحد ظهر شيخى الأكبر ، قال لى : لا تخف ولا تحزن ، ثم قال لى ، ان الهم يولد كبيرا ويصغر كلما دام واستصحبه الإنسان هان عليه ما يجد ، ثم قال لى :

كنت انقطعت فى القبور مدة منفردا بنفسى فبلغنى أن شيخنا يوسف بن خليف الكرمى قال فلانا وسمانى ، ترك مجالسة الأحياء وراح يجالس الأموات ، فبعثت إليه ، لوجئتنى لرأيت من أجالس ، فصلى الضحى ، وأقبل إلى وحده ، فطلب على ، فوجدنى بين القبور قاعدا مطرقا وأنا أتكلم على من حضرنى من الأرواح فجلس إلى جانبى بأدب قليلا قليلا فنظرت إليه فرأيته قد تغير لونه وضاق نفسه فكان لايقدر يرفع رأسه من الثقل الذى نزل عليه ، وأنا أنظر إليه واتبسم لما هو فيه من الكرب ، فلما فرغت من الكلام وصدر الوارد ، خفف عن الشيخ واستراح ورد وجهه إلى فقبل بين عينى ، ثم قال لى شيخى الأكبر ، لا تحزن فأنت تدنو. قلت بالنظر ، ممن ؟، قال بالنطق : من الأمر. فلم أدر أى أمر ادنو منه ، أو أى أمر ابتعد عنه ، تبسم قائلا : ثم إنك شغلت ، فتساءلت بالنظر أيضا ، بمن وعن من ؟، فضحك وقال ، الدنيا ! ، ثم رحل عنى وأنا فى حيرة وفكر ، وانتبهت إلى وجود لور أمامى ، ثم رأيت لحظات اللقاء كلها ، انتظارى أمام الكنيسة العتيقة ، احرص دائما على التبكير عند ذهابى ، تجيء فى موعدها تماما حتى أدهش ، كيف تتوافق مع مواعيد المواصلات ؟ تقبل من ناحية النهر مبتسمة ، أباعد ما بين ذراعى ، ألثم وجنتيها ، تقبل خارجة من الكنيسة ، تقول إنها جاءت مبكرة بضع دقائق فشغلت الوقت بالفرجة على القاعة الداخلية ، تقبل من ممرات الحديقة ، تعبر الممر المفروش بأوراق الشجر الأصفر المستوطنة بالخريف ، أراها من الرصيف الآخر ، ألوح فتلوح ، اخالف المحظورات ولا أخشى العواقب ، اقفز من الرصيف ، اعبر قضبان القطار السوداء الممتدة ، تصيح امرأة عجوز ، إن ما قمت به خطير جدا ، تقبل على أمام دار السينما ، تعشق هذا الفن ، تجيئنى أمام المتحف الرئيسى ذى الواجهة الحجرية القائمة المزينة بالتماثيل ، تأتى إلى

المقهى ، من وراء الواجهة الزجاجية تعبر الطريق وحقيبتها القماشيه معلقة إلى كتفها الأيسر ، اعبر الطريق المؤدى إلى بيتها ، لم انتبه عند عبورى الطريق أنها تقف على الناحية الأخرى ترقبنى ، أصيح ، لور ، تبتسم ، هذا لقاء الصدفة الوحيد بيننا ، وتخيلت حالى لو أننى لا أعرفها وهى لا تعرفنى فنعبر متجاورين لومضة ، قد لا تلحظنى ، وقد تلفت نظرى بوجهها وقسماتها ، ثم أمضى ، خفت أن يكون ذلك ، أراها تحمل باقة تضم سبع وردات قرنفلية ، يلملم سيقانها النحيلة ورق مفضفض ، ألمحها من النافذة تقف أمام البيت ، اليوم أحد والحارسة لا تفتح الباب لطارق ، وتقطع الكهرباء عن القفل ، اخف حتى أوشك على السقوط فوق الدرج ، أنا بمفردى وقد دعوتها لأول مرة ، لرؤيتها عندى نعمان : فنعيم ظاهرى ابرزه بصياحى أو ضرب الجماد من جدار أو سيارة واقفة أو ما شابه بقبضتى ، أو اخلع جاكتتى فى الصقيع ، ونعيم باطنى استشعره ولا أفهمه ، أدركه فى جملته وليس فى تفصيله ، مبهم ، محير ، غامض ، أرق ، أصفى ، وأجمل ، للحظة ظهورها الأولى رجفة ، وراحة فى روحى ، أحار فيها وكيف تبدو ، احار فى النشأتين ، الأصلية والبديلة ، لكننى أقول ، من رغب منكم يا صحبى فى تخيلها ، فلينظر أطراف الغصون المائلة إلى مياه النهر ، أو إلى السماء الشفقية فى موطنى الصحو ، فكأن اللحظة الشفقية انتشت صورة جسدية ، أو فلينظر إلى قطيرات البلل والندى على النوافذ المزخرفة الحديدية للمساجد العتيقة فى الأصباح الربيعية ، أو ليولى الوجه شطر وميض النجمة الأولى ، طليعة كل الأفلاك الليلية ، وإذا لم يكن فى الامكان النظر فليستعد لحظة حنان نائية ، وإذا تعذر هذا وذاك ، فليحاول بالفهم ادراك مقام الفرج بعد الضيق ، واليسر بعد العسر ، وتوسيع الضيق ، والكف عن السؤال ، وانتهاء الترقب ، حدث يا إخوانى ان انتظرت

ظهيرة يوم اقبالها عليّ ، كان الموعد بجوار النافورة القديمة ، حيث عروس البحر تصب المياه من يديها على حبيبها الأوفى المستسلم الراضى ، بينما جنيات البحر يرقبن ويباركن ، تجاوزنى وقتها المحدد ، وهذا مخالف لطبيعتها وعاداتها ، تطلعت قلقا ولم تكن بين الساعين ، انتظرت ، نصف ساعة ، ساعة ، ساعتين ، وعند اكتمال الثالثة ادرك ساقى خدر ، وملامحى تقطيب ، وغطى فكرى عبوس قمطرير ، لم انصرف ، ولما دنت الخامسة وزاغ البصر رأيتها تجرى ، تجرى ، وترتمى بين ذراعى لاهثة تسعل ، فلم انطق ولم تنطق ، وبقينا متعانقين مقداراً لم أدر مداه ، تلك المرة الأولى التى تأخرت على ، ها هى ذى قادمة ، تسألنى أن نمشى على الأقدام إلى المناطق التى ترتاح إليها فى المدينة ، تصحبنى إلى قلب الحى القديم ، إلى شاطئ النهر ، تشير إلى مقعد رخامى تلجأ إليه إذ تعتصم بوحدتها ، وتودع نظرها ترقرق المياه الهادئة ، تصحبنى إلى الحديقة الملكية ، تنتظم الأشجار حول المكان ، تتوزع المقاعد الخشبية ، الممرات مفروشة بالحجارة الملونة ، نافورات صغيرة متباعدة تنتظم حول نافورة كبيرة تبث مياهها فى الفراغ العذب ، تحدثنى عن رسالتها العلمية التى قاربت على الانتهاء منها ، الحديقة على مقربة من المكتبة المركزية ، تلجأ إلى ضوئها وهدوئها بعد ساعات تقضيها فى القاعة الرئيسية ، بكل بصرها وتجهد عينيها فتريحها هنا ، تقبل عليّ فى نفس ملابسها التى رأيتها فيها أول مرة ، هكذا رغبت ، اطلب منها ان نمضى إلى مطعم تفضله عن غيره ، تتردد خشية أن ترهقنى من امرى عسرا ، ألح ، فنقصد مطعما قديما ، يقدم أطباق الزمن الآفل ، يستقبلنا عند بابه رجل يرتدى زى فارس من قرن وسيط ، ينحنى للداخلين ، نجلس متجاورين والمناضد من براميل الخشب المعتق ، والسقف دائرى ، والأرض من حجر ، وعلى الجدران مناظير بحرية ، وخرائط

بالية ، وقبعات ربابنة ، وبقايا شباك صيد ، أما النبيذ فجيد ، والطعام فشهى ، والزمن موات ، رأيتها مقبلة وكنت أقف تحت الساعة التى توقفت فى أعنف غارة جوية شنت على المدينة خلال الحرب الكونية ، وتركت تشير إلى الواحدة والربع كتذكرة ، هاهى ذى تجيئنى ، ستصحبنى لتقدمنى إلى واحدة من معارفها ، شاب يدرس هنا من بلدتها ، نصعد مبنى من ثلاثة طوابق ، نجتاز ممرا تطل عليه أبواب مغلقة ، فى نهايته باب مطلى بلون قاتم ، تتقدمنى ، يبدو شاب ذو لحية ، نتصافح وفى القلب هواجس شتى نمت عندما سمعت حماسها لرؤياه ، ندخل غرفة ، ليست فسيحة غير انها بسيطة ، حوت كل شىء ، من فراش ، ومنضدة ، وصوان محفور فى الجدار ، وحوض بجوار المدخل عليه صنبوران ، واحد للماء البارد وآخر للماء الساخن ، وباب مستطيل يؤدى إلى دورة مياه ، نقعد فوق الأرض ، يجلس هو إلى جوارها ، يتبادلان المودة ، يمسك بيدها بين يديه ، ولم أفهم كنه العلاقة ، وتساءلت بينى وبينى ، كم ساعة قضت هنا ، وهل .. ، نظرت إلى الفراش ، وضقت ضيقا عظيما ، رأيتها تدخل مقهى ، وهذا الشاب الملتحى يجلس بصحبة آخر ، قدمنى هو إليه قائلا : صاحب لور المصرى ، فكمدت عليه ، ثم بدأ حوارنا حول أهل هذه الديار وطبائعهم وأحوالهم ، وبدت لور راغبة فى قربى من صاحبيها ، استجبت ، وبدأت اتكلم حتى لا أتكلم ، هكذا قدرت من ملامحى وعرفت ، وتلك طبيعة واحدة فى النشأتين ، والحق اننى لم أعرفها عنى من قبل ، بل اطلعت عليها فى هذا الوصل ، ومن أصعب الأمور أن يعرف الإنسان نفسه ، فقد يدرك خبيئة غيره ، ولا يتكشف له ما بين جوانحه ، فسبحان العليم بما تخفى الصدور ، هكذا أنا .. عندما يفرض العالم على ، اشاغله عنى بى ، من ذلك إذا ضمنى مجلس وأنا على غير هوى ، أتكلم فى

أمور عديدة ، واستدعى بألفاظي تفاصيل لا حصر لها ، وأنا في نفس الوقت بعيد ، ادفعهم عني ، واتكتم خيبتي ، وقد أدركت لور ذلك مع قصر مدتنا ، فكنت إذا جنحت إلى هذا ، وتحدثت طويلا ، تقول ، لا تتشاغل عني وكلمني ، هذا ما كان مني في ذلك المجلس ، غير أن صاحبها الآخر سألني ، لماذا كف أبوك عن الشعر ؟.

وحرت للسؤال المفاجئ ، بدأ صمتي ، وإذا به يتبع سؤاله بقوله ، منذ أن فارق مصر لم يكتب شيئا له قيمة ، حاولت لور أن تدفع عني وجومي ، فدعت الجمع إلى سماع أبيات لأبي ، وانشدتها من الذاكرة ، فدهشت لأنها المرة الأولى التي اصغي فيها إلى ما قاله أبي من فيها ، ولأنها لم تنشدني شعره من قبل ، وسررت ، رأيت انصرافنا من المقهى عند منتصف الليل ، وأوراق الشجر الأخضر مغموسة في أضواء النيون السائلة ، ولأن بيت صاحبيها قريب من سكنها تأهبت لفراقها ، قرب مدخل محطة المترو ابطأت الخطى لتقترب مني بمنأى عنهما ، انبسطت لتراجعها هذه الخطى ، فقد خصتني ، ولوحت أن ما بيني وبينها يجب اسراره وعدم افشائه امامهما .

اراك في الخامسة ؟، نعم ، تقول مبتسمة إنها تعرف أبي ، انظر إليها ، نعم .. معرفة شخصية ، ستحكي لي فيما بعد ، ثم تسرع الخطى فلا يتاح الوقت للافصاح والبيان ، ها هي ذي تصغي إلي وأنا مصرٌ على صحبتها إلى بيتي ، احدثها عن أمي ، عن ترحيبها بها ، اسكت لحظات وأقول لها ، ان أبي في سفر ، فتنظر إلي نظرة مبهمة ، ها هي ذي تدخل ، تخلع الجاكت ، سلافي الزخرف ، يبدو قميصها الأحمر النبيذي ، تجيء أمي مندفعة ، مرحبة ، أرى نشاطها ، وانتقالها من الصالون إلى المطبخ ، لا تدري ما تفعل ، تروح وتجيء ، تطيل النظر إليها ثم تميل لتقبيلها ، أقول لأمي إن لور

ستغنى لنا ، ترجوها أن تغنى أبياتا تنشدها فيروز :

وفى كـــل أرض وبـــكـــل مـــحـــلـــة
اخـــو غـــربـــة مـــنـــا يكـــابـــد مطـــمـــعـــا
كـــأنـــا خـــلـــقـــنـــا لـــلـــنـــوى ، وكـــأنـــما
حـــرام على الأيـــام أن نـــتـــجـــمـــعـــا

يتردد صوتها فأتجه إليها بالنظر والحس وأسى باد علىّ لم أدر مصدره فى نشأتى الأولى ، استعيد الأوقات كلها وأضيف إلى ما تردد فى خاطرى عنها ، فلها من الحركات الاستقامة والانثناء ، فى صوتها الامتزاج والمعانى الكوامل ، وفى حضورها الانفراد ، طبعها الرقة ، وأصلها الحنين ، وعنصرها الأعظم الرحمة وعنصرها الأقل الجفوة ، من صفاتها الصدق واللطف والمجاوبة ، ومن أفعالها ، الوقاية والشدو والصون ، تقوم أمى الثانية فجأة ، تسرع إلى الداخل ، تتوقف لور دهشة ، تكف ، اقتفى أثر أمى ، تجلس على حافة فراشها ، تبكى بهدوء ، انحنى عليها ، اقبلها ، اجثو على ركبتى أمامها ، تطالعنى بابتسامة فى غير موضعها ، توصينى بلور ، لكم هى رقيقة ، صافية وجميلة ، توصينى أن أعيشها ، ألا أؤجل ما ارغبه ، ثم غزر دمعها ، ففهمت بوجودى الأول ما فهمت ، وسأذكر منه ما يشفى الغليل ان ناسب ذلك المقام ، فقد آذنت لحظات اللقاء بانصرام ، أعود إلى غرفة الاستقبال ، لا أجد لور ، إنها لحظة غير اللحظة ، لذا أرتمى على الأريكة ساهما ، مستسلما ، أجزع فى وجودى الأول ، ماذا جرى ؟ واين لور ؟ أبدو معتما ، كالشمس إذا غربت تبعها نورها ، وتبقى الأرض مظلمة ، كانت نفسى هنا ، فماذا جرى ؟ ، رأيت شيخى الأكبر ، يحدثنى وكأن الحديث لم ينقطع ولم يتوقف ، يقول لى إنه كان يوما بمنزله ببلدة اسمها مرشانة ، ليلة من الليالى ،

فقام ، وبينما هو واقف فى مصلاة ، وباب الدار موصد وإذا بشخص يدخل ويسلم ، ما يدرى كيف دخل ؟ فجزع منه ، وأوجز فى صلاته ، ولما سلم ، قال له : يامحيى الدين ، من تأنس بالله لم يجزع ، ثم نفض الثوب الذى كان تحته يصلى عليه ، وبسط تحته حصيرا صغيرا كان عنده ، وقال له ، صل على هذا ، ثم أخذه وخرج به من الدار ، ثم من البلد ، ومشى به فى أرض لا يعرفها ، فذكرا الله فى هذه الأماكن كثيرا ، ثم رده إلى بيته ، قال لى شيخى الأكبر : أما آن لك أن تعود إلى دارك أم أنك نسيت ؟، اقول : ما السبب الذى جمع هذه الأمهات المتنافرة حتى ظهر من امتزاجها ماظهر . يقول لى : هذا سر عجيب ومركب صعب يحرم كشفه ، لأنه لايطاق حمله لأن العقل لا يعقله ، فلنسكت عنه ، وربما نشير إليه من بعيد وربما فطن إليه الباحث اللبيب ، أقول وحزنى على لور يفرينى : اطلعتنى على لحظات المقابلة فهل لى بالخاتمة ؟، يقول لى ، لم تعرف البداية إلا بما يليها وإلا لم تكن أصلا ، لكى يكون وصول لابد أن يكون سفر ، اتطلع إليه راجيا ، فيستجيب لى ، أرى وجودى الثانى ، أركب عربة الأجرة ، تولينى ظهرها بعد أن أملتنى رقم تليفونها ولوحت لى ، تلك اللحظة الأخيرة من اللقاء الأول . رأيت لور ترتدى الجاكت السلافى ، وجهها لايزال محتفظا بازدهار اندماجنا ورضاب جسدها يبللنى لم يجف بعد ، صافحتنى ، ثم ابتعدت ، واختفت عند الناصية التى يشغلها مقهى لايقدم إلا مشروب القهوة التركية ، وفى مواجهته علقت لافتة انتخابية ، أراها بجوارى داخل عربة يقودها شخص أولانى ظهره ، لم أعرفه ، أهو أبى ؟ لم أدر ، بجواره امرأة ترتدى قبعة من الخوص محلاة بزهور صناعية ، أهى أمى ؟ ربما ، شغلت بلور التى صمتت تماما فلم تفه حرفا ، بينما رحت اتطلع إليها محزونا ، أسأل ، هل ستبقى صورتها هكذا فى مخيلتى ، أم

أنتا سنلتقى ؟ ومتى ؟ وأين ؟ وكيف ؟ عند أحد القناطر الحجرية الرمادية التى تصل ضفتى النهر منذ ثلاثمائة عام توقفت السيارة ، يعرف قائدها اين سيتوقف ، قالت لور ، سأنزل هنا ، ثم قالت إن هذا المكان أقرب ، وأنها إذا بدأت المشى فستصل فى موعدها تماما ، خاطبت السائق مودعة بلغة أجنبية ، ثم حيت السيدة ، ثم نظرت إلى أنا المبهوت المأخوذ وكنا اتفقنا على ألا نتبادل القبل ، وألا نظهر الضعف ، رأيت شيخى الأكبر يقف خارج العربة ، يخاطبها ..

ـ انظر.

فأنظر أنا ، وكان بمقدورى ان أرى دقات قلبها ، وان اسمع الهواء عند زفيرها ، واتضح لى الأمر فإذا بشهيقها هو شهيق ، التفت مباغتا إلى شيخى الأكبر..

ـ ضع يدك على شعرها ..

ترتفع يدى متمهلة وتلمس شعرها ، أراها بعينى ، وترانى بعينيها فأدرك صورتها فى نظرى وأدرك صورتى فى نظرها ، فعرفت عندئذ ان القدر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم ، ماهى إلاى ، صورتى لو خلقت انثى ، فأيهم أنا ! ، تتطلع واتطلع ، تنأى وأنأى ، يحجب الزحام خطاها وحقيبتها الملونة والجاكت السلاقى وبنطلون القطيفة الأسود المضلع ، ابتعد عنى ، وأتوه عنى ، وأغترب ، فيوشك المقام على الاكتمال ، ثم انشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين.

خاتمة هذا المقام

.. إذن ، فما عشقت إلا صورتى ، وما اتجرت إلا فى ذاتى ، وما توحدت إلا بصفاتى ، وما ائتنست إلا بنفسى ، وقد ظننت أنى التأمت ، فما أخيب ظنك أيها الإنسان ، وما أشقانى ، فمن طرد إلى طرد أنا ، ومن هجر إلى بعد ومن فراق إلى احتراق ، ومع تمام ادراكى فإننى لم أرعو ولم انثن ، بل لحقت بى الشقاوة بعد افتراق لور عنى ، واستولى على الحرمان ، وغزانى شؤم الوحدة ، أليس اغترابى عن نفسى وهذا أشق أنواعه وأقسى صنوفه ، شكوت عكوفى على اشتياقى إلى شيخى ومرشدى والقابض على قلبى ، نفعنى الله به ، ورقق فؤاده على ، يبدو لى قويا ، مهيبا ، يشير إلى فأتردد مهابة ، يكرر الأشارة فأخطو تجاهه ، لا أخفيكم إخوانى أنى مازلت أهابه على الرغم من طول الصحبة ، وانى فى حضرته أصير وجلا بعكس أحوالى مع إمامى وشفيعى يوم تضع كل ذات حمل حملها ، سيدى الحسين ، معه كنت بمنزلة الطفل من أبيه ، أما حالى مع سيدى محيى الدين فكالتلميذ الذى يرهب أستاذه ، وطالب العلم الذى يخشى الوقوف بين يدى ممتحنه ، ذلك دربى ، وأنا راض ، وليس لى إلا أن أرضى فأنا مضطر ، والمضطر يرى نفسه كالغريق فى البحر ، أو الضال فى المتاهة يرى نفسه وعنانه بيد سيده وزمامه فى قبضته ، فهو كالميت بين يدى غاسله ، لذلك عندما يأمرنى بالاقتراب اصدع

على خوف وألبى فى وجل ، أحوم حتى أثبت أمامه ، أسدل نظرى وأسلم أمرى ، بينما عيناى تحاولان اختلاس نظرة وجلى إلى يده الممسكة بقلبى ، غير أن ضوءا غريبا شمل يده فغطى قلبى ، فوضت أمرى لصاحب الأمر كله ، يمد يده اليسرى فيقبض على شعرى ، يضع رأسى ـ وهو كلى ـ على كتفه ، أرى جانب وجهه الأيسر ، ولما تكلم جاءنى الصوت من خلفى مع أنى وراء فمه ، فسبحان من ملك ناصية الأمر كله ، يقول لى : مالك ؟ أجيب : يزداد اشتياق ، يسألنى : لمن ؟ يطلب منى أن أحدد بالقطع لا بالاشارة ، أقع فى حيرة مذمومة ، ما سألفظه صعب على ، ذلك أن الخاطر عندى انقسم إلى شعبين ، فشعاب يؤدى إلى أبى ، وهذا اشتياق قديم ، وشعاب يؤدى إلى تلك البنية لور ، وعرفتها أحيانا بالمشاهدة ، وطورا بالاندماج ، مع أنها هى أنا وأنا هى ، مع هذا فاشتياق ينمو وحنينى يطرد ، ارفض مجرد التفكير فى أن لحظة ستجىء فأذكرها ولا تهتز روحى ، وهنا ألقى فى معارفى ان النسيان لايخطر بالبال الإنسانى ، إنما يسرى خفية ، وانه يكتمل أولا ، وإذا تم ، خف حمله ، فإذا وقع وتحقق فكأنه لم يقع ولم يكن ، وهذا أمر فيه لغز لعلى آتى منه بقبس يبل الصدور ويشفى الأفئدة ، من هنا أصل وقوعى فى الحيرة ، والحيرة قرينة التردد ، والتردد لايكون إلا إذا تجاور أمران وتناقضا ، كما أنها تعنى انتفاء الراحة لعدم الاستقرار ، وإن الأمر القديم ظهر ما يخالفه وما يشغل عنه ، كان ذلك يعنى ان ما لم أطق تصوره يلوح على مهل ، حاولت استعادة احوالى عند صحبتى لها وتعلقى وانشغالى بها ، تساءلت بينى وبينى ، هل ذكرت أبى معها ؟ أبى الذى رحل عنى والذى نأيت عن موطنى لحسرتى عليه فحق على الاغتراب ، إذ أن الاغتراب لايكون إلا مع مفارقة الموطن ، وقد كان أبى موطنى ، فلما خرج عنى صرت غريبا ، فطلبت المسعى وسعيت وجرى .

عليّ ما جرى ، لم أقف على جواب لسؤالى نفسى ، يكرر على شيخى الأكبر ما قاله ، أجيبه بما اتصور أنه الصدق : سيدى .. هذا أمر وذاك أمر . يقول منبها لى ما فاتنى : آه .. هذا يطغى على هذا . أحار فلا أرد ، بينا الشقة تتسع ، يقول لى : ليس على الأعمى حرج ، ولأنى مازلت أبصر خفت أن يكون قوله هذا نذيرا بانتزاع عينى ، كما انتزع قلبى ، فأفقد نعيم المشاهدة بالنظر بعد غيابه عنى بالقلب ، غير أننى عدت استرجع ما قاله ، واستعيد نطقه الكلمات ، فكل ما يلقى على لايخلو من إشارة أو علامة من بعيد ، فتذكرت بوعيي المتعب المثقل اننى سمعت مثل هذه العبارة فى لحظة لم أقص عليكم من أمرها شيئا ، إذ لم أشرح لكم ولم أفصل بداية تجلياتى هذه ، لغرابة ما جرى لى ، وتكتما على ما حدث ، لتضمنه أمورا لو أفشيتها ستثير لجاجا وفتنة ، فما كل ما يدرى يذاع ، فلكل علم أهله ، ولكننى انبثت أننى متجه إلى هذه اللحظة من جديد ، لذا لا مفر من الشرح . وهذا لايعنى اننى أفضيت بكل ما عندى ، ودونت كل ماينبغى ، فثمة سر عظيم اتكتمه ، لن ألوح إليه ، ولن أنوه عنه إلا بإذن خاص ، أما الآن فإنى محدثكم عما وجب ذكره بداية لأنى منقلب إليه ، إذ حدث يا إخوانى فى الطريق والسفر اننى كنت أقضى اياما معدودات فى المغرب الأقصى بعد رحيل أبى بزمن يسير ، وكنت بمدينة فاس اشارك جمعا من صحبى مناقشة أمور أدبية ، وبعد سهر عدت إلى غرفتى فى الفندق الحديث الكائن خارج المدينة القديمة ، تأهبت للنوم ، وسمعت طرقا ، فلما فتحت الباب رأيت رجلا يرتدى لباسا مغربيا ، يحدق إلى بعينين مألوفتين عندى لكننى لم استطع التحديد والتعيين ، أشار فتبعته صامتا غير قادر على الاستفسار حتى مشى ومشيت خلفه ، الطريق إلى المدينة القديمة ، بوابة أبو الجلود ، تبعت ظله الذى لم يتبدل موضعه كظلى

الذى يطول أو يقصر طبقا لمصدر الضوء ، حتى وصلنا إلى زقاق ضيق ، لايتسع لمرور شخصين متجاورين ، توقف أمام دكان عتيق مغلق لايفتح إلا مرة واحدة فى مولد أكرم الخلق أجمعين ، وكنت مررت به نهار اليوم مع صاحبى محمد بنيس الأديب المغربى وروى لى ان أهالى فاس يعتقدون ان الرسول عليه افضل الصلاة والسلام قد زار المدينة ومكث غير قليل فى موضع هذا الدكان وانه مغلق لايفتح إلا يوم ذكرى المولد ، كانت الرجل منقطعة تماما والطريق موحشة ، أشار الرجل الغريب إلى باب ضيق ، دفعه ، ثم أشار إلىّ أن أدخل بسلام ، عبرنا حديقة مورقة. والزمن شتوى !، فى نهاية الممر لمحت سقفا دائريا منمنما يقوم على أربعة أعمدة نحيلة كالخيزران ، تحته يجلس رجل منحنيا على منضدة صغيرة ، يستند إليها شريط من الجلد لم أر بدايته ولم أر نهايته ، يمسك مطرقة صغيرة ، يدق الجلد فتتولد دوائر منقوشة مذهبة ، كان مستغرقا تماما ، ومضى وقت لم أدر مقداره وأنا أنظر إلى عمله هذا ، فجأة رفع رأسه فصحت مبهوتا : إبراهيم ، ولم أدر ماذا أفعل ، وما أقول وأنا أقف بحضرة صاحبى المقتول بأيدى العدو الذى أصبح صديقا ظهر الجمعة تاسع عشر أكتوبر ، لم اسأل ، كيف جاء ، وما الذى اتى به إلى فاس؟ ولماذا ينقش هذا الجلد؟، لم أنطق هذا كله إنما وقفت منتظرا ما يخاطبنى به حتى أنى شغلت عن الرجل الغريب الذى قادنى ، اصغيت إليه يقول لى باختصار دال وشكوى « نسيتنى يا جمال » ، فلم أكذب ولم أجب ، قال « لم تعد تذكرنى .. حتى أنت !» ، قلت « سجلت سيرتك » ، قال متأسفا ، متحسرا « كان يعنينى ان تستمر فى ذكرى » ، ثم قال لى « اعلم ان الإنسان بعد الموت يظل مقيما ، حتى ينسى ، فيكتمل الموت ويتم ، يصير إلى عدم » ، لم تكف يده عن نقش الجلد ، ثم قال لى « اننى باق لأن بعض جندى يذكرون

نسيم ودى » ، ولاحظت انه لم يأت على ذكر عياله وامرأته ، وخجلت من الاستفسار إذ أنى رأيت غصته ، درت حذرا حوله ، رأيت ظهره مبللا بالدم ، جرحه الطرى يصحبه اينما ولىّ ، لم يكن مرتديا حذاءه ، وتذكرت انهم دفنوه فى نفس ثيابه القتالية ، لكنهم خلعوا نعليه كما تقضى الأصول ، توقفت على بعد يسير منه ، أمسك الرجل الغريب بذراعى ، فمشيت معه كما يسلم الذاهل قياده ، عدنا إلى شوارع فاس الضيقة وأضواء مصابيحها العتيقة تترقرق فى فراغ شتوى ناعس ، أوصلنى الرجل الغريب حتى باب الفندق ، ثم غاب عنى ، لكننى لقيته داخل الغرفة ، تمددت فوق سريرى ، غطانى ، ملس بيده على شعرى ثم فارقنى ، لم ينطق ولم انطق ، وعند الفجر نادانى الهاتف باسمى ثلاثا ، حتى جاء الصبح ، ومضيت إلى الحلقة النقاشية ، كنت أصغى ولا أتكلم ، وكان النقاش محتداً حول نقطة خلافية ، ومال علىّ صاحبى محمود العالم يسألنى عن حالى ولماذا لا أشارك برأيى ، لكننى لم أجبه ، إذ تعلق بصرى بنهاية القاعة ، رأيت الرجل الغريب ، كان يرتدى ثوبا أبيض وغطاء رأس أبيض ، فانتابنى خوف المقدم على أمر يجهله ، وايقنت اننى على شفا أمر عظيم ، انتظرت ان يولى الحاضرون وجوههم شطر الغريب القادم ، وان تبدو على وجوههم الدهشة ، غير ان أحدهم لم يلتفت ولم يتنبه عداى ، وعندما أشار لبّيت بلا حذر أو خشية ، أى اننى وقفت وبقيت قاعدا ، فصار لى هيئتان متماثلتان ، متشابهتان تماما ، صورتان ، فصورة منى بقيت فى مكانى تصغى وتجيب السائل ليس لى من أمرها شيء ، وصورتى التى انجذبت تجاه الرجل الغريب طوعا وجبرا كما ينجذب الحديد إلى المغناطيس ، والنيزك الضال إلى جاذبية الفلك الدوار ، نظرت إلى المجتمعين واستشعرت دبيب الوحدة والوحشة ، فالنفس يحصل لها الأمان من الكثرة ، أما الانفراد ، والغربة فمعها الانقباض ، لم يلحظ أحد من الحضور ما جرى لى ، بل إن أحدهم توجه إلى

صورتى وطلب منى ابداء الرأى ، رأيت نفسى أحرك فمى متكلما غير اننى لم أصغ ولم اسمع فقد تبعت الرجل الغريب ، خرجت من القاعة تاركا صورتى وهيئتى ، وهذه الصورة هى التى عرفها من اتصل بى وتعامل معى بدءا من أمى وامرأتى وعيالى واشقائى واصحابى ورواد مقهاى الذى اعتدت التردد عليه ، ورجال الجوازات ، ورجال تدقيق الهوية ، ورجال المباحث العامة الذين سعوا ويسعون فى أثرى حتى يومنا هذا ، وعدد من الخلق لا حصر لهم ولا عد ، وسبحان من اخفى علمه عن قوم ، واطلع عليه قوما آخرين ، اعرف ان الكثيرين من أصحاب الرؤى وعلامات الطريق ، الكُمّل ، المواصلين ، لم يصلوا إلى ما وصلت إليه ، ولم يختصوا بما خصصت به من الفرصة وصفاء الجلوة ، فمن منهم تحول إلى هامة ؟ إلى غمامة ؟ إلى ندى ؟ إلى ظل شمس ؟ إلى جذع نخلة ؟ إلى ثمر على أطراف غُصين ؟ إلى حصى ؟ إلى نجم مارق ؟ إلى افق مبين ؟ إلى اشارات آتية من بعيد ؟ إلى صوت تائه فى البرية ؟ إلى انثى ؟ إلى أبوه ؟ إلى صاحبه ؟ من م تحول مثلى وتقلب ؟ ربما عرف الواحد منهم شيئا من هذا ، لكننى عرفت هذا كله ، وسأفيض وأفصل عندما يلوح الاذن وتبدو البشارة ، تبعت اذن الرجل الغريب ، خرجت معه كما يخرج الميت من أهله وماله ، وخلا خروجى من أى خاطرة عن العودة ، فالمسافر يشغله مقصوده عما عداه ، وكانت غربتى معه صحبة ، فالغربة لأنى فارقت من أعرف إلى من لا أعرف ، والصحبة من حيث رفقتى له ومشاهدة من لا أعلم كى أعلم ، نزلت الدرج وراءه ، عبرنا ساحة جامعة محمد الخامس حيث اقيمت الندوة النقاشية ، جزنا فى البلدة القديمة ، والزحام على أشده ، وكنا نمر بين اثنين يتأبط كل منهما الآخر بدون ان نباعد أو نفصل بينهما ، وأحيانا كنا نجوز بين عدد من الجالسين حول منضدة فوقها أكواب شاى وأطباق خزفية وأوعية للسكر أو الملح ، فلا يهتز ولا يميل أحدها ، مررنا بسوق يبيع الثياب الفاسية النسائية ، وسمعت أغنية قديمة لليلى

مراد فحصل لى أنس وحنين ، توقفنا أمام مسجد القرويين . وتلك المرة الأولى التى اقترب منه . فبالأمس مررت به ولم أدخله ، لاحظت أن الرجل الغريب يتلفت حوله مغدقا الحنين على كل شبر فكأنه يحصى خزائن أيامه ، فلما أحس أنى لاحظته هش لى وقال ، انه شهد ضربة المعول الأولى فى أساسات هذا المسجد ، وانه من أحب بيوت الله إليه ، وسبعة مساجد أخرى ، فالعمدة البيت الحرام ، والروضة الشريفة بالمدينة المنورة ، ومسجد الإمام الحسين بكربلاء ، ومسجده بالقاهرة المحروسة ، والمسجد القديم بقرطبة ، ومسجد صغير جميل حزين بناه الباشا حسن فى مدينة بيتش الهنغارية ، ومسجد الشيخ أحمد الدردير المنزوى خلف الجامع الأزهر بالقاهرة ، ثم قال لى معاتبا : انتم لاتهتمون بمسجد السيد أحمد الدردير ، رحمه الله ، كان من أقرب صحبى . صمت فجأة كما تكلم فجأة ، ولج صحن المسجد ، تبعته وأنا لا أدرى إلى أين سيؤدى الطريق ، فالمدى شاسع ، ومازلت عند بداية المدرج ، وقفت فى الرحبة المكشوفة حيث الأرض والسماء متقابلان بلا حواجز ، ورأيت أعمدة الرخام فى القاعة الداخلية المغطاة ، تذكرت الصحن المغطى بالمسجد الأزهر فى قاهرتى ، كأنى انظره ، وتذكرت صلاة العيدين وصحبة أبى وانتظارنا الخروج من المسجد لنرى عبد الناصر وموكبه ، ذكرت بقلب رقراق سيدى محيى الدين بن عربى ، ومن التقى بهم هنا فى الزمن العتيق من مشايخ أجلاء ، أصحاب الخيرات ، كاشفو الغوامض ، أدلة المسافرين ، السبتى ، المرينى ، والكتانى رحمة ربى عليهم أجمعين ، تأهبت للطواف بالمسجد ورؤية التفاصيل المعمارية ، لكننى ايقنت أن وقوفى هنا لا عهد لى بوقوف مثله .

تأهبت للطواف بالمكان وتأمل التفاصيل المعمارية ، وكنت كلما نظرت إلى ركن من المسجد أعرف عنه كل مايجب معرفته ، وكأنى طالعت المراجع ودرست ماتبقى ، مع أن جهلى بالمكان ليس موضع شك عندى ، فلا أعرف

عنه إلا القليل ، من هنا علمت ان الرجل الغريب توقف تحت الساعة المائية وهى من نوادر الآثار المتبقية ، توقف كأنه ينتظر أمرا ، ولم يطل انتظاره وانتظاري طويلا ، إذ ارتفع صوت شجى بآذان الظهر ، ولم أدر مصدره ، ومن أى موضع ينبعث أو يأتى ، ولما بدأ مألوفاً لى ، محببا إلى قلبى ، قريبا إلى فؤادى ، أمعنت السمع وأدركت أنه نفس صوت المؤذن الذى طالما شجانى ، وقلب عينى وسدد نظراتى إلى العلو الأسمى .

عندما أجلس فى ميدان سيدى ومولاى الحسين قبل الغروب أرقب المارة وسفر النهار وبشائر الليل ، ثم يعلو صوت المؤذن داعيا لصلاة المغرب ، فتخبو همومى وتشف نفسى ، وأصير إلى حزن حزين ، ولما سمعت الآذان باللهجة القاهرية فى فاس المغربية أنس قلبى ، وقرب نهاية الآذان رأيت دخول رجال كُمل ، قادمين من عصور نائية ، متباعدة ، ولم يحدث أن التقى أحدهم بالآخر إلا فى مجال المطالعة ، أو اقتفاء آثار العباد الصالحين ، رأيت الحلاج والشبلى ، وذا النون وابن الفارض ، رأيت سيدى أحمد البدوى يدخل ملثما ، وسيدى إبراهيم الدسوقى ، وسيدى البسطامى ، والجنيد ، ورأيت سيدى إبراهيم ابن أدهم ، وبشر الحافى ، والمحاسبى ، ومعروف الكرخى ، والترمذى ، والإمام الغزالى ، وابن سينا ، والفارابى ، ثم تتابع دخولهم إلى صحن المسجد حتى كدت أعجز عن تتبعهم ومعرفة كل منهم ، مع أنى كنت اتعرف إلى كل منهم بمجرد النظر إليه ، أما الذين لم أعرفهم بأسمائهم ، إنما فى مجموعهم ، فهم الأئمة ، والأوتاد ، وهم أربعة رجال فى كل زمان يحفظ الله بهم المشرق والمغرب والشمال والجنوب ، رأيت الابدال السبعة ، وكل منهم قائم على اقليم من أقاليم الأرض السبعة ، رأيت النقباء الاثنا عشر ، وهم الحافظون المراقبون لبروج الفلك ، شاهدت نقباء زمنى الذى أقلعت منه ونأيت عنه ، رأيت قطب

عصرى ودهرى ، ثم تدفق الجمع ، رأيت دخول أهل الحقيقة ، وأهل الوداد ، وأهل السلوى والنجوى ، وأهل الصحبة ، وأهل الجهاد ، كلهم من عرفتهم بأسمائهم أو عن قرب ، ممن حملت لهم الإجلال والإكبار بعد رحيلهم ، رأيت الرجال القائمين على عالم الأنفاس ، ورجال الغيب ، ورجال الفتح ، ورجال الامداد ، رأيت الأحباب ، والأخلاء ، والمحدثين والأولياء ، والشهداء ، والسائحين أبدا ، والمسافرين دائما ، انتظموا صفوفا ، تأهبوا للصلاة ، غص المسجد بهم ، ولم يتبق إلا موضع صفين خاليا عند المقدمة ، أما مكانى فظل فى أقصى نقطة من مؤخرة الصفوف ، كنت نائيا ، قصيا ، لا أساوى مثقال حبة من خردل بين هذا الجمع الجليل ، وأين الثرى من الثريا ، وأين الجدب من الغيث ، فسبحان من أكرمنى بوقوفى على مقربة منهم ومشاهدتى لهم ، بدا الفراغ غريبا علىّ ، عبق برائحة قادمة من عصور قديمة ، كأنى دخلت قاعة مفروشة بالسجاد لم تفتح قط منذ آلاف السنين ، ثقلت أنفاسى ، وسرى هدوء فلا تسمع حتى همسا ولا نفسا ، وعلى الرغم من فضولى أطرقت برأسى تأدبا وحشمة عندما علمت أن الصف الأول قد اكتمل ، لم استطع مغالبة خواطر توق البشر فوددت لو تطاولت بنظرى لأرى أبانا آدم عليه السلام ، أو لألمح آثار بقاء يونس فى بطن الحوت ، واسأله عن طوافه ، أو لأرى ماتبقى من آلام الصلب على وجه سيدنا ومخلصنا المسيح عليه السلام ، أو آثار التيه على وجه سيدنا موسى ، أو نوح الذى قارب عمره الألف سنة ، لكننى لم أقدر ولم أجرؤ ، ثم حلت بى السكينة العظمى والأمان الأوفى ، عندما علمت ان إمام المصلين هو سيد الخلق أجمعين ، من قال إن من رآه فى منام فقد رآه حقيقة ، فالشيطان لا يتمثله أبدا «والسماء ذات الرجع ، والأرض ذات الصدع ، إنه لقول فصل» . جمعت سمعى وأحضرت كلى ، ولململمت شتات عمرى ، غير أنه فصل بين حواسى ، فباعد ما بين سمعى وبصرى ، وما بين

حسي ونفسي ، فأدركت ماهو أشمل من وجودي المحدود ، إذ وجدت اليابسة والبحر والحيوان والنبات والجبال الرواسي وكل ما اقامه الإنسان يسجد معنا ويصلي ، « ألم تر أن الله يسبِّح لَهُ مَنْ فى السَّمٰوَاتِ وَمَنْ فى الأرضِ والطَّيْرُ صافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلَمِ صَلاتَهُ وتسبيحه » ، صليت وانتظرت بعد الفراغ منها ، كنت آخر الواقفين ، ولم أدْر كم من الوقت استغرق ذهابهم ، انتهى الزمن الذى أعهده وبدأ زمن جديد لا عهد لى به ، وقفت بعد انصراف الجميع تأدبا ، عندى شجى ، وحنين ، ورغبة فى أن ألثم مواضعهم ، ورغبة قائمة بذاتها فى أن أدنو من الموضع الذى أمّ منه سيد البرية ، أشرف أبناء ولد آدم صلاتنا ، غير أن الشيخ الغريب عنى أشار لى ، فتبعته صاغرا ، مطيعا ، وخرجنا من مسجد القرويين والوقت غير الذى دخلنا فيه ، والسماء رمادية ورائحة مطر لم أدر متى سقط وهطل ، فلم تنفذ قطرة واحدة منه أثناء صلاتنا عبر الصحن المكشوف للمسجد ، خرجنا من مدينة فاس إلى المرتفع الصخرى المطل عليها ورأيت شقاً فى الغمام ينفذ منه قوس قزح ، ويمتد حتى يلامس الأرض ، تقدمنى الشيخ الغريب حتى وصل إلى بداية قوس قزح ، وفوجئت به يشير إلىّ ، توقف هو وامرنى ان أتقدم ، وفى اللحظة الأولى لم أدر إلى أين الاشارة ، غير ان صوتا خفيا ، الهاتف ، صاح بى .. « تقدم » ، فتقدمت ، وعند حد معين ، صافحنى الغريب الذى أخذنى منى ، ولثم جبهتى ، وقال لى :

ـ «كان والداك صالحين ، لذا لن تهمل ولن تترك سدى» .

ثم قال لى :

ـ « حدى هنا ، فلا خطوة لى بعده » .

ثم قال لى :

ـ «كلما قابلت واحدا من بنى الأكرمين أقْرِئْهُ سلامى بقلبك ، سلم لى على الحسين ، وشيخك محيي الدين . وقل له إن اللقاء وشيك » .

تساءلت :

ـ سلام ممن ؟؟.

قال لى :

ـ ستعرف عندما تخبرهم ..

تكرر نداء الهاتف :

ـ أقدم يا جمال ..

رأيت يد الشيخ الغريب تشير إلى بداية قوس قزح التى تكاد تلامس الأرض ، فسلمت سلام المقبل على رحيل طويل ولا يدرى من أمره شيئا ، ثم لامست بقدمى بداية ألوان الطيف ، وبسرعة بدأت ارتقى ، وقبل أن يرتد لدى طرفى كنت أمضى صعدا فى الفراغ ، أصبحت فى فضاء مدينة فاس ، رأيت الجبل المحيط بها والسهل الأخضر ، رأيت المبانى البيضاء والأزقة والشوارع ومبنى جامعة محمد الخامس حيث صورتى فى إحدى قاعاتها تصغى وتدون وتحاور تفعل ما كنت سأفعله ؛ رأيت الفندق حيث حاجاتى وأوراقى واسمى فى سجلاته ، استبد بى فضول انسانى ، غير أننى كنت اخطو بلا توقف ، حتى تضاءلت المدينة وصارت كقبضة يد ، رأيت المدن المجاورة أفران ومكناس ، ثم رباط الجميل وطنجة وشاطئ البحر والمضيق والمحيط ، رأيت جبال أطلس ، وتلمسان ، وقرطبة ، وغرناطة ، ومدريد والعيون ، وداكار وقرطاج وباريس وقاهرتى ، وحددت موضع الإسكندرية ، رأيت أفريقيا كلها ، وأوروبا وآسيا ، تعرفت إلى القارات الخمس على الرغم من انبعاج الخطوط وتقارب الفواصل . غير ان الشبه بالخرائط كان قويا ، رأيت الليل والنهار معا ، الشروق والغروب ، الشتاء والصيف ، ثم احاطنى غمام وضباب ، خرجت منه لأرى الكوكب الأرضى ، حواف العالم الأكرى ،

المد والجزر والمنخفضات الجوية وبدايات الأعاصير ، كنت أوغل فى الفراغ وحيدا ، نائيا النأى كله ، أما قوس قزح فابتعد عنى ، أو ابتعدت عنه ، امتد غروبى ، وما فوق فراغ وما تحتى فراغ ، غير اننى شغلت بحركة الأفلاك ، وتزايد البعد وتضاؤل عالمنا الأرضى ، حتى تصورت انه بإمكانى وضعه فوق سبابتى ، أهذا الحيز الضيق أودعه صورتى البشرية ، وعيالى وأهلى وصحبى ، أيحتوى ثرى أبى واجدادى ؟، أسافرت فيه ؟، طرت وأبحرت ، أحببت وأبغضت ؟، سلوت ومللت ؟، اجتمعت وافترقت ؟، نأيت فيه واقتربت ؟، رأيت الشمس على مقربة فى دورانها والتهابها الأبدى ، أديت لها التحية مومئا ، ومن عجب أنها جاوبتنى ، واشارت إلى أولادها التسعة فامتثلت وسلمت ، فتبسمت لى الزهرة ، وجاوبنى المريخ ، وأشار لى المشترى ، ولوحت لى البقية ، ورنا لى كوكبى الأرضى المحاط بالسحب ، متعدد الألوان ، فهو بين الكواكب الأبهج والأجمل والباعث على المسرة ، حننت إليه فودعنى ، وكان ذلك آخر عهدى ونهاية فترتى ومختتم استقالتى ، إذ انجذبت صعدا عبر السنين الضوئية فاجتزت مجرة درب التبانة إلى مجرة إلى مجرة ، عبرت الثقوب السوداء ، ومواضع تكوّن النجوم وأصبح مستحيلا علىّ أن أحدد أو أشير إلى الجهة التى كنت أشغلها فى الكون ، رأيت النجم إذا هوى ، ما ضل صاحبكم وما غوى ، ان هو إلا وحى يوحى ، احتضنت الأفلاك مسلما ثم مفارقا ، رأيت أصل الفصول الأربعة متجاورة ، تطلع الىّ الشتاء بالنظر الكليل الهادئ ، أما الخريف فقد حننت إليه ورجوت الصيف تخفيف حره عنى ، فاستجاب ، وهذا سر أصرح به ، إذ أننى لا أشعر أبدا بحرارة القيظ مهما احتد ، أما الربيع فكنت لا أدرى كيف أواجهه ، ويبدو ان عمرى الذى يمكننى التحاور معه قد ولى ، فنظرت إليه كما ينظر الكهل إلى

فتية يتراقصون ويمرحون ، وصدق القائل لى يوما ، إنما أنت كهل فى الثامنة والثلاثين ، فسبحان محيي العظام وهى رميم ، رأيت المشرق والمغرب معا ، فضممتهما ، انتفت الجهات الأربع الأصلية بالنسبة لى ، شمالى صار يمينى ، وتحتى فوق ، كنت انظر إلى الكواكب كأنى أراها من أعلى ومن أسفل ، رأيت ظل الشموس على صفحة الكون السحيق فحق لى التفرد إذ أن ذلك لم يقع لغيرى ، توقفت بعد ملايين الملايين من السنين الضوئية ، توقفت حيث يلتقى الفراغ بالفراغ ، توقفت حيث تولد الأفكار والصور ، والمعانى تمرق حولى كشهب ونيازك ، وتخترقنى فلا يمسنى اذى ، فأردد على مهل ، وقد خاب من دساها ، عرفت اننى خلقت المجرات كلها ورائى ، والسدم ، والثقوب الكونية ، ومصادر الإشعاع الخفية ، أمرت بالنظر فنظرت ، وإذا بى أرى الكون كله ، هذا حده وذاك حده ، الكون بأكمله فى متناول بصرى ، وكان باستطاعتى ان أشير فأعين ، وأحدد ، عرفت اننى بعيد ، واننى البعد نفسه ، سألت ذاتى ، هل بَعْدَ البُعد بُعْد ؟، وجاوبت نفسى ، ليس للإنسان إلا ما سعى، سألت : أى حيز أجوز فيه وامضى ؟، فجاءنى الجواب من الهاتف الخفى ، لا تسأل عما لم تحط به علما ، عرفت اننى منذ هذه اللحظة مكشوف ، عار ، كما لم يتعر إنسان أبدا .

قلت : إنى خائف ، جاءنى صوت الهاتف : ليس على الأعمى حرج ، إنه نفس الصوت ، هكذا عدت من جديد إلى نفس موضعى الذى بدأت منه هذا الدخول المبارك لذلك المقام ، رأسى مقطوع فوق كتف شيخى الأكبر محيي الدين ، إلى نفس النقطة التى جئتها قبل بلوغى بحر البداية فى سعيى إلى الديوان ، إذن .. فهذا صوت شيخى الذى سمعته أول مرة ، إذن فهو متول علىّ ، قائم بى ، حافظ لى من قديم حتى وان احتز رأسى ، وملك قلبى

بيده ، قال لى :

ـ تقدم .

قلت :

ـ إلى اين ؟.

قال :

ـ أمامك بقية المقامات ، أنسيت ما خرجت من أجله .

قلت :

ـ كلا ..

أمرنى :

ـ اسع .

ففارقت كتفه موكلا أمرى إلى صاحب الأمر كله وجل من لا تأخذه سنة ولا نوم ..

* * *

مَقـــام الضنـــا..

«لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسَـانَ فِي كَبَد»

.. جئت هذا المقام وحدى ، إلا من رقيق الحزن ، ودقيق الشجو ، دجا علىّ ليلى ، وهبت ريح باردة على نفسى ، واستبهم وقتى ، واستولى علىّ الشغل ، ومرجع هذا كله إلى فراقى عن فراقها ، استولى على شؤم الحنين ، جئت هذا المقام بحنين إلى لو لم يخفف منه ادراكى أنها ماهى إلا أنا ، بل زاد هذا من توّقى ، حننت إلى كل ماتعلق بها ، مع ان الجزئيات كثيرة ، والوقت عزيز ، وعمرى الدنيوى قصير ، جئت بحنين إلى أبى وأمى ، إذ انقطعت عنهما أمدا ليس بالقليل ، وكان شوقى إلى أبى متجاورا لشوقى إلى أمى ، فترايد هاجسى ، واعتم خاطرى ، جئت مثقلا بالقديم ، كل ما فته وفاتنى ، ما أبليته وأبلانى ، حواف أيامى الحلوة حتى الحافل منها بالضيق ، فكل ماض يبدو لمن عاشه حلوا ، عذبا ، حتى ما كان يبدو فى لحظته جهما ، ذلك أنه خرج عن المتناول ، وكل بعيد يبدو ثمينا مرغوبا إذا ما كان فى عالم الممكنات ، فما البال بما لا يمكن تناوله أو ادراكه ؟، سألت نفسى عما سألقاه فى هذا المقام ؟ والسؤال يا أحبائى حال ذلة وافتقار فيما يُسأل فيه ، سواء كان السؤال عن النفس أو عن الغير ، فلابد للسائل أن يقف موقف الذلة والحاجة لما هو مفتقر إليه فيه ، هذا ما أفصح لى عنه شيخى الأكبر ، وأنا مفتقر إلى ما لايمكن حصره ، أنا الضائع ، المفتقد ، لم تطل وحدتى فى ذلك المقام الوعر

صعب المرتقى ، إذ رأيت صبيا صغيرا ، ربما فى السابعة أو الثامنة ، لايمكنني التحديد ، ظهر ظهورا مفاجئا غير متوقع ، ولو ان قلبي معي لخفق خوفا ، فالمألوف إذا بدا فى غير موضعه أو على غير انتظار أرجف وأرعب ، طفل غريب عنى ، لا أذكر انني رأيته فى حياتى الدنيوية ، نظرت إليه ،. قلت .. من ؟، قال ، ألا تعرفني ؟ قلت : كلا .

قال لى :. لقد التقطت لى صورة عصر يوم ، ثم رأيت صورة رأسى المحزوز فى صحف شتى ، وهنا وقع لى كشف خاطف ألقيت خلاله فى معارفى التفاسير الوافية ، ذلك أنى اعتدت خلال سفرى الدنيوى ورحلاتى ان ألتقط الصور لشوارع .المدن الغريبة عنى ، وبعد رجوعى اتأمل ما سجلته ، ما اقتنصته من لحظات عابرة ، أولئك العابرون الغرباء ، هذه الفتاة الملتحفة برداء ملون اثناء عبورها الجسر فوق النهر الأوربى ، هذا العجوز الذى يهبط السلالم العتيقة فى الحى السكنى القائم على سفح الجبل المتغارى ، هذه الأم التى تجلس فوق دكة خشبية ترقب طفليها الصغيرين يلعبان ، هؤلاء الفتية المبتسمون ، هؤلاء الجلوس الساهون ، من هم وأين الآن ؟ أطيل النظر فلا أصل إلى محط ، ولا انتهى إلى مرسى ، أما هذا الطفل فاسمه حامد ، كنت فى زيارة لمدينة بيروت اللبنانية ، عندما توقفت أمام دكاكين متجاورة اقيمت على عجل من الخشب والصفيح ، تحوى بضائع مصنوعة فى بلاد أجنبية ، لفت نظرى طفل غض يحمل الصناديق من عربة واقفة إلى داخل دكان وقف أمامه صاحبه يرقب وينتظر ، كان حامد يسعى إلى رزقه ، استوقفنى هذا فالتقطت صورته ولم يلحظ هو ولم يلحظ صاحب المتجر ولم يلحظ أحد ، ثم مضيت مطرقا ولم أدر فى أى شىء فكرت ، كان حامد يلتقط رزقه من هذا السوق ، ينظف الدكاكين ، يحمل الأثقال ، يجمع النفايا والعلب الفارغة بعيدا ، ثم يعود

مشيا إلى المخيم حيث جده واخته التى تكبره بثلاثة أعوام ..

حامد هذا رأيت صورته مرة أخرى غير انني لم انتبه ولم أتوقف ولم يدر بخاطرى أنه هو الطفل الذى توقفت عنده لحظة عابرة يوما وأنا مغترب عن موطنى أياما معدودات ، رأيت صورته فى صحيفة أوروبية ، ملقى على ظهره ، محزوز العنق ، مبتور الذراعين ، هرعت إلى غرفة أولادى ، قلت لشريكتى فى سفرى الدنيوى ، انظرى .. يمكن ان يفعلوا هذا بعيالنا ! واستولى عليها خوف وضيق ، فنامت فى هذه الليلة بجوار ولدى وابنتى ، وكنت أقوم مفزوعا فأهرع لكى اطمئن على نومهم ، وصورة حامد القتيل فى خيالى ، وأنا لا أدرى انى رأيته ، والتقطت صورته ، جل مدبر الصدف ، تعالى مرتب المناسبات ، فارق حامد هذا الكون الغريب فى تمام العاشرة والدقيقة الثالثة عشرة ، كنت وقت ان احتز عنقه جالسا فى بيتى ، وضيفى صاحب لى اسمه ناصر ، جاءنى من تونس لنقص معا حكاية قوم من قرطبة الأندلسية نسوا عهود الأجداد فضلوا ، وأضاعوا الموروث والوصايا فحقت عليهم اللعنة ، فى لحظة معينة كنت أرفع يدى اليمنى وأخفض اليسرى محدثا ، فى هذه اللحظة اقتحم المسلحون الثلاثة غرفة الصفيح ، أمسك أحدهم بنور شقيقة حامد ولها من دورات الأفلاك إحدى عشرة ، صغيرة بعد ، عراها ، وطرحها الثانى أرضا مباعدا ما بين فخذيها الضامرين ، توالوا عليها ، وجدها وشقيقها بمرأى وعلى مقربة ، اجتز أحدهم حلمتيها الخضراوين ، ثم شج رأسها ببلطة ، فانقطع نسل إنسانى كان من الممكن أن يتكون فى رحم هذه البنية الغضة ، ما أقساك أيها الإنسان وما أفجعك وما أغيبك عن عقلك ورشدك إذ تلغ فى القسوة فلا تتوقف ولا ترتدع إن الإنسان لظلوم كفار ، كنت اتحدث إلى صاحبى الناصر عن المخطوط القديم الذى حوى ما جرى

للأجداد قبل خروجهم من قرطبة ، عندما أمروا الجد العجوز بحمل جثة الفتاة وإلقائها خارج الغرفة ، وكان صاحبي الناصر يحدثني عن اللعنة التي حلت بالقوم ، إذ يسمع ابناؤهم عند عمر محدد نداء خفيا قادما من أعماق الصحراء فيخرج الواحد منهم خروجا لا عودة تعقبه . عندما أولجوا الخنجر في دبر حامد ، وأمروا جده بحمله إلى خارج الغرفة ، كان ذلك ليلة الرابع عشر من سبتمبر عام ألف وتسعمائة واثنان وثمانين من زمني الذي طال عليّ ، وقصر بي ، قال لي حامد : قتلوا جدي ، اضمرت السؤال ولم انطقه ، لماذا رضي الجد بحمل جثمان حفيدته المنتهك ، وحفيده ؟ اظن أنهم سيبقون عليه ؟ أظنّ أن الدقائق التي تسبق قتله ستمتد دهرا ؟ أظنّ أنه ناج ؟ وأي نجاة ، أي بقاء هذا ؟.. اعلموا يا احبائي انني عرفت الموت في زمني الدنيوي ، خاصة في زمن الحرب ، عندما تطايرت الشظايا حولي ، وشقت الرصاصات سبلاً شتى ، خبرت تلك اللحظات التي يمكن للإنسان أن يُقضى فيها ، عرفت كيف يوقن في الذروة أن الموت لاحق بكل من يحيطه عداه ، وأنه قادر على مراوغة الطلقة ، ودفع الشظية ، مع أن الأمر صدفة كذا الجوهر ، فلو حل هذا مكان ذلك ، لذهب ذاك وبقي هذا ، سبحانك يا من قدرت الموت والحياة ، فلا تدري نفس بأي أرض تموت ، سبحانك ، بعد مواجهتي الموت أول مرة ، وكان ذلك عصر أربعاء خريفي صرت أكثر جرأة وأقل خوفا ، اتعرفون لماذا يا إخلائي ؟ لأنني كنت أقول لنفسي دائما كلما استعدت هذه اللحظات ، كاد الموت يلحقني عصر الأربعاء الماضي ، إذن .. عشت زمنًا أطول مما ينبغي لي أن أعيشه وبعد رحيل أبي انجرف حاجز ضخم بيني وبين الموت ، وبعد أمي زال مانع فصرت أكثر قربا .. لكنني لماذا أذكر من حملتني حولا على حول وكأنها رحلت ؟ ماذا جرى لها ؟ إني منقطع عن صورتي

البشرية ، فلا أدرى ولا أعلم ، لكننى قلق ، مضطرب ، ربما لأنها جاءتنى هنا ، هذه التجليات ، لا أدري ، وما من حبيب قريب يطمئن فؤادى ، ويهدئ قلبى النائى عنى ، المتقلب بين يدى شيخى ، تطلع الصبى حامد ، مبتسما ، ضاحكا ، مدركا لكل ما جال بخاطرى ، وعندما لمّح لى دلنى ، فنظرت ، وتطلعت فرأيت ما ابتعدت عنه مسافة ، ونأيت عنه مقدارا ، رأيت ما خرجت من أجله ، وسعيا إليه ، رأيت أبى ، فهفا فؤادى ، ولمت نفسى لأنى شغلت عنه بنفسى ، بلور ، وندمت لأنى لم أضق ضيقا كافيا عندما رأيت شخصا آخر فى منزلة الأب لى ، أقول هذا وثمة فضول عندى فقد فارقت مقام الاغتراب ولم أعرف كل مايجب ان اعرفه عنه ، غيرَ ان ما غلب علىّ شوق إلى لور ، بعد رؤيتى واندماجى لم يعد بوسعى إلا تذكرها واستعادتها فى الخيالات والصور ، هاهو أبى ذا يجلس إلى رجل اسمه عبده ، يبدو أبى عفيا ، شابا ، يتحدث إلى هذا الرجل بائع الدقيق ، بينهما منضدة مستديرة من نحاس ، إنهما فى مقهى العجم ، أبى يرجو الرجل ان يؤجر له تلك الغرفة ، والرجل يسأله عن الزمن الذى سيأتى فيه بامرأته ، فيؤكد أبى أن الأوان لن يطول كثيرا وفى الزيارة القادمة إلى البلدة لن يرجع وحيدا ، لأن السنوات التى انقضت منذ عقد قرانه طالت ، وكلام الخلق كثير والألسن طويلة ، وهو لايريد من الدنيا إلا الستر ، يقول الرجل : ولماذا لا تسافر غدا أو بعد غد ؟، يقول أبى : الزمن زمن حرب ، والاجازات ممنوعة ، يسأل الرجل : أين تقيم ؟؟.

يقول أبى : عند قريب لى فى حارة الانشاء بالسيدة زينب ، ليس من المعقول ان يأتى بامرأته التى ستكون أما لعياله لتقيم مع غريب ، يقول الرجل ، عندما تجيء بها سأعطيك الحجرة ، لكننى لا أقبل سكن أعزب عندى الآن ياأحمد . يطرق أبى حائرا ، وألحظ تقدما خفيا فى العمر يحيرنى ، فهو أمامى عنى ، لكننى أشعر بشيخوخة خفية أو غروب غير باد ، سألنى الصبى حامد

المقتول ظلما ؟ ألا تعرف الرجل ؟. لم أجبه إنما عاودت النظر ، إنه السنى ، عبده السنى ، صاحب دكان الدقيق والخبز القريب من حارة درب الطبلاوى التى اقمنا فيها زمنا مديدا ، الدكان الذى توقف أبى أمامه مرارا فى أيام الجدب ، رأيته مرارا يتردد حائرا ، ينتظر ابتعاد زبائن الصباح الباكر ليقترب من السنى الذى أصبح عظيم اللحية أشيبها ، يطلب أبى خبزا بخمسة قروش تضاف إلى دينه ، ثم يطلب خمسة نقدا ، ليشترى اللبن والفول ، سمعت السنى يقول لأبى ذات صباح شتوى قاس : لكن حسابك ثقل يا أحمد ، فيحار الوالد فى الرد ، فيتدارك السنى قوله ، خذ يابنى ، وسع الله عليك وقواك على تربية أولادك ، تغيب عنى أصواتهما فلا أرى إلا شفاهها تتحرك ، تختلف هنا رؤيتى عما شهدته فى الأسفار عندما كنت انعم بصحبة مولاى وضياء عينى الحسين عليه أزكى السلام وأطيبه ، آه يا ابن الأكرمين لو بقيت معك !. فى الرؤى الأولى كنت أبعث فى الزمان عينه فكأنى منه وكأنه منى ، أما هنا فالأمر مختلف ، كنت أرى واسمع كمن يرى ويسمع شريطا سينمائيا ، كنت منفصلا وليس متصلا ، ينظر إلى الصبى حامد ، يقول لى ان ذلك لتبدل الحال ، فتساءلت ، أى حال ؟، يضحك ضحكة الواعى الذى يدرك ما أنا مدركه ، يقول : لبعد الشقة واتساع المسافة ، يأمرنى أن انتبه ، وإذا بى فى مواجهة اللحظة وما حوت ، وان شئتم الدقة كنت فى مواجهة ماحوت ، لم تقع عينى على اللحظة فى شكلها أو جوهرها ، هذا بعيد عنى ادراكه ، وتلك مرتبة لا يصل إليها من هو مثلى ، أعرف الآن ان ما نسميه لحظة أو دقيقة أو ساعة أو نهارا أو ليلا أو شهراً قرياً أو ميلاديا أو حولا أو دهراً أو عصراً ليس إلا اعراضا لما هو أعم وأشمل ، شىء وليس بشىء لأنه لايدرك ولا يُرى ولا جهات له ، هو محيط بنا ، متغلغل فينا ، يؤثر ولا يتأثر ، يختفى ويظهر ، يغير ولايتغير ، كل مانراه دلالات عليه ،

واشارات إليه ، وأكف حتى لا أخوض فيما نُهيت عنه ، واحوش نفسي عن الكلام خشية وتحسبا ، فعذرا ! رأيت محتوى اللحظة التي كنت اتساءل عن كنهها دائما ، التي لم يحددها أبي ، ولم يمسك بها ، ولم يقف عليها ، دلني عليها هذا الصبي المقتول غدرا ، الذي خرج من الدنيا في غير موعده ، الذي لم ولن يراه أبي ، رأيت اللحظة التي اياها أعني ، التي وهن فيها عزم أبي ، وهي قصده عن متابعة دراسته ، وتحصيله الدرس ، وفهم سر الحرف ، وادراك الفرق بين الفروق ، من قبل رأيت بداياتها ، والآن اتأكد من اكتمالها ، رأيت ضوء الشمس الأصيلية ، وأوضاع الأفلاك ، في هذه اللحظة انكسر عزم أبي ، ثم رأيت اللحظات المتباعدة التي لم يربط بينها ولم يرصدها في حينه ، عند خروجه من البلدة « في مصر سأحصل على عمل ، وأتعلم في الأزهر » .

عند جلوسه فوق مقعد خشبي قريب من كشك الموسيقى بحديقة الأزبكية التي اندثرت ولم يتبق منها إلا شظايا ، هاهو يجلس وحيدا ، يرتاح إلى الماء الممتد واللون الأخضر .

« ليتني أحصل على عمل » .

هاهو يعبر مزلقان قطار حلوان القريب من ضريح السيدة الطاهرة زينب عليها السلام رئيسة الديوان ، يمشي متمهلا .

« ليتني أجد عملا اضافيا ، فالمرتب لايفي بحاجتي وحاجة البيت » ، هاهو ذا على مقربة من مثوى الحبيب الطاهر .

« ليتني أضمن الغذاء للأولاد غدا » ..

أرى نفسي طفلا ابن عامين ، تطلعت إليّ بفضولي ذاته الذي لاتخف حدته كلما واجهت صورتي ، هاهو ذا أبي يغلق نظره الحنون علي ، « لو بارك ربي فيه فسأعلمه ، ولن يعرف مرارة الحاجة أبدا » ، وقد صدق أبي في عزمه ، وأوفى

بما قطعه ، وما وهن عنده من حق نفسه لم يهن قط بالنسبة لى ، ليس أنا فقط وإنما سائر اخوتى ، كد وشقى وتحمل ماتحمل وناء بالهموم الثقال ولم يفرط ، ولم يلن .

قال له قريب لنا اغتنى بعد فقر « لماذا لا تأتى بابنك عندنا يتعلم التجارة ، يقف ويبيع ، ويعرف السوق » ، هب أبى وثار فى وجهه كأن الرجل مس عرضه ، انصرف أبى مقسما ألا يطأ متجر هذا القريب مادام حيا ، وقد كان ، قال له أحد الموظفين يوما بعد أن أقرضه نصف جنيه ، « عندى دكان ترزى ، أرسل ابنك إلى لأعلمه صنعة » ، اعاد له أبى الخمسين قرشا انصرف عنه غاضبا ، هاهو ذا خلف الحسينى ، السبب فى جريان رزق أبى ، من شعر تجاهه بالدين ، حتى فى أيام غضبهما بعد تقدم العمر بهما ، اراه شابا ، يمد بعضا من قصان أولاده ، « خذ يا أحمد الجمال » ، كظم أبى ضيقا ، وان بدا على وجهه ظل من ذلك ، لخلف الحسينى عنده منزلة ومكانة ، يرد القمصان بهدوء ، يقول إن الأولاد ليسوا فى حاجة ، وان الستر موجود . ينصرف حانقا متضايقا « لن يلبس أولادى فضلات الآخرين ابدا ، هذا شؤم علىّ وعليهم » .

رأيت سعى أبى ، أبى عاش يتيما ، وحيدا ، بلا ذى رحم يحن عليه ، كل من عطف عليه غريب عنه ، رحمهم الله رحمة واسعة ان كانوا أمواتا ، وزاد فى رزقهم ان كانوا احياء ، أبى الوحيد ، المعذب ، الذى لم يهدأ ولم يرتح إلا فى هذه الليلة من أكتوبر ، أبى يا حامد ، أيها الصبى اليتيم المقتول غيلة ، أبى لم يفصل حلة واحدة جديدة طيلة حياته ، فقط جلباب بلدى من الصوف أذكر لونه بين ما استعيده من ألوان طفولتى ، وجلباب آخر جئته أنا بقماشه بعد رحلة لى إلى بغداد ، أما قماش الجلابيب القطنية ، كسوة الصيف وكسوة الشتاء ، فأمى هى التى تتذكر وتشترى له بين ما تشترى لنا وإلا فإنه ينسى ، قبل أبى ياحامد أن

يرتدى مايفيض عن حاجة الأقربين ، وبذل الغالى والرخيص ليدفع عنا السخافات واستهانات الآخرين .

أرى خروجنا بصحبته عصر يوم ، نمشى ثلاثتنا ، أنا وأبى وإسماعيل اخى ، يرتدى كل منا بدلة جديدة ، أول مرة نرتدى حلتين كاملتين ، جاكت أزرق أما البنطلون فرمادى ، اشتراهما أبى من متجر يبيع الملابس الجاهزة من قمصان وملابس داخلية وحلل ، وأخذ على نفسه عهدا موقعا بتسديد ثمنهما على اثنى عشر شهرا ، وهذا المتجر يقع فى أول شارع السكة الجديدة من ناحية ميدان الحسين ، وكان أبى يصلى فى مسجد مولانا بصحبة بائع يعمل فيه ، والبائع جار لنا فى حارة الطبلاوى ، وكان شقيقه مدرساً لى ، علمنى اللغة العربية ومبادئها فى مرحلة تعليمى الابتدائى ، غير أننى أذكر دائما هذا البائع الذى كانت تتوسط جبهته علامة السجود ، ويبدو على وجهه الصلاح والتقوى ، يخرج مبكرا ، ويعود إلى بيته متأخرا ، ولا تراه يسعى إلا مطرقا ، خشية ان تقع عيناه على جارة ، كان فى حاله ، لايتحرش بإنسان ، ولم يشترك فى مشاجرة ، لا انساه ، ليس لارتباط المتجر بارتدائنا الثياب الجديدة ، وترحيبه بأبى ، وفتحه صناديق الورق المقوى ، وفرده القمصان ، والملابس الداخلية والمناديل ، والجوارب ، بينما تنبعث رائحة القطن المنسوج الذى لم يستعمل بعد ، والورق ، وخيوط الدوبارة ، أذكره لأنه كان أبا لبنية جميلة ، رقيقة ، مشرقة الوجه ، اسمها سعاد ، وقد احببتها حبا غريبا عجيبا ، سنوات متتالية ، فدائما أفكر فيها ، وأحاول وضع نفسى فى طريقها ، وإذ أصغى إلى صوتها تنادى صاحبتها فى الصباح الباكر يخفق قلبى ، وقد كان وقتئذ صحيحا ، سليما ، لم تدركه العلة ، ولم يُنتزع منى بعد ، عشقتها ولم أكلمها كلمة ، احببتها ولم أحاورها ، ولو تصادف ورأيتها فى الطريق أظهر اللامبالاة واكتم ماعندى .

استمر ذلك حينا ، ثم باعدنى الزمن عنها ، وذات يوم كنت أتأهب للعودة إلى موطنى بعد رحلة إلى بلاد الانجليز ، طال بى انتظارى إقلاع الطائرة ، رأيت سعاد فى مواجهتى تقترب من مقعد عريض ، تستند إلى عكازين معدنيين ، ترتدى معطفا رماديا وبصحبتها رجل ، لم أدر من ؟ أحد الأقارب ؟ زوجها ؟ لم أجد الاجابة ، ولم اسأل ، وقطعت الرحلة كمدا ، اختلس النظر إلى جزء من عمرى وأنا منفصل عنه لا أدرى ما حل به ، ولا أبذل المحاولة لأعرف مع أنه فى المتناول ، أرى سعينا بجوار أبى عند مسجد الحسين عليه السلام ، نرتدى الحلتين ، لا أدرى مقصدنا ، ولا وجهتنا ، وإن بدا أبى سعيدا ، مرتاحا لصحبة ولديه فى أجمل صورة ، انظر إلى صاحبى فى هذا المقام ، الصبى حامد ، تلك لحظة من اللحظات الأولى . ما يمر بنا يبدو عاديا فى حينه ، لا شىء يلفت النظر فيه ، ولا موجب للتوقف عنده ، حتى إذا ولّى وانطوى ونأينا فى الطريق وشط بنا السفر ، يلوح لنا ما كان خفيا ، وتتضح المعانى المكنونة ، فتقول : «يا حسرة على ما فات» ، أو «ليتنى أدركت ما فقد منى» .

فيا إخوانى فى الطريق ، يا أحبائى أوصيكم قبل أن يحين زمن الوصايا ، أن تنتبهوا إلى ما يمر بكم ، أن تعوا وألا تؤجلوا أو تفرطوا ، فرب لحظة قد تمرق عابرة تكون هى المحرك للشجن الدائم فيما تبقى لكم من عمر ، وربما تكون استعادتها مصحوبة بالحزن الثقيل الذى لا راد له إذا بددنا ما احتوته من فرص ، أوصيكم فلا تكونوا من الغافلين ، يربت الصبى حامد رأسى ، فكأنى الصغير وهو الكبير ، كأنى الجاهل وهو العالم ، يولى نظرى شطر يوم بعيد ، أرى خالى قبل أن يصبح خالى ، يبدو مهموما ، فيما بعد لم أره إلا مقطبا ، عابسا ، نادر الضحكة عسر الابتسامة ، يقول لجدتى الجالسة أمام

الفرن ، «وأعرف نهاية هذه الزيجة ؟» تدفع جدتى أقراص العجين المتخمر فى الشمس إلى جوف اللهب ، تعاتبه «أضقت بأختك يا محمد ؟» ، يبسط يديه علامة الحيرة ، «كلام الناس كثير يا أمى وألسنتهم طويلة» ، ثم يقول «وعندما يجىء من مصر يدخل ويخرج علينا» ، تقاطعه جدتى ، «أحمد ليس غريبا علينا الآن ، إنه زوج البنت على سنة الله ورسوله» ، يحتد خالى ، «لكنه لم يدخل بها بعد ، ولا أعرف رأس هذا الموضوع من رجليه» ، فى هذه اللحظة تدخل أمى ، تحمل حزمة من البوص الجاف ، ترتدى جلبابا أبيض منقوشا بدوائر زرقاء ، وتعصب رأسها بمنديل أبيض تغطيه بطرحة سوداء ، ثبت نظرى عند ظهورها ، وجاشت بى عواطف شتى ، يسكت خالى ، لكن أمى تلحظ ، وتفهم ، فتحزن ، وتدخل الغرفة التى سأولد فيها ، تسند ذقنها إلى ركبتيها ، وتخطط التراب بعود من القش ، هذا عمر لم أر فيه أمى ، وتلك حقبة من الحقب الغوامض ، ها هى ذى ساهمة ، تفكر فى حظها ، وما ينتظرها ، وكلام الناس ، ما يضايقها ويؤلمها كلام الأخريات ، يقابلنها عند خروجها بنظرات صامتة تضج بالرثاء المصطنع ، والشماتة الخفية ، البنت صفية تسألها بصوت منغم «متى ستسافرين إلى مصر يا بخيتة ؟» ، فتقول باختصار قاطع لاسترسال الحديث ، «لما يأذن الكريم» ، استوقفتها البنت خديجة ، فى صباح منقض ، سألتها «أحمد لم يرسل خطابات ؟» ، تنظر إليها أمى صامتة ، تمصمص خديجة شفتيها ، «يعنى كان لازم تتزوجى واحد فى مصر، والنبى كان أولى بك واحد من أقاربك هنا»، تصادف مرور الدودة امرأة الغفير والتى استقبلت خروجى من رحم أمى ، سمعت غمز ولمز البنات وكانت الدودة تحب أمى حبا جما ، وتخشى أن تغضبها ، أو تسكت عن إغضابها ، ألم يخترها الكريم الغائب ــ والد أمى ــ

من بين أهل البلدة أجمعين ليبلغها رسالته إلى امرأته ، ويوصيها بابنته ، زعقت الدودة فى البنات «يا قليلات التربية ، قطع الله ألسنتكن ، والله بخيتة ستصبح أحسن منكن ، وظفرها برقابكن كلكن» ، ترجع أمى إلى البيت ، تنزوى فى الغرفة ؟ أو فوق سطح البيت ، بعيدا عن الأنظار ، لماذا لا يريد أن يصحبها إلى مصر؟، إنها أول بنت من بيت باشا يعقد قرانها ويمضى عامان وزوجها لم يدخل بها بعد ، عندما يجىء من مصر يأتى بقماش جلباب ومنديل وطرحة وعلبة حلوى طحينية وقرصين من السكر ، وعندما يأتى أحد الأقارب يرسل معه ثوبا ، أو قماش طرحة ، فى البداية كانت تتباهى بما يرسله ، وعندما تزورها احدى القريبات ، أو تدخل البيت احدى الجارات ترقب أمها راضية وهى تعرض ما بعث به أحمد ، ولما امتد بها الزمن ، وتأخر الموعد ، وتأجلت البداية ، لم تعد الهدايا تثير مباهاتها ، بل أصبحت باعثة على قلقها ، بدأت غربتها بين أهل ، لم يعد مذاق اللقمة نفس المذاق ، ولا الرقاد نفس الرقاد ، إنها فى عصمة رجل الآن ، لكن الرجل بعيد ، وهى هنا ضيفة تنتظر الرحيل ، والرحيل طال ترقبه ، والحق أن أمها لم تبد إلا حنانا وعناية ، بل إنها تتعمد أمام الزائرات الفضوليات ، أن تتكلم عن بيت يعده أحمد فى مصر ليتزوج فيه ، بيت كبير فيه نوافذ فسيحة وستائر ، ومقاعد مكسوة بالقطيفة ؛ وحجرة نوم فيها سرير ودولاب ، والسرير عليه ناموسية ، والبيت فيه دورة مياه ومطبخ ، تصغى أمى فيخشى قلبها ويهفو فؤادها ، خاصة أنها سمعت الجدة نجمة تقول إن بعضهم رأى أحمد فى مصر ، وأن أحواله ضنك ، وأن أموره عسرة ، فتردد أمى لنفسها ، عسرة أو صعبة ، ما يهمنى أن يتنحى من البلدة ليسكت ألسنة النسوة ، حنو أمها عليها يخفف من ضيقها ، وفى الوقت نفسه يؤلمها ، ترثى حظها المائل ، وتتساءل عما فعلته ، هى التى لم تغضب ربها

أبدا ، ماذا فعلت حتى تصبح جرسة ؟.

رأيت أيام أمي فى جملتها ، كأنى أرى يوما حوى جميع أيام غربتها ، وانتظارها المليء بالهواجس والظنون ، أشار الصبي حامد إلى موضع من الأرض يجلس فوقه أبي وخالى ، يبدو خالى جها فوق تجهمه ، يخط فى التراب بأصبعه خطوطا متقاطعة ، لحظة فاصلة سيتقرر فيها أمر ، يقول خالى «شوف ياابن الناس ، بناتنا مش لعبة» ، أشفق على أبي وألوم خالى ، قسوة فى غير محلها ، وجفاء أخطأ موضعه ، غير أننى بمنأى ، وليس عندى حيلة فى تبديل ما تم بالفعل ، هذه حقيقة ، وبرغم ذلك داخلنى خاطر بشرى إذ خفت ألا يتم الأمر وأن يفسخ العقد فلا أجىء ولا ينجبنى والدى مع أننى كائن بالفعل ، مع أنى اتم وأسعى ، يصغى أبي ثم يقول ، «فى المرة القادمة سأصحبها معى»، يقول خالى «لاتزعل من الحق»، يقول أبي «الحق مايزعل أبدا» ، يتغير الضوء النهارى ، أرى سبع غوايش ذهبية نحيلة وخاتما يعلوه فص من فيروز ، وقلادة من ذهب كبيرة الحجم ، تتدلى منها جنيهات ذهبية مستديرة ، ورءوسا لأبي الهول ، ومثلثات منمنمة ، وحلقا على هيئة هلال تتخلله أغصان متفرقة متلاقية ، تلك حلى محفوظة فى صندوق خشبي عطر الرائحة ، مبطن بقطيفة حمراء ياقوتية اللون ، والصندوق فوق رف داخلى فى صوان ابنوسى عتيق ، قوائمه على هيئة أقدام أسد مفترس ، والصوان فى منزل من طابق واحد تحيطه حديقة مسورة ، والمنزل فى ضاحية من ضواحى مدينة الخرطوم عاصمة بلاد السودان ، هذه الحلى تخص امرأة من أهالى هذه البلاد ، اعتادت زيارة مصر فى شهور الصيف بصحبة زوجها تاجر سن الفيل وريش النعام ، وفى احدى زياراتها والزمن منتصف الخمسينيات ، رغبت فى زيارة ضريح مولاى الحسين القاهرى ، وبعد الطواف وقراءة الفاتحة عرجا

على سوق الصاغة القريب ، ودخلا متجر السرجانى الذى يعرفه رجلها ويتعامل معه منذ ثلاثين سنة بالتمام ، تفرجت وقلبت وأعجبها مجموعة حلى مصنوعة طبقا للنظام القديم الذى بطل ولم يعد مثله ، اشتراها زوجها ، تقلدتها وزهت بها حولا واختالت بها ، كانت امرأة بدينة ترتدى الثوب الأبيض ، تتطيب وتدلك جلدها بالزيوت العطرية الطبيعية ، ولما أزف زمانها ، وتم وقتها فى هذه الحياة الدنيا أبى ولدها الوحيد ، تاجر السيوف الفضية أن يبيع شيئا من بقاياها ، فحفظ ثيابها وحليها ، وأغلق على هذه القطع الذهبية صندوقا وأقسم ألا يفتحه مخلوق ما بقى حيا ، هذه الحلى كانت لأمى يا إخوانى ، ومن قبل خصت جدتى ، وقد وهبتها لابنتها عندما تأهبت للرحيل إلى مصر بصحبة زوجها ، أمى جاءت بها إلى مصر ، تتقلدها فى أيام الأعياد ، وعندما تمضى بصحبة أبى لتزور أحد الأقارب ، أو أحد الأولياء الصالحين الراقدين فى اضرحتهم ، احتفظت بها دائما فى علبة فارغة من الصفيح فى الأصل كانت لتعبئة الحلوى الطحينية ، واستمر ذلك سبعة عشر عاما ، وفى عصر يوم جمعة رأت أمى وجه أبى مهموما ضنكا ، كان عائدا من الصلاة ولقاء الأقارب والأصحاب فى فندق الكلوب العصرى ، قعد مسندا ظهره إلى الجدار ، بدا متقدما فى العمر ، مرهقا ، عرفت من موقعى فى هذا المقام أن أحلامه القديمة موءودة تماما فى هذه اللحظة ، وأن شاغله الأكبر اطعامنا ، وضمان استمرار تعليمنا حتى لا يجرى علينا ما جرى له ، لما نظرت إليه أمى حنت عليه واشفقت ، وكرهت أن تراه هكذا ، قامت متجهة إلى قفة تحت السرير تضع فيها الملابس وأغطية الفراش ، سحبت علبة الحلوى القديمة فتحتها وتناولت غويشتين ، قالت ، «خذهما يا أحمد» قالت «فك بهما ضيقتك وضيقتنا» ، قالت «فرج عنا وعنك ، لكن لا تقعد هذه

القعدة» ، قال أبي «لن أمد يدى إلى حاجتك يا بنت الناس» قال أبي «هذه أمانة» ، غير أن حزم أمى لم يكن له راد ، فلكم تصمت وتخفى وتبطن وتداري ، لكنها فى لحظة بعينها تجد وتصر ، فلا ينفع معها مراجعة ، تناول أبي الحلى ومضى إلى الصاغة ، رهن ما أخذه ولم يبعه ، فى هذه الليلة خرطت أمى البصل وسيحت الزبد ، وانتظرنا نضج اللحم واكتمال دسامة المرق ؛ وقد سافر أبي بعد شهور إلى البلدة وعاد بإيجار الفدان ونصف وسلة مليئة بالبلح ، وأرغفة الخبز وأوزة مذبوحة ، وعلبة سمن أرسلتها معه جدتى ، ذهب إلى الصاغة واسترد الغويشتين المرهونتين ، جاء البيت فرحا ، «وأمانتك يا بخيتة» ، ولم أسمع أبي ينادى أمى باسمها إلا ساعات الرضا ، غير أن ضيق الحال عاد ، وكان ذلك مصاحبا لتقدمنا فى العمر ، والمدارس ، والدنيا ، لم يرهن أبي الحلى ، لكنه باعها ، وانفق منها علينا .

وقد اطلعت فى هذا المقام على جهات متفرقة وجزئيات منى ، لم أدر كنهها أو طبيعتها ، ولم أقدر على تحديد مواضعها الأولى فى كينونتى ، لكننى علمت أنها نمت وتمت بهذه الجنيهات حصيلة بيع الذهب ، بيعت الأساور ، والخاتم ذو الفص الفيروزى ، وعندما بيعت القلادة الذهبية اختلف الوقع ، رأيت أبي كارها ، ورأيت أمى حزينة واجمة ، فهذا ميراث طويل ، وأعمار متعاقبة ، وفأل سيئ ، لكن أهناك شيء أغلى وأعز من الضنا ؟ ، وعندما رأى البائع فى متجر السرجانى أدرك بحاسته وموروثه أن أبي جاء بآخر ما عنده ، وأنه ليس بعد القلادة بعد ، عرض الغوايش والخاتم والكردان ، وبيع جذر ممتد من ماضى أمى ، وقد أخفت ذلك عن شقيقها زمنا طويلا ، وكلما جاء إلى مصر فى زيارة ، واستفسر منها ، أكدت له أن كل حاجاتها فى حرز أمين ، ثم تطوى الحديث طيا ، أيوجد أغلى من الضنا ؟ ، والضنا نحن ،

فمنذ مجيئي إلى الدنيا ومن قبلي ومن بعدي إخوتي ونحن ضنا أبي وتعب أمي ، وما أنا إلا واحد من سبعة اثقلوا عبء أبي وإن رضي بنا وسعى من أجلنا ، خلف وكمال ، سبقاني وسبقاني ، فقد جاءا قبلي إلى الدنيا ، ورحلا عنها بينما أسعى أول خطوى فيها ، أما محمد فجاء بعد أخي اسماعيل وقبل أختي .

والغريب المحير أنك لو سألتني عنه يا خلي الوفي ، فلا اذكر عنه إلا المشية ، وطريقة الخطو ، ولون الجلباب الذي ارتداه آخر مرة ، المشية عندما كنا نعبر البوابة القديمة المؤدية إلى ميدان بيت القاضي ، صباح باكر ، وشوارع خفت حركتها، وقبة قلاوون الرمادية، نهاية مدى الرؤية، وأتوبيس ينتظر اكتمال الركاب ليمضي إلى ميدان باب الحديد . وحوض المياه المخصص لشرب الدواب من خيول وبغال وحمير أمام قسم البوليس لا يقف عنده إلا حصان واحد مربوط إلى عربة مرتفعة تنقل الرمال ، أبي يتقدمنا حاملا مقطف الخوص المحتوي على هديتنا إلى جدتي وخالنا ، أقمشة جلابيب ، وقطع صابون ، وسكر ، وشاي ، وزجاجة من ماء الورد بركة من سيدنا ومولانا الحسين ، أمي تمسك يد محمد أصغرنا وأضعفنا ، أما أنا واسماعيل فنخطو بجوارها متماسكي الأيدي ، جلباب أخي محمد قطني ، بني فاتح ، خطوط بنية غامقة ، ينتعل صندلا أسود ، يمشي مطرقا ، وهذه الاطراقة تضفي عليه ذاكرتي عمرا أكبر من عمره بكثير ، راح يجذب يد أمي ، ويتوقف رافضا المشي ولم يكن يبكي ، كان رفضه صامتا ، لا يقبل على السفر ، حتى إن أبي التفت طالبا منا أن نسرع وإلا فاتنا القطار ، قطار الثامنة صباحا ، بعد ركوبنا القطار وتبدل المشاهد ومرورنا بالبلاد ومرورها بنا وتوالي باعة الطعام من سميط وبيض وجبن ومياه غازية ومنشدو السيرة النبوية ومادحو الأولياء وأهل الجهاد الكرام والشحاذون لم يبتسم أخي مرة واحدة ، إنما بقي صامتا ، ساهما ،

لا يستجيب لمداعبة ، ولا يبدى مجاوبة ، وعلى هذا الحال مضت أيامه فى البلدة ، فهو ملتصق منكمش دائما إلى أمه أو جدته ، لم يخرج من الدار إلا بصحبتها أو برفقة أبى ، وبعد الخطو يبدو كارها ، راغبا فى العودة حتى أن جدتى احتضنته ذات ليلة وملست على ظهره وقرأت الفاتحة أربعين مرة لتطرد عنه الشياطين ، فى اليوم التالى لعودتنا من البلدة سخن أخى ، وارتخت اعضاؤه ، واتسعت عيناه ، حملته أمى ، وصحبها أبى إلى طبيب قريب ، فكشف وكتب الدواء ، غير أن قلب أمى لم يهدأ ، عرجا عند العودة على الشيخ عطية ، وبعد أن بسمل واستعاذ بالله من الشيطان الرجيم وتلا التعاويذ والأسرار ، قال إنه اطلع على مالا يمكن قوله ، وأن هذا مرض لا ينفع معه حجاب ، لكن اقرأوا آية الكرسى بعد شروق الشمس سبع مرات ، فإذا طلعت عليه شمس يوم الجمعة القادم فسينجو ويشفى ويعمر حتى يتجاوز المائة ، ليلة الجمعة نام أخى اسماعيل ، ونمت أنا ، وغفا أبى بعد منتصف الليل ، ولم تذق أمى طعم الوسن ، وما أكثر الليالى التى قضتها ساهرة ، وقبل آذان الفجر ، الموعد نفسه الذى توفى عنده أبى ، قبل الآذان خرج أخى محمد من الدنيا . قال الشيخ الذى صلى عليه ، احمدوا الله أن الولد قُبض طفلا ، الأطفال لهم الجنة ، وهى بيضاء من كل سوء ، غير أن أمى قالت باكية ، منتحبة إن الولد شعر ، وأن قلبه الصغير أحس ، كان يشد يدها ويأبى الخطو ، ليتها لم تسافر ، ليتها لم تسافر ، قال أبى : وحِّدى الله يا أم جمال ، هذه إرادة الله . رددت ملتاعة ، ليتنا لم نقبل على البلدة ، قلبه كان يشعر ، اسألونى أنا من كنت أمسك يده .

وهنا سمعت صوتا يحدثنى ، ألتفت ، حامد الصبى ، المذبوح مثلى ولكن بأيدى القساة غلاظ الأكباد ، حامد يكلم نفسه ، «ليتنا لم نسافر..» ،

اطلت ودققت النظر وتعجبت ، تلك ملامح أخي ، ليس حامد الذى تجلى لى ، قصرت قامته ونحل جسده ، رأيت طفلا آخر ابن عامين ، خفت وكان خوفى هذا خوفا خاصا فى قلب خوفى العام ، من وحدتى ، من الأغوار التى أضربُ فيها على غير معرفة بما سيصير إليه أمرى وما سينقلب إليه حالى . أتساءل ..

ـ «من أنت ؟» .

يجيبنى الصبى الصغير بلسان حامد الذى يصحبنى فى هذا المقام ..

ـ «أنا محمد شقيقك ، والرحم الذى أواك أوانى ..»

ـ «وحامد ؟ ، حامد الذى التقطت صورته صدفة ، ثم رأيته فى الصور مذبوحا ..» .

قال :

ـ «هو أنا ، وما أنا إلا شقيقك فى نشأته الأخرى ..» .

ـ لكن ؟؟» .

ـ «أعرف يا أخى الأكبر ما يحيرك ، لكننى جئت إلى الحياة الدنيا مرتين ، فمرة تلملمت جزيئياتى فكنت محمد الذى يصغرك ، ومرة جئت غريبا عنك ، نائيا ، وأنت لا تدرى .. لكن الأسباب جمعتنا ، إن الإنسان كان جهولا ..» .

ـ «أنت هو اذن ؟» .

ـ «فى المرة الأولى خفت السفر ، حاولت أن أنبه فلم يتنبه أحد ، حاولت أن أثنيكم فلم تنثنوا ، وفى المرة الثانية تم قتلى فجأة .. أُخذت غدرا» .

ـ بصرنى يا من تصغرنى وتكبرنى ..» .

ـ «كنت عامرا بالرؤى والمستقبل ، لكن لم يكتمل ذلك فى كلتا النشأتين ..

قلت راجيا ..

- « بحق من رد المثل إلى المثل وربط الشكل بالشكل وجعل سكون البعض إلى البعض ، بحق من يفنى الأدوار ويغير هذه الأطوار ، ويبدل الأحوال غير الأحوال ، اماتة ثم إحياء ، بحقه دلنى يا أخى الأصغر ... » .

أشار بيده الصغرى :

- « انظر » .

فتوجهت ببصرى إلى حيث أشار مع أن الجهات منعدمة ، رأيت بقعة من عالمنا الدنيوى ، واضحة بكل ما حوت ، غير أنى لم أدر المراد ، ولم أوفق ، فانثنيت ببصرى ، وإذا بشقيق ناء عنى ، عباراته خرس ، واشاراته طمس ، استفسرت حائرا .. .

- « أى موضع هذا » .

هنا خاطبنى الهاتف :

- « هنا ستفارق ، وهذا آخر ما ستراه فى دنياك .. » .

حولت البصر لأدقق واستوثق ، غير أن ماكشف لى تم محوه ، فقدت الفرصة ، وغامت الجلوة ، وكان قلبى غريبا عنى فلم ينقبض ، وصدرى منتزعا منى فلم يضق ، وكان وعيى بشريا فاغتم وتحسر ولم يفرح بما خصصت به ، بما دلنى أخى عليه ، ذلك أنى يا احبائى رأيت الموضع الذى ستغرب عنده شمسى ، وتأفل فيه نفسى ، وينسدل ليلى ، المكان الذى ستبطل فيه صورتى البشرية ، وهذا كشف لم يقع لمن سبقونى فى الطريق ، أو من ولجوا شتى المقامات ، وعرفوا الأحوال كلها ، فكما تعلمون أن المستحيلات خمسة ، هو جل شأنه وحده عنده علم الساعة ، وموعد نزول الغيث ، وما فى الأرحام ، وما ستكسب الأنفس غدا ، وبأى أرض ستموت . لكننى ضيعت

ماكشف لى بغفلتى ، ولكم فقدت ، غير أن هذا الفقد نفيس ، غال.،
حننت إلى شفيعى ومولاى الحسين ، فكان حالى كما قيل ..

أدبتنى بانصراف قلبك عنى فانظر إلىّ فقد احسنت تأديبى ..

غير أنه عنى فى بعد بعيد ، وعند هذا الحد من ذلك المقام أدركت بدون حاجة إلى تنبيه أو اشارة أن المقام قد أوشك ، وأن الأوان قد دنا ، فأخذت الأهبة لاستكمال القصد ، وسبحانه من إذا أجمل أكمل ، وإذا شفى كفى ، وإذا وفّى أوفى .

* * *

مقـــام القـــربى

«ثالث المقامات ، آخر حدّ القلة
وأول حـــدّ الكثرة»

نظرت فرأيت بابا مفتوحا ، يتوسط سورا ممتدا صيغ من ظلال فجرية ، حيث تتداخل الألوان منبئة بذهاب ليل وشروق شمس ، كلّ بصرى عن رؤية آخره ، ولكم بدوت فى مواجهة لا نهائيته ضئيلا ، فى حاجة إلى من بيده الملك كله ، الباب بلا حاجب أو بواب ، بدون مغلاق أو رتاج ، اقتربت منه ، وتوقفت أمامه ، حتى خفت عنى غشاوة نظرتى لشدة صفاء الضوء ورقته وحلاوته ، لما أنست وكشفت ، رأيت خوخة مغلقة ، فتمنيت أن اقرعها ، لكن أنّى لى ذلك وأنا بلا يدين ، بلا ساعدين ، بلا أطراف تشير أو تشرع ، بلا حول ، بلا شفيعى سيد فؤادى حسينى الوحيد ، الشفوق على فى مسلكى وغربتى ، وشتاتى وهجاجى ، حتى وان قسا على ، حتى وإن نهرنى ، حتى وإن عاقبنى ، فشدته لصلاحى ، واستقامة ما اعوج منى ، وإتمام افاقتى ، واستدراك أمرى ، شرعت لأقرع الخوخة بجبهتى ، غير أن صوتا خاطبنى لم أدر كنهه ، «لا تفعل ، حتى لو ملكت يمينك وشمالك ، لن يقرعها إلا من وفّى ، وأنت لم توف بعد ، فهى مغلقة فى وجه كل ناقص .. » قلت محاورا ومجادلا ، لقد كان الإنسان أكثر شىء جدلا . «ولكننى أسلك الطريق .. » .

قيل لى ..

ـ « ذلك لا يعنى الكمال ، والوصول لا يعنى التمام » .

إذن فبونى شاسع ، وبيانى واسع ، غير أن عزيمتى لم تفتر ، ازددت قربا ، فانقطاع الأمل عن بلوغ المراد هلاك محقق ، بدأت سعيى حول السور لعلى أنفذ ، لعلى اتخطى ، دققت البصر المحدود فى لبناته لعلى ألمح فجوة فيما بينها ، لبنات الضوء هذه ، لكم تبدو متراصة متصلة ، بعد مدى لم أدر مقداره لمحت موضع لبنة ناقصة فدنوت حتى ملأت فراغها ، ولم أزجر ، فراغ على قدر رأسى ، أصبحت كينونتى غسقية ، أصبحت جزءا من هذا السور ، وكنت أشعر باللبنة المجاورة لى ، والتى فوق ، وتحتى ، تطلعت ، إلى ما وراء السور ، تلك أيام نائية ، اتسع مدى الرؤية ، صرت قادرا على رؤية شيئين فى وقت واحد ، والتميز بين متباعدين بنفس النظر ، أرى ما لا يتسع لاستيعابه ثقب ابرة ، واميز تفاصيله ، وأرى البياب الشاسع ، والمساحات والنواصى والسماء كما تبدو من السهول الفسيحة ، وكما تلوح من الأزقة المتعرجة المتداخلة ، وكما تبدو من خلال غمام الأعالى الطاق .

رأيت أمى ، تمشى فوق الجسر ، ملتحفة بالشقة السوداء ، خافقة النبض ، رمادية الخواطر ، تقدم رجلا وتؤخر أخرى ، هى التى طال انتظارها لهذه اللحظة ، بجوارها خالى ، وجدتى ، وأبى ، والشيخ عبد اللطيف الذى سعى فى زواجها من أبى ، وجمع من الأقارب ، منهم محمد أحمد على ، شقيق امرأة خالى ، طويل ، مهيب ، دائم الفكر والنظر إلى بعيد ، وقد رأى خروج أبى من الدنيا ، ودعه وخاطبه ، ولكن لا يتسع المجال لذكر ذلك فى هذا المقام ، فصبرا جميلا ، ها هى ذى أمى فى زمن لم تلدنى فيه ولم تحمل بى بعد ، تقف فوق الجسر ، تجاهد النفس أن تبدو فرحة حتى لا يحزن قلب أمها ، يصعب عليها فراق البيت الذى عرفته وعاشته حتى وإن كانت ماضية

إلى بيتها ، إلى مصر التى يحكون عليها ويضربون بها المثل ، إنها وجلة ، تسأل نفسها ، ماذا كتب لى فيك يا مصر؟، بنفس نظرى وعين بصرى أرى يوما من أيامى أنا ، أرى نفسى فأفرح ، وارتاح ، يوم أن سعين إلى وسط المدينة وعدت بعربة نقل قديمة ، صغيرة ، يقودها سائق عجوز ، لأنقل كتبى وحاجاتى إلى بيتى الجديد ، ادركت ثقل اللحظة على أمى فحاولت مداراتها وتخفيفها بالحركة ، واشراك أمى معى فى ترتيب الصناديق ، والأوراق ، وتناولت كراسات وبضعة كتب رجوتها أن تحتفظ بها عندها وألا تطلع عليهم أحدا ، مشيرا وملمحا إلى دقة وشدة خصوصية ما بيننا ، وأنها الموضع الأمين حتى وإن توالت الأحوال وتغيرت ، وتنقلت أمى بين الكتب ، تبدى المساعدة ، وتشير إلى ما نسيت أن أضعه ، فأقول لها ، « لا .. سأبقى هذا هنا » ، نتعاون معا فى حمل ثقل اللحظة ،يساعد كل منا الآخر فى انقضائها ، تبدى السرور وتطلب من ربى الكريم الستر والتوفيق لى ، تبتسم وتخاطبنى باسمى فى مفتتح كل نداء ، عندما اتممت نقل الكتب وقبل صعودى إلى مقصورة القيادة تطلعت إلى الشرفة الحجرية العريضة ، تطل أمى ، رأيتنى بعينيها ، ترقبنى ، تتابع اهتزازات السيارة القديمة حتى يتم تحركها وتقدمها ثم اختفاؤها عند نهاية الطريق ، تبقى واقفة ، تتطلع إلى الجهة التى مضيت إليها ، ترجع إلى الصالة ، تنظر داخل غرفتى ، الدواليب التى أصبحت فارغة ، بقايا أوراق متناثرة هنا وهناك ، سريرى الذى خلا ولن أقضى فوقه إلا ليلة واحدة ، لم تخل الغرفة من الكتب ، انما من عمر بأكمله ، قطعة منها ، تغالب دمعها ، حتى لا تذرف وعرسى وشيك ، هذا شؤم ، تضم شفتيها ، تصرهما ، حاول جمال أن يخفف عنى ، جمال ابن حلال ، وعروسه طيبة تودنى ، تطرق ، تباعد البصر عن الحجرة التى اتسعت فجأة ، ما ولى لن يرجع قط ، وما كان كان ، والقادم غير الراحل ، هذه حقيقة .

هنا أرى جدتى تقف فوق الجسر ، فى نفس الوقت الذى أرقب فيه أمى تجلس مطرقة صامتة فى صالة البيت ، فوق المقعد الذى اعتادت الجلوس فوقه ، فى مواجهة التليفزيون ، تلف رأسها بطرحة بيضاء من قماش خفيف ، جدتى النحيلة التى قدت من صبر وجلد لا تغيب البسمة عن شفتيها ، حتى لا تذكرها ابنتها دامعة ، ويا عالم .. متى يلتقى الحى بالحى ، فمصر بعيدة ، والسفر طويل ، وحتى لا يكشفها صمتها ، تميل إلى أمى ، تذكرها بضرورة تسخين الحمام المذبوح والأوزة بمجرد وصولها ، وأن تفرد الأرغفة حتى لا تعطن ، وأن تفتح صفيحة السمن على مهل ، إنها ممتلئة ، وتذكرها بالبلح والملوخية الناشفة فى الكيس القماشى ، ثم تحذرها من أولاد الحرام فى مصر الذى يخطفون الكحل من العين ، يجب ألا ترتدى الكردان الذهبى إلا عند زيارة عزيز أو قريب حميم ، أما الغوايش فلا تنزعها عن معصمها أبدا ، وألا تظهرها أثناء مشيها فى الطريق ، أمى تهز رأسها ، أرى كل ما وقعت عليه عينى أمى منذ ركوبها « الحلزونة » ، ومجىء القطار ، وترددها الحذر عند خطوها داخل العربة ، ورنين جرس محطة طهطا ثلاث مرات ، وزفرات القاطرة السوداء البخارية وضجيجها ثم حركتها بداية فى بطء ثم تزايدها وتراجع وجوه الأحباب ، وخجلها كذا ارتباك أبى عند انفرادهما وحتى نزولهما ميدان محطة مصر ، نفس الميدان الذى نزل فيه أبى من عربة نقل الموتى ، لكن شتان ما بين وصول ووصول ، صحيح أن الوصول واحد لكنه يحوى الوحدة والتعدد فتأمل ذلك ! .

فى هذا الميدان انتظرت أبى وكنت له الدليل والمدرج قبل مجيئى إلى الدنيا ، لكننى الآن انظر إليه وأنا مجرد لبنة فى سور لا أدرى أوله من آخره ، سمعت ما تتبادلانه من حديث طوال الطريق ، فى مجمله ومعناه وتفصيله ومفرداته ، وقد كان أبى حنونا على أمى ، عطوفا ، مراعيا بدء غربتها عن

أهلها ، فنعم الصاحب هو والأمين على من رافق ، أحيانا لا يدرى ما يجب قوله فى لحظات الصمت التى تمتد بينهما ، تحدث عن البلاد التى يمر بها القطار ، وفصل عند دير مواس حيث بلدة الرجل الذى انقذه من هلاك مبين ، الباشجاويش أحمد حسين ، تسمع أمى به أول مرة ، وفيما تلا ذلك من عمر سمعت عنه مرارا ، وتحدثت عنه أيضا ، وعن امرأته ، ولم ترهما أبدا ، ولم تلتق بهما قط ، فالرجل لم يأت إلى مصر ، وأبى لم يصحبها معه فى زياراته المتباعدة المتفرقة ، تصغى أمى إلى أسماء بلاد لم تسمع بها ، أسيوط ملوى ، الفشن ، ببا ، العياط ، البدرشين ، الجيزة .. أخيرا مصر ، إذن .. هذه هى مصر ، مصر التى تضم آل البيت الكرام ، ستزورهم كلهم ، أوصتها أمها أن تقرأ الفاتحة ثلاث مرات عند ضريح سيد الشهداء ، الحسين ، مرة حتى يوفقها مع رجلها ويرزقها الله بالذرية الصالحة ، ومرة لأمها ــ جلدتى ــ حتى يهون عليها ما تلقاه ، ومرة لأبيها الغائب حتى يستره الله فى غربته التى طالت ، وأن يعيده سالما ، ستتضرع إلى السيدة الطاهرة ، رئيسة الديوان ليحنن قلب رجلها عليها ، ولتقويها حتى ترضيه. يتوقف القطار ، أشد ما أقلقها نزولها إلى الرصيف ، هذه الفجوة برغم ضآلتها وضيقها بين سلم العربة ورصيف المحطة تربكها وترجفها ، على مهل تقترب ، تنزل ملامسة الأرض بقدمها اليمنى ، تماما كما ستدخل بيتها بقدمها اليمنى ، يقترب حمال ، يشير إلى القفتين غير أن أبى يهز رأسه ، سيحملها هو ، تتطلع إلى الزحام حذرة وجلة ، دهشة ، حتى أننى أشفقت ورققت لها فتمنيت لو مددت العون ولو بظهرى تأنيسا لها ، لكن أنى لى ذلك وأنا بعيد ، منفصل ، وهى لم تنجبنى بعد ، تخشى أن يتوه عنها أبى ، أو تتوه عنه ، هذه المركبات خارج المحطة وتدافع الخلق ، كلهم اغراب ، كان فى وداعها جمع هو أهل ، لكن

لا أحد فى انتظارهما ، تخفى ملامحها بشد طرحتها ، يطلب منها أبى أن تنتظر حتى يأتى بعربة أجرة ، تقف وحيدة ، ترقبه ، تتمنى ألا يغيب عن بصرها ونظرها ، إلى يمينها قفة الملابس وفى طياتها علبة الحلى ، وإلى يسارها قفة الخبز والأوزة وصفيحة السمن ، وهذا أول انتظار وأول وحدة ، كنت أراها من جهات مختلفة ، عن قرب فأتملى من ملامحها . وعن بعد فلا ألمح إلا شابة صعيدية تقف وحيدة بجوار اغراضها ، ومن علو فلا أرى إلا ثيابها السوداء ، نقطة فى نهر المارين والمنتظرين والساعين الراكبين والمترجلين ، تلك من ستكون أمى ، يخفق قلبها إذ تتوقف أمامها عربة الأجرة ذات اللونين الأسود والأبيض ، لكن روعها يهدأ ، ونبضها يتمهل عندما ترى أبى بجوار السائق العجوز الذى تطلع إليها ، وطلب من أبى أن يسرع فالوقوف هنا ممنوع ، يتناول أبى القفتين ليضعها فوق العربة ، يقول السائق إنه ليس لديه حبل ولكن الشبكة الحديدية ستحفظها من السقوط ، ثم يتبع قوله بتروله ، يلامس أرض الطريق بقدم واحدة والأخرى داخل العربة يلقى نظرة ويومئ لأبى ، تتوالى الأضواء الخافتة المنبعثة من المصابيح المطلية بالأزرق ، فالدنيا فى حرب ، والأخطار محدقة ، كان أبى يلفت نظرها إلى ما يمران به ، هذا كوبرى قصر النيل ، وهذا كوبرى بديعة ، فى هذه الناحية وزارة الزراعة حيث أعمل ، سررت أنا فى مقامى هذا ، ارتحت وأنا مجرد لبنة مضغوطة فى السور المحيط بهذا المقام ، ذلك أن أمى ابتهجت وانست للحظات ، فتلك دنيا غير الدنيا التى تعرف ، كما أنها اطمأنت ، فأحمد ـ أبى ـ يبدو واثقا ، قادرا على التصرف ، لا يهاب أولاد مصر ، « وهذه جنينة الحيوانات » .

تنظر إلى البيوت المرتفعة ، والشارع العريض ، تتبدل مشاعرها فيقع فى قلبها خواء مفاجئ وحزن ، منذ لحظات ارتفع آذان العشاء ، أين أمها الآن ؟ إنها تسعى بصحبة نساء البيوت المطلة على الرحبة إلى الحماد ـ أو

الخلاء ـ القريب من ساقية بيت باشا ، أثناء صلاة العشاء واجتماع الرجال فى المسجد ، يخرجن ، كل منهن تحمل وعاء الماء الساخن ، البيوت لا تحتوى على دورات مياه ، عدا بيت الشيخ صالح العمدة والمبنى من الحجر ، وبيت الشيخ محمود أحمد المدرس بالمعهد الدينى فى بندر سوهاج ، فى هذا الوقت لا يسعى رجل إلى الخلاء وإلا عد ذلك جرما يستحق العقاب والجرسة ، أمها فى الخلاء الآن ، بالأمس كانت تصحبها ، الليلة الماضية ، تلك التى لا تفصلها عنها ليلة أخرى ، أما الآن فإنها بعيدة ، نائية ، سترجع وحيدة ، ستقضى ليلتها فى ناحية وهى فى ناحية ما بينهما بلاد وعباد وخلق ، اعتادت النوم إلى جوارها ، فى متناول أنفاسها ، ورائحتها ، شعرها وثيابها ، وقلقها الليلى أحيانا ، إذ تقعد فترات طويلة ، مصغية ، ربما تلتقط أذناها صوتا يشبه صوت زوجها الغائب ، أو علامة على طوافه حولهم أو اقترابه منهم ، يحل بها خواء وحزن رهيف وحنين قاس ، وقد عرفت مثل ما عرفته أمى فى لحظتها هذه ، عندما أرسل إلىّ صاحبى وأحد أدلتى فى الطريق محمد عودة يطلب منى اصطحابه إلى مدينة الإسكندرية ، ترددت ، بل احجمت ، بسبب ضيق ذات يدى وقتئذ ، لكنه قال إن الرحلة لن تكلفنا كثيرا ، وأنها ليلة أو ليلتين ، ثم قال لى ، وعلى أية حال ، لا يهمك الأمر ، نزلنا فندقا مطلاً على البحر ، وعندما تطلعت إلى الأفق الأزرق ، حزنت على الرغم من مواقيت البهجة التى تنتظرنى ، ذلك أنى تذكرت أمى ، وسعى أبى ، ونأى أشقائى ، رددت ، أمى لم تر هذا البحر أبدا ، لم تطل عليه ، ولم تتنسم هواءه ، ليس ما شعرت به وقتئذ إلا ترديداً لما مر بأمى عند وقوفها أمام هذه العمارة ، فكأن وحشة أمى هى الأصل وكل ما مررت به فى لحظات متعاقبة هو الفروع والأطراف ، يبدو أبى وكأنه يخفى شيئا ، لم يطل الوقت ، يقول لها إن الحجرة

التى سيعيشان فيها لابد من انتظار أسبوع أو أسبعين حتى تخلو من سكانها الحالين ، يتوقف فجأة ، يسألها ، هل سمعت عن الشيخ قيصى ؟ ، تومئ أمى ، غير أنها تنطق تساؤلا وحيرة ، «يعنى احنا مش رايحين البيت» ، يقول أبى إن الرجل دعاهما وأقسم يمينا بالثلاثة ألا ينزلا عند شخص غيره ، ثم إن امرأته طيبة وتعرف بنات باشا كلهن ، تطرق أمى حائرة ، يشق علىّ حالها ، لكنها مستسلمة ، ليس بيدها من الأمر شىء ، ثم إن وقوفها فى الطريق ضايقها ، فلكم تبدو الطرقات واسعة ، مؤدية إلى المجهول ، وعتمة الحرب ، والعربات كأنها ستفلت فجأة وتندفع تجاهها ، تطلع السلم ، يتقدمها أبى حاملا القفتين ، «ما المقدر لى فيك يا مصر؟» ، «ماذا ينتظرنى فيك يا مصر؟» ، يبدى الشيخ قيصى ترحيبا ، وتجىء امرأته لتجلس بجوار أمى ، وتطل فتاة صغيرة من الباب ، تنظر ثم تولى ضاحكة ، ويجىء صبى صغير ، يسلم وينصرف ، يثقل أمى خجل كثيف ، لا تدرى ما يجب قوله ، ولا ترد إلا بحمد الله . أو تأكيد أن الكل فى البلد بخير ، وإذ تلحظ نظرات امرأة الشيخ قيصى الطويلة الفاحصة تعرق ، وتطرق ، ويدق قلبها وتتمنى لو أنها لم تجئ إلى مصر ، على مهل تنسحب إلى داخلها ، تلملم تعبيراتها وإيماءاتها وكل ما يمكن أن يفصح ويبدى ما فى سريرتها ، يقول الشيخ قيصى لامرأته ، قومى اعملى لنا العشاء لنأكل لقمة ، يبدو أبى مبتهجا طلقا ، يتحدث عن أخبار البلدة ، وعن الحرب ، والألمان ، ثم يقول إن الناس فى جهينة بعيدون عن كل ما يجرى ، تعود الابنة الصغرى ، تختلس النظر إلى أمى ، تشير إليها ، ترفع الطفلة كتفها الصغرى رافضة ثم تختفى ضاحكة ، تجلس أمى إلى جوار أبى ، لم تعتد القعاد فوق كرسى أثناء تناول الطعام ، لم تأكل أبدا فى جمع غريب ، حتى أبى لا يزال غريبا عنها ، وإن بدأت ألفتها

له ، فبين هؤلاء هو الأقرب ، تمسك الرغيف ، اعرف هذه المسكة ، هذه النظرة ، هذه الاطراقة ، أعرفها ، فقد رأيتها مرارا عند مجيء أمي إلى بيتي بعد زواجي ، تطلعها من يحيط بها ، وهذا الهدوء الصافي ، الرائق في عينيها ، تلك لحظة ميلاد أو بدء هذا الوضع . تكرر امرأة الشيخ قبيصي رجاءها لأمي أن تقبل على الطعام بنفس مفتوحة ، تؤكد أمي أنها تأكل ، الحق أن امرأة الرجل تبدو رقيقة ، حريصة على بث الألفة حتى أنني امتننت لها في أسرى وموضعي هذا ، تتقدمها لتريها الحجرة ، تؤكد في كل خطوة «البيت بيتك» ، فوق الأرض مرتبة مغطاة بملاءة بيضاء ، وسادة عريضة ، لحاف واحد ، وبطانية واحدة ، تربت ظهر أمي «خذى راحتك» ، تصغى أمي إلى صوت أبي ، لم يعرف أبي الهمس أبدا ، وقد أخذت هذا عنه ، حتى أنني كنت أعجب في نشأتي الدنيوية إذ أرى بعض صحبي يتحدثون في الهاتف وهم بجواري فلا أرى إلا حركة شفاههم ، لم أتقن هذا قط . تتطلع ناحية الباب ، كيف تغير ثيابها ، البيت غريب ، استضطجع بجوار أحمد هنا ، على مقربة من هذا الرجل الطيب وامرأته ؟ غير أن ما آلمها وضايقها رغبتها فك حصرها ، منذ الصباح ، منذ خروجها من البيت ، بيت أمها وأبيها ـ رد الله غربته إن كان حيا يرزق ـ منذ فراقها جهينة لم تذهب إلى دورة مياه ، متى وكيف ؟ في القطار لا يمكن ، وهنا لا تعرف الطريق إلى بيت الراحة ، أثناء وقوفها أمام الحوض تغسل يديها وفمها والمرأة الطيبة بجوارها خطر لها أن تسألها لكنها لم تنطق ، فما البال الآن ؟ والباب مغلق عليها ، هل تفتحه ، ثم تعبر الصالة وقد تضل سكتها إلى حجرة لا يرغبون دخولها إليها ، ولو طلبت من المرأة أن تدلها فربما تسبب ازعاجا ، ان الخجل والألم الضاغط يثقلانها ، وهي لا تدرى ما يجب أن تفعله ، إلا أن تجلس بجوار الجدار ، في ملابسها ذاتها ،

تصغى إلى الليل ، والوجع الكامن ، وقد ضاقت عليها الأرض بما رحبت ، فتمنيت أنا الفرار مدبرا لشدة وقع هذا على ، وقلة حيلتى ، فما أنا إلا لبنة فى سور ضارب حولها ، محدق بها ، ذلك تقدير العزيز العليم.

ماكدت أحول البصر للحظة من زمنى حتى وقعت عيناى على أمى فى نشأتى الثانية ، فى الوقت عينه لم تغب عنى أمى أنا لأنى أرى شيئين فى مكانين متباعدين ، وقد أخبرت بهذا ، لما رأيت أمى هذه ذكرت لور ، أى تذكرت نفسى ، لكننى أحن إليها حنين العاشق ، واستعيدها بألم المهجور ، فما أنا إلا منقلب من طرد إلى طرد ، ومن هجر إلى بعد ، ومن فراق إلى احتراق ، فمن لى بشمة من الإشتياق ، ونسمة من المحبة التى ولت ، قوى على هذا الحنين الغريب المر ، لور ليست بمتناولى ، بعدت مع من ابتعدوا ، راحت مع من راحوا ، مع أنها ما هى إلاّى ، فإذا لم تكن معى فمن أنا ؟ من يحسن إلىّ ؟ من ينظر إلى برقة ؟ من يرحمنى ؟ من يحن على ؟ من ينثر الدواء الشافى على جراحاتى ؟ من يهتم بشأنى وبمن أسلو ؟

تطاول نأينا يا نـور حتى كأن نسجت عليه العنكبوت

يتعاظم عسرى ، ويصعب يسرى ، وأنا موقن ، أن مع العسر يسرا ، أن مع العسر يسرا ، فلعل نهاراً قريباً يعقب ليلى ، تلك أمى فى نشأتى الثانية ، حجرتها فسيحة ، مضيئة ، منضدة بيضاوية فوقها أوراق لم أدر فحواها ، وصحف ، وقواميس ، وكتب دعاية سياحية لا ترتدى نظارتها الطبية ، رأيت أثر الاطار على جانبى أنفها ، جلدها فى هذا الموضع افتح ، إنها فى السادسة والأربعين ، هى فى عملها المسائى الذى تذهب إليه من الخامسة إلى العاشرة ليلا ، أرى تعبها كتعبى إذ يحدق بى الحنين ويغزونى ، وعندى جهل أتم بما اشتاق إليه ، وهذا حال غلب على فى نشأتى الثانية ، ورمى ظله على فى نشأتى

الأصلية ؛ لكنه فى أصلى لا زمنى ، وصحبنى وطنى ، وقوى أثر رحيل أبى ، وبعد انقضاء سنوات على ذهاب جمال عبد الناصر ، وإيغالى فى حب مولاى الحسين ، كذا مع تضعضع الآمال ، وضيق الأوضاع ، وزنندة أنفاسى ، وادراك استحالة تحقق الأمنيات ، وتقدمى فى العمر خببا ، هذه أمى الثانية تستدعى إلى ذهنها المكدود هدوء أيام الآحاد ، أهل هذه البلاد لهم يوما عطلة ، السبت والأحد ، مساء السبت تغص المطاعم ، من الصعب العثور على منضدة خالية ، صباح الأحد يصحون مبكرين ، يخرجون إلى الهواء ، إلى الخلاء ، إلى الغابات المحيطة بالمدينة ، أما هى فتنتظر هذا اليوم لتنام ، والحق أنها لا تتأخر فى النوم ، بل تصحو فى الميعاد اليومى ذاته ، وأقصى ما تناله من راحة ان تبقى راقدة مغمضة عينيها ، ليست مضطرة إلى الاستيقاظ بسرعة ، وارتداء ملابسها مهرولة ، ثم الوقوف على رصيف المترو.

ما بين استيقاظها اليومى وركوبها القطار عشرون دقيقة ، لا ترى الشوارع واللافتات والمارة فوق الأرصفة والأشجار إلا من نافذة المترو فى المواضع التى يخرج فيها من النفق الأرضى ، أو من نافذة التاكسى الذى تضطر إلى ركوبه إذا ما تأخرت ثلاث أو أربع دقائق، تصغى إلى القادمين من مصر، يقولون لها إن حياتها فى هذه المدينة لابد وأن تكون رائعة ، ممتعة ، ترى الحسد فى عيونهم ، ولم يكن يدور بخلدهم أنها هى التى تحسدهم ، بعضهم يجىء لأيام قليلة ، لكنه يرى من المدينة أكثر مما رأت ، ويعرف عنها أكثر مما تعرف ، كما أنهم سيتجهون إلى المطار ، يحطون مرة أخرى فى مصر ، بلا قلق ، بلا خوف من محاسبة ، أو احتجاز قد يطول أو يقصر ، تبدو لها أيامها فى مصر حلما على قدر ما تخللها من ضنك وضيق ذات يد ، وليت الأمر توقفت شدته عند الغربة ، والخوف من مرض مفاجئ ، والخشية على الابن

الوحيد من التيه فى هذه الأصقاع ، أحوال أبى تتردى ، ولا يزداد عنها إلا بعدا ، يعيش على قديمه ، فما من جديد له ، والشعر عنه بمنأى ، لا يطاوعه ولا يواتيه ، لا يتردد فى قبول السفر عند تلقيه دعوة إلى ندوة أو مهرجان ، عدا مصر التى يخشى نزوله بها ويتمناه ، عندما سافر إلى اليمن عبر فضاءها فى الذهاب والإياب ، لكم حدثها عن حسرته ، إذ يحلق فى فضائها ولا يقدر على ملامسة أرضها ، وعن خوفه أن تضطر الطائرة إلى الهبوط ، عندئذ يتعرض للمساءلة ، ألم تهاجم الجلف الجافى ؟ ألم توقع بيانا فى يوم كذا ، سيثأرون منه لأنه رفض العمل معهم ، لأن ضغطهم عليه كان الدافع لرحيله وتشرده ، واختياره المنفى ، ودت لو أن اسفاره خففت عنه ، لو اعادت السكينة إلى هجاجه الروحى

فى آخر رحلة وكانت إلى دمشق عاد مكتئبا ، رماديا ، لما ألحت عليه أبى الافصاح ، وازداد ايغالا فى نفسه ، تذكر أيام سجنه فى زمن عبد الناصر ، وبعده القسرى الجسدى عنها ، ايصدقها انسان لو قالت إن ما عانته وقتئذ يهون إذا ما قيس بما يمر بها الآن ؟ .

نعم .. أصدقها أنا ، وأفهمها ، وأدرك سر حنينها إلى ذلك الجزء من الدهر ، إذ عرفت ما عرفه زوجها الذى هو أبى فى نشأتى الأخرى ، ولهذا حديث ذو معنى أقصر عنه الآن فله موضعه ، أرى أمى أنا قابعة فى حيز ضيق من غرفة معتمة ، أحقق وأدقق ، لم أدر كم انقضى منذ مجيئها إلى مصر؟ لكنها فى بيت آخر ، ضيفة على امرأة تسمى نادية ، لم أدر نادية من ، وأى قرابة تربطها بأمى أو أبى ؟، وان علمت أن البيت فى منطقة روض الفرج شمال قاهرتى ، وأن مجيئها إلى هنا لم يمض عليه سوى أيام معدودات ، وجهها ينبئنى بتعب وضنى وحيرة ، لم أدر كم مضى عليها فى صمتها هذا ؟.

لكننى عرفت أنها ملأى بالحنين إلى البلدة ، إلى البيت المكشوف فناؤه ، الذى لا يحجبه عن شمس النهار سقف ، إلى خبيز الظهيرة ، وسخونة الأرغفة ، إلى رائحة الوقود إذ تلتهمه النيران ، إلى رائحة الفخار ، والماء بعد أن يفرغه السقاء فى الزير ، إلى صومعة القمح ، وفتحتها السفلى المغطاة بقرص دائرى ، يزاح جانبا فتتدفق منه حبات القمح أو الذرة أو الشعير ، تغمرها فتملأ يديها مبتهجة ، إلى حريتها فى الحركة ، صعود السلم إلى السطح حيث عيدان الحطب وأقراص الجلة وأوعية الفخار المليئة بثمار الدوم الجاف ، والبلح ، إلى اجتيازها الحاجز العلوى إلى بيت الجد أحمد اسماعيل المجاور من الشرق ، أو بيت الجدة نجمة إلى الغرب ، إلى تنقلها من بيت إلى بيت عبر السطح نهاراً حتى لا تخرج إلى الطريق ويجرحها بالنظر غريب عنها ، إلى مجىء أمها من السوق ، إلى عودة محمد شقيقها بين يديه منديل اللحم ، ومنديل آخر به الطماطم والخضار ، إنه يسعى إلى الأسواق ، سوق الاثنين بنزة وسوق الخميس بالطليحات ، أما سوق السبت فأقرب الأسواق لأنه يقام هنا فى جهينة ، إذا تيسر أمره وانفرج حاله يعود ومعه قمع من السكر الأحمر ، أو منديل ، يقدم إليها هدايا ، وعلى وجهه تجهم جبل عليه ، غير أنه بعد شربه الشاى ، وتناوله فص الأفيون ، ودسه تحت لسانه ، وبدأ استحلابه على مهل ، تلين ملامحه ، ويرتاح حاجباه ، وقد تبدو منه ابتسامة ، ويبدو كأنه على وشك قول ما ، لكن يستمر صمته ، هاهى تغمض عينيها ، لا تبرح مكانها مع أنها بمفردها فى البيت ، إذا رجعت الست نادية ورأتها فى الصالة أثناء عودتها من دورة المياه ، أو فى طريقها إليها ربما ظنت أنها كانت داخل احدى الغرف ، أو أكلت فى المطبخ . لا تدرى متى سترجع الست نادية ، من هى الست نادية ياربى ؟ لم يرد ذكرها أمامى ، ولم تحك لى أمى عنها ،

لكن هل سألتها أنا ؟ هل استفسرت منها ؟ اعلموا يا أحبائى الفطنين بمعنى الحروف وجوهر المعانى أن كثيراً من الأمور البسيطة ، التى تبدو للإنسان عادية ، لن تشغل حيزا ولن تقتضى جهدا ، لا تتحقق ، ذلك أن الإنسان جبل على تأجيل ما يمكنه تحقيقه ويكون على مرأى من بصره وفى متناول يده ، بينما يتشاغل عنه بما ليس فى متناوله ، انظروا إلى حالى مع أبى ، إذ كان بإمكانى مد اليد إلى واحد من أجهزة التسجيل التى بحوزتى ، وأن أحدثه ويحدثنى ، وهكذا أبقى صوته بحوزتى فلا يضيع منى ، صدقونى إذا قلت لكم إننى شرعت فى هذا عندما جاءنى مرة زائرا ، يوم أربعاء ، ومعه نصف كيلة فول اشتراها لى من أقاربنا تجار الغلال وحملها هدية إلى بيتى ، خطر لى وهو جالس أمامى أن أقوم وأن أحضر الجهاز وأن اسأله عما كنت أود أن أعرف ، عمره البعيد فى جهينة ، ومجيئه إلى مصر ، عن الأيام الصعاب ، وأقدمت ، فعلا ، قمت إلى حيث يوجد الجهاز ، غير أننى عدلت عن شروعى ، كنت مثقل الجفنين ، ينقصنى نوم الظهيرة ، الذى اعتدت عليه ، ولو بدأت فسوف يستغرق ذلك وقتا ، عدت إليه متثائبا ، كأننى أوحى إليه برغبتى فى النوم ليعجل بانصرافه ، كأننى ... أليس هذا ماكنته فعلا ؟ يومها قلت له إننى أنوى تسجيل ساعة أو أكثر معه عن حياته ، قلت سأبدأ معك بعد عودتى من سفرى ، قال لى : والله يا بنى أنا طول عمرى شقى ، ولم أنتبه ، بل تقاعست ، وتكاسلت ، حتى ولت الفرصة إلى الأزل ، إلى الأبد ، لكننى اعاهدكم وأشهدكم على عزمى وتحقيق نيتى ، أن اتدارك أمرى وأن أشرع فى ذلك لتوى مع أمى بمجرد رد قلبى إلى ، وتجمع اعضائى ، وعودتى إلى عالمى الدنيوى ، آه .. ليت الجاهل يعلم بما ليس يدرى . هاهى ذى أمى أنا تود فى وحدتها لو بقيت فى بيت الشيخ قبيصى ، الحق أن امرأته حنون ، ولولا حياء

أمي لما شعرت بالغربة قط ، كانت المرأة تقعد معها وتسألها عن أحوال جهينة وأهلها ، وتوصي أمي بزيارة آل البيت ، ثم تسأل مداعبة ، نفسك فى ولد أو بنت ؟ ، فتطرق أمي وتهمس قائلة كل ما يجيء به ربنا مقبول ، له الحمد وله الشكر ، ليتها بقيت هناك فى الجيزة ، لكنها خافت أن تثقل على الأسرة ، فسألت أبي عما تم فى الغرفة التي ينوى استئجارها ، قال إنه لم يتبق إلا أسبوع أو أسبوعان ، دمعت عيناها ، ولم أدر من موضعى هذا السبب المباشر الذى طفر بالدمع ، غير أن أبي تساءل متزعجا ، هل ضايقها أحد ، هل عبس فى وجهها أحد ؟ هل اسمعتها امرأة الشيخ كلاما لا يصح التفوه به ، بدا عليها جد أعلمه فقد خبرته مرارا ، قالت ، لا .. أبدا ، السيدة قلبها عليّ ، ينقصها أن تضع لى الأكل بيدها فى فمى ، فى يوم تال ، يقول أبي انهم سينتقلون إلى قريب له ، لن تطول اقامتهم عنده ثلاثة أو أربعة أيام حتى يوقع عقد الإيجار ، تبدو أمي مستسلمة ، ليس لها من الأمر شيء ، أراهما فى الطريق ، أبي يحمل قفة الملابس ، أمي تتأخر عنه خطوة ، يتعلق بصرها به ، تخاف أن يغيب أو يتوه عنها فتضيع فى هذا الخضم ومالها من قوة ولا ناصر.

أرى أمي فى نشأتى الأخرى ، تختلس وقتا من وقت ، تفكر فى شخص بعيد عنها بالزمان وفى المكان ، تحمل فى حقيبتها خطاباته القديمة إليها والتى اصطحبتها معها من مصر ، وأودعتها مكانا أمينا حتى استخرجتها فى الأيام الأخيرة ، تتوقف عند السطور التى بهت لون مدادها ، أمثل هذا خطه حبيب إليها يوما ؟ الحروف ، علامات انتهاء الجمل ، لكم تساءلت فى قديمها عما عناه بتلك الجملة ؟ أو هذه الفقرة ؟ تستعيد بعذوبة وصفا ، أو كلمة ذات إيماءة خاصة بين السطور ، لكم قالت إنه الوحيد الذى التقط جوهرها ، وادرك كنهها ، لكم توقفت أثناء القراءة لتتساءل ، أحقا أنا هكذا ؟ لكم

حدثت صمتها وحاورت سكونها ، تستعيد اندفاعاتها ، واسراعها الخطى وتدفق حيويتها ، وضيق الأماكن بها ، لو تعرف الآن مثل هذه النشوة ولو للحظات عابرة لدر نهداها حنينا ولهفة ، ولأرضعت وسقت وروت ، ماذا لو أن المصائر تبدلت ؟ يعنى لم تكن لتنجبنى ! لا . لا يمكنها تصور ذلك ، لو انجبت منه طفلا أكانت ستحبه كما تحبنى ؟ تنبض بالذنب لمجرد سماحها لهذه الخاطرة أن تواتيها ، تمسك سماعة التليفون ، تدير القرص الفضى ، أرى صورة نشأتى الأخرى ، يهفو فؤادى ، أهذه بشارة بقرب رؤيتى لور ، أيقدر لى أنا اللبنة المضغوطة أن تستعيد ماكان ؟ ، لكن يبدو حالى غريبا ، فالعمر أكبر مما عهدت ورأيت فى مقام الاغتراب ، أجلس بمفردى فى غرفتى ، مرتديا كامل ملابسى ، قميصى ، وجاكتتى وحذائى حتى قبعتى التى لا ارتديها إلا عند المطر ، أسند ظهرى إلى وسائد صغيرة ، احملق فى التليفزيون ، مباراة ، لم أدر اللعبة ، لم أدر أى الصور استدعى ، وأى الأفكار تشغلنى ؟ يرن الجرس ، لا أكلف نفسى عناء النظر إليه ، أو رفع السماعة ، يتواصل الجرس ، سيدرك اليأس الطالب فيكف ، وهذا ماكان ، تمر دقيقتان من الصمت المكتمل ، يعود الرنين لكنه لا يستمر طويلا ، بل انقطع تماما ، وكان انقطاعا يائسا لا ينبئ بمحاولة جديدة . أمى فى نشأتى الأخرى على الطرف الآخر متضايقة ، تثق أننى فى البيت ، لكننى لا أجيب ، تردد «ربنا يستر» ، تخشى علىّ على الرغم من انقضاء شهور تظن أنها كافية لأنسى لور . لم يبدأ مقتها لأبى إلا مع اصراره وثورته وهياجه على انهاء العلاقة ، وقتئذ لم تفهم ، حتى شكت فى أمور لا يصح لها أن تفكر فيها ، حاولت وجادلت لكنه بدا عصبيا ، بل وصل الأمر أنه وضع بقاءه معهم فى كفة ، واستمرار علاقة ابنه بهذه البنت فى كفة ، لكم بدت أمى فرحة بهذه البنية صاحبة

الصوت الجميل التى تبدو دائما كمستغرقة فى حلم شغيف ، إذ تأتى إلى البيت قبل أن يراها أبى وتقوم قيامته كانت تفتح لها أبواب السلوى ، وتقبلها ، وتسر إليها بما لا تحكيه لمخلوق ، ثم تلملم حاجاتها وترتدى معطفها وتلوح بيدها منصرفة ، ثم تعود للحظة قبل بلوغها الباب لتذكر بموضع الشاى ، والطعام ، وتنصرف مهرولة ، راضية لأننى عندما أحببت أحببت فتاة عربية ، لم تغونى واحدة من بنات هذا البلد ، وهذا عندها يعنى أمراً ، لم تكن تدرى ولم أدر أنا أننى أعشق إلا صورتى ، ولم أغرم إلا بكينونتى ، ومع ادراكى واتضاح كل شىء ضقت فى موضعى هذا ، وشب بين جنبى فضول لأعرف ما أتاه أبى فى حق وحقها ، وسر ثورته وغضبه وأزمته ؟ تذكرت أننى أطلعت على بعض من دخيلة لور ، إنها تعرف أبى ، لكن متى وكيف ، لم أعلم .

.. تقول أمى أنا لأبى إنها يجب أن تغادر بيت هذه السيدة ، يقول أبى إنه لم يتبق إلا يومان أو ثلاثة ، والست نادية .. تقاطعه أمى : يا أحمد أنا غير مستريحة هنا . لم يسألها أبى بل استمر صامتا ، حائرا ، وطال سكوت أمى ، لم تقل له إن هذه السيدة تسخر منها ، تنظر إليها طويلا أثناء الأكل ، ألم تسألها عما إذا كانوا يأكلون فى أطباق أم فى شىء آخر فى جهينة ؟ وضحكت بلا سبب بعد أن أطالت النظر إليها، ما لم تقله لأبى أبدا أنه بعد نومه وأثناء ارقها الليلى سمعت صوت خطى حذرة خفيفة تقترب من باب الغرفة المغلق عليهما ، وأن شخصا ما توقف فترة ليسترق السمع ، لم تدر أهى المرأة ، أم زوجها ؟ ، كل ما تتمناه باب بيت يغلق عليها ، ودورة مياه تخصها لا يشاركها فيها أحد ، يمكنها التردد عليها فى أى وقت ، ألا تضطر إلى انتظار ذهاب مضيفيها إلى النوم حتى تنام هى ، وفراغهم من الطعام حتى تقوم، ومضغ الأكل على مرأى منهم ، يختلسون إليها النظر وكأن كل ما يبدر منها لافت عجيب ، لا تبدى ردود فعل

على ملاحظات ونظرات وغمزات الست نادية ، لكن لا تفوتها شاردة ، اقشعرت عندما سألتها أول أمس ، لماذا لم تستحما منذ مجيئكما ؟، ثم افلتت ضحكة عالية انتهت بشخرة قصيرة افلتت منها ، غزر عرق أمي حتى ابتلت ملابسها الداخلية ، لم تفارق مكانها الذى تنام فيه حتى مجيء أبي ، بكت حنينا ونزفت أشواقا بلا حصر إلى البلدة والبيت ، تمنت لو ولت الوجه صوب جهينة عائدة ، لكن ماذا سيقول الناس ؟ والبنات اللواتى سيسخرن منها ويهزأن بمن ذهبت إلى مصر ولم تنفع هناك ، سيسمعنها الغمز المستتر بالشفقة ، تفكر فى أبي ، تعتب عليه أنه جاء بها قبل استئجار الغرفة ، وتشفق عليه لأنها تشعر بحيرته ، لم تنقل ضيقها إلا بعد مجيئها إلى هذا البيت ، وكرهها هذه السيدة ، لكن ماذا تفعل .. إنها فى كرب عظيم !.

هاهى ذى أمى فى نشأتى الأخرى، تتردد قبل أن تتصل بصاحب لها فى مصر ، إن فارق التوقيت يجعل المكالمة الآن غير مستحبة ، سيرن الجرس فى أحد بيوت القاهرة التى خلعت منها ، تعرف أن صاحبها يسهر لكن ربما تضيق زوجته بذلك . أحيانا ترد عليها ، تبدى الحماس ، إنها تعرف المرأة وما يمكن أن يخطر لها ، هى التى لم تعد تعبأ ولا تهتم بتصرفات أبي ، وعلاقاته العديدة العابرة فى هذه البلدة ، أحيانا تباغتها الغيرة ويتحرك الأسى ، تتمنى لو أن ما بينهما استمر كما كان قبل مجيئها هنا ، لو أن جسرهما لم يهن ، ومدرجها لم يبل ، ترقب محاولاته الساذجة إخفاء علاقاته وتأسو وتحزن ، إنها لا تريد احراجه ، تعرف من صوته لهجته إذا كان بمفرده أو بصحبة امرأته ، من انطلاقه أو تحفظه ، من إسهابه أو ايجازه ، ليس بينها وبينه خصوصية ما يكون بين الرجل والمرأة ، تدرك أن العلاقات الإنسانية ذات ظلال عديدة ودرجات لا تحصى ، تستعصى على أطرافها ، فكيف بالقصى عنها ؟، تتمنى

أن تتحدث الآن إلى من تثق به ، تشعر بوحدتها ثقيلة الوطأة تلك الليلة ، هذه المدينة الكبيرة كلها لا يوجد بها من يصغى إليها ، ولأن الإنسان جبل على الرفقة والصحبة والانس لذا كانت الوحدة أشد الأشياء به ضررا ، وأقسى أنواع الوحدة ما كان اكتماله بين جمع وحشد ، ومن اضرار افتقاد الصحبة والرفقة أن تدفع بالإنسان إلى القرب ممن هم غير أهل ، عندئذ يحيق الضرر ، أمى فى نشأتى الأخرى ، ليس من السهل عليها ثلاثة ، أن تمنح ثقتها إلا بعد عمر ، وعواطفها إلا هادرة متوهجة ، وجسدها إلا لمن تحب .

أرى أبى أنا يرتدى جلبابا ، يمشى فى حوار ضيقة متطلعا إلى واجهات البيوت ، يتوقف أمام دكان خياط ، أبيض الوجه ، طويل ، يرتدى طاقية صوفية ، ومنظاراً طبيا وتلك منطقة تقع وراء الجامع الأزهر ، أرى أبى يمشى فى شارع عريض يتوسطه خط حديدى لقطار حلوان ، يقسم بصوت مرتفع أن المدة لن تتجاوز ليلتين وأن امرأة الشيخ يوسف محروس طيبة ، وأنها هى التى طلبت بلسانها استضافتها بعد أن علمت بضائقتها ، تبدو أمى أنا مجهدة ، أقل وزنا ، وجهها أشحب ، تكتم ما بها ، لا تريد أن تثقل على الرجل الذى لم تر منه مكروها حتى الآن ، إلا هذا التلطيم على البيوت ، ما كان يجب أن تجىء مصر قبل أن يكون له بيت ، لكن ماذا بوسعها أن تفعل ؟.

أمى فى نشأتى الأخرى تصغى إلى رنين الجرس على الطرف المقابل ، تنتظر الإجابة ، دهشت مع أنى عرفت العجب العجاب ، أى شىء قادر على استثارة ودهشة من حز قفاه ، من صر قلبه فى منديل ، من تحول إلى لبنة فى سور ، ما جعلنى اتعجب رؤيتى لزميل أمى وصاحبها هذا ، إنه أنا ، أنا ذاتى ، لذا كانت دهشتى أوعر مما مر بى فى مدينة فاس المغربية عندما قمت بنفسى من نفسى ملبيا الإشارة ، لحظة أن رأيت جسدى يفارق جسدى ،

قبل بدء معراجي ، مودعا هذه الدنيا صورتى البشرية تسعى وتحاور تصغى وتقوم بكافة ما قدر لى أن أقوم به لو أن غيبتى العظمى لم تبدأ ، فكنت ولم أكن ، ما حيرنى أننى أرى صورتى البشرية لأول مرة تقوم بما لا أعرفه ، وتأتى مالم آته ، حياة أخرى بعيدة عنى ، غريبة على ، رأيتنى أقوم من نفس غرفتى التى أعرفها ، واحفظ مواضع الكتب بها ، بإمكانى سماع حفيف ثوبى ، لكنه ثوب لا أعرف لونه ولا قماشه ، ثوب لم اشتره أنا ، باستطاعتى رؤية منبت شعيرات لحيتى الحليقة تماما ، لم أعرف ما تفكر فيه صورتى البشرية تلك ، فكنت أجهل واعرف ، انظر ولا أرى ، أرى ولا أبصر ، فسبحان من بيده الملك وهو على كل شىء قدير.

ارفع السماعة مسكتا الرنين المتصل علامة المكالمات الخارجية ، الذين يطلبوننى من خارج الديار محدودون ، إما صاحبتى هذه ، أو شقيق اسماعيل المقيم فى أمريكا ، وزميل صبا يقيم فى الحجاز ، وقلة من صحبى أعرف أنهم لا يطلبوننى فى وقت متأخر هكذا ، وهنا حرت ، وبدأ يداخلنى خوف غامض ، لا أعرف شيئا عن سفر شقيق هذا ، لم يحدثنى عنه ، ولم تكن له بوادر قبل معراجي وبدء تجلياتى ، فماذا يجرى فى دنياى ، وماذا يدور وأنا بمعزل ؟ لماذا يقيم أخى هذه المدة كلها ؟ وأمى أنا ماذا عنها ، أهى بمفردها ، أهى مريضة ؟ لماذا سافر شقيق ؟ لماذا ؟ ، غير متاح لى الاطلاع على ما يحيرنى ، أرى مالم يره بشر ، واطلع على مالم يطلع عليه إنس قبلى ، ومع هذا كله لا يتاح لى معرفة ما يخصنى ، فسبحان من بيده الأمر كله ، له الملكوت كله وعنده السر كله ، أنا قابل ، راض ، وإن كنت آمل فى معرفة ما يحيرنى ، لعلك تسمح ، لعلك تأذن ، عللت جهلى بأننى مهما أوتيت ، ومهما شاهدت ، ومهما أسبغ على ، يظل البصر حسيرا ، فسبحان مدبر أمرى ،

الجامع ، المفرد ، وهو على كل شيء قدير ، أرى نفسي أرفع السماعة ، أجيب ، ابتسم مرحبا ، هل رأيتم يا أحبائي ذلك الغبار الدقيق الذى تكشف عنه أشعة الشمس إذا ما نفذت إلى غرفة مغلقة ؟ هل يمكنكم الإمساك به ؟ كذا الأمر الذى شعرت به عندما رأيت صورتي البشرية ، هذا وجهي ، وتلك سماتي ، هذا أنا كما عهدت ، صوتي المرتفع هو ، انخناعي ، غير أن ثمة شيئا يجل عن حسي وفهمي ، ويستعصي على ادراكي ، رهيف شفيف ينبئني أن ثمة اختلافاً بيني وبيني ، ايقنت منه وإن لم أضع حواسي عليه خاصة وأنني ناقص ، تقول في بداية حديثها إن شركة الطيران ستنظم رحلات مخفضة ، محدودة المدة وأنه بإمكاني الحضور ، أرى ابتسامتي ، أعرف أن ما تقوله مدخل للكلام ، ولأني لا أطيق شعور إنسان بالحرج عندي ، آثرت ازالة الأسباب ، قلت إن ظروفي الآن صعبة ثم تساءلت عن أخبارها مع زوجها ، قالت إن الأمر سوء وأنه لا يكتب حرفا ، بل افتقد القدرة على الجلوس إلى المكتب ، وأنه بعد رحلته الأخيرة إلى دمشق عاد ضنكا ، وأنها احتدت عليه منذ أسبوع ، قال إن الأعباء العائلية هي التي تعوقه ، وتعطله ، وجعلت اسمه يبهت ويتراجع ، قالت إنها لم تطق صبرا فصرخت فيه ، عن أية اعباء تتحدث .. أنا المطحونة ليلا ونهارا ، ولولا شقائي وكدري لما وجدت الوقت لتتسكع على المقاهي ، وتسافر هنا وهناك ، قالت إنها فوجئت برد فعله ، نظر إليها بثبات ، ثم صمت ، كف عن حوارها ، انكمش حتى تضاءل حجمه ، قالت إنها اشفقت عليه حتى ودت لو تقترب منه ، وتحيطه بذراعيها ، لكن ما وقع وقع ، وهنا رأيت لحظة مختلفة في ليلة أخرى ، أقول ما يهدئها ، أطالبها بالصبر ، بالتروى ، بإدراك ما تسببه الغربة ، أراها تتحدث إلى في وقت تال ، منزعجة ، مضطربة ، إنه لا ينام إلا قليلا ، يحكم اغلاق

الباب ، يطوف بالنوافذ ، يستريب فى حارسة الباب ، يؤكد أنها تطلعت إليه أطول مما ينبغى ، يؤكد أنهم أرسلوا فى أثره ، وأن الأمر بدأ مع ظهور هذه الفتاة فى حياة ابنه ، إنهم ينوون قتله ، لهم ثأر قديم معه بعد أن عجزوا عن تجنيده ، اسمع صوتى يهدئها ، انصح بالذهاب إلى طبيب ، تصيح : «لكنه يرفض .. لا أدرى ماذا أفعل ونحن فى غربة ، أما الولد فيزداد صمتا على صمت ، سأجن ، سأجن يا جمال» .

أرى أمى أنا تمشى بجوار أبى ، يحمل قفة الثياب ، وعلبة ورق مقوى داخلها موقد غاز ماركة بريموس ، بيوت متقاربة ، وشمس قصية ، ورائحة مياه غسيل يبلل الأرض وعجوز اعمى يجلس القرفصاء ، أمامه طاولة عليها بسكويت أحمر على هيئة قراطيس ، أطفال يتطلعون إليهما ، يتوقفان أمام بيت رمادى داكن الواجهة ، قديم ، على أية حال واى وضع سيغلق عليهما باب تفتحه وتغلقه وقت أن تشاء ، تدخل الفناء بقدمها اليمنى ، كذا الغرفة المعتمة الوحيدة فى الطابق الأرضى ، يضع أبى القفة وعلبة الموقد فوق الأرض ، يشعل لمبة الجاز ، ترى أمى حصيرة ملفوفة فى الركن الأيمن ، يفردها أبى ، ولحافاً جديداً حفت أطرافه بقماش وردى كذا الوسادة الوحيدة ، طبقاً من الصاج أبيض منقوشا بدوائر زرقاء ، وطبقا أبيض من الصينى ، وحلة من نحاس ، وبراداً للشاى ، وأربعة أكواب زجاجية ، يفرد أبى الحصيرة ، يقعد عند طرفها ، يتطلع إلى أمى ..

ـ شوفى يا بنت الناس .

يشرح لها حاله ، إن تأخيره عنها ، وعدم مجيئه إلى البلدة ليصحبها ، لم يكن عن رغبة ، ولا عن اهمال ، إنما بسبب ضيق حال ، إن مرتبه مائة وخمسون قرشا فى الشهر ، لن يحوش منها مليما لنفسه هو ، ولو عثر فى الشارع

على بلحة لجاء بها واقتسمها معها ، كان يتمنى أن يستأجر لها غرفة أوسع ، أن يشترى أثاثا أفضل ، لكن العين بصيرة واليد قصيرة ، ويبدو أن الله جعل وجهها بشرى خير عليه ، فثمة أخبار تقول إن علاوة قدرها قرش صاغ قادمة فى الطريق ، تصغى أمى إليه ، تشعر بالراحة لأن مكانا يخصها هى احتواها أخيرا ، يقول أبى إنه سيخرج ليشترى جازا وطعاما يأكلانه ، إنه يريد أيضا أن يتيح لها الفرصة كى تبدل ثيابها ، يتجه أبى إلى الخارج ، عنده فرح داخلى ، إنه يسعى الآن من أجل بيته ، له أسرة ، هو الذى لم يحن عليه أب ، ولم تعطف عليه أم . تقعد أمى بمفردها تجيل البصر حولها ، الرطوبة ، العتمة ، وهذه النافذة قرب السقف ، أين ذلك من البيت الفسيح العامر دائما بالضوء والشمس والهواء النقى ، تقول لنفسها «الظروف صعبة ، لكن أحمد رجل طيب ، وحنون» ، عاد أبى ، رأيت الليلة فى مجملها ، ورأيت شروق الشمس ، غير أن اشعتها لم تعرف سبيلا إلى الغرفة ، ها هى ذى أمى تقعد بمفردها ، وحيدة بعد خروج أبى إلى عمله ، الباب مغلق ، لن تفتحه لطارق ، تسمع صياح الأطفال فى الفناء ، لم أدر أهذا صباحها الأول أم أنه صباح آخر ، وإن خمنت أنه صباح تال ، وسبب ذلك رؤيتى حبلاً فى الغرفة عليه ثياب لأمى وأخرى لأبى ، وطشتاً للغسيل لم ألحظه فى الليلة الأولى التى رأيت فيها ما رأيت ، سمعت عزمها وقرارها ، سيكون لى بيت فى مصر ، فيه سرير ، ودولاب ، سيذهب أولادى إلى المدارس ، ولن يعرفوا ما عرفه أبوهم ، أو ما ذقته أنا ، لن يشمت فى الشامتون ، إن شاء ربى الكريم .. » اسمعها تخاطبنا ، ليس من هذه اللحظة ، ولكن من لحظة أخرى تتقدم فى الزمن ، تقول لنا :

ـ «يا أولاد احمدوا ربنا ، تزوجت اباكم ومرتبه اليومى خمسة قروش

عشنا منها فى مصر..».

وخيل إلىّ أنها توجه الكلام لى فى وضعى هذا ، فهل تدرك أننى لبنة فى هذا السور؟ هل حلت بهذا المقام الذى دخلته وحيدا ، بعيدا عن شيخى الأكبر ، يخيل إلىّ أنه على مقربة منى ، لكننى لا أقدر إلا على رؤية ما هو أمامى ، أرى أمى جالسة فى الصالة التى أعرفها ، فوق نفس المقعد ، أراها كما عرفتها فى السنوات التى تلت زواجى ، كما اعتدت خلال زياراتى ، وكان الانتظار أساسيا عندها ، فهى إما تنتظر مجيئى فى اليوم الذى حددته من كل أسبوع ، ولم أخلفه أبدا حتى بدلى الطريق والمعراج والسفر ، ولا أدرى ما صار إليه حالى فى صورتى البشرية ، وإما أنها تطل من الشرفة العريضة تنتظر عودة شقيقى اسماعيل اليومية ، أو وصول أختى بعد انتهاء يومها الجامعى ، أو أخى على العائد من كليته أو مشوار قصير إلى الجمعية أو البقال يقضى حاجة ، أو مطلة ترقب مجيئى الذى صار فى السنوات الأخيرة أسبوعيا ، إذ أتأخر لا تفارق مكانها ، تضع لوحين من خشب ، تقف فوقها لتتمكن من مد البصر إلى نهاية الطريق ، إذ تلمحنى تتجه إلى الباب ، هى التى تفتح لى ، هى التى ترحب بى ، هى التى تقول لى معاتبة ، تأخرت ! ، كلمة واحدة لا تزيدها ، لا تبدى لوما ، اتعلل بحجج معظمها كاذب ، أبالغ فى اظهار تعبى حتى ترق لى وتبدى اللهفة على ، أمى قاعدة فى مواجهتى ، أبى يقف على مقرَبة منها ، يرتدى ملابس احرام غير أنها خضراء اللون ، أعرف أنه راحل ، لكنه يرقبها ، وهذا جديد على ، لم أجده إلا فى هذا المقام ، فماذا جرى ، ماذا استجد ؟.

إنى والله قلق ، إنى والله خائف ، انى فى حاجة إلى من يطمئننى ، استر يا كريم ، يا حفيظ ، يا دائم ، استر ببركة ـ ابن بنت حبيبك وصفيك ـ

مولاى الحسين ، أبي راحل عنا فلماذا يقف على مقربة من أمي ، أبي غارب فلماذا القربى ؟، أراها مهمومة ، أراها مثقلة بشقاء العمر وضناه كله ، هذا وجهها الذى طالعته بعد سفر أخي اسماعيل إلى أمريكا ، البيت يضمها مع نوال وعلى ، وعند انفرادها ، ترتب سرير شقيق ، وتنفض الغبار عن مكتبه ، وتفتح النافذة ليدخل الهواء ، كأنه آت بعد قليل ، وإذ يزيد بها الوجد تقبل الثياب وتحوش الدمع فالبكاء شؤم ، أما الحزن المكتوم فشرع لها ، أراها تتحدث باتجاهي مع أنها لا ترانى ، لا تخاطبنى إنما تجلس أمامها جارة لنا ، امرأة طيبة من الصعيد ، شاركتنا الأحزان على الوالد الغالى ، أم محمد ، فياغلبي ويا حزنى ويا خوفى ويادلى ويا مرارى ويا فقدى ، ماذا يعنى هذا ؟ تقول أم محمد : لا تحزنى ولا تغتمى وخذى بالك من نفسك فانت صاحبة عيا ، وصلى ، وادعى لابنك أن يرجع إليك سالما ، عقبى لنوال ، عقبى لعلى .

تقول أمي ، متطلعة باتجاهي ــ ياربى ألا تخاطبنى أنا ؟ ــ ألا تحدثنى أنا ــ تقول أمي التى أعرف قدرتها على اخفاء آلامها وضيقها ، وما لا تريد الافصاح عنه تقول : جمال ابن حلال ، وهو يطل علىّ ، ولا يغيب عنى ولا ينسانى ، لكن المرحوم كان يملأ علينا البيت ، أبوهم كان له حس وانقطع ، تقول أم محمد : اطلبى له الرحمة يا أم جمال ، واقرلى له الفاتحة ، وترحمى عليه ، ولا تبكى عليه فإن البكاء يحرق قلب الميت ، تقول أم محمد : هذه هى الدنيا ، وتلك أحوالها فاذكرى ربك . يخفت صوت أمي ، اسمعه عاتبا واهنا حزينا : كنت اغرف الطعام لخمسة ، والآن اغرفه لاثنين . كان البيت يضيق بنا ، والآن وسع علينا !! ينأى الصوت ، تختفى أمي ، أين أيام شملنا ؟، يوم كنت اصغى إلى أبي يحدثنا عن يوم القيامة ، يوم يفر المرء من

أبيه ، وأمه وأخيه ، يوم تذهل كل مرضعة عما أرضعت ، وترى الناس سكارى وماهم بسكارى ، كنت أبكى ، أمعقول افتراقنا فى هذا اليوم العظيم ؟، فيقول أبى ، يا بنى لن يعرف الإنسان أخاه أو ابنه لأنه لن يراه ، العيون ستكون فى منتصف الرءوس ، احزن لأننا ستتباعد ، لأن كلا منا سينشاغل بنفسه ، لأن أبى لن يرانى ، ولأن أخى سيجهلنى ،وأن أمى ستذهل عنى ، أتم مناجيا داعيا راجيا ربى أن يجمع شملنا ، ألا يبدد جمعنا ، أن يحشرنا معا ، أن يحاسبنا معا ، أن يغفر لى ولوالدى ، أن يرحمهما كما ربيانى صغيرا ، غير أننى لم اتم الأربعين بعد فى حياتى الدنيوية إلا وتفرقنا ، واجتزت قيامتنا بدون أن أدرى ، وكان رجيل أبى أول منعطف أعظم ، فسبحانك ، أنت الصاحب فى السفر ، والخليفة فى الأهل ! .

* * *

مقام الحُزن

وَمَا مَرّ يَوم أرتَجِي فيهِ رَاحَةً
فأذكُرَه إلاّ بكَيتُ عَلَى نَفسِي

.. يقترب شيخى منى اذن .. لم أعد وحدى، يمد يده إلى السور ، ينتزعنى ، بمفارقتى اياه يخلو مكانى ، ولا يخلو ، لأننى عندما عاودت النظر لم أر فى السور موضعا لأى لبنة ناقصة ، لبناته كلها متضامة ، متجاورة ، مكتملة ، أما النقص فعندى ، والفقد لى ، عدت رأسا محزوزاً مجزوزاً فسبحان من له الكمال كله ، والدوام كله ، يقبض شيخى شعر رأسى ، آلمنى ذلك ، يرفعنى ، فيغيب السور بأكلمه من بصرى ، أقول له :

- «لم تركتنى وحيدا فى هذا المقام الذى فارقته يا نبراسى فى الطريق ، وشيخى الأكبر الذى على يديه اهتديت وعوقبت ؟» .

لم يجبنى بعد سؤالى مباشرة ، إنما برقت لى رؤية خاطفة ، أمى أنا تقعد فوق حشية مكسوة بثوب قديم لأبى ، تغمض عينيها ، يثقل رأسها ، يميل إلى صدرها ، ترفعه بغتة ، على شفتيها ابتسامة ، تقول لمن يجلس فى مواجهتها ولا أراه «أنا صاحية ، لم أنم» ، تلك جلستها فى مواجهتنا عندما كنا نسهر الليالى لنحفظ الدرس ، تأبى أن تهجع ، أو تنام ، عسى الحاجة تكون إلى كوب من الشاى المعطر بالنعناع لن تعده إلا هى ، أو لقمة تسد جوعا لن تعدها إلا هى ، حتى بعد انتقالنا إلى مسكن فسيح ، صار لى فيه غرفة بمفردى ، تبقى فى الصالة مستيقظة ، تغالب الهجوع إلى أن يتم نعاسى ، وينام

إخوتى وأبى فتأمن وتذوق الوسن ، وإذ افتح عينى فى رقادى ، تصحو هى قبلى ، حتى وإن يفصلنى عنها جدار ، وباب مغلق ، لم أر أمى نائمة قط ، لم أوقظها طيلة عمرى المقدر لى فى الحياة الدنياً مرة واحدة ، تنام بعدنا ، وتسعى قبلنا ، هذا ما أدركته عبر هذه الرؤيا الخاطفة التى تيسرت لى ، أولى مشاهداتى فى هذا المقام الوعر ، صعب المرتقى ، نظرت إلى يد شيخى اليسرى القابضة على قلبى ، فلما رأيته حننت إلى جزلى الذى وسع كلى ، ضقت إذ رأيته يتقلب ويتفرفط حزنا إثر اطلاعه على هذه المشاهدة . فكل ما أراه بعينى يطلع عليه قلبى ، غير أنى لا أدرى مردوده وانفعاله لانفصاله عنى ، فلطفا يا خالق ورحمة . نظرة يا مولاى الحسين ، يا أكرم ولى ، يا نجى ، ياوفى ، يا روضتى ، يا صفحتى الجامعة ، يا بستان القلوب ، يا حديقة المعانى كلها ، لماذا نأيت عنى ؟ إن المودة فى القربى ؟ لماذا أرى أمى أول ما أرى فى مقام الحزن ، والحزن لا يكون إلا على ماض أو فائت ، أيعنى ذلك أن أمى فى الفائت ؟، أخشى النطق فصبرنى ، أخاف التصريح فدلنى ، أنا الغريب ، الحزين ، التائه .

يجيئنى صوت شيخى الأكبر ، القابض على ، الممسك بى ، يجيبنى على سؤالى الذى طرحته عليه أول هذا المقام ، يقول لى : اعلم اننى دخلت مقام القربى ، مثلك ، فى شهر محرم سنة سبع وتسعين وخمسمائة وأنا مسافر ببلاد المغرب ، فتهت به فرحا ، ولم أجد فيه أحد ، فاستوحشت من الوحدة ، وتذكرت دخول أبى يزيد بالذلة والافتقار ، فلم يجد فيه أحد ، وهذا المنزل هو موطنى فلم استوحش فيه ، لأن الحنين إلى الأوطان ذاتى لكل موجود ، وأن الوحشة مع الغربة ، ولما دخلت هذا المقام وانفردت به ، فبقيت اتتبع زواياه ومخادعه ، ولا أدرى ما اسمه مع تحققى به ، فبقيت وأنا على تلك الحال

من الاستيحاش بالانفراد ، والأنس إنما يقع بالجنس ، فلقيت رجلا من الرجال بناحية تسمى أنحال ، فصليت العصر وذهبت إلى صاحب لى وكانت بينى وبينه مؤانسة فشكوت إليه ما أنا فيه من انفرادى بمقام أنا مسرور به فبينما هو يؤانسنى ، إذ لاح لى ظل شخص فنهضت من فراشى إليه عسى أجد عنده فرجا ، فعانقنى فتأملته ، فإذا به أبو عبد الرحمن السلمى ، قد تجسدت لى روحه بعثه الله إلى رحمة بى ، فقلت له : أراك فى هذا المقام ، فقال فيه قبضت ، وعليه مت فأنا فيه لا أبرح . فذكرت له وحشتى فيه وعدم الأنيس فقال : الغريب مستوحش ، وأنت لم تكن غريبا ، بل شاهدت من أحببت ..

قلت لشيخى الأكبر..

ـ لكننى لم أكن سوى لبنة فى جدار ، لهم حضور ولى حضورى ..

يقول لى شيخى :

ـ لكنك ترى ..

أقول راجيا ، متوسلا ..

ـ يا بحر المعانى ، أعد لى رأسى ..

ـ ما كذب الفؤاد ما رأى ، وما زاغ البصر وما طغى ..

أقول متحسرا ..

ـ لماذا تقسو على يا دليلى وأنا فى كنفك ؟

لماذا وأنا فى حمايتك ؟.

لماذا وأنا بمنزلة المريد منك ؟.

لماذا وأنا التابع وأنت المتبوع ؟.

لماذا وأنا الراجى وأنت المأمول ؟ .

لماذا ؟؟

يقول لى :

ـ والعصر.. إن الإنسان لفى خسر..

أفهم الاشارة ، أقول ..

ـ إن كان ذلك كذلك فإنى راض ، متقبل ، مطيع ..

يقربنى ثم يدعنى فيبق رأسى حائما حوله ، يبسط منديله الأبيض ، يرتعش قلبى ويخفق ، يدفق ، لكن بمن ولمن ؟ حرت والله ، كلما ظننت نفسى واصلا إلى مستقر لبى أجدنى نائيا ، فيا أسفى .

ينحنى شيخى باسطا يديه ، أرى عين ماء تتدفق من الأعلى إلى الأسفل ، يضع قلبى فى المجرى ، تختلط دمائى بالماء ، يشير إلى ، أدنو ، يمسكه بكلتا يديه ، كما أمسكته رئيسة الديوان ، النقية الطاهرة مولاتى السيدة زينب ، يباعد ما بين جزء يه فينفلق إلى نصفين ، متصلين ، مرة ثانية أرى بطينى الأيمن والأيسر ، وشريانى ، الأورطى ، والتاجى ، والتلف الذى عض صمام قلبى الميترالى فى صغرى ، هذا ما ظهر لى ، وما استتر عنى أعظم ! فقد ألممت فى لحظة بمقادير زمنى الدنيوى بما لم أتصور قط أن قلبى قادر على أن يسعه ، وليتنى أستطيع أن أفصل وأن أفسر ، لكننى لم اتلق الاذن ، فصبرا جميلا ! ، أرى حمامة بيضاء ، دقيقة ، جميلة ، ليس كمثلها طائر فى دنياى ، تحط على حافة قلبى ، لم تترك أطرافها النحيلة الدقيقة أى أثر يشى بثقلها على قلبى ، فلا وزن يعرف لها ، تميل ، تفتح مناها ، تقطر فى قلبى الصبر على المكاره ، استبشرت خيرا ، وسجدت بعينى وشكرت بلسانى ، عرفت أنى صرت من القوم ، وأن خطاى تبدأ فى وقت ظننت فيه أننى انتهى واختتم ، وأنا بلا قدمين ، أو ساقين ، فرحت فرحا عظيما ، فرح من اكتشف نفسه من الناجحين بعد يقينه أنه من الراسبين ، وعندما غاب عنى شيخى الأكبر لم أخف كعهدى

كلما تركت وحدى ، أوغلت بالفعل فى هذا المقام ، بعد وقوفى عند حده ومشارفه ، وبدا مدخلى إليه غريبا ، فبعد مشاهدتى أمى خطفا وبرقا ، رأيت كافة ما مر بى من أفراح عن يمينى ، وكل أحزانى عن شمالى ، إن جاز لى التشبيه بالجهات التى لا وجود لها أصلا فى مسعاى ، رأيت افراحى فى قدر السمسمة حجما ، فلم أتبينها ولم اتمكن من تدقيقها ، لذا وليت النظر شطر أحزانى ، وفى البداية رأيتها فى جملتها ، وإذا جاز التشبيه ، تبدو كغمام رمادى ، ثقيل ، فى يوم خريفى ، لا ينتظر فيه مطر ، وكلما حدقت بانت لى من فى تفاصيلها ، فرأيت اعظمها ترحاً لحظة سماعى النبأ العظيم برحيل أبى ، ثم رأيت أحزانا أخرى مضببة ، مبهمة ، لم أستطع ادراك كنهها ، أو لبها ، وما تدور حوله ، فلطفا يا خالق ، إن أكثر الناس لا يعلمون ، رأيت لحظات طوافى بضريح مولاى الحسين القاهرى ، ووقوفى عند الموضع الكربلائى الذى حز فيه رأسه ، ولحظة رؤيتى نعش جمال عبد الناصر ، كان ذلك فى شارع رمسيس القاهرى الممتد ، الذى فاض وغص بأهل مصر المحروسة ، وقفت فى شرفة بيت صاحب لى ، تجمعنا عنده لنرى الموكب الأخير ، وعندما اقتربت الخيول السود ، كانت الأيدى قد سحبت العلم الملفوف فيه ، فبدا خشب النعش الأصفر الذى يحتوى الهامة والقامة التى طالما هلت وأطلت ، صريخ نساء وبكاء رجال ، وتلويح أيد وغيمة حزن كثيف ، فى الطريق تعدو امرأة شابة حافية القدمين ، تمسك طرفى طرحتها السوداء وتحركها يمنة ويسرة ، افتقدها نظرى فى الزحام ، غير أن ما يضيع أحيانا يبقى ، وعندما ولت عربة المدفع واحتواها الجمع الكثيف ، غاب عصر ، وفنيت حقبة ، واندثرت أمان غالية ، وراحت علامات فسبحان من له الدوام .

وقفت فى هذا المقام على سر عزيز ، ذلك أن أبى قضى الليل كله عند غمرة فى بيت خلف بك الحسينى رحمة الله عليه وعلينا أجمعين ، ليرى

ويودع ويذرف الحزن على الرجل الذى أنصف أهل الفقر من أهل الغنى ، الذى أمن رزقه وجعله لا يخشى فصلا ، أو اهانة من كبير تلحق به الأذى ، وهذا ما لم يقله أبي لى ، ما لم يصرح به أيضا لى ولا لغيرى ، إنه اعتاد زيارة الفقيد الغالى والترحم عليه ، ولم ينقطع حتى فى سنوات المحنة والشدة التى تمكن فيها الجلف من مقدرات هذا البلد الأمين ، هذا لم يقله أبي لى ، بورك الوفى حافظ الجميل ، رأيت حزنى يوم فارقت أبي وأمى وإخوتى أول مرة ، كنت منقولا من عملى إثر قرار مفاجئ ، لا مجال الآن كى أفصل أسبابه ، وسيحين ذلك بإذن الواحد الأحد ، تقرر نقلى إلى مدينة المنيا الصعيدية ، ها أنا ذا جالس فوق مقعد القطار ، قطار الثامنة صباحا ، لكننى غير مبتهج ، إنى حزين ، إنى منقبض ، أبي صامت ناطق ، يودعنى بالنظر ، هذا أول اغترابى عن أهلى وأقساه ، ساكت لكنه يتكلم وأنا مثله ، وقد ادرك ذلك صاحب محبوبتى لور فى نشأتى الأخرى ، عندما جلسنا يوما فى مقهى قديم نأكل الفطائر ونحتسى الشاى ، وكنت مبهورا بالنظر إلى انعكاس ضوء المصباح العتيق على قمة شجرة باسقة أمام كنيسة أثرية ، كنت أتكلم ، أتكلم ، عندما قال صاحبها هذا ، أنت تتكلم لتسكت ، وفيما بعد قالت لور ، أنت ناطق فى صمتك ، لهذا أنا لا أضيق به ويا احبائى الكرام ، ما أطول المدد التى قضاها الوالد بيننا مطبق الشفتين ، فأى أمور أفصح عنها فى صمته ؟ وماذا افضى به إلينا ولم نسمع ؟ ضرب على آذاننا سدا ، وعلى أعيننا غشاوة ، وعلى أفهامنا ، وقر ، رن الجرس مرة ثم مرتين ، تحرك القطار بطيئا فى البداية ، يمشى أبي ، كأنه يود اللحاق بى ، زادت السرعة فولى ثم وليت وجهى شطر الغربة ، رأيت حزنى المنبعث عن غربتى ، والحزن والغربة صنوان ، وأمران متلازمان ، وحزن الغربة يا صحبى الكرام لا يلازم الرحيل ومفارقة الأهل والأوطان ،

بالضرورة ، فقد يغترب الإنسان وهو ملازم لمكانه ، قائم بين ناسه ، مصاحب لأحبابه ، قال شيخي الأكبر القابض على قلبي بيده ، إن الغربة يراد بها مفارقة الوطن فى طلب المقصود ، ويراد بها اغتراب الحال ، فيقولون فى الغربة الاغتراب عن الحال من النفوذ فيه ، والغربة عن الحق غربة عن الدهش ، أما غربتهم عن الأوطان بمفارقتهم اياها فهو لما عندهم من الركون إلى المألوفات فيحجبهم ذلك عن مقصودهم الذى طلبوه بالتوبة ، وأقول أنا ، لما كان الإنسان فى سفر دائم ، لذا كان فى غربة دائمة ، ولما تقدم بى العمر ، عرفت أن أصعب أنواع الغربة ماكان غربة فى الاقامة والحزن ، كما أوضحت وجها من وجوه الغربة ، لذا كان الحزن ملازما للنشأة الإنسانية ، اسألونى يا صحبى ، لماذا يبكى المولود فى اللحظة الأولى التالية لخروجه من الرحم ؟، لماذا ؟، لأن فراق الرحم أول غربة عرفناها ، يبكى الطفل عند ذهابه إلى المدرسة أول يوم ، تذرف الدموع عند سفر الحبيب ، وعند مغادرة الأوطان لطلب الارتزاق أو طلب المعاش، تمضى الحياة الإنسانية من غربة إلى غربة ، حتى تقع الغربة العظمى الكبرى ، الموت ، وان كان هناك حال من الغربة لا نعرفه ، عندما يتفرق الحضور الجسدى الإنسانى فى الكون ، أما غربتى فى هذه التجليات فلم تتفق لغيرى ، ولا لشيخ من شيوخى ، ذلك أننى عرفت أنواعا من الغربة لم تتفق لإنسان قبلى ، منها غربتى عنى ، وغربة رأسى عن بقية جسدى ، وغربة وجودى عن وجودى ، وغربة صورتى البشرية الباقية فى العالم الدنيوى بعدى ، وهذا حديث ابقيه حتى يحين حينه ، ومن أصعب الأمور خوضى فيه الآن ، فعذرة !.

رأيت حزنى لحظة نزولى بلداً غريبا لا أقصد فيه صحبا ولا ولدا ، بلدا لم أكن بالغه إلا بشق الأنفس ، أما مأواى فأجهله ، لا تدرى نفس ماذا

تكسب غدا ، رأيت حزنى فى سنوات عمرى الأولى ، تقعد أمى فى الشمس ، عند الظهيرة تستقر ملامحها مع رسوخ الصمت والسكينة ونأى الأصوات عنا ، تجىء يمامة وحيدة ، الأحمر الغامق هو اللون الغالب على ريشها ، يختلط بزرقة قرب العنق ، تمشى ، تهز رأسها إلى الإمام ، إلى الخلف هذا سريعا متواليا ، ثم تستقر عند نهاية السطح ، يتتابع هديلها الغامق ، فيضفى على النهار بعدا وغموضا ومعنى ، تتابعها أمى صامتة ، ترى أى الأفكار ، أى الصور ، أى الأحاسيس أثارها عندها هذا الهديل ، فيايمامة مهاجرة من ثلج موطنك إلى دفء موطنى وشمسه لك منى السلام ، لك الذكرى العطرة ، فقد مكنت من وعيى لحظة كان من الممكن أن تفنى ، ولونت بصوتك ظهيرة آمنة كان ممكنا أن تنسى ، يايمامة قادمة من بعد سحيق لك السلام ، والأمان ، هديلك فى غرارة فؤادى وصندوق قلبى ، فلو حططت يوما على مقربة من الحبيبة أمى مثل الزمن القديم فأبلغيها أننى مغترب ، وأننى ملاقيها حتما فصبر جميل ، ويا حزنى على هذا الهديل ليس كمثلك حزن ! ، يا اخوانى إنّ أوعر الأحزان ماكان رهيفا ، رقيقا ، كحد الموسى ، كلما رق ازداد قدرة على القطع ، رأيت حزنى الذى يصحو معى فى بعض الأيام ، هذا الحزن غير المبرر ، مجهول المنبع ، يحل بى فلا يفارقنى طيلة يومى ، رأيت حزنى على عمرى الغارب ، وهذا حزن خاص أورثنى كهولة فى غير أوانها ، إنى ـ يا سادتى ـ راحل دائما بين لحظتين ، لحظة ماضية لن استعيدها قط ، وأخرى آتية قد لا أصلها ابدا ، رأيت حزنى عندما أواجه البحر الممتد ، وأوغل فى الصحراء ، وارتقى الجبل ، واسلك البوادى ، عندما أرقب الشمس الغاربة ، عندما انتظر شروقها ، عندما أرنو إلى النجمة الأولى ، أودع الأخيرة ، وعندما تهب النسمة النادرة ، وحزنى على أصحاب

رحلوا قبل الأوان ، وحزنى على الذى ذوى ، رأيت حزنى عند مرورى بالمنحنيات والنواصى المألوفة ، رأيت درجات حزنى كلها ، شجنى ، وأساى ، وسقمى ، وعويلى ، ونوحى ، وحنينى ، رأيت شيخا مهيب الطلعة ، عظيم اللحية ، واحد من سادتى الذين سلكوا الطريق ، وعبروا الباب ، كان يرفع سبابته ، وفوقها كل ما ذرفت وما سأذرف من دموع ، رأيت دموعى التى سفحتها غزارا ، وارجفت كينونتى ، ورأيت دموعى التى سفحتها على مهل ، وهذه دموعى التى لم تتجاوز مآقى ، رأيت دموع دموعى ، عند هذا الحد بلغ بى التأثر حدا ثقيلا فالتفت إلى يمينى ، هذه افراحى كلها ، تجمعت فى دائرة مقدارها كهذه الدائرة التى تتوسط زهرة شقائق النعمان ، ولكم تمنيت يا رعاة ذكرى أن أهديكم طرفا من افراحى الإنسانية ، لكننى كليل البصر ، واهى النظر ، وأفراحى يا أحبابى أدق من أن ترى ، رب سائل من المطلعين على مكنونى ، يسألنى ، ألم تفرح عند سماع خطى أبيك العائد من عمله ؟ أقول ، بلى ، وسبحان من يولج الليل فى النهار والنهار فى الليل ، ألم تفرح عند سماع إعجاب القوم بما خطته يداك ؟. أقول بلى ، وسبحان محيى العظام وهى رميم . هذا حق لا أنفيه ، لكن معذرة فأكدارى كثيرة .

عند هذا الحد تيقنت أننى متمكن من هذا المقام ، وأننى قطعت فيه مدى ، رأيت أبى أنا ، الذى كان رحيله بمثابة الختم على ما فاتنى ، والمفتتح لما أمر به ، هاهو ذا يصحب أمى ، يمشيان عبر حارة الوطاويط المفضية إلى مشهد إمامى الحسين ، فى هذا الزمن كانت زيارات أمى لمثوى رأسه الشريف ، وإلى ضريح شقيقته رئيسة الديوان ، مما ييسر عليها ، ويخفف عنها ، ويفرج كروبها ، ويفض ضيقها ، ويبطل وحدتها ، لم تكن تخرج من غرفتها إلا مصاحبة لأبى ، ولو ابتعدت أمتارا قليلة عن البيت لتاهت وضلت

وما عرفت طريق العودة ، بل إننى وقفت على حيرة عظمى مرت بها أمى . فى أول أيامها القاهرية ، قبل خروج أبى المبكر إلى عمله ، اعطاها قرش صاغ ، وأوصاها أن تشترى فولا ورغيفين من البائع عند مروره أمام البيت وسماعها نداءه ، أصغت أمى عندما صاح الرجل «يا لوز مقشر يا فول» ، قطعت الفناء بخطى مضطربة مترددة ، حتى وقفت أمام باب البيت ، ها هى ذى تنظر من وراء خمارها الأسود ، لا تدرى ما يجب قوله ، وبأى كلمات يكون الشراء ، كيف تمد اليد إلى غريب لا تعرفه ، كيف تخاطبه وتناديه ؟ فى جهينة كان بعض الباعة يمرون ، يحملون قففا صغيرة بها بضاعتهم ، أساور ملونة ، أكواب زجاجية ، أقماع سكر أحمر ، كانوا يقايضون على ما معهم ، فيأخذ البائع ملء قدح من القمح أو الذرة أو الشعير فى مقابل كوبين زجاجيين، أو رطل من السكر أو علبة ملبن ، لم تتعامل معهم بالنقود ، تطول حيرة أمى ، ويبدو أن وقوفها الصامت ، ويدها الممسكة بالطبق لفت نظر جارة تسكن فى الطابق العلوى تصادف مرورها ، امرأة طيبة اسمها أم هدهد ، تقول لأمى : أتريدين حاجة يا ابنتى ؟ ، تنظر أمى إليها ، تجيب : بقرش فول ورغيفين ، تنطق ما قاله لها أبى ، تقول المرأة ، هات الطبق والقرش . تعود به ممتلئا ، سطحه مغطى بزيت ، تتناثر عليه ذرات الكمون والشطة ، وزاد على ما أرادته أمى بصلة خضراء غليظة ، تقول أم هدهد : خذى يا شابة . تأكلين بالهناء والشفاء ، تتمتم أمى ، أكثر الله من خيرك ، ترجع إلى حجرتها ، تغلق الباب بالرتاج ، لن تفتحه كما أوصاها أبى ، هذا صباح اليوم التاسع من أبريل عام ألف وتسعمائة وأربعين ، بعد اندلاع الحرب الكونية بسنة ، وقبل مولدى بخمسة أعوام وشهر ، تطوف بشفتى ابتسامة غاربة . تذكرت لحظات اعرفها عندما سعت أمى فى الأسواق لتشترى اللحم والحصار

والملابس ، عرفها محمد الخضرى ، وعبد الهادى البقال ، ونصرى الجزار ، وزينب الدلالة ، عرفوها حتى باعوا إليها بالأجل ، رأيتها تفاوض الحاج فؤاد تاجر الأثاث المستعمل ، تبصم على الكمبيالات ، تقص على بعد عودتها ما قامت به وما فعلته ، رأيتها عندما تصحب أخى على إلى الأطباء فى سنوات مرضه ، وليس هذا بالمقام الأفضل كى أفيض وأفصل ، لكننى وقفت على الفرق بين حالين ، والمسافة بين طورين ، فسبحان مسير الفلك ، مغير كل شيء ، إنه نعم القدير.

اعود إلى أبى وأمى القاصدين مشهد الحسين ، بعينى أمى أرى باعة السبح ، والطواق والشيلان والطرح والمصوغات المعدنية من أساور وخواتم وسلاسل وعقود ، وكتب الأدعية المنجية ، ونسخ القرآن الكريم ، وقصة الاسراء والمعراج وما جرى لصريع كربلاء يوم عاشوراء ، ومناقب والده الكريم ، اسد الله الغالب ، على بن أبى طالب ، تلك لوحة ملونة يبدو فيها جالسا ، عن يمينه الحسن وإلى يساره الحسين ، وتلك لوحة فيها البراق ، من حمل أكرم الخلق أجمعين عند بدء المعراج ، وسبحان من أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، وتلك لوحة واحدة من أجل سادتى ، الشيخ أحمد البدوى ، ملثم الوجه ، ممسكاً بيده سيفا ، ولوحة لأبى زيد الهلالى سلامة يشهر رمحا ، عند كل زيارة يتوقف أبى ، يحكى لها ما تقوله كل لوحة ، غير أنه هذه المرة صامت ، أرى ترقرق ملامح أمى عند اقترابها من مدخل المسجد الخلفى المخصص لدخول النساء ، قبل عبورها العتبة الخشبية يوقفها أبى ، يمسك ذراعها ، تولى وجهها ناحيته ، أصغى أنا مشفقا ، يقول أبى : شوفى يا بنت الناس ، ربنا قسم لنا أن نعيش معا ، وكما رأيت أنا لا أبخل عليك ، ولا أخفى عنك ما يرزقنى به ربى ، حلفتك بالله ونبيه وابن

بنته الكريم القاصدين زيارته ، ألا تفضحيني في جهينة ، كلام الناس كثير!! رأيت وجه أمي ، ألحظ شحوبها وضمورها ، تغيرت ، نحلت ، كأنها فقدت نصف وزنها ، أرى التأثر في عينيها ، ليس هينا عليها أن ترى أبي هكذا ، يرجوها ، تترقرق دموعها ، يبسط أبي يديه موليا وجهه شطر مثوى الرأس الطاهر ، يقول : الفاتحة لابن بنت رسول الله ، هنا تغيم الرؤيا فأولى البصر بعيدا ، صرت من التأثر في حال ، تلك لحظة ترقرق بين أبي وأمي ، يعجز كل منهما عن احتوائها بالألفاظ فيعبران عنها بالصمت ، أو يلوذان به ، أبي أهدأ الآن ، بعد غد سيسافران إلى البلدة ، أول عودة لأمي بعد مجيئها إلى مصر ، يقطعان الشارع صامتين ، راضيين ، أرى ليالينا الآمنة ، عندما تفرغ أمي من الطبيخ ، ننتهي من عشائنا ، نتمدد تحت الأغطية ، اصغى وأنا على حافة النوم إلى حوار أمي وأبي ، يتدبران أمور الغد الآتي ، أو يتحدثان عن جهينة ، أخبار الناس هناك ، من جاء ، من سافر ، من مات ، من ولد ، من تزوج ، ومن أنجب ، ومن فتح الله عليه ، يتخلل حديثهما الصمت ، فأسمع من الكلام فيه أكثر مما اسمع في حوارهما ، يسرى إلى اطمئنان ، وانام ملء جفوني ، هادئ البال ، راضي الخاطر ، فأين ولى ذلك يا قوم؟ وأين راح ماكان مني وكنت منه؟ فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون . عند هذا الحد كدت أذرف دمعا غير أن عيني لم تجودا به ، وأوعر الدمع ما احتبس وامتنع ، تردد هديل يمامة الظهيرة النائي في سمعي ، وكأن سادتي رقوا لحالي . واشفقوا عليّ من خبيئتي المكنونة فأسمعوني نزرا يسير مما حننت إليه ، اصغيت راضيا واجما ، فكان حالي كما قيل في المعنى ..

رب ورقاء هتوف بالضحى ذات شجو صرخت في فنن

ذكرت إلفا ودهرا صالحا وبكت شوقا فهاجت حزني

فبكائى ربما أرقها   وبكائها ربما أرقنى
ولقد تشكو فما أفهمها   ولقد أشكو فما تفهمنى
غير أنى بالجوى أعرفها   وهى أيضا بالجوى تعرفنى

وأنا مصغ ، جاءنى الأمر بالنظر مع انقطاع هديلها عنى ، فنظرت صاغرا ، وإذا بى أرى أبى فى نشأتى الأخرى ، ماله مهموم هكذا ؟ ماله تائه النظرة ؟، إنه ينتظر أمي الأخرى ، تجيء هذه الليلة عقب قطيعة استمرت عامين لم يقربها فيها ، غير أن ظروفا أدت إلى هذه الخلوة المرتقبة ، منها تعب أمي وارهاقها الدائم بين عملها الصباحي ، وعملها المسائى ، غير أنها اليوم وقعت عقدا يضمن حقوقها فى وظيفتها المسائية هذه ، أضفى عليها ذلك أمنا وطمأنينة ، عملها الصباحي يمكن أن ينتهى فى أية لحظة ، مجرد هذا الخاطر ارجفها رعبا ، إنهم غرباء ، ضعاف ها هنا ، ماذا سيفعل ابنها ـ الذى هو أنا ـ إذا ما تعطلت فجأة ، واضطر والده إلى ترك عمله فى هذه السفارة ؟ مجرد التفكير يصيبها بالوهن ، فماذا لو تحقق ذلك ، لا تطيق يوما يأتى يطلب ابنها شيئا ولا يمكنها أن تلبيه ، كأن يرغب فى السفر إلى مصر خلال أجازته ، أو ليشبع احدى هواياته التى تبدأ فجأة وينفق فى سبيلها ما ينفق ، ثم يهجر كل شيء بلا مقدمات ، لم أعرف شيئا عن هذه الهوايات ، ولم أدر شيئا عن نشاطاتى فى نشأتى تلك ، وإن ادركت أن أمي هذه تغدق على ، فعندى حجرة تخصنى ، بها جهاز عرض تليفزيونى ، ومكتبة أفلام ، وجهاز لاستماع الموسيقى ومذياع متقدم يلتقط الموجات السارية بين النجوم ، وعدة ساعات ، وقمصان ، وآخر صيحات الأزياء ، وكثيرا ما يدس أصحابى من أبناء هذا البلد بعضا مما لدى فى جيوبهم ، ولا أبالى ، كنت بحاجة إلى بقائهم معى ، والحديث إليهم ، والخروج معهم ، خاصة بعد ابتعاد لور عنى أو ابتعادى عنها ، وكنت فى دهشة من أمرى ، فبعض من زميلاتى يحِنّ إلى ، وأنبئ أمي ، فتخبر أبى ، يحرصان على

تركى منفردا معهن ، بل يبدو السرور على أمى ، وقد يداعبنى أبى بما لا استجيب له ، ومع ذلك لم يطق علاقتى بلور ، عند هذا الحد من ذلك المقام كرهت متابعة نشأتى الأخرى ، شحب فضولى ، وضاعف هذا حنينى إلى أبى وأمى ، تمنيت أن يثبتنى شيخى الأكبر عند هذه اللحظة التى اجلس فيها إلى أمى فوق سطح البيت القديم فى الشمس الشتوية ، والهديل المخملى الغامق فى مسمعى ، غير أننى سمعت صوتا يشبه صوت شيخى الأكبر..

ـ «ألم تتمن يوما أبا غير أبيك ؟» .

ـ «اعترفت بذلك فالسماح ..» .

ـ «ألم تخجل من فقرك ؟» .

ـ «قلت إن ذلك كان فى زمن جاهليتى ..» .

ـ انظر اذن ولا تحيد ..» .

ها هو ذا أبى فى نشأتى تلك ينتظر مجىء أمى ، اليوم مشى فى الصباح الباكر أمام مكتب الشركة المصرية للطيران ، تأمل نموذج الطائرة ، وصورة الأهرامات ، والكرنك ، واعلان يشجع الزائرين ، لو أنه بقى ، لو أنه لم يسافر ، يستعيد وجه هذا الضابط الممتلئ قليلا ، كان يرتدى جاكت من الصوف الأزرق القاتم ، إن ضابطا فى سترة رسمية ونجوم مذهبة على كتفيه لا يخيفه بقدر الجلوس مرغما إلى من يعرف أنه مقدم أو عقيد ويرتدى ثيابا مدنية ، بعد الحديث عن سفره لماذا سافر ، وفى أى مؤتمر أدبى شارك ، ومن رأى ، ومن صاحب ؟، افصح عن غرضه ، وطلب منه ان يراه كثيرا ، وأن ينقل إليه ما يسمع خاصة من الشبان الجدد ، أراد أن يكون الرفض مهذبا ، غير أن الضابط ضحك قائلا ، اتظن أنك ستفلت منا ؟، اعتاد رؤيتهم أمام البيت ، احدهم همس إلى البواب عند مروره ، رنين الهاتف فى الخامسة صباحا ، سماعه من ينادى باسمه فى الطريق ، يلتفت ، لا أحد ، رنين الجرس

فى الحادية عشرة أو الثانية عشرة ليلا ، يقف المخبر مبتسما بتحد ، بوقاحة ، حاملا الاستدعاء ، امتلأت الشوارع بجمع منهم ، وزاحمه من ينتمى إليهم ، وتهددته الأخطار ، قال لنفسه ، الفرار ـ عند عدم الطاقة ـ غير مذموم عند كل أحد ، ولما صارح أمى ، قالت له ، على ألا تكون فى ناحية وأنا وابنى فى ناحية ، سنأتى معك ، حتى جاءت الفرصة وحانت ، فخرج خروجا لا نية للرجوع معه ، والغريب العجيب أنهم لم يعطلوا لحاق امرأته وابنه به ، فكأنهم ما ارادوا إلا دفعه دفعا إلى الهجرة ، والابتعاد ، وكأنه بسفره حقق لهم ما ابتغوا ، فحقت عليه الشقوة ، تجىء الأخبار بدخول صحبه السجن ، فيحسدهم على فقدان حريتهم ، هو الذى يتنقل كيفما شاء ، ويرى من البلدان ما لم يحلم برؤيته يوما ، لكن شتان ما بين رؤية ومشاهدة ، وأمام الخلق يبرر ، فما الابتعاد إلا للحفاظ على الذات ، وما الاقامة هنا إلا لخدمة من هم هناك ، لكنه يعى ويعرف ، أنه فى الترحال اضاع ما أضاع ، ولم يعد لديه ذخرا للأيام الباردة القادمة ، وكان الشعر أول من امتطى الفلاة وغرّب ، فالفرار أبدا ، والفرار دائما ، وما من ملجأ يرتجى ، وما من مثوى ، أراه بمفرده فى صالة البيت والليل موغل ، أمى هذه فى حجرتها عارية تبكى ، تعض وسادتها حتى لا يرتفع نشيجها ، يبدو أن مسعاها خاب ، والسبل التى ابتغت منها الوصل انقطعت ، أبى فى نشأتى الأخرى يطلب الوحدة والانفراد ، هذا حاله ، حتى إذا ماتم له ذلك حن إلى الأنس والألفة ، فتمضى أوقاته ثقيلة غائمة ، جدباء من كل فعل مجد ، يقول للسامعين السائلين إنه مشغول فى عمل كبير ، إذ يحاول ، يبدأ فى تهيئة الجو ، يعد لنفسه الشاى ، يرتب الغرفة ، ينفض غبارا لا وجود له ، يمسح عويناته مرات ، يدخن بتأن ، يقول : سأبدأ بعد فراغى من التدخين ، نسى الموسيقى ، يدير الجهاز ، لا يطول استقراره فى مقعده ، الصوت أعلى مما ينبغى ، يرتب الأوراق ، الأقلام ، يترل داخله ثقل ، ما من

شاردة استقرت . ولا واردة أتت ، وأعظم العذاب يا اخوانى عدم التمكن من الغرض ، لكنه يقول ، ربما جاء الغد بالأفضل ، يخرج إلى الطريق وعنده راحة وبه تعب ، راحة لأنه انهى وقت العجز والحيرة ، وتعب لأنه لم يتم ما شرع فيه ، يمشى معاهداً النفس على ألا يضيع الزمن الآتى ، فى السفارة يتحدث إلى صحبه عن دراسة سيتمها ، أثر الغربة على الإنسان العربى ، وإذ يلمح لا مبالاتهم وقلة اكتراثهم ، يقول ما معناه إن هذا البحث سينطلق من الخط الفكرى لهذا البلد ، يواجهونه بالصمت ، كأنهم يقولون ، نحن نعرف ما تقصده ، عندئذ يطلب بعض المؤلفات المطبوعة فى هذا البلد ويخص بالذكر كتابا أو كتابين لقائد البلد وزعيمه الملهم ، عندئذ يجيب المستشار الثقافى بإيماءة ، إذ أنه لا يقدر على مواجهة طلب مؤلفات الزعيم بالصمت ، يقول إنه سيرسل فى طلبها ، بعد انتهاء عمله يخرج إلى الطريق ، يفيض الخجل منه ، يلجأ إلى مقهى بعيد ، يحتسى النبيذ حتى تخف اثقاله ، فيلعن الغربة ، والضعف الملازم لها ، واضطراره إلى معايشة من لا يقدر على البوح برأيه فيهم ، أحيانا يسبهم بصوت مرتفع ، ثم يتلفت حوله حذرا ، صحيح أن المقهى بعيد ، لا يرتاده عرب ، لكن الحيطة واجبة ، إنه غريب ، مضطر ، والمضطر يرى نفسه كالغريق فى البحر أو الضال فى متاهة ، وهو يرى عنانه بين يدى سيده وزمامه فى قبضته ، فهو كالميت بين يدى غاسله ، ولا يرى لنفسه استحقاقا لنجاة ، لاعتقاده فى قرارة روحه أنه من أهل السخط ، لا يقرأ اسمه إلا فى ديوان الشقاوة ، اعلموا يا احبائى انى رأيت من أحوال أبى فى نشأتى الأخرى أموراً جسيمة ، مؤلمة ، حزينة ، ذكرت بعضا منها فقط ، فافهموا ما أشرت إليه فى هذا الارتباط ، فإنه منبئ عن أمور شتى ، ان لم تتحققوها زلت بكم القدم فى مهواة التلف ، واكتفى بالدعاء على الظالمين الذين شتتوا أبناء الوطن ، وإن كنت لا أتردد وأنا قصى بعيد عنكم البعد السحيق ، خارج الأكوان كلها ،

فأنصح بعدم مفارقة الديار إذا حل بها ظلم أو عهر ، حتى وان أدى الأمر إلى سبيل الاستشهاد ، وخذوا العبرة من سيرة الحبيب الوفى سيدنا وإمامنا الحسين ، وعند هذا الحد عرفت أن أبى هذا له نشأة أخرى ، لكننى لم أقف عليها ولم أطلع ، ويبدو أنه غير مسموح لى بذلك ، فأمرى إلى صاحب الأمر ، فإليه يرجع الأمر كله ، عليه توكلت وإليه أنيب ، غاب ما أراه عنى ، وتلا شيخى الأكبر فى أذنى ومسامعى .. «فإذا فرغت فانصب ..» .

التفت إلى شمالى فأرى أمى ، أم نشأتى الأصلية ، من هى فصلى وأصلى ، وأول منازلى ، لمت نفسى لأننى نأيت عنها ، مع أن أمرى ليس بيدى ، فإلى ربك الرجعى ، أراها حبلى ، وهى لا تعرف أذكرا أم انثى فى رحمها ؟، أما أنا الذى لم يوجد بعد عندها فأدرى ، فى رحمها ولد ، سيصبح اسمه خلف ، سيطلب فى رسالة يكتبها من مصر أن يطلقوا عليه اسم الرجل الذى تسبب فى جريان رزقه ، مع أن البون بينهما وقتئذ شاسع ، لكن قلب أبى وسع الجميل وحفظه ، والحفظ حنو من الحافظ على المحفوظ وحرص ، لهما الرحمة الكبرى يوم التناد ، وحسن العقبى يوم يجمعنا ليوم الجمع ، أرى أبى وأمى ينزلان من «الحلزونة» ، الأتوبيس ذى الطلاء الأخضر ، عند ترعة البئر ، النقطة الوحيدة التى تتوقف عندها العربة التى تمر بناحيتنا ، فوق الجسر ، يقف المنتظرون ، جمع من الأقارب : جدتى وخالى ، والشيخ عبد اللطيف ، وأبو الغيط ، ومحمد أحمد وأخوه يونس ، وهما ممن رأيا أبى عند خروجه من ديار هذا الكون ، وودعاه ، ودخلا عليه فى رقدته الأبدية ، وأقسما للناس أن أحمد الغيطانى كان متبسما ، ضاحكا فى موته ، وأن جسده كسى لونا من ألوان النعيم ، وعند اسرائى من مدينة فاس كانا يسعيان فى الحياة الدنيا ، فهما ممن يرد على خاطرهما أبى الآن . ولا أدرى

فى أى صورة يستعيدانه ، ولا فى أى موقف يتذكرانه ، أمد خالق عمريهما ، رأيت محمد أحمد مديد القامة ، يتطلع إلى أبى وأمى ، يثبت البصر على هزال الوالدة الكريمة ، وضمورها ، وشحوب لونها ، حتى بطنها لا يتناسب حجمه ابدا مع شهرها الثامن ، هاله ضعفها ، كذلك الأمر مع المنتظرين ، المترقبين ، تمتم محمد أحمد «عملتها يا ولد الغيطانى» ، يقصد أن أبى لم يحافظ على الأمانة ، وانه بهدل البنية فى مصر ، ضقت أنا بخواطر القوم ، كرهت تحاملهم على أبى ، لكن أنّى لى التدخل وأنا بمعزل قصى ، احاطوا بها ، النساء يرمقنها بإشفاق باطنه الشماتة ، والرجال يرددون النظر بينها وبين أبى كأنهم يقولون ، انظروا ماذا فعل بها ؟. تتوالى اسئلة النسوة بصوت مرتفع ، متعمدات ، قاصدات اسماع أبى ..

ـ مالك ؟ عيانة ؟ ياكبدى لونك مخطوف ؟.

تمصمص امرأة اسمها عائشة تمت إلى أمى بقرابة . تتمتم وكأنها تحدث نفسها .

ـ يا عقلى جرى لك ايه فى مصر؟

غير أن أمى لا تستجيب للعطف البادى ولا تتأثر ، تتوقف عن الخطو ، تتطلع إلى الخلف، تنادى بالنظر أبى الذى يمشى متعثرا خجلا ، وعد هذا جرأة منها ، إذ ليس من عرف هذا الزمان أن تنادى الانثى رجلها على مرأى ومسمع ، أبى يدرك العلامة ، يمد الخطى ، يلحق بها ، تقول له : القفة ثقيلة عليك ؟، يتبدد ضنكه ، تختلج مشاعره حتى أنه لا يجاوب ، غير أنه يلزم جانبها فلا يحيد، يتم الوصول إلى بيت خالى الذى ولدت فيه، هاهى ذى منفردة بجدتى وخالى يستجوبانها عن أحوالها ، فتقول إنها فى أحسن حال، وأن أحمد ابن حلال ، يأخذ باله منها ، لا يغيب عنها إلا زمن شغله ،

فيقول خالى غاضبا : لكنك نزلت النص ؟ تقول إنه الجو ، يتساءل حانقا : أى جو ؟ يشير بيده ، مقلصا ملامحه ، تمد أمى الكف : اسكت يا محمد ، أحمد لا يستحق هذا ، ينظر إلى جدتى ، شوفى البنت ؟ ، أرى توافد النساء عليها للسلام والمعاينة ، يسألنها عن أحوالها ، لماذا تبدو شاحبة ؟ هل تأكل جيدا؟ هل بيتها فى مصر فسيح ، فيه هواء ؟ تدخله شمس ؟ لماذا تبدو ذابلة اذن ؟ لماذا تبدو هزيلة ؟ ، لا تطيق أمى لهجتهن التى تصطنع الشفقة ، هذا التقصى ، هذا التفرس ، يعاودن السؤال تلو السؤال ، صحيح عندك سرير؟ ، يعنى تركت نوم الأرض؟ ، لكن مالك ، لونك مخطوف ، وعظامك ظاهرة ، تقول إحداهن متظاهرة بتبرير حالتها ، يمكن صحتها لم توافق هواء مصر، تصدهن أمى بلطف ، تنفى ظنونهن ، ثم تنهرهن ، عيب تجيبوا سيرة أحمد أمامى ، تمصمص إحداهن شفتيها ، والله يابخيتة بقى لك رجل تدافعين عنه ! تقول جدتى التى ظلت صامتة ، عيب يا ناعسة ، أمى تكره مقابلتهن ، تود لو انطوت الأيام وعادت إلى مصر ، .لا يدعنها أبدا ، حتى عند عبورها الرحبة أو وقوفها أمام البيت ، يتغامزن بالنظر ، احداهن قالت صباح اليوم، من يوم حاءت بخيتة إلى البلد وزادت وتحسنت ، فى الليل تخلو جدتى إلى نفسها ، تقوم لتتأمل أمى الراقدة ، تجزع غير أنها لاتبدى ، تفهم لكنها لا تصرح ، فيما بعد ، بدأت ترسل مع كل مسافر قفة فيها أرغفة ، وحمام مذبوح وبطة أو أوزة ، وسمن ، ودوم أو بلح ، وملوخية جافة ، رأيت ميلاد أخى خلف فى البلدة ، رأيت ميلاد أخى كمال فى مصر ، فى هذه الغرفة الضيقة ، الرطبة ، ها هى ذى تتمدد فوق المرتبة ، متورمة الجفنين ، هزيلة ، حتى أننى جزعت وخفت ، أم هدهد تدخل وتخرج عليها ، أما أبى فيسعى ، إنه لا يقدر على الانقطاع عن عمله ، فالأجازات ممنوعة بسبب الحرب ،

قلق ، خائف ، مشفق على أمى ، شددت عليه ألا يكتب حرفا إلى البلدة ، ستنزعج أمها وقد يترك أخوها حاله وماله ويجىء إلى مصر ، لن يجد مكانا ينام فيه ، لأم هدهد الجارة ابنة تعمل ممرضة بأحد المستشفيات ، عندما رأت أمى قالت إن بقاءها هنا مستحيل ، الرطوبة والعتمة وقلة الهواء تسبب فى حمى النفاس هذه ، أم هدهد ضربت يدها بصدرها ، وأين تذهب البنية ، ما من قريب يتردد عليها ، إنها وحيدة ، فردانية ، والنبى أوصى على سابع جار ، وأمة المسلمين بخير ، والله لن تقيم إلا عندها ، رأيتها تمدد حشية ، وغطاء بيتها ، تستقبل أمى المريضة وطفليها ، خلف الصغير ، وكمال الأصغر الرضيع ، إذ تغمض أمى عينيها تنهر ابنتيها عن اتيان أية حركة ، أو احداث ضجة توقظ النفساء الوحيدة ، إذا بكى كمال تحمله ، ترضعه من زجاجة اللبن ، كمال هو الوحيد من بيننا الذى لم يرضع من صدر أمنا ، وإذا عاط خلف تهدئه ، تهدهده ، تسخن الماء ، تسقيها الأقراص التى اتت بها الابنة من عند حكيم المستشفى ، إذ يدخل أبى معلنا عن مجيئه بقوله «يا ساتر» ، حاملا البيض أو الخضار أو لحم الضأن ، تحتج أم هدهد ، البيت فيه ما يكفى ، لماذا التعب ، لماذا يكلف نفسه ؟، لكن أمى تشير إليها من مرقدها ، وأثناء خلوتها بأبى قالت له إن الجماعة حالهم عسير ، وإن المرأة تعول يتيمتين من دخل يسير يأتيها من ميراث قدره ربع بيت فى حارة الكحكيين ، لم يدخل أبى طوال رقاد أمى ويده خالية قط ، عرفت لأول مرة فى هذا المقام الوعر أن رقاد أمى دام أربعين يوما بلياليها ، وأنها عاشت ممتنة للمرأة التى كانت لها أقرب من ذوى الرحم ، وبها أرفق ، جاءت الابنة الممرضة تزور أمى فى حجرتها ، قالت إن هذا السكن ضار ولابد من تغييره ، وأنها هى ستسعى بنفسها ، عرفت أمى الطريق إلى شقة أم هدهد ، وعرفت أم هدهد سكنها

إلى الغرفة ، إذا طبخت أمى لحما ومرقا تغرف مقدار طبق وتصعد به ، وإذا قلّت أم هدهد زلابية ، أو سوت كشرى ، أو طبيخا تجىء إلى أمى بطبق . جاءت الابنة المرضة بغرفة وصالة فى العطوف ، غير أن أبى قال إن إيجارها وقدره سبعون قرشا لا يتحمله ، ثم جاءت بغرفة أخرى فى حارة درب الطبلاوى بقصر الشوق ، لها دورة مياه مستقلة ، وأمامها سطح فسيح يخص قاطن الحجرة ، لا تفارقها الشمس طيلة النهار ، صحية ، هواؤها نقى ، أرى يوم فراق أمى لهذه الغرفة التى أجهل موضعها الآن بحارة حوش آدم ، ليتنى صحبتها يوما لتريني إياها ، إذ ارجع ، بعد انتهاء سريانى هذا ، إذا قدر لى الرجوع ، سأشرع ، سأصحبها لتريني هذه الحجرة التى فارقتها وهى حامل بى ، لكم عانقت أم هدهد ، لكم أوصتها بالزيارة ، استأجر أبى عربة يد صغيرة ، فالمتاع قليل ، مرتبة ، ولحاف ، ومخدة ، وقفة ثياب ، وحلتان من النحاس للطبيخ ، وبراد الشاى ، وأربعة أكواب زجاجية ، وسكين ، ومصفاة للطماطم ، ولفة حبال لنشر الغسيل ، ها هى ذى تقعد أمام غرفة فسيحة ، على حجرها كمال ، وأمامها خلف ، وفى رحمها أنا ، الهواء والشمس ، والسقف المرتفع يسنده سبعة عشر عمودا خشبيا ، السطح فسيح ، فى أقصى ركنه الأيمن ، وأقصى الأيسر ، عامودان خشبيان ، يمتد بينهما سلك ، ينزل منحدرا عبر المنور ، انه هوائى المذياع الوحيد فى البيت ، بالطابق الأرضى عند أحمد عمر التاجر زوج الست وجيدة ذات الأصل التركى ، تلك أول غرفة وعيت على جدرانها وحانى سقفها ، وهذا السطح المتسع ، كل دنياى فى صباى . وعلى حواف سوره مشت تلك اليمامة ، آه .. يا هديلاً ولى ، أيام الهوى ذهبت كالحلم ، أرى ميدان مولاى الحسين ، هذا يوم لا أذكره ، فالضوء غريب ، والزمن مجهول ، أما المبانى المطلة على الميدان

فواجهاتها متشابهة ، لم أرها أنا ابن هذه المنطقة ، من أودعتها ثلاثين من عمرى ، هذا أبي وتلك أمى ، أنا بصحبتهما ، يتقدمنا الوالد بمقدار ثلاث خطى لا تزيد أو تنقص ، إننا نبحث عن مطعم رخيص نأكل فيه ، لكننا لا نجد ، كل الدكاكين مغلقة ، والمقاهى ، وباب مسجد عتيق ، أرى نفسى متقدما فى العمر ، ارتدى قميصا أخضر ، اجلس إلى صاحب لى هو مقيم فى بلاد الانجليز ، نحن فى صالة بيته بإحدى ضواحى لندن ، يكتب شيئا ما فى ورقة ، أقول له إننى فى الخريف القادم سوف أسافر إلى بلاد الانجليز مع أنى أرى نفسى فى بلادهم ، غير أننى اتحدث وكأننى فى مصر ، ولم أدر سر ذلك ! ، أرى أبى أمام مبنى غريب ، قصر ومسجد معا ، الماء يسيل من حوافه ، يمسك دلوا من رخام ، يومئ إلى ، لكننى لا ألبى ، فيولى ظهره ، ويدخل مع الداخلين ، ابقى وحدى ، ثم رأيت شابا مقبلا نحوى ، رأيته باسما فاطمأن داخلى ، اشار إلى فتقدمت ، تبعته ، حتى رأيت صاحبى الشهيد يجلس إلى منضدة مستديرة ، نفس الهيئة التى تركته عليها فى مدينة فاس ، ينقش الجلد بالمطرقة ذاتها ، كأنى انظره فى عالمه الأرضى ، كأنى لم أفارق ، ولم أعرج ، ولم أعرف لحظات البعاد الأولى ، وما أمرها وما أكثرها وما أطولها رغم قصرها ، يتطلع إلى بعينين صافيتين ، يقول لى :

خلاص ؟.

أقول بسرعة :

ـ لا ..

يقول لى :

ـ لا تنس أن الموت الحقيقى يبدأ مع اكتمال النسيان ..

يرتجف فؤادى ، ولو أن قلبى معى لاضطرب ومال ، يستمر صاحبى الشهيد ..

ـ لا تنس ، إذا استمر ذكر الإنسان ، أو اللفظ باسمه بعد موته ، أو اجترار سيرته مع من أحبوه أو عرفوه ، فإنه يصبح فى اعتبار الحى ، لكن إذا تم النسيان .. يكون الموت ..

كدت ادرك ما وراء قوله ، وتذكرت شيخى الأكبر إذ يقول ، لولا الخيال لأصبحنا فى عدم ، كتمت رد فعل ، وامسكت على أنفاسى ، بينما يستمر فى دق الجلد بالمطرقة ، لا يكف عن النقش ، اشم رائحة جلد مدبوغ نفاذة ، أرى حقيبة بنية اللون اشتراها لى أبى فى أول سنى عمرى ، لأضع فيها أولى كراساتى وأقلامى ، علمنى كيف افتح القفل ، وكيف أغلقه ، بدا مرحا ، بل إنه غنى ، وفى هذا المقام ادركت لأول مرة فرحه ، إنها المرة الأولى التى يشترى فيها حقيبة مدرسية ، إنها الحقيبة التى ود أن يحملها يوما .. عاودت النظر إلى صاحبى الشهيد وأنا مرقرق العبرات ..

ـ «ولماذا يكون المحاق ؟» .

يقول :

ـ «لكى تولد الأهلة والشموس ..» .

أعاتبه :

ـ «وتلومنى ..» .

يلوح بيده الخالية ، وكأن ما يطلبه هين ، بينما يده الأخرى لا تكف ..

ـ «مع الزمن يقل عدد الذاكرين ، فيطمع الراحل فى اطالة امده ..» .

لمحت الشاب الذى دلنى ..

ـ «من هذا؟» .

يقول صاحبى مبتسما ..

ـ «من هذا ؟ إنه مازن أبو غزالة ..» .

اسدد البصر مرة أخرى فلا أراه ، صاحبى الشهيد يجلس موليا ظهره

ناحيتى ، أناديه فلا يلتفت ، يصمت فلا يحاورنى ، يتردد فى سمعى هديل اليمامة ، والسماء ذات الرجع ، والأرض ذات الصدع ، إنه لقول فصل ، وما هو بالهزل ، عرفت أن هذا آخر العهد بصاحبى الشهيد ، فالرحمة ، الرحمة ، من بعيد ، دان ، وافهموا شجنى وشجوى يا أحبائى واخوانى ، فهمنى الله وإياكم سرائر كلمه ، وهدأ خواطرنا المكلومة ، آه يا عظيم السلطان ، يا واسع الرحمة ، يا عميم الإحسان ..

* * *

سَريان بَين مقامين

إن الممكنات لا تتناهى
فما بالكم باللاممكنات؟

.. إنى على سفر عظيم ، رحيل فى رحيلى ، فإلام المصير؟ ، عند ولوجى هذا المقام كنت أشبه بمن سيشرع إلى محلة لن يبلغها إلا بشق الأنفس ، لا يعرف ما سيجده إذا ما بلغ ، وعند الوصول لا يدرى إن كان سيقف على ما فارقه أم سينقطع عنه إلى الأبد؟، وهذا عين حالى أنا المسافر دائما ، المغيرب أبدا ، فأنا قاعد فى قيامى ، قائم فى قعودى ، والتفكير فى السفر أو البدء فيه باعث للأحزان ، لأن فيه فراق الأوطان والأحباب ، وهذا حال حيرنى وكدر صفوى ، ذلك أننى كنت فى أيامى مع أهلى وصحبى أحن إلى رؤية ما تقع عينى عليه أول مرة ، أتوق وأصبو ، وأسعى ، وأبذل الجهد ، حتى إذا تم مرادى انقلب علىَّ امرى ، وذلك لفراق الأحباب ، وفراق الأوطان ، وعند وصولى إلى أرض غريبة ، يعكمنى ألم وضيق ، وأنوح بلا دمع ، إذ أكره مواجهة من يجهلنى وأنا من المستضعفين ، أما أشد السفر قسوة ما يجبر عليه الإنسان ويعرف هذا عند الجماعة بالنفى ، وقد خبرت هذا كله ، فماذا افعل أنا المجبول على الشوق دائما ، أنا خير من يعلم أن من اشتاق سافر ، ومن سافر ابتعد ، ومن نأى غرب ، ومن اغترب ضاع وفقد ، ومن ضاع لا يرجع ، ماذا بيدى أنا المجلوب لى الشوق كلما تنفس شاك أو تألم ذو وجد؟ أنا من يروم الجوى دائما ، واثقل ما عانته عينى إذا بان أحباب وعز إياب ،

إذا استعصت لحظة عابرة على الاستعادة ، قد تبدو فى أنظار الآخرين غير ذات معنى ، لكنها عندى المقال كله ، ماذا أفعل ؟ ليتنى أفهم اغترابى . وأصل إلى لب برهانى ، ليتنى قادر على اطلاق لسانى ، وسبر اغوار جنانى . فيا كل غناى . ومدى سؤلى ، وغاية رغبتى ، وموضع آمالى ، ومكنون اضمارى ، لماذا أزج فى سفر داخل سفرى ، لم أدر أننى مقبل على السريان فيما لم يعرفه بشر.

يتقدمنى شيخى الأكبر محيي الدين ، افهم عنه أن كل ما سأفكر فيه سأراه ، فلن توجد المرئيات لأراها ، بل ستتجسد لأننى أريد رؤيتها ، وهذا عظيم جلل ، لم يعرفه كريم ممن سبقونى ، كل ما أطلبه أشاهده عدا المحظور الذى طال التنبيه عليه ، رأيت الآتى فى الماضى ، والأزمنة الثلاثة ، والأحوال الثلاثة ، طلبت السريان فى الأصول ، رأيت الذرات سابحة فى السدم الجبارة ، بعينى الانسانيتين ، شاهدت الذرات التى لا يمكن للبصر ادراكها ، إنها أصل نشأتى ، هذا تفرقها ، وتجمعها ، ثم تشتتها ، ثم تلاقيها ، اتحادها لإخراج صورتى ، ثم توزعها ، بعد فنائى ، وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع ، رأيت جدا بعيدا ، من جهة أبى ، طويل الشعر ، يمسك جذعا غليظا ، يمشى فى فلاة قاصدا جمعا من الإخوان ، رأيت جدا لأمى فى زمن سحيق ، يطل عبر كوة ضيقة إلى بسطة من أرض غريبة الألوان والتكوين ، حاولت الاستواء فى مواجهته غير أن ذلك لم يدم ، إنما رأيت مستقبلا قادما ، لن أبلغه قط ، هذا رجل نحيل ، يغطى رأسه بخوذة معدنية لا أعلم لأى غرض ، أما لباسه فغريب ، لاصق بجسده ، هذا يمت إلى بصلة ، إنه من نسلى ، لى فيه باع ومقدار ، لا يعرف شيئا عنى ، ولا عن أبى وأمى ، وجدى وجدودى ، هذا زمن شديد النأى

عن عصرى ، بل إن زمنى لا وجود له ، ولا ذكر فى هذا البعيد الآتى ، يشيرون إليه قائلين ، الحقبة المجهولة ، ادقق فى ملامح حفيد أحفادى ، اتعجب واسلو ، ثمة شبه بينه وبين جدى الذى رأيته فى تجليات الأسفار ، الذى خرج إلى هجاج عظيم ، باحثا ، منقبا عن السر والجواب الذى حيره وأقض مضجعه ، النعامة ، أطير هى أم حيوان ؟، أعاود النظر لأتملى واستزيد لكننى اسرى على الفور ، رأيت الحدود كلها ، ولولا الحدود لما ظهرت الفروق ، مرج البحرين يلتقيان ، رأيت زمنا آتيا ليس ببعيد ، ما من حى فيه يذكر أبى أو يستدعيه بصور المخيلة ، وتذكرت بوعيي البشرى خواطرى بعد خلو الدنيا من تردد أنفاس الوالد الكريم ، إذ أحاول أن احصى من عرفوه ، وصاحبوه ، وكان لهم معه رفقة ، أقول إنه لابد يرد على خواطرهم وإن فى صور خاطفة عابرة ، أو يمرق فى أحلامهم التى تنسى بعد اليقظة ، كنت إذ اسمع بموت واحد من أحبابه أو اصحابه أحزن ، وأودع جزءا اتوهم أنه كان متبقيا ، حتى أشهدت فى سريانى هذا ذلك الزمن حيث لا يوجد إنسان واحد ممن سمعوه ، أو رأوه ، أو وقعت اعينهم صدفة عليه ، فارتوى اساى بقطر جديد ، حتى مأواه الأبدى لا أثر له ، وقد سبق أن رأيت عبر هذه التجليات مبنى معدنيا فى موضعه ، لم أدر محتواه ، لكننى فى هذا السريان أرى حديقة مغطاة بحشائش لم أرها ولا أعرفها فى دنياى وعبر كل تجوالى وأسفارى ، لمن الحديقة ؟ لمن الزهور؟ لمن هذه المقاعد؟ من يتردد عليها ؟ أين مستقر عظام أبى ؟، أين عظام أمى ؟ لكن لماذا اسأل عن أمى ؟، أليس هذا بزمن بعيد قادم ؟ اتظن يا عليل الخاطر أنها ستبلغه ؟، نعم .. أعرف أنها لن تصل إليه ، لكننى مرجف ، مبلبل ، عندى القلق كله ، وعدم القدرة على التحقيق ، فالرحمة يا قداح ظنى ، والهوينا يا قوى رجائى ، فلا تسألن عن

شيء حتى أحدث لك منه ذكرا ، صدق ربي العظيم ، وانى قابل بما تقضى به ، هذا تصريحى وعين حالى .

سريت إلى بعد سحيق لا يمكن للعقول أن تدركه ، تلك مجرة تضمحل ، تفنى ، اعرف بالتلقى أنها تحوى بعضا من ذرات وجزيئيات انتمت يوما إلى حضور أمى الدنيوى ، رأيت ناصية طريق مرصوف بحجارة قديمة ، على جانبيه حشائش وعند نهايته كنيسة صغيرة ، مهدمة الواجهة ، رأيت سلما ضيقا ، تصعده فتاة بهرنى طولها ، طول غير مفرط ، قامة سامقة ، رشيقة ، متناسقة ، فسبحان من سوى مثل هذا الجذع الإنسانى الجميل وجعله يدب ويسعى ، يسعد ويشقى .

رأيت شجرة ضخمة أصلها ثابت وفرعها فى السماء ، رأيت مصباحا خزفيا أزرق اللون ، رأيت محاراً غريب الهيئة على شاطئ بحر ، رأيت خلقا متباعدين كثيرين ، وفى هذا كله تفرقت ذرات من والدى ، لم استطع التوقف للتملى والتمكن ، كمن يحاول قراءة لافتة عبر نافذة قطار يمرق مروقا ، هذا غمام كثيف ، تلك قمم مغطاة بالثلوج ، بيضاء من كل سوء ، وديان لم يطأها بشر ، تراب ناعم كالدقيق لم تحركه نسمة أو رياح من العصور الأولى ، رأيت الرموز والأمور الملغزة ، رأيت الجمع فى التفرقة ، والوصل فى الفصل ، والمستقبل النائى ، حيث الصلاح فى المحل ، وظهور الدعاوى ، حيث يجود الأغنياء على الفقراء بما فى أيديهم ، ويجود الفقراء على الأغنياء بالقبول ، وإذا بالكل راض ، فلا فقير ولا غنى ، لا صحيح وسقيم ، إنما الجميع فى الصحة والعافية مقيمون ، رأيت زمن العدل ، الخلق كلهم يطوفون ببعضهم كأنهم ولدان مخلدون ، فى أيديهم اباريق وعلى ثغورهم ابتسامات الرضا ، وأمامهم كؤوس من معين ، رأيت نغمات الإحسان وأصوات الألحان ، وحنين

الغيب إلى المعلوم ، فسمعت فطبت فتحركت فوجدت فحمدت فحصلت لطائف الأسرار كلها ، هذه لور ، أنا من احببت ومن أحببت أنا ، تقبل كما عرفتها ، تحنو كما حنت ، كان حنينها عليّ دائما متصلا ، هذا الحنين الذى يتركز فى اللحظات التى تسبق الفراق ، ولكنها اسبغته على فى كل حين ، لور .. من لى بطلة من عينيك ، بشمة من شعر رأسك ، من الاشتياق ، من لى بنسمة من المحبة ، يا شفاء قلبى لما به من لطف المواجيد ، يا صفة غير موصوفة ، يا رقيقة الندى ، يا متواجدة أبدا فيما بين الضوء والظل ، فى نقطة انفراج الفرع عن الجذع ، من لى بك يا كاملة ، يا رقيقة ، يا حنون ، يا من عنصرها الأعظم الرقة والرحمة ، وعنصرها المنعدم ، الجفوة ، يا من لها غاية الطريق ، اسمك فى الصفات المقتدرة ، وفى الأفعال المجيبة ، أما حضورك فمن عالم الغيب ، لأنفاسك الانفراد ، والصوت ، والمدى الأنق ، يا من هى أنا ، وأنا هى ، ترتفع الأنوار والليل والظلم ، والشمس والغسق والليل وما وسق ، فتسطع سبحات العدل ، ينتفى المرض ، وما يعود إلا الصدق ، ويفنى الهم ، يسرى أمامى شيخى الأكبر ، اسمعه يخاطبنى ، يقول لى : قال واحد من تلاميذى فى الطريق ، قال الشيخ الجيلانى ما يناسب رؤياك عند هذا الحد من ذلك المقام ، أعلم ان الارادة لها تسعة مظاهر فى المخلوقات ، الأول هو الميل أى انجذاب القلب إلى مطلوبه ، فإذا قوى سمى ولعا وهو المظهر الثانى ، وإذا اشتد سمى صبابة ، فالقلب إذا استرسل فيمن يحب فكأنه انصباب الماء إذا أفرغ لامفر من انصبابه ، وإذا تفرغ له بالكلية ، سمى شغفا وهو المظهر الرابع للارادة ، وإذا استحكم فى الفؤاد ، سمى هوى وهو المظهر الخامس ، فإذا استوفى حكمه على الجسد سمى غراما ، وهذا أشد العذاب ، قال جل شأنه فى جهنم « ان عذابها كان غراما » ثم إذا نما وزالت العلل

الموجبة للميل سمى حبا وهو المظهر السابع ، ثم إذا هاج حتى يفنى المحب عن نفسه سمى ودا وهو المظهر الثامن للإرادة ، ثم إذا طفح حتى أفنى المحب والمحبوب سمى عشقا وهنا يرى العاشق معشوقه فلايعرفه ، كما روى عن مجنون ليلى. مرت به ذات يوم فدعته إليها لتحدثه فقال لها دعينى فإنى مشغول بليلى عنك ، وهذا آخر مقامات الوصول والقرب ، حيث لا عاشق ولا معشوق ، ولا يبقى إلا العشق وحده الذى لا يدخل تحت رسم أو اسم ولا نعت ولا وصف ، وحيث لا عاشق أو معشوق ، يقول شيخى الأكبر ، وقد ظفرت بما ظفر به غيرك من أهل المجاهدة والمعاناة الحقة ، فأتم سعيك ، واقصد سبيلك . يغيب صوته عنى ، يتوالى سريانى فى الأشياء ، أو سريان الأشياء فى ، أرى الحديد فوق الماء ، والزهرة تلدغ الحية ، والشجر يأكل الجراد ، السمك يسبح فى البر ، ويموت فى البحر ، أرى الزمن يمضى معكوسا ، فيولد الإنسان شيخا ، ثم يكبر فيصير شابا ، ثم ينضج فيصير مراهقا ، ثم يصل إلى الحكمة طفلا ، ثم توافيه المنية جنينا ، ويلفونه فى مشيمة الرحم ، ويشيعونه عبر فرج الأم إلى مثواه الأخير بالبكاء والنواح والعويل الطويل ، يختفى ، يتحول إلى نطفة ثم علقة ، يرتد إلى ما بين الصلب والترائب ، رأيت القمر بالنهار ، والشمس تشرق عند نزول الليل ، والهلال فيه الاكتمال ، وفى البدر النقصان والمحاق ، هذا طور مختلف من سريانى ، إنى منقلب وأنتم منقلبون ، قال خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى ، فرحت إذ رأيت جمال عبد الناصر ، يسعى بين الخلق ، يحكم بالعدل والحسنى ، يمشى بلا حرس ، بلا بصاصين ، الكل يقول له : طالت الغيبة ، حسنت الرجعى ، لم أدر أى زمن هذا ، رأيت نفسى مقتربا منه ، دانيا ، أقول له :

ـ «أما من فرصة لى معك ؟» .

يقول لى :

ـ «هل عرفت ؟» .

أقول : «لم يصح الكمال وأريده أن يصح» .

يقول : «اثبت» .

أقول : «لم تركت بيتك يخرب ؟» .

يتبسم قائلا : «لما استطالت عليه أيدى الأعادى حين أخليته فأفنيت ثم افنيت ، ثم خلفت الجلف الجافى فى قومى فهد لتخريبه ، فلما هد من قواعده ما هد رددت إليه بعد الفناء فأشرفت عليه فدارت الدورة دورتها ، وهذا أنا وهذا أنتم !» .

أقول : «وأين أنا ؟» .

يقول لى ابن عبد الناصر ، حبيب المظلومين ، نصير الضعفاء :

ـ «أنت ساكن» .

أقول له بحنو :

ـ «والساكن ارتحل» .

يقول لى :

ـ «الحق عندك ، وهذا غاية وسعى»

اتركه منتشيا ، ليس لأنى فهمت ، وانما لرؤيتى له وادراكى رجعاه ، أرى الخلق يبحرون فى البر ، ويشقون الطرق فى البحر ، أرى الحر بن يزيد الرياحى ، استبشر قرب حبيبى الحسين ، أقبله ، يرحب بى ، يسهل لى أمرى ، أقول له :

ـ «متى عهدك بك ؟» .

يقول لى :

ـ «منذ توسطت هذه اللجة ، وانحزت إلى جانب حسينى وحسينك» .

أقبله ، أودعه ، أرى كل شيء في كل شيء ،. الفناء قبل الخلق ، أقول ، هذه حكمته وهذا شأنه ، وهذا قضاؤه ، له الأمر ولنا الطاعة ، له التدبير ولنا الامتثال ، أرى ما لم أكن أعلم ، أرى صاحباً لى ، ابراهيم زيدان ، واحداً ممن راحوا فى الحرب المغدورة ، أقول له :

ـ « يا شابا لم تزل ، ارفع الهمة » .

يخبرنى :

ـ « مضى زمان رفع الهمم » .

أقول :

ـ « انسيت ما نبهتنى عليه » .

يقول :

ـ « بل أنتم الذين نسيتم ، ونسيتمونا » .

أقول :

ـ « بوركت من مقاتل ورجل » .

أقبله ويقبلنى ، يلوح لى زاعقا ..

ـ « خذوا بالكم من الوطن قبل أن تضيع الفريسة » .

سريت عنه ، اعبر ضبابا غريبا مرجانى اللون ، أمر مرور الكرام بعصور أجهلها ، أراها فى مجملها ودقائقها ، أسمع أنغاما يطرب لها القلب ، غير أن قلبى ليس معى ، ليس طوعى ، لمحت مقرنصات زمنى الأول ، أرى الميدان الذى يحمل اسم شفيعى ، أبى يعبره متمهلا مرتديا جلبابا من الكستور المخطط واللون بنى ، فأينعت أشواقى ، آه لو اظلل هذه اللحظة برموشى وظلال نظراتى ، لو اضمها بين يدى ، لكن يداى ليستا طوعى ، منفيتان عنى ، أود لو آتيكم منها بقبس ، رب خاطر يجول بأفئدتكم يا اخوانى ، وماذا فى لحظة

عابرة ، ما الذى يعنيه مرور هذا الأب فى ميدان الحسين ؟ اعرف أنه لا شىء بالنسبة إليكم ، ولكنه عندى تراثى وحفظى وصونى ، ولا يمنعنى هذا من تكرار الوصية ، فرب لحظة تنقضى لا يتوقف البال عندها ، وربما تكون باعثا للعذاب كله أو السلوى بعينها ، فلا تهملوا النظر ، وامعنوا الفكر فيما حولكم ، أشد ما آلمنى فى سريانى هذا تلك العصور التى سيمحى فيها اسمه واسمى ، رسمه ورسمى ، لن يعيش فيها من يذكرنا ، أرى وجوها صغيرة متضامة تنظر تجاهى ، اتشاغل بها حينا ، هذه أمى الحبيبة ، المشغول فى غربتى بها ، القلق عليها ، إنها تركب قاربا ، والنهر من ألوان ، أخضر وأحمر وأزرق كالسماء فى صفائها ، النهر ممتد وعند نقطة سينحنى ، وثمة جنود يقفون فوق قنطرة حجرية ، يتوسطهم ضابط يرتدى ثيابا معدنية ، أمى تلتفت ناحيتى ، تصيح ، تنادينى ، انزل يا جمال ، انزل ، انزل ، وأنا متشبث ، لا ألبى ، وعند حد معين تقفز أمى من القارب ، يتلقفها أبى الذى ظهر فجأة مادا يديه ، يديران ظهرهما للجند المدججين ، يسرعان ، يذوبان فى اللون الأخضر الغميق ، بينما يولى القارب فى النهر وأنا ألعن الفراق ، أرى احتفالا اسرائيليا ، جند منهم يصطفون فى فناء مدرستى القديمة ، ظهر منهم ثلاثة يرتدون لباس مقاتلى البحر ، ثم تكاثر جمعهم ، أحدهم يشبه البحار الملتحى الذى رأيت صورته على علب السجائر ، تحلقوا حول شىء لم أتبينه بداية ، وآن علمت أن بحثهم طال عنه ، أعرف أن ملفى فى المدرسة ، فيه درجاتى ، وشهاداتى حتى هذا الحين ، يشعلون نارا ، يصرخون ، يرفعون الأيدى مهددين ، أرى نفسى جالسا فى خلاء اتفرج على شريط سينمائى وحدى ، فى البداية أرى تمثالا لواحد من آلهة الاغريق ، ذكره بادى ، ظاهر ، ثم يتبدل موضعى ، أصبح فى قاع بئر معتمة سوداء ، وثمة فتحة دائرية يبدو منها ضوء السماء

البعيدة ، ادرك أن عرض الشريط مازال مستمرا ، يخاطبنى هاتف خفى قائلا ، سترى اباك ، أبدأ الانتظار ، اسمع خطاه ، ومع كل خطوة ارتفع مقدارا ، حتى شارفت على الضوء وبقيت فى مركزه ، ألمح أبى يخطو متمايلا ، طريقة المشى ذاتها ، يرتدى ثيابا جديدة لم أعهدها عنده .

«أبى .. أبى» .

يلتفت ، اتجه نحوه ملهوفا عليه ، يبدو وكأنه ينتظر لقاء بمن يعرف ، اصافحه ، انتبه إلى أننى دخلت الشريط السينمائى ، أنا جزء منه ، حواسى كلها تلتقط ملمس يده .

ـ «أبى .. كيف حالك ؟» .

ـ «أنا بخير» .

ـ «أوحشتنا» .

يبدى تململا ، يسحب يده ، يستدير على مهل ، وإذا بى أرى أمى إلى جواره ، اهفو ، كيف لم أنتبه ، كيف لم ألحظ ، أية غفلة ؟ انادى ، غير انهما لا يجيبان ، يستأنفان نزهتهما فى فناء الكون ، يبدو أمامى رجل غامض .

ـ «أبى متوفى ، راحل ، فلماذا يصحب أمى ؟» .

يلتفت ناحيتها ، لكنه لا يجيبنى

ـ «ألا تخبرنى بما جرى لها فى غيبتى ؟» .

لا يلفظ حرفا ، بأى لسان اخاطبه ؟، فجأة أقول :

ـ «ألا يمكننى أن أحصل على صورة لهما هنا ؟» .

يغمزنى رجل آخر فى ظهرى ، يقول :

ـ ما دام قد وعدك فسيفعل ، لا تكن لحوحا ، وامض» .

فأنصرف مطرقا وأنا منقلب البصر حسير ، أرى نفسى متجها إلى مجمع

هائل من المساكن الشعبية ، آخر ما بناه عبد الناصر للفقراء ، اتوقف عند باب شقة ، تبدو أمي حزينة ، عاتبة ، لا تتكلم ، أقول لها :

ـ « لا تضيقي ولا تحزني ، لقد بدد الزمن شملنا ، وتلك مشيئة الدهر » .

كنا نتأهب للانتقال من هذه الشقة إلى مسكن آخر ، لكن ليس كلنا ، ولم أدر من سيفارق، ومن سيبقى؟، يستمر سرياني، يغيب عني ماأراه، لا أتحقق من شيء ، تتوالى عليَّ أمور وأقف على اشياء لا يسعني ذكرها لغموض معانيها ، ومثل ذلك يحرم على كشفه إلا لمن قطعوا فى الطريق شوطا لما يؤدى إليه من التشويش ، فالحمد لله على ما منحه ، وما سمح به ، وإن فهمتم ما أشرت إليه قل تشغيبكم وربما زال كله ، وإذا الصحف نشرت ، وإذا السماء كشطت وإذا الجحيم سعرت وإذا الجنة أزلفت علمت نفس ما أحضرت ، عندئذ التفت شيخى الأكبر محيي الدين الى ، بدا منه ما طمأننى وأراحنى ، إذ تبسم لى ، قال :

ـ «لا تدخل دارا لا تعرفها ، فما من دار إلا فيها مهاوٍ ومهالك ، فمن دخل دارا لا يعرفها فما أسرع ما يهلك ، لا يعرف الدار إلاّ بانيها» .

أقول :

ـ « إنى مسكين ، يُضرب لى المثل بعد المثل ، ولا أفكر فى تخبط الظلمة ، بل احسب أننى فى النور» .

يقول لى بلهجة حنو لم اعرفها منه :

ـ «يا مجاهدا لم يزل ، امض إلى يوم عشته ولم تره» .

أفهم ما يرمى إليه ، فيهب على نسيم الشوق ، يأخذنى عنى ، ويجذبنى منى ، يذيب جواى ، ويمتحن كائنى وبائنى ، اسمع صوتا يهدر :

ـ «لمن الملك اليوم؟» .

يجيبه شيخي الأكبر محيي الدين :

ـ «لله الواحد القهار..» .

* * *

مقام الجوى

فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ

فَبَصَرُكَ اليَوْمَ حَدِيد

.. كأنى اعود إلى دنياى ، إذ رأيت الكون كله ، غير أننى أرحل بالبصر والبصيرة ، باق حيثما أنا ، أعبر حوافه ، واجتاز المجرات والسدم والثقوب السوداء ، اقطع المسافات التى تفنى دهورا ، يلوح لى كوكبنا الشمسى ، أرى توابعه متعامدة عليه ، أميز زحل بحلقاته الغبارية ، والزهرة لسطوعها ، وعطارد الملتهب ، ودرة المجموعة ، أرضنا التى منها جئنا وإليها سنرجع ، تواجه الشمس بنصفها الذى فيه قارتنا الافريقية ، وبحرنا الأبيض ، والأحمر ، والقارة الأوروبية ، اشعتها توشك على ملامسة أرض مصر بينما تهب ريح شمالية ، ونيزك هائل قادم من بعد سحيق يتفتت على حافة غلاف أمنا الأرض الجوى ، عرفت ها هنا أن ألفا وثلاثمائة وستين عاما قد انقضت على استشهاد من قطر حبه فى نخاعى ، مولاى الحسين ، وأن عشر سنوات وشهراً واحداً ، قد انقضت على رحيل من صارت أيامه حلما ، جمال عبد الناصر ، فى هذا اليوم بقى للشمس مرات شروق توازى المشارق التى تمت ، أى انتصف عمر كوكبنا تماما ، هذا ما ألقى فى معارفى ولا تسألونى الشرح أو الزيادة فالملم صعب ، والخطب وعر ، هذا يوم تعارفنا على تسميته بالاثنين ، الثانى من السبعة ، يوافق السابع والعشرين من أكتوبر ، ألف وتسعمائة وثمانين طبقا للتقويم الميلادى ، إذن .. هذا ما كان خبيئا فى غيبنا ، «وما تدرى نفس

ماذا تكسب غدا ، وما تدرى نفس بأى أرض تموت» ، اعبر شوارع القاهرة ، أصل إلى هذه المنطقة من الحى السكنى الجديد الذى شيده عبد الناصر للمعسرين ، وكان ذلك آخر ما شرع فيه لنا نحن رفيقو الحال ، رحم الله نصير المهضومين ، ولعن ربى الظالم ، الوضيع ، الذى اعقبه ، وسامحك الله يا جمال لأنك اخترته وسلمته الأمانة فخانها ، وحفظت عنده الوديعة فنهبها ، وبددها ، وأعسر مصائر الكثرة ، سامحك الله ، وليس هذا بمقام مناسب لأفضى إليك عتابى .

دخلت شقتنا ، أنفاس النيام تدفئها ، ولجت الحجرة التى تقع فى مواجهة المدخل ، هذا أبى يفتح عينيه بعد نوم دام سبعا وسبعين دقيقة منذ أن صلى الفجر واغفى ، هذا وجهه ذو الغربة والتعب ، لكم بدا لى نحيفا ، لكم ثقل على المقام ها هنا ، مع أن ما اطالعه ذروة الكرم الذى اسبغه سادتى على ، فلا تمزيق وتفريق اعضائى وبقائى فى الوقت نفسه حيا ، ولا سريانى عبر المجرات وخروجى من الكون كله ، ولا نفاذى عبر الحجب الزمنية ، ولا تواجد صورتين ، أصلية تسعى فيما لم يره بشر ، وصورة باقية بينكم تقوم بكل ما كان مفروضا أن أؤديه وأتمه حتى سقوط ورقتى من شجرة الكون ، «وأن ليس للإنسان إلا ما سعى» ، فى وجه أبى الذى أطالعه عند آخر شروق عليه ، رأيت ما مضى من عمرى ، وحبه لمولاى الحسين فقد كانت أول صورة وردت على خاطره الرأس الشريف ، المقصورة الفضية ، وزخارف الخشب ، والممر القصيرُ المؤدى إلى حجرة المخلفات النبوية ، والثريا الضخمة الكريستالية المغطاة نهارا بقماش أحمر ، تلك صور تبعث حنينا فى القلب الهرم ، أرى وهنه وخفقه ، لو أن الاقامة دامت على مقربة من الحبيب ، نصلى الفجر كل ليلة هناك ، لكن المسافة الآن بعيدة ، من مدينة نصر إلى

الحسين ، يتبسم خاطره ، فى أوائل الحرب ، عام أربعين أو واحد واربعين ، لا يذكر تماما قال له الحاج عبده مدير فندق الكلوب المصرى ، ادفع جنيها يا أحمد واشتر ألف متر من أرض الدراسة ، ضحك يومها ، قال : اهذا معقول ، حتى لو معى جنيه أرميه فى الجبل ، ثم لماذا ابتعد عن الحسين هذا البعد كله ؟، كانت الدراسة آخر حد العمار بينها وبين الضريح الغالى مسيرة خمس دقائق فقط ، لم يدر أن الزمن سينأى به بعيدا، بعيدا، حتى يكون فى حاجة إلى ساعة ونصف ركوبا ليصل إلى المسجد ، لم يكن يعلم ، «يوم يتذكر الإنسان ما سعى» ، اتابع شروق الشمس والمقام يثقل على ، اعرف أن شمس اليوم التالى ستطلع على أبى متمددا فوق السرير هذا ، لكنه سيكون جسدا هامدا ساكنا فى انتظار المواراة ، لكم اثقل على لأننى فى هذا المقام بين بين وليس بين ، فقد جثته والوعى مكتمل ، عالم بما سيكون ، ملم بما سيقع ، علم الإنسان ما لم يعلم ، وهذا لم يتفق لإنسان مخلوق غيرى ، إذ جمعت زمانين متباعدين ، فأنا معه ولست معه ، أنى لى أن انبئه ؟ أن أخبره ؟ أنى لى ومشيئتى ليست بيدى ،نشاء ويشاء ، وما تشاءون إلا أن يشاء الله ، يبدو وكأنه يشعر باقتراب النبأ العظيم ، الذى نحن فيه مختلفون ، كأن قلبه الصابر ، الجلد ، لم يضن عليه ، فأنبأه بالإشارة إلى ما سيتم ؟، ليس عند هذا الشروق وحده ، لكن من وقت ليس بقريب ، وإلا فماذا تعنى زيارته للبلدة ، وطوافه بالمواضع الأثيرة كلها ، ومصافحته لمن بقوا من الزمن العتيق ، والابناء الذين يضطر إلى الاستفسار عنهم ، من هم ومن آباؤهم ؟ حتى الحريم دخل عليهن وسلم ، وزيارته الموتى الراقدين فى الصحراء خارج زمام البلدة ، وقراءاته الفاتحة عند قبر أبيه وأمه ، تلك زيارة لم يخبرنا بها ، ولم يطلعنا عليها ، إنما علمت بها فى حياتى الدنيوية عندما ذهبت إلى جهينة أول مرة بعد

سفره الأبدى ، اخبرونى بطوافه وسلامه على الناس ، وجلوسه عند الجسر وحيدا ، أية صور وردت على خاطره ؟، وأية احاسيس اوجفت عينيه المقطبتين ؟، هذا من أجلّ أسرار ذلك المقام ، هذا ما لن أعرفه قط ، لا أنا ولا غيرى ، قد ولى أبدا ، «يومئذ يتذكر الإنسان وأنّى له الذكرى» .

اخبرتنى امرأة خالى : جاء أبوك وقعد معنا واطال النظر إلينا ، وعندما انصرف كان يحدف فى مشيه إلى الوراء ، قلت لخالك فى الليل وخالك يشهد ، هذا رجل موشك على الرحيل ، أحمد الغيطانى لن يتم هذه السنة ، فلما أخبرتنى بذلك استعدت نظراته الهادئة تجاهى عند انفرادنا فى الشرفة ، باسم الحضور ، وديع الوجود ، طالب القرب ممن أحب قبل بدء البعاد ، أما عيناه فشفتا عن حزن اسيان ، وبعثت فى نفسى ما تبعثه هذه الأيام الوادعة بطيئة المضى من رقة مرهفة وحنين وأسى ، «فبأى آلاء ربكما تكذبان ، سنفرغ لكم أيها الثقلان» ، اخبرتنى عمتى ، أخت أبى غير الشقيقة ، أنه جاءها وقضى عندها ليلة ، رأت هدومه متسخة ، فغسلتها له ، وقال لها : نفسى أموت فى جهينة فلا أسبب تعبا لأولادى ، من اجراءات دفنى ، ومصاريف جنازتى ، فقالت له ، تف ما قلته يا شيخ ، فأل الله ولا فألك ، ثم قالت عمتى : ما انقطع توصلوه أنتم ، بارك ربى فيكم ، «لا يسأم الإنسان من دعاء الخير» ، ها هو أبى يقوم فيمشى من الغرفة إلى دورة المياه ، إذ يفتح الصنبور ، يتدفق الماء محدثا صوتا مرتفعا ، يخفف اندفاعه حتى لا يزعج اخوتى النائمين ، كذا أمى ، غير أن أمى التى تفتح عينيها عند استيقاظ أحدنا ، كانت تمضى إلى المطبخ ، أحمد يحب شرب كوب من الشاى الساخن قبل نزوله اليومى ، كانت تردد فى تلك الأيام : الرجل كبر والمشوار بعيد ، صعب عليه ، يخفف أبى رذاذ الماء ، يرتدى جلبابا من الكستور ومعطفا خفيفا وجوربا بنيا ، وحذاء قديما لكنه

متماسك الهيئة ، إنها الملابس التى سيرقد فيها عند عودته المتأخرة ، لن يخلعها بنفسه ، بل سينزعونها عنه ، وسيتمدد عاريا فى انتظار الكفن ، لكن مالى اتعجل ؟ «وكان الإنسان عجولا» .

أرقب خطاه التى وهن العمر منها ، عند منعطف السلم قرب الطابق الأول ترد صورتى على خاطره ، «ياترى أنت فين يا جمال يا ولدى؟» يدعو الله أن يرجعنى بالسلامة ، لما اطلعت على حنينه هذا ارتاح فؤادى ، وتمنيت لو هدأ قلبى ، لكن أنى لى قلبى ؟ ليس معى ، ربما تلك نعمة على ، فلو معى لا نفطر ، «إذا السماء انفطرت ، وإذا الكواكب انتثرت ، وإذا البحار فجرت ، وإذا القبور بعثرت ، علمت نفس ما قدمت وأخرت ، يأيها الإنسان ما غرك بربك الكريم» ، يبدأ سعى أبى الأخير ، لم تعد أمى إلى مرقدها على غير عادتها ، تفتح باب الشرفة حذرة حتى لا توقظ اخوتى فى هذه الساعة المبكرة ، تطل ، يمضى وقت حتى يخرج أبى من باب البيت ، يمشى مميلا إلى الإمام ، يعقد يديه إلى الخلف ، أراه من نقطة مرتفعة ، أعلى من كل البيوت ولم أدر الغرض من ذلك ، عند نهاية الطريق يتوقف لحظات ، يجول بالبصر حوله ، يحدق فى الطريق المقابل كأنه ينتظر ظهور شخص ما ، يواصل سعيه ، لم ينتظر طويلا ، تجىء مركبة النقل العام ، يجلس فى المقاعد الخلفية ، هكذا اعتاد مع أن أجرة الركوب موحدة ، والركاب قليلون فالوقت مبكر ، كانوا ستة رجال ، وامرأة عجوزاً ، عاملا فى مصنع نسيج يدوى اسمه رزق ، ومفتش قطارات اسمه ابراهيم ، وثالثا اسمه رجب لم أحط بمهنته علماً ، ورابعا يعمل فراشا فى مدرسة خاصة لم اعلم عن اسمه شيئا ، وخامسا اسمه مسعد عامل تجليد ، وسادسا قصيراً ممتلئاً ، أما المرأة فاسمها سعدية ، تمضى إلى زيارة ابنتها المتزوجة والتى ستسافر بعد يومين مع زوجها المنقول إلى الصعيد ، سائق العربة شاب حديث العهد بالعمل ، انهى خدمته العسكرية ، أما المحصل فقديم ، ومن قبل كان يعمل

بائعا لأدوات الكتابة أمام مبنى محكمة عابدين .

هؤلاء هم من رأوا أبي فى مطلع هذا النهار ، سابع وعشرين أكتوبر ، يرتاح لخط سير هذه المركبة ، تمر بالأزهر ، تتوقف ، يمكنه من نافذتها رؤية مسجد إمامه الحسين ، وقراءة الفاتحة ، ينظر فيرى المئذنة السامقة ، وإياما نائيات ، ومقاهى مزدحمة بعد صلاة الجمعة ، واكتمال صحبه ، ورائحة شاى معطر بالنعناع ، يحن إلى ابنه الأول خلف ، والثانى كمال الذى لم يكن يفارقه أينما ذهب ، يحن إلى ابنه الذى عاش وهذا أنا ، يقرن حنينه إلى شقيقىّ الراحلين بحنينه إلىّ ، ذلك أننى راحل أيضا ، ألست مسافرا ، بنظراته دعا أبي بالرحمة لمن رحلوا وبالسلامة للغائب ، وبالستر للجميع ، والرضا ، وراحة البال ، يتمتم بشفتيه ، بسم الله الرحمن الرحيم « الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين ، إياك نعبد ، وإياك نستعين ، اهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم ، غير المغضوب عليهم ، ولا الضالين » آمين . تبتعد المركبة وهو راض ، فقد ألقى السلام على من ضحى بنفسه شهيدا من أجل أمثاله ، هو الفقير ، اليتيم ، والأمر العجيب ، الذى حيرنى ، أن أبي كان ينظر إلى المرئيات بعينى انسان آخر سيعيش فى دنيا خلت منه ، مع أنه مؤمن بأن لكل أجل كتاب ، راض بما سيتم به الأمر ، وقد كان أجله شقيا ، وأمره مرهقا ، والراحات انأى الأمور عنه ، غير أن تعب الدنيا يعقبه راحة الآخرة ، وفيما أوكل إليه لم يقصر ، وما قام به لم يهمل ، وما وصل إلى يده جاد به ، ولو ضن يوما فإنما على نفسه ، « ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة » ، أراه منحنيا ، متطلعا إلى الأرض ، وكلما دنت النهاية يزداد الإنسان اقترابا من الأرض « كما بدأكم تعودون » ، فيطول سجوده ، وتنحنى قامته ، تقترب من التراب أكثر ، غريب أنه يفكر فى موته ، كيف سيتلقى من يعرفه خبر رحيله ، من فى البلدة ، خلف بك الحسينى الراقد منذ عام فى

فراشه ، تختلط عليه الرؤى ، وتتداخل عنده الأماكن ، وتضطرب الأزمنة ، لا يعوده من معارفه القدامى إلا أبي ، الذى صان نسيم الود ، وحفظ جميل العهد ، لابد أن الرجل سيتألم لفراقه ، يفكر فى ابنه المسافر ـ أنا ـ ويود لو رآنى ، غريب أن ترد عليه مثل هذه الخواطر ، لكننى لماذا اتعجب وقد عرفت مثل ذلك ، ذلك أننى فى عام ألف وتسعمائة وسبعة وسبعين الميلادى ، مررت بأشأم أيامى بعد ذهاب الجلف الجافى إلى ديار العدو منبطحا للصلح ، الجلف الذى تحكم فى مقادير هذه الديار غير يسير من الزمن ، ديارنا المحروسة بآل البيت الكرام ، الباسطين عليها رعايتهم ، وحمايتهم ، ولولا سيدى الحسين وأخته زينب والكرام الكاتبين والحفظة ، وأبناء السبيل ، والفقراء المجاهدين ، لولا الأطفال الرضع ، والشيوخ الركع لصب علينا البلاء صبا ، لجرى لنا من النوازل ما يشيب له الجنين فى بطن أمه ، فى هذا العام اثقلنى وجوده ، وكان من اشق الأمور علىَّ أن يضمنى بلد واحد مع من كان مثله ، ومن افظع الدواهى على النفس البشرية أن تعيش فى ظل وضع يبدو من الصعب تبديله ، وهذا ما سأفصله تفصيلا إن مد خالقى فى أجل صورتى البشرية ، فى ليلة من ليالى هذا العام ، وأنا على شفا النوم ، انتبهت بغتة ، فزعت لاهث الأنفاس ، مرتبك القلب ، تلين حولى الموجودات ، أما وجودى المادى فيهوى فى قرار سحيق ، تلفت ، اليقين عندى أننى راحل بعد ثوان ، الموت سيتم فى اللحظات التالية ، سأغمض عينى ولن افتحها قط ، ماض إلى مجهول ، هرعت إلى الشرفة ، كدت اقفز موليا من هلاك مبين ، من لحظتى الآتية لا ريب فيها ، «إن الإنسان خلق هلوعا» ، ايقنت أننى مدركى حتى لو لجأت إلى حصون مستعصية أو بروج مشيدة ، ولولا امرأتى التى حاشتنى لكنت نسيا منسيا ، مرت على الليلة بغيضة الوطأة وأنا هائم فى جلوسى ، منتظر حتفى ، وفى صباح اليوم التالى قال الطبيب لى ، إن القلب ليس به إلا العطب القديم ، لكنه ليس سبب

هذه العلة ، نصحني النصح الجميل أن ألجأ إلى طبيب يداوى النفوس ، وقد كنت فيما مضى من زمنى الجميل اسخر فى سريرتى ممن يذهبون إلى مثل هؤلاء ، وارى فى ذلك عين الميوعة ، ونقص الرجولة ، لكننى سعيت بقدمى إلى صاحب لى منهم ، وبعد أن قصصت ما مر بى ، قال ما هذا إلا اكتئاب عظيم ، فيما تلا ذلك من أيام كنت أسعى بين القوم ، أرى الموجودات بعيون من سيعيشون بعدى ، أرى أصحابى وكأننى مدرك أنها المرة الأخيرة ، واتخيل من سيترحم على ، فأرثى نفسى وأنا حى أرزق ، وأنعى وجودى وأنا شديد اسعى ، «كل من عليها فان» ، غير أن الفرق بينى وبين أبى ، أنه كلما فكر فى ذلك صاحبته سكينة ودعة ورضاء بالمقدر ، أما أنا فعانيت الاضطرب والحزن على الدنيا وكتمت ما عندى وأنا كظيم .

عند هذا الحد من ذلك المقام ، انتبهت إلى شرودى عن أبى .. انظر، فإذا به يحث الخطى فى ممر طويل بمبنى الوزارة ، انشغلت عنه بنفسى فضيعت مقداراً غير هين من الفرصة السانحة ، ولم أدر متى فارق العربة ، وأى الأشياء رآها ،

انشغلت عنه مع وعيى بأن كل ماعبر بى نفيس ، يظن الإنسان أنه فى الحاصل وهو فى الفائت ، فلما تعظم ندمى خفت ان يلهينى عما تبقى لى فأجلته ، ان زمن الندم قادم ، يقف أبى عند المصعد الجانبى ، يتذكر أول يوم جاء فيه ، كأنه الأمس القريب ، «وتلك أيام نداولها بين الناس» ، جاء مشيا من عند الحسين ، كانت المنطقة المحيطة بوزارة الزراعة ارضا مزروعة والبيوت قليلة .

كان يمشى صامتا يخشى الكلام خوفا من خطأ غير مقصود قد يقطع رزقه ، يحيى كل موظف يمر به ، ولا ينتظر رد التحية ، سنوات طويلة يكظم

ضيقه ، ولايقدر على رد ملاحظة قاسية ، حتى جاء عبد الناصر ، وأبعد عن أمثاله تهديد انقطاع الرزق فى أى لحظة ، والطرد إلى عرض الطريق لأى سبب واه ، لم يكن على نفسه يخشى ، إذ انه عرف الشقاء وقاسى البلايا ، لكن هذه العائلة التى تعلق بعنقه ، جمال عبد الناصر أمّنه من خوف ، وجعله لايخشى رد اهانة ظالمة ، فله الرحمة ، ولذكراه البقاء ، حق له حب المستضعفين فى الأرض ، ومن قست عليهم تلك الحياة الدنيا ، له حسن العاقبة ، « لا أقسم بهذا البلد ، وأنت حل بهذا البلد ووالد وما ولد ، لقد خلقنا الإنسان فى كبد » ، ما أسرع مضى العمر ، سنينه توزعت على هذا الممر الذى تصطف على جانبيه دواليب الأوراق ، وخزائن الملفات البالية ، يصل إلى حجرة السكرتارية الخاصة بقسم الشئون القانونية ، يسلم ، تحيته عند من يعرفونه سلام ، وسلامه عند من عاشروه عمرا تحية ، ينحنى على دفتر الحضور والانصراف ، على مهل يوقع اسمه ، يبدأ بالحاء ، يرجع إلى الألف ، يتمم بقية الحروف ، تلك ساعة وقفت عليها ، الثانية وسبع دقائق من ظهيرة الاثنين ، هكذا سد أبى الخانة ، أوضح بيانه ، أوفى تمامه ، ثم صافح وسلم ، خاصة ان كل الجالسين فى هذه الحجرة من الزملاء القدامى ، طول الرفقة اذاب الفارق ، فلا ينادونه إلا ، ياعم أحمد ، بينهم موظف اسمه عبد الرحمن ، اشترك معه فى قرض من البنك ، ضمن كل منهما صاحبه ، أربعون جنيها قبضها أبى فى هذا اليوم ، لم أدر متى ؟ لم أر ذلك ، قبل خروجه من الوزارة ، دسها فى طيات ثيابه خوفا من النشل والنشالين ، هاهو يمر بالمكاتب المجاورة ، بعض الموظفين يلملم أوراقه ، والبعض انصرف مبكرا ، يصافح ويطيل النظر ، حتى ظنه أحدهم واسمه مهدى أنه ينوى السفر فقال مستفسرا ، أنت على سفر ياعم أحمد ؟ فقال الوالد : السلام فى كل

وقت يابنى ، يمر بالمقد، ، المكان الذى قضى معظم أوقاته هنا فيه ، لو أعرف أى شىء فكر فيه أبى خلال هذه اللحظة بالذات ، لكن ذلك استغلق على ، إن الإنسان كان جهولا ، كذا ألممت بالفترة الواقعة بين لحظتى توقيعه الحضور والانصراف فى جملتها وليس فى تفصيلها ، عرفت أنه جلس ، وشرب كوبا من الشاى ، وسأل بعض زملائه عما إذا كانوا يريدون ابلاغ رحيم أفندى شيئا ، ينوى زيارته ، الرجل مريض منذ ستة شهور ، والزمن وعر ، لايسأل فيه إنسان على آخر إلا لمصلحة أو حاجة ، ولو ان رحيم أفندى بيده قدرة لما انقطع العواد عنه ، قبض أبى السلفة من الخزانة ، وصلى الظهر فى مسجد الوزارة ، وبقى بعد انصراف المصلين ، فرأى مارأى ، وجال بخاطره ما جال ، وتذكر صورا شتى ، « فذكر إنما أنت مذكر » ، اتابع نزوله السلم ، الوئيد ، المتمهل ، واخشى ما أخشاه ان يفلت منى ذلك الحضور ، أغالب كمدى ، وأحوش دمعى ، فأنا أعلم ان هذا الدرج الذى يطأه أبى لن يلمسه مرة أخرى ، وان الوضع الذى تمسه يده من الحاجز الخشبى لن يلمسه ثانية ، وان ما يراه لن ينعكس مرة ثانية فى مآقيه ، فالوداع ، الوداع ، والسلام ، السلام ، « يأيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا فملاقيه » ، إن ما يمر بى فادح عنى ، باهظ تحمله على ، مر على فؤادى ، لكننى أنا الذى سعيت ، أنا من طلبت ، وقد عرفت الجهل فلم يرحنى ، وعرفت العلم فلم يرحمنى ، « مرج البحرين يلتقيان ، بينهما برزخ لا يبغيان » ، يخرج أبى من باب المبنى ، عربة الوزير تنتظر ، الساعة الثانية والنصف وخمس دقائق ، والشمس فى برج العقرب ، يتوقف قليلا كأنه ينتظر أمرا ، يتراجع ، يستدير ، ينظر إلى المبنى ، إلى الباب الذى خرج منه ولن يعود إليه ، إلى الحديقة المجاورة التى تمدد فوق حشائشها واغفى ، « هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن

شيئا ؟» يعود يمشى ، ينظر الوجوه العابرة ، الواقفين على المحطة ، هذه بوابة المتحف الزراعى ، على وجهه ظل ابتسامة هادئة ، مسترجعة ، ابتسامة من أدرك فولى ، من اطلع على الحقيقة ، من أحس أنه أشرف أو كاد يصل ، وما عليه إلا البلاغ المبين ، يلمح امرأة شابة ، تمسك بيدها طفلة صغيرة ، يبتسم لذكرى الأيام الرواحل ، عندما كان يصحب جمال وإسماعيل ، ثم نوال وعلى ، وامهم ، ينتظرون عودته داخل المتحف ، إذ ينتهى من توزيع الخطابات على أقسام الوزارة يسرع إليهم ، فيقابلون اللهفة باللهفة ، غير ان الزمن تبدل ، ولت الألفة وحلت الغربة ، وما من وقت يجمع ، كبر الأولاد وانشغلوا ، وها هو ذا جمال يرحل من بلد إلى بلد ، يا أياما ولت ليتك تعودى ، يتملى من المتحف ، وهذا الميدان المسكون بالذكريات ، فهل يدرى ؟، هل ظن انه الفراق ؟ هل حان التفاف الساق بالساق ، وانه لا مفر ، « إلى ربك يومئذ المساق » ، تجىء العربة المتجهة إلى الهرم ، مزدحمة ، الواقفون أكثر من القاعدين ، لا أمل عنده فى الجلوس ، الدنيا تغيرت ، فلا أحد يرحم شيخوخة ، وما من قاعد يقوم لامرأة حامل ، تغيرت الدنيا ، تغير الخلق ، كل شىء بدل تبديلا ، الزمن زمن قسوة ، وجفوة ، وكل يقول ، نفسى أولا .

عندما نزل كان مرهقا ، يتحسس نقود السلفة بين طيات ثيابه ، من الخطر ان يمشى بمبلغ كهذا ، لكنه عزم ونوى زيارة رحيم افندى منذ أيام ، وما من داع للتأجيل ، ما من إنسان ضمن هذه الدنيا ، المبلغ سليم ، فهيئته لا تغرى النشالين ، ولكنهم نالوا منه منذ عام ، عندما اغفى داخل مسجد الإمام الحسين ، سرقوا حافظته ، لم يحزن على الجنيهات الخمسة ، ما آلمه فقدان ثلاث ورقات لم تفارق هذا الموضع القريب من قلبه ، شهادات

ميلاد ، خلف أول نصيبه فى الدنيا من الذرية ، وكمال ، ومحمد ، رحمهم الله ، ذهبوا إليه أطهارا بررة ، يخطو متمهلا ، فوق حجر ملقى يجلس ، يود لو يغفو ، بينما أنا فى دهش ، لم أكن أعلم ان أبى يحتفظ هذا العمر كله بشهادات ميلاد اشقائى الغاربين ، لم يخبرنا بذلك ، ولم يخطر ببالنا أن نستفسر ، حزن حزنا بليغا ، وعد فقدانه هذه الأوراق نذير شؤم ، العصر يمضى ، والنهار يغمق ، وضبابة تلف الرؤى ، أم ان العينين وهنتا ، والنظر كل ، عصر خريفى بارد ، واللحظة التى تمضى به الآن لا مقابل لها فى الغد ، « والعصر إن الإنسان لفى خسر » ، المغرب يدنو ، والليل يقبل ، « والضحى والليل إذا سجى ، ما ودعك ربك وماقلى ، وللآخرة خير لك من الأولى ، ولسوف يعطيك ربك فترضى ، ألم يجدك يتيما فآوى » ، إن البيت بعيد ، والرجوع إليه رحلة طويلة ، لكم ود البقاء بجوار الحسين ، لو ان الأولاد انتقلوا إلى المسكن الأوسع وتركوه فى الشقة القديمة ، ايجارها زهيد ، لم يكن سيكلفه من أمره عسرا ، لكن هكذا شاء الحظ ، والظروف جبرت ، « ووجدك ضالا فهدى ، ووجدك عائلا فأغنى ، فأما اليتيم فلا تقهر ، وأما السائل فلا تنهر ، وأما بنعمة ربك فحدث » ، أرى خطاه ، ولا أعرف الطريق الذى قطعه ، فلم أقدر على تحديد المكان بالدقة ، ولم احط به علما ، إنه يهدى من يشاء ، ويضل من يشاء ، أرى جلوسه إلى زميله المريض الذى لم يعده أحد من الوزارة إلا أبى ، يتمدد فوق سرير قديم ، بينما الوالد يحكى ، ويقص ، ويضرب الأمثال ويستدعى العبر ، يبدو نشيطا ، يفيض حيوية ، يشير بأصبعه ، عند لحظة معينة يتوقف ليشير قائلا « شوف يا أستاذ ... » هذا ماعرفته من حركة شفتيه ، ولم أفهم كنه الباقى ، صوته لايصلنى ، يفارق البيت والليل فى بدايته ، وآخر شموس عمره غربت منذ

أربعين دقيقة ، والشمس القادمة لن تطلع عليه حيا ، الشفق فى الأفق ذوى ، والحلكة نزلت ، والنجم إذا هوى ، « ما كذب الفؤاد ما رأى ، أفتمارونه على مايرى » ، « مازاغ البصر وما طغى » ، « وان ليس للإنسان إلا ماسعى ، وأن سعيه سوف يرى ، ثم يجزاه الجزاء الأوفى ، وأن إلى ربك المنتهى ، وأنه هو أضحك وأبكى ، وأنه هو أمات وأحيا » ، إذن دخل الليل ، كأنى كنت غافلا فانتبهت ، وناسيا فتذكرت ، وغبيا فعقلت ، الليل يبدأ ، ليل أليل ليس كمثله ليل ، عندما يذهب فى طيات الندى الفجرى سيكون أبى قد اكتمل ، وعندما يجيء ليل الغد سيكون هذا الحبيب الساعى أمامى ملفوفا فى كفنه ، موسدا فى حفرة لم يطأها قط بقدميه ، ولم يمر بها أبدا ، مهجورا من كل الأحياء ، فبأى الخدين ياحبيبى يا أبى سيبدأ البلى ؟ ، وهذه الندبة فى ساقك اليمنى ، أستولى إلى أبد الآبدين ؟ ، هذا نذير من النذر الأولى ، « أزفت الآزفة ، ليس لها من دون الله كاشفة ، أفمن هذا الحديث تعجبون » ، هاهو ذا يسمع ويرى وينوى ويخطو ويشرع ، الثانية تعدو فى أثر الثانية ، والدقيقة تجرى وراء الدقيقة ، والساعة تقفو اثر الساعة ، ولا راد ، لا مانع ، فهل يكون هذا ؟ هل يكون هذا ؟ كلا ثم كلا ، وماذا بيدى ان أفعل ؟ أنا مقطوع اليدين والقدمين ومنتزع القلب ، المعزول عن كل حى ، لكننى ياهذا الكنه الغامض لن استسلم لك ، يا من تنبت وتحصد ، تبنى وتهدم ، يا من تضحك وتبكى ، يا من تبعث اللون الأخضر وترسل إليه الذبول ، يا من تبدل ، يا من تغير ، إنى مدرك جوهرك ، إنى ساع إلى منازلتك وأنا عاجز حسير ، لم أكن أدرى ان هذا عين الكفر بما أنا فيه ، إن الإنسان لربه لكنود ، وما بين غلى وضيق وما بين حنق وعظيم ألمى وقربى من التصريح بما حجبته ضاع منى أثر أبى ، فلما انتبهت مرهق الفؤاد ، موجوع

الخاطر ، سددت البصر كرتين فانقلب إليّ خاسئا وهو حسير.

هاهو ذا فى العباسية ، يتوقف أمام مصعد ، يدخل ، يحدق به بصرى فى هذا المكان الضيق ، لكم هو متعب ، لكم تثير عيناه حزنى ، عينه اليمنى تطرف ، شفتاه تتلامسان شأن من آمن وسلم تسليما ، فهل يشعر ، هل أنبئ بشىء من الغيب ؟ ، أيدرى فى أى موضع ستكون رقدته غدا ، يدق باب إبراهيم أبو الفضل ، قريبه الذى لم ينقطع عنه طوال عمره ، هو من وجهاء جهينة وعضو عنها بالمجلس النيابى ، يفتح الباب رجل غريب ، السائق الذى عينوه له بعد ان أصبح عضوا ، أبى يسأل : «إبراهيم موجود؟» ، يقول السائق «من انت» ، يخطو أبى مجتازا الباب ، «اوع يا أخى ، هذا ما ينقص» ، يقف إبراهيم عند مدخل إحدى الحجرات ، يخاطب السائق مبتسما ، «هذا بركتنا» ، يجلس أبى فى المقعد الذى اعتاده عند مجيئه ، يقول إنه يعرف بميعاد سفره إلى جهينة بعد غد ، يومئ إبراهيم ، نعم ، هذا حقيق ، يقول أبى إنه يود لو صحبه لكنه لايستطيع الحصول على اجازة من العمل ، يقول إبراهيم ان من يسمع ذلك يظن ان العمل سيتوقف لو غبت عنه ، يضحك أبى ، يتوقف فجأة ، يسعل مرة واحدة ، انه سعاله الأول ، يظل كفه الأيمن مبسوطا حتى يصبح قادرا على مواصلة حديثه ، إذ يسترد قواه يقول إنه يتمنى لو طلب نقله إلى البلدة ، ان يقضى فيها ما تبقى ، يتساءل إبراهيم ، ولم لا ؟ يقول أبى : أنا وأولادى على خلاف ، يقول إبراهيم ، والله معهم حق ، ماذا تبقى لك فى البلدة يا أحمد؟ حتى الذين كنت تعرفهم ماتوا ! ، يسكت أبى ، يرفع النظر مقدار لحظة ، كأنه يرى مالا يراه غيره ، هل يبدو له قبس من النبأ الأعظم ؟ ، يهز رأسه ، يقول : صحيح لم يعد لى شىء فى جهينة ، أرضى بعتها ونخلاتى ، لكننى ربيت رجالا ، يعود إلى

صمته ، يسعل ، إنها المرة الثانية ، يقول : يكفى ان كلا منهم ينفع نفسه ، أنا عملت ما على ، « إنما نطعمكم لوجه الله ، لانريد منكم جزاء ولا شكوراً » ، يتدفق عندى حزن ، تلك آية يرددها إذ تجيء سيرتنا ، كما ان ظلال العتاب الحزين لم تخف على ، يقول إبراهيم : الحمد لله ، أولادك كبروا وسيرتهم طيبة ، يرفع أبى يديه : والله دعوت لهم الليلة عند سيدنا الحسين ، إذن .. عرج أبى لزيارة الحبيب فى طريقه من الهرم إلى العباسية ، شرد منى ذلك ، ولكم اتمنى لو اننى شاهدت هذا اللقاء ، ووقفت عليه ، يمد أبى يده اليمنى بورقة نقدية ، يقول : اعطها لظريفة ، إنها أخت أبى غير الشقيقة ، والحديث عنها يطول ، يقول إبراهيم : خمسة؟ يا أحمد الدنيا غلاء ، خليها عشرة ، يقول أبى : والله لن ارد لك كلمة ، عشرة ، عشرة ، كان معى خمسة جنيهات لشراء جلباب شتوى ، خذها ، وربنا يعوضنى ، يقول إبراهيم : اختك وحيدة ومالها أحد غيرك ، ويبدو أن الحديث آذن بانتهاء ، نظرات أبى متعبة ، إنى تواق إلى الراحة ، إلى اغفاءة ، ودفء الغرفة يضاعف حاجته إلى الرقاد ، مازال الطريق طويلا حتى البيت ، إبراهيم لم يحول عينيه عن أبى ، لأول مرة يلحظ تضاؤل حجمه وضمور عينيه ، يقف أبى ضاما شفتيه ، يدعو الله أن يوصل إبراهيم بالسلامة ، وعند انتهاء دعائه سعل مرات ثلاثاً ، « هذا نذير من النذر الأولى ، أزفت الآزفة ، ليس لها من دون الله كاشفة » ، لو عندى القدرة فأحول بينه وبين الخروج من هذا البيت ، كأنى لو ابقيته هنا وحلت بينه وبين الموضع الذى قضى فيه فلن يقضى ! كأن مجرد تغيير المكان سيؤجل اللحظة المقدرة ، « أينما تكونوا يدرككم الموت ، ولو كنتم فى بروج مشيدة » ، عند هذا الحد من ذلك المقام وقع لى كشف ، فرأيت نفسى فى اللحظة عينها التى يخرج فيها من باب

العمارة ، أنا ألج باب الجراج الفسيح القائم تحت العمارة الضخمة التى يقطنها صحبى ، جراج متشعب كالمتاهة ، أخاف دخوله وحيدا ، لو هاجمنى احدهم أنا الغريب ها هنا فلن املك لنفسى ضرا ولا نفعا ، هذه ليلتى الثانية فى باريس الأوروبية ، لم أبال بمتابعة حالى ، ألا يكفى انى فى حياتى الدنيوية لم اكن على قرب منه وهو يتأهب للرحيل ، فانأى عنه فى هذا المقام ، ألم اطلب من سادتى فى الديوان ان يطلعونى على ما لم أراه واعاينه ، حتى إذا ماتحقق لى هذا انصرف عنه ، فلأحذر ! ، هاهو ذا أبى يوشك أن يتم الدورة ، بدء الغيبة عنا ، فى لحظة كهذه يدب اليقين بلا جدوى رد المسافر عن قصده ، ينادى الراحلون : « ألم نكن معكم ، قالوا بلى ، ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأمانى حتى جاء أمر الله وغركم بالله الغرور » ، أبى يصعد السلم متمهلا ، يتوقف عند الطابق الأول ، يستأنف صعوده ، إنه متعب ، هذا لا ريب فيه ، حدق ياعينى ، وتمكن يا بصرى ، فتلك مرئيات لم اطلع عليها ولن .. يطرق أبى الباب براحة يده ، لم يكن يضغط الجرس إلا عند قدومه لزيارتى بعد زواجى ، كان يضغطه ضغطا متواليا سريعا فأعرف أنه هو ، تفتح أمى ، تنظر إليه فى عينيها تعب ونعاس ، أمى تجهل ما سيجىء به الليل الأليل هذا ، كذلك اشقائى ، كلهم لا يعرفون عداى مع أبى الجاهل الأتم ، يجتاز أبى الباب ، إنها المرة الأخيرة التى يخطو فيها عبره بقدميه ، لن يمضى إلا أقل القليل من الزمن الدنيوى ويجتازه إلى الخارج ، لكن على غير ما اعتدناه على غير ما ألفنا ، أبى ، لا يدخل إلى الحجرة مباشرة ، يجلس فوق نفس المقعد الذى قعدت فوقه يوم ان جئت مسلما ومصافحا قبل سفرى ، يستريح ، إنى الآن قادر على رؤيته من جميع جهاته ، لم أعد مقيدا بمدى أوحد ، إنى أرى وجهه وعنقه فى آن واحد ،

«كل نفس ذائقة الموت ثم إلينا ترجعون» ، يجيء إسماعيل أخي ، يسلم عليه ، يلحظ إرهاق أبيه البادي ، غير ان هذا الضني كان من سمات اعتدنالها ، يسأله ، تعشيت ؟، يقول أبي : لا .. لكن نفسي مسدودة عن الأكل ، ينظر إسماعيل إلى أمي : هات مع الشاي جاتوه لأبي ، إسماعيل اشترى قبل عودته المسائية حلوى افرنجية من حي مصر الجديدة القريب ، يحتسي أبي من كوب الشاي ، يقضم قطعة .. هذا آخر ماتزل إلى معدته من طعام الدنيا ، «كل نفس ذائقة الموت» ، لم أدر كم من الوقت بقي في الصالة ، إذ جرى لي في هذا المقام ما ترددت طويلا قبل تدوينه ، لكنني عزمت أمري وتوكلت على الله ، إذ تخللت وجود أبي المادي ، ولجت عروقه وسريت في شرايينه وشعيراته الدقيقة ، واجترت مسام الجلد الذي تلقى الشمس والبرد ، وأفرز العرق ، والكدد ، سبحت في الدماء الذاهبة إلى القلب ، والدماء الآتية منه ، جئت القلب الطيب الذي حنا عليّ ورق لي من ناحية البطين الأيسر ، فسكنت غرفه ، وعشت آخر نبضه ، ورأيت الجهة التي ستبدأ منها العلة المفاجئة ، واشهدت دفقة الدم التي ستكون آخر الدم العابر للقلب الذي خفق من أجلي وبسببي وأنا غي لا أدري ، سحت داخل الأوصال والنبضات السياحة الكبرى ، زرت المكان القصي الدفين الذي كمنت فيه قبل ان يشيعني أبي إلى رحم أمي ، مكثت مقدارا بين الصلب والترائب ، وعندما خرجت مع النظرة الواهنة التي انفرجت عنها جفون أبي ، كان يرقد فوق أرض الغرفة ، إنها البقعة عينها التي أريتها لحظة ميلاد أبي ، كانت وقتئذ صحراء خاوية شمال القاهرة ، لم ادر عندئذ المغزى ، «يومئذ يتذكر الإنسان وأنّى له الذكرى» ، لم ادر انني أرى الموضع الأول ، والموضع الأخير ، الأرض التي شهدت الوصول ، والأرض التي سيتم منها

الإياب ، ولكل منا موضعان ، أو بقعتان ، أو مكانان ، يحصران المضمون ، ويحددان أول وآخر ، وبداية ومنتهى ، الأرض الأولى معلومة ، والثانية مجهولة ، « وما تدرى نفس بأى أرض تموت » ، ما بين الاثنتين يتحدد مدى السفر ، ومقدار الرحلة ، وبعد المدى ، يفتح أبي عينيه فأخرج ، اصبح من الناظرين ، الهواء عنده شحيح ، على صدره ثقل ، يحملق إلى السقف ، لم أعرف مايراه ، لم أدر ما يجول بخاطره ، وبدءا من هذه اللحظة وحتى اكتمال الواقعة التى ليس لها من دون الله كاشفة ، لن أعرف أبدا ما فكر فيه ، هذا سر لن أصل إليه وأمر عليه حجاب لن ينكشف لى ابدا ، أما ما فاتنى فقد ألممت ببعضه ، إذ أن عينيه غفتا هونا من الوقت ، ثم استيقظ على سعال عظيم ، حاول جهده أن يكتمه ، حاول ان يوقفه ، كان مشفقا على أخى إسماعيل المضطر إلى الذهاب مبكرا إلى عمله فى الجيش ، خشى أن يقلقه ، لكنه كلما حاول ، وجاهد فى خفضه أو تخفيفه ، تزايد ، حتى أن أمى اصغت قلقة ، ولما اتصل ، قامت إليه ، وازعجها مرأى الوجه الهادئ ، المحتقن ، المستسلم ، الطيب ، الساكن ، « أئذا متنا وكنا ترابا ذلك رجع بعيد » ، ازعجها مرأى ملامحه المنبئة بالوصول ، بتعب الرحيل الذى كان ، بإتمام الأمر ، ما أخافها ، هذا الاستسلام ، هذا الألم ، أبي الذى عاش عمره جلودا على المرض ، لم يذهب إلى الأطباء إلا قسرا ، تغيم كل التعابير فيما عدا الافصاح بالانتهاء ، « ألم نشرح لك صدرك ، ووضعنا عنك وزرك ، الذى أنقض ظهرك ، ورفعنا لك ذكرك ، فإن مع العسر يسرا ، إن مع العسر يسرا ، فإذا فرغت فانصب ، وإلى ربك فارغب » ، تتسارع انفاس أمى ، تعد كوبا من الحلبة الساخنة عله يهدئ آلام الصدر ، هذا السعال الغريب ، لكم سعل أبي ، لكم وضع أوراق الصحف القديمة على صدره ، لكم

غلت له أوراق الجوافة ، لكن سعاله لم يكن يسفر إلا فى أيام البرد الشديد ، وعقب النوبة يقول: آه ياأنا يابوى، لكنه الليلة لاينطق عن الهوى، فالستر واللطف والرحمة يامن ستحيي العظام وهى رميم ، أى سعال هذا ؟ يغيب ، يهدأ ، يخفت ، يتحول إلى حشرجة متقطعة ، تصغى أمى ، اصغى أنا فى غربتى ، غير قادر على المواجهة ، تلك الحشرجة ما يخيف ويرعب ، تسرع حاملة كوب الحلبة الساخن ..

ـ قم يا أحمد .. ستخفف هذه عنك ..

غير أنه ينظر من بعد سحيق وهو قريب ، يهز الرأس منه ..

ـ لا يا أم جمال .. خلاص ..

ادنو واقترب ، انظر لعل وعسى ، لا اتحقق إلا من المغادرة ، من الغوث ، من الاقلاع ، فإذا التفت الساق بالساق ، وكان إلى ربك المساق ، لم اسمع إلا النفس الأخير فى تمدده ، فإذا جاءت الطامة الكبرى ، يوم يتذكر الإنسان ما سعى ، لا يرفع أبى يدا ، لا يشير بأصبع ، حان ليديه ان تتمددا، ولقدميه أن تُضما ، وللاستسلام ان يرسو فى الحدقتين ، والخوف الإنسانى من رحلة مجهولة ستبدأ ، لم ينبىء إنسان قط بمراحلها ، ودروبها ، ومحطاتها ، فإلى ربك الرجعى ، هذه لحظة لم اقف عليها قط ، محتواها مجهول ، فلا بوح ولا نطق ، ولا تصريح ولا تلويح ، ولا رمز ولاافصاح ولا اشارة ولا كشف ، ولا عبارة ولا لفظ ، ولا حرف ولا كرامة من تلك الكرامات ..

آخر ماتسمع أمى ..

ـ خلاص .

يسقط الكوب الساخن من يد أمى .. يقول أبى واهن القوى :

ـ سامحونى بقى ..

أجعر فى منفاى ..

ـ أبويا ، على أى شىء نسامحك ، سامحنا أنت ، اغفر لنا أنت ..

وكان جعيرى بمثابة ادراك الحاصل فى الفائت ، لم أدر أننى ثقبت فراغ المسافات ، فأيقظت نفسى من رقدتى فى باريس الأوروبية ، فجرى لى حال يصعب وصفه أو ايراده أو تفصيله أو بسطه أو الحديث عنه أو نقله ، عرفت سر يقظتى الملعى ، وانكراش نفسى وفزعة روحى ، أنا من ايقظت أنا ، وأنا من ايقظت أنا فى اللحظة عينها التى يخرج فيها أبى من الكون المعروف لنا ، « والشمس تجرى لمستقر لها ، ذلك تقدير العزيز العليم ، والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم » ، فيا دهر ارحم ، يادهر لاتعجل ، إنى اعرفك ، إنى مدركك أنت من نهونى عن الاستفسار عنك ، أواجه أبى برأسى المقطوع فعيناى بعينيه ، وفمى بفمه ، وخلجاته بخلجاتى ، لكنه ماض وانا باق ، عيناه ناحيتى ، كأنه يغالب شيئا مجهولا ، لا يراه إلا هو ، لايلمحه إلا هو ، فهل أدرك وضعى ، هل تداخل زمنه بزمنى ، هل رآنى ؟ ما من جواب قط ، « عم يتساءلون؟ عن النبأ العظيم ، الذى هم فيه مختلفون ، كلا سيعلمون ، ثم كلا سيعلمون » ، ينتفض رأسه مرة ، ثم مرة ، انتفاضة واهنة مركزها الذقن . هنا يخرج أبى خروجا لا دخول بعده ، يتمدد جسده مطيعا لكل من يشاء ان يقلبه ، اسمع صوته من بعيد كما جاءنى فى بداية تجلياتى : « لاتخف ولاتحزن ، كان موتى مريحاً ، انتهى كل شىء فى سبع دقائق » .

غير اننى عند هذا الحد من ذلك المقام كنت انزف ، ومن بين نزفى يقينى بالحقائق الأزلية ، كنت على شفا حفرة ، أمى توقظ أخى ..

ـ قم ، يا إسماعيل الحقنى ، أبوك خلصان ..

يهرع ، ينظر ، يجس النبض ، القدم العارية التى سعت وكدت ، برودة لم يعرفها قط ، أما الجسد الذى احتوانا فقد تقلص حجمه وتضاءل ، انكمش أمام الهول الأكبر ، والتفت الساق بالساق ، إلى ربك يومئذ المساق .

يجرى إسماعيل باتجاه الجهات الأربع ، الأصلية والفرعية ، إلى نقطة الأسعاف القريبة ، يجيء رجل غريب لم ير أبى أبدا ، لايعرف عنه شيئا ، فحص واصغى ونظر ، أنظر معه ، أتساءل فى منفاى عن لحظات أبى الأولى هذه ، أول اقلاعه صوب الأزل ، اين موقعها من اللحظات التالية ، أثمة فارق بينها وبين لحظات ستجيء بعد عام ، بعد عامين ، بعد مائة عام من زمنتا الدنيوى ؟، لن تمضى ساعات إلا ويبدأ البلى ، اليدان اللتان اشارتا وطبطبتا وحنتا علىّ ، والفم والقلب والعينان ، أيزول هذا كله ؟ ايفنى كأنه لم يكن ؟ ايغلق الدرب ، اينتثر الفلك ، هل يبث زمانه بثا حتى يصير كالعهن المنفوش ، فيا دهر ارحم ، يادهر غير ما عرفناه ، يادهر ما أنت ؟، ها هو ذا أخى يحار ، إلى من ؟ إلى الطابق الأعلى حيث جيراننا الطيبون ، إلى البيت المجاور حيث يسكن صاحبى فى الطريق يوسف القعيد ، إلى بيت قريب حيث يقيم ابن من أبناء بلدتنا اسمه مدحت عاصم ، إلى إبراهيم أبو الفضل فى العباسية .

ـ أهذا معقول ؟ كان عندى أول الليل ..

إلى مصر القديمة ، إلى اقاربنا وأهالى بلدتنا ، من أوصاهم أبى أن يدفن فى مقبرتهم ، ليس لنا مدفن ، وكما افصحت ليس عن اهمال ، لكن عن قلة حيلة ، وضيق ذات يد ، يجيء الحاج عوض ، الحاج يونس ، أخوه محمد أحمد على ، عبد العال ، وجمع أحبوا أبى وأحبهم ، يدخلون ، أولهم محمد أحمد ، يكشف وجه الحبيب :

ـ السلام عليكم يا أحمد ..

يخاطبه باللسان البشرى :

ـ لا تخف يا أحمد لا تخف أبدا ، أهلك جاءوا إليك ، كلهم معك وحولك .

يلتفت إلى الواقفين :

ـ بصوا ، إنه يضحك ، طول عمره كان يغالب الهم بالضحك . وهو الآن يضحك ، أمثل هذا يخشى عليه ؟ .

.. أرى زملاء أخى إسماعيل ، جاءوا فى الزى العسكرى ، كلهم لم يلتق بهم أبى ، لم يعرفهم ، يحملونه ، يتبادلونه ، ما أنا إلا مجرد ناظر إليه ، غير قادر على المشاركة ، على حمل أبى ، فأى ضيق يمكن أن ينزل بى أكثر من ذلك ؟ ، وكما نزل مصر أول مرة وكان مقصده ضريح سيدنا الحسين ، مضوا به إليه ليكون آخر مكان يلج فراغه قبل الرقدة العظمى ، وضعوا الصندوق الذى يحوى ما يحوى ، ولوا الوجوه تجاه المسجد الحرام ، بسطوا الأيدى ، واطرقوا بالنظر الخاشع ، يقول المصلى على الميت ، « هذه ايدينا قد رفعناها إليك فى كل حال ، ليس فيها شىء ولا تملك شيئا » ، احلق فى فضاء المسجد غير قادر على السجود ، فأعضائى نائية عنى ، اسجد بفؤادى ورموشى ، اسمع شيخى الأكبر يهمس لى :

ـ « الجسم خلق من تراب ، وعاد بالموت إلى أصله ، فلا فرق بينه ، فى حال انفصاله وبروزه ، كونه على وجه الأرض أو حصوله تحت التراب ، فهو منها » .

أراه يقف فى المسافة التى تفصل المصلين عن النعش ، هم لا يرونه ، أشهد جمعا يحيط به ، يرتدون الثياب البيض التى لم تعرفها ابرة خياط ، اعرف منهم

جمال عبد الناصر ، والحر الرياحى من قاتل مع سيدى الحسين ، أما الآخرون فأجهلهم الجهل الأتم ، وهذه مسألة دقيقة عظيمة فى طريق أهل الله ، ماتحصل إلا لأفراد يعز وجودهم ، كلهم اطرقوا خاشعين ، « والضحى والليل إذا سجى ، ما ودعك ربك وما قلى ، وللآخرة خير لك من الأولى » ، لما فرغوا من الصلاة رأيت غرباء من دنياى لايعرفون اسمه حتى ، أنا الوحيد المنفى ، أنا الوحيد بمعزل ، الوحيد بمنأى ، جمال عبد الناصر فى ثوبه الأبيض يبكى ، أطوف حول دليلى وشيخى الأكبر ، يشارك فى حمل أبى ولايراه أحد ، لما واجهته ، لما رأى ملامحى ، نهرنى بالنظر ، لم أخش ، لم أرهب ، صرخت :

ـ « امض بى إلى الزمن ، اصحبنى إلى الدهر » .

يبدو شيخى فزعا لا دهشا ، ألمح القوم يخرجون بأبى من المسجد ، اهم باللحاق به ، غير أنه قذف بى إلى حجب سحيقة ، نأيت النأى الأعظم ، فـ « لا أقسم بهذا البلد ، وأنت حل بهذا البلد ، ووالد وماولد ، لقد خلقنا الإنسان فى كبد ، أيحسب أن لن يقدر عليه أحد » . أفقت من غشيتى ، فإذا بى ماثل فى الديوان ، بلا دليل ، منبوذ فأنا سقيم .

* * *

منتهى..

«الذين ضلّ سعيهم في الحياة الدنيا
وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً»

.. جيء بي إلى الديوان ، لم أدر ، هل أنا راجع أم ماض قدما فى الطريق نقول إن الشمس عادت إلى الشروق ، وماعندها رجوع ، بل ساعية فى طريق ، غير ان الدنيا التى تواجهها ليست دنيا الأمس ، كل يوم فى شأن ، أمثل بين أيدى سادتى والحيرة قد زعزعت سوارى اليقين ، على بصرى غشاوة ، وفى فكرى اضطراب ، وفى علمى جمرة شبهة ، جئت مثقلا بالتساؤلات ، وليس مجرد سؤال ثالث تبقى لى ، ونهيت عنه ، هذا التبدل والتغير والفوت الموجع ، أنى قاب قوسين أو أدنى من المعنى ، لم أخش البوح حتى وان خالفت تحذير مولاى ..

ـ « ياجمال ، ألم أنهك ؟»

أشخص بكلى ، اسمع ولا أرى ، إذن ، ضُرِبَ حجاب ، أقول :

ـ « بلى » .

ـ « لماذا تطرقت إلى مايجب الحذر منه ؟» .

كدت أهم بالجواب ، غير اننى اسمع مولاى الحسن ..

ـ « ألم تطلب رؤية مالم تره ؟ » .

أقول :

ـ « بلى »

تسألنى الطاهرة رئيسة الديوان :

ـ « ألم تر؟»

أجيب :

ـ « نعم » .

ثم قلت :

ـ « أفضتم علىّ ، واسبغتم فازددت حيرة » .

ثم أقول :

ـ « لماذا الذهاب والفوت ، لماذا النسيان ، ومن يمحو الأيام الغالية منا ؟ ، من يبسط ظلاله فيبهت ما ظننا انه لن يبهت أبدا ؟» .

تقول سيدتى النورانية :

ـ « بدأت بالتساؤل ، وكذا تنتهى ..» .

لا استطيع الكتمان فأصرخ :

ـ « إنه الدهر ، الأزل ، إنه الوقت ، إنه الزمن ، إنها اللحظة ، تعددت الأسماء والمسمى واحد ...» .

يقول سيدى الحسين :

ـ « يا مسكين ، ادركت العرض ولم تدرك الجوهر ..»

اسمع رئيسة الديوان تنطق الكلم الموجع :

ـ « ياجمال ، هذا فراق بيننا وبينك ..» .

يقع البهت فلم انطق ، وان رددت فى خاطرى « والله إنّى ليحزننى ذلك » ، لم أدر ما أنا صائر إليه ، فزادت على الحيرة المذمومة ، أرعبنى ذلك ، سمعت الهاتف الذى نادانى أول مرة :

ـ « اصغ » .

رئيسة الديوان تخاطبني ، صوتها بعيد ، لكنني لا أخطئ الشبه بينه وبين صوت أمي :

ـ « ستقاسي فراقا جديدا ، لن تعود إلى عالمك الأرضي الذي ولدت فيه ونشأت ومنه جئت ، لقد صرت سقيما ، وبعد تصريحك وتلويحك لن تصلح للاقامة هناك ، ستحل مكانك صورتك البشرية ، جوهرك ومعناك سيمضي إلى الجهة التي قدمت منها هذه الصورة ، ستصبح حارسا أبديا من حراس اللوح المرصود ، أما وجودك الحسي فسيتفرق بددا . » .

إذن ، وقع الحكم ، وحم القضاء ، وددت لو احظى بطلة من أحبابي الذين استوطنوا قلبي ، مولاى وسيدى الحسين ، أبي ، أمي ، عيالي ، عبد الناصر وصحبه ، رفاقي الذين بقوا على عهدى ، غير أن سادتي شاءوا أن اتبدد غريبا ، وحيدا ، نائيا عن الكون كله ، ولما انتهت مخاطبة رئيسة الديوان ، حننت إلى أمي الحنين كله ، فتوجهت بصمتي إلى مولاى ضياء قلبي ليطمئني قبل أفولي .. وقبل أن يرتد إليَّ طرفي سمعته ينبئني :

ـ « .. اعلم يا جمال أن والدتك فارقت الحياة الدنيا ، وأنك ودعتها بصورتك البشرية ، وصليت عليها فى ضريح السيدة عائشة رضى الله عنها وأرضاها ، لهذا تجلى لك الضريح فى مقام الأغتراب وحاولنا تنبيهك ، وإنما شئت أن اخبرك لأنك صدقت وإن اخطأت .. »

لم تتح الفرصة لأبدى رد فعلى ازاء النبأ العظيم ، ولا لتسديد أسئلتي ، متى ، وكيف ، لم اعلم أبدا ، فى التو ألجم لساني ، رأيت سائر أعضائي التي تفرقت عني تسعى أمامي ، فذراعي اليمنى تودع اليسرى ، وقدمي تلامس قدمي ، وقلبي يسلم على كبدى ، وكبدى تنظر إلى كليتي النظرة الأخيرة ، كذا رئتاي وعروقي ومسام جلدى ، وشعرى ، كل شعرة تودع الأخرى ، فارق

لسانى حلق ، ثم بدأ كل شىء يعود إلى صورته الأولى ، يتجزأ إلى ذرات تتفرق ، تتباعد ، تتوزع إلى أرجاء الكون فلا تجتمع منى ذرتان فى مكان واحد ، لم تعد لى كينونة مادية ، فلا أنا شرقى ، ولا أنا غربى ، ولا أنا بحرى ، ولا أنا قبلى ، ولا أنا من العنصر الأرضى ، ولا الطبيعة ، ولا أسكن فلكا ، لم أعد من تراب ، ولا من ماء مهين ، ولا من هواء ، ولا من مارج من نار ، لا فصلى ولا كلى ، أما جوهرى اللامرئى بالنظر فيبدأ الرحيل إلى مستقره ومأواه حارسا على اللوح المحفوظ المرصود ، المدون به كل ما كان وسيكون ، محل صورتى البشرية الساعية فى الحياة الدنيا حتى سقوط ورقتى من شجرة الخلق ، ويمحى اسمى من اللوح الذى سأصير رصدا من أرصاده ، القائمين عليه ، فأين أنا يا أحبائى ؟ ، لا أنا حى ، ولا أنا ميت ، لا أنا قريب ولا أنا بعيد ، لا أنا راحل ولا أنا ماكث ، وهذا سر عظيم اكشف عنه وأجهر ، فسبحان من له الدوام .

جئت الديوان مكتملا وأفارقه بددا ، موزعا على الكون كله ، ما يدرك منه ومالا يدرك

عند هذا الحد اضطر إلى الكتمان ، وأنهى السفر الثانى من كتاب التجليات ، دونه الفقير إلى أحبابه ، الغريب الحائر فى دنياه ، المنفى إليها ، صورة جمال بن أحمد الغيطانى ، غفر خالقى لصاحبها الذنب والتقصير ، والأفعال التى لن يشفع لها إلا الجهل وحسن النوايا ، وسامحونى يا طلاب نسيمى لو كنت أطلت ، أو أوجزت وما فصلت ، فالأمر ليس بيدى منه شىء ، واقرئوا اصلى الذى هو صاحب هذه التجليات السلام ، لو كان حيا بوعيه ، أو اطلبوا الرحمة وهدوء المستقر والمأوى لذراته الموزعة فى الكون بددا ، وسلام عليه يوم ولد ، ورحمة له يوم تسقط ورقته ويمحى اسمه ورسمه ، وشفاعة له يوم

يبعث حيا ، كان الفراغ من هذا السفر المبارك يوم الأحد ، تاسع عشر ربيع الثانى ، عام الف وأربعمائة وأربعة هجرى ، الموافق الثانى والعشرين من يناير عام الف وتسعمائة وأربعة وثمانين ميلادى ، ويعقبه سفر ثالث ، بإذن الواحد ، الأحد ، الذى كل يوم هو فى شأن .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

* * *

السفر الثالث

« إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد »

(قرآن كريم)

بسم الله الرحمن الرحيم

* * إنه مفتتحي * *

أما وقد بحت بقبس من مكتتمى ، فإنى على شفا المكاشفة بجلى ما أخفيته ، إذ جاء الإذن عند هذا التقييد ، فسبحان من فسر لى دلالات أسمائى ، وبين لى من سأكونه ، وفى أى حيز ستتم الكينونة ، البدء والتمام ، النقص والأفول ، لن أدارى أبدا ما أمرت بفضه والتصريح به ، حتى الدقائق التى سترجف قلبى أو تنبه غوافل فؤادى ، من صريح عبارة أو غامض إشارة أو ثنايا لحظة مارقة ، ومالا أعرف كنهه .

سأفضى ، سأصرح ، إلا إذا ورد التنبيه بخلاف ذلك ، ما أنا إلا غريب ، والغريب عابر غير مقيم ، هذا الكون منفاى ودار هجرتى ياصحبى ، مقامى لم يعد به منذ أمد سحيق ، أوفيت مدتى فأنا عتيق ، سعيى وعر ، محلى ناء ، ماجئت إلا امتثالا لأمر ، لم يكن بوسعى إلا الإذعان بعد تكاثف غيوم حظى وسوء بختى ، إنما أنا غريب ، مستوحش من الإلف ، والألفة فى غير الوطن وحشة : وماهذه الدنيا بديارى .

جىء بى إليها فأنا وديعة ، ويوما لابد أن ترد ، وكثرت أسفارى فأنا راحل ، وطال خروجى .. فأنا مهاجر ، زهدت فلم أملك ، وجفت ضلوعى المضاجع فأنا أرق .

لم تلهنى تجارة ولابيع ، فأنا زاهد ، ظاهرى مغبوط .. أما داخلى فشوش ، عندى شغل قلب ، ذو ارتقاب لما سيحل بى عند كل خطوة ، أصير إلى شخص أجهله، وهذا لب اغترابى وعين افتراق عنى، ذلك أننى شغلت أعز موضع ، إذ كنت من الحافين ، المهومين ، المحيطين باللوح المحفوظ ، واللوح أمره جلل، لايمكن إدراكه بالمخيلة ، أو تعيينه بوصف ، فمن الاستحالات وصف مقامى القريب منه ، فظلال المعانى المجردة لاتقال ، لو قيلت لدخلت فى المحسوس فالعبارات من المواد ، عندئذ تنتفى صفات المعانى .

المحاولة عسيرة ، إذن .. فلأقصر خشية العجز والتطويل ، اللوح ياصحب ليس بوسع كائن النظر فيه ، أنفاس الخلائق محصاة ، معدودة به ، كذا الأسماء والأفعال ، والإنس ، والطير ، والجماد ، والمجرات ، والسدم ، ومواضع لاتدرك بالحواس ، وماشجرة الكون التى أطلع عليها من هو أصلى فى هذه الدنيا إلا طرح من طروحاته ، وما الديوان ذاته إلا تفصيل من مجمله ، ذلك أن الديوان اختص بالعالم الأرضى ، أما اللوح فوسعه ماكان ، وماسيكون وماهو كائن ، مبسوط لمن بيده الأمر ، من يبدأ ويعيد وينهى ، من ينشر ويطوى ، من يبدل الحال ، له الدوام كله ، أعاننى وأيدنى على ما ابتليت به ، عسانى بهذا الإفصاح ألا أكون قد تجاوزت ماقدر لى وماحدد ، وماقدومى إلا عقاب .

لن أفيض عن وجودى الأول النائى ، مايمكننى قوله إننى كنت قديما من أهل الجهاد ، ناشرا للبيارق ، حسبى وكفى ! الخوض هنا خطر ، لوفتحت فيه ستور فتن فعذرا ..

أقول يابنى الأكرمين إننى قضيت حولا لايمكننى تعيين مقداره ، يطوينى زمان وما من زمان ، أقطع المراحل ولامكان ، وإنى مطلعكم على حكاية شائعة بين القوم ، من فهم باطنها أدرك ما أقول ، تنوع الحس وتضاعف السنين فى

الزمن اليسير ، وجود الكثير فى القليل ، إنها حكاية الجوهرى ..

يقال إنه خرج بالعجين من بيته إلى الفرن وعليه جنابة ، فجاء إلى الشاطئ يغتسل بماء النيل ، فرأى فى الماء مثلما يرى النائم ، كأنه فى بغداد وقد تزوج وأقام مع امرأته ست سنين وأولدها أولادا ، ثم نزل يوما ليستحم فى دجلة ، وفى الماء رد إلى نفسه ، خرج من نهر النيل ، لبس ثيابه قاصدا الفرن ، أخذ الخبز وجاء إلى بيته ، أخبر أهله بما أبصره ، وبعد أشهر جاءت تلك المرأة التى رأى أنه تزوجها فى الواقعة تسأل عن داره ، فلما اجتمعت به عرفها ، وعرف الأولاد وما أنكرهم ، قيل لها : متى تزوج ؟ قالت : منذ ست سنين ، وهؤلاء أولاده منى ..

لعلى بذكر هذه الحكاية أكون قد قربت ، لكنني ، لماذا أشط ؟! لماذا أنأى ؟ لكم فى معراج المصطفى مافيه الكفاية فى هذا الباب ، أعنى بعد المسافات مع الزمن القليل ، لذا يبدو لى وقتى الذى قضيته حافا باللوح المحفوظ كمروق ظل طائر فزع على وريقة شجر خريفية ، إنى منقلب إلى من أجهل ، من لا أعرف ، من لم أكنه ، من عرف فى دنياه باسم جمال بن أحمد الغيطانى ، إنى هو وما أنا هو ! ، فالطف يامن إليه مسعاى ، إنى ممتثل ، مطيع ، لكننى مستفسر من حين إلى حين ، فلماذا أعاقب على هذه الصورة ؟ لماذا أغرب عن ذاتى ؟ لماذا تسكن روحى دار غيرى ؟ لماذا عوقبت هكذا ؟.

الآن ثمالة إنسانية لازمتنى فى طوافى باللوح المحفوظ حتى حركت عندى الخاطر : ماذا يحتوى ؟ لماذا نبقى فى منأى عنه ؟ لماذا نطوف بما نجهل ؟ بأى لغة يتم المحو والإثبات ؟ أية علامة ؟، أعرف المضمون فى جملته ، ماكان وماسيكون .. لكن دون التفاصيل سرابيل وعوائق .

وقع المحظور مع بدء التساؤل ، لم أكتم .. فحق على ماجرى . لم أخف فنزل

بى مانزل ، لم أقع فحاق بى ذلك ، بدأ إقصائى ، وكان الديوان المهيمن على العالم الأرضى أول محطى ، مثلت أمامه صاغرا ، لم أبصر رئيسته المباركة ، ولاعضويه النورانيين ، بجرت المخاطبة عبر الحجبة ، بالصمت .. فلم أنكر ، ولم أجادل ، ولم أطلب الرفق المتين ، تلك أمور لامحل لها ، بان لى أول عقابى ، أن أرجع إلى أصلى البشرى ، لكن ليس إلى كينونتى الأولى ، ليس إلى زمنى .. فذاك انقضى ، نزلت بى عقوبة النفى ، والنفى عامة انقطاع قسرى عن الأوطان ، ومحال التكوين ، وديار الألفة ، والإنسان فى منفاه ضعيف حتى وإن أحاطته عزوة وملة ، فالألفة فى غير الوطن استيحاش .

والعجيب أن أصلى ملاق نفس مصيرى بعد أن دنا من إدراك مايبدأ وينهى مايجمع ويفرق ، أما نفاذ عقوبتى فلتساؤلى وفضولى ، تحيرت فأبصرت ، وأبصرت فتحيرت ، وصلت فانفصلت ، عرفت المراد فضل عنى الفؤاد ، عساى ألا أتبرم ، أظهرنى فأخفانى ! أدنانى فنفانى ! ، والمعرفة لاطول لها ولا عرض ولامقر ، لافى سنن ولافى فرض ، راهبا راغبا وراغبا راهبا ، صهرت بغصة ، عوقبت بمفارقة المحل الأسمى إلى الأدنى ، أما عقاب من سأحل محله ، وألبس وجوده وكينونته البشرية ، فمفارقة دنياه ومألوفاته ، تبدد ذراته ، لاتلتقى منها ذرتان أبدا . أما أنا فلم أضل المدى ، أطلعونى على كل ما مر أصلى به ، منذ صرخته الأولى حتى تذريته ، صار موروثه ميراثى ، وسابقه عندى ، ولاحقه لاحق ، حتى تبدده ، إنى متقبل ، راض ، أفارق مركز الديوان بعد مثولى وامتثالى .

قبل ولوجى الحياة الإنسانية كان لابد من مرورى عبر الحجب . وهنا أكشف عن نطيفة مخفية ، فهناك سبعون ألف حجاب تحول بين دنيا الحس وبين المطلق ، الذى كنت فيه ومنه ، تكتمل الكينونة بالمرور عبر هذه الحجب التى

نصفها نورانى ، ونصفها الخارجي ظلمانى ، كلما اجتازت حجابا نورانيا فقدت صفة من صفات المطلق ، وكلما عبرت حجابا ظلمانيا اتصفت صفة حسية ، لذا قال بعض الكُمل إن الطفل يولد باكيا لتذكر الروح موطنها القديم ، وعند تمام اليقظة والإفاقة ينسى الإنسان بوعيه ماكان عليه ، عدا لحظات الحنين الغامض الملغز المحير ياصحب ، إنما يسرى متمهلا ، قويا فى وهنه ، وعندى كلام يطول عن هذا الحنين سأفصله فى سفر آخر لنا من هذه التجليات المباركة .

ومذهبي فى هذا التدوين هو الاقتصار ، والاختصار جهد الطاقة .. فإن الأمر كبير ، والفروع تكاد لاتنحصر ، ليس بوسعى ذكرها أيضا ، لأن النفوس تنكر مالاتعرفه ، وتدفع مالم تألفه ، لولا ذلك لفصّلت وعدّدت ولأخبرت .

إنى مطلعكم على نتف من ذلك .. فأول حجاب عرفته .. الفوت ، والثانى الندم ، والثالث حجاب ذكر فإنما أنت مذكر ، والرابع حجاب وكما نسيت اليوم تنسى ، أما أشد الحجب علىّ فحجاب العصر إن الإنسان لفى خسر ، ثم جزت حجب السبب والطلب والعطب والحزن والأسى والصفاء والرفق والصدق والعتق والتسويح والترويح والتمنى والعجز والقوة والفوت والإدراك والشهود والوجود والعدم والكد والردّ والامتداد والطوى والامتداد والجمع والانفراد والوصل والقطع والطرد والحد والانقياد والمراد والحضور والغيابة والإحاطة والتدبر والتحير والتفكر والتصدير والتغير والرعاية والهداية والرفض والبداية والنهاية . وكان آخر ماجزته حجابا وعرا هو الفوت الذى لحقنى منه أثر بليغ ، وهو أيضا حجاب من نعمره ننكسه .

هكذا تم تأهبي ، ألق فى معارفى أننى مفارق إلى دنيا الحس التى عرفتها فى قديمى قبل تحولى إلى ظل فى الصورة ، وصدى للون من ألوان المنظومة ، عند هذا الحد ، ظهر عندى مهيب راسخ ، أول من أرى وأسمع ، خاطبنى بلسان

شفوق ، وهذا جل مايحتاج إليه من ينزل أول محلة فى الغربة فيروده اطمئنان إلى حين ، قال لى مانصه : « يابنيا قبل أن تولد ، أنتِ راجع ولست براجع إلى دنيا تقطعت بك أسبابها ونسيت أعمالها ، ياولدى . » اعلم أنك ماض إلى رحيل دائم ، فما من إقامة أبدا ، امض .. إنما أنت العابر ..

أتساءل .. وهذا أول نطقى ..

أنت من ؟.

لم يجبنى ، إنما استمر ..

« اعلم أن دليلك مجاهد ممن عاشوا الزمن الوعر » سيتجلى لك عند استبهام أمرك ، وانسداد جهاتك ، وانقطاع سبلك ، سيأخذ بيدك ويقيل عثارك ، اتبعه ، جادله بالتى هى أحسن ، إن وقع الخلف معه ، فهو ممن غرسوا راياتهم فى الحقبة .. لكن احذر أن تسميه ، لاتفصح عن هويته فيما ستدونه .

ومن أنت ؟.

يغيب عنى ، مع أنى آنست منه ودا ، حتى تمنيت لو آتى من رقته بقبس تعيننى فى أوقات الجفوة ، ألقى فى معارفى أن دليلى هذا سيبدو لى عند الضرورة ، وأن أمره عند القوم عظيم ، منهم المطالب بدمه ، ومنهم الباذل دمه من أجله ، ولو ظهر فى مجال المرئيات لوقع اضطراب ، وقامت هوجات ، فسبحان من أخفى سره عن قوم ، واطلع عليه آخرين .

عند هذا الحد انتهيت إلى منابع قوس قزح ، مجمع ألوان الطيف كلها ، قسماتها ودرجاتها وظلال كل منها على الآخر ، مالا يدرك بالنظر ، مايعجز عن احتوائه البصر ، أودع ما كان ، أتأهب لاستقبال مايكون ، حسبى ! سأطلع شيئا فشيئا على موارد صاحبى ومنابعه وماسيئول إليه ، أرى ماعاشه وأستعيد بالمشاهدة ما أفل من عمره ، ما انقضى من مدته ، أعيش ما كان ينبغى له أن

يعشه ، إذن . تكتمل عندى أمور ثلاثة اقترانها وعر ، القربة والحجبة ودوام الغربة ، فنعم أجر الساعين المكدين .

إنى وجل ، إنى خائف ، ألمس بقدمى بداية قوس قزح ، عليه سيكون نزولى ومعراجى إلى الدنيا ، من لب مجمع ألوان الكون يبدو لى شيخ صيغ حضوره من الأبيض الأشهب ، والأبيض الساطع والأبيض الكابى ، ودرجات أخرى لايسعنى تعيينها أو تدقيقها لضيق اللفظ والعبارة ، غير أن تباين الدرجات مكننى من رؤية ملامحه ، يتبسم ..

« صحبتك السلامة .. » .

تأخذنى هيبته ، أحار .. كيف أمكن لى إدراك ابتسامته مع أنه ملثم ؟!

« كيف لاقيت بيرقنا فى الجهاد ، علامتنا وصارى سفينة حظنا ؟ » .

يتكالب الغموض علىّ ..

« ألم تتعرف إليه .. مولانا الإمام على بن أبى طالب » .

تلقى فى معارفى جملة من الشروحات تجعلنى دهشا ، أهو بذاته ؟ .

« نعم .. وسوف تراه أخرى ، لكن قبل خروجك من هذه الدنيا ، عندما يحين ويدنو أجلك البشرى ، ستشهد احتضارا وعرا ولكن قصير الأمد ، سيقطع إمامنا ومرشدنا الحجب والمسافات ويجيئك ليساعدك على إتمام دورتك ، وإنهاء مدتك وإسبال جفنيك إلى الأبد »

يدركنى أسى إنسانى على نهايتى التى لا أدرى متى ستحين ؟ فأرثى ذاتى لحظة ميلادى ، وأبكى على رحيلى قبل بدء سفرى .

« وإنك لخائف ، والخائف مرحوم ، أبدا ، لذا أمرنى إمامنا أن أصلى بك صلاة الخوف فتأهب .. » .

أولى وجهى ، أتبعه ، أقتدى بما يفعله ، يؤمنى ، أبدأ صلاتى ، خوفى مما

أنا مقدم عليه ، مما أنا مسوق إليه ، خوفى أن أكون غيرى ، اكتساء ملامح من أجهله ، خوفى مفارقة اللانهائى إلى الموقوت ، المطلق إلى المقيد المعلوم إلى المبهم ، صبح الأزل إلى حيرة الطلب ، الوصل إلى التشتت ، فأى أمر أنا ملاقيه ؟ كنت آمنا لايروعنى ما أجهله ، لا آسو على ماض مستحيل استعادته ، لا أخشى داء يداهمنى فجأة ، لا أتوارى من حر ، ولا أتدثر من برد ، لاأعانى الحسد والبغضاء وقساوة القلوب ، وقلة الرحمة ، لا أعانى الطعن واللعن والسعى والغيبة والنميمة ، والزور والبهتان والكذب والرياء ، أحذر تشتت الشمل والبعد عن الأهل وهجرة الإخوان ، وبغض الإلف، وتشتت الأصحاب والوحدة والوحشة وتحرك أوجاع القلب ومرارة النفس وقتامة الأوقات إذ يدرك الإنسان أنه بمفرده أضعف من أن يبدل وضعا ثقيلا ، أخاف سوء المنقلب واستعصاء الغرض ، أن يمسنى لغوب ، فارحم ، وطمئن يامغير يامبدل ، يامن بيده كل شىء وإليه ينتهى كل شىء ومنه يبدأ كل شىء .

تنتهى صلاة الخوف ، يختفى الشيخ عنى فلا أعلم من أمّنى ، فاتنى السؤال ، أقف وحيدا عند بداية قوس قزح ، أخطو تجاه واقعى الجديد المحدث ، أولى الوجه إلى دنيا انقطع عهدى بها ، فسبحان محيى العظام وهى رميم .

أجتاز الغمام هابطا بلين ليس فيه مشقة ، أشم المطر والقطر قبل تكونه . من غمام إلى غمام أدنو ، لم يدركنى نصب ، تحرك عندى خفى الأمل ، هل العقوبة موقوتة ، لعلى منقلب يوما من حيث جئت ، الرحمة تلفنى ، وكريم يسلمنى إلى كريم ، بالغضبة ليست ماحقة وإنما ماحية ، والمحو لاينفى ، أما المحق فلا يبقى أثرا أبدا، هذا معلوم ، أحاذر أن أحيد عن ألوان الطيف ، أجىء إلى الدنيا إثر غيث غزير ، أستعيد بوعيى الآفل القديم رائحة المطر وامتزاجه بالتراب ، وبقاء قطرات منه عالقة بالأغصان ، لو أن ذلك باق لم يندثر ! ، أخرج من غمام

مختلف ألوانه ، تتسع حدقتى إذ أرى مهبطى .

مدينة فاس ، أرض مخضرة ، وجبل ضام ، وبيوت شهباء ، وطرقات كالمعانى كل منها مؤد إلى الآخر ، هذا مهبطى إذن ! تشب عندى شهوات انقطع عهدى بها ، أبدأ بتنسم المكان ، تنطبع روائحه عندى ، وهذا من خصائصى الخفية ، فكما ألمحت عند تدوين معراج أصلى ـ الذى سيبدأ بعد قليل ـ أن عندى وثيق صلة بالروائح ، فما من مكان طرقته ، ومامن امرأة صحبتها ، ومامن حدث جرى .. إلا كان ماتخلف من روائح عندى مدخلا لذكرهم ، انتبه إلى ما أنا فيه ، إنى أقف على جبل صخرى يشرف على فاس ، أرى شيخا مهيبا ، واثق الحضور ، ملامحه هرمة وخطاه شابه ..

« مرحبا بك فى الدار التى خرجت منها ..» .

يبدو وكأنه يتدارك أمرا كان يجب البدء به .

« ألم يصحبك السيد ؟» .

« من ؟ » .

« ألم يأت معك إلى المدينة التى ولد بها ؟ » .

« من ؟ » .

« بمن ودعك عند بدء قوس قزح ، المجاهد ، صاحب اللثام ، لماذا لم يصحبك .. أم أن الأوان لم يحن بعد !»

تغشانى اللحظات الغروبية .

« من هو .. ما اسمه ؟ فاتنى السؤال » .

يجيبنى معاتبا :

« أجهلت دليلك ؟، السيد أحمد البدوى ، كان بودنا الاجتماع به » .

يشير فأدنو ، وأنا مأخوذ بضوء مصباح بدأ يلمع فوق بيت يتوسط الجهة

الشمالية من مدينة فاس ، هذه أول خطاى ، هوّن عليّ يامن لا أول له ولا آخر..

« ليس لك معرفة بما ستراه ، لكنك ستتلقى المعرفة لحظة وقوع عينيك على الشيء بنفس القدر الذى كان سلفك ملما به ، فإذا كان مطلعا عليه جاز لك العلم ، وإذا كان جاهلا لم يبذل الجهد لمعرفته أو لم تتح له الفرصة فلن تدركه ولن تفهمه إلا إذا أبديت المجاهدة لاكتساب ماكان ممكنا له تحصيله . اعلم أنك ستقف على مايمر به أثناء معراجه فتكون كأنك معه وأنت لاتصحبه ، أما هو فلن يقف على ماستشهده أثناء إتمامك مدته فافهم ! » .

أصغى هيابا ، أتوق ، ماذا سألاقى ؟ فضولى يبدد بعضا من وجلى ، قربنى من أمور شتى فقدت منى بحكم المدة واتساع النقلة ، من ذلك قدرتى على الصحبة ، والإسرار بالنجوى ، واستعادتى لذة النكاح والنشوة والصبوة ، كذا الحنين ، واكتشافى أرضا أطؤها أول مرة..

« إنه هو ، يبدئ ويعيد ، وهو الغفور الودود ، ذو العرش المجيد ، فعال لما يريد..» .

تلى عليّ مارقرقنى ، فاحتويت فاس العتيقة بالنظر ، نضاحة بالقديم ، سيالة العبق ، فضفاضة الأريج ، فى المركز مسجد بنته العبدة المؤمنة زينب الفهرية ، أما المدينة والمسجد فلم أسمع بهما فى زمنى الأول المندثر ، هذا كون مغاير ، للبداية شدة ، خاصة إذا لم تتحدد المدة ، ولم توّطر الفترة ، سأكون من أجهل ، وأنادى باسم من لا أعرف ، أعايش قوما على أنهم جماعتى وماهم ناسى ، أنطق بلسانهم ، أجارى وأخفى ، فلى الصبر ، ولى السكينة ، ولى الامتثال بالأمر ، هذا دركى ، وهذا حظى من انقطاعى عنى وفقدانى منزلتى ، حتى ملامحى لاخيار لى فيها ، لاعلم لى بها .

الآن لايمكنني الاستدلال على ذاتي ، ربما ظننت أنني أتبع نفسي بينما أقفو أثر غيري ، يبسط الشيخ المهيب راحته ، يطيب خاطرى بالنظر فأهدأ ، يملس على شعرى ، يربت كتفى ، يوليني ظهره ، أتبعه ، اجتاز واجتزت ، مرق ومرقت ، عبر ناتئ الصخر وعبرت ، فضاءات البيوت ، والدروب والزنقات والجدران الصماء الملساء التى تتخللها أبواب خشبية ضئيلة المساحة ، ثرية الزخرف ، يتوقف عند مبنى كبير حديث البناء ، معهد لتلقى العلم ، ألحظ الخلق الذين سأسعى بينهم ، وإن علمت أن مقامى ليس هنا ، مازلت محجوبا لا أبين ، كذا شيخى ، صعد سلما وصعدت ، مشى ومشيت ، يقترب ، أقترب ، يلج قاعة فسيحة فأتبعه ، طاولة بيضاوية حولها جمع وصحبة ، ألمح بينهما شيخا من أدلة أصلى ، كنيته العالم واسمه محمود ، أتجاوزه ببصرى إلى من سأكونه ، من سأسعى بدلا منه ، بمؤخرة رأسه صلع سار ومشيب مبكر ، من عجب أننى شغلت بأمور تبدو ضئيلة ، وتغافلت عن ملمات كبرى ، غير أن مابدأت أشرع به غامض ، عسر علىّ شرحه ، صعب توصيله ، كيف أفيض وأسترسل فى شرح مالم يقع إلا عندى ، مالم يتفق إلا لى ، إذن .. لاتقارنوا ، فما من وضع يشبه وضعى ، أما الآن فلا فرار ، سد الباب وبعدت الشقة واستفحل الأمر ..

أخطو تجاهى .

امض إلى ، اقترب منى.

يأمرنى الشيخ الجليل بالنظر ، فأقترب لأجوز فى الوجود الحسى للماثل أمامى ، لى ، لمن دعى جمال ، أرتديه كما يرتدى الكساء بينما يخلع عنى ومنى كما ينتزع الرداء عن صاحبه ، أرانى فيه ويرانى نائيا عنه وكلانا واحد ، أنا هو وأنا لست هو ، غير أننى كنت أدرك جانبا من أصل القضية ، أما هو فالأمر عنده مبهم ، مستغلق عليه بالكلية ، فمن أنا الآن؟ من أنا من ؟.

أنا هنا أم هناك ؟ أنا موجود أم معدوم ؟ أنا راحل أم مقيم ؟ أنا شيء أم لاشيء ؟.

يتم انخلاعه مني في وقت نفاذي فيه ، يراني فيبهت وأراه فأدرك ، ألقاه وأودعه في آن معا ، أندمج به وأنفصل ، ألقاه وأفترق ، فنعم أجر الساعين ، يبدأ نأيه ، يعبر الصالة ملبيا نداء الشيخ الجليل ، واني راغب في تفصيل هذا الحال ، لكن يمنعني خوف إملالكم ، ونفور طبعكم وتعجبكم مما لاقبل لكم به ، فأعطف العنان صوب الاختصار ، غير أن أحوال أصلي في هذه اللحظة فصلناها في موضع آخر ، فليرجع من يشاء لمطالعة خاتمة مقام الاغتراب ، لعل فيه شفاء للغليل ، أما الآن فبيني وبيني بعد بعيد ، يصيح بي الشيخ قبل تواريه عني ..

« سلم لي على دليلك عندما تلقاه ، بلغه السلام الجميل ..» .

أقول :

« بسلام ممن ؟» .

يلتفت محمود العالم الجالس بجواري دهشا ، إذن .. صار صوتي مسموعا فلأحذر ، فلألزم السكينة ، فلأمتثل ، غاب عني أصلي في هذه الحياة الدنيا ، تتبيء خطاه الوداعية بهم ثقيل ، آن لي أن أواجه حضوري ، فكأني كأنه وكأنه كأني ، سبحان من يخرج الأشياء من أضدادها ، يخرج الميت من الحي ، ويخرج الحي من الميت ، يخلق من الشجر الأخضر نارا ، يخفي الأمور في أندادها .

إني مقبل على رؤية مامضى وماسيجيء في آن واحد ، سأتقلب في الظاهر وأثبت ، سأدخل بلادا لم أرها وأقاليم لم أفكر يوما في طرق بواباتها ، سأضطجع في مواضع لم تدر بخلدي أبدا سأوزع في أرجائها مقادير من عمري لن أستردها أبدا سأسعى وأرتزق وأنفق وأفق ، وألقى وأنكح من لا أعرفهن الآن ، وأتوه في

ديار لم يخطر عندى أنى بالغها أبدا .

سأفض سر الحرف العربى ، أتبع أصابع أبى إذ تشير فى بطء إليه فأعرف أشكاله قبل تعلمى الدروس الأولى ، وهنا أمرى عجب ، سأرحل إلى عوالم شتى وأنا مجاور لجدران الأزهر العتيقة النازة بمندثر الأزمنة ، أنكب على السطور ، لا أتبع خطة ، لايوجهنى دليل ، لايؤمنى مرشد ، تؤازرنى الشمس بمدد من ضوئها يرشد عينى فى تحولاته المتعاقبة على مهل ، حتى إذا غربت وتم الغسق ، أنتظر مجىء من يشعل فوانيس الغاز ، أتم مابدأته بينما بائع الكتب يغفو ويفيق موجها نظرى إلى الطريقة المثلى للإمساك بالكتاب حتى لايبلى ، حتى إذا فرغت أعطيه ماتيسر من مليمات ، ثم أمضى إلى البيت راحلا فى الوقت ذاته إلى دنى شتى ، سأقرأ فى قاعات متباعدة ، هنا ، هناك ، فى الثبات والحركة ، فى أغوار الفضاء الفسيح ، فى أعماق الموج السحيق إذ يضمنى مركب الغوص لأيام معدودات ، لن يفارق يمينى كتاب أبدا ، طمأنينتى وعين أنسى ، فى إقامتى وغربتى ، لا استثنى إلا أيام السجن ، فترة قهرى ، عندما باعدوا مابينى وبين ما اعتدت ، مامن كراس سأقف عليه إلا وألزمه ، سير الأولين ، المغازى والمعاناة ، الفروق بين الفرق ، تصانيف المذاهب اللوحات ، المنمنمات ، فى الأغلب الأعم أنهل وأطرح جانبا مما آخذ ، وقد أحصل بينما ينقص منى بعض ما اكتسبت ..

مامن أهل مجاهدة أو كفاح إلا مخالطهم ، أمنح جل ما أستطيع بقدر ماتمدنى الطاقة ، حتى إذا استشعرتِ مالا يلائم دخائلى ، مايتناقض مع استمرار أمرى ، أبدى الإشارة ثم أفصح عن المعنى ، عندئذ يختلف القصد ، تتباعد السبل ، غير أنى لم أبغض شيوخى قط ، كذا زملاء الجهاد حتى وإن حادت عن غاياتها الأيام ، إنى أطوى ولا أنشر ، وأردد ، رحم الله من علمنى حرفا ،

ومن وقف إلى جوارى لحظة إطلاق سهما ، أو مصارعتى عادية رمانى بها الدهر ، أو عند فضى مغاليق عبارة ..

ومن عجب أنى سأسمى بأسماء تخالف مااختاره لى الوالد الكريم، فمن ذلك كمال ، وخالد ، وفريد ، وابن إياس ، والجهينى ، ومحيى الدين ، وغير ذلك كثير ..

كذا سأوسم بصفات شتى ، شاطر وخائب ، مقدام وفزع ، تلميذ وقارئ وأستاذ ورسام وصانع ، موظف ومسافر ومجاهد ومتقاعس ، خطيب وصامت ، رقيق وجاف ، عالم بدقائق لاحصر لها ، جاهل بأمور جمة بعضها يسير هين ، صاحب وخصم ، قريب بعيد متباعد ، شجاع فى حرب عشتها وشاهدتها حتى أنى لم أهب الموت والردى من أجل أهلى وناسى ، جبان حريص فى حروب أخرى أشهدت جانبا منها نائية عن موطنى ، مخلص بلا حد لمن وفى وجاوب ، منقلب ، صارم على من خان الأمانة وبدد الوديعة ، مانح فى فيض ، ضان فى عسر ، لن يفوتنى شىء خلال السعى والطواف واتخاذ الوجهة إلا استوعبت منه مقدارا ، من ذلك كظمى الغيظ ، وابدائى الشكوى أو كتمانها ، كذا بوحى وثورتى وغليانى وكتمى فورة أنفاسى ، وهذا أعظم ماضرنى ولحقنى ، لكننى فجأة أصرخ وأجعر عندما ينتفى الحل وتنفذ الطاقة وتهن القدرة ، صليت ، ركعت ، تهجدت ، قبلت أيدى مشايخ أجلاء ، وقسس ، وقامصة ، خطبت على منابر عتيقة ، وفى خلاء فسيح ، أممت جمعا .

حدث أثناء سعيى من أجل رزقى وتكسب معاشى أن وصلت قرية صغيرة شرق النيل ، وشرقه قفر ناء فى صعيد مصر المحمية ، حان وقت صلاة الجمعة ، علم الجمع أن الشيخ به مرض ، التفتوا إلىّ ، قالوا .. أنت من أهل العلم .. تفضل ، هكذا قمت خطيبا وركعت إماما ، اتخذت موضعا فى صفوف

الكنائس ، تجولت فى معابد الأقدمين ، أطرقت رهبة وخشوعا لمن نحتوا أعمدتها وخطوا الأشكال على جدرانها ولونوا رسومها ، وتسلقت صخرا وعرا لألقى نظرة إلى بقايا طفل قدموه قربانا فى الزمن العتيق ، ولجت معابد ينتمى ناسها إلى ملل شتى ، تحدثت وأفضت وفصلت إلى جموع أجهلها ، تلعثمت مرتبكا فى حضرة من أهوى ، أفضيت وناجيت وتأملت وبحت فى خلواتى ، هذا طبع غلب علىّ ، إذ أننى شسور دائما على مافات ، ماتبدد ، نازف أبدا على مافقدته ، ماذرته الأيام بلا رجعة ، حتى فى أوقات طمأنينتى ولحظات استكانتى وراحة بالى أصغى إلى دبيب خفى لايبين ، أدركه بقلبى ، لا قبل لى بمنعه ، بإيقافه ، بتأجيل سريانه ، بتخفيف ماسيمليني به ، وهذا لب عجزى ، دائما لا أعرف الكنه ولا أفض السر إلا بعد الفوت ، أغفو عندما يتاح لى ، وأهمل عندما يتيسر لى الأمر ، وأدنو من حافة اليأس والجنون إذ يستعصى علىّ .. وتفصيل ذلك عظيم ..

تصديت لقوى لا قبل لمخيلة بتصور عنفوانها ، وشرورها ، وقدرتها على إلحاق الضيم والأذى ، وحلت بى المزيمة فى مواجهة لحظة غروبية ، أو عند هبوب نسمة خفية لاتفصح عن وجهتها فى ساعة عصر بالتحديد ، وكدت أجثو أمام نظرة مخلوق ضعيف لايمكنه التعبير ، كما يسح دمعى لرؤية طاعن فى السن لايقدر ، أما ما أرجفنى .. فإطراقة امرأة عجوز عابرة مجهولة عندى أحيت لدىّ سعى أمى وكدها .

تشاجرت واشتبكت ، نجوت بالصدفة ، مرقت مراوغا الموت ، عشت زمنا كان ينبغى أن أفقد فيه ، رأيت بعينىَ مروق الشظايا عبر أجساد الخلائق ، عبرت الخلجان ، متفرجا ، مسافرا ، مهاجما عدو بنى قومى فى وكره وقصدت مهاجمته فى وكر يتمكن منه ..

ابتسمت من القلب ، ومن وراء حجبه ، أومأت صدقا ، وحننت ، ألبت وألبت ، نزلت بين الأجلة ، رافقت الجهال ، نلت رفعه وعكمتنى ذلة ، ودبر فى قتلى غير مرة ، صارعت ، هادنت ، رابطت ، قررت ، جاورت ، سلكت ، تقلدت الأوسمة ، عريت ، افتقرت ، أثريت ، اقترضت ، أحببت ، عشقت ، ثم انقلبت كارها لمن همت به ، كاتبنى قوم من كل فج ، أنجزت القليل الأقل ، وعجزت عن الوصول إلى ما أرغب وأنشد فى الكثير.. الكثير ، رصدت خطواتى ، رفعت بصمات صوتى ، فتحت لى ملفات واضابير شتى فى جهات لاحصر لها ، وكتبت فى آلاف التقارير ، وارتزق من متابعتى العسس ، روقبت سكناتى ، وتوبعت حركاتى ، سوئلت عن أسفارى ، من قابلت ؟ من صافحت ؟ من تبادلت معه النجوى ؟ من أفضيت إليه بسرى . وطولبت باسترجاع ماتفوهته وماقلته ، صفعت على وجهى ، على قفاى، ألهبوا أطرافى وهددونى بإدخال العصى فى دبرى ، أقضوا مضجعى وأقلقوا ليلى ، سودوا لحظات من زمنى واعتموا بعضا من نهاراتى التى لن ترجع ، سبنى ضابط غتيت ولعن أمى الكريمة التى لم يرها ولم يعرفها ولم تلحق به مهانة ، لم أجبه فى العلن ، إنما واجهته بنظراتى ، هو مدجج ، وخلفى ثلاثة جلادين ، جاوبته بعينى الأسير الأعزل بالغل الكظيم ، أن يسب آسر أسيره فإنما ذاته يعنى ، ومايقوله يرجع عليه ، لم ولن أنسى ذكره أمى وسبه لها عصر يوم أجهل ملامحه من شهر أكتوبر عام ألف وتسعمائة وستة وستين فى زنزانة التحقيق بسجن القلعة ، هذا ثأر لايبلى، إنى والله لمتعقبه ، إنى لمقتف أثره حتى آخذ بثأرى وأنفض ماضايقنى أعواما ، هذا ما أثقل كاهل أصلى زمنا مديدا ، وهذا ماورثته عنه ، وانى لمطلعكم على الغتيت يوم القصاص ، لن أصفح الصفح الجميل عن الباغى الجهول .

لكم عانى جمال هذا الذى أنا صورته ـ إنى لأشهد له بالمثابرة ، وصون النفس عند الأذى ، فله ولى الرحمة وطيب العقبى ، إنى حال محله ، متقن ما أتقنه ، التأمل والحنين والأسى على مافات وإدراك الألوان وتوليد اللون من اللون والزخرف من الزخرف ، وإبقاء الخط بلا نهاية وملاينته ومسايرته ، وهذا وعر ، الخوض فيه غير مأمون .

اهتز جواى لمرأى ظل لظل ، وامتزاج لون بلون ، كدت أفيض بمالا أدريه عند رؤية ملامح لوحة عتيقة على جدار صالة مخملية ، داخل بناء قديم فى مدينة حدودية ، هدنى التوق إلى وريقات خضر بللها المطر الرذاذى فى ضاحية لم يطل مكثى بها ، ولن أطأها أبدا . هالنى ترقرق ضوء على مياه تجرى تحت جسر خشبى ، وبعث عندى عزف موسيقى نحاسية ـ صباح عطلة فى ميدان عتيق صغير مبلط بحجارة ـ رقرقة وسلاما ودعة فأنست فأمنت فهدأت ، فتبدد خوفى من المجهول لكن إلى حين وحننت إلى أرض لم أرها ومروج من ضوء لم توجد حقا ، فحق علىّ إغماض عينى والغوص عندى ، أما البهت فنزل علىّ لما واجهت نبتا أخضر شق طريق الوجود عبر صخر أجرد قاس .

.غانقت الشفق ، والليل وماوسق ، وخضعت للضحى ، وركضت برجلىّ لما شقشق الفجر ودنا ولاحت ليال عشر.

فارقت المقاهى فى اللحظات الأخيرة لإغلاقها ، توسدت أبسطة المساجد ، افترشت باحاتها لندرة مأوى وفقدان مضجع ، سحت فى البرارى ، أوغلت فى المناجم ، تجاوزت المدى فى الصحارى ، وأغرقتنى النجوم فى ليالى القفر ، نمت فى الخنادق الرطبة ، وعلى مقربة من مياه القناة زمن الحرب ، وفوق قمم مغطاة بالثلوج الأعوام كلها ، نمت فوق بلاط قصور تنعى من شادوها ، وأسرة وثيرة ، ودعت الصحب والأحبة حتى المقابر ، نأيت عن الموت زمنا ونأى

عنى ، ثم داهمنى ، دنا منى ودنوت منه ، فبدأ زمن احتضارى قبل تمام المدة ، وترددت حشرجتى سنوات طويلة قبل انتهاء الفترة ، جاهدت وأخلصت المحاولة غير أنى لم أدرك الكنه ولم أسبر أغوار اللب ، فلوجودى الصبر ولجوهرى السكينة ، ولمكنونى الدفين الحفظ وسلامة الصون واستحالة الفض

عانيت بغض الإخوان ، والبغى ، وقساوة القلوب علىّ ، وشح الرحمة ، وشدة الغلظة ، والفظاظة ، والطعن واللعن ، كذا الخداع والغدر ، والخيانة والسعى ، والنميمة ، والزور والبهتان ، والكذب والمداهنة ، والنفاق والرياء ، وتشتت الشمل ، وتفرق الجمع ، وقطيعة الإخوان ، ومفارقة الإلف ، وخراب العامر ، ونأى الديار ، وحزن الوحشة ، وغم الوحدة ، وبؤس الانقطاع عن الغير ، وتنغيص العيش وسوء المنقلب .. إن هذا وربى لكثير ، ان هذا وربى لطام ..

غير أنى ذقت طلاوة النشوة ، ولمست جوهر الجذوة ، تسلقت جبالا كردية ، وتمددت على شواطئ مغربية ، وطئت مواضع كنت أول من يدوسها منذ تكون الكوكب . تمهلت خطاى فى أزقة البوسنة والأناضول والأطراف الآسيوية ، خشعت فى ظلال مآذن استامبول ، أدركت بشارات الأبدية إذ تأملت سعف نخيل الواحات فى ثباته وعدم ميله مع الهوى أو الغرض ، ارتويت من آبار نادرة ، أنفقت جزءا من عمرى فى المدن الآسيوية ، تمهل خطوى فى المدن الأوروبية ، جزت الأحراش الأفريقية ، تحملت برد الأصقاع السيبيرية ، استغرقنى تدخين النرجيلة فى مقاهى البصرة العتيقة ، وهذا المقهى الدمشقى فوق جبل قاسيون ، دثرتنى ظلال الأسواق المراكشية ، وانتشيت فى مواجهة العمارة اليمنية ، كدت أهلك حزنا على نسمة ولت ، كوانى شوق إلى صدى آذان سمعته فى صباى ، إلى لحظة ذرفها وقتى ، وصبوت حتى كدت أنوح لسماع رفة

يمامة ، رثيت لتبخر الندى بعد تعلقه يائسا بأطراف الوريقات النباتية ، خشعت لامتداد الظل .

إنى ياكرام راحل ، إنى ساع ، مهاجر ، مدبر ، فى فقد دائم ، لايطمئننى وصول ، ولايسعفنى إقلاع ، لايهدئنى حنينٌ مادمت عاجزا عن استعادة شىء مما راح ، خاصة تلك النسمات التى هبت ولم تعد .

فيا من إليه منتهاى ، يامن به ثقتى ، يامن سيقطعنى قبل أن أبلغه ، قبل أن أدركه ، يامن تعلق به رجائى ، يامدى سؤلى ، إنى متأهب ، لى المسعى وعندك المقر والمنتهى ، يادهر أن ليس للإنسان إلا ماسعى، أما إذا استعصى علىّ فهم هذا التراث كله ، أو التفريق أو التمييز عند اشتداد التنوع والكثرة ، فعندك المحط وشرف الغاية ، ومنى تجدد المحاولة .

عند هذا الحد.. انتهى الإشراف الخاطف ، بعد أن أخذنى مما حولى وسلبنى منى ، مع أنى قادم إلى هذا الكون لتوى ، وعلىّ إخفاء دهشتى مما يمر بى أو يعرض لى ، علىّ استئناف ماكان عليه سلفى ، من اكتسيت بجسد يماثل جسده ، كذا ملامحه ، حتى أن صاحبا له من أبناء هذه البلاد دنا منى ، مال علىّ ، لم يلحظ التغير والتبدل ، لم ينتبه إلى أنى قادم لتوى إلى هذا الكون .. قال إن جميع أعضاء الندوة النقاشية مدعوون إلى العشاء عند نائب برلمانى ، أجيبه بنفس نبرة جمال ، نفس القدر والمعنى ، أعود لأصغى ، أبدى الود للود ، أنصرف مع جمع أجهل معظمه .

الليل فى أوله ، نجومه قصية ، ألمح بيت النائب ، قاعة منمنمة فسيحة ونقوش تؤطر الرؤية ، وعبق نبات ينعنع الفراغ ويلطف الهواء ؛ أعرفه من زمنى الأول وعندى منه بقايا عبق لايروح ، يدخل أربعة رجال أشداء يحملون صينية فضية مطعمة بعروق ذهبية ، أنظر إلى أغطية رءوسهم الحمراء ، أرى والد

جمال ـ والدى ـ يمسك علبة ورقية يحتفظ داخلها بطربوش له به عناية ، يمسح قماشه الخشن ، يسوى الخيوط السوداء الحريرية المتدلية منه ، تلك رؤية عاينها أصلى ، ولمحات بقيت معه كان لابد أن يذكرها فى هذا الموضع ، فلما لاحت عندى دققت فى الملامح ، المرة الأولى التى أرى فيها الوالد الراحل ، غير أننى لم ألمح إلا الهيئة العامة ، الحدود الخارجية لوجوده الحسى ، رافق ذلك هبوب حزن ثاقب ، يصعب علىّ تحمله ، ليس معه إلا النوء ، والميل ، وضم ذاتى إلى ذاتى ، هذا مقتبلى ومفتتحى الكابى ، إنى شجى ، إنى كمد ، إنى مقرور .. إنى ظامئ إلى روح وريحان وجنة نعيم .

يبدأ المنشد المغربى ، هذا شعر ملحون ، الجوقة تردد أنغاما أسيانة ، فيعمق شجوى ، أتمايل ، ليس من طرب كصحبى أولئك ، إنما من تعب وضنى ، يتدفق النغم ، يتقلب ، يستجيب البعض ، يدقون الطارات ، تتمايل قاماتهم فى رقص خشونى ، تتصادم الأصداء ، تتصارع النغمات ، تقرع الطارات ، يهزنى ذلك غير إنى لا أشارك ، أبقى مقعيا ، مسدلا على ملامحى ابتسامة لاجذور لها ولاصدى داخلى ، فحالى كما قيل فى المعنى :

لايؤنسك أن ترانى ضاحكا

كم ضحكة فيها عبوس كامن

مندمج فى الظاهر ، قصى فى الباطن ، حان ، مترقب ، داخلى فى قبض ، أمرى فى عزلة ، مغبوط الواجهة ، مشوش الجوهر ، إنى دهش ، أحمل العمر المنقضى لجمال ولم أعشه ، اسمه اسمى وتراثه تراثى ، ومحنته محنتى ، فماتغنى النذر ، إذن .. مالى كأنى مبتوت ، منقطع عما قبلى ، وحيد وأنا فى جمع وصحبة وغناء وأنس ورجع أندلسى بعيد وشجا .

يدخل أربعة من خدم الدار ، يمدون الشراشف ، يميل صاحب من

طنجة ، ينصحنى ألا أشبع من الطبق الأول مهما بدا مغريا ، بعدد المفارش ستكون الأطباق ، أحصاها فإذا بها أربعة ، يغمز ، يكرر النصح وهو لايدرى من أمرى شيئا ، لايعلم أن هذا أول زاد فى الحياة الدنيا ، تستمر الموسيقى فتهدهد أساى ، تخفف من فزعى ، ورجفتى ، وعند انتقال النغم من مقام إلى مقام يجيئنى الأمر كى أولى البصر تجاه باب القاعة المحفوف بنقوش جصية رهيفة تتخللها مربعات صغيرة من خزف لامع ، أصفر وأحمر وأزرق وأخضر ، نعم عمل الصانعين ، لماذا دعانى الداعى ؟ لايلتفت غيرى إلى الباب ، لايشخص إلاى ، غير أنها عندما لاحت وبدت ، عندما ظهرت ، عندما تم اجتيازها الفراغ ، شخصوا أجمعين ، لم يتوقع ظهورها إلا أنا ، لم يتأهب لها سواى ، نعم عقبى الدار ، يرون فيها الأنثى المبهرة ، قوية الانبعاث والحضور ، نافذة النظرات ، هكذا نظروا ، هكذا فكروا ، غير أننى لم أبح ، لم أفش ، لم أفض المغاليق ، فلن يصدقنى صاحب ، ولجت المكان فنشرت حضورها محتويا كل حضور ، خطت حتى حطت فوق مقعد دائرى صغير بلا مسند فى صدارة القاعة ، لم ألحظه إلا بعد استقرارها واستوائها ، أطلت عبر مشارف وجنتيها ، مالت إلى الأمام فمال مكنونى ، ليس إلى نقطة محددة تنظر ، ليس إلى شخص بعينه ، ردتنى عيناها من مكانى السحيق ، لى فيهما حظ وهوى ، محلها الزمن العتيق ، تنظر إلى اللب والجوهر ، إلى الوجود ذاته ، تبسط يديها ، كل أصبع تلامس الأخرى . تدسها بين ركبتيها المسدل عليهما حرير أخضر به مس من ذهب وفضة ، تطلعت ثم تولت جهتى ، من شاء فلينظر ، من شاء فليطرق ، أما أنا فلا خيار ، امتثلت ، استسلمت لعينيها النضاحتين بالهوى والسر ، لونهما غير يقينى ، حدقتاها مرفأ للكافة ، شفتاها ذواتا ارتقاب ، وجودها واثق ، فى كل لحظة يبدى جديدا كان مستترا ، يفصح عن خبيئة مستعصية ، يتطلع إليها

الجميع حتى وإن تباعدوا عنها ، ينظرون دائما كما تطلعوا أول مرة ، ترحل العيون عنها ثم تعود إليها ، فمنها الألفة ، ولها المودة ولى الترقرق وشغل قلب ، استوثقت ماخمنته قبل ظهورها ، كدت أنفلت وأتخذ طريقى فى الوجود سربا ، أوشكت على الإفشاء لكننى غالبت فكتمت فكظمت ، هى من زمنى الأول الراحل القافل فلا أمل فى عودة ، جاءت تؤنس وحشة بدايتى ، تذب عنى القفر ، لحظات معدودات تتجلى فيها ، تنبئ بقربها منى ، تدفع برائحة أعطافها إلى حاسة شمى فأتهدهد ، فى الظاهر تحيى الضيوف ، وفى الحقيقة تشد أزرى وتقوى أمرى ، فإن قلتم إنها من هذا العالم صدقتم ، وإن قلتم إنها ليست منه صدقتم ، وإن قلتم إنها تعرفنى صدقتم ، وإن قلتم إنها تجهلنى صدقتم ، وإن قلتم إنها زائلة فأنتم على حق ، هى الأصل والظل معا .. هى نعم ولا ، هى الصوت والصدى ، أما إذا تعذر العلم فاحكموا بغلبة الظن ، غير أنى لن أبوح أبدا ، لو أفصحت لثارت شواغب لم أتهيأ بعد لملاقاتها ، إنى شاخص وندى الوجد يقطر علىّ . راحل إلى طاقتى النور والحياة ، إلى عينيها ، ألثم مابينهما ، أطوف بأهدابهما وأسعى ، أقبل مابين شعرها وبشرتها ..

تحول البصر إلىّ ، فأمتثل وأتأهب ..

« أخاف عماء البصيرة » .

تجيبنى باللحظ ، بالنظر ..

« أخشى الجهل الأتم » .

تلمح إلى سبل العلم .

« أخاف العجز »

تنبهنى إلى القدرة .

« ماذا عن الصمم ؟» .

تكشف لى الدرب الذى تسلكه الهمسة ، ومستقر الصوت ، ومصير الصدى ..

« إنى مقر بخاوى من الجواب » .

تنبهنى إلى جوهر الخطاب ،

« وماذا عن التيه ؟» .

تشير إلى الدروب المؤدية .

أنا الآن بلا تاريخ أعرفه ، اسمى جمال ، رسمه رسمى ولست هو .. تشير بتلبية العلامة ، بالرحيل ، بعدم الاستيطان ، فالتجدد فى الاغتراب ، عندئذ يلتئم الشمل ..

وكيف أختار ؟.

تدلنى على المعنى ، الاختيار هو الإنسان ..

أصرح بخوفى من العنة ، تنكحنى برضاب فرجها على ملأ فأطيب فأنتشر فأجوز ، أدرك الهوية ، عندئذ ململمت شواردها ، عرفت فيها قبسا من كل أنثى مرت بجمال ومر بها ، إطراقتها المحبوبة قديمة مضت بها السبل ، وميل جسمها منه فيض أمومى أغدق عليه من أعز الخلق وأقربهن إليه ، أما لحظتها فلبُنية رقيقة حنت عليه ورقت له وبعثت فيه نشورا ، غير أن الأسباب باعدت مابينه وبينها ، ضمة شفتيها فيهما ملمح من أنثى رآها صدفة فى حديقة ورغبها لكنه لم ينل ، ما أعظم الرغبة عنده ، وما أقل تحقق الغرض ، أما دعتها واستقرارها فلحظة سكونية لطفلة هيفاء رقيقة حركت عنده مشاعر أبوية .

هل أنا ملاقيها مرة أخرى ؟ لا أعرف حتى اسم صاحب الدار ، إنما أنا ضيف ضمن ضيوف كثر .

تقوم فجأة .

يقوم معها شهيقى ، تنهض فينهض قلبى ، تمهد لغيبتها ، لاختفائها من

مجال النظر ، غير أنها رعت الوداد فى الوضع الذى حلت به وأينعته ، فى وقوفها تحية وإيماءة مع أنها لم تبد علامة . عند مرورها بقربى ، لحظة نفاذ عطرها إلى حواس أنثى ، لحظة إشراف على ضواحى عبيرها ، تلك لحظة تيقنى من الهوية واستقرار حالى ، عند مرورها تسقط فى حجرى وريقة صغيرة ، مضمومة ، كأنها رمتها فى بئر قلبى ، أقبض عليها بيدى ، لم يلحظ أحدهم ، يتم خروجها ، يكتمل خروجى من الجبر إلى الاختيار ، من الحجر إلى السراح ، من الضيق إلى السعة ، فكان انتظام حالى بعد مثولى فى حضرة امرأة ، كما كان محل تكونى رحم امرأة ، وما سيبل ريقى مطلع امرأة ، وما سيخفف جهامة أيامى رحيق أنثى ، ومن يجدد دخائلى حضور امرأة ، ومن سيؤرقنى امرأة .

يرتفع النغم الأندلسى ارتفاعا وهاجا ، دافقا ، ممهدا للغيبة ، كأن لاتصرافها مقاما بعينه خصت به هى ، نغم يدركه هؤلاء العجائز المعمرون ؟ عازف الكمان حاد الملامح ، عازف القانون راسخ المقر ، عازف العود المحنى ، الضام ، الرءوم ، ضابط الايقاع المتمايل ، الطرب ، أما خامسهم المنشد البدين الممسك بطبلة صغيرة ، دقيقة ، مزخرفة بدقيق الصدف الآسيوى والعاج الأفريقى فلابد أنه عالم بالسر إذ تطلع إلىّ ، أنامله تلمس حواف الطبلة بحكم العادة لايستخرج أنغاما ، حسبه ذلك وكفى ، أتحرك ، يتقلقل مجلسى حتى أندس بين الصحب الجلوس ، ملاصق لهم غير أنى ناء ، وكثيرا مايكون الاغتراب فى الاقتراب ، أبسط الورقة والعيون كلها نائية ، أقرأ ماخط بالقلم الكبير ..

« ياجمال قم إلى أوانك ، اسع إلى حيث لا أين ، امض إلى الأحوال ، ستتواجد بها فى وقت واحد على اختلافها ، فإقامة وسعى إلى أنيتك وإطلالة على ماضيك .. اشرع فالمدى واسع والمجاز وعر .. » .

العجيب أن هذه السطور تقرأ من كل ناحية على السواء ، كلما قلبت الورقة انقلبت الكتابة لانقلابها ، فعلمت أن فى الأمر سراجللا ، أمتثل على الفور ، أعتذر للإخوان متعللا بقصر وقت نومى ، بتعبى ونصبى ، استجابوا لى ، أسف صاحب الدار إذ أنصرف قبل أن أذوق طعامه ، آثرت الانصراف بمفردى رافضا أى صحبة ، مع أنى مغترب حتى القرار ولا علم لى بالطريق .

عند المنعطف توقفت ، استدرت ، ودعت البيت بينما قلبى يحدثنى أننى لن ألج بابه أبدا . وأننى مادخلته إلا لأراها ، لأتلقى الأمر والبشارة ، أى حيز يشغله وجودها الآن ؟ إلى أى الجهات تسدد البصر؟ منى لها السلام ، لها الترقرق والوداد ، ولدهرى العتيق الحنين الممض ، فما كان منه لن يرجع أبدا ، أنا ذؤابته ، المحكوم عليه بالنفى ، بالسعى بين خلق لاتربطنى بهم صلة ، إنى قابل ، إنى ماض إلى ماكان ، البرد يثقلنى فالشتاء مكتمل ، أحدق فى الليل ، لم أر ليلة كهذه قط ، أكثر نجومها ذوات أذناب ، كأنها نيران عساكر فى حرب ، حينما وليت بصرى أراها ممتلئة من ذوات الأذناب تلك ، أكثرها إلى جهة الشرق ، ثم صار الجو كله يشتعل فلا يطرف نظرى طرفة إلا يرى عددا لاينضبط ، قلت ماهذا إلا لأمر جلل سيكون ؟.

لم يعد الوجود خاويا ، أما داخلى فممتلئ برسوخ صارح حرك علىَّ غوامض الأحاسيس ، أنادى من حيث لا أعلم ..

« ادخل .. إن لك فى اليباب سبحا طويلا .. » .

فبدأت !

* * *

حَـــال الـــوداد

"قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ"

(قرآن كريم)

١٠ أعز الآثار المندثرة لاسيما عند فقدان الأمل من لقاء ، ومن لم يرحل والحنين ملء فؤاده ، لم يدر كيف تفتت الأكباد ، إنى مواجه فى حال الوداد لحظات منقضية لها الخير المحض ، والعطف والرحمة والرحب ولين الجانب والشفقة والمداومة ، فيه بعض من طفولة أصلى وقبس من شوارده ، عند ولوجى سأفقد ظلى ، هذا نذير ، يقابله حال الوداع عند أقصى الطرف الآخر فى ترتيب الأحوال ، لن أطلع إلا على مابقى معه هو . فلو أنه نسى موقفا ، أو فنيت فى خزانة حواسه رائحة ، أو تاه إيقاع صوت ، أو بلى سرور لحظة فإنى غير مطلع ، المنعدم عنده مفقود منى ، كذا عرفت أننى سألزم حدا لا أتخطاه ، فإذا شرعت فى تجاوزه أفلت منى كل نبأ ، فماتغنى النذر ، فتول عنهم يوم يدع الداعى إلى شيء نكر ، أتأهب ، وهنا قرئ فى مسامعى ..

معى .

تأتى الأمور وأنت منتبه لها

وإذا مضت فكأنها أحلام

مازلت أنتظر الإشارة ، ثم تُلى فى مسامعى مانصه ..

تلقين

إنك ماض إلى الأيام المولية .. إلى بدايتك ، فهل أنت ملم بمعناك كطفل فى اللسان العربى الذى ستصوغ منه خواطرك ومعانيك ؟ .

أبدى النفى .

أصغ أذنى ، سترى أصلك طفلا ، وطفل يعنى البنان الرخص ، والطفل هو الصغير من كل شىء ، وهو السحاب الصغار الذى لايصمد أمام هبوب الرياح ، ويعنى أيضا الحاجة ، ياغريبا لم يزل وسيظل . أعلم أن الطفل كلمة تعنى حالة الشمس عند غروبها ، تعنى أيضا الليل ، يقال طفلت الشمس أى همت بالغروب ، وأتيته طفلا أى ممسيا ، وأتيته طفلا أى بعد طلوع الشمس ، طفل تعنى أيضا دقيق الندى المتكون فى الفجر الباكر على رقيق الأزهار . هل أدركت ؟.

أومئ ...

إذن .. أذكر مايناسب هذا التلقين .

أقول بعضا مما يلقى فى معارفى .

الأول والآخر معا ، البداية هى النهاية ..

دنوت ، لكن هذا ليس بكاف ..

أتلو متمهلا وسكون يهدئنى :

« ومن نعمره ننكسه فى الخلق أفلا يعقلون ؟»

يصيح بى الهاتف :

جز إلى حال الوداد .

رقائق

أول ما أراه ، أول ماتقع عليه عيناى ، أول ماينطبع فى مخيلتى ، أول مايتلقانى ، ضريح السيد والمولى ، الحبيب الحسين ، مثواه القاهرى ، أراه فى أطواره المختلفة منذ بدء تشييده ، أرقب ظلال الغروب على الباب الأخضر فى الزمن الفاطمى ، أود لو نفضت كثيف الغبار المتراكم على الأفريز الخارجى للنافذة القبلية فى الحقبة الأيوبية . أشفق على البناء من شرخ يسرى خفية فى مرحلة مملوكية ، تلك مئذنة سامقة تقوم ، وهذا مظلوم يطوف بالضريح راجيا الإنصاف وحسن الملاذ ، امرأة تقبل العتبة المؤدية ، الأمير المهيب عبد الرحمن كتخدا يتقدم جمعا من قوم مهيبين، يحفرون موضع المقام للتأكد .. فقد وقع خلاف ، أحقا دفن الرأس الشريف هنا ؟، أتمنى لو أبلغهم ما أعرف ، غير أنى أردد ، وماذا يعنى التأكد ؟ لكم المعنى وصدق الرمز ، هذا حضور المسجد كما رآه الوالد أول مرة ، مضمخ بعبق العشرينيات ، فلكل حقبة أريجها ، وسماتها . ذلك لون الكساء الأخضر كما رأيته فى صباى ، رائحة أعرفها ، تنبعث من الحصر، من الأبسطة الحمراء، من أخشاب السقف، من هدوء الضوء المتمهل ، من زوايا مابين المنبر والجدار المكسو بالرخام ،من آثار السجود والتضرع واللجوء ، رائحة هى مجمع لروائح شتى ، لاتغيب عنى إلا لترجع ، إذ تنبعث عندى ينتفض زمن بأتمه وتتضح قسمات ومعالم دنيا وتفاصيل واقع ، حق قول جمال إن عنده بالروائح وثيق صلة .

أقف متطلعا ، رأسى إلى أعلى فما أواجهه شامخ ، ضريح الحبيب هو البؤرة والمركز ، منه ينبعث المعنى ، ومن جواره تتشعب الطرقات ، أراه من كافة جهاته فى وقت واحد ، أنفذ حتى جذور البناء الضاربة فى عمق الأرض ،

أتبينها ، أتفحصها ، أشفق لما آلت إليه من بلى ، غير انه باق ، كل ماحوله تهدم وقام غيره ، إلا هو ، البيوت ناحية الغرب زالت ، وتلك العمارة الحديثة لن تدوم أبدا ، أما المعنى فلا يفنى ، بعد اكتمال النظرة ودقة المطالعة ، أشد الرحال إلى الحارة التى احتوت طفولتى ، لم أولد بها ، إنما بها وعيت ، أجىء إليها من النواحى الأربع ، من كافة المنافذ والشوارع التى يجب اجتيازها ، من شارع أم الغلام ، من طريق المشهد الحسينى ، من حارة الوطاويط ، من درب قرمز ، من ميدان بيت القاضى ، هذه الواجهات لطالما انعكست فى بؤبؤى عينى ، وهذا المقهى لطالما ملأ سمعى ضجيجه ، أما دكان « العسال » فكم توهجت لحظات الصبا بما يعلقه من لعب فى الأعياد ، منه أصداء الألوان الزاهية ، ومذاق الحلوى ، ورائحة السجائر المتبقية فى صناديق الورق المقوى ، كان أصلى يعيد تشكيلها فيخلق منها بيوتا وعربات وأشكالا شتى . أمر بالمقهى المجاور ، أبوابه المرتفعة ، ساحته الفسيحة ، مناضد رخامية ، فناجين قهوة ، نراجيل فارسية ، مقاعد خشبية محفور على كل منها « عفيفى » اسم صاحبه ، ونوافذ عالية للتهوية وجلوس شتى .

هذا ضريح سيدى مرزوق، أحد تلاميذ المجاهد، من ولد بمدينة فاس كما جئتها أول مرة فى غربتى المقدرة ، من جاور بمكة وتتلمذ بالعراق ، وصد فتنة فاطمة بنت برى ، ثم جاهد بمصر حتى قضى بها ، إنه سيدى أحمد البدوى وأمره ذائع معروف .

عند المنحنى أتمهل ، عند اللافتة الزرقاء ذات الحروف البيضاء أتوقف « درب الطبلاوى »

أمضى ، البيوت متجاورة ، هذا قديم وذاك أحدث ، بيت تبرز جدرانه نوافذ وشرفات واجهاتها من خشب مشغول ، من هذه الواجهات صيغت صور

شتى فى وعى أصلى ، وأثار اهتزاز ستارة مسدلة على إحدى نوافذها أخيلة وصورا ، أمام بعضها خفق قلبه وهو يلتقى بمحبوبة تعلق بها من تلك الناحية ، عند هذه الخطوة قرر ، وعند هذا التمهل انثنى ، وهنا أسرع ، أول مايعبره عند خروجه إلى سفر ، وآخر مايراه بعد إياب ، وذات صباح لم يكتمل نوره ، تساءل لحظة خروجه من السراح إلى القيد محاطا بالعسس ، محروسا بهذا الضابط الغتيت ، مقيدا ، « هل سأراها مرة أخرى » وعندما دنا الحين فارقها إلى مأوى آخر ، فبدأ معه حنين المغترب ، ليس إلى مكان بعينه ، ولكن إلى عمر بأكمله ، وأيام مستحيل كرّها ، وضنى ، جاءها وقتا بعد وقت ، متحسرا ، ليس على أزمنة ولّت وانقضت وانقطعت ، ولكن على أمكنة يعز قصدها ، فلا البيت الذى أقام به يقصده ، ولا الأم التى كانت تتهلل لرؤيته منتظرة ، ولا الوعد بالراحة بعد عناء يوم طويل ، العودة إلى المكان لا تعنى استرجاع الزمان ، مامن زمان بعينه إلا بالمكان ذاته وبمن أقاموا فيه ، شريطة انعدام التغير ، وهذا عين المستحيل ، لن تخلف المحاولة إلا حسرات .

هنا يتشعب الدرب إلى شعبين ، فواحد إلى حيث أقام حولا بعد حول ، أما الثانى فيؤدى إلى ماعرف بين أبناء الناحية بالخرابة ، مع أن المكان مسكون ، ثمة بيوت قديمة تحيط قصرا مهجورا تتردد حوله أقاويل شتى ، منها أن أحد ملوك المحروسة ولد به ، وأنه ظل عامرا سنوات طويلة بسكنى أمراء صالوا وجالوا وامتطوا صهوات العاديات صبحا فالموريات قدحا ، ثم أحدق بهم الدهر فولوا مدبرين ، عارف بالتاريخ يقول إنه استخدم فى زمن آخر مقرا لضيوف حكام مصر ، من هنا سمى « المسافرخانه » كما عرف بين القوم ، وانى لمحدثكم عن هذا كله بما تيسر أن سنحت الفرصة وسمح الأذن . أما الآن فأمرى فى عجلة ، عندى شوق إلى هذه الغرفة التى آوت أصلى زمنا ، فيها صباه الذى ولى بددا ،

آمل الوقوف عليه لأعرفه فأعرف نفسي ، فمعذرة لو اختلط الأمر قدرا يسيرا ، عند هذا الحد ينعطف الشعب الأيمن فجأة ، هذه منازل ثلاثة ، رقم (١) طوابقه خمسة يعرف بيت الشيخ حسين آخر من امتلكه ، هنا تقع رؤية خاطفة ، هذا سلم يحده سور من حديد مفرغ ، فوق الدرجة الأخيرة يقف الشيخ حسين ، قصيرا ، بدينا ، يطالب بأجرة الغرفة المتراكمة . أما المخاطب فوالد أصلي ، غير أنني لم أره ، كأن السلم معلق في فراغ ، يبدأ من لامكان ويؤدي إلى لاشيء .

تلك هي الصورة الوحيدة المتبقية في وعي أصلي عن مالك البيت ، آراها معزولة عما قبلها ، عما بعدها ، ومن أغرب ماسأطلع عليه ، فكثيرا ما سأرى اللحظات متباعدة . إلى الجهة البحرية بيتان متلاصقان ، لايعلو أحدهما عن الآخر ، طلاؤهما أصفر ، نوافذهما متشابهة ، المصاريع خضراء ، إلى الشرق سور من طوب لبن ، إنه الحد الخلفي لفناء قديم ، مدخله من ناحية شارع قصر الشوق ، يصل البيت رقم (١) ـ مرامي وغايتي ـ بالبيتين الآخرين ، العطفة مغلقة لاتؤدي إلى حارة أخرى طريق مسدود ، أضفى ذلك هدوءا وسكينة ، فالغرباء لايعبرون ولايدخلون ، لايبدو في الأغلب الأعم إلا سكانها ومن لهم صلة ، أما الباعة الجائلون فأمرهم معروف ، عم محمد بائع الصحف . وساعي البريد ، ورجل مغربي ، يفتح الكتاب لينبئ بالمجهول يجيء مرة واحدة في السنة قبل خروج الحجيج قاصدين مكة ، أما القادمون من الريف للاحتفال بمولد سيدنا الحسين ، ومولد سيدي مرزوق الذي يعقبه ، فلهم ترتيب ، وأمرهم معروف ، يفترشون أرض الحارة ، يبسطون الحُصر ويرتبون الأمتعة ومواقد الغاز ويصفون الأكواب والنرجيلات ، هنا يكتشف الغريب بسهولة ، ظهور ملامح غير مألوفة توحي بالاستفسار عن الهوية والمقصد . رقم (١) يقوم

إلى جهة الشرق ، فوق جزء من الموضع الذى أقيم فوقه بيت باجنيد الكبير زمنا ، هنا وقفت على أمور تخص نشأتى الأولى ، إذ أشهدت المكان فى الحقب السحيقة ، قبل ظهور اليابسة والماء والطير والشجر والتراب ـ ولا يمكن للتراب أن يجيء إلا بعد اكتمال قدم ـ والأكمة والأحراش ، كذا الإنسان على الدوام ، رأيته بحرا قبل أن يصير يابسة ، فالشيء يحوى ضده ، والشيء ينقلب إلى نقيضه ، فلا يدوم حال أبدا . تعاقبت الرؤى فرأيت الظلال كلها ولم أر أصولها ، رأيت الحشائش التى نمت ثم ديست ثم استقامت ثم ذوت ، رأيت النقاط التى تكسرت عندها الرياح وحادت ، أشهدت ما لا حصر له ، ولأن مذهبى فى هذا التدوين هو الاقتصار والاختصار ، لذا اكتفى بما عرفته قبل دق أساسات البيت مباشرة .

هذا بيت باجنيد الكبير ، سور محيط ، وأشجار نادرة ، كل منها لاتشبه الأخرى ، ونباتات صبار من بقاع شتى تثير عجب الناظرين ، وأخرى يعد نموها فى هذا المناخ قدرة وابتكارا ، هذا بناء من طابقين يقوم فى عمق الحديقة لايلوح منه جزء لعابرى الطريق ، مما قيل أن قاطنه لو أغلق الباب دون الخلق لاكتفى سنة كاملة ، فثمة بئر مياه عذبة لذة للشاربين ، وطاحونة ، ومخزن للمؤونة ، قسم من الحديقة يزرع خضرا ، ومقبرة مكللة بألواح الرخام .

هاهوذا باجنيد الكبير ، عجوز ، نحيل ، يرتدى عباءة بنية اللون . منذ وفاة ولديه لايدخل على أحد ولايزوره إنسان ، يخرج صباح كل يوم ، يجلس أمام البيت فوق نتوء حجرى ، يستند إلى عصاه ، يمد البصر ، يضيق حدقتيه عند مرور أى إنسان أمامه ، كان الدرب وقتئذ يفضى إلى ناحية قصر الشوق ، يطيل التدقيق ثم يثنى ، يتمتم بصوت يمكن سماعه ..

«لا .. ليس هو ..» .

وعندما غاب لم يلحظ أحد فى البداية ، نما الهيش فى أحواض الزهور ،

سكنت الوطاويط قمم الأشجار ، ترددت صرخاتها القصيرة الثاقبة فى الليل ، مالت شجرة السرو الكبيرة ، قال أهل الدرب إن نفرا من الجن نزلوا فيه ، قبل اكتمال القرن بعامين ، ظهر غريب راح يدخل ويخرج ، قيل إنه يمت إلى الأسرة بصلة .. باع الأرض بما عليها من نباتات نادرة ، وأعمدة مرمرية ونقوش فسيفسائية وأسقف خشبية ملونة ، وأحواض ومرايا ضخمة مذهبة الأطر وأثاث نادر عميق ، اشترى التجار البيت وماحواه وماتبقى منه بثمن بخس ، وتوزعت التحف والأشياء النادرة على جهات شتى ، منها ما استقر خارج البلاد ، وجاء عمال الهدم فأزالوا ماتبقى ، وردموا قنوات المياه ، فكأن الأشواق لم تتردد يوما بين جنبات هاهنا ، وكأن الأرض لم تدب فوقها قدم ، ولم يودع قوم بعضهم بعضا عند سفر ، كأن ماكان لم يكن . فكان الحال كما قيل :

أين الذين بنوا فطال بناؤهم ... وتمتعوا بالأهل والأولاد
فإذا النعيم وكل مايلهى به ... يوما يصير إلى بلى ونفاد

شخص مجهول رجا مصلحة التنظيم إطلاق اسم باجنيد على هذه العطفة المتوارية المنسية . تردد أنه رشا أحد الموظفين فوقعت الاستجابة ، فوق الأرض قامت البيوت الثلاثة ، وسدت العطفة فلم يعد الطريق سالكا يفضى .

أرى تعاقب السكان ، مجيء وذهاب ، إقامة وبدء اغتراب ، أرى نعشا مفتوحا يحف به عدد من الناس ، ينتظرون نزول قوم بجثمان ميت لم أعرف هويته ولم أعرف هؤلاء ، ولم أدر لماذا أشهدت هذه اللحظة ، وماذا يعنى ذلك ؟، أصل إلى هذه الحجرة فوق السطح ، آخر من نزلها ، واستظل بسقفها بائع عطور جوال يطوف يومه حول ضريح سيدنا ومولانا ، بعد ذهابه بقيت زمنا خالية ، الشيخ حسين أوصى بعض السماسرة وأصحاب المقاهى وعلق لافتة عند دكان العسال ، ولم يجئ أحد ، فى صباح جمعة باكر جاء إلى الحجرة ، فتح

النافذة والباب ، تلا آيات كريمة ، وأشعل بخورا تيمنا وتفاؤلا ، فى صباح الجمعة التالى أخبرته ابنة أم هدهد المرضة عن نفر صالحين يرغبون فى استئجار المكان ، قبل على الفور واستبشرا خيرا .

هاهى ذى من كانت أما لأصلى ، من حملته وهنا على وهن ، وحنت وقلقت ورعت . تدخل الحجرة بقدمها اليمنى ، هنا سيكون مأواها ومعاشها وستمضى أيامها ، الضوء شرح صدرها ، والهواء يسر أمرها ، أما السماء فقريبة صافية منبسطة ، هذه أمى كما قضى الأمر ، ملامحها مستكنة ، صبورة ، لاتنبئ عما مضى منها وما سيجىء ، اقتربت فلت فحننت فتمنيت لو باستطاعتى تخفيف هذا الشرود الحزين فى عينيها ، حضورها أمومى ، يضفى علىّ دعة حتى أنى استدعيت بالخاطر أمى فى زمنى العتيق ، كدت أتملى منه وأتمكن ، غير أنه أقصى عنى ، هذا غير مسموح به ، إنها تتأمل الغرفة راضية ، تتجه إلى النافذة لترى ماستقع عليه عيناها زمنا لايعلمه إلا رازق الطير . أمامها فراغ ، كل الأسطح منخفضة ، لايمكن التلصص من قريب أو بعيد . النفس يسرى مرتاحا عندها ، انقضت العتمة ، والرطوبة ، والخوف الليلى عند تأخر أحمد ، غير أنها تذكر أم هدهد فتأسو ، فراقها يعز عليها ويصعب ، جارة طيبة ، رعتها وشالت عنها الهم أيام مرضها ورقادها ، هى الغريبة التى لايطل عليها من الأقارب أحد ، رعى الله ابنتها ، وفقها إلى زوج صالح ، وأبعد عنها أولاد الحرام ، خاصة أنها تخرج إلى العمل . وتخالط القبيح والحسن ، عند خروجها بصحبة أحمد لزيارة مثوى الحبيب شهيد كربلاء ، ستطلب العروج على أم هدهد ، إنها وحيدة ، بمفردها هنا ، بمعزل ، مامن قريب قريب إلا الشيخ قبيصى ، امرأته الطيبة ، غير أن بيتها ناء ، هناك أقارب يسكنون قرب القلعة لكنها لاترغب زيارتهم ، للنساء فضول عظيم ، يسألن ، يدققن ، يستفسرن

عن مأكلها ، عن مرقدها ، عن مدخرها ، يبدين الرثاء وفى أعماقهن الشماتة ، لأنها ستزورهن فلابد من رد الزيارة ، لوجئنها لن تجد مقعدا أو حشية ليجلسن عليها .

إنها تقعد فوق الحصيرة المطوية ، لم تفردها بعد ، على حجرها كمال شقيق أصلى ، لا أتمكن من رؤيته ، إذ أن جمال لم يحتفظ بملامحه ، أرى أطفالا كثيرين فى وجه واحد ، أرى أخيلة ، ملامح شفقية ، غروبية . لاتفصح عن قسمات ، خليطا من رؤى بعيدة وأوصافا ترامت إلى سمعه فى مراحل مختلفة من العمر ، رحل كمال عن الدنيا وأصلى دون الثالثة ، يمر الطفل بعامه الأول والثانى والثالث ، بدون أن تعلق بوعيه شاردة ، أو محسوسات تدع أثرا ، ربما بقيت ظلال باهتة ، ربما يترسب عند القاع البعيد ملمح ، أو يخفق نبض واهن مشيرا إلى ذكرى ، قيل عند أهل العلم والدراية إن هذه الفترة تدع آثارا غير هينة ، وأن شأنها جلل ، فيما بعد كان أصلى ينظر إلى ولديه مليا عند مرورهما بتلك السن ، يقول لخاطره ، هذا عمر لن يخلف عندهما شىء ، ربما تبدو الأطياف فى الأحلام أو الهلوسات ، أو عند الغفو وعبور الحد المتميع ، مابين النوم واليقظة ، لم حدد أصلى الفترة بسنوات ثلاث ؟ ربما لأن أقدم صوره ترجع إلى عمره وقتئذ . إذن .. ما أقدم صورى ومكنونى ؟ إلى أى حقب تمت ؟ هذا مالن أقدر على البوح به ، فما بين جهلى وقلة حيلتى يتأجج ضيقى وتُسقى غربتى من معين لم يكن فى خطتى أو حسبانى .

أرى كمال فى جملته ، ملفوفا بخرق سود ، تخشى الأم عليه شر العين ، أبيض الوجه ، مكتمل الصحة ، مع أنه لم يذق الشمس طويلا ، أما حليب ثديها فكان شاحبا شحيحا ، خاصة عند مرضها ، كان جميلا ، متوردا ، حتى أنها أخبرت القوم أنها رزقت بنتا وسمته اسم أنثى راح منى ، حتى امرأة الخال

وأقرب الأقربين لم يعرفوا أنه ذكر ، كانت خشيتها العظمى أن يغرب كمال ، أن ينطفئ نجمه ، أن تسقط ورقته كما هوت ورقة خلف ، خلف أول فرحة بكر لم تتم ، له الرحمة يوم التناد ، مضى طفلا ، له الجنان والعفو من السؤال والاستفسار عن الذنب ، هاهى ذى تضم كمال ، تقبله ، أحدق وقد شب عندى فضول محوره ، ما الباعث على هذه القبلة بالذات ؟ تلك القبلة المفاجئة ؟ ماموقعها من الزمن ؟ كيف تلقاها كمال ، أهو حنان دافق ، أم خشية مفاجئة ، أم روح وريحان وجنة نعيم ؟.

هذا مالن ألقى الإجابة عليه ، حتى وإن حرك عندى هفو الوداد ونسيمه ، هنا أنبئت أننى لن ألاقى أخى كمال إلا فى هذا الحال ، فعظم انتباهى ، هاهى ذى الأم فى زمن متقدم ، بعد أن نال منها طول السفر ، وصعوبة الرحلة ، وتكأكؤ الظروف ، وسكنها المرض ، تقعد فوق حشية وأصلى متمدد ، مصغ ، هذا حديثها قبل نومه الأصيلى ، تقول إن كمال كان بهجة للناظرين ، وأنه كان واعيا ، يردد مايسمعه بدون تعلثم الصغار ، وأنها خلال صحبتها له لم تشعر أبدا أنها برفقة صغير لم يتجاوز سن الفطام إلا بشهور قليلة ، كثيرا ماحبا واقترب منها فى صمتها وطبطب عليها ، قرب وجهه من وجهها ، كأنه يدرك من شفيف أفكارها وخبىء خواطرها مايعجز عنه الكبار ، بعد غروب أخيه خلف كان يدور بعينيه باحثا عنه ، ثم يتطلع إليها صامتا لاينطق ، مترقرق العينين ، انقبض قلبها ، لم يستفسر بلسانه غير أن تساؤله الصامت كان أنفذ ، تستمر الأم فى حديثها الأصيلى ، تحدث جمال الذى يغالب الإغفاءة ، فيبدو ما أشهده آخر علامات دالة على صبح الوجود ، قبل دنو ليل العدم ..

النكس

حدثت الأم بنبرة باك ، مخفية أوجاعا قديمة ، قالت :

« عاش كمال سنة بصحبتك ، دائما كان يحنو عليك ويبتسم فى وجهك ، لم يظهر غيرة الصغير من شقيقه أبدا ، حتى أنى كنت أخرج إلى السطح تاركة إياكما معا ، مطمئنة، آمنة، أرجع ألقاه يهز شخشيخة من الخوص اشتراها أبوك من جوار مقام سيدنا ومولانا .. » .

تصمت لحظات .

« كمال كان وش موت من يومه .. » .

تطول إطراقتها حتى ليخفت صوتها ، فيسرى عند جمال قلق ، ينتبه ..

« مالك يا أمى ؟ » .

تحرك رأسها من يمين إلى شمال ، بين بين ، تدع له حديث الفهم ، فإن شاء أدرك ، وإن شاء انثنى ، أما إذا تلاقى ماعنده بما عندها فسيجد للكلام سبلا وطرائق .

« أعندك جوى تكتمينه ؟ » .

تطرق ، ثم ترفع عينين مثقلتين ..

« سامح الله من كان السبب .. » .

قالت :

كان أبوه يحبه حباً جما ، فيصحبه حيثما ولى وجهه ، صوب معارفه وأقاربه ، إلى من يجىء من البلدة ، إلى المقهى ، إلى دكان الحاج الصاوى ، للطواف حول ضريح الحسين ، تماما كما حرص على رفقتكما وانتما صغار ، وفى يوم اثنين خرج حاملا كمال على باطه ، خرج إلى بيت البك ، قال إنه سيعرج

على جزار فى شارع الحسينية ، أوصاه بذلك .

الحق ياجمال أننى لم أكن أرضى بصحبة أحدكم لأبيكم عند ذهابه إلى هذا البيت ، فالرجل متقلب المزاج ، يبدى الود حينا ، وينقلب فى لحظة ، ولم أحب لأحدكم رؤية أبيه فى لحظة هوان لايقدر فيها على رد الأذى ، لكننى كتمته ، ليتنى أفضيت ، ليتنى صرحت ، حدثنى أبوكم فقال إنه مشى بصحبة كمال ، يحمله معظم الوقت ، ويشجعه على المشى إلى جواره بعض الوقت ، عند الخرنفش شرب عصير السوبيا ، وعند سوق الليمون أشار كمال إلى بائع بطاطا فاشترى له قطعة بمليمين رشها البائع بالملح ، وأوقفه عندما هم بنثر الشطة الحمراء ، قال إن الولد صغير لايحتمل ، وبعد اجتيازهما باب الفتوح تطلع كمال ناحيةالمقابر لمواجهة لباب النصر، مد يده الصغرى إلى ذقن أبيه موجها بصره إلى هناك ، ولم ينتبه أحمد إلى ذلك إلا بعد وقوع الواقعة .

قالت الأم :

إن كمال لم يحول وجهه عن الناحية الشرقية إلا بعد قطعهما مسافة فى حارة الحسينية ، لم يتوقفا طويلا أمام الجزار ، أحمد أخرج منديلا كبيرا لف فيه ورقة اللحم ، ثم رفع كمال ، يحمله فوق ذراعه اليمنى ، ولفافة اللحم فى يده اليسرى ، وصلا إلى ميدان الظاهر وصعدا السلم القديم ، البيت عتيق فسيح ، وارتفاع طابق منه يوازى طابقين من البناء الحديث ، إنها ليست المرة الأولى التى يمضى إلى البك بصحبة أحد ولديه ، فكأنه بصحبة ضناه يقول بدون نطق : انظر .. لأنك أجريت رزقى وتسببت فى معاشى صرت أبا ، وأبا لطفل نجيب ، لم يكن يتجاوز الصالة ، لو بيده شىء يدخل المطبخ ليضعه فوق منضدة أو داخل صوان ، ولكنه لايفارق أخاكم وإذا جلس فإن مكانه قرب الباب

لم يكن ممكنا لخلف أوكمال وأنت من بعدهما الحبو فوق بلاط المسكن أو

أبسطته ، كذا المشى ، أما مخالطة أبناء البك فأمر مكروه عندهم ، ولعلك تذكره عندما صحبت أباك وأنت ابن السابعة ورأيت ابن البك الأكبر يلعب بسيارة صغيرة تدور وتلف ، بقيت أنت بمنأى ، تتطلع ولاتقترب ، تنظر ولاتشارك ، أعود إلى هذا اليوم ، الاثنين ، فأقول إن أحمد ضغط الجرس ، بعد لحظات أصغى إلى خطو يقترب ، إنه البك نفسه ، يسد الباب ، مرتديا الروب ، بدون نظارته ، هل كان متكدرا من أمر لاذنب لنا فيه؟ ربما، هل كان على خلاف مع امرأته ؟ ربما ، هل كان بحاجة إلى النوم ؟ ربما ، أيا كانت الأسباب ياولدى ، فلاحق له أبدا فيما بدر منه ، لاعذر له ، قال بجفوة ..

ماذا تريد ؟ .

فقرب أبوكم كمال من صدره ، ومد يده بمنديل اللحم ، تناوله خلف بلك ورماه فأصاب كمال الذى انتفض ثلاثا ، قذف فى قلبيهما الرعب خاصة مع تلفظه بمالم ينسه ابنى قط .

غر من وشى .. تضع اللحم فى منديلك ؟

رجع أحمد إلى البيت حسيرا ، واجما ، يكابد قهرا هائلا ، عبثا حاولت أن أعرف منه ، أن أفهم ، أن أدرك ، غير أنه صمت عنى مدة ليست قصيرة ، مع أن صميم طبعه الإفضاء والبوح ، أما كمال فبدأ ميل شمسه ، وغروب نجمه منذ ذلك اليوم ، لم أدر بما جرى إلا بعد أن بلغت من العمر ياجمال أربع سنوات ، بعد أن استرد خالقنا أخاك بثلاث سنوات ، بدأ مرض كمال ، فى الليل يا كبدى ينتفض ثلاثا ، وخلال رقدته يرتجف، يزلزل جسده ثلاثا، وفى ذروة مرضه وذبوله يتصل نومه ساعة ، يقوم مفزوعا ، باكيا ، يدفع بيديه مالا أراه ، لم ينفع حجاب الشيخ عطيه ، أو التلاوة فى أذنه ، صارت دمعه أغزر. ونكسه تعس مستمر ، ثم ظهرت الحمرة ، جعلت خصيتيه فى لون الطماطم ،

عرفنا الطريق إلى طنبية شابة ابنة أناس طيبين فى ميدان بيت القاضى، قلت لها: اعملى معروفا وداويه ياحكيمة، ياطبيبة ماعندى غيره، كمال هو روحى، وأنسى، فى الليل يصرخ «حوشى يا أمى»، فلا أعرف أى أمر أحوش؟ وأى خطر خفى أدفع؟ مايراه هو لا أراه أنا، تتابعت أيامه حتى جاء الأربعاء، وقت آذان الظهر، أثناء عودتنا إلى البيت، عند مرورنا أمام فرن الحاج نصيف، ثقل رأسه على باطى ومال، عرفت أن الأجل تم وأن القضاء حسم فسابت ركبتىّ، قعدت فوق حجر غليظ ورقبته كخيط ملوى، رخو، وتلك علامات أعرفها، عندما أسلم المرحوم خلف الأمانة قبله، نزفت دمعى على ضناى الغالى، لم أطلق البيت بعده، كنت أهج على رأسى مصطحبة أباك، أزور أهل البيت، وأنذر للأولياء كى تبقى لى أنت. لوعاش كمال لكان يكبرك الآن بعامين وشهور..

تصمت، أرى الوسن مبددا من عينى أصلى، يكفكف عنها باللفظ دمعا لايفصح عن نفسه ولايبين، ثم يتساءل دهشا:

«لكن أبى ظل يتردد عليه..».

تقول متحسرة:

«كان رزقه بيده، ولم يشأ أن تعيشوا ماعاشه هو..».

يوشك أن يصيح «أمى»، غير أننى أرى لحظة أخرى، هذا أصلى يجلس إلى أبيه، أى أبى، هذا زمن متقدم، أى وقت هذا؟ ربما المرة الأخيرة التى زار فيها الأب ابنه، هذا بيت جمال بعد زواجه، بعد أن صار أبا، اليوم أربعاء، والساعة أصيلية أيضا، هذا أنا، عندى ود تجاه الوالد الكريم، أما وجهى فذو ارتقاب، يحدث الثقة، الصاحب الأمين فيقول:

«والله ياجمال أنا طول عمرى شقى..».

تلك عبارته، دائما يرددها، غير أنه يلفظها فى شجى من شفتين مزمومتين

فكأنه يصرح بها لأول مرة ، أحاول أن أقف عبثا على مسرى الحديث ، على وجهته ، أحاول التعرف على نقطة بدئه ، لكننى لا أقدر ، فيا أصلى البائس لماذا لم تعن ؟ لماذا لم تحفظ مع أن العهد قريب ، والمزار غير بعيد .

أصغى فقط إلى الوالد ، يقول :

« .. كنا فى محطة مصر ، خلف بك يقف مع أشخاص مسافرين جاء ليودعهم ، كنت بصحبته ، طلب منى أن أجيء فجئت ، وقفت على بعد منهم تأدبا وتحاشيا ، كنت صامتا ، لايكلمنى أحد ولا أتحدث إلى أحد ، وحيدا ، منتظرا ، فجأة .. لمحت إلبك يفارق صحبه متجها نحوى ، مشهرا عصاه ، ظننته يسعى فى إثر شخص ورائى ، وأنه سيتجاوزنى ، التفت لأرى من ؟ لكن العصا نزلت على جسدى ، على جسمى أنا ، سبّنى ، رفعت اليدين أحوش البلاء عنى ، فوقعت بين ألمين ، الضرب وألم المفاجأة ..

يصغى أصلى دهشا ، هاهوذا الوالد يفصح عن مكنون يسير مما عنده ، أمر من مغاليقه ، لم يبح به أبدا ، ينطقه فى يسر ، كأنه يزيحه عن صدره مع دنو الختام ، أليست آخر زيارة يقوم بها إلى بيت ابنه الأكبر وبعدها لن يدخله أبدا ، ولن يسعى إليه قط ، نظره متجه إلى بعيد ، يتجاوز الأطر المكانية ، يتصل بهذه اللحظة المولية ، يقص ماجرى بها ، يتفحصها ، يبدى الأسى والدهشة بعد كر الأعوام وتبدل الأحوال ، واختلاف العلاقة ، إنه متأهب لقص المزيد ، وربما لاسترجاع لحظة أخرى ، أو لحظات ، غير أن أصلى الغبى ينطق ، يا أصلى الأحمق اسكت يامن قِدرى أن أكون أنت ، أن أكونه ، لماذا تكلمت ؟ لماذا استعدته من سريانه ؟ يا أنانى ، يامغلق على نفسه ، يامقطع الوصل ، يامخرب الجسور ، لماذا نطقت ، لماذا تكلمت ؟، يتساءل البائس الذى هو أنا :

« بدون سبب ؟» .

يجيب الوالد منتزعا من بعيده الذى كان ..

« بدون سبب ياولدى ..»

فى صوته أنة ، وفى نبره شكوى ، كأن ماجرى وقع منذ لحظات مع أن عشرات الأعوام انقضت ، والبك يرقد عليلا تختلط عليه الأمكنة وتتداخل فى وعيه الأزمنة ، لايغادر فراشه أبدا ومامن صاحب يمضى إليه إلا الوالد ، صار الأمر بينهما صحبة وصلة ، حتى أنه إذا غاب عنه يوما أو يومين ، يرسل من يتصل به ، ويستفسر عنه بل ويعتب عليه ، قبل بدء رقاده وعجزه كان الوالد يمضى إليه ، مع بدء الليل يبدأ حديث البك ، يذكر أياما نائية ، وجاها كان يرفل فيه ، ومنازل فسيحة ، حدائقها لاتحد جرى فيها ولها ، وهدايا ثمينة تلقاها ، وحلوى خاصة يفضلها كانت تجيئه من نابولى ، البيت القديم بارد ، لفراغه وقع وصدى ، ولأثاثه العتاقة ، ولضوء ثرياته النحاسية قدم الزوايا المنسية والنواصى التى لاتؤدى إلى شىء ، أما أصوات الطريق فتجىء كأنها تمت إلى عالم آخر ، يصغى الوالد ، يضيق حدقتيه ، وفى أيام أخرى يتكلم هو ويصمت البك ، يتحدث عن بلاد نزلها أول الليل فلاقى فيها كرماً وترحيباً ، ومقاه صفق روادها عند ظهوره يطلبون له الشاى أو القهوة بدون أن يعرفه أحد ، وطرق مهجورة اضطر إلى اجتيازها حتى لاينزل الليل عليه فى الفلاة فيخرج له الضبع أو ينفرد به الذئب ، يتحدث عن حروب دارت منذ عشرات السنين بين العائلات الكبيرة ، لاتزال آثارها باقية ، عن زمن صال وجال فيه فرسان كرام لم يعرف مثلهم فيما بعد ، يقول ، راح هذا كله ، نعم .. راح ، فى أيام الجمع ، قبل الصلاة بساعتين ، تلك الأيام التى كل فيها بصر البك وخفت نور عينيه ، يمضى إليه الوالد ، فيصحبه مشيا عبر شارع الحسينية ، ثم شارع

المعز ، حتى ضريح المنجب النجيب شهيد كربلاء ، حدث الوالد فقال :

كان يمشي متمهلا ، لا أراكم الله مكروها ، يسأل عن كل شارع ، ويستفسر عن بقاء العلامات ، وعن مبان لم تكن قد اكتملتْ قبل ذهاب بصره ، أحيانا يتوقف ، ويطلب أن نمضي عبر باب النصر بدلا من باب الفتوح ، فأقول له ، إنني أتشاءم من باب النصر ، لقربه من المقابر ، ثم إن شارع المعز أقرب ، فيأبى ويصر ، وعندئذ أتوقف محتجا ، هنا يصبح أقرب إلى طفل ، يوشك على النهنهة إذ يقول معاتبا ، طيب يا أحمد .. لأنى عميت تتحكم فى ؟، فلا يطاوعنى قلبى وأمضى به كيفما شاء وإن كرهت ذلك ..» .

هاهوذا الوالد يجلس القرفصاء فى الشرفة ، يلامس رأسه بأطراف يده ، إنها الأيام التى ضاقت فيها عيناه ، وخف لون سوادهما حتى أصبح رماديا ، وتباطأ خطوه ، ومال جذعه ، إنها أيام الغروب التى لم تنتبه إلى دنوها يا أصلى الغبى ! ، كيف أرضى بتراثك ؟ كيف أقبل ما أوْدعتنى إياه ؟ ولولا أنى مجبور ، مضطر ، لوليت الوجه ، وأوغلت نأيا عنك وبعدا ، يامتقاعس ، يامتأخر ، يامن تدع الأوان يفوت ثم تندب نفسك ، عشت لاهيا ، متشاغلا عن أقرب الأقربين ، تعبث فى خراء أيامك ، ومع ذلك فإنك وثاب ! .

يمد الأب يده بورقة مطوية ، أود لو أقول له ، وفر على نفسك ، لاترجو جمال زيارة الرجل فى مرضه ، لاتخبره باسم المستشفى أو عنوان الطريق ، والطابق ورقم الغرفة ، فلن يذهب ، ولن يراعى لك خاطر ، ولن يجامل ، لكنه بعد اقلاعك وتمام غيابك يا كريم ، يامجاهد ، سوف يسعى لزيارة البك ، فلن يجده واعيا ، سيلقاه بقايا ، وسيكذب عليه ولن يخبره أنك مضيت إلى الأبد ، لأن الأهل رجوه أن يخفوا عنه النبأ ، فلو علم لصار الأمر عسرا ، لوقعت صدمة على البك الذى يطوى ماضيه تحته ، إلى جواره سيجلس ،

يصغى إلى الكلمات المتباعده ، وكلما قال الرجل : أحمد تأخر علىّ ، أحمد لايسأل عنى ، صار أصلى فى محنة ، وحاش دمعا ، دمعك متأخر دائما يا أصلى البائس ، وندمك بعد فوات الأوان يا أحمق ، فانتبه إذا جاز لك الانتباه ..

أتأهب لإبداء اللوم ، وإظهار النفرة ممن كتب علىّ أن أكونه ، غير أننى أنهى عن ذلك ، فلا أخوض ، إنما أرجئ ما أبطنهُ إلى مدى حتى تتم أمورى . يستغرقنى الآن وجه الوالد الذى كتم ماجرى أعواما عديدة ، ثم أفضى إلى ابنه فى لحظة أصيلية دانية من الغسق ، وأثناء زيارة قدر لها أن تكون الأخيرة ، كأنما أراد أن يفسر أمرا مبهما ، أو يخفف عن دخائله حملا ، هذا تفسيرى وفهمى ومقدار إدراكى ، وما من مجال الآن عندى إلا لتساؤل ، لماذا أفضى بما أفضى ؟ لماذا فى هذه اللحظة بالذات ؟ لو أن أصلى بذل القليل ، لومد جسر الوصل لحظات لأدرك ولعرفت ، لكنه ترك عندى ما استعصى علىّ ..، أسمع صوت الوالد :

« شوف ياولدى .. الذى أمن الفقير على رزقه ، الذى صان كرامته ، جمال عبد الناصر.. ولو لم يفعل إلا ذلك لكفاه ..» .

تغيم الرؤيا عندى ، تلك مدينة صغيرة لا أعرف كنهها ، لم أطرق دروبها ، أرى الأمر ، الوالد غائب عن البيت ، إحدى مرات غضبه وهجرانه إلى حيث لاندرى ، مضت فترة والخبر منقطع والأثر مفتقد . لكننى ساع فى أثره ، أرى بعض الأقارب . الحاج أبو الغيط ، الحاج عوض ، الشيخ عبد اللطيف . وكلما مررت بواحد منهم أبدى اللوم وأعرض عنى .

« لماذا تغضبون أباكم ؟» .

« هل تعرفون كم شقى بسببكم ؟» .

ينقبض قلبى ، أوشك على إبداء العبارة ، مالى أنا بما جفاه غيرى ، لماذا

أحاسب على مالم أرتكبه ، إنما أنا وافد ، عابر ، أنا لم أكنه ، فكيف أحل هذه القضية ؟ غير أنني أكتم أمري ، أرى الوالد فأكف ، أراه عاريا كما ولدته أمه ، جسده يلمع ، تعلق به قطرات ، أسأله عن أحواله فى غربته الأبدية ، يقول إنه بخير . استفسر ، أهو راض عمن أنجب .. _ أقصد _ عنا ؟» يومئ ، لاينطق ، أسأله عن هذه المياه ، فيقول مبتسما :

« أنا ملتحف بالنيل .. ألا ترى ؟» .

أدرك أنه يتوشح بماء النيل من المنبع إلى المصب ، وهذا عجيب ، أتأهب لاستئناف المخاطبة غير أن وجوده بدأ يتميع وصورته تنأى عنى ، عندئذ أسمع صوت الأم :

« اسمع ياجمال ، ماراح من الزمان راح بحاله ، وأورث ما أورث ، وما نحن فيه فتحت سلطانه ، ومالم يأتنا فلا حكم لنا فيه ..» .

يغيم ما أراه ، فأمضى فى الحال صعدا

* * *

لاتحسبونى ، غنيا عن مودتكم
إنى إليكم وإن أيسرت مفتقد

* * *

أرى الأم فى صمتها ، هل ورث أصلى رغبة فى السكوت عنها ؟ لست أدرى ، غير أن هذا الطبع صار طبعى بحكم الوضع وجوهر المهمة ، أنا مثله ولست مثله ، وكان ظاهره غائما وداخله صحوا ، لاكسوف عنده ، لاتحجب

رؤاه غمامات . تلك أم أصلى تطيل النظر إلى فراغ الغرفة ، ساعة فى إثر الأخرى ، تنتظر أحمد ، تستند إلى قفة تحوى الثياب مضمومة ، ملمومة ، منذ قليل جمعت الغسيل ، طبقته ورتبته ، بجوارها موقد غازى ، حمالته المستديرة منزوعة عنه ، أتطلع إلى انتظارها . إلى قعدتها فأحن وأحزن ، أحن من حيث أنى غريب عائد ، منى ، وتلك حالة أمومية ، فكل أم بها أعنى ، والأمومة حنو ، والحنو عطف ، وأنا وحيد ، بمعزل عن دهرى ، منى ، فدائما أطلب الوداد وأسعى ، وأحزن من حيث أنى جاهل فتلك لحظات أراها وأطوف بمشارفها وليس لى من الأمر شىء ، بل إنى مدرك ابتلائى بالفرقة .

أراها تخرج إلى السطح ، ترى أفق الدنيا ، المبانى البعيدة المرتفعة ، الأطراف ، الحدود ، لانهائية الفراغ ، أصوات المدينة المندغمة الغامضة ، فى نقطة مايسعى أحمد ، يجرى على رزقه ، هذا ألق النهار عند اشتداد القيظ ، وحومان أسراب الطير ، ورمادية الأيام الشتوية ، سحاب فوقه سحاب ، وقوس قزح واضح بعد انتهاء المطر ، وشفق وغسق والليل وماوسق . فى النهار ضوء وأنس وعزلة ، تدخل وتخرج من الغرفة ، تنشر ثوبا على حبل الغسيل ، تتوقف فجأة تنظر إلى جهة من هذه الجهات التى لاتتبدل ، ترى .. أى منها يؤدى إلى جهينة ؟، إلى تجاور النخيل ورسوخ الجذوع ودوران الساقية ، وملمس الطحين ، ورائحة الفرن بعد الخبيز ، وملمس الدوم الجاف ، وصوت نزول القمح إذ يتدفق من فتحة الصومعة السفلى ، ومذاق الخبز بعد نضجه وغمسه فى اللبن الرائب ، وصوت سعف النخيل ، ودفق النقط الأولى من اللبن فى الوعاء الفخارى ، أى جهة أى ؟.

فى هذه اللحظة بعينها ، كيف تتحرك الأم ؟ أين ، إلى أى جهة ؟ ومحمد « شقيقها » فى أى سوق يتسبب ؟، الإثنين سوق نزة ، الأربعاء سوق جهينة ،

السبت سوق الطليحات ، وهذا أبعد مسافة وأنأى ، فى الأحد ربما يمضى إلى طهطا ، والثلاثاء قد يذهب إلى سوق سوهاج الكبير ، أى جهة تؤدى ؟

فى الليل يوحش السطح ، تغلق الباب وتقعد خلفه لو تأخر أحمد ، تصغى إلى الهمسة ، ومرور الرياح ، وماترى أنه غريب لم تألفه ، عبر النافذة تبدو أضواء المدينة ، حمراء زرقاء ، بعضها يطفأ ويضاء بانتظام ، هذا الضوء الدائرى فوق عمارة غمرة المرتفعة ، قال أحمد إنه قريب من بيت البك ، إلى هذه الجهة ذهب كمال ، منها بدأ نزوله ، بدأ غروب حظه .

فى الليل تتوقع الأذى ، لاتقدر على الخروج وحيدة إلى دورة المياه ، إنها منفصلة ، عندما جاءت كان بابها محطما ، مباح داخلها للنظر ، ولأن تكاليف باب خشبى جديد لايقدر عليه أحمد . ولأن الساكن يجب أن يقوم بإصلاح ماتلف ، اكتفى بإسدال جوال سميك من الخيش ليفصل وليحدد ويحوش البصر عن العورة الخروج إليها فى الليل أو عند الفجر فيه محاذير ، ظلام الدورة ، احتمال اختباء دابة مؤذية ، أو تطفل متسلل غريب ، إذ يتأخر أحمد لايمكنها الخروج ، فى الليل العميق لو اضطرتها الحاجة فإنه يصحبها ، ويقف منتظرا فراغها ، بينما البرد صرصر ، برغم هذا كله يهون ماتلقاه ، فى بيت أم هدهد كانت دورة المياه معتمة فى نهاية الفناء ، منعزلة عن الغرفة ، يمكن لأى عابر غريب أن يندس ، وبرغم خوفها إلا أنها كانت راضية هناك ، فالدورة تخصها ، لم تنأ بعد أيام تلطمها على بيوت الأقارب وأهالى البلدة ، أورثتها مواجع شتى ، ليتها لاترجع ، ليتها لاتعود ، إنها تقعد أمام الحجرة قرب السلم ، الضوء لايمكننى تحديدُ انتمائه ، لا أدرى إلى أى وقت من النهار ، ترقب زحف طفل صغير ، يحبو ، يرتدى جلبابا بنى اللون ، يتدلى من عنقه خيط يحمل حجابا يحوى التعاويذ والأدعية المنجية ، من ؟ من الطفل ؟ أهو كمال ؟ أين

أصلى إذن ؟ أقصد .. أين أنا ؟ أيكون هذا أنا ؟ مامن علامة دلت ، الملامح لاترشدنى ، فشتان مابين ملامح تحمل أزمنة ، وملامح لم تزل بعد غضة .

الأم وحيدة ، مامن جليس ، مامن محاور ، الأب لم يرجع بعد .. إذن ، الوقت قبل العصر ، ربما تأخر عن موعده ، لكنها فى انتظار عودته بالغذاء ، مامن طعام فى البيت ، فقط رغيف من بقايا الإفطار وقطعة جبن حالوم وبصلات ، أما آخر ماتبقى من البلح الذى أرسلته والدتها فقد نفد منذ أيام ، حتى لو امتلأ الماعون بالطعام لايمكنها أن تأكل قبل رجوعه ، أن تأكل بمفردها فهذا مالم تعتده بعد ، أما إذا عاط صغيرها جوعا فتغلى ماتبقى من شاى الصباح ، تبل فيه كسرة خبز ، إنها منتظرة ، صابرة ، ساهمة ، أى صور تعبر ذهنها فى هذا اللحظة ؟، أى شرودها ؟ هذا مالم أحط به علما ، هذا مافات أوانه ، هذا مالن يستفسر عنه أحد ، مالايعنى أحدا . مع أنه من أجل المكنون ، تلفها الوحدة ويتغمدها الصبر ، الأب حذرها من الاختلاط بنساء البيت ، ألا تدخل عليهن ويدخلن عليها ، قال إن الاختصار عبادة ، قالت له ، لو زارتها الست نعيمة امراة عبده الحلاق سوف تستضيفها ، وتجلس إليها ، وتقدم واجب الضيف ، إنها صاحبة أم هدهد ، إنها السبب فى سكناهم هنا ، هاهى ذى الأم تمسك قشة نحيلة ، تخط بها خطوطا نحيلة فى تراب يكسو بلاطات السطح ، أنها ترقب ظل الجدار الطويل المواجه للغرفة ، إذ يصل إلى الصف الثالث من البلاط تكون عودة أحمد قد دنت ، إذن .. أمكننى تحديد الوقت ، غير أننى انقلبت خاسئا وأنا حسير ، فما أطلع عليه ليس وقتا بعينه ، إنما وقت فى جوهره ، يحتوى أوقاتا متباعدة ، هنا ألممت بالمرات التى زحف فيها هذا الظل ، منذ تكونه وبدئه أول مرة مع إتمام جدار الغرفة الذى هو سبب ظهور صورته ، رأيت حدوده وحوافه وسرعته صيفا وشتاء ، نفذت إلى لب

صلته بجرم كوكب الشمس ، كذا انمحائه عند زوال الغرفة وتهدمها ، أو تحوله إلى أشكال أخرى ، عرفت أن بقائى فى هذا الكون كبقاء هذا الفيئ ، وأن معاشى فى تلك الدنيا كحلول هذه النسمة التى خففت القيظ عن وجه أمى ، إنما أنا عابر ، مارق ، دائما فى الفائت ، محروم من الحاصل ، وهنا انتبهت إلى أن حال الوداد يأفل ، إلى انه يولى ، وأننى أسرى على مهل إلى حال الوحدة ، وأن اغترابى يتصل ، فوددت لودام الحال حتى أنتبه إلى مالم أنتبه إليه ، وحتى آخذ مما لم آخذ منه ، وأذوق مالم أتذوقه ، وأعرف ما لم أعرفه ، غير أن الأوان فات ، والحيز انقضى ، وليس لى إلا السعى .

* * *

حَـــال الفـــوت

«وَتَـرَى الجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِـدَةً
وَهِيَ تَـمُـرُّ مَـرَّ السَّحَابِ»

(قرآن كريم)

.. إنه السطح ، أتوقف لأتملى ، يمتد من المشرق إلى المغرب ، حدوده ثلاثة ، حد جهة طلوع الشمس ، وآخر جهة مغربها ، وثالث شمالى ، أما الرابع فموصول بالغرفة ، لاسقف أو غطاء يحجبه عن السماء ، فى الركن القصى الأيمن عمود خشبى نحيل ، يواجهه فى الركن الأيسر عمود توأم ، يصلهما سلك نحيل ينحدر عبر المنور ، إنه هوائى المذياع الوحيد فى البيت ، تمتلكه الست وجيدة امرأة عم أحمد عمر التاجر ، أحيانا يصل سمع الأم غناء أو أطياف موسيقى ، أنغام شجية نائية تعمق الوحدة ، تقوى الحنين والتوق ، أدنو منها ، لاظل لى فوجودى هذا لاينتمى إلى عالم الحس ، تلك أم أصلى ، الذى تلملمت خلاياه وارتوت منها وعاشت بها ، عرف حنوها ورقتها وخوفها وإشفاقها كأمر مفروغ منه، لم ينتبه إليه إلا بعد وصول الفوت ، أنظر إليها فى قعدتها الظهيرية هذه ، الآن تتكفئ الضجة ، تتلملم داخل البيوت ، عودة الرجال اقتربت ، كذا رجوع الأولاد من مدارسهم ، ياسلام .. متى يكبر جمال ويذهب لتلقى العلم ، تنتظر عودته ، وتجلس على مقربة منه أثناء مراجعته الدرس ، تبتسم ، إن ما تأمله هو الباعث على هذه الانفراجة فى ملامحها ، إذن .. تتعجل الزمن ، تود لو يكبر أصلى ويدب ويسعى ، هذا ما لم يقف عليه أبدا ، تلفها ساعة الظهيرة القاسية

التى يتصاعد معها الانتظار ، يبلغ ذروته إذا امتدت ظلال السور وتطاولت حتى تغطى الربع البحرى من السطح ، إن اقتراب العصر ينبئ بالوحشة والقفر ، وهنا سمعت صوتا :

«كان انتظار أمى مثل انتظارها ..» .

التفت متعجبا ، هذا .. دليلى ، مديد ، تدور عليه الهيبة وكأنها الرحى حين تدور على قطبها ، طلب منى ألا أدون اسمه ، فحوته بعد أن كتبته ، لذا شكرنى على ذلك ، وقد خشيت وابتهجت ، أما خشيتى فلظهوره المفاجئ عندى ، وأما ابتهاجى فلوجوده قربى ، وأيضا لأنه دليلى ، ولأن الحوار سيتصل بنا ، مع أن أصلى لم يره إلا من بعيد ، حالت بينه وبينى الحواجز ، فسبحان مغير الأحوال ، ائتنست به لأنه يخاطبنى ، ليس بلهجة الأمر ، أو النصح ، لكن بلهجة من يفضى بسريرته إلى خله وصفيه ، يواصل حديثه إلىّ بينما الأم فى وحدتها لاتدرى من أمرنا شيئا .

« حلت بى الشقوة بعد فقدى أمى » .

استفسر بالنظر :

« لم أر لحظة رحيلها ، كنت بعيدا أطلب العلم ، وعندما رجعت إلى البيت ولم أجدها ناء قلبى بأول حمل ثقيل ..» .

يحدث نفسه :

«كان هجاج روحى بعد فقدها عظيما مزوعا ..» .

أقول بلسان أصلى :

« إنما أنا مثلك ..» .

يقول :

«كلما رأيت أما أتوسم حضورها ، أهفو فلا ألقى إلا قبسا ، وعندما صار

الأمر إليّ لم يكن يفجر حنيني وضيق إلا اطلاعي على شقاء أم ..» .

ثم يقول :

«كان بودى أن أدفع الشقاء عنهن أجمعين ولكن الأمر خرج عن طوعى ..» .

أصيح :

« يامحاصرا كنت ، ومحاصراً لم يزل .. زدنى ..» .

يقول :

« مازال البون شاسعا ..» .

أقول :

« ألم تخلف لنا رفيق السوء ..؟» .

يبسط أصابعه محذرا بلين :

« لاتلمح إليّ ، ولاتذكر مايدل عليّ ..» .

أقول بلوم لايخفى :

« سامحك الله ..» .

يشير إلى الأم :

« لاتدع لحظة تفلت ، ماتظنه باقيا لن يدوم ..» .

حرك كلامه هذا شجنى وأجج حنينى ، وصير ريح ودادى إلى عندى ، غلب على حالى من حيث أنى جهال ، فكان حالى مثل غريب يتحدث أمامى عن محبوب غال ، فينبعث هذا المحبوب ماثلا بالنخيل وكأنى أعرفه مرة ، جرى مثل ذلك لأصل مرارا . حدث أنه كان فى زيارة البلدة التى أول ما لامست أرضها رأسه ، فى دكان القهوة والشاى قعد ، جاء الأقارب والصحب ، جاء الشيخ عبد اللطيف ، بسأله عن أبيه ، ثم مال قائلا : خذوا بالكم من أبيكم ،

تطلع إليه مستفسرا بصمته. قال: أبوكم تقدم فى العمر، ثم قال: أنتم لاتعرفون مقدار عمره ثم قال: أنا تجاورت السبعين بعامين.. هل تعرف أن أباك شالنى وأنا ابن عشرة وعدى بى حفيرة المياه قبلى البلدة، ثم قال: ظننت أن الهرم لن يدركه أبدا لحيويته ونشاطه حتى رأيته السنة الماضية، سكت لحظة، ثم رفع أصبعه: لاياجمال أبوك تعب، والكبر بان فى عينيه.

هنا اجتاح أصلى حنين وشوق وشفقة، حتى ود رؤية والده للتو مع أن المسافة نائية، قويت عليه الرغبة فى القرب حتى شجا، فحاش الدمع عن الطفر من مقلتيه غصبا، أضمر النية على ضمه عند رؤيته، على بثه رقيق اللفظ، أن يهون عليه مايلاقيه، أن يرفق به، أن يصغى إليه مطولا.

أقول أنا المأمور بأن يكون غيره، أقول وعندى مس من غضب: وهل أنت فى حاجة إلى من ينبهك ياكليل البصر؟ ألا تعيش معه؟ أليس أصلك وأنت فرعه، أم أن الجذع لايرى جذره، والغصن لاينظر إلى منبته. أهى طبيعة إنسانية؟ هل نسيت أنا مايكون عليه البشر؟ والله لو أن الأمر كذلك فلابد أن الموضوع فيه نقص، هل تعرفون ماكان من أمره بعد وصوله إلى البيت ورؤيته أباه؟ لقد أرجأ وأجّل. إن هذا مقيت عندى، مغاير لخصالى العتيقة التى كنت عليها، أنتبه إلى دليلى فى تلك الأحوال، يغدق حنوه على أم أصلى.

حدثنى فيما بعد، قال: لم أنس أبدا نظرات من حنت علىّ، خاصة عند الرحيل أو الوصول، كذا دخولها الليلى علىّ ليطمئن بالها، ودعاؤها الصامت لى أثناء غيابى فى القاهرة أطلب العلم، وقعودها صامتة أثناء تناولى الطعام. تغدق علىّ ودا، ورجاء وخوفا لايفصح عنه، وحنان، ووصايا، تثقل المعانى، تتدافع، فلا تلفظ، غير أن جوهرها يصل. كل المراد يصل ويبلغ، فيرق مابى، حتى يستعصى مابيننا على النطق. عندما أطلعنى على ذلك قلت:

كأنك تكنى عنى ، كأنك أنى . هذا حال أصلى ، وماكان بينه وبين أمه ، عند سفره لم يكن يقبلها ولم تكن تقبله ، غير أنها بالنظر تودعه كل ماعندها ، يقول دليلى :

« لاتفارقها فى وحدتك ، الزم هذه القعدة .

إن ماتراه لن يدوم ..» .

ينبهنى إلى ماطمس علىّ ، ألتفت ، غير أنه يلمس يدى ، يقول ونظره غريب :

« وصالح نفسك ، ولاتفصل بينك وبين أصلك ..» .

ثم يقول بعد لحظة صمت :

«كل ماسعى إليه تسعى إليه ، وكل مانأى عنه ستنأى عنه ..» .

هنا لزمت صمتى ..

فصـل ..

عمّر الله قلوبكم بالصبر الجميل ياأعزائى ، اعلموا أن عهد أصلى بهذه القعدة الأمومية قديم ، إنها تاريخ ، إنها أطوار ، إنها حالات ، إنها علامات فى طريق ، وارتباط وثيق بأنغام مندثرة ، ودرجات من الضوء متعاقبة ، ودفقات شعورية ، وتداعيات ، وصور ، وأصول ، وفروع ، وندى ، وشوق ، وغيوث هواطل .

اعلموا أن الجلوس لايكون إلا لانتظار ، انتظار قدوم ، أو إقلاع ، أو انتظار للفراغ من تعب ونصب ، أقدم موروث أصلى وأعتق مايعلق بذاكرته قعدة أمه تلك ، وسعيها فى البيت ، يذكر حركتها الدءوب منذ صحوها ، فلكل حاجته ، ولليوم الجديد تدبير يجب أن تعد له . الظروف عسرة ، والزاد

شحيح ، بعد سعيها مابين الغرفة والسطح تبدأ قعدتها . تصفو وحدتها ، فوق مشية قديمة أو مكنسة من لوف النخيل البنى اللون ، تطوى ساقيها ، وهذا وضع يستلزم ميلا خفيفا إلى الأمام ، ميلا ينتهى بإطراقة رأسها ، تنظر إلى مايصعب تحديده ، تحدق إلى بلاط السلم ، درجاته ، إلى السور ، إلى عمامات عابرة ، إلى حدأة محلقة ، غير أنها تنظر إلى ماوراء هذا كله . إلى مايستحيل تعيينه ، فى عينيها معان غير مقيمة ، عابرة ، فيها الوداعة والرقائق الوعر اجتماعها ، وظل عتاب على أمر مجهول .

هذه نظرات أوغلت فى حشا أصلى وتمكنت ، وحركت عليه ـ عند استعادتها ـ هبوب الحنين، حار دائما فى استكانتها تلك، فى هجوعها إلى ذاتها الساعات الطوال ، عمرها كله تستيقظ قبل الجميع ، تماما كأمها التى لم ترها نائمة قط، ردد جمال دائما، إنه لم يرها مغمضة العينين أبدا، حتى بعد اتساع المسكن ، وانفراده بغرفة ، فإذا كانت مستغرقة فى الحجرة المجاورة وفتح هو عينيه تسيتقظ لتوها وتحدث سعلة ، أو تلفظ كلمة تنادى بها نفسها « يابويا » أو « يا أنا » ، وهى تنبئ من سكنوا رحمها وتكونوا فيه أنها منتبهة ، مستيقظة ، فله الأمر من قبل ومن بعد .

أول ماتعنى به فى يومها أن توقد نارا ، صوت دفعها الكباس أول مايسمع ، تعد الشاى بسرعة ، وقت الأب ضيق ، أقل هفوة ستفقده مصدر رزقه ، وقد عاش زمنا لايعبأ ، أما بعد مجيئها إلى مصر ، بعد مجيء خلف ابنها البكر ثم كمال ، ثم جمال ، جمال من حللت فى كينونته ، أصبح الأمر خلاف الأمر ، إنه مرغم على المسايرة ، على الخضوع والمسايرة ، استمر ذلك حتى زمن ابن عبد الناصر الذى أمّن المهضومين ، وحمى لقمة العيش ، الوالد يشرب كوب الشاى ، يلف ماتبقى من خبز ، وقطعة جبن ، أو حلوى طحينية ،

ماتيسر ، لا وقت للإفطار فى البيت ، يحرص على النزول مبكرا ، يمر بضريح الشهيد ، فإذا سمح الوقت ركع وصلى وطلب الصفح الجميل ، أما إذا ضاق تلا الفاتحة وأضمر العذر وطلب الاستجابة ، يبدأ المشى من ميدان الحسين إلى الدق ، يوفر ثمن تذكرة الترام ، بعد انصرافه تقوم إلى البيت تكنس ماتجمع من غبار ، بعد استيقاظ الصغار ترتب الفراش ، حشية كانت فوق الأرض ، أو سريرا أو أسرة ، تملأ صفيحة مياه تحوطا وحذرا من انقطاع المياه ، السطح مرتفع ، عندما يفتح الجيران صنابيرهم تشح ، تصفر المواسير الرمادية، إذ تفرغ وتطمئن إلى أنها لم تسه عن شيء ، تغير جلبابها ، تعصب رأسها بمنديل أبيض حف بدوائر زرقاء ، عندئذ تبدأ خلوتها تلك .

فى جهينة كانت تقعد تنتظر أخبار أحمد ، بعد عقد قرانها تبدل حالها ، أصبحت ضيفة ، والضيف لابد أن يرحل ، وإلا صار بقاؤه ثقيلا ، تسأل نفسها دائما، متى سيجيء؟ متى سيصحبها إلى بيتها ؟ . أما قعدتها فى بيت الشيخ قبيصى فانتظارا لعودته ، ولخشيتها وخجلها من الحركة فى بيت لاتعرف من حجراته إلا ركنا قصيا استضافها الطيبون فيه . فى غرفة « حوش قدم » مضت عليها بساعات بطيء انقضاؤها ، هنا فوق السطح تشم الهواء ، تغمرها الشمس فى الشتاء ، فى الصيف تعبر النسمات السطح الفسيح فتطيب القعدة مع أحمد ، أحيانا تمدد الولد فوق وسادة وتجلس بعد أن تدلك جلده بقشر البطيخ ومعالجة لحمو النيل ، ترقب كل ظل يتحرك حول وليدها خوفا من شر العقرب ودابة الأرض .

أقول أنا صورة جمال الراحل ، المبدد ، الموزع ، إن هذا السطح موقوت ، سيزول يوما ، فما ثمة بناء يبقى أبدا ، حتى مانظنه متجاوزا للدهور ، فالأمر نسبى ، والأجل مقدر ، هذا الفراغ الذى يشغله وجودها الحسى سيصير معلقا ،

أو يشغله جزء من بناء آخر يقوم ثم يندثر. أرى الأثر الخفى الذى لايمكن لعين تطلع عليه أو ترقبه، أرى لحظة يندثر فيها مالا يمكن رؤيته، الزمن ذاته، فيولى الباطن بعد زوال الظاهر يتلاشى كل ماخلفته قعدة الأم ، كما تبددت بقايا من أمت إليهم ، من أمضيت معهم مدة وجودى الأول ، مامن أحد فى غربتى هذه يمكنه الإشارة إلى حيث كانوا ، وسعوا ، وأقاموا ، نسى أمرهم بالكلية .

عند هذا الحد أقف على دافع من دوافع هجاج أصلى ، أراد المسكين أن يدرك مالا يدرك، أن يلحق مالايمكن اللحاق به، حتى إذا أوشك على إدراك الكنه ، ولمس مشارف الجوهر ، صدر الأمر ونزلت به وبى العقوبة ، تبدد وذرى ، إنى مشفق عليه ، متفهم لحاله حتى وددت لو مثل أمامى فأحاوره ويحاورنى ، مع أنه أنا وأنا هو ، فما أصعب ألا يكون الإنسان ذاته ، لكننى مالى دهش ؟ ألا ينطق الإنسان جميع الأسماء عدا اسمه هو فإنه ينادى به ؟!.

أطيل النظر ، أتعلق بذلك الفراغ الذى كانت تشغله ، هنا أصغت إلى أصوات شتى ، سقوط وعاء .. اصطفاق باب ، نداء بائع ، نتف من محاورة ، أصداء مبهمة ، ولأنها تناغى طفلا لايقدر على النطق . فليس أمامها إلا أن تصغى ، من حركة الظل فوق البلاط المربع يمكنها أن تعرف موعد اقتراب بائع البصل ، أو من يدعو إلى مبادلة الملابس القديمة بالأوانى الزجاجية والأوعية ، مع كل نداء تتذكر أن البيت بحاجة إلى شيء من هذا ، تنقص أكواب ، براد الشاى تقشر طلاؤه ، الثوم قارب على النفاد وشهور تقصه من الأسواق تدنو ، لكن .. القدرة منعدمة ، والحمد لصاحب الحمد أن لديهم مايسد الأفواه ويخرس جوع البطن ، أمها لاتدعها ، مع كل قادم إلى القاهرة يمت إليهم بصلة ترسل علبة سمن ، أو جوال طحين ، وحمامات ، أو أوزة مذبوحة ، وماتيسر من البلح والأرغفة ، حتى لو قبضت على نقود وفاض القرش عن حاجتها ، كيف

ستنزل الطوابق الخمسة ، لم تكن قد عرفت زمن البيع والشراء بعد ، لن يطول بها الأمد ، فسعيها أوانه قريب ، هذا ما أحطت به علما .

إنها الآن وحيدة .. مرات قليلة نزلت فيها الدرج بمفردها ، فقط عرجت على شقة نعيمة المرضة صاحبة ابنة أم هدهد ، لابد أن تمر بشقة السيدة فوقية ، تبادلها التحية ولاتخالطها ، تعتذر بحجج شتى حتى لاتلبي دعوتها لشرب كوب شاى عندها . قال أحمد إنها عملت راقصة ، وأن رجالا أغرابا يزورونها ، وأنها ادخرت أربعمائة جنيه من المال الحرام . وأنها تقرض النساء بالفايظ ، إن تجنبها أفضل ، إذ تراها ، تأخذها رجفة ، تتذكر مجيء الغوازى إلى جهينة ، اللاتى يغوين الرجال ، ويخطفن الصغار ، البيوت تغلق أبوابها عند وصولهن ، والأولاد لايسمح لهم الأهل بالخروج حتى ابتعادهن . لن تختلط بفوقية ، أما صعود نساء البيت إلى السطح فأمر تم حسمه ، بعد سكناهم بأيام معدودات ، طلعت ثريا ابنة ساكن الطابق الأول تحمل سجادة قديمة لنشرها فوق جدران السطح . أحمد غضب ، رمى السجادة فوق السلم . زعق معلنا أن السطح من حق ساكنه لاغير ، ولن يصعد إليه غريب ، خرجت السيدة وجيدة وصاحت مهددة ، متوعدة ، وسمعتها الأم تقول إنها قريبة لوزير التموين فى حكومة الوفد ، جاوبها أحمد بقوله إنه لايهمه تهديدها وأن وزيرها هذا لايضر ولاينفع . تهددته وتوعدته . وأكدت أنها ستقطع عيشه من وزارة الزراعة ، فسخر قائلا إنه قطع رجلها بالفعل من السطح ، أرجف الأمر الأم ، حاولت تهدئه رجلها وتهوين الأمر ، أن تعود به إلى الغرفة ، غير أنه طمأنها ، إنه يعرف ناس مصر ، لوسكت أول مرة سيطلعون إلى السطح فى كل حين ، يكدرون عليهم عيشهم ، ويجرحون عوراتهم ، بعد حين استقر الأمر ، وخلال الأيام التالية التقى أحمد بزوج السيدة وجيدة ، وتعاتبا ، عرف أنه من طهطا ، البلدة

المجاورة لجهينة ، أى صدفة طيبة ، غير أن الأصول أصول ، واستقر الأمر .. لكن إلى حين ، وهل يدوم شىء أبدا ؟.

إنها تصغى إلى نغمات سبحات مصدرها مذياع السيدة وجيدة ، تدركها فى مجملها ، تعرف الآن بعد طول مدة أن لكل فترة من النهار موسيقاها وأغانيها فى الصباح النهارى ، مع خروج الخلق ، إلى أرزاقهم ، يتموج صوت أم كلثوم فضائيا كونيا كترقرق الضوء على أطياف مذهبة ، تنشد لصباح الخير ، تمنى النفس بلقاء الحبيب باكر ، أغنيتان ترددتا على البعد ، لونتا بداية النهارات ، ورقرقتا أيامها ، وقد انتقل ذلك إلى أصلى ، بقى معه هذا التأثير ، أهو موروث أو كسبى ؟ لا أقدر على الجزم . على التحديد . لكننى ملم بأصباح شتى عاشها فى موطنه ، وفى مدن غربة . ومنها حدائق تعد من علامات هذا الكوكب ، غير أن النهار لم يكن ليشرق فى صبح نفسه ، إلا عند سماع هاتين الأغنيتين ، وأضاف إليهما صوت مغنية عرفها صبيا ثم فتيا ، قدّ صوتها من ضوء سلسبيلى نجومى ، ليلى مراد ، إذ يستمع إليهما يمشى فى الأرض مرحا ويبسطها كل البسط ، ليلى مراد عرفتها الأم فى لحظات الظهيرة ، قبل النغم الذى يسبق نشرة الأخبار والمبشر بقرب انتهاء وحدتها بعد عودة أحمد ، فى بيت الشيخ قبيصى كانوا يفتحون المذياع الذى يتصدر صالة البيت ذات ظهيرة نائية ، ظهيرة يوم لا يمكن تعيينه الآن عندى أو عندها ، أصغت إلى نغم شجى لغ فى قلبها فمس الجانب الغائم من شغاف القلب ، صوت يغنى كأنه الالتفاتة الحسرى المصاحبة لبدء الرحيل ، أو الحسرة المصاحبة لظلمة القلب عند الإيغال فى البعد ..

على بلد المحبوب ودينـى
زاد وجدى والبعد كاوينى

مس الغناء أغوار روحها وأقسى لحظات غربتها ، كأنها التقت بيوم تاه منها

عند منبع الغسق ، كأنها لمحت عزيزا ، غائبا عند حد الأفق فهمّت لتدركه لكن أعجزها الأمر فبمقدار قربها يكون ابتعاده ، كأن أشواقها تزحم الفراغ الفاصل بينها وبين جهينة ، رفيف لا يرى ، وترجيج لا يدرك بالحس لم تلقه من قبل إلا عند إصغائها زمن طفولتها إلى مديح والدها لخير البرية ، سيد ولد آدم ، رد الله غربة أبيها وأمّن رحلته ، تطيل الإصغاء إلى كل نغم قادم من بعيد ، علّها تتقصى شواردها ، بعد إصغائها خشيت ألا تسمعها مرة ثانية ، أوحشت أيامها التالية بدونها ، تباعد الأمر ، حتى دنت منها لحظة أثناء عبورها الطريق المؤدى إلى ضريح السيدة عائشة رضى الله عنها وأرضاها ، لم تدر مصدر انبعاثها أو المذياع الذى يبثها ، أو الفونغراف الذى يرددها ، هكذا جاءت إلى سمعها عبر النواصى والمنحنيات القديمة والمقاهى العامرة التى تمد الخطى أمامها اتقاء لنظرات الجالسين، ودت لو تطلب من أحمد التمهل، لكن كيف تطلب ذلك؟ أتقف بين الرائح والغادى لتستمع إلى أغنية؟ أرهفت السمع بينما النغمات تنسل منها وتنأى ، وكلما وهنت تمكنت من خباياها ، هنا فوق السطح تستعيدها ، تتمتم بها خفوتا ومجاهرة ، غناؤها لا يبدأ إلا إذا تمت وحدتها وابتعد الشريك ، هذا النغم صاحبها إلى آخر الحد المقدر لها ، فسبحان من له الدوام ، إذ أنطلقت فيها هذه الأنغام ما يصعب على اللسان النطق به ، وولدت عندها معانى لا يمكن التعبير عنها أو تعيين آثارها . كذا أحيت أوقاتا مواتا ، وسقت لحظات جفت ونضبت .

أقول أنا صورة جمال ابنها وقد اطلعت منها على دمع جرى ، إذ تنشدها مستعيدة أيامها الغوارب ــ أقول : يا من نظمت لك المنة ، يا من شدوت فأثرت الراسيات الكوامن ، يا من أبدعتم هذه الأنغام ، لكم السلام من شفوق ، مبدد ، أنوب عنه ، ولد هذه البنية التى أراها فى زمن فتوتها ،

وخضرة غضاضتها ، هذه الأغنية سلوتها . وباعثة حنينها حيثما كانت أو تولت ، إلى جهينة ذات الورد والنخيل والظلال والطفولة الضائعة ، عند هذا الموضع ، قرب حافة السلم ، تشعر أنها نائية ، أنها قصية عن البيت القديم . عن روائح شتى تتفجر عند لحظة غير متوقعة ، أو عند انحناء النغم إلى منعرج يتصل فيه الحنين بالحزن العميق ، تلك رائحة الأرغفة بعد تخمرها فى الشمس ، وهذه أطياف من رائحة الدوم العتيق ، والقمح فى صوامع الطين ، والروث الذى جف ، والبوص ، كذا وقود الفرن ، واللبن الرائب فى أوانيه الفخارية ، والطماطم المنتزعة لتوها من جذورها ذات القشرة الصلبة الناعمة ، رائحة ثياب أمها ، عبير حضورها ، عند حافة السلم تلك تستعيد إيقاع اليوم فى جهينة ، تقرن ما يجرى هنا بما يقع هناك ، تصغى إلى آذان الظهر ينبعث من فوق المآذن القريبة القصية ، ترى أمها تجلس أمام الفرن ، شقيقها فى السوق ، اقتراب الليل وتلملم الأحباب ، والأصوات المسائية الغامضة .

هذه القعدة يا إخوانى تنز باللحظات المولية ، تنزف توقا إلى الأيام الغاربة ، ماحير أصلى تبدل مشاعرها فى السنين التالية ، كان يشب عنده حنين إلى جهينة فيعلن عزمه السفر ، عندئذ تقطب ملامحها ، تلوح بيدها «لا تروح ولا تجىء ... ماذا يعجبك فى جهينة ؟» . ماذا بلد أو أفنى ؟ أهو رحيل أمها عن دنيانا ؟ أضيقها بفضول النساء ؟ أم أنه جفاء يخفى رقة لا يمكنها الإعلان عنها ، أم خوفها على أصلى من الحسد ؟ هذا ما حير أصلى زمنا ، غير أنه لم يشرع فى التقصى إلا بعد فوات الأوان وانتهاء الأجل ، فخذوا العبرة ، لا ترجئوا ولا تتقاعسوا ! . كم وددت أن أفيض وأفصل ، لكن هذا ليس بالأوان المناسب ، ذلك أنى مشغول بقعدتها تلك ، بانفرادها ، بوحدتها ، وقد عرفت قعدات أطول فى خريفها وقرب شتائها الذى لم يدم

طويلا ، بعد بدء تساقط زهراتها وشح فروعها وانعدام ثمارها ، من ذلك انتظارها الطويل بعد أسر جمال ـ أسرى ـ وسجنه ـ سجنى ـ وإنى والله لمحدثكم عنه

بـــدء الغمـــة

هذا مكان آخر ، مسكن مختلف فى الحارة ذاتها ، فالزمن متقدم عن الوصل السابق ، حجرتان ضيقتان يصلهما ممر صغير يؤدى إلى دورة مياه وزاوية صغيرة فيها الموقد وآنية المطبخ . الأم تنام فى الممر وبجوارها الابنة ، من هى شقيقتى فى هذا الوجود ، أصلى ينام فوق سرير خشبى عتيق إلى جواره منضدة من خشب رقيق ، مثقلة بكتب شتى ، منذ أيام مضت هو فى كرب ، إذ اعتقل صاحب له كان فى ذلك الحين عنده بمثابة الشيخ لمريده ، كان هاديا له ومرشدا ودليلا أثناء خروجه من زمن جاهليته ، اسمه صلاح ، إلا أن أمرهما لم يتصل شأن أمور شتى لا تتم وأحوال تنقضى وطرق تكون صالحة للسير ثم تصبح غير معبدة ، صار الود إلى جفوة ، ولو أن مخلوقا اطلع على حزن أصلى وروعه وألمه عند تلقيه نبأ صاحبه لما ظن أن الصلة ستخرب يوما ، لكنه الإنسان ، كل يوم فى شأن ، وهذا أمر يطول شرحه وتفصيله فلننئ عنه خشية التيه والضلالة عما نحن فيه . أما الآن فإنى مراقب لهدوء البيت الليلى ، أنفاس النيام مسموعة ، كم الوقت ؟ ربما الثالثة والنصف أو الرابعة ، تتردد طرقات بغيضة ، صداها آمر ، ثقيل ، مقتحم ، لا يرتدع ، الأم فى الصالة تقف متسعة العينين ، بها رجفة ، هذا قدر لم تعد له العدة ، يخرج الأب من الغرفة الأخرى ..

«من ؟ » .

فيجيبه مداهم الليل والدعة ، مفرق الجماعة ، مبدد الألفة ، يلفظ اسمه مقرونا برتبة الرائد ، وإننى لمتسائل هنا كما يتساءل أصلى ، لماذا يقومون بذلك فى عمق الليل دائما؟ أيستعصى عليهم ذلك نهارا، إلا أنهم يزرعون الخوف ويبثونه فينقلب عليهم بعض منه ، أيخشونه وهو أعزل وحيد فى مواجهة هذا البنيان كله من ترتيب وتدريب وتلق محاضرات وتعليمات ورصد وتراكم خبرة فوق خبرة . لماذا يجيئون دائما فى الليل ، لماذا النصف الثانى منه دائما ؟ .

حيرنى ذلك ، لما فزع أصلى فزعت ، ولما انتبه انتبهت ، ولما نظر إلى أبيه الحائر نظرت ، ولما أصغى إلى أمه تقول «لا تفتح» أصغيت ، أجبت بمثل ما أجاب ، «لا يا أمى» . جهال ما هو إلا أنا ، والقبض عليه قبض علىَّ ، محنته هنا محنتى ، لذا فتحت الباب عندما فتحه هو ، رأيت كما رأى ضابطا يرتدى ملابس مدنية ، وهذا أدعى للخشية والحذر وراءه ثلاثة جنود ثيابهم أيضا عادية ، أومأ لأحدهم كى يبقى أمام الباب ، اتجه الآخر إلى الغرفة التى كان يأوى إليها الوالد والشقيق الأصغر على ، أما الثالث فتبعه ، داخل الحجرة على يقف صامتا ، كأنما رجفة قلبه ، تلك لحظة ستعمل عملها فيما بعد وتترك جراحا وندوبا صعب اندمالها ، ليته نطق ، ليته بكى ، إنما بقى جامدا ، شاخصا ، يرقب المخبر إذ يقلب الوسادة ينبش الأغطية ، مكان رقاد الأب منخفض يشع دفأ جسده ، المخبر ينتهك موضع الرقدة ، يلج الضابط عمق البيت ، لا يصبح للجدران معنى، تفقد الأبواب دلالاتها ووظائفها، وتنبش الأسرار التى تنطوى عليها الأدراج، يتبدد الستر، لم يفت الأم أن تلف ابنتها بملاءة السرير فجلبابها قصير منحسر وذراعاها عاريتان ، يتجه الضابط إلى صوان قديم متين اشتراه أصلى من صاحب له ودفع ثمنا له أربعة جنيهات ، صف فيه كتبه وأوراقه ، يرمى الضابط بكل ما تعهده أصلى ورعاه وسفح البصر على أوراقه وسطوره ،

يدوسه بحذاء بنى اللون ، مدبب المقدمة ، يكومه ، يبدو جمال متضايقا ، يستدعى إلى وعيه نصيحة مجرب قديم ممن عرفهم إذ قال على مسمع منه يوما ، لا تخف لا تجبن وجادله ولا تسكت عما يفعل . يلفظ عبارة سمع نصها من صاحب مر بمثل مايمر به .

«إننى أحتج ..»

ثم قال ما لم يسمع أن غيره قاله :

«إنك تتلف أوراقى وكتبى ..» .

أرقب أصلى ، الحق أنه غير هياب ، غير وجل ، عجيب أمره ـ أى أمرى ـ إذ عاش أياما طويلة يرتجف كلما تخيل هذه اللحظات ، يحار .. كيف سيقابلها ، كيف سيتصرف إزاءها ؟ كيف سيواجه وطأتها ، غير أنه الآن وقد حل بها وحلت به راسخ لا يميل ولا يخشى ، حريص ألا ينحنى ، متأهب ، مستنفر لرد الإهانة ، ألا يضطرب أمام أمه وأبيه وأخته . حتى إذا انقطع عهده بهم ، وحالت بينهم وبينه الأسوار والأبواب المغاليق ، أو انقضى أجله تحت وطأة تعذيب أو نتيجة قصد مبيت ، ذكروه ذكرا جميلا ، وحق لهم التباهى بآخر صورة رأوه عليها وهو يتأهب للذهاب إلى المجهول ، عندئذ لن تخجلهم سيرته ، سيقولون إنه لم يهن ولم ينثن ، وأنه مضى رجلا .

ما زال الضابط ينتقى بعض الكتب والأوراق ، كل ما هو مخطوط .

«هذه مذكراتى الشخصية .. لماذا تأخذها ؟» .

يتطلع إليه وعلى ملامحه سخرية المقتدر ..

«تحركاتك وأفكارك ..».

يكظم بغضه ، يقهر ضيقه ، هذه الكراسة ذات الغلاف الأحمر تحوى المكنون الذى تصور أن مخلوقا لن يفضه ، اللحظات التى رأى فيها سعاد ، أو

أصغى إلى صوتها ، ما تردد فى خاطره ، كذلك صورة عثر عليها فى مجلة أجنبية لفتاة تشبهها إلى حد كبير ، فقصها ، واحتفظ بها بين دفتى هذه الكراسة ، فى أيامه التالية ، فى سجنه الانفرادى بالقلعة ، فى سرحاته ، فى سفراته إلى المدن القصية ، فى لحظات تواجده بين جمع وصحبة ، يضيق حنقا كلما تذكر أن عيونا غريبة تفرست سطوره ، اطلعت على خباياها ، ما سطره ، بعد سنوات عديدة لم يكف عن التساؤل ، أين مستقرها ، إلام آلت ؟ ، ليس دفتر خواطره فقط إنما مراسلات الصحب ، وكافة ما التقط له من صور حتى هذا العمر الطفولة ، المدرسة ، الرحلات إلى الأماكن الخلوية مع الصحب ، صور الزملاء المهداة فى نهاية الأعوام الدراسية ، يمسكها الضابط ويلقى بها إلى ما يعتبره مضبوطات ذات شأن خطير ، إنه لا يضيّع صورا إنما يبدد لحظات أمكن تثبيت ملامحها ، من الصبا المزهرى ، من بداية غضاضته ، يعتقل الأزمنة الآمنة واللحظات المؤدية ، والمشاعر التى كان يمكن أن تولد عند الانفراد والنظر إلى هذه الرسوم ، يبدد تاريخا بأكمله إلى الأبد ، فما أخذه لا يمكن استعادته .

حدث بعد أن نقلوا أصلى إلى سجن القلعة ، وصار اسمه رقما ، إذ يدخل عليه الحارس وهو مخبر يرتدى أيضا الملابس المدنية ، يصيح به :

«خذ يا أربعة وثلاثين .. » ، «تعال يا أربعة وثلاثين» ، قضى شهرا وعدة من أيام أخر ينادى كرقم مجردا من كل هوية ، كانوا يخرجونه مرتين ، فى الصباح ، وفى المساء لقضاء حاجته ، ومرة عند نهاية كل أسبوع إلى حمام قديم ، أنابيب المياه المؤدية إليه تمر بفرن عجيب ، وعندما نزعوا العصابة السوداء عن عينيه رأى مخبرا غامق السمرة يمسك بعصا فى يد ، ويتناول أوراقا وكتبا بيده الأخرى يطعم بها النيران التى تئز وتضطرم ، أوراق وكتب لمح بعضا من

عناوينها ، مضبوطات تم اعتقالها ، هذه لحظة بقيت عنده حية شائكة حتى بدء معراجه من فاس المغربية ، وانتقلت إلىّ بحكم الورث ، فأنا وارث لها وشاع بها ، ومن جزئياتها هذا الغلاف ، «الآمالى» للقالى ، لحظة تناوله وتطويحه إلى اللهب ، لابد أنهم طوحوا بكراسته هكذا ، بعد إشباعها فضولا وفحصا ، كان أصلى ضنينا بكل ما خطت يداه . لا يفرط فيه إلا لأمر قسرى ، ولكن فى هذه الليلة تبدد ما تبدد ، فيا أيها الإنسان ما أظلمك ، ما أضلك ، لقد حفر هذا فى نفس أصلى آثارا شتى ، فما من سطور كتبها فيما بعد إلا ظن أن غريبا سيغتصبها قسرا ، وما من كتابة شرع فيها إلا ظن أنها لن تكتمل ، وما من رقم هاتف دونه إلا ظن أنه مساءل عنه يوما ، وما من خطاب وصله إلا خمن أنه قُرئ قبله، هذا كله صار عندى، صعب علىَّ تحمله، فالى أنوء ، وماذا جنيت حتى يحل بىُ ذلك ؟،أقول هذا وأنا أعطف على أصلى ، مشفق عليه ، أدرك كم عانى ، وكم أخفى ؟، هذا حق .

إنى محدق ، محيط بهذا الضابط إذ يفرز ويتفحص مكنون الصوان ، حقدى يتأجج ، لكم وددت الاطلاع على الصور القديمة لأرى ملامح أصلى فى الأزمنة المولية ، ملامحه أى ملامحى ، وقفته بفناء مدرسة عبد الرحمن كتخدا الابتدائية ، مدرسة محمد على ، مدرسة السلحدار ، فى حدائق الحيوانات ، القناطر الخيرية ، مقابر الأقصر ، وادى الملوك ، الملكات ، قبة سيدى أبو الهواء فى أسوان ، تلك الوقفة عند دير الأنبا سمعان ، وهذا التسلق للمرتفع الصخرى المؤدى إلى مدينة هابو ، أما الصورة التى تسجل وقفته بجوار أمه وأبيه وأخوته الثلاثة فى حديقة الحرية فشأنها فريد ، لا أعرف صورة للأم قبل هذه السن ، لم يحدث فى طفولتها أو فتوتها أن وقفت أمام آلـة تصوير حتى هذه اللحظة ، من ذلك اليوم المجهول فى شهر يوليو عام ألف وتسعمائة وأربعة وخمسين . كيف

كانت ملامحها قبل هذا التاريخ ؟، هذا ما لا يمكن معرفته ، مالا أقدر ومالم يقدر أصلى الإطلاع عليه . كيف كانت تبدو عند هذه الفترة ؟ كيف كانت ترى قبلها ؟. يعرف قبسا من ذلك بعض ممن عايشوها وعرفوها فى الطفولة وزمن الصبا ، لكن.. أنى لهم الذكرى وقد أوغلت الأعمار فى التقدم ، وبعضها يدنو من المحط الأخير لحظة تدوينى هذا ، مهما بلغت الرؤية ، ودقة الوصف ، وقدرة اللفظ ، محال .. فما تبقى فى خزانة كل فؤاد سره لاسر غيره ، فوداعا ملامح الأم التى غيبها الزمن ، طواها ، وداعا هذه الصورة التى لاقت حتفها على يدى هذا الضابط ، فبددها وضيعها وهو جاهل بما بدد ، بما ضيع ، لعنه الله فى حله وترحاله ، ومرّر عليه لقمته ، وأوجع قلبه كما أوجع قلبى ، وأورثه الحسرة على موروثه وصوره التى كانت ، رحل أصلى وهو غير مسامح ، كاظم سخطه ، وأنى غير مغتفر ماكان منه أبدا ، أضاع ملامح الغالية ، شُوهت ملامحه وطمست فى الدنيا والآخرة ، فى الحضور والغياب ، كان يمكن لى التطلع فى خلواتى إلى هذه الصورة ، فأرى الكريمة ، الصبورة ، فأطلع على ماكانت عليه قبل تسعة وعشرين عاما من سفرها الأبدى ، سفرها الذى حضرته وشهدته ، واكتويت به ، وعند تمامه جرى صلحى على نفسى والتامى بأصلى كان يمكن أن أرى ملامح الأب ، وطفولة الأخوة ، وتقاسيم ، وتعابير ونظرات شتى يا حزنى .. فَبِى هذا كله وتبدد ، ليس عندى إلا صور قليلة ، متناثرة ، متباعدة للوالد قبل تمامه ، كذا الوالدة

حدث يا صحبى الأغراب عنى ، يا من لن تدركوا أصلى قط ، يا من لن تسبروا أغوارى أنا ، ولن تطلعوا على المنابع التى جئت منها ، حدث بعد رحيل الكريم ، أن اصطحب أصلى شقيقه إسماعيل إلى وزارة الزراعة ، ولمبناها عنده منزلة ومعزة ، فمن كدح الوالد فيه ، ومن نزه العرق فى جنباته ، ومن كتمانه

قهره إزاء عسف رؤسائه ، من احتماله الضيم وبذله رحيق العمر وخلاصته بين جدرانه، من كده هنا أمكنه تقويمها وتجنيبها ماأشقاه وكدره وحد من آماله وأن يحصلا ما فاته ، ذهبا معا لترتيب إجراءات صرف معاشه ، عند اقترابهما من الممر الذى كان الوالد الكريم يقضى فيه جل أوقاته ، إختلج أصلى وطحا قلبه ، جاء إليه من زاملوا الراحل عمرا لتعزيته ، ثم جاء موظف قديم بملف ضخم ، أوراق متراكمة لكل منها مناسبة ولحظة زمنية. قلّب وتحسر ، لمح صورة صغيرة ، حال لونها وأصفرّ ، ترجع إلى عام ثمانية وأربعين وتسعمائة وألف ، عام مجىء الشقيق إسماعيل إلى هذه الحياة الدنيا هذا وجه الأب ، إنه دهش ، منتظر شيئا ما . تعب ، حنين حزن لا يطل من العينين إنما يحيط بهما ، كم عمره لحظة التقاطها ؟ لم يكن له تاريخ ميلاد معروف أو محدد تاريخ مجيئه إلى الدنيا مجهول ، أما تاريخ خروجه منها فثابت مدون !.

فى هذا العام النائى أحالوه إلى طبيب حكومى لتحديد عمره حتى يمكن تدوينه فى تلك الأوراق الرسمية ، أصغى الطبيب إلى القلب فلقيه عفيا ، سليما ، تفحص ونظر ، ثم حدد وقطع ، إنه فى الثلاثين ، وطبقا لروايات القوم من أهل جهينة ، خاصة المعمرين منهم ، فإن الوالد فى هذه السنة تجاوز الخمسين وربما أكثر ، ما وثقت منه أن الطبيب لم ينظر إلى ما يحف العينين ، لو أنه رأى تلك الظلال الخفية ، لو أنه رأى عمر هذا الحنين الضارب فى الحدقتين ، إلى هذا المعنى الذى لا يمكن اكتماله إلا بعد الخمسين أو الستين وربما السبعين ، بعد قطع شوط ومقدار فى الرحلة ، لو أنه رأى هذا ، لو أنه دقق ولحظ لكان أنهى خدمته ، تلك الظلال أنبأتنى مع أن أصلى لم يلحظها فى صغرى ، إذ لها عنها ، كان غبيا لا يعى ، وعلى عينيه غشاوة فلم ير أعلى الصورة ختم دائرى بلغتين ، عربية وإنجليزية ، حكمدارية القاهرة ، وأسفلها خط مشوش كتب بمداد

قديم ، ورقم ليس له تفسير ، خمسة وخمسون ألفا ومائة وتسعة وخمسون

ماذا يعنى هذا ؟ ، إلى أى شىء يشير ؟ ما موقعه فى الأضابير ، حيرنى ذلك كما حير أصلى ، أوضح لى يا إمامى الحسين ، يا شيخى محيى الدين ، يا دليلى ، يا غامض ، يا من تظهر وتغيب ، يا من أمرتنى ألا أسميك ، حزنى ناطق ولسانى صموت ، أوضحوا لى ، دلونى ، ماذا يعنى الرقم ؟ وما علاقته بنظرة العينين ، ومعنى التأهب للسؤال فى عينيه ، وما هذه الغيمة على الوجه ، الغيمة التى تحس ولا ترى ، هل تبدلت برحيل صاحبها إلى الأبد ؟ أى الصور كانت تفارق مخيلته عند التقاطها ، وأى الصور كانت تفارقها ، فى أى المواضع جلس عند التقاطها ؟ ومن واجهه ، وتطلع إليه ، وطلب منه أن يعدل الوضع ، لماذا يبدو كأنه على وشك مخاطبتى ؟ لماذا يوحى برسالة لم تتم أو بإشارة مبهمة يستعصى إدراك فجواها ، لماذا يغمض علىَّ الأمر ؟ ! أعاود النظر والتمعن ، هل أنبئ وقت التقاطها أنه سيطل يوما بعد رحيله عبرها ، وأن من أنجبه سيتأمل ويأسو

الورقة مقسمة إلى خانات ، خصصت كل منها لبصمة من بصمات أصابعه ، تلك أصابع يده اليمنى ، وتلك أصابع يده اليسرى . انحناءات الخطوط وتجاعيدها ودوائرها ، ما انفرد به ، تلك علامات أصابعه التى دب إليها البلى ، التى ما بقيت ، التى فنيت ، التى لن تقع عين عليه أبدا ، ولن يحتويها نظر ، الصورة مثبتة فوق الركن الأيمن للورقة ، رجا أصلى الموظف أن يسمح لى بها ، ولأنه أدرك ، ولأنه قدر ، سحبها من الملف وأعطاها لى ، فبالندرة ما تبقى من هذا الجهاد كله ، وبالشح ما وصلنى من العمر الطويل والكد ، فيا مجهولا يترصدنى ، ما الذى سيتبقى منى ، ومنذا سيتطلع إلى رسمى ؟ إلى ظلى بعد اندثارى ؟ ومن سيخلو إلى نفسه ويتطلع إلى صورى التى ستمسى قديمة بالية ؟ من سيجىء ومن سيتذكر نبرة صوتى ؟ .

لك السلام يا أصلى ، يا من رحلت دون أن تبكيك عين ، أو ترثيك دمعة ، أو يدرى بمعراجك أحد ، حتى الأقربون لا يعلمون أننى لست أنت. وأننى آخر غيرك مكلف بإتمام ما كان منك، غير أننى محب لما يبق عنك مشفق ، حان عليك ، وأننى مفض إليك بما قد يبعث راحة عندك إن أدركته يوما ، ذلك أننى بعد استيعابى لما قام به هذا الضابط المجهول ، العتيت ، خشيت على صورة والدك الذى هو جدرى فى هذا الوجود الأعم . فأنا فى نظرهم أنت ، وملفاتك عندهم إنما هى ملفاتى ، مفتوحة أبدا ، ربما داهمونى ، ربما خربوا ، ربما عاثوا فسادا فى تاريخى ، لذا سارعت إلى صاحب حميم اختص بالتصوير وفنه ، هو صاحبك لا يدرك كنهى ، ويظن أنك أنى ، سألته استنساخ صورة الوالد وأن يكبر حجمها فاستجاب ولبى ، شيعت منها نسخا إلى جهات شتى لأحفظها وأداريها خوفا من المداهمة ، أما الصورة الأصل والورقة التى تحمل بصمات الأصابع فقد صنتها فى قرار مكين ، أعلم أن هذا يرضيك ، يهدئ ذراتك فى منفاها ويخفف اغترابك فلا تبتئس ولا تحزن إن شرقت أنت وغربت أنا ، فما عندك ورثته ، وما كتته أكون ، ياصاحبى المسكين الذى ضيع ما ضيع ، وأفنى ما أفنى ، أعرفك أننى ألممت بهذه اللحظات الأصيلية ، عندما دخل الوالد بيتك آخر مرة . وشكا إليك تلميحا لا تصريحا بعضا مما كابده ، دار بخلدك لحظتها أن تأتى بجاز تسجيل الأصوات وتدون ما يقول ، لكنك أجلت وأرجأت ، ثم سافرت وعدت ، فإذا بالفرصة قد ولت ، فزادت عليك الحسرات .

أقول لك ياأصلى البائس إننى نويت الحذر ، وتنبيه النفس إلى تدارك الأمر ، نويت أن أجلس يوما إلى الوالدة ، وأن أستنطقها الماضى الغالى ، أسجل ماتقول فأصون الذكرى ، ولأننى ورثت عنك ما ورثت ، رحت أرجئ العزم ، وفى كل

زيارة أقرر إتمام النية فى اليوم التالى .. حتى وقعت المباغتة يوم السبت ، وليس الآن مناسبا لتدوينه ، فهذا الحال ليس حاله ، وليس محله ، أكتفى بالقول ، إننى صنت صوت من أنجبتك ، ولكن رغما عنى ، كيف جرى ذلك ؟ لابد من تفصيل ولو يسير ..

الأمـر دورى

.. على غير العادة ، وبدون انتظار أو توقع ، رن جرس الهاتف رنينا متصلا دءوبا فى بيتك ـ بيتى ـ بعد منتصف ليلة الأحد ، أول ليلة تحل بالدنيا وقد خلت من الأم ، إذ انتهى سعيها وتم سفرها ، أول ليلة تقضيها فى المثوى ، لم تكن ملامحها قد تبددت بعد وإن شاهت ، لم يكن قد تم فناؤها عن فنائها بعد ، ولم تكن أنت فى البيت ، أقصد نفسى ، إذ كنت على مقربة من الشقيقة نوال والشقيق على .. الصغيرين اللذين قدر لها مشاهدة انتزاع الوالدين من هذه الحياة الدنيا ، أصغت رفيقة عمرك ـ عمرى ـ إلى رنين الهاتف، وعندما فوجئت بصوت إسماعيل الأخ الذى سافر منذ شهور ثلاثة لطلب العلم وبقى له مثلها ، اضطربت وحارت لكنها ألمت بالزمام ونطقت «أهلا» . استفسر عن جمال ، فقالت إنه لم يعد بعد . أبدى تعجبا ، ليست عادته التأخر .. ماذا جرى ؟، قالت إنه يودع صاحبا له . وذكرت إسما ، وعندما أنهى المكالمة تنفست وتعجبت ، لماذا يتصل فى هذه الليلة ، الأمر صدفة ؟ أم أنه الإحساس الذى لا يدرك ولا يبين ؟. كان إسماعيل قد رتب مع صاحبنا فى الطريق ، يوسف الذى يسكن على مقربة من الوالدة ترتيبا مفصله أن يتحدث إليها مرة كل أسبوعين ، يصغى إلى صوتها فيهدأ باله ، ويستفسر عن نسبة السكر فى الدم

ليطمئن ، كذا عن الضغط فى الأوردة ، ولما أقلعت الكريمة فجأة نشبت الحيرة عندى . هل أخبره فتنقلب أحواله وهو فى هذا البعد السحيق ، حيث الوقع هناك أنكى وأوعر؟ أم أكتم عنه ؟ وكيف أبرر غيابها عنه ، كيف يكون التصرف ؟.

كان قد تبقى أسبوع على اتصاله ، وخلاله بسطت الأمر وأفصحت عنه للناس الطيبين ، أهل الوداد الذين ترددوا عصر كل يوم . يواسون ، ويقدمون العزاء ، ويتلون الذكر الحكيم ، فريق منهم قال إن الصدق منج ، وفريق آخر قال إن الأمر لثقيل على الأخ النائى المغترب إلى حين ، وما بين هذا وذاك حرت ، فماذا أفعل ؟،

بعض الصحب قالوا بكتابة خطاب ، ولكن إخباره فى الهاتف فظيع ، فالمدة محدودة . والعبارة عاجزة ، مع مرور ليلة إثر أخرى ملت إلى ضرورة الكتمان ولو إلى حين . لكن .. ماذا عن اتصاله ؟، قلت لصاحبنا فى الطريق يوسف ولامرأته ولعياله ، إن ميعاده معلوم ، ورنين الهاتف له علامة ، فلا تجيبوا ، وبالفعل أصغوا طويلا إلى الرنين حتى صمت ، مرت دقائق ثم عاود الكرة ، لكن لم يجبه أحد ، فانتقل إلى الهاتف عندى . بذلت الجهد لكى أبدو عاديا ، سألنى ملهوفا ، لماذا لا يجيب يوسف ؟ ، فقلت إنه ربما خرج ، غير أنه ذكرنى بتحديده الموعد قبل أسبوعين ، اكتسى صوتى جدية مشوبة بتجهم ، قلت إن خلافا وقع بينى وبين صاحبنا يوسف ، ونسبت إليه فرية لم يأتها ، وقلت إننى طلبت من الوالدة ألا تذهب إليه ، ألا تتردد على بيته ، وأبديت الوعد بالبحث عن هاتف قريب من البيت يمكنها أن تتحدث عبره ، بدا حائرا حتى أنى أشفقت عليه ، وصباح اليوم التالى أخبرنى من أثق به أنه كتب فى مفكرته أرقام ثلاثة هواتف ممن كان يجاورهم أثناء تأدية الفريضة فى المسجد القريب ، ومنهم إمام

المسجد نفسه ، سعيت إليهم ، رجوتهم ألا يخبروه بالرحيل الأبدى ، أبدى الإمام ترددا ، وقال إن هذا كذب يعاقب الخالق عليه ، فوضعت الأمر بين يديه فلبى وقال إنه سيطلب المغفرة ، وكان ما توقعته ، إلا أن شبهة لم تتسرب إليه ، وخلال مرات اتصاله بى ، كنت أبلغه تحيات الكريمة ، وأنقل إليها رغبتها فى شىء ما ، آلة تخفف عنها عبئا منزليا ، أو قطعة قماش ذات لون معين تحبه شقيقتنا وتخجل من طلبها ، وخلال هذا كله حرت فى أمر همنى وأقضنى ، ذلك أنه قبل سفرها مر بها زميل دراسة مسافر ليلحق به ، وأبدى النية لحمل ما تريد أن ترسله إليه ، وطلب شريطا مسجلا ليسمع إسماعيل صوتُها باستمرار ، أخبرتنى بذلك . فقلت لها إننى سوف أحضر فى المرة القادمة شريطا ، وكأنها كانت تدرك دائى وبلائى ، إذ قالت بلهجة من يدرك أن الوعود قد لا تتحقق ، « لا ياعينى .. اشترينا شريطا وسجلناه .. » ، ما عذبنى أننى كنت أود أن أطلب من إسماعيل الحفاظ عليه ، إذ يحتوى أثرا غاليا من الكريمة الراحلة .

فيما بعد أخبرنى شقيقك وشقيقى ، أن الهواجس كانت قد نالت منه وتمكنت ، وأنه عندما أوغلت الشكوك فى قلبه حفظ هذا الشريط على مقربة منه ، وإذا خرج يضعه فى الجيب الملاصق لقلبه ، وعندما نزل من الطائرة تحسسه ، وعندما حانت لحظة فراقه الأرض الغريبة قبل سماعه الهاتف وبكى طويلا ، فنها سمع صوت أمه الذى كان حسه الخفى ينبئه أنه لن يصغى إليه أبدا ، هذا الشريط يا أصلى المسكين عندى نسخة منه ، ولكننى حتى زمان تدوينى هذا لم أجرؤ على سماعه ، لم أقدر على الإصغاء إليه ، هذا فوق احتمالى وخارج طاقتى ، أما إذا شاء الدهر وعدت مرة ثانية فستلقاه ، نسخة فى درج مكتبك ، ونسخة فى مكان لن أبوح به ، ذلك أننى أخشى ضياعه وفقده على أيدى القوى الشريرة التى لها الهيمنة والقدرة على اقتحام البيوت والنيل من

الأمور عميقة الخصوصية كما جرى لك مع هذا الضابط ، أما ما عقلته فنى الطمأنينة البحتة .. ذلك أن الأمر دورى !.

«ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهى كالحجارة»
(قرآن كريم)

ها هو ذا الضابط ، يخرب ولا يضبط ، يفسد ولا يتفحص ، فإذا قابله كتاب من جزء ين سطا على أحدهما وترك الآخر ، حتى الورق الأبيض .

لماذا الورق الأبيض ؟.

يرفع وجهه ساخرا ، متمكنا ، مدعوما بقدرات لا ترى ..

لطباعة المنشورات طبعا ..

يقول أصلى :

إنه ورق الكتابة .. وليس للطباعة ..

يبدى تجهما :

هل ستعلمنا شغلنا ؟!.

حاشا يا غشوم ، كلا يا وطأة القيظ ، أبدا يا طول المرض ، يا جدوبة الزمن ، يا مفرق الأحبة ، مصادرته الورق أثارت حنق أصلى ، انشغل به حتى أنه رآه فى منام أيام سجنه الانفرادى ، رأى كتبه مصفوفة ليس كما رتبها وفهرسها ، تتوسطها رزم الورق ، شقيقته الصغرى غلفت الكتب وكتبت إسمه على قدر طاقتها فى ذلك الوقت أثناء غيابه القسرى ، أما الوالدة الملوعة فرتبت ونفضت الغبار مرارا ، كانت تدرى وتعلم أنه قتر على نفسه ليقتنيها وليصونها ، وأنه من أجل ذلك عاش فى كبد ، وهنا رحلت بالنظر إلى لحظات شتى ، أول

عهد أصلى بالكتابة ، إنه يجلس إلى الطبلية المستديرة ، فوقها كراساته ومداده وقلمه ،خشبية ، قصيرة القوائم رافقتهم زمنا ، فى آونة الطعام ينتظمون حولها ، فى الليل يسمح سطحها ، أو يفرش صحيفة قديمة ، يبدأ انكبابه ، إنه ينتزع ورقة أو ورقتين من كراسات المدرسة ، يصوغ كلماته وما يراه وما يفيض به ، تقعد الوالدة أمامه ، لا تنطق ، لا تتكلم ، هكذا اعتادت حتى يفرغ ويقوم ليتمدد ثم يرحل عبر نومه عندئذ تغمض عينيها ، إذا غلبها إعياؤها وتعب النهار الطويل فى قعدتها هذه ترفع رأسها بغتة ، مبتسمة ، تلفظ كلمة ، تسأله إذا كان بحاجة إلى شيء ما ، فيقول مشفقا :

قومى نامى يا أمى ..

تقول مبتسمة ـ والله حيرتنى ، هذه الابتسامة حتى لا أدرى كيف اقترب منها ، ومن أى جهة أنظر إليها ، فلكم أسرتنى وداعتها ، ومالت بى لرقتها ـ .

أتظننى نائمة .. أنا صاحية ..

يقول فى لحظة أخرى ..

أنا فى حاجة إلى ورقتين أو ثلاث يا أمى .

تقول :

والله يا بنى الفلوس شحيحة عندى إلا ما ترك أبوك لحاجة البيت ..

يصمت ، وتصمت ، عنده حاجة للورق ، وورق الكراسات لا يصلح ، يريد أن يقدم ما كتبه إلى الجهة المعنية فى أحسن صورة . آخر القعدة الليلية ، قبل عودة الأب من مسجد الإمام الحسين ، تقول :

«اسمع يا جمال ..» .

إنى مصغ .. فتلك عبارتها عندما تقرر أمرا ، أراها تدس يدها فى صدرها تخرج منديلها المصرور على دراهم معدودات ..

«خذ قرشين ..» .

ثم تقول :

«اشتر ما تحتاج إليه» .

ثم تقول :

«لا تحزن أبدا ..» .

ثم تقول وفيضها الأمومى يندى .. ثم يقطر ثم يغمر ..

«أنا سأدبر حالى ..» .

يتطلع صامتا ، ماذا بوسعه أن يقول ؟ حتى وإن لم ينطق .. فإنه يدرك وصول ما يريد الإفصاح عنه إليها ، وأن مكنونه الذى لم يفض به فى رتبة منيعة الحس عندها تقتر على نفسها ، تدخر من قوت البيت ، لا تخبر الأب فحاله ضنك ، ما يعنيه انتهاء أصلى من دراسته ، أما ما يخرج عن كتب المدرسة ، ومايقتضيه نجاح آخر العام فأمور كلها معطلة يجب تلافيها ، ترقب الأم انحناءه والضوء الأصفر الباهت ، لا تدرى ما يخطه قلمه فوق هذا الورق ، إنما هى راضية لأنه ساكن ، أورثته هذه الأوقات قلقا ممضا خفيا ، أطلعت عليه وكابدته ، ألا يجد ما يخط عليه سطوره ، أن يفتقر يوما إلى الورق ، قلق منشأه حقب العسر والمشقة ، ضاعف منه وأججه سطو هذا الضابط على أول أربع رزم يدخرها ، ثلاث أعطاها له زميل يعمل على الطابعة فى ديوان المؤسسة ، والرابعة جاء بها الوالد من موظف بالوزارة ، قلقه وخوفه من نفاذ الورق الأبيض لم يفارقه منذ ذلك الحين حتى بدء معراجه ، واغترابه عن الحياة الدنيا ، له حسن السعى ، ولى الصبر على ما أرى ، وما أعاين .

قفلت راجعا إلى تلك اللحظة التى بدأ معها النخر فى أغوار الأم ، عندما وقف الضابط ، وخاطب أصلى ..

«تجهز فستجيء معنا ..» .

حتى نطقه ، تعلقت آمال الأم بانصرافه ، فليأخذوا ما شاءوا من كتب وأوراق ، من محتويات حتى ، ألم ينتزع ملاعق لسريرين وكوم عليهما رحيق عصور خلت وخلاصة أزمنة من شعر وقصة وفكر ، ليأخذوا ما نهبوا ، ولكن . جمال ؟! ، أن يخرج بصحبتهم من هذا الباب ؟ من يدريها متى يكون دخوله إذا عاد ؟ تراءى أمامها ظلام ما بعده ظلام ، وآبار جافة ، وطرق لا يدوسها أحد ، وصخور تنز حرارة القيظ ، آلام لا تطاق يمحض منها من حنت عليه ، ومن رعته ، خلع أظافر ، وكوى باطن قدم ومالا يطيقه بشر . فى المطبخ انحنى على الصنبور الوحيد يغتسل قبل أن يولى وجهه شطر المجهول . يلمح أباه يرنو إليه ، غير مدرك ، غير مصدق بعد لما يجرى ، فتلك لحظات لم يعد لها عدة ، يهمس بسرعة .. «اذهب إلى أمين عز الدين وأطلعه على ما جرى ..» .

أمين هذا صاحب ممن عرفهم أصلى أول عمره ، رجل طيب ، فيه قبول وله مقدرة ، وعلى يديه تم جريان أول رزق لأصلى ، إذ تسبب فى إلحاقه بوظيفة وإنهاء فترة بطالته التى دامت عامين من الضنى ، استمرت صلتهما مع تقلب الأحوال . ولهذا تفصيل طويل يصعب شرحه الآن ، وسوف يرد فى الحال المناسب والظرف المواتى فلكل نبأ مستقر .

أما الآن فإنى ذاكر لكم لطيفة ، ذلك أن الرجل كان فى ذلك الوقت ذا مهابة ، وله شأن فى التنظيم السياسى ، ويجتمع بجمال عبد الناصر . يصغى إليه ويحاوره فى زمن لم يره أصلى فى الصور أو المواكب ، لما سمع الوالد اسمه تبدد بعض من حيرته ، فحتى اللحظة لم يكن يدرى إلى من سيسعى ؟ فكل الأقارب ، والمعارف ، وأبناء البلدة يقصر نفوذهم عن هذا اللم .

فى أول النهار واليوم أحد ، مشى حائرا مأخوذا حتى وصل إلى وسط

المدينة ، توقف أمام باب المقر ، ولما سأل من يقف بالباب تطلع إليه فى شك وريبة ، أفضى إليهم بالسبب ، عندئذ أخبروه بما حيره ، أمين عز الدين معتقل منذ ليلة أمس ، ربما فى نفس اللحظة التى انتزعوا فيها ابنه ، كان المكلف بالباب رجلا من القوم ، لما رأى جزع الأب وملامحه المكدودة المرهقة بثقل سنين طوال ، رق له ، أشفق ، دعاه إلى الجلوس واستفسر منه عما أتاه ولده ، أى جناية ؟ هل أخطأ فى حق الوضع القائم ، لم يجب أبى إنما صمت ، ليس عن كتمان ، وإنما عن حيرة ، وإنى والله مثله ، وحيرتى من حيرته ، فكل ما اطلع عليه يخصنى ، ويلزمنى ، وقد جئت إلى هذا الكون الغريب منفيا فإذا بى أواجه ما لم يخطر ببالى ، وما يبدو معه كل ما قاسيته فى زمنى القديم يسيرا .. هينا ، أتطلع حولى ، علىّ ألمح دليلى فى هذه الأحوال ، أليس هو سيد الوقت ؟ لماذا لا يشرح لى ، لماذا لا يفسر لى ؟ غير أن نظرى لم يقع عليه ، ظهوره ليس رهن مشيئتى ، من هنا أضمرت العتاب والنية على الاستفسار.

انثنيت إلى هذه اللحظة من فجر الأحد ، تاسع أكتوبر عام ستة وستين وتسعمائة وألف ، ينظر الضابط إلى ملاءات السرير الثلاث وقد انتفخت بالكتب والأوراق والمواد والمعانى ، عقد أطرافها فصارت بقجا ضخمة ، ينحنى الأب ، يحمل أضخمها وأثقلها بعد أن يمسك طرف جلبابه بين أسنانه ، تبدو ساقاه النحيلتان الصلبتان وقد توترتا ، تماما كما رآهما أصلى فى المواقف . عندما حمل أجولة البذور ، يحمل المخبر واحدة ، وأصلى الثالثة ، وهذا مما أثار ضيقه فيما بعد ، وعده تنازلا فى حق نفسه ، غير أنه علل الأمر وبرره بعدم الرغبة فى تأجيج مشاكل قد يكون لها انعكاسها المزعج على الوالد والوالدة والشقيقين. عند نزوله أولى درجات السلم صاحت الأم :

« يا كسرى .. ».

تلك صيحة أرجفتنى ، فعندما تلفظها المرأة الكتوم ، فذلك يعنى أن الأمر بلغ مداه واشتد ، إن ما يخشاه المرء قد وقع ولا راد له ، فيها الجزع المقطر ، والأسى عينه ، وأصل الخوف القديم ، وقد سمعت نساء يطلقن هذه الصيحة فى زمنى الأول ، تتغير اللغات وتتبدل اللهجات غير أن اللب الإنسانى واحد ، تنزل الأم درجتين غير أن الضابط يشير بيده ..

«ارجعى .. وإلا أخذناك معه ..» .

تلوح بيدها غير عابئة ، متألمة ..

«خذونى معه ..» .

اختفوا عند منحنى السلم ، تنزل حافية ، لم تثبت إلا عندما استدار جمال وطلب منها أن تبق ، تتابع خطوهم فوق هذا الجزء من الحارة ، راجية ألا تنقضى اللحظات ، أن يقع أمر مفاجئ يبدد هذا كله فتراه يرجع متمهلا ، يجتاز الباب ، يتمدد فوق السرير ، تتردد أنفاسه هادئة ، يتبدد ما جرى كله ، يتلاشى الفزع وينتهى الفقد ، غير أنهم اختفوا عند المنحنى ، وببلوغ جمال هذه الناصية يتم وقت انتزاعه ، ويبدأ زمن غيابه . وهذا أقسى ما مر بها . وأشد ما عانت حتى هذه الفترة .

والمعروف المقطوع به أن الخوف على الحى الغائب أمر وأقسى من الحزن على الميت ، فاليأس من اللقاء تعقبه راحة ، وخروج الميت لا ترجى معه رجعة ، أما الغائب ، المغترب قسرا ، فنار الحسرة عليه لا تهدأ ، والأمل فى عودته لا ينقطع . يقترب منها الابن الأصغر مرجوفا فزعا ، أما نوال فتحاول أن تكون الصاحبة المؤنسة ، للحظات القفر هذه ، يطرق الباب ، يتوافد الجيران ، عطيات ، وزوجها ، أم سهير ، سعدية من البيت المقابل ، يوسف صانع التماثيل الخشبية ، تتساءل أم سهير :

«ألم يكن ممكنا أن تدفعوا للضابط جنيهات خمسة ويتغافل عنه ؟».

تتخيل الأم سريان ابنها عبر طرقات المدينة الآن ، أى الشوارع يسلك ؟ أى النواصى تتوارى عن عينيه ؟ فى أى الأماكن سيأوى ، وتحت أى سقف سينزل عليه الليل ؟. كيف سيقع الخبر على أخيه إسماعيل الذى يقضى الآن أول أيام دراسته بالكلية العسكرية ؟ هل سيلحقه أذى هو الآخر؟.

يرجع أحمد فيصف العربة الرمادية التى كانت تنتظر عند مدخل الحارة ، أمام مسجد سيدى مرزوق ، يصف ثبات جمال وانعدام خوفه ..

تقول سعدية :

«جمال جدع وأمير.. فى حاله ..» .

تكره الأم إيقاع هذه الكلمات ، فيها رثاء والمرثية للميت ، فأل سيئ.

تقول وبلهجتها حدة :

«أخذوه لأنه يكتب عن الغلابة ..» .

ثم تهن مضطرة ، فتتساءل :

«أين أنت الآن ياكبدى ؟ » .

فى هذا الموضع ، بجوار صوان الكتب قعدت أوقاتا ثقيلة ، فى لحظات بعينها تقف أمام الرفوف ، تنفض عنها الغبار ، وتمسك بعض الكتب تقلب أوراقها ، ليتها تعرف القراءة ، ليتها تقدر على فك السطور ، منذ أمد ليس ببعيد ، أحاط بها جمال واسماعيل ، وقالا إنهما سيعلمانها سر الحرف ، بدآ معا ، وكانت تأنس إلى لحظات حفها بها وتحرص عليها أكثر من حرصها على تمييز الألف من الباء ليت ذلك دام ، ليته استمر ، لا تدرك الآن لماذا توقف عزمها ؟ لا تتذكر. أرسلت نوال وعلى لشراء ورق تغليف ، طلبت منهما تجليد بعضها ، وكتابة اسمه ، تماما كما يفعل حتى لا تنقطع عادة ، ولا تنتهى خصلة ،

فتكرارها حتى بدونه بشرى برجوعه ، أراها تقبل الصفحات ، تدعو بقصر الغيبة ، بجوار الصوان أمضت أوقاتا طويلة ، فما بعد قالت لأصلى :

«هذا المكان أكل من جسمى حتتا ، وأخذ من عمرى مقدارا ..».

ما بين الشرفة وهذا الركن تتنقل وتسعى ، تنتظر عودة أحمد ، بعد تردده على التظيم السياسى ، لقاءاته بأمين عز الدين الذى لم يستمر سجنه طويلا ، زياراته لبعض أسر من عرفوا جمال وكانوا صحبه فى السكة الوعرة بعد أن عرف الطريق إليهم إلى بيوتهم ، حتى إذا رجع تستجوبه طويلا ، تستنطقه التفاصيل ، المساعى التى تمت ، وما استجد ، وتلك التى يؤمل منها . تطلب صحبته ، تمضى معه أحيانا ، تنتظره عند ركن قصى حتى يعود من زيارته للمقر ، تطوف بضريح الإمام الحسين ، ترجو سيد الشهداء أن يخفف الغيمة ، أن يرد الغربة ، هذا يوم أراها فيه وحيدة ، تجلس فى الصالة الضيقة مندمج وجودها المادى بغبرة المساء الرمادية ، والليل الشتوى سريع القدوم ، ورائحة البرد ، أين على ، أين نوال ؟ لم ألق جوابا شافيا ، الباب يطرق ، وافد غريب ، هكذا تنبئ طرقاته ، ماذا يخبئ المجهول ؟ الستر ، الستر ، ترى شابة لا تعرفها ..

ـ خير ..

ـ أنا امرأة صاحبه الأبنودى .

ـ الشاعر ؟.

تومئ مبتسمة ، تجلس عند طرف السرير ، الأم فى مواجهتها ، تصغى :

«جمال بخير .. إنه فى طرة ..» .

ـ الليمان ؟.

ـ لا . فى المعتقل مع صحبه ..

تقول إن زيارة المعتقلين سياسيا محظورة ، إنه يبعث سلامه ، تقول صاحبة الصاحب :

ــ ابنك رجل ..

لا تزيد أو تنقص ، غير أن الأم تفهم الإشارة وتدرك كنه العبارة ، ذهب جمال رجلا وسيرجع رجلا ، يمكنه النظر فى وجوه القوم ، لا يخجله شىء ، برغم كل شىء احتمل ولم يبح ، وهنا أقول أنا صورة جمال بن أحمد الغيطانى إننى اطلعت على ما لم ينطق به أصلى ، رغم إيلام جسده ، تعذيب روحه ، والضغط لقهره ، ما الذى أخفاه ؟، ما الذى كتمه ؟، وقفت عليه كله ، هذا ما لن أقوله قط ، لم يلفظ به أصلى رغم الحبس الانفرادى ، الإقلاق الليلى ، وغمر المضجع بالماء لاستحالة الرقاد ، وعصب العينين والإرغام على الجرى مع مداومة الصفع والركل ، لن أذكر شيئا فالإذن لم يصدر ، والإشارة لم تلح ، والأمر فيه خطر ، فليفهم الفطن ما يشاء ، ولينعم من أراد النظر فيما أقول ، ولكن .. لا تظنوا بى السوء لأن إفشاء ما لم يطلب منى كفر !.

غير أنى سأقص عليكم تفصيل أمرٍ من أغرب ما ورثته عن أصلى

«وَلَهُمْ مَقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ..»

(قرآن كريم)

التجليات

.. بدأ الأمر فى اليوم السابع عشر لحبسه بمعزل عن الخلق فى سجن القلعة القديم ، المغرب انقضى والوقت بين بين ، فتحت البوابة الخارجية ، ثم البوابة الداخلية المصمتة عدا فتحة صغيرة قرب نهايتها ، مسدل عليها من الخارج غطاء متحرك ، أصلى يرى ثلاثة مخبرين أشداء ، واحدا منهم تقدم داخل الزنزانة .

« قم ياأربعة وثلاثين .. » .

إذن .. دنا الوقت .. ستقع المواجهة ، مما حيرنى فى هذا الحال أنه بقدر ما شعر به من خوف ، بقدر ما ارتاح ، الآن انتظار البلاء أشد من وقوعه ؟ ربما ..، لوى أحدهم ذراعه ، أحاط آخر عينيه بعصابة سوداء فغابت عنه المرئيات ، والجهات ، نزلت العصا الرفيعة على إليتيه ..

«إجر .. إجر . » .

يتعثر ، يسقط ، يدفعونه باتجاه جدار ليصطدم فجأة به ، أمسك أحدهم بذراعه ، يصعد درجات سلم حجرى مرتفع ، ويتركونه يقف لحظات فى فراغ سحيق ، قد تجىء الضربة من أى جهة ، يدفعه أحدهم فجأة ..

«إجر .. » .

يعدو حتى يصطدم بحاجز ما فينقلب إلى الناحية الأخرى ، بينما يعدو إلى

يمينه من يحمل عصا ، وإلى يساره من يحمل سوطا ، يلهبان به جسده . كم دام ذلك ؟ لا يدرى . ولا أعلم ، فالوقت ملغى، هنا ، يوقفونه فجأة ، يقودون خطواته ، يدرك أنه توقف داخل مكان مغلق ، أداروه حول نفسه عدة مرات . يكفون .. فيتوقف ، إنه يفكر .. كيف ستنقضى هذه اللحظات ، بعد انقضائها تمضى عليه الدقائق العسرة ، يصغى .. إنها خطوات خفاف ، يتوقف أحدهم أمامه ، يصغى إلى تردد أنفاسه ، يوشك أن يسمع دقات قلبه ، ينوب سمعه عن حواسه كلها ، فيصبح السمع بصرا ولمسا ورصدا للمجهول .

كم مضى ؟ لا يمكنه التحديد .

فجأة .. تهوى كف غليظة على صدغه فيميل جسده كله ، يبتعد ، صفع يميل به إلى الجهة الأخرى ، غير أن الميل الثالث أقل ، إذ استجمع قواه ليقاوم ، وبعد توقفه عن العدو وتوالى الصفع صار ثابتا ، وجهه انتفخ ، إنتابه سخونة .. أما خيط الدم الدافئ الذى سرى من جانب الفم الأيمن حتى الفك فلم يشعر به إلا بعد توقف الكف الغشوم . هنا أقول إن أصلى لم ينطق عن ألم ، لم يفصح عن آهة ، إنما واجه جلاده بملامحه .. بعماه المؤقت ، فى خزانة أسراره الدفينة أجداد فى الصعيد الجنوبى قُطعت أطرافهم وسملت عيونهم ولم ينطقوا كلمة واحدة فيها نجاتهم .

فلما كان المجلود الضحية غير قادر على الرد .. فليحرم جلاده سماع الأنة أو صرير الغصة .

..

يكف الصفع فجأة ، تمضى اللحظات المثقلة ، يرصد الأنفاس التى تزايد إيقاعها ، إلى رائحة العطر ، لم يصغ إلى خطوات أخرى ، يتبدد الصمت فجأة ..

«ما هذا .. ؟ من قال لكم اضربوه .. من أمر؟؟» .

تمتد يد ، تنزع عنه العصابة ، اضطر إلى إغماض عينيه وفتحها بسرعة عند انتقاله من الظلمة إلى ضوء الظهيرة ، يرتدى الواقف أمامه قميصا وبنطلونا رماديا ، يميل إلى امتلاء ، أملس البشرة ، أسود الشعر ، قمحي اللون ، يضمر مالا يظهر..

«آسف يا جمال .. إنه خطأ ..» .

يشير إلى مقعد بدون مسند وسط الحجرة تماما فى مواجهة مكتب .

«تفضل .. اجلس ، أنا الرائد منير..» .

يمضى إلى خلف المكتب ، يواجهه ، يتطلع إليه لحظات ..

«سببوا لك ألما .. انس ذلك .. تدخن ؟» .

يمد علبة سجائر خضراء الغلاف ، أجنبية فى وقت ندرت فيه السجائر غريبة النوع ، لم يكن أصلي قد عرف التدخين بعد ، إنها جزء من الخطة ، فالسجائر مصادرة منذ دخولهم إلى هنا ، وظهورها فجأة قد يميل بمن اعتادها ، وعند لحظة معينة يمكن الإلقاء بها ارضا . يهز رأسه نفيا مؤكدا أنه لا يدخن ، يشعر بوقع أقدام خلفه ، يلتفت بسرعة ، إنهم ثلاثة يحملون عصيا غليظة .

«انتبه هنا .. » .

تتلاشى لهجة الود المصطنع ، يأمر ألا يلتفت .. غير أنه يعاود اللين ، فأوان الشدة لم يحن بعد ، يرفع النظر إلى الثلاثة ..

«لن يمد أحدكم يده عليه ..» .

أمر بالنفى يحوى تهديدا ، وإشارة إلى إمكانية ، وقوفهم يقلقه ، يمكن للعصا أن تهوى فى أى لحظة . يبدى الضابط ودا مصطنعا ، كأنه لم يصنعه ، لم ينهره ، يبدأ المحاورة ، يسأل عن أشخاص بعينهم ، كيف عرفهم ، ومتى التقى بهم ، يستفسر عن اجتماعات عقدت . وجلسات تمت ، وجوارات إنتهت ،

يجيب أصلى إجابات مبتسرة ، مختصرة ، أعد للأمر عدته ، ورتب وتوقع ، أيدوم الأمر طويلا ؟ تراجع إلى الوراء قليلا .

«أنت لن ينفع معك الذوق .»

ثم يقول :

«أنت ابن قحبة ..» .

يسبه بذكر فرج أمه ، يتطلع أصلى بملامح خلت من التعابير تماما ، كأنه قد من حجر عدا رفة فى بؤبؤى العينين ، رفة فيها الرد وإن لم يبلغ جلاده ، تحوى الحنق والكظم الأشد .

الصفع أقسى ، العصى أسرع ، الجرى أطول ، الجهات تختلط ، السواد يقع ، الضوء يبرق، عندما ألقوا به فى الزنزانة لم يقدر على الرقاد لتورم جسده، غير أنه لم يعبأ ، لم يتوجع ، إنه ما بين شعورين .. الأول عابر مضمونه الراحة لانتهاء ما توقعه ، ولتحمله الأذى كاملا بدون أن ينطلق إلا ما أراد النطق به ، أما الآخر فقيم ، نفذ إلى لبه ، دفع إليه بالضيق ، بالخجل ، بالرغبة فى التوارى عن الخلق ، سب الرائد هذه لأمه ، وذكره فرجها ، ما ذنب أمه ، انقهر لأنه لم يرد غيبتها ، لم يدفع عنها . لم يقارع السب بسب مماثل . أمضى السجن كله ، استرد حريته ، تقلبت به الأحوال وتغيرت الظروف ، ارتحل ورجع وطرق دروبا شتى ، وبقى عنده سباب هذا الجلاد كدمة لا تشفى ، وندبة فى روحه لا تذبل ، غير أنه أضمر فى روحه أمرا ، أن يرد الإهانة يوما وإن طال المدى ، راح يتحين الأوان المواتى يتتبع أخبار هذا الضابط قدر الطاقة ، ترقيه من رتبة إلى رتبة . خروجه من الشرطة السياسية ، عام سبعة وسبعين وتسعمائة وألف .

انشغل بكيفية رد الإهانة ، هل يدخل عليه فجأة ويسبه بنفس الألفاظ ؟ هل ينتظره فى مكان ما ؟ هل يتصل به هاتفيا ؟، آخر ما عرفه عنه قبل بدء

معراجه من فاس المباركة أنه تولى قيادة شرطة جامعة من جامعات العلم ، بدأ سفره اللانهائى وغله لم يبرد ،.وقراره مستعر . انتقل هذا بتمامه عندى فصار إلىَّ ما كان عنده ، وإنى لمتتبع أخباره حتى وقت تدوينى هذا ، إنه يتولى الآن الشرطة النهرية أحيانا تطل علىَّ صورته من الصحف ، انتزعها ، أحتفظ بها ، أدقق فيها

حدث أننى كنت مسافراً إلى مدينة قصية ، رحت أدير المؤشر بحثا عن إذاعة القاهرة . فإذا به يتحدث عن جهود الشرطة النهرية ، الصوت نفسه الذى سب أصلى بذكر فرج أمه ، الأم التى لا يعرفها ، لم يرها . لم يلتق بها ، الأم التى لم يفض إليها أصلى بما جرى ، بما تفوه به ، وفى يوم من أيامى فى هذه الحياة الدنيا رجع ابن أصلى محمد من المدرسة ، وأنا أبوه فى نظره وفى نظرى وفى نظر الحق ، محمد لم يلحظ غياب أبيه ، كذا امرأتى لم تلحظ حلول الصورة مكان الأصل ، واحتواء الظل للمصدر ، والتفاف الفرع حتى تغطية الجذع . وإن كانت تتطلع إلىَّ أحيانا ساهمة ، متعجبة ، وتتساءل : مالى أراك شاردا .. مالك بعيد عنا ؟ ، عندئذ أبدى أعذارا شتى ، غير أننى لا أضطرب ولا يهن قلبى ، من المحال أن تدرك ما تبدلْ وما تغير إلا إذا نزلت المشيئة ، وهذا خارج طوعى ، ليس بيدى ولا بيدها . ابنة أصلى الصغيرة أيضا لم تلحظ ، أنى لها ذلك وقد وعت علّى أول ما وعت ، غير أننى أستريب أحيانا إذ تجفل منى وتخشى ، الأم لم ترنى إلا ابنها الأكبر ، امتدادها وتمام عمرها ، أما نظراتها الصامتة الممتدة تجاهى فلم أدر ولم أحط علما ، أهى امتداد لعادة أم أمر مستجد ؟ ، يحيرنى هذا كله ، ويأخذنى أحيانا ، لكننى لا أنحى باللائـمة على نفسى أبدا ، ذلك أنى أخفيت وكتمت قدر الطاقة :

أعود إلى ما بدأته فأقول : ذلك المبنى المطل على النيل ؟ قال نعم ، قلت :

هل التقيتم بقائدها ؟ قال : نعم قلت : أهو قمحى البشرة ممتلئ ؟. قال : نعم . قلت : أهو أسود الشعر؟ قال : نعم . قلت : هل اسمه منير؟ قال : لا أعلم . أطرقت لحظة فتساءل محمد : هل تعرفه ؟، أو مأت ، نعم ، ولم أزد حرفا ، انسحب إلى صمته . أمه تؤكد أنه أصبح صموتا ، كتوما خلال الحقبة الأخيرة وأنه لم يكن أبدا هكذا . تحدد بدء الفترة بما يوازى ويتفق مع مجىء ذاتى إلى هذا الكون وبدء إسراء أبيه ، أصغى لأصمت وأخفى عجبى ، ضممته وحنوت عليه ، هذا ماكان سيصدر عن أصلى فى هذا المحل ، شفقة وحنو وازدراء لمجرد تصوره لقاءه بهذا الجلاد وهو لا يدرى أنه صافع والده وسابه ومعذبه ، فما أعجب تدبير الشريعة فى هذا العالم ، إنى لست متخاذلا ، فما اعتزمه أصلى ونواه أنا مكلف به والطاعة واجبة مسبقا. وعندما يأذن الإذن سأنبئكم بما أديت حتى أمحو ما لحقنى ، وإن كنتم فى ريب مما سأفعله ، فإننى أعدكم وعدا لا خلف فيه ، فلا نكوص ، وإنى لناجزه ، خاصة أن أصلى حاسب نفسه طويلا ، شعر بالخجل كثيرا ، فلطالما تساءل ، لماذا لم يرد الإهانة فى حينها ؟، علل الأمر بقلة الحيلة ، وشحوب التجربة ، وصغر السن ، لكن لم يخفف عنه ، ولا عنى . لم يقنعنى أيضا أطلت الفكر وتمعنت . أهو الخوف من تضاعف الألم لتوقع الضرب الأشد وربما الفتك ؟ لكن الخوف نتاج وليس أصلا ، ما تمكنت من إدراكه ، مالم يعه أصلى ، حال الوحدة

فى مقام القربى من هذه التجليات المباركة ذكرت ما نصه ، أن الإنسان جبل على الرفقة والصحبة والأنس ، فالوحدة تجعل الإنسان ضعيفا خاصة إذا واجه عدوا غشوما بلا صحب . أدرك الجلادون ذلك ، وعوه تماما . فرضوا الإنقطاع القسرى على من سيتم سؤاله ، هذا ما فعلوه مع أصلى وصحبه وغيرهم مما لا حصر لهم، ألقوا بهم فى الزنازين المصمتة، مزدوجة الأبواب، منعوا كل

إشارة أو خبر ، حتى أن ملامح الأيام اختلطت .. فلاسبت ولا أحد ، ولا اثنين ولا ثلاثاء . ولا أربعاء ولا خميس ، أما الجمعة فلا يبين ، ما من علامة تحدد ، وما من حدث يميز ، وما من صدى فى النفس للحظة خاصة . مثل الغروب أو الشروق أو ميل الشمس عن منتصف السماء أو امتداد الظل أو سبح الغيوم ، ما من مسافة تقطع ، ما من وافد مأمول أو سفر يرجى أو مهمة تنجز ، تنعدم الحركة فينتفى الزمن ، يتشابه الوقت وبتشابهه يتلاشى ، ولولا أن زنازين القلعة مشيدة فوق سطح مرتفع لما أدرك الأسير المعزول الضعيف تعاقب الليل والنهار . فما من رحيل إلا عبر الذات . والسفر على وجه العموم فيه نصب ، مبنى على شظف العيش والمحن والبلايا . ينعدم فيه الأمان ، فما يمر به الإنسان اليوم سيتغير غدا ، وما يراه هنا ، سيرى غيره هناك . وأهل كل محلة يخالف أهل المحلة الأخرى ، هذا عن السفر فى عمومه ، أما أوعره وأصعبه فما كان رحيلا فى الزحيل ، وحركة فى انعدام حركة ، لا محط مأمول ، ولا نقطة للبلوغ ترجى ، إنه الهيام على حافة الموت حاول أن يحدد ، بدأ يحفر صباح كل يوم خطا بظفره على الجدار خطا خفيفا .. لو رصد لأوقعوا به الكدر الأشد .

فى البدء فكر فى الاحتفاظ ببذور الزيتون الأسود ، طعامه الليلى الذى لم يغيره ، غير انهم أعدوا لكل أمر عدته ، الحارس يطالبه بالبذور عقب طعامه ، حتى لا يستبقيها ويصفها فتتسلى روحه ، الويل لو كانت ناقصة ، ليت الأمر كف عند ذلك إذ حدث أكثر من مرة أن فتح الباب ، يظهر ثلاثة ، لا يجيئون فرادى أبدا ، دائما اثنان أو ثلاثة ، لا يدخلون ، إذا أرادوا خروجه أشاروا إليه أن يتقدم ، كأنهم يخشون أمرا مع أن العسف بجانبهم ، إنه خوف الجلاد من ضحيته ، خوف صعب إدراكه وقد عرفته ونفذت إليه ، وهذا يطول شرحه فلنرجئه ، يمسك أحدهم دلوا يدلق ما فيه من ماء فوق الأرض

العارية الخشنة ، يضطر المحبوس إلى الوقوف ساعة إثر ساعة ، ثم يأخذه النصب فيقعي ، وربما يضطر إلى الوقوف ليلا ثم نهارا إذا استطاع ، لكن من يقدر ؟.

بعد وصوله إلى الحبس ، فى بداية الليل الثالث والشوارع نائية قصية رغم قربها . انفجرت صرخة ثاقبة ، ممتدة ، متلوية ، قادمة من الحشا ، من أزمنة الهمجية ، من زحف مغولى ، تنفذ إلى المكنون الإنسانى ، قام واقفا ، من كل صوب تأتيه ، حروف مدموغة ، مختلطة أطرافها ، جعير يصهر المكان ، ينكس المآذن العتيقة ، ويظلم المحاريب ، يذرى الصور والأحاسيس ، عدا ما يحتويه من ألم يلغى الألم ، إنه المنتهى ، تراجع فى الحيز الضيق ، الصراخ محدق به ، محيط .. كأن فى حركته الملغاة محاولة للتوارى من صراخ لا محالة مدركه ، لحظات صمت بغيض ، ينفجر الألم متدفقا فلابد أن سلكا محميا أو مشحونا بالطاقة يلسع خصية أو يخترق دبرا . يتواصل حتى تشح القدرة فينقلب عواء جريحا آيسا من كل منقذ أو انفراجة . وجه أصلى متقلص ، متصلب النظرات ، هذا أصعب ما واجهه .. تتضح كلمات بين الصراخ الطويل ، صوت هادئ ، محذر ، منذر ، متئد ، مقتدر ..

«قل ولا تنكر ..» .

تمضى الليلة ، بطىء سريانها ، ثقيل وقعها ، خطو الحراس فوق الزنازين ، يتعمدون وطء فتحات التهوية المغطاة بقطع مستديرة من الصفيح المثقوب ، يتوالى الصدى كأنهم يدهسون مناماته ، بعد مضى أيام قدم محابيس جدد ، كيف أدرك وصولهم وهو محاصر ، مقيد ، مقطوع الصلة بما حوله ؟ أقول إنه أتقن إرهاف السمع والنظر عبر الفتحة الدائرية الضيقة . إذ عرف كيف يزحزح غطاءها الخارجى المتحرك بأصبعه الوسطى من الداخل ، ورؤيته العابرين المارقين ،كما أمكنه التمييز بين أصوات المكان الثابتة من حركة معتادة وسريان

هواء أو أصوات غامضة بين الأصوات الطارئة المفاجئة .

من هم ؟ من جاءوا بهم ؟. يتوقع رؤية البعض . وأحيانا يختلط الأمر عليه ، كما جرى له عندما رأى من خيل إليه أنه شقيقة إسماعيل ، حدث ذات ظهيرة أثناء اختلاسه النظر أن لمح فتى يرتدى قميصا غامقا ، ملامحه ليست بنائية عنه . إسماعيل .. ربما ، لم يتأكد ، هل جاءوا به ؟ لكن ما لإسماعيل وما هو فيه؟ ارتجف، سمع عن احضارهم الشقيقات والزوجات واغتصابهن غيلة وعنوة على مرأى ومسمع ، يمر به خاطر عجيب ، من يقوم بالاغتصاب هذا ؟! كيف لا يخجل من عريه ، كيف تواتيه المقدرة فى حضور جمع ، أحقا هو أخوه ؟ لكَمْ سبَّب إضطرابا للأسرة البسيطة ، مرت به أيام سود ، يدنو محاذرا من الباب ، يحاول النفاذ عبر الفتحة ، أهو أم لا ؟ حتى جرى ما لم يتوقعه ، عند توزيع الغذاء فى يوم لا يدرى موقعه ، فتح الباب ، رأى الحارس ، وراءه هذا الفتى يحمل طاولة من الصاج عليها أطباق الفول وأرغفة الخبز ، لم ينظر إلى الخبز ، إلى الطعام ، إنما سدد النظر إلى عينى الفتى مباشرة ، لقاء لحظى مارق .. خاطف ، غير أنه كشف ما كشف .

معنى بأتمه يتركز فى هذا اللقاء اللحظى حيث لاحديث ممكن، لامحاورة، ومامن استفسار يعقبه مجاوبة، يتصل الإنسان بالإنسان عبر اللمح الخاطف، فيبث ويناجى، ويجهر ويسر. بعد إغلاق الزنزانة أنس بنظرة الفتى، أنس بها لأنه أول اتصال إنسانى منذ ولوجه الحبس ، كذلك اطمأن إلى أنه ليس إسماعيل، وفى الليل انشغل بها ورأى فيها ما لم يره فى ضوء النهار ، رأى أنَّةً ملمومة ، وشكوى : لا تدرى ما فعلوه بى ! ، ورأى ألما : لا تدرى كم تعذبت . فيها استفسار ، من أنت ؟ من أين جئت ؟ كيف قيدوك ؟ كل المطالب الأربعة هل وكيف وماذا وأين ؟، لا يدرى كيف تلقى نظره إليه ؟ لماذا كلفوه بنقل الطعام ؟

أهو مرضى عنه ؟ هل أقر بما أرادوه منه ؟ ثم كافأوه بالتنقل وبذل المجهود ؟ لا يدرى . لم يره مرة أخرى ، لم تقع عيناه عليه مرة ثانية ، حتى شك فى أن ما مر به حقيقة ، ملامحه لم تغب عنه أبدا .. بقيت معه وانتقلت عندى ، ما يعنيني تلك القسمات لحظة تبادل النظر الخاطف اللحظى ، لا يهمنى إذا تقدم منى الآن شخص ما وقال إنه هو من واجهنى ذلك اليوم النائى ، العسر . هل فهمتم عنى ـ بصركم خالقى ـ بعضا من السر ؟.

أقول إن تطلع المقيد المحاصر إلى مثله مع منع الوصل أشق لحظات الوحدة كإسالة الماء على مرأى ممن يموت ظمأ وتلك درجة يندر وقوعها أو تصورها. إذا أردنا التنبيه لعلمنا بجهل أكثر الخلق بها ، إنها لاتشبه النظرة العابرة المتبادلة بين شخصين يمضى كل منهما فى اتجاه مغاير للآخر ، لكن وفق مشيئته وإرادته ، لا يعوق خطاه قسر ، فالزم وانتبه يا من تتطلع إلى الفهم والإدراك ، واعلم أن الكينونة الإنسانية بقدر اضطرارها بقدر قدرتها . إذا تعطلت تنهض بقية الحواس للمساندة والمدد .

انظر إلى الأعمى ، ألا تراه يسمع مالا يسمعه المبصرون ؟.

مع مضى المدة أصبح يدرك من إيقاع فتح الزنزانة المراد ، فإذا أدير المفتاح فى القفل مرات متواصلة متعاقبة عرف أنهم يقتعلون أحدهم إلى التحقيق ، من قوة الصوت أو وهنه يمكن له تحديد مقدار بعده عن زنزانته . أما معرفته اليمين أو الشمال فأمرها سهل .

تلك الليلة أدرك أن جددا قدموا ، سمع الحارس يقول آمرا ناهيا :

« اسمك منذ الآن أربعة وعشرون .. » .

من صاحب الإجابة ؟ إجتهد أن يعرف لكنه لم يفلح ، فى الليلة التالية إنفجر جعير فظيع ، هنا أتساءل .. هل رأى أصلى نفسه فى الزنزانة ؟ كلا بالطبع

لم تقع عليه سوى نظرات الحارس المتلصصة المنتهكة وحدة المحابيس .. أنا رأيته فى حال القبوع والتلملم . منطويا ، مزرودا فى الحيز الضيق القصى ، رأيته مرتين ، الأولى عند سماعه صراخ الألم فى هذه المرة ، مدركا المغزى ، إذ يتعمدون تعذيب أحدهم أمام مكبر للصوت عند وصول مساجين جدد لبث الخشية ، للتلويح بالأمر العظيم المنتظر وقوعه ، أما المرة الثانية ففى ليلة باردة من ليالى حبسه الانفرادى بعد تناوله حبات الزيتون الأسود ، ونصف رغيف يابس ، رقد مقاربا ما بين مقدمة ركبتيه وصدره فكأنه يتخذ وضعه داخل رحم الكريمة الحانية رغبة فى الولوج إليه مرة أخرى بعدا ونأيا من قساوات هذا العالم .

كان قد تقلب عدة مرات حتى يمكنه اتخاذ الوضع الملائم لتحاشى ضوء المصابيح الكهربائى الذى يدركه أينما ولى أو اتجه فى هذا الحيز المحدود ، فجأة .. دوى الرعد ، أول رعد شتوى .. ثم نزل سكون يبدده انهيار عظيم ، تساقط حجارة ، ما هذا ؟ أينهار السجن أم يهدمون الجدران فوقهم ليعلنوا نفاذ القضاء والقدر ؟ أم حجارة من سجيل ؟ يتوالى التراطم وما من عاصم ، يتراجع إلى الركن ، أقصى ما يمكن أن يبلغه وآخر ما يمكنه اللجوء إليه ، تتداخل أصابع يديه يغمض عينيه .. ينتظر الموت ! .

فى هذا الوضع رأيته وتأملته ودرت حوله ، ينطق الذعر لأنه وقع فى الوحدة ، ما أشأم الوضع عند دنو الإنسان من النهاية وهو بمفرده ، ما من معين أو سند أو مودع أو مشفق أو ملتاع ، والمعروف أن من يرحل غريبا يمضى وعنده حسرات ، يعظم الأسى عليه ، فما البال والحصار قائم ، والإبعاد عن الأهل والصحب جبرى .

لا أدرى متى وعى أصلى بحقيقة ما جرى ، أفى الليلة ذاتها أم التالية ،

ما ظنه تساقط حجارة أو بدء انهيار سقف ليس إلا نزول البرد ، وظهوره فى مصر نادر يؤرخ به ، ومنذ تلك وحتى أوان تدوينى هذا لم يترل ولم يسمع به إنسان من أهل البر كلهم ، اصطدمت كراته بالجدران ، بأبواب الزنازين الحديدية ، غير أن ما ضاعف الصوت وضخم الصدى .. سقوط الكريات فوق دوائر الصفيح التى تغطى فتحات التهوية . غير المألوف يثير الرعب لانتفاء التجربة .

هكذا رأيت أصلى ، مرعوبا شأن الإنسان إزاء ما لم يحط به علما ، وقد عرفت النوم فى أماكن شتى ، لكل موضع أصواته كما ألحت ، منها ما يسهل معرفته ، ومنها المبهم الغامض الذى يستعصى على التفسير ، لم أر أصلى إلا مصغيا ، مضموما ، الحق أننى ضقت منه ولم أرض عنه ، صحيح أنه لم يهن ولم يفش مكتماته ، صحيح أنه من الطبيعى فى حال وحدته أن يقعى ، أن يلملم أطرافه ، أن يضيق ما يشغله من مساحة ، أن يبكى حتى وهو فى منأى عن جلاديه ، ولكننى لا أفهم اعتصامه بالصمت عند مواجهة آسريه ، فالعذاب واقع ، واقع ، والألم لا مهرب منه ، لماذا يصمت الإنسان إزاء ما يثق من وقوعه ؟.

أذكر مقام الضنا فأردد مرة أخرى ، لماذا رضى الجد العجوز بحمل جثث أحفاده ؟ لماذا استجاب لقتلته ؟ أظن أنهم سيبقون عليه ؟ أظن أن الدقائق التى تسبق قتله ستمتد دهرا ، لماذا صمت جمال فى مواجهة الضابط عندما سب أمه ؟ أخشى مضاعفة الضرب ، ولو .. لكن أثره سيندثر ، أما الألم النفسى فلا يمحى ، يبقى فى غور عميق ، دفين ، وهذا ما عانى منه وشقى به ، ثم انتقل ذلك إلىّ ، لكننى لو رددت الإهانة بعد هذه السنوات كلها فهل يشفى الغليل ؟ لن يمحى هذا إلا شىء من أشياء .. أما الرد فى عين الوقت فهو الشافى ، لن

أحيد عن قناعتي وخواطري بإمكان القصاص بعد طول مدة ، غير أنني أحاور النفس ضاربا المثل بما فعله إبراهيم ، وهو واحد من صحبه الذين سبقوه ، حدث أن ضابطا شابا أخضر العينين ، أجرد البشرة ، مليح التقاطيع ، اعتاد فتح الأبواب فجأة ليردعهم منتهكا هجعاتهم كذا التلصص على النيام العزل ، أو اصطناع اللطف في البداية مع إبداء الرقة في المحاورة ، ثم ينقض فجأة مسددا السباب أو الضرب بالعصا ، يحميه في تجواله دائما حارسان غليظان مظهرهما يصدع القلوب الجامدة ، وأحيانا يجرد من ألقت بهم المقادير ، يبقيهم كما ولدتهم أمهاتهم ، يضربهم على ما بين أفخاذهم ، لن أطيل وسأمضي متجاوزا عن ذكر الكثير فهذا مخجل .

ظهر يوم اقتحم زنزانة إبراهيم ، أمر بإخراجه ، وطلب منه أن يقول بصوت مرتفع «أنا امرأة» فأبى إبراهيم ذلك . عندئذ أشار إلى رجليه ، فطرحوه أرضا ، قيدوا ساقيه ، لجلد باطن القدمين ، وقبل أن يهوى بعصاه ، قال إبراهيم هادئا :

«ماذا تريد مني ؟..» .

ثم جاوب نفسه :

«تعذيبي .. إهانتي .. لا .. أنا سوف أريحك تماما ..» .

رفع رأسه عن الأرض ، هوى مصطدما بالحجارة العتيقة ، وكان صدى غريبا مفزعا ، في المرة الأولى فوجئ الضابط .. غير أنه قهقه ظنا منه أن في الأمر تهويشا غير أن المرة الثانية كان لها وجه أشد فصمت ، وفي الثالثة أصغى من في الزنازين إلى ما يجرى ، صمتوا صمتا يفوق سكون وحدتهم ، حتى النائمين عن الوضع أرهفوا سمعهم ، حياة على وشك أن تمضي ، شؤم محلق ، دان ، ينبئ بطبيعته حتى لمن هم خارج دائرة النظر ، مع ارتفاع الرأى تمهيدا

للهيئذة الرابعة يصيح الضابط ملون العينين ، « حوشوه المجنون .. » .

انقضا ، رفعاه مقيدا والدم غامق ، أيقنت خوف الضابط ، نزواته تتجاوز خطا محددا له ، وكل شيء هنا بقدر ، حتى كوب الماء الذى يتسلل به الحارس عنده الفجر إلى الزنازين المدلى فيها من علقوا عرايا مجردين من كل شيء ، ممنوع عنهم الطعام والماء ، مثخنينَ بجراح شتى ، لو أن جمال أقدم وأتى فعلا يشبه ما فعله إبراهيم لرتق فتقا ومنع جرحا ، غير أنه كظم خوفا وخشية ، علمت هنا أن الكتمان أورثه ما شيب سالفيه ، بسببه طق أول بياض فى شعره ، كثيرا ما حيره ذلك وتساءل عند النظر فى المرآة ، متى ولأى سبب ؟ أهى ليالى الوحدة فى إقليم المنيا عندما نقلوه قسرا ؟ أهى لحظات غضب أبيه وانصرافه طافشا ، هائما ، وخروجه للبحث عنه ؟ ولهذا أمر يطول شرحه، أهى أوقات غامضة يصعب تحديدها ، عكمته خفية وأورثته شيبا ثم وهنا يصعب رصده الآن ؟ لطالما فكر وقدر ، رغبة فى تعيين لحظة انسلاخ اللون الأبيض من الأسود ، فلما كان الليل أصلا والنهار منفجر منه ، لذا كان الشيب تابعا .

ألا يولد الأطفال سود الشعر ومع مراحل السفر وتقدم العمر يبدأ التحول ، أصل الألوان الأبيض ، والأسود وماعداهما برازخ تتولد من امتزاجها ، فيظهر من ذلك الحمرة والخضرة والغبرة إلى غير ذلك من الألوان ، من هنا كان الأسود كظلام الليل ، والليل ستر وغطاء ، فإذا جاء الصبح تكشف شمس الحقيقة ما ستره الدجى ، فوقوع الشيب انكشاف ، والبصر والفكر لا يدرك كنه المكشوف عنها لذا لم يستطع أصلى التحديد ، ولأنى عابر ، ولأنى غير مستوطن .. فقد أحطت علما ببعض وليس بكل .

وقفت على الشعيرات التى انكشفت بعد سماع العذاب .. وليل سقوط البرد ، ولحظات وحشة النوى ، وهنا حديث يطول لو فصلته لخرجت عن

قصدى ، أما الآن فأقول : إن كتمانه لم يرقنى ، وحذره لم يرضنى ، وصمتة فى مواجهة من سبه باعد ما بينى وبينه قدرا ليس بالهين ، مع التنبيه على أن موقفى هذا مخالف لما أنا مأمور به ومكلف ، إنما أنا مأمور بإطاعة الأفعال والتزام الجانب قدر الطاقة ، وقد أطلت ذكر ما عانيت ، وإن كان جل ما دونت لا يساوى إلا مقدار ما التقطه الطائر بمنقاره من البحر العميق .. فعندى من الكتمان كثير.

حدث فى صباح خريفى أن مررت بالقلعة ، لم يكن قد مضى علّى زمن طويل فى هذا الكون بعد بدء معراج أصلى. رحت أعاين مبانيها ، تجولت فى زواياها ، وألقيت النظر مرارا على مدخل السجن الجهم.. بعد فراغى من الطواف بظلال مسجد الناصر محمد بن قلاوون عليه الرحمة وطيب الهجعة ، خرجت منه وعندى مالا أقدر على ذكره وإلا انكشف بعض المستور وبان ماينبىء بالهوية ، مرة أخرى رمقت المدخل المؤدى إلى السجن ، لسنوات شغل أصلى بمحاولة تحديد موضعه من القلعة وأستدل بعلامات من فترة حبسه. منها موقع المئذنتين عند ذهابه وعودته من دورة المياه ، واتجاه الأصوات ، وقراءة التواريخ المنبثة الدالة ، غير أنه لم ير مدخله كما رأيت ، إذ جاءوا به فى عتمة الليل من سجن طرة القديم. وعند مطلع الطريق المؤدى إلى جبل المقطم.. تطلع إلى صحبه ، إلى صبرى ، إلى عبدالرحمن ، إلى كمال ، إلى سيد ، وتبادل معهم حديثا غير منطوق ، ثم حوَّل البصر إلى الطريق.. استوعب التفاصيل التى لا تلفت الانتباه فى الأوقات العارية ، هذا المقهى ورواده ، وتلك البضاعة المصفوفة أمام البقالة ، رأى سائق نقل عجوزا يغطى رأسه بطاقية من الصوف ، رأى خدشا عميقا فى سور العربة ، وسيمافور الخط الحديدى المهمل حولى ينبىء بمروق قطار لن يجىء أبدا ، وضوء بعيد يلمع أعلى الجبل ، تساءل : هل سيقدر له أن يرى ما يراه مرة أخرى ؟.

عندما أنزلوه فى الضوء الكابي الذى يعتم المدخل الضيق ، وقف قريبا من ضابط الحراسة الذى أخرج خطابا رسميا دونت به الأسماء ، وتعليمات تنص وتشدد على نقلهم من طرة إلى معتقل القلعة تحت الحراسة المشددة .
مشددة ؟! دارى ابتسامة وأخفى ضحكة ، الوقت ليلى ، أما زمنى أنا فنهارى .

توقفت متطلعا وعندى من الفضول قدر عظيم ، مقدار من عمر أصلى قضى هنا ، فماذا تبقّ منه وأين ولّى ذلك ؟ لو يممت وجهى شطر اللامكان هل أبلغه ، إنى مردد عين ما أقض مضجع أصلى قبل بدء معراجه ، واكتمال تأيه

كم تعاقبوا على هذه الزنزانة ؟ كم قضوا فيها ؟ وأى آلام تنز بها جدرانها الصفراوية ، الكنه مستبهم ، وما مضى انقضى ولم ينقض ، انتهى ولم ينته ، فماذا يمكن توقعه ؟ أرثى لى وأشفق علىّ ، أصلى لم يوجعه استرجاع الأيام العجاف ، أو إلغاء اسمه ، والصفع والركل ، وتجريده مما يغطى سوأته ، أبدا ، إنما ما عقد المرارة فى أغواره ، ظلال أصوات مجهولة المصدر ، وظلال رؤى ، وصوصوة عصفور لم يره كان يجىء فى ميعاد معلوم .. ظهيرة كل يوم ويقف على باب الزنزانة الخارجى ، يؤنسه ثم يتخذ طريقه فى الفضاء سربا ، والمعلوم أن أقسى المنافى والحبوس ما قام فى قلب العمار ، وأصعب الوحدة ما تمت واكتملت فى قلب الزحام . وحبس القلعة المقيت كان قريبا قصيا ، سهل الوصول .. وعر الاقتراب ، الطرقات مؤدية ، لكن حيلت دونه ، البيوت قريبة لكنها لا تتواصل معه ، فهو فى موقع الغريب النافر .

مسجد محمد على قريب مطل عليه بمئذنتين من أربع ، تجىء الرحلات المدرسية صباحا فتسرى حيوية فى الفراغ المحيط اللامرئى ، يتنادرن ، يمرحون ، عند انصرافهم تبعد ، تضمحل ، فيقع خواء وأشده ما يعقب الونسة ، كالفقد بعد غياب الإلف وقديما قيل : ليس أطول من يوم الفراق ، الأبواب لا تؤدى

إلى معلوم إنما الأبوابِ هنا تؤدى إلى أبواب ، والفتح فى الوقت عينه إغلاق والقفل إلى قفل ، والقيد ينفى السراح ، والضيق يؤدى إلى انفراج ، ولكن هنا المكان ينفى المكان ، فالزمان مندغم ، الأصوات تنقلب معانيها بمجرد وصولها إلى فراغه ، تصبح مهمومة ، تشير ولا تدل ، تنبئ ولا تفسر ، تفصح عن جمع وليس عن وتر ، كل صوت يحوى صداه ، أصل وظل معا ، لا برزخ بينهما فيبغيان ، يطغى الحس الغروبى ويفيض . لكم أشعره ضجيجهم أنه بعيد ، معزول ، محاصر ، هذه الأصداء المبهمة من أشد ما نكل به ، كذا نداء تردد مرة واحدة ، شلخص يدعو شخصا أو يتحداه أو يدعوه إلى نزال ما ، نداء بدد وحدة عصر غميق ، وإغفاءة كالإغماء ، مرة واحدة ، لم يتكرر ، كذا ضجيج مطلع النهار ، تدفق العربات فى طريق صلاح سالم القريب ، الأصوات لم تبدد وحدته القسرية إنما حددت معالمها ، مع مجيء العصر تبتئس اللحظات ، يثق من استحالة حدوث شيء حتى صباح اليوم التالى .

مع مطلع النهار يسرى هسيس أمل .. فالضباط المحققون الآن فى مكاتبهم ، والأوراق تتداولها الأيدى ، والافراج لا يتم إلا نهارا فى الأغلب الأعم ، التحقيق يجرى ليلا ، كذا الترحيل من سجن إلى سجن ، أما العصر فما أهمده وأثقله على الغريب ، المحاصر ، فى معتقل طرة القريب من حدود الصحراء ، فى ساعة بعينها عند عمق الليل وبعد انتصافه بساعتين ، آخر قطار قادم من حلوان أو متجه إليها ، يطلق صفيرا يضفى على الليل عمقا وبعدا بعد البعد وانقطاع صلة ، تلك أصوات آلمته . لم يرتعب لاحتمال عودته ، إنما يرتجف لاحتمال تقييده واصغائه إلى مشتملات الدنيا مرموزة فى أصوات وشظايا أصداء ، إنى مرجئ حديثى عن الرؤى ، فمن لا كشف له لا يثبت ولا يقدر ، إنما ذكرت بعضا من بعض لا أريد أن أثقل ، فما أنا إلا ضيف ، والضيف ينبغى أن يبقى خفيفا فلا

يمل مضيفه ، ولأنى ضيف فأنا مرتحل ، غارب ، ولو أقمت لما صحت لى الضيافة ، إنما سأصير أهلا ، وهذا عين الاستحالة عندى . أنا عابر ، ماض دائما وأبدا ، فالشوق ملازمنى ، والفقد من سيمائى ، عند تأهبى للنقلة من طور إلى طور لمحت دليلى ، أقبلت نحوه ولكننى لاحظت أنه بمقدار اقترابى منه يكون ابتعاده عنى ، شغلنى ذلك ، غير أننى انتبهت عندما نطق ..

« أبك جوًى تكتمه ؟ » .

أقول :

«عندى منك .. » .

متطلع هو ناحيتى لكنه ناء . ما أوسع الشقة ، كأن أصلى لم يعرفه ولم يشهد أيامه ، كأن ما يفصله عنه أمد سحيق وليس سنين معدودة ، يصمت ولا أكف :

«ألم يجر ذلك فى زمانك؟..».

ثم أقول :

«ألم يؤد ذلك إلى زمن الانكسار؟؟» .

أشير بأصبعى إلى اللاجهة ، أرى فى عينيه عتابا ولوما ، يقول :

«ليس الأمر كما تظن .. » .

ثم يقول :

« إنه قديم وسيطول .. » .

أتأهب للمجادلة .. غير أنه يشير محذرا :

« انتبه .. فما يعرض لك لن تلمحه ثانية أبدا .. » .

أرد إلى السطح فإذا بى غير مقيم .

« هذا ما كنتم به توعدون »

(قرآن كريم)

فضاء بلا حد ، وجهات صعب الوصول إلى بداياتها ، سماء تمت إلى زمن انقضى ، أما الأرض وما عليها فمن زمن مغاير ، أما الأم القاعدة أمام باب الغرفة فتمضي فى زمن ثالث يصعب عليّ تحديده ، ألمح أطراف شجرة باسقة ، منمنمة ، تمتد إلى زمن سحيق أنأى من الأزمنة الأخرى الثلاثة ، غير أننى لم أحط علما بالبعد ، صوب مستقبل أم إلى ماض ؟ كل فرع ينتهى بثمرة من نوع مغاير لما انبتته بقية الفروع ، كل ورقة خضراء نضرة أو صفراء جافة تمت إلى وقت مغاير . فكيف جرى الائتلاف ؟ وكيف اقترن البعيد بالقريب ؟ تتجاور الأزمنة ، تتداخل ظلال من عصور مختلفة ، وهذا من أعجب رؤاى منذ بدء سفرى وإتمام إقلاعى ، أما أنا فعندى زمنى ، أحتويه ويحتوينى ، يبيلنى وينشئنى ، أنا منه وهو منى ، بدأ معى وكان قبلى ، يندثر برحيلى ويبقى بعدى ، أنتبه إلى دليلى ، يقف عند نقطة من الفراغ أعلى منى ، كأنه يقف عند قمة درج غير مرئى ، أسأل بالنظر من بعيد ..

« أين أنت الآن ؟ » .

يجاوبنى بالنظر :

« محاصر . » .

« أى حصار . فلكم حاصرت وحوصرت .. »

« حصار الحرب .. » .

« وماذا عنك ؟ » .

« آخر من يأكل ، وآخر من ينام ، وأول من يستيقظ .. »

يغيب صوته عني مقدار لحظات ، ثم يجيئني ..

« القصف شديد والمدد منقطع .. » .

أقول ملحا :

« كان الأجدى أن تحكم الحصار على من عادوك وهم كثر .. » .

« لكنهم يقولون بقسوتي .. » .

« هذا صحيح ولكن على من اتبعوك .. » .

يقول وصوته واهن :

« هذا تقدير .. »

أكف حتى لا أحدد ولا أعين ، أرسو عند لحظة من أقدم اللحظات التي بقيت مصونة في وعي أصلي ، وقد عاينتها في بدء أسفاره ليلة من ليالي الحقبة المندثرة ، أشعر بوجود دليلي في موضع لا أقدر على تحديده . أو رؤيته بإمكانية بصري ، المدينة معتمة ، ليل الحرب يضج ، نجومه أغزر ، أما ضباب المجرة فَسَرْمَدِيٌ غميق ، أكاد أشغل بما أنا فيه محاولا النفاذ إلى المغزى وتوسم علامة ، ما هي كينونتي وماهيتي ؟ كذا مقارنة السماء التي داومت التطلع إليها في زمني الأول مجتهدا في تتبع نجومها وتقصي مصائر شهبها وتحديد مسارات رواجمها وتأثير بعضها في بعض ، هنا وجب تنبيه ، لم أكن عالما بالنجوم في نشأتي الأولى ، لكنني كنت منشغلا بها ، ولأنني ممنوع من التصريح لذا أكتفي بالتلميح ، فلأطو سري في قرار مكين .

قال واحد من الأجلة .. كل من أخفى السر سرعان ما يفوز بمراده ، عندما تختفي الحبة في الأرض فإن سرها يجعل البستان مخضرا ، إذا لم يكن الذهب والفضة مختفين فكيف ينضجان في أغوار المناجم ، إذن .. اجتهدوا في فهم ما

أقول ، وتفحصوا ما أرمز إليه من إشارات ، ولا تظنوا بى السوء ، أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين المتعالين ! .

من أجلها تركى القرار وخفضه
وتجشمى ما لم أكن أتجشم
ولقد كتمت غداة بانت حاجة
فى الصدر لم يعلم لها متكلم

لا أعرف اسم النهار السابق ولا الغد اللاحق ، أصلى لم يع ذلك ، ولم يحتفظ بما يدله ، وأنا مقيد بعلومه حتى عن ذاته ، فبئس المصير ! ، إنه العام الثامن والأربعون ، منه تبقت أول علامة فى طريق سفره ومشقته ، والسفر هو الظهور ، سمى السفر سفرا لأنه يسفر عن أخلاق الرجال لما فيه من تعب ، وطريق أصلى وعر ، قبل هذه اللحظة أحاطه غمام فكأنه لم يكن ولم يغشه ولم يمر به ، لذلك كان دائم التطلع إلى ابنه وهو ابن عام أو عامين ، يقول لنفسه ، إن ما يراه محمد الآن لن يبقى معه ، سينساه ، سيمحى منه ، سيتلاشى من رصيد وعيه تماما ، فهو يعيشه ولا يعيشه .

فى أول الطريق يكون الطفل متلقيا ، حتى إذا قطع فى السفر مدى ، ربما عامين أو ثلاثة فيستعيد شيئا أو ملمحا مما استقر عنده ، وكلما أوغل وبَعُد .. تزايد تراثه ، حتى إذا قرب تمامه ودنا اكتماله وقرب المحط انكفأ على قديمه .. فيرى عندئذ مالم يره من قبل لحظة وقوعه ، ويعلم ما لم يعلمه فى الحين عينه . إنها اللحظة الأنأى ، الأبعد ، هذا ظنى ، الأب مستيقظ والأم قاعدة ، يبدو أنها حامل ، لم أتحقق ، لم أتأكد ، طفل فوق السرير الحديدى أسود الطلاء ،

طفل واحد ، فقد رحل كمال ومن قبله خلف ، لما حسن العقبى يوم التناد ، من ؟ إنه أنا من ناحية ، وأصلى من ناحية أخرى ، يقوم الأب متجها إلى الباب ، يشد المزلاج الخشبى ، تقول : إلى أين ياأحمد ؟ تخالف خروجه إلى السطح ، منذ أيام سمعت امرأة تحكى عن حادثة جرت بالعطوف ، إذ خرج رجل حلاق إلى الشرفة بعد إطلاق صفارة الإنذار ، وفجأة شقت شظية ساخنة طريقها إلى رقبته ، ذبحته من الوريد إلى الوريد ، ذبح الشاة ، أخطر ما فى هذه الغارات تلك الشظايا الضالة المندفعة كالمصير ، خطر يقربها منه ، ماذا كان يمكنها أن تفعل بدونه فى تلك الليالى الغاصة بالموت ؟ .

تستعيد الآن ليالى الحرب الكبرى ، عندما كان الألمان يغيرون كل ليلة على مصر ، كان السكان ينزلون إلى الطوابق الأرضية ، يفترشون الأرض أمام الغرفة ، فى الظلام تحتك الأيدى مصادفة ، إحدى الليالى لجأ جماعة من بيت قديم مجاور إلى الفناء ، اضطر إلى فتح الباب لدخول بعض الجيران الأقربين إلى الغرفة ، أم هدد وابنتها غير أن رجلا أو صبيا ـ لا تدرى ولا تعرف كيف دخل ـ اقترب منها هامسا « أنت عطية ؟ » ، ارتجفت خوفا ، « أحمد .. أحمد » أجابها غير بعيد متسائلا مستفسرا ، غير أنها قالت ، « لا شىء .. لا شىء » تخشى غضبه ، وقد يتطور الأمر إلى ما تكره وتبغض ، لذا كتمت والكتمان طبع غلب عليها وطغى ، فكم أخفت ، وأضمرت ، وصانت ، إذا ناءت بحمل أو تعاظمت أثقالها ، ربما تبدو منها كلمة أو آهة أو إيماءة . لكن فى الأغلب الأعم نظرة دالة ، أعمق تعبيرا وأمضى تأثيرا .

عيناها اتصلتا بشفتيها دائما ، فنظرة العكارة يصحبها زم ، أما السرور فله الانفراج والوسع ، صلة بين ممكن وواجب ، بين ضرورى ومحتمل ، غير أن ثمة لحظات استعصت على فهم أصلى ، ولم يلق لها تفسيرا ، تضيق ملامحها فجأة ،

تفضى فى ندرة ، « إنى فى ضيق » تخرج إلى الشرفة ، أو تقوم لتروح وتجىء ، تبدو وكأنها على وشك انهيار غريب ، يتطلع أصلى صامتا ، لا يلح ولا يحاول النفاذ ، يعرف أنها لن تفضى ولو بشذر ، ما الذى أقلقها ؟ ما الذى جعلها تنتفض فجأة ؟ هذا ما لن ألقى الإجابة عليه ، فقد أتمت رحيلها بعد معراج أصلى ، وقدر لى أن أعايشه وأشهده ، وهذا حديث له تفصيل وموضع .

فكم من المكتمات ذهبت بصحبتها ولن تنكشف أبدا ، تلك كوة أغلقت ، ونبع اندثر ، ونسيم لن يهب أبدا . وأيام زالت ، فلها الرحمة ، وطيب المثوى ، وحسن العقبى إن كانت هناك عقبى ، وأطلب الرحمة بالأخص لصوتها لحظة لفظها كلمة « ياولدى .. » ، فلم أشهد فى قديمى أو محدثى صوتا أوتى قدرة على تحميل نقطة واحدة بشتى المعانى والعبر مثلها ، هذا مترسب فى خاطرى وفى دمى ، صعب شرحه ، غامض نبره ، فليس الذى يجرى من العين ماؤها ، ولكنها نفس تذوب وتقطر ، يثقلنى استعادة ملامحها المادثة ، تثير عندى أحاسيس شتى ، هى محل تكوين أصلى ، وأول موطن له ، وآخر محل آمن ، احتواه وضمه حتى سواه كائنا يسعى ، أخرج من الغرفة إلى السطح ، غير عابئ بالشظايا ، فأنا مضاف إلى هذه اللحظات ، لست منها .

يقف الأب أمام الحجرة ، سماء مزدحمة بالنجوم ، لم يرها هكذا أبدا حتى فى أيام هجاجه بالحقول ، ومبيته قرب الطريق الوعرة فى خلاء قفر ، تبدأ انفجارات متباعدة ، ينشطر ظلام الأفق ببرق لاهب ، صيحات من ناحية قصر الشوق تأمر بإطفاء الضوء ، يقولون إن الطيار يرى لهيب عود الثقاب ، الأب يتململ بتأثير غامض ، خفى ، ليس بتأثير الحرب ، يوشك على الصياح « من هنا ؟ » كأنه يصغى بشكل غامض إلى صدى وجودى ونفاذى إلى هذا الزمن ، أضواء الكشافات تشق سواد الليل كنصال كونية ، تمسح الظلمة إذ تمر

بها ، خلال بريقها تبدو أطراف من المدينة ، ملمومة ، متضامة ، متحفزة ، متأهبة لصد أذى ، تتجمع حزم الضوء المستطيلة عند نقطة بعينها ، هدير يعقبه آخر ، ضوء ثم صوت ، برق بعده رعد ، يعلو صوت من الحارة آمرا سكان الطوابق العليا بالنزول ، المكوث خطر .

يرجع الأب إلى الغرفة ، يوقن أن غريبا فى السطح ، ربما أنس وربما روح هائـمة ، لا يفصح خوفا على امرأته الحامل ، الولد مستيقظ ، منكمش بجوار أمه ، لا يبكى ، هذا الصبى ما هو إلّاى ، أنا ، أتطلع إليه فى الغبشة ، أى علاقة بين هذه الكينونة وبينى ؟ ، بين الملامح التى أراها وتلك التى ستتغير وتتبدل ، بين هذا الحيز المكانى الذى يشغله الآن ، والأماكن التى سيرحل إليها ويشغلها ويطأها بقدميه هاتين ؟ .

بين الصور التى تشغل ذهنه الآن هو المتلق لا غير وبين الأفكار الهواجم والبواده والواردات التى ستقلقل سكينته ؟ ما سر العلاقة ؟ ما الفرق بين الإنسان فى محط السفر هذا والمحط الذى يليه ونقطة التوقف النهائية ولحظة الوصول التى تنعدم الأمكنة والأزمنة بعدها ؟ هل يقع التغير والتبدل ، أم أنه الإنسان هو هو عينه ؟ إنى من الحيرة والله لفى حيرة ، فمتى ألقى الإجابة ؟

يتردد نداء « المجرسى » ، إنه باشجاويش فى المديرية ، يحض الأب على النزول ، تنقطع خواطرى ويسكن عندئذ ميدى ، أنتبه حتى لا يفوتنى من الأمر شىء ، الليلة ليست مثل الليالى السابقة ، بيت انهار فى العطوف ، وآخر اشتعلت فيه النيران قرب الكفر ، الخطر قريب ، البيت كله عند أحمد عمر ، لو أن الأمر يخص الأب لما نزل درجة واحدة ، ألم يمنع ابنه عمر من الصعود إلى السطح لنشر الأبسطة القديمة فى الشمس ؟ صحيح أن صلحا تم فيما بعد ، عندما توسط بينهما حسن أفندى . تساءل ضاحكا : ألا تعرف أن أحمد عمر

من طهطا ؟ فأقسم الأب أنه لا يعلم ولا يدرى ، من أى بيت فى طهطا ، قال أحمد عمر إنه من بيت الذهبى ، قال الأب ، أتعرف فلانا ؟ فيقول الرجل نعم أعرفه ، عندئذ يذكر الأب طرفا من السيرة ، بمن تزوج من أنجب حتى تعجب أحمد عمر وقال إن الغيطانى يعرف عائلتى أحسن منى ، صحيح أن الود اتصل ، ولكنه لم يقبل بصعود أحد إلى السطح فكيف ينزل الآن ويدخل شقته مع امرأته وابنه ليحتموا داخلها ؟ المجرسى يلح ، الأمر خطر ، المجرسى عنده ولدان ، شافعى وشعراوى ، هما الآن يجاهدان متطوعين فى فلسطين . إنه عالم بمخاطر هذه الغارات وأهوالها ..

« لابد من النزول .. » .

ينظر إلى جمال ، إلىّ ..

« هل أحمله ؟ » .

تقول الأم :

« إنه .. يقدر على المشى .. » .

لحظة تجاوزهم الباب ، بالضبط تلك اللحظة ، لحظة رؤيته النجوم والأضواء الكاشفة ، لحظة لسع البرد للوجنتين ، وسماع صفارات نائية منبعثة من أماكن شتى بالمدينة ، ورنين جرس سرعان ما كف ، فيا هذه الموجودات من عابرة ومقيمة ، قدر لك أن تبقى حية فى هذه الذاكرة التى سنطفئ عند حد بعينه ، قدر لك أن تكونى أول وعيه عندما يتذكر قديمة ، أما ما سبقك فتوارى ، اندثر داخله ، فكيف حاله لو وعى وأدرك أنها ستبقى معه أبدا ، وأنه سوف يستعيدها فى بقاع شتى ، وأزمنة مختلفة ، لكن أنى له ذلك .. خلق الإنسان جهولا ، وإنما العلم كسبى ، حتى ما أظنه باقيا لا يبقى ، إنما تومض اللحظة عند استعادتها لا غير ، ثم تنطفئ . ويوما ما ستعتم الذاكرة ،

تنطفئ ، فأى الصور الأخيرة ستتراءى قبل الإغماضة الكبرى ؟ أى اللحظات أى ؟ .

أتبع النازلين . أراهم فى شقة أحمد عمر ، إنها المرة الأولى التى يشهد فيها أصلى مسكنا من داخله فى هذا البيت ، إلى اليمين غرفة فسيحة خصصت للنساء . أما الصالة فالرجال يصطفون حولها قعودا ، تبدو الوجوه نائية بملامحها فى ضوء المصباح الذى غطى بورق أزرق شفاف ، أصلى يؤثر الانضمام إلى الرجال ، يلتصق بالأب ، يصغى إلى أحاديث شتى ، تتداخل مخارج الحروف ، تتوه الجلسة فى أخرى ، أرى ليالى عدة فى حيز واحد ، يتحدث المجرسى عن ولديه .. شعراوى لم تصل أخبار منه ، أما شافعى فأرسل خطابا ، إنه فى المجدل ، يخبر عن دبابة اسمها النمر ، ومدفع يشطرها نصفين ، وعن شبان عرب تنفد ذخيرتهم فيلقون أجسادهم على الحديد المدجج ، ونساء اليهود يحاربن كالرجال ، أطرف بعينى ، هذه آرائك مفروشة بقماش ملون ، رائحة مبيد حشرى ، الباب المؤدى إلى الشرفة مغلق ، مسدلة ستائره ، لكم أتمنى الخروج إلى الشرفة ، أرى الليل ، السماء الملتهبة ، والمدينة التى تتخفى

صفارات الأمان ، طويلة ، ممتدة ، مع أن الأمان فى السفر قليل والمخاطر غالبة ، تتبدل المرئيات ، أوقن أننى مقبل على أمر سيثير دهشتى ويزلزل ما أيقنت منه دهرا ، أرى امرأة بدينة . لا تساعدنى الرؤى وطبيعة الضوء على التيقن من ملامحها ، إنها مريضة ، تلازم فراشها ، والأم تزورها ، تصحب أصلى معها ، أتوقف ، أدقق ، من أى منظور أتطلع إلى هذا الرقاد ؟ هل أنا واقف .. هل أنا قاعد .. هل أنا محمول ؟ لم أدر . من أى زاوية أنظر ؟ لم أحط علما ، هنا أتوقف فقد لزم التنبيه ، ثم التعديل ، إذ عاش أصلى على يقين أن أول الصور الباقية فى ذهنه ، أول ما لم يدركه المحو ، أول ما استعصى على التوارى ، تلك

اللحظة التى أفضت فيها وتكرر ذكرها ، لحظة خروجه بصحبة أبيه وأمه ، ليلة هذه الغارة ، لكن مهلا ، إن ما تكشف لى مغاير لما استقر عليه وعيه منذ أمد ، لماذا ؟ لأن هذه المريضة الراقدة هى نعيمة ، امرأة بيومى الحلاق ، الممرضة ، صاحبة أم هدهد ، إنها تقطن شقة الطابق الثالث التى سكنها الهجرسى وأولاده بعدها ، أما هى فانتقلت إلى بيت آخر فى ميدان بيت القاضى ، لم تكن نعيمة من سكان البيت فى ليالى الحرب من أجل فلسطين ، إذن .. ماموقع هذه اللحظة ؟ من أى جهة تطلع أصلى إلى المريضة ؟ كم عمره وقتئذ ؟ أم أن الرؤيا نتاج أحاديث جرت على مسمع منه ومرأى ؟ لا ألقى الجواب ، تعز العلامات وتندر الإشارات عند هذه النقطة من الطريق ، لماذا تبقى لحظة دون أخرى ؟. ما طبيعة العناصر التى أبقت هذه حية ، وجبت ماعداها ؟ أتكمن فى المتلقى ؟ أم فى المصدر ، أم ترتبط بحدود الامكان الإنسانى ؟ أكاد أضل ، خاصة أن المعالم منطمسة ، لكم أنوء بعجزى وَهمِّى إذ يغمض الأمر ويعسر ، لكم كنت فى وجودى العتيق أكثر قدرة ، حتى دليل غائب عنى ، عزيز المشاهدة ولولا أنى مأمور مكلف لانصرفت وما أتممت .

وأذكـــر أيـــام الحمى ثم أنثنـــى
على كـبـدى خشيـة أن تصدعا
فـليست عشيـات الحمى برواجـع
عـليك ولـكـن خل عينيك تدمعا

عند هذا الحد لاح ما يخفف عنى ، ويطرى قلبى ، أليس اليسر يعقب العسر ، وبعد الليل انبلاج فجر ؟ ، والتخفيف عنى يكون بظهور امرأة ، إما فى دائرة بصرى ، أو فى أيامى ، هكذا رأيت بنية باسقة ، لوجودها رحيق وأزيز ،

أدرك أنها ظهرت لمؤانستى وإن كانت لاتخصنى ، رأيتها من موقع اللحظة المندثرة فرغبتها وأججت عندى شهوة مندثرة ، فأحيت أرضا من بعد جدب فانتعش أمرى ، كنت عند العام الثامن والأربعين ، هذا موقعى فى السفر حيث اللحظة التى أطلت المكث عندها ، لم تكن قد ولدت بعد ، وهذا غريب .. غير أن ما عجل ظهورها ضيق وحيرتى ، خاصة أننى مازلت فى أول المسعى ، وموقع ذلك فى الترتيب بعيد ، لكن عجل بظهورها للتخفيف ، وهذا من مظاهر اللين والرحمة بى ، هاهى ذى تمثل أمامى ، منفجرة الحضور ، قبل أن تولد ، قبل أن تتكون فى رحم أمها ، فكأننى أشتهى العدم ، وأعشق المحال ، ولكن هذا ما تقرر لى ، وقد حاولت التقريب جهد الطاقة ، فمن لم يدرك ومن لم يفهم فالذنب ذنبه لاذنبى ..

﴿ وأما من جاءك يسعى وهو يخشى فأنت عنه تلهى ﴾

(قرآن كريم)

.. ها هو ذا أصلى ، أراه مكتملا ، يقف فى مطار بأرض غريبة ، يتحدث إلى امرأة عجوز تتكلم اللسان العربى بصعوبة ، إلى جوارها يقف رجل أحمر الشعر يمسك قبعته بين يديه ، يومئ برأسه وإن بدا عليه أنه يفكر فى شىء ما ، مخالف ، مغاير لما يدور حوله الحديث ، أحار ، ما العلاقة بين وجود أصلى فى هذا المكان وبين البنية الهيفاء التى رأيت من جمالها بشارة وقبسا ، غير أن قلقى لم يعجل أمرا ، فكل شىء يمضى بقدر ، أرى البعض يمشى ، والبعض يقعد ، شابة تقرأ كتابا فى لغة لا أفقه منها حرفا . وبائعة جميلة ترتدى ثوبا بنيا قائما تقف خلف صوان عرض نظيف ، به أكواب

عصير ، وأطباق الطعام الجاهز السريع ، وقطع حلوى ، ورائحة طيبة منبثة فى فضاء المكان ، أسمع صوتا بلسان غير مبين يتردد عبر مكبر الصوت ، فيتأهب قوم كانوا جالسين ، إذن .. هذا تنبيه بإقلاع وشيك ، أكاد أشرد ، غير أن هاتفا خفيا يردنى إلى أصلى .. أرى عينيه تتطلعان ونظره مستنفرا ، أتبعه فأراها هى .. هى ، القامة السيسبانية والشعر الصفصافى المنسدل يؤطر الملامح ويحددها ، أراها الآن أوضح وأقرب ، تتلفت حولها ، ثم تحسم أمرها فتجلس فى مواجهته تماما ، وعندما تطلعت إليه نفذ وجودها إليه ، فامتزج عبيرها بثناياه ، وتغلغلت فى أعضائه فانتفض ميله وتفتحت عنده طرائق ، واتقدت رغبته ، وتكأكأت الأمنيات على خواطره .

يعاود النظر فتتعانق عيونهما ، يتأكد من وقوع الأمر ، يود لو أنه بمفرده ، لو انصرف الجالسون معه ، تقوم واقفة فينهض معها صدى قلبه ، ينتفض داخله ومظهره ثابت ، يتحرك ما فى أعماقه ويسكن خارجه ، فأى جهد ، أى عناء ، تغيب تاركة حقيبتها فوق المقعد الجلدى الوثير الذى مازال يحتفظ بحرارة ملمسها ، لا يطول غيابها ، ترجع فكأنه يراها من جديد ، ينبهر بطولها المتناسق ، قامة دالة مفصلة ، قدت من استواء واستدارة ، هذا السريان الخفى ، ينبعث من جسدها فكأنها تمشى فوق الماء ولا تبتل ، أو تخطو فى الفراغ ولا تطأ اليابسة ، كأن داخلها وتر مشدود يوشك أن يرمى ولكنه لا يرمى : كأنها تطاول شيئا خفيا يحلق على مقربة ، تجتهد فى الابتعاد عن جذرها إلى أطراف لا يمكن رصدها ، دعاه صحبه إلى صالة الطعام .. تبعهم صاغرا وعنده تشب حسرة ، غير أنها بعد لحظات ولجت فراغ المطعم ، واجهته من المنضدة المقابلة ، أيقن أن فى الأمر قدرا وتدبيرا ، وأن فى أفق المجهول بشارة ، اتصل النظر ، وعبر ما عبر ، فما أعجب الأمر الخلق وأندره ، فيه ما

يصعب الإفصاح عنه ، أو تفسيره .

بنظراتها حركت أوضاعا ، وبعثت عنده خدرا ، وأورقت فيه المنى ، فما أحلى ، وما أجمل وجود الأنثى فى هذا الكون ، بها يبدأ الكمال ، وتستمر الديمومة ، ويقع اللطف ، وتنتشى الراحة ، وتتولد الطاقة ، وينفجر الانبعاث ، ألم يقل الهادى الأكبر الشيخ محيي الدين أنها محل التكوين ، بقدر تأجج رغبة أصلى واتقادها فإن اشتعالها يصاحبه حزن ، لا يغيب عنه أبدا ، إن ما بدأ سينتهى ، قد تنصرف بعد لحظات ، حتى اللحظة لا يدرى عن وجهتها شيئا ، غير أن أساه هذا لا يتعلق بهذه البنية تحديدا إنما هو طبع جبل عليه ، وعنصر من خصائصه ، لحظة تقبيله الثغر العذب الريان ، وإيلاج لسانه متحسسا فم المحبوبة من باطن ، إنما يفكر فى عظام الجمجمة الخاوية التى سيؤول إليها هذا المصير ، والعدم الذى سيخلف الرونق الدافق ، وعظام الساعد الملتف المعانق والترقوتين خلف النهدين ، والحوض الذى يكتمل عنده الاتحاد ويتم إيلاج الكل فى الكل ، وهيكل هذا الخصر إذ يعثر عليه يوما بعيدا منفصلا عن تاريخه الحى ، وكل ما مر به ، وما تردد عبره ، وما شدا حوله حقا .. إن العدم كفر ، إن العدم كفر ، أما الزمن فغالب مبدذ ، مهلك ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

وعندما أوشك أصلى على الفهم وإدراك الكنه .. تبدد .. ونفى إلى أرجاء الكون ، لا تجتمع منه ذرتان فى موضع واحد ، ورثت عنه كافة عذاباته ، هو الذى لم يستكن أبدا ، ولم يرتح باله أبدا ، ولو قر قراره لحظة لظن أنه الأبد الصامت .

ها هو ذا منعقد الجبين ، ساهم ، لا يدرى من بقربه ، من يفكر فيه ، ترى .. من هى تلك الحسناء الباسقة التى تنأى بعدا عن الثرى منبتها

ومثواها ؟ ، عند كل خطوة منها. تبدو كأنها ستنشب ، ستقلع ، تمضى عبر الفراغ كطير نادر ، فما لب القصة ؟ .

يرتفع نداؤه .. اقترب وقت الرحيل وتحدد ، يودع رفاقه ، يضطر إلى التحول بعينيه عنها ، تغيب عنه ، تشب عنده حسرات ، يتجه بطيئا ، مثقلا صوب باب الخروج ، طابور ممتد ، بوابات التفتيش منتصبة ، أين ؟ لايراها ، تعبر العربة ساحة المطار ، الممرات ممتدة . لماذا تبدو الأرض هنا كأنها على عتبة السماء مباشرة ؟ ، لماذا ينأى الأفق بعد غيابها عن بصره ، تتوقف العربة .. يحدق .

تقف عند عتبة السلم .

تنتظر دورها فى الصعود ، تقصد البلد الذى يسعى إليه ، هى بعينها ، تستدير قليلا فتواجهه وعندها ابتسامة ، تقف بكينونتها الفارهة .. كالحقائق الأزلية ، كالمشرق والمغرب ، لا أقول كالشروق أو الغروب لأنهما غير ثابتين ، غيردائمين، فلهما أجل ، يبصرها بالتوالى ، مرة غير مصدق ، فلكثرة ما رغب ولم ينل ، لطول ما تمنى ولم يصل ، ولشدة الإخفاق الذى أصبح تراثا مكتملا .

لم يتصور قط أن الأمور ستمضى هكذا ، طيعة ، هينة ، تلتفت ، يلتقى بها بالنظر ، خلسة فيها الاستفسار الأتم ، وغمامات بعيدة مسكونة بالطل والوعد بغيث منهمر ، ستضمهما الطائرة معا ، غير أن مخاوف تتجدد ، فى أى مكان سيكون مستقرها ومرساها ، ستشغل أى حيز ، ستجلس إلى جوار من ؟ ستسبقه إلى الدخول ، هل سيجد المقعد المجاور خاليا ؟ كيف يمكنه الاقتراب منها ؟ غير أن جرأة تواتيه لا يعرفها فى أرض موطنه ، وانى لمتسائل ، لماذا لا تتبدد حواجزه الخفية إلا فى أرض غربة ؟ لماذا لا يتحرك إلا فى أرض غريبة

ودار سفر . مع أن الغريب ضعيف ، ربما لأنه ناء ، قصى عن البِنْية المعتادة . والستارة القمعية والعيون التى تعرفه ؟ .

إنه يلج الطائرة وأمره فى ثبات وحاله مترقب ، يقطع الممر الضيق بين المقاعد ، متمهلا ، محدقا ، متجاهلا المقاعد الخالية المتاح له الجلوس فيها ، ها هى ذى إلى جوار النافذة المستديرة ، تضع حقيبتها فوق المقعد المجاور ، لتمنع جلوس أى شخص آخر . هذا جلى إذ تتطلع مرحة ، مبتسمة ، يومئ ، فتومئ ، يحييها تحية من كتب له وقدر عليه أن يقابلها منذ مولدها ، تحية القادم من بعد سحيق ليتقاطع وقته بوقتها ، وفى الحيز المحدد ليلتقيا ويتجاورا ، كل شىء بقدر .

اعلموا أن اللقاء أثناء السفر له خصوصية لأن فى الأمر قدرا من الغربة . إذ أن الغريب للغريب معاضد ، وعند الانتقال تدنو الأخطار ويكمن اللامتوقع ، المجهول ، خاصة إذا أسرعت الوسيلة وضاقت المساحة ، يقول القائل لنفسه : ربما ألقى حتفى كذا جارى الذى لا أعرفه ، فيبدأ عندئذ الاقتراب ، ويدنو الفرد من الفرد .

أول ما وصله منها رائحتها ، انبعاث وجودها ، عبيرها الأنثوى ، إشاراتها الخفية إلى العالم الخارجى ، لحظة استنشاقه لها بقيت عنده حتى بدء معراجه ، وذهاب مدته ، ثم انتقلت عندى ، لكل أنثى أريجها ، اعتاد الاحتفاظ فى خزانته حتى إذا انقضى العهد وتمت العلاقة استعادها مرات ومرات ، لا تهن مع مضى المدة ، ولا تحب رائحة أخرى ، وفى الأغلب الأعم تكون مفتتح الذكرى إلى طرائق وسبل لا حصر لها .

يمد يده ، تلتقى أصابعه القادمة من بعيد بأصابعها ، يسرى إليها وتسرى إليه فيخفق قلبه ويدب عنده انتشاء ، لم يخش ظهور أمره ، لم يخجل ، تقرّب

وجهها منه ، تشير إلى صدرها ، تقول بلسان عربى غير مبين : « أنا » ، تتوقف ، لم تكمل ، تفتح حقيبتها ، تخرج دفترا صغيرا ، بنى اللون ، لا مذهب الحواف ، تقلب صفحات ، تشير إلى سطر يحمل اسما وعنوانا ورقم هاتف ، تقول بفرنسية : « صاحبى » ، لا تعرف من الإنجليزية التى يلم بجانب منها إلا كلمات معدودات ، أما حصيلتها من العربية فنادرة ، علمها صاحبها أسماء الأعضاء الجنسية ومواضع الشهوة فى اللغة الدارجة .

فى الطائرة عرف أنها تقصد البلد الذى يسافر إليه فى أجازة مدتها أربعة أيام ، تلك عين المدة التى سيقضيها ، لن تزيد أو تنقص ، عندما جاءت المضيفة بالطعام قدم إليها الصينية المغطاة بورق شفاف ، ساعدها فى ترتيب الملعقة والسكين ، يبدى ودا ، يظهر عناية ، تقول ممتنة : « شكرا » . لم ينظر إليها أثناء تناولها الشطائر ، كما خشى أن تبدر منه علامة نهم غير مستحبة .. فراح يقضم قطعا صغيرة يمضغها بتأن ، يختلس النظر إلى من يمكن لهم رؤيته . هل يرقبه أحد ؟ هل ينظر إليه أحد ؟ أبدا ، الكل لاه .

تتطلع عبر النافذة ، غيوم وكون رمادى ، تتقلص ملامحها ، تقول ما يعنى رداءة الطقس ، هكذا قدر ، وحتى إقلاع أصلى من فاس المباركة لم يدر ولم يقدر على إدراك كيف اتصل حوارهما رغم شحة اللفظ ، وندرة اللغة ، لو طلب منه استعادة اللحظات بعد انقضائها وشرح هوية التواصل لما استطاع . ولكل أمره .

إسمها اليزابيث : تعمل فى متجر يبيع الأدوات الكهربائية ، على وشك التخرج فى إحدى مدارس اللغة ، تنوى الإلتحاق بمكتب للسياحة ، حيث الوضعية أفضل ، إنها من الريف ، أمها تعيش فى قرية صغيرة يمر بها نهر صغير صافية مياهه ، تشى بما يستقر فى قاعه من حصى ، القرية قرب الحدود

الجنوبية لكنها جاءت إلى العاصمة تستأجر غرفة صغيرة ، ضيقة جدا مع امرأة عجوز ، تدخر مالا كل سنة لترحل إلى بلد غريب ، إنها تقصد هذا البلد أول مرة ، لا تعرف صاحبا أو صاحبة هناك ، أما جمال فاض للمشاركة فى مؤتمر ، البعض ينتظره فى المطار ، أحدهم يرفع لافتة كتب عليها اسمه ، يتقدم نحوه مبتسما غير غافل عن موضعها فى الطابور المصطف أمام مكتب الجوازات ، يقدم جواز سفره . إلى مستقبله ، يسأله عن محل إقامته ، يطلب منه التمهل لحظة ، يخط عنوان الفندق وعنوانه ، يفترقان ، كل إلى سبيله .

طوال ليله الأول يتساءل ، هل سيراها مرة أخرى ؟ لو أنه فى إجازة لما فارقها غير أنه اضطر ، عندما أغفى ، أثناء اجتيازه البرزخ الفاصل بين اليقظة والنوم ، استعاد رائحتها ، وحضورها الهامس ، وملمس شعرها السيال الناعم المنسدل ، عندما مال عليها وفكر أن يلثم وجنتها . تردد ، ليته فعل ، غمره حضورها الأنثوى فبدد تعبه وانتزعه من تخوم النوم إلى أتون الرغبة واليقظة .

فى وحدته هذه ، حام حولها ، جردها ، قبلها ، مرغ رأسه على نهديها ، حاد بها ، ضمها وهى نائية حتى كفى ذاته بذاته ، هذا لم يرضنى ، لم أتقبله منه ، لم يكفنى ، وهنا دهشت لما وقفت على المرات التى اعتصر فيها خياله وأرهقه مستدعيا ساقين عاريتين أو مطلع فخذين انحسر عنهما ثوب ، أو مرأى جارة شابة ناهدة الصدر. عصر كل يوم تخرج إلى النافذة ، تنحنى مطلة ، ذراعاها سخيتان ، ومفرق نهديها باد ، ثوبها يتوارى فى مفرق ردفيها ، فيتحدد الأمر وتبرز التقاسيم ، يشعل هذا فيه حمى ويبعث هذيانا ، يناجيها عبر النافذة بداية بالكلام الرقيق ثم يثنى بما يمكن التفوه به عند المضاجعة ، حتى أنه ليخور ويزوم ويطلق صرخات بدائية وحتى تقييدى هذا لم تعلم الجارة بما فعله بها ، كان إذا يلقاها فى الطريق يومئ محييا فتبادله ، ضقت بذلك ، تراث طويل من نكح اليد ، وارضاء الذات بالذات ،

وعندما ضاجع أول انثى بعد الثانية والعشرين لم تكن تخصه ، إنما أجرت فرجها وأحضانها لقاء قدر معلوم!. أتعجب من ظروف تؤدى إلى هدر الإمكانية ، وتؤدي إلى فساد البنية.

فى نشأتى الأولى لم أعرف هذا الحرمان والتصحر ، وبرغم سخطى ، إلا أننى أشفقت على أصلى البائس ، ورثيت لضياع عمره الغض بدون ارتواء ، اطلعت على ليال عدة لا حصر لها . يغمض فيها عينيه ودماغه كوعاء لماء يغلى، والرؤى الشهوانية تعصف به وتبليه ، كأنه ارتد إلى أيامه النائية تلك فى هذه الليلة ، لا أدرى كيف نام ؟ ، لكننى رأيته لحظة استيقاظه ، يفتح النافذة ، إنه قريب من الطريق ، الأرصفة رمادية ، المنزل المقابل مغلق النوافذ ، ثلاث شجرات .. لخضرة أوراقها بريق وزهاء ، امرأة شابة تمشى مسرعة ، تميل إلى أمام ، لسبب ما ، ربما يكمن فى لون الضوء ، فى طريقة مشى المرأة ، ربما بتأثير الشجرات ، أو الستائر المسدلة خلف النوافذ الزجاجية . لسبب يستعصى على الإدراك ، فاجأته وحده وأدرك بحدة أنه غريب ، مرقت فتاة أخرى تضم كتبا ، من؟ من أين جاءت ؟ إلى أين مقصدها ؟ لن تقع عيناه عليها مرة أخرى ، هذا مؤكد . إنه يتساءل ـ وإنى قلق معه ـ هل ستجىء؟ هل ستنى ؟ .

ها هو ذا فى مطعم الفندق ، يجلس إلى ثلاثة من صحبه سبقوه فى السفر ، يقضم كعكة مستديرة ، من المدخل الرئيسى للقاعة تهل ، تبدو ، تجىء ، تسرى عبر المناضد إليه ، صوبه مباشرة كأنها تعرف موقعه ، يعتذر لصحبه ، يقول أحدهم وهو عجوز أشيب « مرحى بالشباب » ، يسألها : « هل تناولت إفطارها ؟ » . تنى ، تلفظ « لا » كالشكوى ، إذ فرغا من الشاى بالحليب ، انصرفا ، خط اعتذارا ، لن يحضر الجلسة الافتتاحية

ليحدث ما يحدث ، أعجبنى منه ذلك ، يمضى بجوارها ، أولى خطواته فى العاصمة التى كادت تمحى فى الحرب العالمية ، الحرب التى ولد ليلة توقفها ، أول أيام السلام ، وإنْ خلت حياته منه ، عرف التاريخ والمصادفة على حين فجأة .

ولذلك قصة

إذ اعتاد التردد على متجر قريب من البيت يبيع الورق القديم ، صاحبه جنوبى من قرية مجاورة لجهينة ، يقلب الصحف والمجلات القديمة ، أحيانا يعثر على ثمين الكتب مقابل قروش زهيدة ، فى إحدى المرات رأى عددا من صحيفة الأهرام ، عددا نحيفا من أربع صفحات ، استسلام ألمانيا وانتهاء الحرب فى أوروبا ، فى صدر الصفحة رسم لامرأة تمسك سيفا بيد وغصنا للزيتون بيد أخرى ، وصورة لجنرال ألمانى يوقع وثيقة فى مدرسة مهجورة قيل إنها بنيت من طوب أحمر اللون ، التاريخ ، التاسع من مايو عام ألف وتسعمائه وخمسة وأربعين ، سأل الأم : هل ولدت يوم أربعاء ؟ قالت : فى الفجر

فيما بعد تساءل : لماذا معظم حالات الولادة فجرا ، كذا الموت . احتفظ بالعدد سنوات طوالا ، فقد منه ولم يدر أين ؟ ، إنه يحث الخطى بجوارها ، تبدو عليمة بالمدينة على الرغم أنها رحلتها الأولى ، ينظر إلى المبانى متقاربة العمر ، مدينة بُنيت بعد دمار ، قامت عماراتها وشقت طرقاتها فى زمن واحد ، كيف كانت تبدو أثناء الغارات ، وعند الاجتياح ، كيف حالها صبيحة يوم مولده ؟ ..

عند ناصية رأى لوحة سوداء ، عليها أسماء بالقلم الغريب ، أمامها باقة زهور نضرة ، لا يخلو شارع من لوحة مماثلة ، يتوقف ، تنظر إليه دهشة ،

يتطلع إلى الأسماء ، التاريخ يعرفه ، قبل مولده بعامين ، يستغرقه الأمر وهذا عجيب ، فكأن خياله لم يلتهب بمرأى من تقف الآن ، ينتبه إليها ، يبتسم ، يرفع يدها إلى شفتيه ، يقبل شفتيها الورديتين فيتمكن من رائحتها وملمس ضواحيها ، يتحسس شعرها برقة مبديا الحنان ، بينما الرغبة تشب عنده وئيدة ، فى عربة الأجرة أبرزت عنوانا ، استأجرت غرفة عند عائلة ، هذا أرخص من فندق ، تبتسم ربة البيت ، بدينة إلى حد ما ، ثوبها أزرق ، لا يفهم لغتها ، غير أن ملامحها تفيض بالود ، مسكن غير فسيح ، ثلاث حجرات لا غير ، الطابق أرضى ، عبر النافذة يرى ساحة فسيحة تمتد بين أربعة بيوت ضخمة ، طفلان يجلسان على درج عند الناحية الأخرى ، تومئ ربة البيت ، تغلق الباب ، إنهما الآن منفردان ، متواجهان يقترب فيدنو كوكب من كوكب ، تتصارع الجاذبيتان ، تتسارع أنفاسه ، تمسك طرف قميصها تروم قلعه ، غير أنه يمسك يديها ، فلتكف ، بيديه هو ، على مهل ، ليس أعظم لذة من البداية ، بداية السفر ، بداية الحب ، بداية الأمر .. أى أمر .

لم ينس قط لحظة تلاقى جسديهما ، إغماضها العينين ، ضمها شفتيها وإغلاقها منافذها لحظة أسر كل منهما للآخر ، تنفجر البداية من سحيق المجرة ، يتجاوزان أفلاكا لم ترصد ، ويلسعان شهبا ، يستقران قدرا لا يمكن تحديده فى روض منمنم ، عندما دنت من الذرى ، زلزل زلزالها ، بدأ ارتجافها ، منها انبعثت دوامتها ، فكانت هى المركز ومحيط الدائرة والقرار المكين ، شرقت وغربت فى نفس الاتجاه ، طلعت ونزلت فى حركة واحدة فتخففت من أحمالها ورمت أثقالها ، محققة لحظة الدمج الإنسانية ، أدهشه ذلك فنظر ، فحدق ، فتمكن ، فأحاط بها من كافة جهاتها . هذا ماحيرنى منه .

في قمة نشوته لا ينتشي ، إنما يعي بجدة ، لا يغيب ، إنما يحضر ، هنا تذكر بنية فتية لا تزال بعد في أول طريق التجربة ، عرفها زمانا بعينه وكأن لها عنده شأنا ، بمجرد ملامسة مشارف عالمها انتابها ما يشبه الفواق ، تتابع خروج أنفاسها في شهقات سريعة ، متلاحقة حتى ظن بالأمر سوءا ، وعندما فتحت عينيها حدقت فيه : كان مرتكزا إلى ركبتيه مدققا بصره في ملامحها ، متفحصا ذروتها ، متعته في إدراكه أنه فاعل ذلك ، للحظة بدت صامتة كأنها فوجئت به ، ثم تغيرت ملامحها ، انقلبت إلى خوف ثم رعب ، صرخت مولية وجهها بعيدا عنه « ماما .. ياماما » ، ارتدّت بكامل أنوثتها المتفجرة إلى طفولة مرعوبة ، لم يفلح انحناءه عليها ، وهدهدته إياها ، وتقبيله شعرها وعنقها ، وضمه لها ، ورفقه بها ، وحتى تمام مدتهما وافتراقهما ، ومضى كل منهما إلى سبيل .

لم تفصح له عما أخافها منه ، لم تصرح .. مع أنه عرفها وعرفته مرات بعد فزعتها تلك ، ها هي ذي اليزابيث تتطلع إليه ، يلثم صدرها ، مازال متمكنا منها ، غير مفارقها ، يرفع يده المتدلية المستسلمة ، يقربها من شفتيه ، ابتسامتها تحوي وَهَناً كأم فرغت لتوها من ولادة فبدا عليها نصب العناء ورضى من أعطى الحياة الدنيا مددا .

في عينيها الواسعتين ، الغريبتين وسن مزهري ، مخملي ، في نظراتها طل ، والطل هو أول نشء المطر ، إذ أنه ضعيف ، أما هو فقد اطلعت على مادار عنده ، يقول لنفسه إن في عناق الرجل بالأنثى ذروة الحياة وتجددها ، وفيه الموت أيضا ، فبعد تشييع النواة إلى الأعماق ، يجيء الهمود والسكون ، بل قد تنشأ الرغبة في المفارقة ، ينسحب منها ، يتمدد إلى جوارها ، يفرد ذراعه لتتوسدها ، لم ينأ عنها ، لم يولها ظهره ، قديما نصحه خبير مجرب ألا يفعل ،

تضيق المرأة بانفصال سريع يعقب اتصالا وثيقا ، إنما يؤثرن الود والمدهدة ، هذا حسن منه غير أنه مختلق ، لذا لا يدوم ، سرعان ما يتململ وينتابه ضجر ممض ويختلق الحجج للانصراف ، وإذا سأل سائل ، ماذا عن لور التى لا يرغب فراقها والابتعاد عنها ؟ الوحيدة التى احتضننها وأغمض عينيه مستغرقا فى نوم كالقطيفة ، مع أن عادته التوحد عند النوم ، أقول إنه عايش ذلك فى نشأته البديلة ، ومن شاء الاستزادة فليرجع إلى المقامات ، إذ فصلنا الأمر وجليناه فى مقام الاغتراب ، إنه الآن صامت ، هى ساكنة ، غير أنها تفيض رضا ، أما سكينتها فلا تعكرها شائبة ، صمتها رضابى ، يشعر أنها وحيدة تماما ، لم تصرح له ، لكن فى رقدتها قضية ، يلمح نهديها المشرعين كالجهر بالسر ، وحلمتيها المشرعتين وأخمص بطنها المنخفض ، يولى وجهه صوب السقف الأبيض المنخفض ، تلك الأنفاس ستكف يوما ، وهيكل هذا القوام سيتمدد عندئذ فى حفرة قصية بعيدة عن الموضع الذى سيحتويه هو ، قد يعثرون على عظام ساعد منه ، أو قطعة من ترقوته ، أو ينظرونه مكتملا ، متصلا ، فمن أين للرائى المتفحص العلم أن هذا اتحد بذاك يوما ، وأن نشوة انبعثت هنا والتقت بنشوة هناك ، من أين لهم إدراك ما مر به من دقائق ، من استجابات وغير ذلك ، حقا .. إن العدم كفر ، إن العدم كفر ومذلة ، هذا حق .

مصغ هو إلى أنفاسها ، كأنها لو تركته ستبقى أبدا ، يقوم جالسا فى الفراش ، يلمح أطفالا يلعبون فى الساحة ، يتقاذفون كرة لا يراها ، ضوء حليبى اللون ينبئ ببرودة سارية ، ينتبه إلى اقترابها منه ، عارية ، فارهة ، تشير بيدها وملامح وجهها بما يعنى استمتاعها ورضاها ، ثم تشير إليه ، تلمس صدره بطرف أصبعها ، تسأل .. وأنت ؟ ، فيكون جوابه انحناءة وتقبيلا ،

نقطة الوصل والاتحاد ، تبتسم ، تبدى سرورا ومرحا ، غير أنه راغب فى الانصراف الآن ، يود الانفراد ، الجلوس داخل مقهى ورؤية المارة من وراء زجاج ، أو التيه فى شوارع المدينة على غير هدى ، حتى إذا تعقد أمره يركب عربة أجرة مبرزا عنوان الفندق .

هذا دأبه عند نزول مدينة لم يطأها من قبل ، يشير إلى ساعته ، إلى جهة ما ، يجب الانصراف ، تومئ مجيبة ، يرتدى ملابسه بسرعة ، يمسك حافظة نقوده ، يبدو عليها انزعاج ، ماذا سيفعل ؟ ، كلا .. إنه يود تقديم مقدار من المال يسير إلى صاحبة البيت مقابل تردده ، إنها تفهم ، تضع الورقات المالية الثلاث تحت لفافة بسكويت ، تودعه ، يؤكد لها أنه سيجيء فى الغد ، بعد انتهاء جلسات المؤتمر ، تقريبا .. فى الثالثة ، تقبله ، تقول إنه رقيق ، ومعان أخرى لم يدركها بالدقة وان عنت الثناء والود ، ينصرف ، تودعه ربة البيت مبتسمة ، مرحبة ، يجتاز الممر والمدخل الرئيسى ، ينتبه إلى العلامات التى تمكنه من العودة ، المبانى متشابهة ، يتحسس الورقة التى خط عليها العنوان ، عند المنحنى راقه الشجر الأخضر ، وتأمل بلاط الطريق القديم فحن ، هنا محطة للانتظار ، هذا المنحنى من رمن ما قبل الحرب ، أخطأته البلايا ، بيوت ضاحية ، طابق أو طابقان سقوف القرميد المحدبة

فيما بعد استعاد وقفته تلك طويلا ، كذا مدخل الضاحية ، وبيوتها القديمة المتضامة ، وعمارتها الحديثة الشاهقة لحظة عبوره الجسر الحديدى فوق النهر هب عليه حنين ، لماذا فارقها بهذه السرعة ؟ لماذا وأيامها معدودات ؟ ضايقه أنها بدت مصدقة لما قاله ، لكل ما يقوله ، لماذا ادعى كذبا أنه ماض إلى المؤتمر ؟ لماذا فارقها وحيدة فى تلك الغرفة الضيقة ؟ لم يعى حتى سؤالها ، كيف ستقضى ليلتها ؟ عجبت من أمر صاحبى هذا ، كلما مضيت قدما فى

هذا الحال يبدو لى منه ما يحيرنى ، ما يثير عجبى !

أعرف بكينونتى الأولى أن الحيرة تلزم الهوى ، وكل من يتصف بالهوى والميل يتصف بها ، غير أن ما يلوح لى منه ليس حيرة وليس هوى ، أخشى أن نكون ضدين فيستحيل اجتماعنا ، هذا يقضنى ويرمينى فى شتات ما له نظام ، عند محطة لا يعلم اسمها أو موضعها ، يغادر العربة ، يثنى راجعا ، تستقبله ربة البيت باسمة ، تتقبل منه باقة الزهور بود وترحاب ، للزهور شأن عظيم هنا . تشير إلى الغرفة ، يدفع الباب ، يتوقف ، مستغرقة فى نعاس ، متكومة فى الفراش ، ملمومة ، تلامس مقدمتا ركبتيها صدرها ، تنشأ عنده شفقة ، ويبدأ رثاء ، وحدة مكتملة ، مقطوعة عن الصلة ، والإنسان يبدو ضعيفا فى نومه ، مستسلما ، ألم يقل الشيخ الأكبر أن النوم هو الموت الأصغر ، تفتح عينيها متمهلة ، كأنها أمضت لحظات حتى تبينته ، أى مفاجأة ؟ تلثم وجنته اليمنى مرتين ، ثم اليسرى ، تشب فرحة ، تدعوه للجلوس .

الساحة خلت من صيحات الأطفال ، من الأصداء ، من اللعب ، هذا أوان العصر ، فكأن المكان بدل تبديلا ، موحش ، والفراغ مشحون بنذر شىء ما ، غامض الكُنْه ، ربما بوادره الليل المقترب ، ربما تأثير النهار المولى ، لو أنه استمر فى طريقه لكان متمددا فى الفندق الآن ، يبدأ اغفاءة العصر التى اعتادها منذ القدم ، لو اتصل نهاره كله يقضى ليلا ضنكا ، مرهقا ، وهذا مغاير لما جبلت عليه فى نشأتى الأولى ، يضيق بالبقاء ، لكن كيف سيبدو فى نظرها لو أنه انصرف الآن ، الحق أن عجبى يعظم واستنكارى يدب ، يقترح تناول الطعام فى الخارج ، توافق بلا تردد .

عصر اليوم التالى جاءها .. إنها منتظرة ، ترد إليه الوريقات المالية ، أبت

ربة البيت أن تتقاضى أجرا مقابل تردده ، هذا العصر بدر منه ما فاجأه هو ذاته ، مع اليزابيث يجتاز حواجز عتيقة طال نصبها ، ولأنه سلك طريقها بالأمس فقد بات عارفا ملما ببعض علاماته ، أما هى فكانت تقترح عليه مسارات وعبور دروب شتى ، وورود منابع سخية لم ينهل منها قبل الآن .

بعد فراغهما كان يأتيه من عالم أنفاسها التحية والأخبار المطمئنة ، اقترح أن يخرجا معا ، أشارت إلى ما بين ثدييها تكنى عن هويتها « أنا » ، تدعوه إلى العشاء ، تبسم ، كيف يمكن أن يخطر لها ذلك ، هو الداعى ، أبدا ، تشير بيدها إلى أعلى ، مطعم للسمك فوق الجبال القريبة من المدينة ، الطريق إليه بديع ، ليتهما يقطعانه قبل الغروب ، تتوزع قرى صغيرة على السفح ، لا تبدو للناظر الطرق الفرعية المؤدية ، فكأنها منقطعة عن الاتصال ، كل قائمة بذاتها ، عوالم متباعدة ، قصى كل منها عن الآخر ، منزل على الطريق ، وحيد ، خشبى ، أمامه تخطو امرأة عجوز متمهلة تحمل سلة ، ترتدى معطفا وتحيط رأسها بطرحة قاتمة ، يتابعها أثناء حركة السيارة حتى أنه يستدير إلى الخلف حتى لا تغيب عن بصره ، بينما المنزل ينأى والمرأة تتوارى ، تتطلع إليه صاحبته دهشة ، ما الذى يدعوه إلى التحديق ؟ لا يبدى إشارة تشرح ، أو حتى إيماءة تفسر ، أما أنا فتساءلت أيضا عن الدافع ، انشغلت به غير أننى لم أقف على التفاسير ، وإنْ شكلت هذه الرؤية العابرة فى تراثه علامة ، إنهما يغادران العربة عند محطة قرب منحنى ، للصمت الجبلى هيبة ورسوخ ، طريق ترابى مهدته الأقدام وتوالى السنين ، يمر بغابة تنحدر أشجارها وحشائشها وزهورها ، يتنوع الضوء من بقعة إلى أخرى ، يعبق الفراغ برائحة رطوبة ، رائحة نباتات خضراء شتى ، ندية فأستعيد وجدا قديما كان ممكنا ألا يبعث أبدا لولا إيابى وحلولى عند أصلى هذا .

هنا يبدو المكان لناظرى غريبا ، كأنى فى وقت ، ونظرى يقع عليه فى وقت آخر ، كأنى يقظ وأراه ، فالأرض مترقرقة ، موجة إثر موجة ، والأشجار من ظلال وأصداء ضوء ، والأصل أشرف من الظل ، لأن الظل تابع ، وقد يوجد الإنسان أو الشيء بلا ظل ، لكن لا يمتد الظل إلا فى أثر أصل ، وربما يكمن هذا وراء حنق الذى يهب فجأة على جمال ، فلولاه هو لما جئت أنا ، ولولا معراجه لما كان نزولى ، ولولا ذهابه لما صار إيابى ، وما تم من أفعاله لا حيلة لى فيها ، ولا قدرة على تبديلها ، أما ما تبقى فمحكوم بما انقضى من المدة .

ها هو ذا يظهر فجأة ، عاريا تماما كالحقيقة الناصعة ، على وجهه تعابير لم أطلع عليها أبدا فكأن كل ما مر به من أحاسيس ومشاعر شتى ورقائق لا تبين وتجل عن الإفصاح . كأن كل ما تردد داخله أخذ أقصى مداه فلم يعد هناك مزيد ، تضيق قسماته بما يعتمل داخله فيصرخ ويطلق أصواتا غريبة كالطبيعة عندما تستعصى على الفهم .

أرى صاحبته تعدو أمامه ، تمد ذراعيها فى اتجاه ذراعيه ، كأنهما يتعلقان بخيط لا يمكن للرائى إدراكه ، أرى إدراكه لها ، تقلبهما فوق الحشائش الخضر ، تنفذ إليه رائحة الأرض الخصبة والندى المتكون على الأوراق والمختلط بالتراب المبتل ، والثمار المتساقطة التى لا تمتد إليها يد فيتغير لونها ، يمرغ رأسه على صدرها ، بسرعة خاطفة يلثم حلمتيها ، يتقلب فوق ذراعها الممتد ، ينتقل إلى الأرض فيستمر وكأنه لن يتوقف أبدا ، يزعق ، يجعر ، تبدو منه أمور يخيل للناظر من بعيد أنها متنافرة ، تتسرب إليه رائحة اليزابيت فتمتزج بعبير الزرع والبلل ورائحة الطير الساكن ، يذوب هذا كله فى رائحة ما لا يمكن إدراكه بالنظر ، يعتبر هذا دليلا على سلامة مشروعه ، وعلامة على صحة

وجوده ، وبرهانا على حقيقته واتساق نظامه ، انه يتدحرج مبتعدا عنها ، ملتصقا بالأرض ، متشربا ذراتها .

عند حد بعينه يبدأ غوصه وتواريه مع كل دورة يدورها ، حتى يغيب عنى تماما ، بينما تقف صاحبته متطلعة ، متجردة ، مثال على النشأة الكمالية ، متممة لما حولها من عناصر ، مستوعبة وملخصة لها . أعجب فوق عجبى ، فمن لى بالإيضاحات المكنونة ؟ ، ما أطلع عليه من تراث يمت الآن إلىّ ، غير أن علمى به شاحب ، وعندى منه شبهة ، فجل من أوضح الأمر وكفى الإنسان مشقة السؤال ، غريب أصلى فكأنه جمع الفوق والتحت معا ، فلا جهات له أو عنده ، إنه ينبوع أمامى أراه ثانية فكأنه لم يغب عنى أبدا ، يجلس إلى صاحبته هذه فى مطعم السمك النائى .

يرهف أذنيه لخطى مجهولة تدنو وتبتعد .. إنه يجاهد لرصد مرور الوقت ، ليس فى تغير المظاهر وانتقالها من طور إلى طور ، من ليل إلى نهار ، ومن نهار إلى ليل ، ولكن الوقت السارى ذاته ، تبتسم ، يبدو أنها تستفسر ، هل أعجبه الطعام ؟ يشير إلى المرق الأصفر المزز الطعم ، أسمعه يقول : من أجل هذا المرق سيجىء مرة أخرى إلى البلد . يطلب مقدارا آخر ، ينهم حتى يشرع فى شرب كوب منه بلا خبز ، توقفه ، فى المرق زبد ودسمه شديد ، هذا ضار ، أما النبيذ الوردى المثلج فاجتاز به المدى وطفا ورقق من قسوة الموجودات وكشف عن قبس مما يختفى خلف الأشياء مما يصعب إدراكه بالبصيرة الإنسانية ، هذا حاله ، يأكل المتاح له ، لا يأنف ولا يمتنع ، حتى إذا واجه الطعام المتقن تمهل وتقصى وتمعن ، فكأنه اعتاد ذلك وجبل عليه ، إن قلبه يخفق ، وهلعه يشب خوفا على اللحظة أن تنقضى ، فيرفع الصوت بغناء شجى راجيا تمهلها ، ومضيها هونا ، تلك اللحظة بالذات ، اللحظة

الاستثنائية ، غير المدرجة فى الخطة ، غير أن الحال لا يدوم ، الوقت حاد ، وقانونه الأبدى الفوت ، وفهمه مستعص على الكافة .

أراه يمشى فى طريق عريض تحفه مبان شاهقة تحجب المدى الأتم والأفق الأوفى ، هى إلى جواره ، تحمل حقيبتها الصغيرة ، منذ قليل اتحدا ، تضاما ، تمددت فوقه بعد همود ه ، قبلته ، ناغته بلفظ مجهول عنده وإن ألمح إلى مدلوله ، رأى عينيها تترقرقان ، فوقع به كمد ، قدمت إليه صورتها ، خطت عنوانها وعنوانه .

الآن يقترب افتراقها ، سترحل بعد ساعة ، هى فى اليوم التالى ، بالأمس عقد النية على اصطحابها حتى المطار ، أما الآن فيود الانفراد ، الفندق قريب ، يبدى أسفا واعتذارا ، المؤتمر ! ، لقد نسى جلسة ما بعد الظهر ، آهتها حسرى ، تقبله دامعة ، ملامحها أصدق منه ، يتمنى انتهاء اللحظة ، غير أنه يبدى الجزع عند الافتراق ، راغب هو فى ولوج غرفته ، فى اغلاق بابه ، أن يغفو اغفاءة الظهيرة ، ولكم ضيعت منه هذه الإغفاءة ، ولهذا تفصيل وشرح سيأتى فى موضعه .

تتراجع بظهرها متطلعة ، ملوحة ، معلنة بدء الهبوط ، تلثم يدها تجاهه ، تصطدم بفتاة مسرعة ، تنتبه ، تولى وجهها شطر السفر ، حتى المنحنى التفتت خمس مرات ، ولوحت خمس مرات ، دارت عند الناصية ، والنواصى تحجب الرؤية ، وتضع الحد بين الجمع والفصل ، ولما اختفت نزلت به سكينة ، والسكينة جمود ، وهى مطالعة الأمر بطريق الإحاطة من كل وجه ، وما لم يتم ذلك فالسكينة لا تصح ، وكما خبرها العرفاء ، أصحاب الطريق ، هى الأمر الذى تسكن إليه النفس لما وعدت به ، أو لما عرفت منه ، وسميت سكينة لأنها إذا حصلت قطعت عنه وجود المبوب إلى غير ما

سكنت إليه النفس ، ومنه سمى السكين سكينا لأن صاحبه يقطع به ما يمكن قطعه ، وهذا اللفظ كما أوضح الشيخ الأكبر محيي الدين مشتق من السكون وهو الثبوت ضد الحركة ، فالحركة نقلة ، والسكينة تعطى الثبوت على ما سكنت إليه النفس ، ولو سكنت إلى الحركة فليس ذلك حقيقتها ، ولا يكون ذلك إلا عن مطالعة أو مشاهدة .

هذا ما جلاه الشيخ وأوضحه ، غير أن سكينة أصلى غريبة ، هى ليست نهاية أو استقرار أمر ، إنما بداية فورة ، وعتبة مؤدية ، ليست بداية طمأنينة .. ولكن نهاية ، إنها أشبه بصمت المحزون المفجوع قبل تفجر حزنه فى صراخ أو نواح ما بعده بعد ، فهى إذن إلى البهت أقرب ، إنها لحظة الصمت الذى يسبق الدوى ، أو سكون ماقبل الزلزلة .

بعد اختفائها ، وإدراكه فجأة انقطاعها ، تنفذ برودة إلى صميم نخاعه ، يمر به كثيرون لكنه لايرى أحدا ، فارقته .. إنه المعنى الوحيد الذى طن وعم وطم داخله ، يتساءل بصوت مرتفع غير عابئ بمن حوله ، كيف ضاق بها ؟ كيف ألتمس الحجة ليعتذر عن آخر وقت متاح للرفقة ، للصحبة ، للقربى ، كيف ؟؟ .

يعدو منقلبا إلى حيث ولت ، اختفت ، موجودة وغير موجودة ، راحت وراح الوقت الذى حقق فيه ما حقق واتحد وانطلق ، كأن الوقت لم يكن ، يرقب الوجوه ، نساء ، فتيات كثيرات ، لكن ملامحها تائهة ، بينه وبينهن هوة سحيقة .. يجول الطرقات ، يلج باب الفندق عند الغروب ، فى حلقه مرارة ، وفى صدره وحشة ، أما روحه .. ففى خلاء ، بمخيلته حاول أن يعيش وقتها ، سفرها ، اجتيازها البوابات ، وصولها ، إذ يستعيد لحظة دخوله غرفتها ورؤيتها متكومة ، متوحدة ، منفردة ، يسب ذاته ، يضيق بما سلك

فى هذه الليلة حكى لصحبه عنها ، داعبه البعض ، وأصغى إليه الآخرون وفى عيونهم حسد ورغبة ، وقبل مغادرته البلد خط بطاقة إليها ، شيعها صندوق البريد فى المطار ، وما بين يوم وصوله ونهاية الأسبوع الأول ، خط كل يوم خطابا أودع سطوره ماتيسر من كلمات أجنبية يتقنها ، مشى أمام المتاجر هونا ، يتوقف عند كل شىء انثوى فينوى شراءه وإرساله إليها ، فإذا رأى ثوبا مليحا تخيلها فيه ، وإذا لمح حقيبة أودعها يدها ، وإذا عاين قرطا ذهبيا استدعى إلى ذهنه أذنها الرقيقة التى يشف تكوينها عن الشعيرات حاملة الدم داخلها ، بل إنه مضى إلى مكتب البريد واستفسر عن ارسال الطرود وأسعار الرسوم ، ومقادير الأوزان .

فى المقهى حدث الصحب عن وقته معها ، وأثناء حكيه لا يصدق ما مر به ، كأنه يقص عن شخص آخر ، فيعيد الرواية ممعنا فى ذكر التفاصيل ، كأنه يود أن يصدق نفسه قبل أن يصدقه الآخرون ، وعندما تسلم أول خطاب منها مشى فى الأرض فرحا وبسطها كل البسط ، ولما قرأ أنها ستتعلم العربية حتى تكتب إليه ، وأنها سوف تنتظره بصبر ، دمعت عيناه تأثرا ، وهجم عليه حنين طاغ ، فاستعاد ملامحها عند بلوغ وهجها اكتماله ، كان ملتاعا بالفقد ، فلما رأيت حسرته واطلعت على دقائق كلومه ، واستوثقت صدق أوجاعه ، وقع عندى النفور منه ، فتمنيت لو أخلعه عنى ، وأن أطرده منى ، أن أهج منه فلا يكون لنا اجتماع قط

لماذا لا يكون إدراكه للأمر إلا بعد الفوت ؟ ، لماذا يصل إلى مشارف الجفوة ، حتى إذا مرقت منه اللحظة وصارت إلى عدم محض عاظ واستغفر وسعى وتأثر ، تمنيت الفراق ، أن أمضى إلى حالى ، وأن أدعه ، فهذا طبع مغاير لما جبلت عليه ، مخالف لميراثى ، لكن إلام يصير الأمر لو انفضت

الصحبة ، وما قدومى إلى هذه الحياة الدنيا ، وما نزولى ، إلا لأكون هو ، وهذا أمر دقيق ، عسر تفصيله ، وعر شرحه .

لم أدر أن ما ينتظرنى فى هذا الحال أفدح ، وأن ما سيتقلب علىّ أصعب ، إذ ألممت بما تعاقب عليه خلال ثلاث سنوات أرضية من مشاعر ورؤى تخص هذه البنية ، وما عنده تجاهها ، قرأت الصفحات المتبادلة ، تابعت فى الوقت عينه جهدها ودأبها لتعلم اللسان العربى ، حتى رأيت منها خطابا وصله خطته هى بالفصيح من الكلمات ، أكبرت عزمها ، وقدرت جهدها .. كفاحها تقصيت جهده ، وادخاره المال حتى يتم سفره وسعيه إليها ، حتى تلك اللحظة ، وأصبح إقلاعه إليها وشيكا ، ميعاد الطائرة لم يتغير ، أما المطار الذى نزله وكان نقطة عبور فقد صار هدفا له هذه المرة ، إنه يتأمل الطريق المؤدى إلى المدينة ، يراه لأول مرة ، وما أمتع إحساسه وتلقيه لأرض يطؤها أول مرة .

اليوم سبت ، تبدأ العطلة الأسبوعية ، يرن الهاتف فى مكتبها وما من مجيب .. اذن .. فلينتظر حتى صباح الغد ، الوقت الآن متأخر والليل يدنو . يخشى أن يضل ، يؤثر البقاء بمفرده ، ناء بالوحشة ، لا يعرف أى إنسان فى هذه المدينة عداها ، يشتد وَطْءُ الغربة ، عرف مثل هذه الدرجة من بعض الانفراد عندما اغترب عن أهله أول مرة لما أصدروا أمرا بنقله من عمله فى القاهرة إلى المنيا بوسط الصعيد ، وألزموه التنفيذ فى أربع وعشرين ساعة ، وهذا أمر يطول شرحه ، وله موضعه ، يتضاعف إحساسه أنه منبوذ ، بعيد عمن يعرفهم ، عن الألف والإيلاف ، زحام الناس فى الطرقات ، وأصوات حديثهم فى الفندق لا تزيده إلا شجنا وحسرة وإحساسا بالغربة .

فى الصباح الباكر كتب العنوان على مظروف خطاب ، حتى يوحى لمن

يسأله أنه يحمل رسالة يريد توصيلها ، بدأ يستقصى ويستفسر ، ركب الترام العتيق البطىء حتى يدخر ما لديه وهو قليل ، مشى مسافة يتابع أرقام البيوت ، المنازل قديمة ، متساوية الارتفاع ، جهمة الواجهات ، مغلقة النوافذ ، يعلو بوابات بعضها تماثيل وزخارف جصية ، يتوقف أمام مدخل فسيح يحمل رقما ، الثامن والثلاثين ، إلى هنا كانت تصل رسائله ، امرأة تمسك مكنسة ، تومئ مجيبة ، تشير بيدها ما يعنى طول القامة ، الطابق أرضى ، مصعد عتيق معطل ، تراكم عليه غبار كثيف ، أنا فى لهفة وتوق حتى أرى ما يكون من أمره عند اللقاء ، تفتح الباب صبية فى العاشرة ، اليزابيث غير موجودة ، ذهبت إلى المتحف ، ستجىء بعد ساعة ، يعود ليمضى الهوينا فى الطرقات المستقيمة المتقاطعة القريبة ، يجهد لتثبيت علامات فى ذاكرته حتى لا يضل عودته ، مثل هذه اللافتة الزرقاء ، والصيدلية عند الناصية ، يطرق الباب مرة أخرى .

الساعة الآن ، الواحدة والربع ، على مهل تبدو ، فى ضوء المدخل الواهن مبتسمة ، مرحبة ، هى ، هى ، قدر لعينيه أن تقعا عليها مرة أخرى ، الثياب مختلفة ، أما أنفها فيبدو أطول قليلا ، لا يتقدم ، لا ينطق ، تقول بلسان عربى ذى عوج « تفضل » .

فى كينونتها دعوة ، تبدو منبسطة كمروج أخضر ، هادئة كلحظة وصول ، يدخل ، يعبر صالة تعبق بالقدم والبعد عن ضوء الشمس ، غرفتها قرب المدخل ، ضيقة ، أريكة النوم لا تدع إلا فراغا محدودا لا يتيح الحركة ، حقيبة يطل منها ثوب ، مظاريف خطابات ، طوابع بلدان مختلفة ، قعدا متجاورين ، لا يتكلم ، يهدئ رفيف قلبه ، تقبله ، تقول إن خطابه وصلها صباح الأمس ، يقول دهشا إنه أرسله منذ شهر أو أكثر ، ياطول المدة ،

يتطلع إليها ، كأنها تدرك مقدار اشتياقه فتفك قميصها ، تزيح تنورتها إلى أسفل ، يضطرب أمره ، فاللهفة تشغل الملهوف ، غير أنها تضم رأسه إلى صدرها العارى ، يبدأ عنده سرور إذ يستعيد عبيرها الذى لم يكن إلا مجرد ذكرى غير متيقن من تنسمه مرة أخرى ، تقول إنها آسفة ، لن تستقبله فى البيت إذ أن صاحبته تأبى وتمنع تردد أى صاحب ، يقول : لكن فى هذه البلاد يحق للإبنة أن تصطحب صديقها على مرأى ومسمع من والديها ، تقول إن هذا صحيح ، ولكن لهذه العجوز طباعها وقد اشترطت عليها ذلك ، عند استئجار الغرفة ، تقول إنها ستجىء إليه ، ما من مشكلة فى الفندق ، يسألها : هل تناولت طعامها ؟ تومئ ، يقول إنه جائع ، سيمضى إلى أى مطعم ، يصمت ثم يسألها عن صاحبها العربى ، وكأنه باستفساره نكأ جرحا ، إذ اعتمت عيناها الواسعتان فجأة وبدت عكارتهما ، وحاولت جاهدة أن تحوش دمعا أطل ، قالت إنه رحل منذ شهر واحد ، أتم دراسته انتهت فترته ، يطغى حزنها على ملامحها ، تقول إنهما عرفا بعضهما منذ أربع سنوات ، رعت شئونه ، إذا دعا صحبه أعدت هى المأكل والمشروب ، فى كل أحد يخرجان معا ، وأحيانا تقضى الليل معه ، تساعده فى نسخ أوراقه ، تقول متحسرة ، إنه منذ رحيله لا تدرى ما تفعل ، ما من صاحب لها فى هذه المدينة ، إنها من الريف ، الحياة فى قريتها رتيبة ، ظنت العاصمة تضج بالحيوية ، لكن الوقت ثقيل ، والناس متباعدون ، والرفقة ضرورة ، أيام الأجازة تخشاها ، تمضى بدون أن تخاطب إنسانا ، وعندما تضغط عليها الوحدة توشك أحيانا على الصراخ ، لكن من سيحنو ، من سيدرى بحالها ، الناس بمعزل عن بعضهم البعض ، وكل منهم ينأى عن الآخر ، يتساءل ، لماذا لم تسع إلى صاحب آخر ؟ لماذا لا تتزوج ؟ تقول دهشة ، الأمر ليس

سهلا ، أما الزواج فصعب ، ولابد من وفاق ومدة وترتيب .

استنكرت منه هذا السؤال ، استفسار غريب ، كلما ضقت بما يبدأ عنده الآن ، إنه يراجع نفسه ، بل .. يلومها ، أمن أجل هذه اللحظات أمضى ثلاث سنوات من اللهفة والتأجج والكد وتفصيل الخطة كى يراها مرة أخرى ، كم من اللحظات خيل إليه أن مامضى بينهما لم يتحقق فى عالم الواقع ، إنما خيال مر به ، أو رواية أصغى إليها من صاحب له ، ها هى ذى الآن أمامه ، عارية ، ضعيفة ، مهجورة فى هذه الحجرة التى لا منافذ لها ، أما حديثها إليه فشكوى إلى ذاتها ، كأنها لا تسعى إلى المجاورة ، إنما إلى من يصغى إليها ، تفض حملا طال عليها ثقله ، تبكى صاحبها الراحل بعد ترحيبها بقدومه ، بل إن حسرتها على من رحل تفوق فرحها بمن جاء ، يبدأ تحامله عليها ، يسيئ الفهم ، يقصر عن الإدراك ، والمعروف أن كل محب لا يشغله وجود المحبة عن وصال الحبيب ، وفراقه تكون محبته معلولة ، أتمنى لو سعى فى هذه اللحظة إلى سد جسور الوصل ، فاقترب منها ، وكفكف شجوها ، ولثم شعرها ، وحنا ، وترفق ، وددت لو أنه أصغى ، لو حاول مداراة الجرح ، ربما تفتحت له طرائق لم يدر بخلده أبدا وجودها ، ربما تغير الترتيب ، غير أنه لزم الصمت ، صار فى شرق وهى فى غرب ، والشرق فى محل والغرب فى محل ، لذا لا يجتمعان ، لأنهما نقيضان .

لم أدر كيف فارقها ، أراه فى طرقات المدينة بمفرده ، فى المقاهى ، فى مطعم هنا وآخر هناك ، فى محال الوجبات السريعة ، الغريب أنه يحلق فى وجوه الفتيات وهو ظامىء ، لكنه لايتحدث إلى أحد ، يحصى الأيام المتبقية على رحيل الطائرة التى تقلع كل أسبوع إلى موطنه ، لحظة دخوله الفندق يتسلم رسالة جاءت ، سعت إليه ، الرفقة متاحة ، ويومه كله يدور فى

الطرقات قاطعا ممرات الحدائق العامة متأملا الغرباء عنه ، حيث لا صلة ولا جسر ممتد فما أعجب أمرك أيها الإنسان ، إذا كان الإعراض عن المجالسة يورث موت القلب ، فكيف يكون الإعراض عن الإلف .

يلوم نفسه لأنه شغل بها ، لأنه لم يعدها مغامرة عابرة ، ورؤيا مارقة من رؤى السفر ، كان يجب أن تنقضى مع تمام وقتها ، يمضى نومه معتما ، ثقيلا ، بلا أحلام ، كاره نافر من المدينة الغريبة عنه ، غير أنه استيقظ صباح اليوم السابق على سفره تماما وقد انقلب حاله ، لم يستطع أن يتذكر تفاصيل حلم غامض عاشه وصحا متأثرا به ، حلم محوره هى ؛ لكن أين رآها ؟ .. فى أى حالة ؟ لم يتبين ذلك ، هرع إلى الطريق ليلحق بها قبل خروجها ، الوقت باكر ، والصباح مندى .. هذا ضباب الغربة ، كل ماض فى طريقه ، مشغول بأمره ، يفيض أمره حتى يحدث نفسه بصوت مرتفع ، غير عابئ بالناظرين ، «لكم أنا أحمق ، غبى ، كيف ضيعت هذه الأيام الثمينة كيف بددت ما بددت ؟».

عند ناصية الطريق يجرى ورائحة بن قوية منبعثة من مقهى قريب ، زحام تحت مظلة المحطة ، يتمهل حتى يتفحص القادمين الواقفين لا .. ليست بينهم ، هذا ما تراه صباح كل يوم عند خروجها ، يتخيلها إذ تخرج وحيدة ، مسرعة ، تحمل حقيبتها الصغيرة ، تخرج إلى يوم من أيامها المكرورة .. المعادة ، المصعد ما زال جاثما ، طفل صغير يحمل حقيبة ممتلئة بكتب وكراسات . فوق ظهره ، يتردد رنين الجرس ، الرطوبة عميقة والضوء غميق فى هذه الساعة المبكرة ، وحركة الطريق تبدو نائية مع قربها ، بعد فترة يفتح الباب ، العجوز تبدوغاضبة ، مزمومة الشفتين ، يلفظ اسمها « اليزابيث » ، مستفسرا عنها بنظراته وملامحه ، تقول باختصار كالبتر « ماتت .. » .

تغلق الباب ، لم تتح الفرصة لكلمة ، أو التفوه بحرف ، أراه ثابتا ، غابت اللحظة وما تحوى وبقى المعنى ، انمحت الصورة وانطمس الظل ، أنا لم أدر ، هل أشفق عليه أم ألعنه فى وقفته الجامدة هذه ، أم أوبخه لو أتيح لى ذلك ، تابعت خطوه المتعثر ، وكدت أبرك لثقله الذى حط عليه وداهمه ، أليس حمله حملى؟ لم يصدق المرأة ، غير أن إحدى زميلاتها أخبرته عبر الهاتف أنها انتحرت ليلة الثلاثاء ، أول أمس، أى بعد ساعات من مجيئها إلى الفندق .

عند هذا الحد أبيت الاستمرار فى المشاهدة ، ورجوت من بيده الأمر تقلب الحال علىّ ، أشهدت هذه البنية تخفيفا وتيسيرا لأمرى ، غير أن ما عاينته انقلب علىّ ، فزادنى كمدا . أيتها النفس أجملى جزعا ، إن الذى تحذرين قد وقعا ، بأى شىء أدرك هذا وأعقله ؟ ، العقل ، القلب ، إذا سمينا العقل قلبا ، فذلك ليس العقل ، وإذا اعتبرنا الروح قلبا فذلك ليس القلب ، وإذا قيل إن العلم قلب ، فهو ليس بالقلب ، اذن .. لا توجد منه إلا العبارة ، فبماذا أعقل واستوعب ؟ .

تغمرنى الرغبة أن أطلع على طفولتى ، أن أصير أولا ، لا أعى قديمى لأنه ما من قدم يمكن الوعى به بعد ، لا أنشغل بالخطر المحتمل ، غى لا أعى الجفوة وقسوتها ، لكن أنّى لى ذلك وأنا مثقل بحاضرى ، وحاضر غيرى ، وماض يخصنى ويخص غيرى ، ومستقبل أنا جاهل به ، فحظ المشاهدة ما أبصرت وما سمعت وما طعمت وما شممت وما لمست ، وحظ الكشف ما فهمت من ذلك كله ، وما فهمت فهو أمانة ، وإن كان البنيان على اليقين أحوط ، ذلك أن مذهبى فى كل ما أورده أنى لا أقصد لذة بعينها دون غيرها ، مما يدل على معناها إلا لمعنى ؛ ولا أزيد حرفا إلا لمعنى فما فى كلامى

بالنظر إلى قصدى حشو وإن تخيله النظر ، فالغلط عنده لا فى قصدى ! .

بلى ، ولكن

.. ثم أنى وجدت نفسى فى زمن لا يمكن تعيينه ، رأيت دليلى ، فهممت نحوه ، لكننى لم أتقدم ولم انتقل . فعرفت أننى معاين فقط ، رأيته يقف بساحة الجامع الأزهر ، وسط الصحن المكشوف ، تحنو عليه مئذنة قايتباى ، ومئذنة الغورى ذات الرأسين ، والبوائك كلها ، وعلى مرمى النظر داخل الجزء القديم المغطى ، تحت المحراب ، والمنبر الذى أعلن منه الجهاد عام الحرب التى شهد أصلى أيامها ولم يعش وقائعها ، إنه يرتدى لباسا أبيض ، والناس يهرعون إليه ، يدخلون ويبايعونه فلما خفوا ، أتانى الأمر فتقدمت نحوه ، وأخذ بيدى ، قال لى :

« أتعرف من ينادى كما أنادى ؟ » .

أبدى الغفلة ، وقلة الفهم .. يقول :

« ابن أحمد الغيطانى ، من هو أنت .. » .

أقول :

« نعم .. » .

يقول :

« إنا أمرناه بأمر ، فقل له ، ياجمال ، انهض لما أمرك به دليلك .. » .

أقول :

« لكنه راحل .. » .

يقول :

« ألست مقيما فيه ؟ » .

أجيب :

« بلى »

يقول :

« إذن ، لا تحد عن الخطة » .

نصير بمفردنا ، إنها المرة الأولى التى تخلو فيها ساحة الجامع الأزهر من كل مخلوق منذ أن خط بنيانه ، يبتسم ، يبدو رقيقا كلحظة ميلاد الندى الفجرى ، رأيت طلاّته التى صارت قديمة ، وقوفه فى الشرفات متطلعا إلى حشود جمة ، انتظام الخلق على جانبى طريقه ، واختفاء النواصى بالكثافة البشرية ، إذ يهل ينبثق من الجموع تهليل وتكبير ، هذا الانبثاق أين ولى؟ هذا الغرس أين راح ؟، أكف ولا أفيض حتى لا أكشف ما طلب منى ألا يهتك سره .

يقول :

« بلغ الرسالة ولا تحد .. » .

أستفسر معاتبا :

« لماذا قسوت ؟» .

يجيبنى :

« ما كان كان .. » .

أهم لأستأنف المجادلة ، لكنه يقول بنبر فيه عتاب وتحذير :

« من دليل من ؟» .

أنتبه إلى تجرؤى ، وإبدائى عزم القناعة ، تلك خاصية لم تكن بنفس القدر عند سلفى . فعندما أتبع سيد الشهداء ، ومن بعده سيد العارفين الإمام

الأكبر، لم يبدر منه إلاّ التساؤل، وخشية التابع من المتبوع الذى هو أعلى منه مرتبة ، وليس له أن يسأل عما يظهر منهم أو يعرض لهم ، فما عندهم ، وما ظهر منهم يخصهم وليس له أن يدخل فيه ، غير أن حالى مختلف ، إنى قادر على المجادلة ، وابداء الحجة ، ذلك أمرى ، ربما تعلق التصرف بالمرتبة ، فلسيد الشهداء السبق المطلق والمنزلة الأعلى ، يليه الشيخ الأكبر ، ثم .. دليلى هذا ، تفاوتوا ، لكن جمع بينهم طريق الجهاد الأعظم ، وقد ثبتوا فيه وتمكنوا .

هنا .. عند هذا الحد من ذلك التقييد خرج الأمر عن طوعى ، وبدأت أتلقى ما يملى علىّ ، فأكتبه بلا مجادلة ، وكان الأمر كذلك .

« .. لما كانت الأمور مقسمة إلى مراتب ودرجات ـ أنظر إلى تركيب العالم ـ لذلك كان المسبب والسبب . من هنا كانت هذه اللحظات المارقات الأولى . المتبقية فى وعى سلفى وأصلى ، السابقة كل ما عداها لذا كانت لها الأولوية والسبق ، ولأنها مرتبطة بهذا السطح كانت أقرب إلى السماء ، إلى الأفق النائى ، وقد فرغت من تأمل لحظة موقعها هذه الليلة من ليالى حرب فلسطين ، ولحظة أخرى لم أدققها ولم أتمكن منها ، وإنى لماض الآن إلى لحظة متبقية ، ما قبلها وما بعدها مطموس الملامح ، لكننى على قدر طاقتى واجتهادى سأحاول ، فذلك شرع لى ، حتى وإن كللت ، فكل مذكور من الناس إذا ما فقدوه ، صار فى حكم حديث حفظوه فنسوه ، هذا أصلى ومنطلق ! .

إنى ملازم الآن هذا السطح ، غير بارحه ، أحيانا أراه بعينى سلفى ، وهو طفل بعد ، إذا به فسيح ، يقطعه فى خطى عديدة متتابعة رأسه لا يبلغ سوره ، لايرى ما وراءه ، أراه أحيانا بعد بلوغه العمر الأشد ، فإذا به ضيق

يمكن قطعه فى ثلاث خطوات ، وإذا به رث ، بال ، تتخلل الشقوق حجارته ، طلاؤه تقشر ، وذرات الرمل تفككت ، انكشفت جذوع الخشب العتيقة التى تصلب البيت ، تأهبت للنزول إلى الطوابق السفلى ، لأرى جيران العمر الأول ، لكننى تذكرت الأمر ، ان ألزم الخطة ، فعرجت إلى تلك اللحظة ، إنها بين بين ، لا شتوية غائمة ، ولا صيفية حارة ، ولا خريفية تميل طورا إلى صيف وتارة إلى شتاء ، أرجح خريفيتها ، والخريف فى موطن أصلى فيه حنية على الخلق ، تهب نسائمه رقيقة لطيفة فتبعث مكنون الذكريات ، يخطب بها الود ، وتميل عندها القلوب على بعضها ، إذن .. استعصت هذه اللحظات على الفناء .

اعلموا أنه ما من زمان يذكر أو يستعاد إلا ومكان ملازمه ، فلابد من مكان يحتوى الزمان ، ولابد من زمان يوجد فيه المكان ، وإلا كان الهباء ، وإلا صار العدم هذا مقطوع به ، فانتبهوا إلى ما أخفيته بين سطورى ، فكثير أشير إليه ولا أبسطه .

تلك إذن الغرفة ، الباب مغلق ، رائحة الجير قوية ، لم يجف بعد ، لذا حذر الأب من الالتصاق به ، أو الاستناد إلى الجدار ، خاطب بذلك الأم والطفل الذى هو أصلى ، أو بمعنى آخر أنا ، الوجود لأربعة ، الرابع إسماعيل ، عمره أربعة أو خمسة شهور ، إنه العام الثامن والأربعون من هذا القرن الذى ولد أصلى قرب منتهى نصفه الأول ، ولا أدرى الآن هل أنا متمه أم لا ، فلا علم عندى بما قدر له أن يسعاه ، لا تدرى نفس ماذا تكسب غدا ، ولا تدرى نفس بأى أرض تموت ؟.

لون الطلاء قريب من زرقة سماء صافية بلا كدر ، هذا لون مالت إليه الأم وارتاحت إليه ، الشريط المستطيل المحاذى للأرض ، أزرق غامق ، هذا

عصر ، الضوء واهن ، والأصوات ضعيفة ، الأب يمسك أحد أعمدة السرير الحديدية ، هاهو ذا أصلي ، من هو أنا . مرتديا جلبابا أبيض تتخلله خيوط بنية اللون ، خط عريض وخط نحيل ، يبدو أن أصلي حاول المساعدة ، لكن الأب أبعده ونحّاه ، تلك ملامحه بعد إقصائه ، خشية عليه من سقوط عارضة السرير فيمسه أذى ، الأب والأم ينصبان السرير ، أربعة أعمدة سوداء اللون ، كل منها ينتهي بغطاء مخروطي الشكل ، نحاسي أصفر ، في ركن الحجرة ثياب مكومة بترتيب ، إنها فراش لإسماعيل ، لا يتقلب ، إنما يحرك يديه وساقيه ، ملفوف في رداء أسود ، عيناه واسعتان ، تتعلقان للحظات بالسقف ، تستديران حولها ، تتحولان إلى نظرة جانبية ، أى شيء يرى ؟ وكيف يرى ما يرى ؟، هذا مالا يمكن معرفته أبدا ، لا أرى الأخ الأكبر كمال لأنه رحل ، وهنا ورد عليّ قوله تعالى ، « وجوه يومئذ ناعمة ، لسعيها راضية ..» .

وكان ذلك إيذانا بسماعي صوت الأم ، أصغيت وأنا أنظر إلى أصل نفسي : لاتنس كمال أخاك ، اطلب له الرحمة ، واقرأ الفاتحة : اللهم ارحم الراحل الصغير الذى لا أعرف ملامحه ، ولا أذكر طرائق لعبه ومرحه ، وكيفية تعلقه بأمه وأبيه ، يقف أصلي ممسكا بشيء لا أتبينه .. لا أعرفه ، غر ، لايدرى أحوال أمه وأبيه ، أو طول حزنهما على فراق شقيقة كمال ، وأوجاعهما لرحيله المباغت ، غير مطلع على مكتمات الأب المحجوبة عن أقرب الأقربين ، أنا جاهل بنظرة إلى الدنيا في تلك الحقبة عموما وهذه اللحظة خصوصا ، فما أقرب الصلة وما أبعد الشقة ، ما أمتن الجسر وأعمق الهوة .

السرير مكتمل ، متين ، مرتفع ، الأم تعلق الستارة الدائرية المسدلة على جوانب السرير من أعلى ، أتأمل الشقيق الوضيع ، أطلع على سبب لفه في

هذه الخرق السود ورسم دوائر من البن الغامق على جبينه ، ووجنتيه ، وتفصيل ذلك حين جاء إسماعيل بعد سنة من رحيل كمال ، عندما وصل الخطاب من البلدة تسلمه الأب لحظة ظهيرة ، عبد المقصود أفندى قرأه له ، عند هذه المقصورة فى مدخل فندق الكلوب أصغى إلى النبأ ، اتجه إلى ضريح الحبيب ، وبين الركعة الأولى والثانية عزم وتوكل ونوى تسمية المولود الجديد : إسماعيل ، إذ تردد فى وعيه ترتيل كريم ، أصغى إليه والظلال خاشعة والحضور خفيف والقلب حسير.

«يا أبت افعل ما تؤمر ...» .

«وفديناه بذبح عظيم ...» .

بعد فراغه من صلاته ، وخلوه إلى وحدته ، تمعن فى مجىء إسماعيل ، فى مغزى الأخذ والعطاء ، استعاد ماورواه الشيخ عبد اللطيف فى البلدة ، بعد أن انجبت هاجر إسماعيل كان بهما ظمأ شديد ، حرك قدميه كسائر الأطفال ، ضرب كعبه الأيمن الأرض فتفجر نبع مبارك ، إنه بئر زمزم ، جعلنا الله من الموعودين ، المصطفين ، الشاربين منه ، المرتوين من سلسبيل مائه . فى فراغ المسجد المغمور بالظلال ، المبتل بالسكينة .

فى هذه اللحظة قرر اسم المولود ، مجىء إسماعيل ذكره بميلاد المرحوم كمال رحل صغيرا فله طيب المثوى ، معفى من السؤال والحساب ، يطلب له الرحمة ويتلو الفاتحة على روحه ، فسبحان من أعطى ، وسبحان من استرد ، إنه يسامح من قلب صاف ، مندى ، غير قادر على احتواء الضغينة ، كما أن اليقين غير محدد ، هل يجزم أن صده عند باب البك كان سببا فى فقدان الولد ؟ . صحيح أن لكل شىء سببا ولكن الأعمال والآجال مقدرة ، بهذا آمن وسلم .

فى البلدة تطلب الأم من الجدة ألا تخبر بحقيقة المولود ، ترجوها إخفاء أنه ذكر ، أن تخبر عنه أنه أنثى ، واسمها فاطمة ، يكفى حرقة قلبها مرتين ، مرة على خلف ، ومرة على كمال .

هكذا ألبست إسماعيل رداء أنثى ، ولم تناده أمام الأغراب إلا بفاطمة ، على وجنتيه ، وضعت دوائر البن المحروق لتخفى ملامحه التى بدت جميلة ، لم تكتف بذلك .. إنما زارت الشيخ أبو درية الرجل المبارك ، صاحب والدها ، المنبئ ، الموقن بعودته ، طلبت منه أن يعد حجابا يقى ابنها شر العيون ويحميه من سوء الواردات ، طلب الشيخ مرارة حمامة بيضاء خالية من أى لون كدر ، وقطعة من سعف نخلة أنثى ، أتته بما طلب ، أعطاها حجابا مثلثا طلب منها أن تعلقه إلى صدره عند موضع القلب ، ألا يفارقه أبدا ، أن تخفيه تحت جلبابه بشرط ألا تقع عليه عينا امرأة أبدا ، خاصة إذا كانت ثيبا ، عندما جاءت به إلى مصر ، أخفته عن العيون ، لم تكف عن تلطيخ وجهه بالبن خشية الحاسدين ، وشرار الخلق أجمعين .

أرى لحظة مندثرة ، الأب متمدد ، عن يمينه أصلى ، وإلى يساره إسماعيل ، يقول أصلى : لماذا لم تسمنى باسم أحد الأنبياء كما سميت أخى إسماعيل ؟ ، يقول الأب : سميتك اسم أحد المجاهدين ، جمال الدين الأفغانى ، يتساءل أصلى : أهو نبى ؟ ، يجيب الكريم ، المغترب إلى الأبد ، « إنه مجاهد كبير .. » ، فيمتعض أصلى وينزوى حاسدا شقيقه على اسمه .

عند هذا الحد تجلت لى الأم ، وادعة الملامح ، عليها سدول حزين ، عاتبة المظهر :

« أذكر شيئا عن أخيك كمال .. » .

أتطلع إليها حائرا ، فالماعون ناضب ، وما من صور متبقية ، تقول :

« هذا أوان مناسب ، بعد ذلك لن تذكره أبدا » .

أدقق البصر ، إني راغب فى إرضائها ، ألا ترتد عنى خائبة لأننى لم ألب رجاءها ، أدركت أنها لم تتعرف إلى حقيقتى ، لم تدرك جذر هويتى ، إن الماثل أمامها صورة ولدها ، لم تعرف أننى مكلف ، مأمور بإتمام مدته حتى يقضى الله أمرا .

تقول بأسى :

« يعنى ما من ذكر لكمال ، ما من شىء عنه » .

أقابلها بصمت .

تقول وعتابها أشد :

« نسيته كما نسيت سورة يس ..»..

فوجئت ، كأنها ضبطتنى لحظة ارتكاب جرم ، كأنها فتحت الباب ورأتنى عندما كنت أنكح يدى تهدئة لجوى شهوتى واتقاد مراهقتى مع انعدام الوليف ، وهذا أشد ما كنت أخشاه واحتاط حتى لايقع ، غمرنى خجل ، وحيرة ، آن لى أن أقر ، أن اعترف بالنسيان ، باكتماله عندى ، ذلك أنى بعد رحيلها الذى قدر لى أن أشهده ، فى أيام المرارة التالية والأحزان عفية بعد .

قال أخى على الأصغر إنه رأى الأم فى الحلم ، جاءته بادية الشجن ، وطلبت منه إبلاغ جمال رسالة منها ، أن يقرأ من أجلها سورة يس مساء كل خميس ، أفضى إلىّ على بذلك فكدت أنوح لولا حرصى إبداء الجلد أمام الأشقاء ، وعندما خلوت إلى نفسى بكيت ، فأحيانا يكون طلب الأحبة المغتربين عنا هينا ، ميسورا ، بسيطا حتى ليثير الشفقة وغوامض الأحاسيس الأسيانة مع سرعة البت فى التلبية مساء كل خميس وقبل شروعى فى النوم أبدأ التلاوة ، داومت على ذلك عاما وشهورا ثلاثة ، لم أتقاعس حتى مع

سفرى ورحيلى خارج الديار. ثم بدأ الوهن يدركنى ويتمكن منى، فكنت أقبل على التلاوة كفرض أنا مكلف به وليس كتلبية شأن الفترة السابقة ثم اكتشفت صباح يوم جمعة أنى نسيت، فالتمست لنفسى أعذارا، اضطربت المواظبة، حتى جرى انقطاعى، ولم يعد تبينى النسيان يوخز ضميرى، ويؤنب داخلى.

اعلموا وفقكم الخالق، البارئ، الأعز، أن الإنسان حيثما ولى وجهه صاحب فوت، لأن الأمر لا يتناهى، وكل منكم فى الفائت المستأنف، أما الماضى فلا يرجع إذ لو عاد لتكرر ولا تكرار فى الوجود أصلا، لذا يتبدل كل شىء، يتغير، ويصير المحدث قديما، ويلف النسيان كل شىء، ليست المعانى والصور والخيالات وكل مالا يدرك بالحواس فحسب، إنما الموجودات المادية، ما يعرف منها ومالا يعرف، تضل الملامح فى الملامح، حتى يصير التعرف إلى أصل الثمرة أمرا مستعصيا.

هل يقدر أحدكم على تحديد شكل الشجرة من رؤية الثمرة معزولة عنها بعد قطافها؟، هذا صعب الثمر فى الفروع مخالف للأصول مع أنه كامن آت من الجذور المتوارية، والثمر ذاته يجب أن يجف ويضمر وأن يتلاشى متى تؤخذ منه البذور، الفروع لا تثمر إلا إذا بعدت عن الجذور، وفى طرحها تتغير الملامح وتندثر وان ظل جوهرها خفيا، المصاحب لهذا كله النسيان، وما كان عزيزا يهون، وإلا فهل مرور عام واحد على رحيل الكريم المجاهد يماثل الثانى أو الثالث؟ فادفن ما عندك، إن مالا يدفن لا ينبت!. عند دنو اليوم الذى به تكتمل السنة الأولى، ألم يطابق اللحظة على اللحظة؟ ألم يسع فى الصباح الحار إلى المثوى والمرقد؟ أما فى الرابعة فقد تباعدت الرؤى، ودنا الفراق من النواصى.

فى العام الأول مضى أصلى لزيارة المثوى ، غير عابئ بصهد الطريق ، وقفر الناحية ، وقسوة الشمس ، لكنه فى الرابع تقاعس ، تكاسل ، ولم يقم بالزيارة إلا بعد يومين من تمام الذكرى ، هذا ما جرى .. ما كان ، أما أحلامه التى هى رؤاى .. فلم يعد الوالد يطرقها إلا لماما ، وكأن المغترب الكريم يشعر بدبيب النسيان فينأى بنفسه حتى عن الدنو عند الغفوة ..

منذ يومين طبقا لميقات هذه الدنيا التى سميت دنيا لدنوها وسرعة زوالها ، كنت مجتمعا بالأشقاء ، قال إسماعيل إنه إذ يتذكر أباه الآن فيخيل إليه أن البون شاسع ، وأن الزمن الفاضل سحيق ، كأن أربعين عاما انقضت وليس أربعة ، أمّنت الشقيقة ، قالت إنها لاتراه إلا نادرا ، وإذا زارها فى الحلم يقوم بينهما حاجز غير مرئى ، حدثونى وهم يجهلون كنهى ، ولا يعلمون أن شقيقهم غرب وأقصى .

أصغيت كما كان يصغى ، حتى شرود عينيه صاحبنى ، غير أن ما ألقى فى معارفى لم أصرح لهم به ، لم أكشف عنه ، أخبرنى دليلى ، أن الإنسان إذا تم رحل ، وأنه كالراحلة يمر بمحطات ، واحدة إثر الأخرى ، لكل منها مقدار من الصعب أن نحسبه بقياسات هذه الدنيا ، كما أنها تختلف من إنسان إلى آخر طبقا للاستعدادات ولإمكانيات القبول العرفانية ، والقدرة على ثبات المدرك ، وطول الصون ، ظن أصلى أن أساه سيترف أبدا ، غير أن طوارق شتى نالت منه ، من مرض ، وغدر صحاب ، وعسر حال ، وقلة مال ، ومضايقة عسس ، وبزوغ ملذات .

مما عرفته أن المراحل تكون أربعا أو خمسا ، لكنها لاتزيد على سبع أبدا ، وعند بلوغ الأخيرة تنخ الناقة وتبرك الراحلة ، ولا يكون لها قيام صوب الاتجاه عينه ، قد يوازى ذلك فى دنيا الحس اختفاء آخر إنسان فى عالم الحس يكتنف

فى وعيه عبارة أو ذكرى أو لحظة تتعلق بمن وَّفى وتم، عندما أتساءل ـ ومن طبعى ألا أكتم أبدا ـ حتى وإن أودى ذلك بى . ألم أطرد من مقام عزتى لأجىء غريبا لأصير من أجهل ، لأكتشف نفسى خطوة إثر خطوة بعد أن كان الأمر بملء يدى ، وجلّه معى ، أتساءل الآن فأقول : ما حكم الإنسان الذى يسعى ، ألا ينحدر من جذع لا يدرى عن جذره شيئا ، لم يرها ولم يطلع عليها ، ثم ما حكم هؤلاء الذين لاتغفى عنهم العيون ولا تنام؟ لا تنساهم الأفئدة ، وقد عرفت بعضه منهم ، إما بالقربى أو المصاحبة ، ومنهم ، مولانا سيد الشهداء ، وشيخنا إمام العارفين محيى الدين ، كذا نصير المستضعفين جمال بن عبد الناصر.

هنا يتلى فى مسامعى وفى قلبى :

« يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار .. » .

هذا خوف الزمان .

« وهنا أصغيت إلى من ينشدنى بعضا مما فاض به مولانا جلال الدين الرومى ، وهذا ما ناسب حالى ، استسمحكم واستأذنكم فى ذكر بعضها تبركا وتزيينا لهذا التدوين ..

استمع إلى الناى كيف يحكى
ويشـــكو آلام الـــفـــراق
منذ أن اجتزونى من منابع القصب
بكى الرجال والنساء من تصبرى
أريد صدرا ممزقا من لوعة الفراق
حتى أبثــة ألم الهجـر والاشتيـاق
كل من وقع بعيدا عن أصله

يـــطـــلب أيـــام وصـــلـــه
لـــقـــد نحت فى كـــل نـــاد
وأصبحت قرين التعساء والسعداء
ظن كل واحد أنه صار صديقى
بيد أنه لم يقف على ما يكنه قلبى

عند هذا الحد تجلى لى دليلى .. قال لى :

« عد إلى ما أنت فيه ، أقصد حال الجهات الأربع ..» .

ثم قال لى :

« إن ما شاهدت وما أبصرت وما سمعت وما طعمت وما شممت وما لمست ، وحظ الكشف ما فهمت من هذا كله ، أما ما فهمته فهو أمانة يجب أن تؤديها ..» .

ثم قال :

« إسع ..» .

ولم يكن بوسعى إلا أن ألبى ..

* * *

حَـال الجهَات الأربع

«يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإِنسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى»

(قرآن كريم)

قبل إيغالى فى هذا الحال . تجب الإشارة إلى أن حال الفوت مازال غالبا ، مسيطرا ، إنه فى موقع المجرة بالنسبة لشموسها ، أو الشمس التى تأسر كواكبها وتشدهم فى دوران أبدى إليها . لذا لزم التنويه، أقف فوق السطح ، الممتد ، المغطى بالصهد فى الصيف ، المنبسط الغائم فى الخريف والشتاء ، سماء رمادية ، غمامات قصية ، حدأة محلقة تتحين الفرصة للانقضاض فوق دجاجة شاردة ، أو قطة وليدة ، أو جيفة ملقاة ، من هنا تلوح الجهات والمشارف ، الأزمنة والأمكنة ، إليه تترامى أصداء الأنغام ، وضجيج المدينة ، تبرز أغنية لا أدرى مصدرها ، أدركها فى مجملها ، حروف الكلمات مطموسة لها بزوغ إشراق ، الشمس تطل دامية ، وتنتهى فى الغرب قانية ، فما أقرب البداية إلى النهاية ، فسلام من أصلى الغائب ومنى إلى هذه النجمة الأولى الوافدة ، النجمة التى تبدو فى الفضاء السحيق قبل كل النجوم ، التى تجيء وحيدة فى سماء قاحلة ، حتى إذا بدأ قدوم الأخريات أصبح من الصعب تبينها وكشفها ، وعند الرحيل تبقى بمفردها ، بلا أنيس .

فيا أول البادين ، وآخر الراحلين ، لك الإيماء ، وتحية عابر غير مقيم ، غالب عليه حال الفوت ، مامن أنيس له أو صاحب ، منفرد مثلك ، لك

ناصع البريق ، وطيب المجوع ، والصبر على المصير المعلق ، والدوام للألق المنفرد ، إذ يتم الظلام تجيء النجوم ، فرادى وجماعات وعناقيد ، تقول الأم ، هذه أرواح الصالحين البررة ، أما الشهاب المارق فروح تهوى ، إنسان أوفى وأنجز فرضه ورحل ، لكل منا نجمه ، ثابت مادام يسعى ، يبدأ أفوله مع دبيب الوهن ، إذ يتم الأجل يهوى إشارة إلى سقوط ورقته من شجرة الخلق التى وقف عندها أملى واطلع على بعض منها قبل سلوكه مقامات الطريق ، « والنجم إذا هوى ، ماضل صاحبكم وماغوى ، وماينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحى يوحى ، علمه شديد القوى ، ذو مرة فاستوى ، وهو بالأفق الأعلى ، ثم دنا فتدلى ، فكان قاب قوسين أو أدنى ، فأوحى إلى عبده ما أوحى ، ماكذب الفؤاد مارأى ..» « مازاغ البصر وماطغى » بل صدرى ماتلى عندى ، فأدرت النظر ، وثبت البصر

فى فضاء المدينة الليلى تبرق لافتات إعلانية متباعدة ، أوضحها لافتة دائرية ، ألوانها زرقاء وحمراء وبيضاء ، أعلى عمارة ناحية غمرة ، يقول الأب إنها قريبة من بيت خلف بك ، أرى أصلى إلى جوار أبيه ، يحمله حتى يشرف ويرى ، الأفق ناء ، ولهيب برتقالى متصاعد ، ودخان أسود سائل صاعد ، يقول : هذه نيران ناحية الأوبرا ، يشير إلى لهب آخر : هذا قرب الظاهر ، يدرك أصلى خوف غامض ، هل تطولهم النيران التى تبدو بعيدة ، يقول الأب : البلد يحترق .

فى السماء الغروبية حامت طائرة غريبة المنظر ، تخالف الطائرات التى اعتاد أن يرقبها طوال النهار ، طائرة بلا جناحين ، بطيئة كجرادة ، فوقها مروحة تدور كمراوح السقف ، يقول الأب بغموض : طائرة غريبة ..، إذن ، يمكننى تحديد اليوم ، السادس والعشرين من يناير ، عام ألف وتسعمائة واثنين

وخمسين ، هذا ظلام مكتمل ، يعبر أصلى السطح صبيا بصحبة أبيه ، يؤنسه حتى يقضى حاجته فى دورة المياه المعزولة ، المنفصلة ، البعيدة عن الغرفة ، عبر المسافة القصيرة يرقب السماء وجلا ، ماذا تخفى العتمة ، وهذا الفضاء العجيب ؟.

أتلفت فأرى الناحية الأخرى أبنية قديمة ، خرابة ، يبدو سقف المسافرخانة العتيق ، وهذا السقف البارز الأحدب الذى يعلوها ، حذرته الأم من الذهاب إلى هذه الجهة ، قالت إن غولة تأكل الأطفال تسكن هناك ، لطالما حدق من وراء السور ، متخيلا امرأة يكسو الشعر جسدها ، بارزة الأنياب ، متحفزة لاختطاف أى طفل تطوله ، هاهو ذا يمر أمام دكان صغير يبيع اللبن ، مجاور لمدرسة عبد الرحمن كتخدا ، أول معهد تلقى فيه العلم ، يرتدى جلبابا وصندلا بنيا ، إنه صغير ، تلك ملامحه فى طفولته وقد ولت إلى أبد ، أحتفظ سنين ببعض من صور تسجلها ، تلمح إلى ماكان ، غير أن هذا الضابط الغتيت بدد مابدد ، لعنه الخالق .

هاهو ذا يمشى وحيدا ، يرتدى جلبابا ، يتطلع إلى مبنى من أربعة أو خمسة طوابق تحته علاّف ، يبيع الفول والقمح والذرة واللوبيا والترمس الجاف ، بجواره محل لتجليد الكتب ، فى مواجهته رفاعى السباك . لم يره إلا منحنيا على موقد غازى . أصابع يديه مكسوتان دائما بهباب أسود ، يمر وينثنى عند المنحنى ، يختلس النظر إلى البيت القديم ، يتمتم « بسم الله الرحمن الرحيم » ، يمد الخطى ، إن مايثير خوفه « غية » حمام من صفيح وخشب ، يؤدى إليها سد نحيل ، لايذكر من قال إنها مهجورة ، وأن عفريتا يسكنها ، يجرى ، يجرى ، لايهدأ له قلب حتى يصل إلى مدخل الحارة .

أمام موضع آخر يجب الحذر منه ليلا ، ثمة عفريت من شرار الجن يبدو

للمنفرد المتأخر وقد يسد عليه الطريق بحاجز غير مرئى ، تماما كما جرى مع حسن أفندى على ، فوق السطح يقف الأب ، ولولا خشيتى الاطالة لوضعت فصلا مطولا فى هذه الوقفة ، تناولتها فى ذاتها وميقاتها ، فيما تراه عيناه فى الظاهر ، ماتراه فى الباطن ، مايمر بخاطره من شوارد ، فالحال عسرة والزاد صعب ، لولا ماترسله الجدة من دقيق وسكر وسمن وبلح مجفف وملوخية وارغفة وأوزة مذبوحة لبان الجوع وألح .

فى هذه الفترة يقترب أصلى من العمر الذى يجب أن يلتحق فيه بالمدرسة ، أبناء البلدة يهزون رءوسهم ويقولون إن هذا قصر نظر فالتعليم له مصاريف ، ولايكلف الله نفسا إلا وسعها لماذا لايلحقه بورشة ليتعلم حرفة يمكنه بعد اتقانها أن يساعده ، لم يجبهم الأب إلا غاضبا ، مامر به لن يسمح لمثله أن ينال من أولاده ، أبدا لو أن أجل أبيه امتد ، لو أن أمه لم تقتل ، لعرف الطريق إلى سر الحروف ، لتجنب الشقاء العظيم الذى حل به .

صباح يوم مجهول اسمه الآن ، وفى ساعة مندثرة ، انطوت فى المجهول ، مضى إلى مدرسة عبد الرحمن كتخدا ، التقى بإبراهيم أفندى ، رجل يرتدى جلبابا فوقه جاكته من الصوف ، وغطاء رأس أحمر ـ طربوش ـ وعلى جبهته آثار وشم عتيق ، أصغى إلى الوالد الكريم ، إبراهيم أفندى من المصلين دائما فى مسجد الحسين ، وكثيرا ماتجاورا ، وتصافحا عقب انتهاء الفرض ، أوضح المطلوب ، بيّن القصد ، الأوراق وكيفية تقديمها والتاريخ الذى يجب ألا يتجاوزه ، أما مقدار الرسوم فجنيه واحد ، جنيه لاغير لكنه مشكلة وقتئذ ، توفيره صعب ، وأن يفيض عن الحاجة ليس بالأمر الهين ، واقتراضه عسر ، أما إيجار نصف الفدان فمازال متبقيا عليه سته شهور حتى يبدأ محاولات الحصول عليه . قال إبراهيم أفندى : يمكنك أن تكتب شهادة فقر ، غير أنه أبى ، هذا

نذير سيئ ، أن يبدأ رحلة ابنه بورقة استجداء وطلب اعفاء ، إنه يتطير من ذلك ..

عند ذلك الحد تجلى دليلى ، قال آمرا :

« لاتثبت .. » .

ثم قال لى :

« لاتكن كالماء الراكد ، فإن ثباته يجعله نتنا .. » .

ثم قال :

« كن سيالا كجريان الماء الذى لايثبت على شىء إلا زمن مروره عليه .. » .

فوليت الوجه .

الجهة الجنوبية

.. يختلف الضلع الجنوبى من السطح عن الجهات الأخرى ، ذلك أن الغرفة تقوم فى هذه الناحية ، إلى جوارها دورة المياه فتلك مسافة ملغاة من السور ، يتبقى جزء صغير لايتجاوز طوله مترين ، يشكل مايشبه الشرفة مع ضلع السور الشرقى ، من هذه المسافة القصيرة يؤدى الفراغ إلى الأفق ، أفق مغاير ، مختلف عن الغربى ، ذلك أنك أينما وليت النظر فثمة مآذن رمادية ، تحدد وتؤشر الطريق المؤدى إلى أعلى عليين ، عند حد الأفق تقوم مآذن مهيبة ، ظلال أبدية ، تصل السفل بالعلو ، تنتهى بجواسق وأهله ، وقرب منتصفها الأعلى أعمدة نحيلة يتخللها الضوء ، فتبدو الفراغات محددة ، يقول الأب ، إنها مآذن الرفاعى والسلطان حسن ، ولأن أصلى كان غرا بعد لايعى ، ظن وجود صلة مابين هذه المآذن وعم رفاعى السباك العجوز .

عند نقطة أخرى من عمره المبكر ظن صلة أخرى بالرفاعى الذى يستدعونه ليخرج الثعابين من جحورها ، أو يمشى فوق جمرات الفحم المتقدة ، ويبتلع الأمواس ، وقطع الزجاج ، وحتى وصوله إلى سنّ متقدمة لايذكر مسجد الرفاعى إلا وتتموج فى ذهنه صور مضببية قديمة لعم رفاعى ، ومما يناسب ذلك نادرة لابأس من ذكرها ، فعندما كان إسماعيل ابن عامين أو ثلاثة ، أصغى كثيرا إلى الوالد الكريم إذ يذكر اسم النحاس باشا ، وعند خروجه من حارة الطبلاوى ومروره أمام دكان مبيض أوعية نحاسية قرب مدخل الحارة ، إذ يرى الرجل يستند إلى الجدار يدور داعكا الوعاء بقدميه ، يقول لنفسه : إذن .. هذا هو النحاس باشا !.

هذا حال الطفل ، الغر ، الذى تختلط عناصر العالم عنده ، من واقعية وغيبية ، وقصية ودانية ، ذلك عين حال من دنا وقارب على اختتام الطريق ، بداية الدائرة هى نهايتها ، غير أنى لا أقول بالكل أو بتشابه الأحوال ، فكل إنسان كون بمفرده .

حدث ياكرام أن أصلى سعى بعد هجرة الوالد الهجرة الكبرى إلى عزيز أحبه وظل على صلة دامت عمرا به ، فهو سبب جريان رزقه ، وقد مر ذكره ، فى تلك الأيام . كان احتراق قلبه متقدا ، فى أوجه ، ولهيبه فى اتقاده ، ونار حسرته حامية ، كان يحيل إليه ، بل يكاد يوقن أنها لن تخبو أبدا ، كان يمضى إلى من عرفهم الراحل فينسلم ويهديهم التحية الطيبة ، ويجلس فى نفس الموضع الذى كان يقعد فيه الوالد ، ينحنى عين انحناءته ، ويشير اشارته ويتحدث بايقاعه ، بل يسلك نفس الطرقات التى اعتاد المرور بها وخلت منه إلى الأبد .

يمر أمام مبنى وزارة الزراعة فيدمع ، ويرنو إلى المعابر والمفارق والنواصى التى وطأتها القدمان اللتان لم تتركا أثرا بعد ، ويردد : ياحسرة على مافرطت ، ليتنى

زرته يوم أن تكاسلت ، يوم أن تقاعست ، من بين الذين مضى إليهم هذا متمهلا ، وتفحص الجدران التى وقعت عليها العينان اللتان انطفأتا ، لن ينعكس فيهما شىء بعد ، إذ ولج غرفة الرجل المريض شم رائحة بول ، لم يفارق الفراش منذ شهور ، بجوار السرير رأى أنبوبة التبول المعوجة ، كان نحيلا ، مترجرج النظر .

قال أصلى مخاطبا المريض : أبى يسلم عليك ، قال الهرم الذى أقعى وحط رحله : أحمد لايسأل عنى .. حتى هو؟. قال أصلى مغالبا جواه : برد ألزمه الفراش . قال الرجل محدقا فيما لايرى ، ولايبين : أحمد لم يستسلم لمرض أبدا لم يقعده إعياء .. هل استسلم للكبر؟. قال إنه يود رؤيته ، يود الاستماع إلى حكاياته ، ولو سمح الزمن بصحبته إلى ضريح سيدنا الحسين لصلاة الجمعة ، ياسلام .. هذا عين المنى ، قال إن جلسة مابعد صلاة الجمعة عند الصاوى تبدو كحلم عصى الآن ، لم يتخلف عنها أبدا .. أبدا . ومنها تعرف إلى الأب ، ثم قال : إن هذه الجدران منذ أن تبدلت تغير كل شىء . طعم الأيام ، ولون الغروب ، ومذاق طلعة النهار ، وهناك وهن الجسر ، قال إنه يريد الخروج من هذه القرية الضيقة إلى العالم الفسيح ، يريد العودة إلى السقف الذى أظله فى مصر ، حار أصلى ، عن أى قرية يتحدث ؟. مال الإبن الأكبر هامسا ، إن الأماكن تختلط على أبيه ، والأزمنة تتداخل عنده فجأة كذا الأسماء ، شخص واحد لم يغب عن باله ، لم يأفل ابدا فى وعيه ، هو أحمد الغيطانى .

وانصرف أصلى إلى الشوارع موجوعا ، لو أن الوالد قام بهذه الزيارة لأدركه حزن وأسى ، أهذا ماانتهى إليه الرجل الذى كان سببا فى جريان رزقه ، الذى اقترب منه ونأى، الذى أحبه وأبغضه، كان الوالد يردد دائما أن البك لو رحل فلن يطول به المقام ، قديما بدأ أمرهما والبون شاسع بينهما ، ولولا مشاعر شتى

ودقائق تستعصى على التفاسير المتاحة للكنه الإنسانى لانتهى أمرهما منذ أمد بعيد .

بعد أن عمل الأب فى وزارة الزراعة وتقلب بين أقسامها ، استقر فى قسم الشئون القانونية ، كان البك وقتئذ ذا حول وهيبة ، والوالد عاملا أمره ضعيف ، يمكن لأى موظف أن ينهى خدمته ، أن يقطع رزقه بجرة قلم ، لكم كظم فى نفسه وحاش روحه عن ابداء انفعال خشية أن يلحقه أذى ، غير أن مايجب تثبيته والتدقيق عليه أنه لم يأت مايعتبره لكرامته ، أو حاطا لقدره فى نظر نفسه وربما هذا ماجعله يلزم عمله كعتال زمنا ليس بالقليل ، يحمل أجولة البذرة فبرغم الجهد الجثمانى الشاق ، إلا أن عمله هذا جنبه التعرض لمطالب الموظفين الصغيرة .

أبدا .. لم يتمكن منه الاحساس بالضعة ، لم يأت ماينقص من قدره فى حق ذاته . ايضاح الأمر هنا دقيق ، صعب ، لكن .. ربما اتضح بضرب المثال . إذ اعتاد بعض من زاملوه أن يمضوا إلى بيوت من يرأسونهم لقضاء الحوائج ، وأداء الخدمة أما هو فتجنب ذلك ، تحاشاه قدر الطاقة ، إذن لماذا كان يتردد على بيت البك ؟

أقول أنا الفقير إلى المساعدة لمواجهة هذا الكون الغامض علىّ ، أن خطاه لم تقده بتأثير ضعة أو عن خضوع وامتثال ، إنما بتأثير شعور متصل بضرورة رد الجميل والمودة والرغبة فى القربى ، هنا لابد من الاشارة إلى نقطة دقيقة حرج أمرها ، ذلك أن البك كان بمثابة الحامى له من مضايقات الموظفين. كان الوالد فى مواجهة مضايقاتهم ، واستهانتهم بشأنه ضعيفا ، أى غضب أو اضطهاد يعصف به ، يهدده ، كانت صلته بخلف بك سندا ومعاونة ، واستمر الأمر بعد انتقاله إلى العمل كقاض من القضاة .

هل أدركتم ماردده الوالد دائما، لو أن ابن عبد الناصر لم يفعل إلا حماية الضعيف فى مواجهة القوى لكفاه وحسبه ، غير أنى أعود إلى الزمن القديم ، أكرر الحيرة ، لماذا استمر فى التردد على البيت ؟ لماذا .. حتى بعد وفاة ابنه الأصغر كمال ، مع اصرار الأم على أن المقابلة السيئة هى السبب فى رجفة الولد ، وخضته لماذا ، هل يستوى البحران ، هل يلتقى الجمعان ؟، هنا تجلت لى الأم غاضبة ، تلك هيئتها التى عرفها أصلى ، إذ يعتم وجهها ، وتبدى ضيقها الذى اعتادت أن تكظمه عنه .. قالت :

«كف عن ذلك ، أنت تخوض فى سيرة أبيك ..» .

شغلت عن سؤالها بتأملها ، هى الغاربة ، الراحلة ، التى يطويها الوقت بأسرع مما قدرت ، قالت :

« هذه فضائح .. لماذا تجرسنا بين الناس ؟» .

ثم قالت مؤنبة :

« ألا تعرف ظروف أبيك ، أبوك كانت ظروفه وعرة ، صعبة ..

ثم قالت :

« طول عمره شقى ، وبسردك هذا تزيده شقاء ..» .

مسافة تفصلنى عنها، وثمة حاجز غير مرئى يقوم بينى وبينها، وعندما انتهى التجلى الخاطف ، المارق ، حرت ، كيف لم أدقق أكثر ، فى أى عمر بدت ، وأى ثياب ارتدت ؟، هذا فوت آخر ، نزل بى سكون ، وصمت ، وحيرة ، وددت ألا أعصى لها أمرا ، خاطبنى العقل أن أكف ، غير أن الحيرة لم تهدأ .

ماذا عن تأثير هذا الموقف الذى أفضى به الأب إلى ابنه بعد مايقرب من أربعين عاما على وقوعه ، فى آخر زيارة قام بها إلى بيته ، بدا وكأنه يقص ماجرى أول مرة، ماسمعه أصلى فى هذا اليوم لم يبل فى خاطره حتى بدأ معراجه .

قال الأب : إنه كان بصحبة البك فى محطة مصر ، كان يقف على بعد منه ، كان البك يتحدث إلى ثلاثة من صحبه جاء يودعهم ، فجأة التفت ناحيته ، اتجه إليه رافعا عصاه ذات المقبض العاجى المفضض ، انهال عليه ضربا على مرأى من الناس . هكذا بدون سبب ؟. أجل .. بدون سبب ، قال الأب حائرا ، فى صوته دهشة كأن ماجرى وقع منذ لحظات قصار : وأنا لا أعرف السبب حتى الآن ! ثم قال : لم يبد منى أى تصرف يدفعه إلى ذلك ! ، صمت ، جلسا متواجهين ، يثقلها عصر خريفى ، ويلوح زمن آفل على مقربة ، وغربة يتأجج اشتدادها ، ليست الواقعة الوحيدة التى حيرته ، ماذا عن هذا اليوم النائى ؟ .

حدث ذات غروب منقض أن رجع إلى البيت مهموما ، ليس من عادته اخفاء منغصاته حتى إذا لزم الصمت فى البداية . ألحت الأم فتكلم ، قال إن امرأة البك سألته بلهجة ذات معنى لايخفى ولايغيب ، هل رأى الملاعق الفضية ؟، ست من الفضة الخالصة ، كانت فوق المنضدة الرئيسية ، قال : ألم تسألى الطباخ ؟ قالت : إنما أسألك أنت . صمت ، لم يفصل الأمر ، إنما انقطع عن البيت عاما ، اتصل به البك فى الوزارة ، أوصى الصاوى الخياط ، لكن الأب لم يصغ ، لم يلب ، أبدا .. لم تكن صلة بين تابع ومتبوع ، بين سيد وخادم . بالأخص فى المراحل الأخيرة من الرحلة ، كثيرا ماردد ، هذه السيدة لن تفهمنى . لن تعرف دوافعى لزيارة البك ، أبدا لن تفهم .

بعد انتقال البك من الوزارة ، بعد أن أصبح قاضيا ، لم ينقطع عنه ، كان يزوره : ويصحبه إلى صلاة الجمعة ، إلى ضريح الإمام الشهيد ، إلا أنه يعود أحيانا غاضبا ، حزينا ، يقول : إنه لن يذهب إليه أبدا ، تسأل الأم وتستفسر ، غير أنه لايوضح ، وبعد لحظات قصار تعلن ارتياحها . لم تنس

ماجرى لكمال ابنها ، لم يوضح الوالد بواعث كمده ، غير أن أصلى ألم بشذرات ، أحيانا تطلب منه الزوجة شراء أرغفة أو قضاء حاجة من السوق ، ينصرف وعنده ضيق ، غير أن القطيعة لم تدم ، يتصل به البك أو يسعى هو إليه ، وإذ يطلب منه البك أن يمر بالكواء ليأتى من عنده بياقات قمصانه لايعد ذلك حطا من شأنه ، فى سنى الطفولة اعتاد أن يصحب عياله معه أينما ولى وجهه ، بقى فى وعى أصلى محل الكواء قرب ميدان الإسماعيلية ، وكان ضيقا ، تنبعث منه رائحة بخار ، وهج قماش ساخن ، تؤدى إليه درجات ثلاث ، كواء تخصص فى تنظيف ياقات السادة ، بيضاء ، صلبة ، تثبت إلى القمصان بزراير صغيرة لاترى ، لم يبد الأب تذمرا ، لم يفصح عن شعور يشى بوقع الاهانة .. لماذا ؟ هذا ماحير أصلى ، ألخلو الخطاب من نبرة السيد ؟، إذن .. هل استشعرها فى الزوجة ؟، ربما .. مامن يقين قاطع ، مامن نبأ دال ، غير أن ماعاينه أصلى وخبره عن قرب ، بروز الندية فى أمر العلاقة ، بتأثير دوام العشرة ؟ ربما ، أم أن ذلك نتيجة لهذا الخفى الذى لايرد ولايبين إلا بغتة ؟ الذى يقبل ويدبر ، يكشف ويحجب ما تعارفنا عليه أنه الوقت ، الزمن ، الدهر ؟ ربما . مع العلم أن هذه المسميات كلها لا تحيط به ، هل قربها وساوى بينهما هذا القاهر ؟ ، ربما .

عندما طال المرض بالرجل سعى إلى الموظفين القدامى بقسم الشئون القانونية ، حدثهم عن إعياء البك الذى عرفوه وعملوا معه ، قال لبعضهم إن السؤال عنه فيه ثواب وأجر عند من يحتسب الأجر ، إنه وحيد فى رقدته ، ذكرهم برقم هاتفه ، بعد أيام قال لامرأته .. دنيا موحشة ، تصورى .. لم يسأل عنه أحد ، لم يتخلف عنه بعد بدء مرضه .

قبل بدء رقاده كلّ بصره نور عينيه ، اعتاد أن يمضى إليه صباح الجمعة ،

يصحبه ، يمسك ذراعه ، ينبهه إلى المنحنيات .. إلى انتهاء الأرصفة.. إلى حفر الطريق . إلى العوائق .. إلى موضع مناسب لانتظار عربة أجرة ، يترقرق قلبه إذ يرى الرجل الذى كان عزيز الجانب ، مهابته تملأ العيون ، منيعا ، لايلين لسلطان عند نظره قضايا الخلق ، وله فى ذلك حوادث شتى .

هذا الرجل الذى تسبب فى جريان رزقه ، يلين له ، طوع يده ، يرتجف عند أقل بادرة لايتوقعها أو صوت مفاجئ ، الرجل الصارم ، من عرف بقوة حضوره ، عند اعتلائه منصة القضاء ، يبدو كطفل أسلم القياد ، هذا مما أوجع الوالد ، يخبره ويطلعه بين الحين والآخر على الشوارع التى يمران بها ، قد يتوقف البك ، يسأل عن مَعْلم معين ، أباق كما هو ؟ أحيانا يقول ، لماذا جئت بى إلى هذا الشارع، أريد أن أمشى فى طريق آخر. يقول الأب : لكن هذا أقرب، عندئذ يغضب ، يتوقف وقد يأبى الاستمرار .

مرة طلب منه أن يعود إلى البيت ، نبهه الوالد إلى أن صلاة الجمعة ستفوتهما ، لكن الرجل أصر ، راح يحدث نفسه بصوت مرتفع ، رثى حاله وتمكن العجز منه وقلة حيلته مع ضعف بصره ، قال إن أحمد يتحكم فيه ، يملى عليه ارادته ، أغضب ذلك الوالد ، كيف يخطر له مثل ذلك ؟، انصرف مضمرا النية على بدء القطيعة ، البك صار عصبيا ، لايطيق جدلا ، أما هو فصحته لم تعد تقوى ، حتى أنه لم يعد قادرا على المشى مسافات بعيدة ، وانتقال المسكن من الجمالية إلى تلك الضاحية نأى به عن عادة الزمن القديم ، لكم مشى ، من جهينة إلى طهطا ، من قرية إلى قرية ، من مدينة إلى مدينة ، من الجمالية ، من مسجد الإمام الشهيد إلى وزارة الزراعة بالدقى ، لكم سعى ، حفظ ملامح الدروب والعطفات والنواصى واللافتات وخصائص المكان وتوالى الحارات ، كان يستيقظ مبكرا ، يصلى ويمضى ماشيا ، هكذا يدخر مليمات

التذكرة ، ماالديه يكفيه بالكاد ، ومايدخره يحتاج إليه البيت ، لم يقلقل هدوء باله ، ولم يبدد يسر أحواله إلا خلو البيت من زاد قليل .

مما أحطت به أن ظروفا عسرة مرت به ، جعلته يرتاد مهنا شاقة .. صعبة ، خاصة بعد مجىء الأولاد وتقدمهم فى التعليم ، وتزايد الحاجات ، لم يقل لهم أبدا إنه كان ينتهى من عمله فى الوزارة ليبدأ جهدا شاقا فى مخزن للقصب ناحية أمبابه . يكسر العيدان ، يعدها للعصير ، لم يفض إلى الأم بذهابه إلى مرسى للقوارب القادمة من الجنوب محملة بالأحجار البيضاء المقطوعة من الجبل ، لم يقل إنه حمل الأحجار على كتفيه ، يفرغ القوارب مقابل قروش قليلة ، لم يحدّث عن هذا . لجأ إلى أماكن نائية فى المدينة حتى لايلمحه أحد الجيران أو المعارف ردد بينه وبين نفسه ، العمل ليس عيبا ، ولكننى لا أريد أن أكسر نفس الأولاد .

لم يطق أبدا مجرد تخيل أنه سيضطر إلى اخراج جمال أو إسماعيل من المدرسة بسبب ضيق ذات يده . بذل أقصى مايمكن لقواه الجثمانية أن تبذله ، غير أنه لم يهن ذاته أبدا ، هذا ماتجنبه ، مدافع عن نفسه حتى لايدنو منه أو يقع فيه ، ولو أنه أعطى الوسيلة الأفضل لما قصر ، لماتقاعس ، لكن شاء عسر الحال إلا أن يلازمه ، ان يحرم تحصيل العلم ، فلم يعد بوسعه إلا بذل الطاقة وتقديم القدرة المتاحة ليوفر مايكفى الأود ، أفهم ذلك وأجله ، غير أن كنه الصلة بينه وبين البك مما لاأقدر على الوصول إلى لبّه وجوهره الدفين حتى وقت تدوينى هذا .

لم ينس أصلى تعابير وجهه الأسيانة ، وحزنه البادى عندما دخل إلى البيت عصر يوم بعيد ، حط قاعدا ، ينوء بالهم ، قال إن البك تلقى خطابا رسميا بإنهاء خدمته ، آلمه لهجة الرسالة الجافة الموحشة ، الخالية من عبارة شكر أو مجاملة أو إيماءة حتى إلى سنوات العمل الطويلة ، الحافلة بخدمة الدولة ، قال إن انتهاء

الحلمة نذير بدنو الأجل ، بدا مكتئبا ، كابيا ، وخلال الأيام التالية تردد كثيرا على البك . يقول البك مخاطبا صحبه : إن أحمد من محاسيب سيدنا الحسين ، وأنه من زمرة سيد الشهداء ، قال هذا كأنه ملم بما جرى فى الأسفار والمواقف من هذه التجليات المباركة ، لكن أنى له ذلك ؟.

قبل عام من بدء الرحلة الكبرى ، جلس الوالد فى الشرفة صامتا ، قال بعد حين : أما من وقت عندك لتزور خلف بك ؟، تساءل جمال : أعلمت إليه ؟ قال بأسى : الرجل مريض ، أجرى عملية جراحية بعد انحباس بوله ، دس يده فى صديريته ، أخرج أوراقا شتى وقصاصات ، اختار منها واحدة ، فردها ، مدها إليه ، هذا عنوان المستشفى ، ورقم الغرفة ، تناول أصلى القصاصة ، قرأها ، ردها ، كان مشغولا بمواقيت عدة .

فيما بعد تمنى لو أنه زار الرجل ، كان الوالد يسر بصحبة ابنه فى كبره كما سر بذلك فى صغره ، لكن فى العمر المتأخر لم يكن الأمر بيده ، هذا من مساوئ أصلى التى لن أسامحه عليها ، ولن أتقبلها منه ، لو أنه بذلك الجهد اليسير ، لو قلل وقت جلوسه بالمقهى ، لو خصص الزمن البسيط لبعث سرورا وراحة عند من جاء به إلى الحياة الدنيا ، وان كان هنا قبس يسير من حسن الأفعال يخفف

مرة عرج أصلى على الوزارة لسبب غير واضح عندى الآن ، اتجه إلى الممر حيث المقعد الذى أمضى عليه الأب أوقاتا طويلة ، صحبه إلى الموظفين ، تبعه ، قدمه فرحا ، عند نزولهما الدرج رجاه أن يعرج على فلان ، فلم يعص له طلبا ، فى الممر توقف فجأة ، نادى على أحد المسرعين ، صافحه ثم التفت إلى أصلى.، قال : جمال ابنى .

فى ليلة أخرى كان جمال فى طريقه من مكان إلى مكان ، فارق عربة صاحبه ، ثمة عرس قريب ، لم يكن قد قرر الذهاب ، غير أن وصوله إلى شارع

قريب من مقر العرس دفعه إلى المضى ، إنها ابنة إبراهيم أبو الفضل آخر من زاره الوالد ليلة بدء الرحلة والهجرة الكبرى ، دخل أصلى صالة النادى ، رأى جمعا جلّه قادم من جهينة والنواحى القريبة للتهنئة والمجاملة ، عندما نظر إلى العروس ، استعاد ليلة مولية ، قصية ، صحبه أبوه لزيارة إبراهيم فى بيته بالعباسية ، جلسا ، دخل عليهما طفل صغير ، بدا غاضبا ، طبطب عليه والده وحنا ، بعد خروجه قال : الولد يغار من أخته ولابد من معاملته بالحسنى والرقة ، وأومأ الأب مؤمنا ، هذه العروس المكتملة ، ناهدة الثديين كانت ابنة أيام لاغير فى هذه الليلة النائية ، عندما أنجبت امرأة أصلى ابنتهما ، قصد متجرا يبيع اللعب ، اشترى طائرة صغيرة وعلبة ألوان ، قدمها إلى محمد ولده ابن السنوات الأربع وقتئذ قال له : انظر ما أحضرته لك اختك . غير أن نظرات الصغير بقيت سابحة فى الفراغ ولم يبد عليه أنه اقتنع .

عندما خلا بامرأته ورفيقه سفره ـ التى أصبحت امرأتى وصاحبة فترتى التى قدر على أن أقضيها بدلا منه ـ قال : انتبهى الولد يغار من أخته ولابد من معاملته بالحسنى ، لسبب بعيد . تذكر لهجة ابراهيم أبو الفضل زمان ، قالت امرأته مستنكرة : طبعا إنه محمد ، ثم كررت ، إنه محمد ، إنه محمد .

دخل الأب إلى صالة الفرح مبتسما ، هذا حاله إذ يلقى نفسه بين جمع وصحبة ، غير أنه لم يركز النظر ، لم يسدد البصر تجاه ابنه ، لم يلمح عنده السرور القديم بمجىء ولده ، بظهوره فى مكان يود أن يصحبه فيه . ولّى هذا فلم يعد يؤثر فيه لاحظ أصلى ذلك فتأسى ، كما لاحظ نحوله ونقصان وزنه ، وترنح مشيه وهذا مستحدث غير معهود عنه ، تزايد أساه حتى غمقت مداخله واعتمت مشارفه . التفت إبراهيم إلى المدعوين . قال بصوت مرتفع : هذا بركتنا ، قعد ، غير ملتفت إلى ابنه ، كأن حضوره عارض ، استثنائى لا يعنيه ،

راح يسأل المحيطين ، خاصة القادمين من النواحى النائية ، يستفسر عن رجال ، عن مصائر ، لكنه كلما ذكر اسما يقول أحدهم : تعيش أنت . فجأة صاح أحد المدعوين : اسمع يا عم أحمد ، أرح نفسك ، كل من تعرفهم ماتوا !.

عندئذ لزم الوالد الصمت ، وبقى فى شرود ونظره ساع يمر عبر الفراغات التى تتخلل الحضور ، وعند الأنصراف سلم شاردا ، صحبه أصلى ، مشى إلى جواره فى الشوراع الهادئة ، المدثرة بظلال وأضواء متداخلة ، يتقدمها ظلها حينا ويتراجع حينا ، لا يتبعها ، إنما ينقاد إلى مصدر الضوء الذى هو موجده وباعثة فجأة قال الوالد الكريم : تغير الزمن .. وتغيرت الدنيا . وكأن أصلى بوغت باللفظ يتلو اللفظ ، حدث الوالد نفسه ، فلو أن ابنه لا يصحبه لقال ما قال ، يستوى وجوده أو انعدام رفقته ، والحق أن الوالد لم يبدأ الانقطاع عن الرفقة ، فعندما كان الأمر بيده لم يقصر أبدا ، إنما حافظ وصان ، وسعى ، وعندما خرج النظام عن طوعه ، واتخذ كل سبيله فى الحياة سربا ، سعى ، غير أن ذلك لم يدم ، أصلى هو الذى بدأ الفرقة ، والفرقة مضادة للرفقة ، قال سيد الخلق ، إن الله يحب الرفق فى الأمر كله ، فالعالم من علم الرفق والرفيق والمرفوق ، فما من إنسان إلا وهو رفيق مرفوق به فهو مملوك من وجه .. مالك من وجه .

عند ناصية مؤدية إلى طريقين متباعدين لن يلتقيا أبدا ، توقف الوالد فجأة ، مد يده فى وقفته المفاجئة رغبة فى النأى ، وسعى إلى الانفراد ، تصرف لم يكن ممكنا أن يأتيه أبدا فى الزمن القديم ، الحق أن أصلى كان فى هذه اللحظة راغبا فى الصحبة ، وكعادته عن اللحظات المؤدية إلى الفراق تنتفض كل المشاعر المؤجلة ، ود أن يخطو إلى جواره ، أن يصغى ، غير أن الوالد أدار ظهره ، قال إنه سيركب من هنا ، لم يتذكر العبارة فيما بعد إلا

واستدارة ظهر والده ملازمة لها ، وبعد وقت معلوم إذ يستعيد اللحظات لايرى أباه إلا موليا عنه فى هذا الطريق . قال كلاما يرجوه فيه أن يخطو متمهلا ، أن ينتبه عند نزوله فى مدينة نصر.

بعد يومين أثناء زيارته للبيت حكى لأمه عن العرس .. عن ابنة إبراهيم التى عهدها طفلة ، عن مرور الأيام .. عن ضيقه من ذلك الغشيم الذى خاطب الوالد قائلا إن كل من يعرفهم ماتوا . دهش عندما أخبرته أمه أن الوالد لم يرجع إلى البيت ، أنه قضى هذه الليلة عند صاحب له فى الهرم ، أصغى ثم صمت ، لم يخبره حتى بمقصده ، فأى أبواب أوصدت ؟.. وأى حواجز أسدلت ؟، يستعيد الخطوات المبتعدة ، الخطى المثقلة البطيئة ، يسعى صوب ليل أليل ، أمضى عمره ساعيا إلى كل الجهات ، فلم يدع جهة إلا يمم وجهه شطرها على قدميه ، ليس للإنسان إلا ماسعى .

كل إنسان يبدأ رحلته ، يقطع منها المراحل وهو لايدرى ، يمشى حينا ، يبحر أو يطير، يشرف أو يغرب ، لكن المدى واحد ، والسعى جوهره لايتغير، الحثيث أو المتمهل ، ومع انقضاء كل مرحلة ينتهى شوط لايتكرر ، فالطريق ممتد وان دار ، مستقيم وإن تشعب وتفرعت منه الدروب ، والوالد الكريم من قلة قليلة قطعه كله مشيا على قدمين، بلا دابة ، بلا راحلة ، بلا مركبة ، وعندما بدأ الهجرة الكبرى سعى واقفا ، لم تختلط عليه الرؤى ، أبدا لم يرقد حتى يعاقه أهله إنما أتم سعيه وأن سعيه لسوف يُرى . صحيح أنه وهن .. لكنه لم يقعد . صحيح أن بصره ضعف .. لكنه لم يكل صحيح أن مشاعر من الزمن الأول انتابته ، ألم يقل للأم مرة : تهتمين بالأولاد ولاتعتنين بى . لكن مهلا .. حتى لاأنساق فيما أوغل فيه أصلى ، يجب ألا يغيب عنى أن جمال غيرى وإن كنته ، فالحذر ، الحذر.

ماقاله لها طرحَ ظروف لايد له فيها ، كثيرا مارآه أصلى مهموما ، محملقا إلى

السقف ، ربما تبدر منه ضحكة مفاجئة ، يظل الباعث خفيا ، ربما خاطب الصمت متأوها « ياسلام » « آه يابوى » فما الذى أضحك ؟ وما الذى أبكى ؟ وما الذى أنطق ؟ وما الذى طاف بالحدقتين عند تواريهما عن العيون ؟ إن الصور المستعادة جالت ومرت فى أوقات الانفراد وثوء الوحشة وهجرة الصحبة ؟ إن هذا مالم يعلمه أصلى ولن ألم به ولن أقف على شىء منه ، ليس لنا إلا التساؤل والفضول اللامجدى ، لكم أشفق هو على خلف بك . فى التجول الذى لاراد له ولامانع للوقت كان يعى دنو الرحلة من نهايتها ، ينقطع عنه غاضبا ، لكنه بعد ليلة أو ليلتين يلوم نفسه ، يقول : كان لابد أن أكون أكثر صبرا ، وعندما قال ما قاله كان يجب ألا أرد . فالرجل صار عاجزا ، يجب احتماله . ثم يقول مخففا عن نفسه لكننى تقدمت فى العمر.. لم أعد مثل الزمن الأول .

فى صباح أحد الأيام مضى إلى عمله عاقدا النية على مكالمة الرجل والحديث إليه مستفسرا عن أحواله ، عندما وصل إلى مبنى الوزارة قالوا له ، خلف بك يرجوك الاتصال به . لم يسع إلى هاتف . إنما مضى إلى البيت قبل أن يتم يومه ، قال أصلى مداعبا : عدت إليه مرة أخرى ، قال الوالد مهونا ، مفسرا ، إنه سبب جريان رزقى ياجمال .

كان الوالد الكريم يحتفظ بأغراضه وحاجياته فى قفة من خوص مجدول يتناولها من حين إلى حين ، يفردها ، ينفض التراب عنها ، فى حافظة عتيقة قصاصة من مجلة « المصور » ، حوار مع قاضى الخليفة وصورة له إذ يعلو المنصة متشحا بشريط أخضر ذى نجوم فضية ثلاث . كان يطلب من أصلى أن يقرأه ، ويبدو أنه حفظ عباراته ، حتى أنه كان يردد من ذاكرته بعضا مما قاله البك فى هذا الحوار . احتفظ بشال حريرى مطرز أهداه البك إليه إثر عودته من

الحجاز مطرودا لأنه وقف ضد من أراد إنزال ظلم فى غير ذى وجه ، هكذا روى الوالد وهذا ماقاله .

مرة واحدة أحاط عنقه بهذا الشال الحريرى ومضى إلى مكان ما ، فى مناسبة لم يدر عنها أصلى شيئا ، كذلك أنا .. غير أن مالم ينسه جمال أبدا من امر هذه العلاقة لحظات بقيت حية واضحة إذ حدث أن مرض الوالد ورقد أياما ، مرة من المرات القلائل التى اضطر فيها إلى ملازمة فراشه ،

فى مساء مكتمل ، طرق باب البيت ، إنها المرة الأولى والأخيرة التى زار فيها الأسرة ، بدا الوالد خجولا ، لايدرى مايفعل ، حتى أنه أنهى الرقاد وقام مغالبا إعياءه وأبدى فائض الترحيب ، وعند تأهبه للانصراف ..

هنا نودى على ، أرى الأم فى نفس موضعها الذى تجلت لى فيه ، ملامحها لوم وغضب صريح ، صارم ، غير ذى عوج ..

« جمال » .

ماتزال تظننى ولدها ، لاتدرى فى دار هجرتها اننى لست هو وإن كنت هو ، فسبحان من أطلع بعض قومه على أسرار ، وأخفاها عن آخرين .. امتثلت وأجبت بالنظر ..

« ياجمال ، تعلم أن هذا يضايق والدك ، فابق شيئا مكتما .. اصغ إلى مرة وأطع ... » .

كنت أسألها عن الوالد ، لماذا لم يتجل لى ؟ لماذا لم يأمرنى هو ؟ ، كما استوقفتنى كلماتها أن أصغى لها مرة ، ألم يطعها أصلى أبدا ؟ هل خالفها بحيث لم يعد تقبل لمزيد ؟ . هذه المرة كان صوتها مؤثرا ، وفيه نبرة لاترد ، فسكت ولم أتم ، وعلى مهل عاودت التحديق إلى الجهة الجنوبية ..

«فهل ترى لهم من باقية»

(قرآن كريم)

.. تلك مآذن أفق الجنوبي ، لكل منها حضور ألقى ظلا في قلب أصلى ، منها السامق ، مآذن مسجد محمد على التحيلة ، المهيمنة عند الحد ، ومآذن السلطان حسن والرفاعى المتقاربة المهيبة ، مآذن قصيرة غير أنها تعلو على البيوت المجاورة ، تعلن عن مثاوى أحباب مجهولين ، أو جند مجاهدين ، أو أغراب من أهل الطائفة قضوا هنا ، قمم بعضها مدبب ، والآخر مستدير ، وكلها حافة ، متحلقة بالمئذنة الأوضح . الأول ، الألطف ، الأقرب إلى الأفئدة ، الطالعة دائما ، مستمرة الصعود فى ثباتها، إنها القائمة على مثوى الضريح القاهرى لناصر المستضعفين ، لمن حيل بينه وبين الماء فقضى ظمأ ، الإمام الحسين ، مئذنة يراها أول النهار وحتى غروبه ، فى ليالى رمضان يتقلد خصرها بطوق من ضوء أخضر ، فى ظهيرة حادة يتطلع جنوبا ، فى شرفة المئذنة الدائرية يرى شيخا يبدو ضئيلا فلا يخطر بباله أن الحجم يتضاءل بسبب البعد ، يرى يديه إذ ترتفعان لتلامسا أذنيه ، لايصل الآذان متصلا إلى سمعه إنما متقطعا .. فلماذا ؟، مسافة منبسطة ، لايفصلها بناء أو حاجز ، يدور المؤذن حول المئذنة ، ظهيرة بعينها بقيت فى وعيه ، استعادها مرات شتى ، فما الذى حدد ، وما الذى ميّز ، هذا مجهول عندى ، صعب الوقوف على أصله .

فيما تلا ذلك من سنوات علقوا مكبرات صوت ، اختفى الشيخ ، كثيرا ما أمضى أوقات الأصائل والمغارب قاعدا فى مقهى مواجه للمسجد ، مشرف على الميدان متتبع لحركة البشر وما يطرأ عليها من تغيير وتبدل ، حتى إذا حان أوان المغيب ، ارتفع صوت المؤذن عبر مكبر الصوت ، يصغى صامتا حتى وإن كان

فى صحبة إلى الابتهالات المتصاعدة إلى السماء التى يتكدر ضوؤها بسرعة . ألطف بنا يامولانا فيما جرت به المقادير ، عبارة تذكره بلحظة الظهيرة النائية ، المنقضية إلى أبد . فما أصل العلاقة ؟. أما المئذنة فبقيت سامقة ، مزروعة فى بؤرة قلب الأب ومن بعده ابنه ، جذورها الخفية ضاربة فى صندوق فؤاد أصلى كذا فؤادى ، هذا الضريح القاهرى أداوم العروج عليه والتوجه إليه ، أتبرك وأتلمس وألثم عتبات مؤدية إلى قبلة لم يغب عنها الأب إلا بالرحيل الأتم ، أتنسم أيام الصبا المولية ، ورفات العمر الجميل .

اعلموا ياصحب أن أصلى أينما ولى وجهه فلابد أن يرى الضريح وأينما حط رحله لابد أن يطوف به ، إما بالحس عن قرب ، أو بالتمنى والخيال عن بعد ، هذا واقع لابد من اقراره ، والتنبيه عليه ، والأشارة إليه ، فالحسين حوى الأيام الغالية ، وما الصبا إلا جزء من سيرته ، أما ما فاض به قلب الأب وما توجه به إلى المرقد فلم يفن ولم يتبدد .

اعلموا أن الطريق من حارة الطبلاوى إلى المرقد عزيز ، طريق جنوبى ، وسالكه من بعدى لن يقف أبدا عن ماتركه من أثر وعلامات ، لذلك الحلم جل جهدى حتى أنوه وأنبه إلى ماكان ، طريق قصير ، تمضى عبر شارع بيت المال .. ثم حارة الوطاويط ، يوما ماكانت مسقوفة ، يقولون أنها كانت مسكونة بعفريت من شرار الجن ، يظهر قرب الفجر فى هيئة رجل يرتدى عباءة وطربوشا تركيا ، يستوقف المارة ، يستفسر عن سكة مؤدية إلى العطوف ، وإذ يهم المار بالإجابة يولى ظهره .. عندئذ يرى الناظر نصفه الأسفل جسم ماعز ، له حوافر وأظلاف بدلا من الساقين الآدميتين ، هنا تقع الرجفة ، ويضل العقل وتفسد الهمة ، تنسد الجهات ، ينعدم المخرج .

عند الخروج من الحارة يلوح الضريح القاهرى ، عمارة شاهقة عدها الوالد

دليلا وعلامة على فساد الأحوال . إذ حكى فقال يوما أن تاجرا أجنبيا بنى عمارة على مقربة من المسجد الأزهر غير أنها بقيت ثلاثة أعوام خالية لايقترب منها طالب سكن أو باحث عن مأوى مع رخص إيجارها وسعة غرفها ، لماذا ؟. لأن التاجر الأجنبي شيدها من خمسة طوابق فارتفع بها عن المسجد ، خاف الناس سكناها أو العيش فيها ، ثم عمرت ببعضهم ، صار ماكان غير مألوف فى زمن . عاديا فى زمن آخر ، حتى أن شخصا واحدا لم يستنكر ولم يلحظ حتى تجاوز هذه البناية لسطح الضريح الحبيب ومطاولتها لمئذنته ، ومن يدريك بما سيقع فى الأزمنة الأخرى ؟. أو فى الزمن القادم ، فالزمن واحد والأفعال متغيرة ، وإن كان الأمر غير يقيني ، فالبنيان هنا على الحيرة أحوط .

بالقرب من العمارة مقهى المجاذيب ، بعد صلاة الجمعة وخروج القوم يقف ثلاثة رجال فوق رءوسهم العمائم . عازف كمان ، وعازف ناى ، وضارب بالدف ، بجوارهم نساء ثلاث مكحولات الأعين ، أوسطهن بدينة ، أسنانها ذهبية ، تنشد المدائح ، صوتها قوى فيه شرخ لايبين ، كان أصلى يخافهن أثناء مروره بصحبة الوالدين ، قالت الأم : إن مثل هؤلاء يتظاهرون بالغناء لكنهن يسعين إلى خطف الأطفال ، مثل الغوازى فى جهينة ، ينزلن إلى الأسواق ، يرقصن ويعملن على إغواء الرجال ، وبعد انصرافهن ورحيلهن قد تكتشف أم اختفاء ابنها ، يصحبن الأولاد إلى بعيد ليتعلموا السرقة وملاعبة القرود ، لهذا خافهن أصلى ، وكره الجلوس فى هذا المقهى حتى بعد تقدم العمر به ، بعد استقلال أمره وسعيه منفردا .

على مقربة ، وفى نفس الموضع يظهر رجل قصير ، متسخ الثياب ، جلبابه أصفر ، تتخلله خطوط باهته ، حافى القدمين ، ذو لحية أحيانا يرتدى طاقية قصيرة ومرات يظهر هائش الشعر ، وإذا ما ابتسم يبدو مكان أسنانه الفارغ ،

سمع أصلى شذرات شتى عن عم أحمد العضاض هذا ، بعضها من الوالد ، والآخر من المقهى أو من الصاوى الخياط .

قالو إنه كان ثريا عفيا ، وتحت إمرته عالم ، وعنده ذهب وفضة ونحاس وزاد كثير ، وذات ليلة كان نائما فتحرك سقف البيت قليلا كأنما أحد يمشى فوق السطح ، فنادى من هذا ؟، فجاوبه صوت غريب عنه : صديق فقدت بعيرا أبحث عنه فوق السطح . فصاح : ياجاهل أتبحث عن بعير فوق السطح ؟، قال له الصوت : وأنت ياغافل تنام فى ثياب حريرية ، وعلى سرير من الذهب بينما ثأر الحسين قائم ودمه لم يجف بعد كل هذه الدهور ! فوقعت الهيبة فى نفسه واندلعت فيه جمرة ، فارقه النوم ، ولما طلع الصبح ذهب إلى محل عمله ، ولم يمض وقت طويل حتى دخل عليه رجل مهيب لم يقدر أحد من الخدم أو الحشم على منعه ، تقدم منه وحدق فيه فقال له :

ماذا تريد ؟.

قال : أريد أن أنزل فى هذا المحل .

قال :

يامجنون ليس هذا لك وإنما هو محلى .

قال : لمن كان قبلك ؟.

قال : كان لأبى .

قال :

وقبل ذلك ؟.

قال :

ملكا لفلان

قال : أوليس هذا المحل ماينزل به أحد ويغادره الآخر ؟.. قال هذا

واختنق ، فازدادت حرقة قلبه ، وعند العصر سمع مناديا يناديه : قم إلى سيدك الحسين والزم !. فنادى خدمه وقال : أعدوا لى الزاد ، ركب دابته ، أمعن وأوغل فى البرية فسمع مناديا يصيح به : امض إلى إمامنا الحسين والزم ! وبعد مرحلة سمع نفس الصوت من قربوس سرجه ، فأيقن أن الكشف قد وقع ، رمى كل ماعنده . ماكان خارجه أو داخله ، وراء ظهره ، ولى وجهه صوب الضريح القاهرى الشريف ، ومنذ أربعين عاما يطوف به ، ينام عند عتبة بابه ، يغتسل بمائه ، يستظل فى المجير بسقفه وظله ورطوبة أرجائه ، قد يغيب قليلا فلا ينتبه أحد ، لايسأل عنه أحد ، لكنه عند ظهوره بمدخل دكان صامتا أو مبتسما تُلبى حاجته على الفور ، حتى لو وقف بمدخل محل الأسطى سيد الحلاق ، كان إذ يرى الوالد يبتسم مرحبا ، يضحك بصوت مرتفع ، وإذا لمح ولديه معه يتظاهر أنه يود تقبيلهما أو عضهما ، ولأن لحيته طويلة ، ولأن موضع أسنانه المخلوعة يبدو فارغا ، ولأن عينيه محملقتان دائما إلى مايتجاوز الواقف أمامه ، خافا منه وسعيا إلى الاحتماء بوالدهما .

فيما بعد ، بعد تقدم عمر أصلى ، وسعيه منفردا فى طريق المشهد الحسينى ، كان يلمحه بجوار إحدى بوابات المسجد ، أو ماشيا على مهل ممعنا فى الهرم ، تلتقى نظراتهما فلا يعرفه ولايذكر ولايتقدم لمازحته ، أما أصلى فيرثى ويشفق على زمن منقض وليس على شخص بعينه . فى أيام شيخوخته تلك ، بعد تحول جسمه ، وتضاؤل حجمه وتباطؤ خطوه شوهد مرات عديدة يقف تحت المئذنة ، يطلق زعقات هائلة لا تتناسب مع حجمه وإيغاله فى العمر ، ينظر إليه العابرون أو المقيمون ولاينطقون عن الهوى ، إنما هو وجد وجوى .

انتابنى فضول ، أن ألم بأحواله ، أن أحيط بما مضى منه فى تفصيله وليس فى جملته إذ عرفت فى زمنى القديم مثله ، فهل من المعقول عندى أن يكون

هو هو؟ ومادلالة ذلك؟ ماذا يعنى؟ لم يظهر دليلى رغم تأجج حيرتى ولم أعرف مايشنى غليلى ، كم رغبت التحقق من لب الأمر ، لكن دليلى لم يتح لى ، إنما سرى عندى أمره أن أتابع النظر ، ألا أقف فى رحلى ، فرأيت دكان الأسطى سيد ، حلاق قديم هنا ، دكانه ضيق لاجود له الآن وقت تقييدى هذا ، لم يحلق الأب فى البيت أبدا ، كان يصحب ولديه وهما صغيرين يافعين ، الأسطى سيد قصير أشيب الشعر ، شاربه على هيئة بصمة ، يبدو متأففا دائما ، يتحرك على مهل ، يرتدى معطفا نظيفا ناصعا ، يجلس الأب فوق المقعد الضخم المتحرك ، يجلس جمال وإسماعيل فوق مقعدين دائريين صغيرين ، فى كل مرة يحذرهما الأسطى من التحرك حتى لايتسببا فى اتساخ أو كسر شىء ، يسحب فوطة من صوان نحيل أبيض ، مطبقة بعناية ، ينبعث منها عطر خفيف ، يفردها متمهلا ، ينفضها فى الهواء حتى تحدث مايشبه الفرقعة ، يعود متخللا ستارة الخرز الملون المدلى الذى يفصل فراغ الدكان عن الخارج ، فى زاوية المحل تحت الحوض علبة دائرية من الصفيح خصصها للبصاق ، مغطاة ، علبة أخرى لأعقاب السجائر ، من الجدار يبرز حامل متحرك مستطيل من الخيزران فوقه صحيفة مفرودة ليقرأها من يشاء بدون أن يثنى الجريدة ، مرة حاول أصلى أن يقرأها ، نهره قائلا « بستمزقها » . توارى عندئذ خجلا وعنده ضيق منه . اهانه ، لايعرف عنه حبه للقراءة ، وحرصه على الجرائد والمجلات ، بقى معى خجل اللحظة وضيقة من الرجل حتى اقلاعه من فاس المباركة أورثنى اياها . كثيرا مالام نفسه لأنه لم يرد عليه وقتئذ ، نعم ، إنه صغير ، لم يدخل المدرسة بعد ، لكنه أوعى من تمزيق مايصل إلى يديه ، لم يدخل المدرسة بعد لكنه يقرأ ، يفضى مغاليق الحروف ، كيف ؟ الأمر فى حاجة إلى تفسير حتى لو سبق ذكره .

أرى صباح يوم عطلة ، يوم جمعة ، أو عدة أصباح مندمجة ، متداخلة ، من الوعر استعادة خصوصية كل منها ، مع أن جلها من تراثى ، وأنا ـ عبر أصلى ـ من عاشها لاغيرى . هكذا تتلخص الأيام فى يوم ، كل فى واحد وهذا يتبقى إلا بعضه ، لايستمر العدد إنما يبقى المعنى ، نستعيد مشهدا يحوى ماعداه فأتتبه بالآه ! ، يامن تبدد مايمر بك من أزمنة وبقاع ، حاول أن تعرف أى لحظة من زمنك المنقضى ستبقى ولاتمحى من ذاكرتك الواهنة ، هأنذا قد نبهت فاجعلوا بالكم لما أشرت إليه وبسطته ، فالناس جلهم عنه فى عماية !.

ما أبهج صباح الجمعة بعد الاستحمام ، يتم التضام ، التقارب ، نكتمل. فالأب حاضر، هذا يوم عطلته، إذا تيسر الأمر تقلى الأم فطائر أو زلابية، تروينا سكينة فالطوارق الدواهم نائيات ، قرب العاشرة يصيح عم محمد بائع الصحف ، فلاح من ريف قصى ، يرتدى صديرية بلدية ، وطاقية من لباد جلبابه قصير ، حافى القدمين ، تحت إبطه حافظة من ورق مقوى تبرز منها حواف الصحف ، صوته قوى ، ينزل الأب الطوابق الخمسة ، يرجع بالأهرام أو المصرى ، يتردد صوت عم محمد مبتعدا ، كان جوّالا ، لامقر يعرف له ، حتى اتخذ محلا له فى دكان منحوت تحت مسجد عتيق . حتى المشترى منه مضطر إلى الانحناء ليخاطبه، أما الداخل فلابد أن ينزل خمس درجات ليصل إلى أرض الدكان ، فوق منضدة خشبية صف الصحف وصندوق سجائر وعلب حلوى .

أثناء تجواله تقف امرأته ، بيضاء ، مستديرة الوجه حلوة التقاطيع ، أحيانا تظهر شقيقتها ، سمراء ، واسعة العينين ، صوتها مرتفع ، جرىء ، وقد توالت الأيام ، كل منها يقفو أثر الآخر ، وسمع أصلى برحيل عم محمد رحيلا أبديا ، حزن حزنا عابرا غير مقيم ، فى المحل يرى امرأته وحزن يعقد حاجبيها ، وبوجهها

أسى ، على باطها طفلة صغيرة.، أحيانا تقف شقيقتها .

بعد زمن طويل ، قال حسن صاحب أصلى منذ طفولته الأولى إن سهرة تنتظرهما ، صديق له ترك له مفتاح بيته ، وأن امرأتين على ميعاد ، صالة البيت فسيحة والأثاث وثير ، وأثناء الأنتظار الملول قال حسن ناصحا : عليك بالملاطفة ولاتكن جها ، لكنه عندما رأهما تلجان البيت وقع عنده كدر عظيم الأولى قصيرة صامتة ، والثانية طويلة عابثة، مناغشة، الأولى يجهلها، أما الثانية فهى أنوار بعينها شقيقة امرأة عم محمد، فما أغرب الرحلة لمن لم يقف على مراحلها ! .

هاهو ذا الأب يتمدد فوق حصيرة مفروشة قبلى السرير، يستند برأسهٔ إلى الجدار ، على مهل ، بتأن ، بصوت مرتفع يقرأ العناوين الرئيسية ، أصلى يتابع اشارة أصبعه إلى الحروف ، من التؤدة تعرف على الكاف والنون والميم والحاء ، والواو ، وأمة الحروف كلها ، أتقن القراءة قبل أوان المدرسة ، فمن أبيه الأمى تعلم وفك المغلق ، فسبحان من يجلو السر ويشى بالسبب.

يفرغ الأب، تتمكن منه روح مرح، يقوم جالسا، يفرد الجريدة، يبدأ فى قراءة نص وهمى لاستقالة يرفعها إلى وزير الزراعة، يرجوه قبول استقالته لأنه غير راض عن الأحوال ، يتلو أخبارا قصارا عن مقابلاته ، أو سفره ، أو عودته من رحلة رسمية . يصغى أصلى وأشقاؤه ، بينما تنشط الأم ، ترتب جوانب البيت ، يطلب منها القعود فتومئ. راضية مرضية هذا زمن أمن تبدد ، احتملته السافيات الذاريات التى لاتبقى ، هل قصد الأب تعليم ولده القراءة ؟ لايمكن القطع أو الجزم ، غير أن الموثوق به عندى ، عزم هذا الرجل المجاهد الذى عرف النوب السود ولم ينثن عزمه عن تعليم أبنائه ، وتجنيبهم مارآه وعاينه واكتوى بجمره ، كذا البعد بهم عن الذلة ، وقد كان حرصه شديدا وجهده عظيما ، حتى

أنه لم ينأ بهم عن الويلات فحسب ، إنما نأى بهم عنه هو ، كيف جرى ذلك ؟ كيف حادت عن قصدها الأحلام ، هذا من أجل المكتمات وأدقها وسأفصح عنها فى الحين المواتى ، كل شىء بقدر .

أما ماضايق أصلى فى هذا العمر النائى فزهو الأسطى سيد ، صحيح أنه لم يتم السادسة بعد ، لكنه يشعر أن انتماءه إلى الطفولة بالقامة والملامح ، أنه متجاوز كينونته ، وهذا حاله الذى لازمه فى مختلف أطواره ، لم يعش لحظة فى لحظتها أبدا ، ولافترة فى فترتها أبدا ، شاخ فى عنفوان شبابه وناء بهموم عظام قبل أن يتم العشرين . بدأ زمن اختصاره فى الثلاثين ، وسعى متسكشفا طفولته الأولى وهو يخوض صوب الخمسين ، حتى إذا ماولى الشفق ، وبدأ اكتمال الغسق والليل وماوسق ، انتبه متأخرا إلى لب القضية ، إلى أن الباب يفتح من جهة واحدة ، خروج لاغير ، من باب إلى آخر ولاعودة أبدا ، طريق للمضى إلى الأمام فقط ، لاعودة ولا استعادة فيه ، ولانكوص على عقبين ، « يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى ، يقول ياليتنى قدمت لحياتى ، فيومئذ لايعذب عذابه أحد ، ولايوثق وثاقه أحد » ، فياحسرة على مافرط من ذاته ، فى حق من اكتملت لهم القربى ، وياحسرتى أنا المعنى وغير المغنى على مافرطت فى زمنى العتيق ، هذا حالى أنا أيضا ، كأنه أنا وكأنى هو ، كفانى .. فما أقدر على التلميح بمزيد !.

هاهوذا أصلى فى ضيق ، كيف ينهاه الرجل عن متابعة القراءة فى الصحيفة المفرودة فوق الحامل الخيزرانى . لم يأنس للبقاء عنده ، كان يراقبه ، سنه للموسى على سير الجلد المثبت فى الجدار ، نفضه غبارا غير منظور عن المقاعد بمنشة ذات مقبض عاجى ، تمهله فى اغلاق علبة البودرة ، اعادتها إلى نفس موضعها ، حركته الباعثة على الضحك عندما يبدأ تنعيم البشرة بالخيط المزدوج

يمسك بطرفيه . يثبته بأسنانه . يقترب حتى يوشك على الملامسة ثم يتراجع ، يبتعد ، يقترب ، موسعا الخيط ، مضيقا اياه ، ليبترع ماتبقى من جذور الشعيرات . يغالب أصلى نفسه حتى لايضحك، تردد الأم دائما، الضحك بدون سبب قلة أدب . بعد الخيط يمسك قطعة شبه دائرية، يدلك الوجه الناعم ثم يرش العطر من بخاخة مستودعها مطاطى ، لايسمح للزبون بالمغادرة إلا بعد انتزاعه الفوطة ، ثم يمسك مرآة يرفعها ليرى المحلوق قفاه ومؤخرة رأسه ، ثم يضيق عينيه متأملا الوجه ، إذا لم يرض تماما يبدأ من جديد .

الأسطى سيد يحلق للبك ، لبعض الوجهاء ممن اعتادوا التردد على ضريح الحبيب القاهرى ، يتقاضى من زبائنه مايوافق مقدرتهم ، لاينظر ولايحصى مايقدم إليه : ومما عرف عنه أنه يحلق بالمجان لبعض طلبة الأزهر وشيوخه والمجاورين الفقراء فيه ، لم يكن مزينا للشعر فحسب إنما يداوى بعض الجروح ، ويدلى بوصفات علاجية لمن يسعى إليه ، ولايجرى عمليات الختان إلا فى أيام الاحتفال بمولد سيد الشهداء أجمعين ، يقف ببابه جمع من قصاده ، جلهم قادمون من ريف البلاد ، يحملون أبناءهم إليه تبركا ، لكنه لايسمح بدخولهم إلى محله الضيق جماعة خشية اتساخ البلاط ، أو يزحزح مقعداأو وعاء عن موضعه ، أصلى ممن ختنوا على يديه ، كذلك إسماعيل وعلى .

أرى الأب يحمل أصلى ، يعده بالنزهة والحلوى ، يقعده فى حجرة ، يباعد مابين ساقيه ، هذا قضيب صغير رخو ، فأين منه تلك الفروج التى استضافته وحنت عليه وقبضته هونا إن فى شرق أو فى غرب !.

ذكرت بالأخص تلك البنية الأجنبية عنه التى لم تكن قد جاءت بعد إلى الدنيا ، أعض شفتى ألما إذ أرى الأسطى سيد يدس آلة نحيلة حادة ، يدفع القضيب إلى الخلف ، يبرز جلد الغلفة مفرغا بينما يشرع الموسى .

أدهش ، أتعجب ، إذ أنني ختنت أيضا فى خلق الأول ، أيعرفون هذه العادة أيضا ؟ عرفت انني لم أنظر إلى نفسى حتى وقت تدوينى هذا ، حتى حسبتنى كهؤلاء المخاريين الذين كنا نأسرهم ونكتشف متعجبين أنهم ليسوا بمختونين ، لم أر إلا انفراج ساق أصلى ، ومشى متباعد الساقين ، والربط ، الطى مبللا بالأحمر والأصفر ، ورائحة المطهر القوية . أدقق النظر لأطلع أكثر لكننى ألمح دفوفا وبيارق وجموعا ترتدى البياض وعمامات خضراء ، ورجلا طويل الشعر يدور بسرعة ناشرا حوله رداءه المستدير ، وحصانا يتهادى على مهل ، راكبه شيخ مهيب يحتضن طفلا صغيرا أجهله ، أرى من يمشى على رجلين ، ومن يمشى على بطنه ومن يمشى على أربع .. أرى رجلا نحيلا جدا يحمل بتوازن عجيب على طرف أنفه عصا ملونة تنتهى بثقل فى حجم طربوش كبير مصمت تتدلى منه شراشيب ملونة . فما أغرب ذلك عندى !.

أرى الأسطى سيد الحلاق ، إنه هرم ، نحيل ، مكتوم أمام محله فوق مقعد بدون مسند ، ياقة قيصه مسودة ، فى عينيه قذى ، أين ستارة الخرز الملونة ؟.. أين صندوق الأدوية والأربطة والمطهرات ؟، المرآة صدئة ، شققت صفاءها خيوط متعرجة ، لماذا لاتدور مروحة السقف ؟ كيف يطوف بها الذباب ؟ أين بلاطات القيشانى المنتزعة تاركة فراغا كئيبا نسج فيه العنكبوت ؟.

الرجل مطأطئ ، يمر به أصلى ، يتمهل أمامه ، لايبدو عليه أنه لحظه ، إنه موجود لكنه راحل ، قريب غير أنه بعيد ، هذا حاله منذ أن صعقت الكهرباء وحيده ، فيا عينا رزيا ثقيلا خفف الوطأ ، خلق الإنسان ضعيفا ، والفجر وليالى عشر والشفع والوتر ، والليل إذا يسر ، إن أسى رقراقا يفد علىّ ، ترونه هينا وأراه بغيضا ، فلما نال منى الأسى هب على عبق مشروب أدمنته وكذا هام به أصلى ولم يقتنع بغيره ، وكان هذا المحبوب بلا لريق وتطرية لأحزان قلبى

بجوار الأسطى سيد محل تخصص فيه ، رخام واجهته قديم ، يفيض بعبير الخروب ، برائحة ماء الورد . وقد بغضت ماء الورد لسبب سيرد ذكره فى حال الوداع ، مشروب غامق اللون ، سلسبيلى ، فى سطل من نحاس مختوم بخاتم دائرى من قصدير ، إلى الروح يسعى ، جمع فأوفى ، ومن عبيره السكرى تنبعث لحظات مارقات كان الأمل فى تذكرها أو استعادتها نائيا قصيا ، أقسم بخالق القادر على كل شيء ، إنه لولا الخشية والملامة وتقوّل الناس علىّ لأفردت له فصلا ، أحاول فيه النفاذ إلى جوهر الشراب . وماسببه لهواى ، وماقلبه فى بالى ، غير أننى أكتفى بالتصريح عن عشقى له . وسعيى إليه مادمت حيا ، وإن كان الفيض الذى يأتينى من هذا الدكان لا مثيل له ولا تكرار، والأمر ليس مصادفة ، إذ أحببته فى زمنى العتيق بما يماثل تعلقى به فى خلقى الثانى .

أيمكننى التوقف والنظر إلى هذا المحل قليلا ، فلن يدوم أمره طويلا ؟؟

يجيئنى الإذن من دليلى ، مما أوجب الأمتنان والتحية ، أعرف أنه مثلى من المحبين لهذا الشراب ، ألم أقل إن الأمر ليس مصادفة ؟، بل إنى مطلعكم على ماهو أكثر ، فجمال بن عبد الناصر ، من ناصر الأب حيا ، ومن ناصره الوالد راحلا ، غائبا ، توقف مرارا عند الموضع عينه ، لفترة غير قصيرة أقام فى حارة خميس العدس ، ناحية الخرنفش ، القريب من ضريح الحبيب ، نزل عند عمه خليل ، طابت له الإقامة فى البعد اثر رحيل الكاملة أمه . وزواج أبيه ، فى هذا الموضع أمضى لياليه ، غالب السهاد ليستوعب مايدرس ، وكان قاسيا على ذاته، إذا أوشك النوم على التمكن منه قام إلى الماء البارد ليغمر وجهه، أو نزل إلى الشارع ليمشى قليلا أو كثيرا ثم يرجع يقظان نشطا . وهكذا قد يصل يومين ببعضهما لايعرف نوما .

فوق هذه الأرض مشى ، فى نفس الأسواق سعى ، وعلى جدران المبانى وقعت عيناه ، أحب الناحية ومافيها حبا جما ، وبعد تمام الأمر له لم يركع لصلاة العيدين إلا فى الضريح القاهرى . هذا سبب لم أعلمه من قبل ، رآه أصلى عفيا يركب عربة مكشوفة بعد أداء الصلاة على مقربة من ضريح الحبيب ، رآه يخرج صباح عيد والنهار معتم بعد فلابد أنه شتاء ، المصابيح ماتزال مضاءة ، والحراس كثيرون ، لمح هامته المكتمل شيبها ، ومن الجمع صاح رجل يرتدى جلبابا وطاقية « اعطونا سلاحا » .

وثق أصلى أن النداء وصل إلى أذنى ابن عبد الناصر ، من أطلق الصيحة ؟ هذا مالن يعرفه أبدا ، كما أنه لن يطلع على ماهدهد ابن عبد الناصر وجعله يمضى القهقرى إلى زمن ناء قبل سماعة صيحة الرجل ، استعاد للحظة مارقة رحلته القديمة من خميس العدس إلى هذا الميدان ، زمان !. يخرج من الحارة ، يرتدى الحلة والطربوش ، باسق القامة ، إذ يسرع الخطى يميل إلى الأمام قليلا ، يعبر قبو قرمز الممتد تحت مسجد الأمير متقال ، قبو كان أصلى وأطفال الحارة يرهبون المرور فيه نهارا ، سمع من أبيه يوما أن شخصا مذبوحا اعترضه فى عز الظهيرة ، ينزف دما ، عدا خلفه محاولا نيله ، وعندما اجتاز الأب ظلمة القبو التفت فرآه خاليا ، لا أثر لأحد ، ولادماء حتى ، قال إن مانجاه ، أنه ذكر اسم الله وتلا فاتحة الكتاب ، لولا ذلك لجرى ماجرى .

ابن عبد الناصر يتم عبور القبو ، ثم ميدان بيت القاضى ، تلك الموجودات رسخت عنده لكثرة ماانطبعت فى وعيه ، شجرة خضراء مباركة تتوسط الميدان حتى وقت تدوينى هذا ، وحوض للماء مستطيل تشرب منه البغال والحمير والخيول والدواب على الدوام ، مبنى الشرطة ، مقعد القاضى

ماماى ، مدخل حارة الصالحية ، مدخل مدرسة خان جعفر ، السبيل الرقيق المواجه الذى لم يعد يقدم للعابرين مايروى ظمأ المشتاق ، ومدخل فندق الكلوب العصرى ، وبائع للحمة الرأس ، ومحلات متجاورة تعرض لوازم الحلاقين ، ثم سبح متدلية ، وطواق مزركشة وشيلان حريرية ، وعصى خيزرانية ، ونراجيل ، وحقائب مختلفة أحجامها وأشكالها ، وزجاجات صغيرة للعطور البلدية ، وعلب دقيقة تحتوى على العنبر.

يتوقف أمام محل الخروب ، رائحته تلون الظلال الرطبة فتجعل المكان وارفا ، فى المواجهة ثلاجة خشبية ، الجدارن مبطنة بألواح من معدن ، بجوار المنضدة الرخامية القديمة التى امتلأ سطحها بحفر صغيرة لكثرة ما سال فوقها من ماء يوجد مستقر الخروب ومستودعه ، يقف أمام الدكان ، تلامس قدماه مواضع وطئها أصلى وأبوه وإخوته فيما بعد.

الأرض هى هى ، لا تتغير ولا تتبدل ، لا تزيد أو تنقص ، إنها الموجود الوحيد الذى لا يبلى من المواد إلى مدى بعينه ، لا ترحل ولا تنتقل فى الظاهر ، أما سعيها فخفى ، غير مدرك بالحواس ، كل شىء يتقلب ، يتبدل يتغير ، عداه هو ، الذى يبدل هذا كله ويغير هذا كله.

يقف رجل يرتدى جلبابا فوقه سترة من جوخ أخضر ، لا يُرى إلا على هذه الهيئة ، مطرق الرأس بملامحه جدية واعتزاز شأن من يدرك قيمة ما يفعل ، وهذا تعبير رآه أصلى على وجه الخضرى الحلوانى ، الذى عرفه القوم واقفا يبيع البسبوسة فى صينية أمام حمام النحاسين بشارع المعز ، حتى اشتهر أمره ، وتيسر ، فاتخذ له محلا قرب الجامع الأزهر ، ثم توسع فكسا الجدران رخاما ، وأضاء الواجهة بالأحمر والأزرق ، وأصبح لا يرتدى إلا جلبابا أبيض ، نظيفا ، ولا يظهر إلا لماما ، لينظر برضا إلى صوانى الكنافة والبقلاوة

والروانى ، ثم يومئ لهذا أو ذاك ويختفى عن العيون .

التعبير عينه كان يرى فى عينى مصطفى النقاش ، ينحنى على صينية النحاس يحفر الخطوط المتشعبة المتعرجة ، المتلاقية ، المتفرقة ، يدق مطرقته النحيلة ، وقد يطول انحناءه ساعة أو ساعتين ثم يرفع رأسه والرضا ملء عينيه يتأمل ما أبدع ، يدير الصينية يمنة ويسرة ، هكذا ينظر بائع الخروب إلى مشروبه وقد يرفع السطل فى الهواء قليلا قبل أن يقدمه ، يضع الزبون نصف القرش فوق الرخام ، أرقب رشفات ابن عبد الناصر ، طلبة من الأزهر ، شيوخ كمل ، منهم فاقد البصر ، والنحيل الهزيل ، وعظيم البطن ، منهم من يرفع الرأس إلى أعلى ، منهم من يرشف بصوت مرتفع ، وآخر يحسو فى صمت ، وإذ يفرغ يدعو لصاحب المحل ، يرجو له الستر ودوام الفتح فى الطريق ، عرفت حب ابن عبد الناصر لهذا المشروب ، وعرف عنه القوم تفضيله للجبن الأبيض ، حتى أنه كان يصحبه اينما ولى وجهه ، لم يستهوه أبدا فاخر الطعام ، شأن كبار القوم من أصحاب السفر ، إذ كان أشد ما يخشاه اتباع الهوى ، وهذا درس عظيم ، راق ، وعاه أصلى وتمثله . فالإنسان ساع فى هذه الحياة الدنيا ، التى يعرفها مثلى ، ومن هم على شاكلتى بأنها طريق ، أوله اقلاع وشروع ، وآخره هجرة عظمى وختم حقبة ، والمسافر يجب عليه التزود بأقل الزاد ، فإذا ركن إلى دعة بعض الوقت وجاءه طيب الطعام أكله وشكر خالقه ، وإذ يستأنف رحيله فلا ينتظر مثيلا لما أطعم فى نقطة تالية ، لو تحقق ذلك صار الأمر عادة ، والعادة عبودية ، وهذا ملمح أعجبنى ورضيت عنه إذ لقيته عند أصلى ، أمضى رحلته حتى اسرائه من فاس المباركة يأكل ما يلقاه أمامه ، لا ينفر ، لا يتأفف ، سواء فى حال عسره أو يسره ، خشى الارتباط بعادة ، لأن ما يتوافر له ساعة ، قد يفتقده ساعة أخرى ، عندئذ

يحمل نفسه ما لا طاقة له به ، وهذا لب سلوك أكابر القوم المسافرين ، المغتربين أبدا ، ولنا فى سيرهم أسوة حسنة .

قال الشيخ الأكبر محيي الدين : إنا قوم سفر نقطع المناهل بالأنفاس رحلة الشتاء والصيف لنطعم من جوع ونأمن من خوف ، لأنه مازاد على وقايتك فما هو لك ، وما ليس لك لا تحمل ثقله فتتعب ، وهذا ما كان عليه جمال بن عبد الناصر كان بعض المقربين يحاولون تعريفه بنفيس الزاد ، فيذكرون أطعمة بعينها ، فيصدهم صدا لينا حازما ، وأحيانا صارما ، رادعا .

حدث أن جاءه أحدهم يوما بتفاح ، وتلك ثمرة ديارها بعيدة عن مصر ، أبدى ضيقا وغضبا ، ومما جرى على لسانه : كيف أطعم ما لا يأكله عامة ناسى ، قال ذلك عند مرحلة من الطريق كان فيها إذا اشار لأحد لبى ، وإذا طلب استجيب له .

أين ذلك من خليفة السوء الذى كان يطعم فيتمطى ، ويلقى إلى الكلاب ماعز على القوم ، ويرسل فى طلب اللذائذ من كل فج ، ويسعى إلى المتعة فى المتعة ، هذا يا صحبى عين العبودية ، فالحرية الحقة ألا يكون بقلب الإنسان رق لشىء من الأعراض البادية لا عاجل دنيا ولا حاصل هوى ولا سؤال ولا قصد ولا إرب ولاحظ ، كذا لا يجرى عليه سلطان المكونات .

لم يتعلق أصلى ولا والده ولا جمال بن عبدالناصر بشىء ، أحبوا شراب الخروب ، نعم ، الشاى المعطر بالنعناع ، نعم ، لكن إذا انقضت أيام طوال بدون توافر شىء من هذا أو ذاك لا يتبدل الأمر عندهم أو يتغير ، إذا حان وقت الطعام لايسألون ولايردون ماقدم إليهم ، إن أعجبهم تذوقوا ، وأن نفروا لم يردوه ، لم يمتنعوا إلا عما قضت به الضرورة ، وهذا من أجل خصائص السفر والشيم الواجبة للصبر على مشاق الطريق ، وهذه أمور لايعلمها إلا قلة .

دليلى يومئ إلى ، إذن .. أطلت الوقفة ، أعزم أمرى ، أقطع المسافة من محل الخروب إلى الدكان المجاور ، جدارهما واحد ، لكن هذا اقتضى منى مشقة ، خطوة مكانية ... هذا صحيح ، لكننى أسافر بقلبى ، والسفر نوعان ، الأول حسى ، بالبدن ، وهو الانتقال من بقعة إلى بقعة ، ومن لحظة إلى لحظة ، وسفر بالقلب ، وهو الارتقاء من صفة إلى صفة .

قال لى دليلى :

«اجتهد أن تكون دائما راحلا بين منزلتين ..» .

وقد لبيت قبل أن أنادى ، فما أنا إلا راحل أبدا ، ضعيف ، أسير زمن ، طاوى حشا ، خائف من سوء المنقلب ، لا أتقيد بحدود فى سفرى هذا ، قد أعبر المحيط الأعظم قبل أن يرتد طرفى الىّ ، أو اختراق الجبل بدون حاجة إلى الدوران حوله ، وربما ألقى العسر فى الانتقال من موضع إلى موضع مجاور ، هذا عين لحالى عندما دنوت من محل الحاج الهوارى ، إنه كان تاجرا للأثاث غامضا ، إذا تكلم فإنه يهمهم ، وإذا نظر يبدو مسدل الجفنين ، أراه كما تبقى فى وعى أصلى ، رب قوم عاشرناهم ، دنونا منهم ودنوا منا ، وكان لنا معهم وقفات ومعاملات ، إذ تباعد السنون ما بيننا وبينهم ، وإذا نستعيدهم فلا نرى منهم إلا وضعا معينا أو تعبيرا خاصا ، لذلك لا أرى الحاج الهوارى واقفا إلا عند مدخل ، يرتدى معطفا كاكى اللون ، تحته جلباب ، يغطى رأسه بطربوش أحمر، متطلعا دائما إلى مثوى سيد الشهداء، نظرة يامدد الأحبة.
الدكان داخله معتم ، إذ يمتد تحت ثلاثة مبان ، ينحنى إلى الداخل ، لا يمكن رؤية آخر ، الأثاث مكدس، مرايا تحتويها أطر مزخرفة من نحاس ، وآخر من حديد .

للحاج أبناء ثلاثة ، أكبرهم لا يبدى ودا ، عنده سن ذهبية ، الثانى

زامل أصلى فى الدراسة زمنا ، أما الثالث فلا ألمح منه إلا ظلا ، لا أتمكن من ملامحه أبدا ، ثلاثتهم لا يلفظون إلا همهمة ، أبوهم يبيع الوالد الكريم سريرا من الحديد أسود الطلاء ، السرير الذى رأيت الأب ينصبه ، أول سرير ينام فوقه كذا أمى ، لكنهما أفرداه لأصلى وشقيقه اسماعيل ، ولمن رحل طفلا ـ محمد ـ له الرحمة وطيب المثوى إلى جانب شقيقه خلف وكمال ، فوق الأرض تجاورا وأغمضا عيونهما .

هذا السرير رقد فوقه أصلى مريضا ، بعد أن أدركته الحصبة ألبسته الأم ثيابا حمراء ، وحاشت عنه الزيارة ، لذكرى هذا المرض تنميل ورعشات ، وقلق أمومى فى العينين الحانيتين ، وحزن أبوى مكتتم وتساؤل وجل قديم لم ينطق به اللسان أبدا هل يلحق جمال بخلف وكمال ؟، كلا .. وربى هذا كثير ، ثقيل .

للحبيب ، الأمير ، الشهيد ، الحسين ، نذرت الأم الفول النابت ، وأضمر الأب النية لإطعام مساكين ، يخاف ولايبدى إشارة ، بعد العودة من جهينة ، بعد بدء مرض محمد ، بعد أن قال الشيخ عطية أن نجمه يهوى ، وأن شمس الجمعة إذا طلعت عليه سيعمر طويلا ، بعد منتصف الجمعة . أغمض محمد الصغير عينيه ، بدا جسده مرتجفا ، صار أمره إلى حشرجة عاتية ، ناغته الأم كأنه يتأهب لنوم ، نوم طويل ، لا تعقبه صحوة ، نادته بالكلم المرقق ، قالت له أن الملائكة والصديقين يحفون بك الآن ويطوفون ، غير أن ضعفها فاض وطغى ، فقالت متوسلة ، راجية ، آملة ، دانية ، «رب .. لا تعذبه» ، ثم قالت ، «رب .. سبه لى». ودمعت عيناها مع أن البكاء بحضرة مريض عندها شؤم ونذير .

عند هذه اللحظة رأيت مالم تره هى ، ما لم تحط به خبرا ، ما لم يعه أصلى ،

رأيت أنا والدها، الشيخ على باشا المداح، الذى خرج من جهينة منذ سنوات بعيدة ملبيا نداء الجمّال الغريب ، ولج نافذة الغرفة المغلقة كان يرتدى اللباس الأبيض ذاته الذى خرج به من داره ، اقترب منها ، تطلع إليها ، فاض حنوه ، غير أنها لم تره ، دنا من السرير ، فتح محمد الصغير عينيه ، تطلع ناحية جده ، وعلى وجهه لاحت بشارة ابتسامة ، ظنت الأم أنه الفرج بعد الضيق ، غير أنه تعلق بصره بجده الذى جاء يساعده ساعة احتضاره ، ليعجل بخاتمة النزع حتى لا يطول الأمد ، مد يده فمسح جبينه وحتى أطراف قدميه ، عندئذ فارق محمد محمدا ، غاب الجد واتضح الحد ، أى الفرق بين ماكان وما يكون فسبحان من كشف بعض السر لقوم وأخفاه عن آخرين .

أدركت الأم أن الساق التفت بالساق وأنه الفراق ، فهوى رأسها مستندا إلى ذراعها ، اهتز جسدها هزات متعاقبة ، فلما رأيت ظهرها المنحنى ، رأيت انحناءة ابنتها نوال عندما تتشبث بجوار السرير يوما فى مكان بعيد عن هذا تخفى وجهها باكية، بالضبط هكذا، تماما كما أرى، أصابعها تتشبث بجسد الوالدة ، رافضة فراقه والنأى عنه ، فما أعجب اللحظة إذ تقترن باللحظة ، غير أن نوال لم تكن ملمة بنهر الأسى والأحزان الذى تدفق عبر كينونة أمها قبل أن تولى وجهها شطر الأبدية .. صوب العدم ! .

لكن مالى أتعجل ؟ هذا له أوانه ، وتأثيره عندى ، فصبرا . كرهت الأم السرير الحديدى الأسود ، فارقته إلى الأرض ، أبت أن ينام فوقه جمال أو اسماعيل بعد خلو البيت من محمد ، محمد هذا الذى التقيته فى مقام الضنا ولكن فى خلقه الآخر ، فمن شاء الاستزادة فعليه مطالعة ما أثبتناه هناك ! .

ألحت الوالدة ، كما أبدت تشاؤمها من الهوارى ، فسعى الأب إلى تاجر أثاث آخر لكنه ليس من أهل الناحية الجنوبية ، إنه الحاج فؤاد ، اختار

للأب سريرا من خشب ، أعيد تجديده بإتقان ، حدث وقتئذ أن وصل إيجار الأرض المتأخر كما زاد راتبه خمسة قروش ، فعزم وتوكل ..

اصطحب الأم وابنيه إلى الحاج فؤاد ، اختارا صوانا خشبيا تتوسطه مرآة بلجيكية الأصل ، ها هى ذى الأم تفرد ثيابها فى القسم الأوسط ، إنها فرحة ، آن لجلابيبها وقصانها الداخلية وفستانها الأسود الوحيد وبقية ملابسها أن تفرد ، أن تفارق القفة والحقيبة ، غير أن نظرها يشرد ، فى عز فرحتها بالصوان. تنظر إلى جلابيب ولديها . لو أن محمدا لم يرحل، لصار له ركن هنا وشغلت هدومه حيزا ، لصار عنده الآن خمسة أعوام ، هذا نصيبه من الدنيا ، لو أن خلف وكمال .. تستدير إلى النافذة فلا أدرى وجهة عينيها ، أجهل المدى الذى سافرت إليه بنظراتها .

أطيل النظر إلى الجهة الجنوبية ، أرى محل الهوارى مغلقا ، ومحل الخروب ، جف منه العبير وفارقه الطل ، هذا زمن متقدم ، فلأتمهل ، خاصة أن محل الصاوى الخياط عند الجهة الجنوبية ، وقد ورد ذكره فى المواقف ، كان مقرا لخلف بك بعد صلاة الجمعة ، كيف بدا الأمر ، كيف نشأت العلاقة ؟ هذا ما لم يتح لى الوقوف عليه .

إنه يقعد عند الطرف القصى للمصطبة الأمامية ، أمامه منضدة قصيرة القوائم ، فوقها الأقمشة والخيوط والابر ، أصبعة مغطاة بالكستبان ، ساق ممدودة وساق مثنية ، وعند طرف أنفه يرتكز المعلنى . وحركة يده الممسكة بالإبرة ذات الفتلة لا تتوقف . أما القماش فمبسوط على ركبتيه ، يصغى الأب إليه بعد انصراف البك ، يتحدث دائما عن أيامه التى قضاها فى استامبول، وعندما استدعوه ليقص قفاطين السلطان ، دخل القصر الكبير وخصصوا له غرفة وخدما ، رأى السلطان عبد المجيد بعينيه ، صافحه ، سأله عن أحوال

مصر ، أجابه بما يليق . دار حوله ، لامس جسده ، حفظ مقاساته ، لم يكن فى حاجة إلى تدوين مما أدهش المحيطين به ، أكرموه للغاية ، الافطار اليومى لم يخل من القشدة وعسل النحل المصفى والفطائر تنز سمنا ، أما الغذاء ففيه كل ما تشتهيه الأنفس ، وفى العصر لابد من نزهة بحرية فى القرن الذهبى ، ثم صلاة العشاء فى مسجد السلطان أحمد ، يوجه كلامه بداية إلى الأب ، وسرعان ما يتجاوزه بنظراته ، فيحدق إلى جهات مجهولة يذكر شيئا ما عن دخان نرجيلة عطرى ، ومآذن نحيلة ، وقباب ، والخليج المغطى بقوارب وسفن شتى ، ومرتفعات ، وأشجار متعانقة أغصانها ، ونساء جميلات يرتدين الحرير الشفاف ، تبدو قعدته السكونية مشحونة بالرغبة فى الاقلاع ، أما ارتفاع كتفيه ونفور عروق رقبته فيومئان إلى ضجيج الجسد المجهض ورغباته التى لم تلب ، وخلال هذا كله لا تكف أصابعه عن غرز الإبرة وشد الخيط ، بعد حين يقول عند الوصول والعودة إلى محدثه .

« رفضت البقاء قرب السلطان ، وعدت لأجاور ابن بنت رسولنا الكريم .. » يرفع الأب يديه :

« الفاتحة لإمامنا وسيدنا .. » .

يبسط كفيه ، يتلو فاتحة الكتاب ، يمسح الوجه ، وموضع القلب .

يقول الصاوى بصوت خافت :

« الخيرة فيما اختاره الله ، بعد عودتى خلعوا السلطان » .

يقف الأب ، يقول إن الأوان حان لذهابه ، يقول الصاوى إنه لو بقى لفتكوا به يقول الأب إنه لابد من ذهابه إلى فندق الكلوب ليلحق ببعض أبناء البلدة ، يطلب الصاوى بقاءه قليلا ، يتناول من تحت الطاولة قصيرة القوائم علبة معدنية فى حجم عقلة الأصبع ، إنه متخصص فى تركيبة للسعوط

لا يتقنها إلا هو ، لخلف بك علبة أسبوعية يمضى بها الأب إليه ، يعود الصاوى ليثبت فيه النظر ، «اقعد يا أحمد» ، لكن الوالد يكون قد مضى وغاب عنه ، غير أنه يستمر فى وصف بيوت استامبول والقباب المتجاورة ، والموسيقى الشجية التى تسمع من بعيد ، وآذان الفجر ينبعث من المآذن النحيلة المشرفة على البوسفور الجميل .

تلك بوابة الفندق ، فسيحة ، تؤدى إلى ساحة مستطيلة تطل عليها نوافذ المبنى وشرفاته ، فى ليالى الصيف ، فى نهارات الشتاء المشمسة تصطف المناضد ، إلى الجانب الغربى شرفة متسعة تؤدى إليها ثلاث درجات قيل على مسمع من أصلى ، لا يعرف من القائل أو متى ؟ إن هذه الشرفة شهدت أول عرض سينمائى فى مصر عام ألف وتسعمائة وعشرة ميلادية ، كان رواده من عمد البلاد ومشايخها واثرياء الريف ، وأجانب قادمين من أصقاع شتى ، جل القوم من الأحبة المريدين الذين قصدوا الاقامة على مقربة من الضريح القاهرى ، والحرص بعضهم على صلاة الفروض الخمسة حاضرة ، واصغاء إلى أدعية الفجر التى تتردد عبر صمت الليل النهائى ، بناء الفندق إلى يمين الداخل ، أربعة طوابق ، شرفات الغرف مسورة بحديد مزخرف ، فى نهاية الفناء المكشوف يقوم بناء مطبعة الحلبى العتيقة التى تمت إلى القرن الماضى .

فندق عتيق ، إذا سددت إليه البصر الحسى أو العقلى أو القلبى فلا أراه إلا ساعة ظهيرة ، ويوم الجمعة ، وبالتحديد بعد صلاة الجمعة ، بعد أن يتفرق الجمع الذى انتظم صفا ، صفا ، بعد انصراف جلهم ، وتفرق آخرين فى المقاهى والدكاكين والمتاجر والوكالات الميحطة بالمرقد . يمضى بعضهم إلى الفندق ، يقصده الأب بعد جلسة دكان الصاوى ، بعد انصراف خلف بك هنا يلتقى بأبناء جهينة القادمين إلى المدينة ، أراه مقبلا ، أصلى إلى يمينه

وإسماعيل إلى يساره ، محب لصحبتهما ، يقول للأم دائما: «حتى يروا الناس ويشوفوا الدنيا» .

الحاج عبده النوبي مدير الفندق ، جاد الملامح ، لبأسه جلباب صيفا فوقه معطف شتاء ، وطربوش لا يميل ، لم أره مبتسما أبدا ، يميل إلى الأمام وكأنه على وشك أن يهمس ، محلق ، مزموم الشفتين تتشابك أصابع يديه . إنه مهتم جدا بحرب مستعرة فى بلد اسمه كوريا ، بجواره راديو ضخم الحجم ، تتوسط واجهته لمبة صغيرة تضيء لونا أخضر إذا اتضح الأمر ، يعرف مواعيد نشرات الأخبار ، وأصوات المذيعين ، كذلك الألحان المميزة

ظهر الجمعة يخبر القوم بأهم ما أصغى إليه طوال أسبوع ولى ، يقص ما سمع من أنباء ، يحدثهم عن مسار الحرب ، يذكر أسماء المواضع والبلاد ، والقادة ، يقول إن جمعا من المحاربين قصدوا الهجوم على القوات الأمريكية ، اعترضهم مجرى مائى متدفق التيار كانوا بحاجة إلى جسر يعبرون عليه ، فما كان من الجماعة إلا أنهم ألقوا أنفسهم فى النهر ، تكدسوا فوق بعضهم البعض حتى وصلوا الضفتين بجسر من الجثث وعبر من تبقى ، يصغى الأب ، أصلى يستمع منبهرا ، مجهدا نفسه فى تخيل هذا البلد النائى .

عبد المقصود أفندى ، عمر الخادم النحيل جدا ، الطويل جدا ، يتوقف عن خدمة الزبائن ، الكل يستمعون ، يقول الحاج عبده إن القائد الأمريكى لو تدخل بالطيران لحسم الموقف ، لكنه لم يفعل ، ثم يقول مؤكدا أنه عندما أصغى إلى عنوان النبأ استنتج مقدما ما أقدم عليه قائد الكوريين ، ولحظة اصغائه إلى التفاصيل صحت توقعاته ، قال الأب للأم إن الحاج عبده كان يتابع معارك الحرب العالمية ويعرف أدق التفاصيل ، وكذلك حرب فلسطين ،

وأنه يقضى أياما متتالية متكدرا حزينا لأن النتائج لم تتطابق مع توقعاته وما أشار به ، وكثيرا ما شوهد غضبان آسفا لأن الوسيلة معدومة فى توصيل نصائحه إلى القادرة، خاصة حرب فلسطين. يردد الحاج عبده أنه معجب بالكوريين ، أنه اختار الانحياز إليهم فخواطره معهم ، لأنهم يحاربون فى بلدهم ، يكرر مرات هجوم حشودهم غير عابئين بالنيران والهلاك، ثم يردد :

« لن نهزم إسرائيل إلا بهذه الطريقة .. » .

يومئ عمر مؤمنا ، ينطق بعد طول صمت :

« صحيح .. مضبوط .. » .

إنه نوبى أيضا ، يشترى الطعام للنزلاء ، والصحف ، ويقضى الحاجات ، جبهته مستطيلة تؤدى إلى رأس أصلع تماما تنفر منه عروق خضر ، على جانبيه بقايا وشم جاء به من البلدة ، لكن بعد عمله فى الفندق ، وتندر الزملاء به ، عالجه بماء النار عند الأسطى سيد، احتمل جلدا، حتى إذا انتهى الأمر أبدى الأسطى دهشة وتعجبا ، إذ أن عتاة الرجال وجبابرتهم يصرخون لحظة ملامسة الحمض جلودهم ، غير أن عمر لم يلفظ آهة ، لم يعض شفته العليا أو السفلى ، لم تتلقص ملامحه ، لم يغمض عينيه ، إنما حملق فى المرآة كأنه يرقب شخصا آخر لا علاقة له به . .

إذ يبدأ الحاج عبده حديثه عن الحرب ، يترك عمر ما يشغله ، يجىء ليحلق ويصغى ، وإذا تصادف عودته من مطعم حاملا صينية عليها أطباق ساخنة يقف ولا يتحرك ، وعندما يصغى يزداد اتساع عينيه ، يدوى فيهما بريقها الغريب ،. ربما يهز رأسه مرة أو مرتين أو يعلق بكلمة « صحيح » أو « تمام » ، أحيانا إذ يفتقد الحاج عبده زبائنه يدعو عمر إلى الاقتراب منه ، لا يجلس فى حضرته أبدا ، يبقى واقفا ، مصغيا مما يضطر الحاج إلى رفع رأسه

وعينيه ، يستمع إلى المواقع التى احتلت وتلك التى يجب تدميرها ، وأخرى كان من الممكن اجتياحها ولم يتم ذلك ، إلى خطط كان يجب تنفيذها ولم توضع أصلا .

عمر من أحباب الإمام الحسين ، يؤدى الفروض فى مواقيتها داخل المسجد ، إنه يمسح الميضأة ، ودورة المياة مرتين فى الأسبوع ، نذر قديم قطعه على نفسه ، يشهد المصلين والزوار أن الميضأة تبدو أنظف صباحى الثلاثاء والجمعة ، يفعل هذا راضيا ، وبرغم صمته الذى يستغرق أسابيع ، وهدوئه وصبره على الشدائد والأعمال الصعبة ، فإنه يشتعل كحريق وتتوتر عروقه وتتصلب يداه ، يقذف بأى شىء فى متناوله إذا سب شخص أمه مهما كان مركزه أو وضعه .

بعض خبثاء الناحية يثيرونه من بعيد ، يزعقون بسبها ثم يعدون جريا ، عندئذ يزعق زعيقا هائلا يهلع منه المارة بقربه ، يبدو خروج هذا الصوت غريبا من جسده النحيل ، حتى إذا عجز عن اللحاق بخصومه يقعى جالسا فوق الرصيف ، يغمض عينيه ، يرفع وجهه متألما فتبرز حنجرته ككرة صغيرة داخل حلقومه ، يضرب صدره بقبضتيه ، مطلقا جعيرا يخشاه الكبير قبل الصغير ، ولم يعرف سبب ذلك !.

أراه فى جلبابه الأبيض النظيف ، يمشى حاملا طبقا من الفول ، يعبر ميدان بيت القاضى ، يتحدث إلى الأب ، واضح جلى أنه يكن له الود ، لكن عن أى أمر يتحدثان ؟ عن أى أمر ، لم أصغ ، لم يوضح هذا لى ، حتى حركة الشفاه لم أرها ، لم يتحدث أصلى إلى عمر غير مرة ، التقى به فى شارع المشهد الحسينى ، كان ذلك بعد مرور سنين ، بعد طى السجل للكتب ، بعد شقاق وقع ، إثره هجر الأب البيت غاضبا ، لم يدر له أحد مستقرا أو

مقاما ، هاهوذا عمر يجيء من ناحية الميدان ، يحمل دورقا مليئا باللبن ، رأسه مرفوع ، يميل إلى الخلف ..

«صباح الخير يا عم عمر ..»

ينظر إليه ، لا يتكلم ..

«ألم تر أبي ، ألم يجيء إلى الفندق ؟»

تنفرج شفتاه ، لثته حمراء كالدم ، أسنانه ناصعة ، غاضب ، عدائى اللهجة .

«امش» .

يرتبك أصلى ، يهدد عمر ، يستنكر ، يلوم ..

«تغضبون أباكم الطيب ..» .

يولى ظهره ، صار أصلى يتجنبه خشية ، إذا رآه حاد عن طريقه ، فيما بعد كثيرا ما استعاد يوم جمعة لا ينسى ، بعد أن خطب نصير المستضعفين فوق منبر الأزهر ، ورج صوته قلوب الخلق عندما أعلن الجهاد ، «سنقاتل .. سنقاتل .. سنقاتل» . أنبأ القوم أنه باق بينهم ، كلنا أولاده ، وصحبه ، وأنه سيلقى ما يلقونه ، ضج القوم ، ودمع بعضهم ، وهتف آخرون ، وانبثق حضور المسجد العتيق ، فتلك لحظات لن تنسى إلى أمد طويل .

بعد انصرافه ، بعد اظهار البيعة له ، عاد أصلى إلى ميدان المشهد الحسينى وبيده صحيفة «الأخبار» ، طواها على عنوان أحمر يقول : إن بورسعيد دفعت ضريبة الدم ، رأى الميدان غاصا بقوم من كل فج ، يرتدون ثيابهم المدنية ، جلابيب وطواقى ومعاطف وشباب مُعدّ ، متأهب للموت ، كل يمسك بندقية ، ينشدون «الله أكبر» قبل انطلاقهم إلى جهة ما ، وعلى مقربة عربات نقل عسكرية ضخمة ، غمامات فى فضاء الميدان ، يوم خريفى .

يقف أصلى ، دماؤه متدفقة ، حارة ، رغبة ، قصوى فى المشاركة ، ألا يكون غيره قريبا وهو بعيد . إنه يلمح فى نهاية أحد الصفوف عمر النوبى طويلا ، فارها ، نحيلا ، يقبض بيده ماسورة بندقية «لى انفيلد» ، طلاؤها بنى ، ماسورتها سوداء ، عيناه متجهتان إلى أمام ، طويل ، أطول من أى مرة رآه فيها، هذه لحظات بقيت معه، استعادها فى نواح شتى، وظروف مختلفة، وأوقات متباعدة ، وفى الأعم ، الأغلب ، بدون ترتيب .

لم ير عمر بعد ذلك ، غاب تماما ، وقيل إنه ذهب إلى الجبهة وهناك فُقد ، وقيل إنه قتل فى غارة ، ولأنه لا أهل له ، ولا يعلم أحد شيئا عن أقربائه أو من يمتون إليه بصلة ، دفن فى مقابر الشهداء بالاسماعيلية بلا علامة تدل عليه ، قيل غير ذلك ، إنه شوهد فى بورسعيد يمشى بجوار امرأة بيضاء وطفلين ، لكن لم يثبت صحة ذلك ، أما المقطوع به ، فعدم رؤية أصلى له حتى اسرائه من فاس المباركة ، وفى السنوات العشر الأخيرة السابقة على قدومى إلى هذا الكون وحلولى محله لم يذكر عمر النوبى كثيرا ، يجهل البواعث التى تبعث به إلى ذاكرته ، ولكن إذ يبرق اسمه ، يتذكر وقفته أثناء حديث الحاج عبده ، ونظرته إمساكه بالبندقية ، وسرعان ما ينساه ، يغيب عنه ، كذلك نسى عبد المقصود أفندى ، أنه كان كاتبا للفندق ، وحافظا لأوراقه ، استعاده دائما فى وضعين لا ثالث لهما، إما جالسا فى مقصورة جدرانها نصف خشبية نصف زجاجية ، أو منحنى إلى الأمام يتحدث إلى واقف أمام المقصورة من خلال فتحة مستطيلة ، ضيقة ، بجواره لوحة تليفونات الفندق ، صندوق بنى الألوان ، يبرز منه مفاتيح ، وسماعة معلقة خلف خزانة حديدية ضخمة ، مقبضها دائرى ، محفور عليها كتابة بارزة بحروف لاتينية ، لفتحها صرير ، فيها النقود والايصالات وأمانات النزلاء وأوراق قديمة وبقايا

ثمينة نسيها النزلاء محفوظة تحتى لحظة قد تجيء يسأل فيها صاحب حاجة عن حاجته ، فى الخزانة أيضا أسرار منسية وأخرى لا يعلمها إلا هو ، إنه يحول المكالمات إلى الغرف ، كما يحسب ويدون الطلبات التى ترسل من مقهى الفندق ، الشاى ، القهوة ، المياه الغازية ، كما يسجل الطعام الذى يجيء به عمر من المطاعم القريبة ، يكتب الأرقام فى دفاتر مقسمة إلى جداول وخانات ، إنه يستلم الخطابات من وإلى الفندق ، ومفاتيح الغرف عند انصراف النزلاء ، كما أنه يراقب الصاعدين .. فالسلم يبدأ عند نهاية المقصورة كما يرد على تساؤلات الأغراب .. إنه بدين ، يرتدى حلة كاملة صيفا وشتاء يبرز تحت السترة الخارجية صديرى أفرنجى تتدلى منه سلسلة ساعة ، ينام فى حجرة صغيرة بابها قصير مجاور للمكتب مباشرة .

أرى الأب يقترب منه يوما ، ما من أحد يقف قريبا أو يمكنه الاصغاء ، ينحنى الأب انحناء من ينوى السؤال ، وللسؤال ذلة أيا كان موقف السائل ، إنه يطلب خمسة قروش ، هذا يوم من أيام الضنك ، لا أدرى موقعه أو علامة تحدده ، عبد المقصود أقرضه مرات ، يدعو له «ربنا يقويك يا أحمد ويقدرك على تربية الأولاد» ، يعود إلى صمته ، إلى مراقبة السلم ، لم يره أصلى إلا جالسا ، لحظة انتقاله إلى غرفة النوم الضيقة لم يشهدها أبدا ، كما أنه لم يره خارج الفندق أبدا ، وكان يثق بشكل ما ولسبب ما أن الرجل ينام مرتديا حلته كاملة .

أرى الفندق من جهات شتى، المبنى من الخارج، شرفاته، نوافذه المستطيلة أراه من الداخل ، أمشى فى ممر طويل على جانبيه غرف ، هاهوذا أصلى يصحب أباه لزيارة شيخ من البلدة ، جاء إلى هنا بعد عملية جراحية فى قصر العينى ليتبرك بقرب الحبيب وليتم الشفاء ، ألمح مدخل المطبعة ، رجلا قصيرا أكرت الشعر

يدخلها ، أرى صناديق مليئة بزجاجات المياه الغازية الفارغة ، المواسير السوداء ملتصقة بخلفية المبنى .

أرى الأسرة كلها مصطفة كأن الجدران التى تفصلها قد زالت ، يتعاقب القوم عليها ، كل من أغفى ، أو نام ، أو دهمه كابوس مروع ، كل من حملق إلى السقف المرتفع المطلى بالقدم ، كل من نكح أو نكحت أو نكح داخل هذه الغرف ، الطلاء يتجدد ، يغمق ، يتسخ ، يتقشر ، يتساقط ، الشروخ تتسع يوما بعد الآخر.

أرى التبدل ، التغير عبر سنوات شتى ، أما جلسة عبد الرسول الهندى فلازمت الموضع عينه ، حتى قدماه لم تطأ إلا المواضع التى اعتاد وَطْأَهَا عند مشيه ، إنه أسمر ، ناعم الشعر ، يميل إلى بدانة ، مستدير الوجه ، بارز الوجنتين ، صديرى أفرنجى فوق قميص ، بنطلون بنى ، صندل غريب يبدو أنه من جلد حيوان مجهول غير مألوف فى هذه البلاد ، نظارة معدنية الاطار ، على وجهه طيف ابتسامة لا يغيب أبدا أثناء حديثه أو صمته ، إنه نزيل قديم ، لا يدرى أحد مقدار المدة التى قضاها فى الفندق ، لم يبدل غرفته ، وعندما أجروا اصلاحات منذ سنوات وتقرر اغلاق المبنى والتوقف عن استقبال النزلاء لمدة أسبوعين ، رجا الحاج عبده أن يأوى مع عمر فى الطابق الأول ، استجاب الحاج له ولم يناقش الأمر ، ما عرف عنه انتماؤه لطائفة تعيش فى الهند ، يعتبر أفرادها أنفسهم من سلالة السيدة فاطمة والدة الحسن والحسين عليهما السلام ، يحولون إليه مبالغ على فترات متباعدة يعرف الجميع موعد وصول الحوالة عند ذهابه باتجاه الموسكى حيث فرع البنك ، لا يدرى أحد ما يقوم به ، أو سر بقائه ، لكنه يقضى وقته كله على مرأى من الجميع ، جالسا فوق مقعد من الحديد قرب مدخل الفندق ، يقرأ كتبا باللغة الأردية ،

يتحدث العربية بلغة تثير فضول أصلى ، أحيانا يقعد بين الزبائن ، يحتدم الحوار ، لا يتوجه إليه إنسان بكلمة ، ينسى وجوده تماما ، لا يدرى به إنسان ، حضوره كالظل العابر ، إذ ينصرف أو يتململ أو يبدل وضع جلسته لا يلحظ أحد ، غير أنه أحيانا يصمت المتناقشون ، أو تبدأ هذه اللحظات التى تتخلل الحوارات ، عندئذ ينتبه الكل إليه يبرز حضوره فجأة مدببا ، ثقيلا ، فيتوجسون منه خيفة ، يبدأ انصرافهم

أرى الأب يجلس إلى جوار عبد الرسول عند مدخل الفندق ، يتحاوران ، يتهامسان أحيانا ، تتعاقب التعبيرات على وجه أبى ، يبسط يده أحيانا ، أو يشير بأصبعه إلى الجهات ، ينظر إليه عبد الرسول بود ، مرات عديدة صاح الحاج عبده مداعبا : ماذا يقول لك وماذا تقول له يا أحمد ؟ يضحك أبى ضحكة خاصة مؤداها ومعناها أنه لن يفضى ولن يجيب ، «حقا .. ماذا يقولان ؟»

أهم بالاقتراب لكنهما يوليان متراجعان أو ابتعد أنا ، أوقن أن ما بينهما جللا ، غير أنه ما من علامة تشفى الغليل ، وهذا بين أمور شتى حيرتنى حتى زمن تقييدى هذا

رأيت فى باحة الفندق ممن لا حصر لهم ، لم أدقق ملامحهم جيدا ، لم أعن بالاستفسار ، لم أضمر سؤال دليلى عنهم ، وجوه عديدة ذهبت عن حفظى .. إلا عبد الرسول هذا بقى فى ذكرى ، ربما يرجع هذا إلى جلسته ، إلى صمته ، إلى حيرتى تجاه ما دار بينه وبين الأب ، لكن وددت أن أسطر عنه ما أعرف ، غير أنى بلغت هذا الموضع من الكتاب وما بى طرف عنه ولا معى ذهن . ذلك أنى أجهله .

أراه فى صمته يوم قدوم هذا الفتى الجميل ، على وجنتيه وفوق شفتيه يرى فى الضوء زغب أشقر ، يقعد فى الصالون الداخلى يحلق فيه الحاج عبده ، وعمر ، وجلوس آخرين ، أما عبد الرسول فيتطلع إليه حانيا ، ودودا ، وطيف ابتسامة مشرف من بعيد ، جاء الفتى الليلة الماضية بصحبة شاب يكبره سنا ، هيئة الشاب ومنظره لم تطمئن عبد المقصود أفندى ، يبدو أن الغريب لم تكن عنده احاطة بتقاليد الفندق القديم ، استفسر عبد المقصود أفندى عن الفتى ، عن درجة قرابته ، أهو شقيقه ؟ ابن أخته أو أخوه ؟ أى قرابة تربطها ؟، لما أبدى اضطرابا نظر عبد المقصود إلى الفتى ، أمره أن يجلس فى الصالون الداخلى ، أن ينتظر.. أطاع الولد ، مضى إلى الأريكة الرئيسية .

عندما رآه عبد الرسول يقترب منه وقع أمر محير ، إذ اضطرب حاله فجأة ، وصار وجهه فى لون الليمونة الجافة ، ثم تداخلت أعضاؤه ، وبقى قابعا ينظر ولم يدر أحد سبب ذلك ، أما الشاب فبدا مرتبكا ، حريصا على تخليص نفسه أكثر من حرصه الدفاع عن الفتى ، زعق عبد المقصود لاعنا أولئك الذين يريدون تلويث الفندق حسن السمعة ، القريب من الضريح الطاهر ، فليقل لهم من يعلم أن هذا المبنى كان مقر الوجهاء ، ومشايخ البلاد وفرسانها ، وأن التاجر الذى كان يريد أن يعلن عن متانة أحواله كان يقول بفم مليان ، أنا أنزل بالكلوب ، وأن العروس التى يتباهى بها أهلها كانوا يشترطون على عريسها أن يقضى شهر العسل أو جزءا منه فى الكلوب ، ماذا جرى ؟ أى زمن أغبر هذا ؟ من أى مصيبة جاء مثل هؤلاء ؟، أمثالهم لا ينفع معهم إلا البوليس . استدار إلى لوحة التليفونات ، لكنه عندما عاد لينظر إلى الشاب لم يجده أمامه ، أختفى .

أسمع الحاج عبده يقول إن الفتى هارب من أسرته ، وإن جاء من الجنوب ، وأن الشاب اصطاده وغواه ، وكان سيفسده لولا أن عبد المقصود أفتلى تدارك الأمر ، أرقب العيون المحلقة ، يتخيلون ماكان سيصير إليه الولد الآن لو أنه صعد إلى الغرفة ، ربما اشتهاه أحدهم سرا ، أما عبد الرسول فانسحب مضطربا ، لم يره أحد عند انصرافه الأخير ، عبد المقصود طمأن الحاج عبده أن حسابه مدفوع حتى نهاية العام ، وأنه لم يستدن من أحد ، أما حاجاته فحفوظة فى الخزانة الحديدية حتى يعود أو يظهر من يمت له بصلة ، لماذا اختفى عبد الرسول بعد ظهور الفتى ؟ لم يعرف أحد ، لماذا غافلهم الفتى واختفى ؟ ، أسمع الأب يقول : إنه غافل الناس ومضى ، ثم يقول محدثا الأم : الولد يبدو فاسدا بطبعه ، تقول أمى : ربنا يستر على أولادنا وأولاد الناس الطيبين .

تلك الوجوه عديدة ، تتابع ، بعضها يتمهل ، بعضها يمرق ، تختلط الملامح ، تذوب فى غسق خريفى ، تتبدل وجوه أخرى ، تطوف الضريح القاهرى للحسين الشهيد ، رجل ينحنى مقبلا العتبة الرخامية المؤدية ، آخر يلثم نحاس المقصورة المتشابك ، عجوز ترجو طلة من الحبيب ، أخرى تنوح بالنظر الصامت ، طفل يروم شم العبير الخفى ، ونشال يسعى فى الزحام إلى ما يمتلكه الخلق ، تطوف الدنيا بمن فيها حول الضريح والمثوى ، فانصف ياسيد شباب أهل الجنة ، ياخير الأدلة .

نخرج من الباب الجنوبى ، عقود الخرز الملون ، الطواقى ملونة ، والبخور بنى اللون ، عليه المستكة واللبان الجاوى والعصى المعلقة ، والطارات والطبول والشارات ، ومجذوب يلوح بسيف خشبى مرسلا الاشارات المبهمة ، ربما معبرا عن قصد ، أو مفصحا عن نوايا ، أو منبئا بأمور لم تلح طلائعها بعد ، أو

مستغيثا من دواه لا يرى نذرها إلا هو ، أما الباب الأخضر فقابع تحت قاعدة المئذنة الأصلية ، مظلل ، عبق ، شق الجدار غمق لونه ، صار ملمسه صخريا ، ردت الأحجار إلى حالتها الأولى ، إنه الموضع الذى حطت فيه رأس الحبيب الشهيد بعد أن طارت أربعين يوما من الموضع الذى اجتزت فيه إلى مصر المحروسة . وهذه واقعة شغلت أصلى زمنا . أجهد الخيال فى تصور أم الغلام الفقيرة التى افتدت الرأس الشريف برأس ابنها ، وقد أشار إلى هذه الواقعة فى قصة عنوانها « أيام الرعب » تضمنها كتابه الأول « أوراق شاب عاش منذ ألف عام » فمن أراد الاستزادة عليه مطالعتها هناك ، فخطتنا هنا الاختصار فى التقييد قدر الطاقة .

أرى أصلى يمر بصحبة أمه وأبيه وأخيه أمام المارشال على ، معروف ، أمره ذائع فى الناحية ، تناقل أخباره الناس ، بادله أصلى التحية مرارا ، تلك دكة مرتفعة مفروشة بسجادة من بخارى ، لونها أحمر يا قوتى ، يرتدى حلة عسكرية تمت إلى جيش مجهول ، على جانبى كتفيه رمانتان حريريتان ، أما صديريته فمثقلة بالأوسمة والنياشين وأغطية زجاجات مياه غازية وخمور ، يتدلى من حزامه سيف فى غمد جلدى محلى بنقوش عربية من جانب ، أما الجانب الآخر فكتب عليه « سيف الله الغالب ، على بن أبى طالب » حذاؤه جلدى طويل ، يبرز منه مهازان من حديد ، ينتفض واقفا ، مشدودا ، يرد التحية بأحسن منها ، يغطى رأسه بطاقية من فرو عليها شارات وعلامات .. قيل إنها تخص قائدا كبيرا بالجيش الأفغانى القديم

فيما بعد أصغى جمال إلى من يقارن بين المارشال على وبشبه الجلف الجافى ـ لعنه الله ـ به ، غير أنه استنكر ذلك واستكبر ، عارض القائلين ، جمال رأى الجلف عن قرب ، فى احتفالات عديدة ، فى المراحل الأخيرة لمناورات الجند ،

يأمرني :

«امض إلى الجهة الشرقية» .

أرجوه :

«اني مصغ ، مطيع ، لكن اسمح لى بطلة .. وتدوين قصير .. » .

يقول :

«إذن .. اسرع وأوجز .. » .

أرى ظلال عودتها عبر هذه الجبهة ، لسعيها جوهر عابر خلف آثار لا يمكن للرائى إدراكها بعد خلو كون المحسوسات منها ، بعد تمامها مضت شقيقتى نوال بصحبة على أخى لزيارة الحسين ، ثم شقا هذه الجهة ، من ضريح الحبيب ، وحتى ميدان باب الشعرية ، كل موضع هنا له عندهما معنى وترجيح ، عادت نوال لتقول : كل من عرفناهم ما زالوا يعيشون ، فلماذا أبى وأمى ؟! ، أصغيت ولم أقدر على رد الجواب أو التعليق ، كما أنى لم أستطع الادلاء بشيء عن هذه الظلال الساعية المتبقية ، فما من ظل إلا وله صدى ، لكنها أمور إلى الادراك الخفى أقرب ، فلا حواس تطالها ، وفوق كل ذى علم عليم .

أرى صدى عودتها بعد زيارة الطبيب وأصلى بصحبتها ، تمشى هادئة ، مصغية غير جزعة إلى ما جرت به المقادير ، أما أصلى فهموم مرتجف خوفا من احتمال ثبوت الداء الخبيث .

ها هو ذا يعود مبتهجا ، على وجهه علامات البشرى ، أرى ظلال سعيها وجهادها ، إلى عيادات الأطباء تصحب عليا الأصغر ، إلى المثوى الطاهر لترفع دعاء بفك أسر جمال بعد بدء سجنه وتقييد حريته ، لعن الله الضالمين .

هذه فترة مغايرة ، خروجه من المدرسة ، فسحة مقدارها نصف ساعة ،

كان الميدان أقصى حدود العالم عنده ، ثم امتد حتى أرصفة الأزهر ، وعبر الكتب القديمة تمدد كونه ، توالدت مجراته ، واتسعت الأصقاع ، يمسك كتابا لا غلاف له فيقرأ ، رواية يجهل مؤلفها ، يلتهم الصفحة أثر الصفحة ، خرج بمفرده أكثر مما ينبغى ، فالأخطار محدقة ، بلا حصر

تلك ظلاله عند عبوره الميدان إلى الترام ، إلى العباسية ، ثلاث سنوات يدرس المنمنمات وفن نسج الأبسطة ، كم زمنا استغرقه عبوره تلك الجهات مرارا ، كم عدد الخطى ، كم تنوع الخواطر والصور ، كل خطوة فى عمره ترددت أصداؤها عنده أثناء عبوره تلك الجهة ، انتقاله من مهنة إلى مهنة ، من طور إلى طور ، اكتسابه المعرفة ، عودته بالنبأ اليقين ، بالشك .. كم تغير حاله لرؤية محبوبة ، وكم انتشى لمواتاة فكرية ، وكم توهجت اشراقة ، مباغتة ، مفاجئة ، كذا كل من ارتبط به ، من ذوى قرابة أو صحبة

فيا تلك الجهة التى منك البدء .. ويا هذا الطريق الذى انطبعت موجوداتك ، ما يحف بجانبيك ، وما يسعى فوقك ، فى أحداق الأحبة ويا هذه الأرض التى لم تتغير؟ ولم تتبدل .. أين راحت هذه الظلال الكوائف ؟ ومن يدرك سعى الأحبة وخواطرهم ، تلك التى ولت وانمحت ، وتلك التى توارت ، وتلك التى أقامت

يأمرنى دليلى :

«عجل فالوقت محدود .»

أبدأ على الفور تدوينى ، وإن لم أرتو من الطلعة ..

«تلك وجوه رأيتها ، وبعضها رآنى ، كل منها أودع عندى أثرا ، بعضها أدركت أصحابها وعرفتهم ، والآخر أجهله ، ولما كان الإنسان نسخة جامعة ، لذا كان عندى منها مقدار ونسبة ، فإذا قدر لى رؤية كل منها متفردة ،

إذ رافق المقاتلين سنين عددا من عمره ، ودون أخبار ذلك فى صفحات شتى ، ولهذا موضعه الآتى لكن فى غير هذا السفر .

أقول إن الجلف كان مغرما بتزيين حلته العسكرية ، وأضاف إلى نفسه ما لا يحق له ، فارتدى وشاح القضاء الأخضر ، علق الأنواط والأوسمة أبدى التكلف ، تصنع الهيبة ، سخر الخلق منه ، تندروا عليه ، لم يقنع أحدا أبدا ، مع أنه قصد بث الهيبة وترسيخ المكانة .

قال جمال – أصلى – إن الماريشال كان من مباهج صبانا ، أما الجلف فلم يكن إلا كابوسا .. مدعيا .. كاذبا .. جلابا لكل سوء ربما كان لدى الماريشال أمور جمة لم يفصح عنها ، حسبى ذلك وكفى

إنى عائد إلى حارة الوطاويط ، أتجاوز المنحنى ، أرى الرجل الضرير ، مدكوك البدن ، يرتدى جلبابا تحته جلباب ، لا يبدل .. لا يغير فى الصيف ، رقبته قصيرة ، رأسه مستدير ، شعره قصير أما عيناه فظلمتان ، متجهتان دائما إلى أعلى ، يداه تريان ، تتفحصان ، تحددان المعالم ، لم يدل مخلوق باسمه ، لم يتناول طعامه أبدا على مرأى من أحد .

الشيخ دياب الصعيدى تاجر الورق أخبر عنه فقال : إنه كان مقيما فى بلد قصى بالريف ، عندما جاءه الهاتف يوما ، أمره بالنهوض لتوه .. بالمضى إلى سيدنا الحسين ، ألا يعمل إلا بصناعة المفاتيح ، فلما حاروا اضطرب وردد بينه وبين نفسه ، خلقتهم مبصرين ، وخلقتنى ضريرا ، كرر الهاتف أمره فقام من ساعته قاصدا الضريح ، ولزم هذه الحارة الهادئة ، حيث لا تمر عجلات أو دواب ، ولا تنأى عن المثوى والمرقد ، بجواره صندوق من حديد ، حوله سلاسل تنتظم بها عشرات المفاتيح ، مفاتيح حقائب صغيرة ، أبواب ، مفاتيح ضخمة لأقفال لم يعد لها وجود ، أخرى تمت إلى عصور بعيدة ، مفاتيح

دقيقة، صغيرة لعلب حلي أو ماشابه، إنه غليظ اليدين حتى ليظن الرائي أن بهما ، يمسك المفتاح المطلوب صنع مثيل له ، يتحسس انحناءاته، استداراته، أسنان المفتاح تذكره بالمفاتيح المنتظمة حول الحلقة ، فإذا تضمنت ما شابه أمسك الحلقة ، هزها مرتين ويسحب المفتاح المماثل بدون عناء أو حيرة . أما إذا لم يكن لديه فتبدأ يداه العمل ، لا يغير من وضعه ، لا يغير اتجاه عينيه إلى أعلى ، يصف أمامه مبارد شتى ، مبرد نحيل ، آخر عريض : ثالث كالإبرة ، يتناول كلا بترتيب ، فى دقائق يفرغ !

قال الشيخ دياب إنه معمر ، أدرك هوجة عرابي وأن منظره لا يوحى أبدا بحقيقة عمره ، يحفظ القرآن ، ويتقن القراءات السبع ، صوته يسمع عند باب النصر إذا رتل القرآن عند الفجر ، وتلك مسافة نائية ، لكن لأمر غير معروف كف، لايبتسم، غير أنه رئى مرتين يبكى، ينهمر الدمع من فجوتى عينيه الخربتين ، وكان ذلك إثر زيارتين لرجل هندى يقيم فى فندق الكلوب ، ولم يعرف أحد ما جرى بينهما

يتجلى دليلى هنا

«ولن تعرف أنت ..»

أقول :

«لماذا يا من تغيب عنى ..» !

يخبرنى :

«ليس كل ما يراه المرء يدركه ..»

ثم يقول :

«اعلم أن الجهة الجنوبية عزيزة ، غالية ، فيها ولد أصلك ، وإليها رحل لكن لا تظن أنك باق فيها أبدا ..»

فسأقول : أنا معك بكليتى ، ليس عندى غيرك ، وإنى لصادق ، فإن من أثر فيك ومر بك فإنه يعطيك من الأسرار والخواص بعضا مما عنده ، لذا كان اهتمامى ، وهذا يسرى على من جرى لقاؤهم صدفة ، فما البال بمن عايشناهم وكانوا إلينا أقرب من حبل الوريد ؟» .

الجبهة الشرقية

وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا.

(قرآن كريم)

.. الشرق مطلق ، والغرب مطلق ، أما الجنوب والشمال فنسبيان . نقول الشرق لطلوع الشمس منه ، كذا الغرب لغيابها عنده ، أما ما هو جنوبى عندى قد يكون شماليا عند غيرى .

للشرق الطلوع ، ومسرى الدفء ، والانتظار ، تلد الشمس منها وإلى دنيانا تجىء كل يوم ، عندها يلوح الطريق إلى الأدنى والطريق إلى الأعلى ، إلى المكانة الزلفى ، إلى المستوى الأزهى ، إلى الذروة الأسمى ، إلى حيث الأشياء التى لا تقال ، ولا يصرح بإدراكها بشر ، إليها وليت وجهى .

هكذا أدرت ظهرى لفراغ السطح ، واستقبلت الأفق الممتد حيث تلوح تلال المقطم ، والمآذن مجهولة الهوية عندى ، والقباب المتباعدة وأبراج الحمام ، والسطح المجاور ، الحق أنهما سطحان : الأول منخفض ، والآخر فى نفس المستوى ، المنخفض بيت محمود اللبان ، أسرة كل أبنائها بيض البشرة ، مستديرو الوجوة ثقيلو الأوزان ، أطوالهم متساوية ، أشهرهم فتى أخرس ، كان يطل من نافذة البيت المفتوحة ، المطلة على حارة الطبلاوى ويطلق زعقات غير مفهومة ، النساء يتطلعن إليه عابثات ، ملوحات بأيديهن ، ولأنه لا يمكنه النزول إلى الحارة .. فمدخل البيت من ناحية قصر الشوق ، لذا تجرأ عليه

الصبية ، نادوه بقبيح الألفاظ ، لوحوا له بفاحش الحركات ، جاوبهم بمثلها وبصرخات متتابعة تتزايد حتى تشبه العواء ، عندئذ يدرك الصغار خوفا غامضا فيختبئون بعيدا ، ثم ينقطع حسهم من الطريق .

يعود إلى صمته ، تبقى اطلالته الثقيلة مهيمنة ، غامضة إن الليل يعقب النهار ، والعتمة تذيب ملامح الجهة الشرقية ، غير أنني أبصر فأرى ، هؤلاء رجال سمر الوجوه ، كلوبات ضخمة للاضاءة ، أوعية نحاسية ، ينشطون ، يقطعون كميات كبيرة من البصل ، ذبائح كاملة ، مرق حمرته داكنة تصل رائحته إلى أنفي ، أصابع كفته ضخمة وحلوى مستديرة ، بيضاء تترجرج عند حملها ، تقول الأم : ألماظية ، تلتفت إلى ، تطلب مني الدخول ، شفقة عليَّ من رؤية طعام لا قبل لنا به ، إنه عرس ، عرس من ؟ لا أدرى ، لكنه من الأفراح التي تحدث الناس عنها زمنا طويلا ، هذا ما قاله الأب ، غير أنه قال أين هذا من الفرح الذى أقامته عائلة صبح منذ خمسة عشر عاما ، غنى عبد الوهاب ثلاث ليال ، وبقيت الموائد منصوبة أسبوعا تقدم الطعام لكل عابر أو غريب أو زائر

أبدأ بالطلة ، فأقول إن هذه الجهة عندى هى المؤدية ، فلكى يخرج الأب إلى عمله يتجه إليها ، ولكى يتم الذهاب من الضيق أى الحارة إلى السعة حيث الميدان فلابد من سلوكها ، إنها جهة الذهاب ، منها يكون الرواح ، المجىء منها أيضا ، لكنها ارتبطت عند أصلى بالسعى ، بالشروع ، بالاقلاع

أرى ظلال أبي فى شارع المشهد الحسيني ، عند سفره ، عند عودته مصطحبا جدتى أو خالى بعد وصولها من البلدة ، عند خروجه لتدبير قروش قليلة ليتم بها القوت ، أرى ظلال خروج الأم ، تصحب الأب لزيارة ضريح الحبيب أو تتوجه إلى مثوى شقيقته السيدة زينب ، أو السيدة نفيسة ، سيدى

زين العابدين ، ذلك هو الوقت الذى تبدل فيه واقعها اليومى وتشم الهواء ، وتعطر أنفها وروحها بعبق الأولياء وآل البيت الكرام ، أراها عند خروجها لزيارة أقارب يسكنون قرب القلعة أو مصر القديمة ، أرى ظلالها ، تسعى بمفردها بعد أن عرفت المسالك والدروب ، وانتفت عنها الخشية ، تعبر الميدان فشارع الأزهر حتى مدخل الباطنية لتشترى من جزار يبيع اللحم بسعر أقل ، أما الخضر فتأتى بها من بائعة جنوبية تقعد فى حارة أم الغلام ، تتعاطف معها وتحن عليها لسبب غامض ، ربما قرب الشبه بينها وبين والدتها النائية عنها .

أرى فتاة سمراء ، طويلة ، واسعة العينين ، ترتدى جلبابا منقوشا بورود كبيرة ، لم يكن أصلى على ثقة من اسمها ، لكنه لسبب ما ايقن أنها فاطمة ، غير أنه كان يرهب مظهرها ، كان يخشاها ، وكلما ظهرت فوق السطح المجاور تراجع حتى يختفى عن نظرها ، سمع الأم تقول مرة ــ وإياها تعنى ــ مسكينة .. حظها وحش ، تزوجت عبده الساعاتى لكنها طلقت بعد أيام ثلاثة ، تقول الأم : يبدو أنه ليس رجلا ! ! لماذا كان يخاف فاطمة ؟، لا يدرى ، وإن حاولت من جانبى أن أعلل ، هذا السطح كان من النادر ظهور إنسان فوقه ، كان بلا سور يحيطه أو يحدده ، الحركة فوقه خطر ، وزمان قيل إن لصا مشى فوقه ليلا فسقط عند الحافة ، كان جاهلا به ، ربما عد ظهور فاطمة خرقا للعادة

مرة واحدة أرى الأم تتخطى سور السطح ، تعبر إلى هذا البيت لتزور امرأة كانت تخيط لها جلبابا ، امرأة لها علاقة بفاطمة هذه ، هل عبرت الأم أم لا ؟، ما من شىء يقينى ، فالرؤى غائمة ، والذاكرة التى ورثتها وانتقلت محتوياتها عندى مثقلة ، مرهقة بما هو كثير ، ما أثق منه أن أبو غزالة جاء من هذا السطح تخطى السور ، وقف يتحدث إلى الأب ، راح أصلى يرقبه من مسافة ، نحيل ، طويل ، رأسه مستطيل ، شفتاه غليظتان ، السفلى تبدو كأنها

مقلوبة إلى الخارج ، إلى أسفل ، عيناه مستطيلتان أيضا ، أصلع ، أضفى ذلك عليه حضورا غريبا ، لاشك أنه أثار رهبة أصلي .

جاء أبو غزالة وتحدث إلى الأب حول تركيب مصباح كهربائي في الغرفة ، وقتئذ كان متخصصا في سرقة التيار الكهربائي من مصادره الحكومية ومن وسائل أخرى لم يفصح عنها ، يمد سلكا يجتهد في اخفائه حتى لا تقع عليه العيون ، ينتهي في المكان المتفق على اضاءته أو مد التيار إليه ، كانت الأم تضيء مع اقتراب الليل مصباحا غازيا ، نوره ضعيف ، مجهد للعيون ، غير أن الأب وأبو غزالة لم يتفقا ، لم يتوصلا إلى سعر يرضي الطرفين ، سعر لتركيب المصباح ، وآخر لضمان استمراره يتقاضاه أول كل شهر .

عبر أبو غزالة السور عائدا من حيث أتى ، لم يظهر فوق السطح ، غير أن أصلي رآه مرات شتى عبر السنوات التالية ، رآه يعبر شارع الجمالية حاملا فوق كتفه أجولة قديمة ، فارغة من الخيش ، يسعى من جهة إلى جهة ، مرة أخرى رآه صباح عيد الأضحى يجول الحارات ممسكا سكينا وسيخا حديديا قصيرا ، كان ينادي معلنا استعداده لذبح الأضحية مقابل الحصول على فرائها ، ثم رآه عصر يوم يقعد مهموما عند المدخل الشمالي لضريح الإمام الشهيد ، وفي كل هذه المرات كان يتجاوز الحاضر إلى هذه اللحظة المنقضية ، المندثرة ، لحظة وقوفه فوق السطح ، حواره مع الأب ، مهنته الغريبة وقتئذ ، بعد آن رآه في التليفزيون لم تقع عيناه عليه أبدا .

حدث أن مضى أصلي للفرجة على أول قصة كتبها عند تحويلها إلى تمثيلية ، وكان عنوانها «أيام الرعب» وعند جلوسه للراحة فوجئ بأبي غزالة يمر أمامه ، كان يظهر لمدة ثانية أو أقل ، يعبر طريقا صغيرا ، ضيقا ، لا يغير من تعابير وجهه أو نظرة عينيه ، تثير هيئته الغامضة تلك الخوف في قلب شاب مطارد ، بعد

التصوير فوجئ أصلى به يقترب منه ، يقول متوددا ، ألست أنت فلان ابن فلان ؟ فيومئ أصلى ، عندئذ رجاه أبو غزالة أن يتحدث إلى المخرج حتى يستعين به فى تمثيليات أخرى ، قال شاكيا : تصور يا جمال بك أننى أجيء مرة واحدة فى الشهر مقابل جنيهين .. ، ثم صمت ، واستدار مبتعدا ، لم يره بعد ذلك أبدا ، لا فى حوارى الجمالية أو غيرها .

إلى الشرق يقوم بيت أحمر الطلاء ، ثلاثة طوابق ، إنه بيت الدواياتى الحانوتى ، قال الأب يوما إنه من يجهز موتى قصر الشوق والكفر ، للموت خشية ، إذ تقع عيناه على البيت يحيد نظره بسرعة ، يظن أن الدواياتى يحتفظ بالموتى فى بيته ، لو كشف هذا الجدار لرأى أكداسا مخيفة ، مفزعة ، كثيرا ما استلقى الأب على ظهره فى ساعات صفوه ، يقص القصص ، يذكر النوادر والأخبار ، مما قاله عصر يوم مجهول ، إن ملاك الموت عزرائيل كان يجيء ظاهرا لمن سيقبض روحه ، وأن ظهوره يثير فزعة ورجفة ، وظل الحال على ما هو عليه حتى أسرى بأشرف الخلق أجمعين ، فرجا الخالق ــ بين مارجا ــ ألا يظهر ملاك الموت عزرائيل إلا لمن دنا أجله لا غير ، ألا يراه المحيطون به ، فاستجاب البارى لحبيبه وصفيه . قال الأب إن عزرائيل يمر بكل بيت أو مكان فيه بشر خمس مرات يوميا ، يراجع المصائر .

أرى عروق الخشب التى تسند الأسقف فى بيت الدواياتى بارزة نهاياتها من خلال الجدران ، لذا أمكن تحديد الطوابق ، أين تبدأ ؟ أين تنتهى ؟، على الرغم من خلو الجدار الخلفى من النوافذ ، أولى وجهى بسرعة ، إننى لا أولى وجهى إلا حينما مد أصلى النظر . غير أن ما أثار حنينى من حيث أنى أصل وصورة معا ، وقفة الأم عند هذه الجهة ، إذ تفرغ من قضاء حاجة البيت ، تفرغ إلى وقتها وتلج صمتها ، تنفرد بعنصر وحدتها ، تمشى بجوار السور ، يدها

بلا... أثناء الحركة ، تغطى رأسها بطرحة بيضاء ، فى الموضع عينه تتوقف ، تنظر إلى الشرق البعيد ، إلى الأفق الذى تجهل ما فيه ، تعرف أن اتجاه قبلة الصلاة قريب من اتجاه جهينة فتحددت مشاعرها بالحنين إلى البلدة ، إلى أمها ، إلى شقيقها الوحيد ، إلى الموضع الذى غاب منه أبوها ، أما التطلع إلى الجهة الشرقية فيحرك عندها أحاسيس كامنة لا يمكنها تحديدها أو تعيينها .

تنظر إلى البيوت المنخفضة .. إلى غسيل منشور ، إلى امرأة تخرج من غرفة فوق سطح ، إلى طفل يومئ ، إلى أطراف شجرة بازغة بين البيوت ، إلى غيات الحمام . هذه الجهة مزروعة بغيات الحمام ، إنها تعرف كل غية وما تحوى من كثافة الأسراب المنطلقة منها ، إنها تركز على غبة بعينها ، قائمة على أربعة أعمدة نحيلة جدا كما تبدو من هنا .

فى لحظات معينة يحول ضوء دون رؤية ملامحها ، تبدو الغية كصندوق ضخم معلق فى الفراغ ، فى العصر ترى سلما خشبيا يسند ، يبدأ شاب فى صعوده متمهلا بطيئا ، تتخلله نقلات حادة ، مع توالى الأيام تدرك أنه قعيد ، مشلول الساق ، ترق لحاله ، وإذ يستوى جالسا داخل الغية يبدأ التلويح براياته الحمراء ، إن صفيره منغم ، خص به سربه فاعتاد عليه الحمام يلبيه حتى لو نأى وابتعد ، تتابع ارتفاعه الذى يبدو لا نهائيا حتى نقطة قصية ، ثم ارتداده السريع ، دوراته المفاجئة ، اقترابه من أسطح البيوت ، اختفاؤه خلف مبنى مرتفع ناحية الجبل ، يمد الشاب الراية الحمراء ملوحا ، يتصل صفيره مناديا ، يظهر السرب مرة أخرى ، إنها ترقب اقتراب الأسراب من بعضها ، تتلامس حمامات هذا بذاك ، إذا انتقل بعضها من سرب إلى سرب حق ذلك لصاحب الغية ، لا حرج ولا شكوى ، أو عتب ، تدعو الأم ألا ينقص طائر واحد من طيور هذا الشاب المقعد الذى تشفق عليه عبر الفراغات الفاصلة ، ترق لحاله

من بعيد ، إذ يقترب المغيب ويتزل رداء رقيق من ضوء رمادى مضفيا على زرقة السماء فراغا غير مرئى ولا نهائية موحشة تنبئ بالليل القادم ، هنا يدركها شجى ، تفتقد الأسراب المحمومة تهمس :

«مع السلامة ياحمام الغيَّة ، أشوفك تانى ..» .

تتداعى إليها يمامة الظهيرة التى تجيئها عند انفرادها بحالها، وهذه حمامة ادركها أصلى ، وأثارت عنده الكوامن ، وقد جرى ذلك فى مقام الحزن ، ودون بلسان أصلى ، له الرجعى ، ولى العودة إلى ما كنت عليه ، فالزمن ليس زمنى ، والموجودات لا تخصنى ، والصحب غير صحبى ، الغربة محيطة والوحدة جاثمة ، إلا أنى لا أخفى ميلا بدأ عندى ، ميل يخصنى تجاه أم أصلى كذا أبيه ، يمكننى تحديد لحظة بدئه ، تجاه الأب ، إنها لحظة من لحظات عودته إلى البيت ، يحمل قرطاسا فيه طعام ، وأرغفة خبز ، رأيت فى خطوه ، ملامحه ، حدود هيئته ، الأب ، الأب الذى يسعى ، أما ميلى تجاه الأم فبدأ مع وقفتها هذه متطلعة إلى الجهة الشرقية .

تمكن منى فيض عينيها من حنين وتوق وقدرة على مغالبة الظروف ومعان لا يسعنى الافصاح عنها لأنها من المجردات لذا .. لا تقال ، لو قيلت لدخلت فى المواد كما سبق أن صرحت .

فيا من تنظر أو تتطلع أو تولى وجهك إلى جهة مشرق الشمس ، حد الطلوع ومنبته ، يا من يقدر لك الوقوف عند هذه النقطة المادية التى مصيرها إلى زوال ، ليتك تدرك معنى وديمومة وعمق ورقة وحنو هذه الطلات الأمومية التى حركت عندى الميل ، وأينعت أحاسيس البنوة لهذه الأم ، وإن لم تبدد غربتى ، ليتك .. غيرك أيها الناظر لن تقف أبدا على هذا المعنى الحنون من تلك الحدقتين السمحتين الإنسانيتين ، لم تفيضا بكراهية مخلوق ، أقول هذا عن ثقة تملأ قلبى

هاتان عينان ولتا إلى مجهول ، انطفأتا ، انقضتا ، قفلت صاحبتها عن الحياة الدنيا ، موقن أنا أنه لن يعرفها أحد ، أن مصيرها إلى محو أتم عند من خرجوا من رحمها ، فالأحفاد أنى لهم أن يدركوا هذه الطلة الغروبية وماحوت أو تلك الخفقة القلبية لحظة ظهور يمام الظهيرة ، أو هذه القعدة التى أفضت عندها .

الحق أن أم أصلى هذه كانت بداية صلحى مع العالم الأرضى الذى جئته غصبا ، محكوما بقدر مسبق لن أتعجل ، يقول الخالق البارئ : « ولا تقولن لشيء إنى فاعل ذلك غدا إلا أن يشاء الله» أما الآن فإننى أمعن النظر إلى الشرق ، أرى مطلع الشمش ، وظلال القبور عند سفح الجبل ، وأضرحة قايتباى وبرقوق وبرسباى والخلفاء ، فسبحان من جمع بين الموت والميلاد فى جهة واحدة .

صحراء قايتباى عند أصلى فى سنينه الأولى تعنى الأبدية ، حافة المعمور ، الرمال ، الوحشة ، قبور الراحلين وخلايا الدراويش ، لكم حملق إلى المئذنة النحيلة الرشيقة كأنثى ، الضاربة فى الفراغ بهلال يعلو جوسقا دائريا ، يتساءل : ماذا هناك؟ ماذا فى قايتباى ؟.

عصر يوم بعيد صحب الأب جمال وشقيقه اسماعيل ، إنه احتفال رسمى بالمولد النبوى ، فى صحراء الدراسة تقيم كل وزارة سرادقا كبيرا ، مهيبا ، إنه سرادق وزارة الزراعة ، مقاعد مذهبة ، مقاعد من الخيزران ، مقاعد مرتفعة تتصدر الواجهة ، مذهبة ، مكسوة بقطيفة خضراء .

عند المدخل أوعية ضخمة من نحاس ، حولها طاسات ، رجال سود يرتدون قفاطين بيضاء ، حول خصورهم أحزمة عريضة خضراء ، يقدمون عصير الليمون للوافدين ، نصغى إلى التلاوة خاشعين ، نتطلع مبهورين إلى عربة

مطهمة تجرها خيول ستة ، لقد وصل عظيم ، أرى دخانا يتصاعد عصر كل يوم ، كثيفا ، سائلا ، يبقى لحظات عالقا ثم يتبدد . أرى طائرة منخفضة تجيء من الشرق إلى الغرب ، عند حد معين فوق صحراء العباسية تزرع خلفها على خط مستقيم نتفا صغيرة ، تنتفخ أثناء نزولها حتى يكتمل تفتحها ، تغيب بعد لحظات ، استفسر أصلى ، ممن ؟ لا أدرى ، لكنه علم أنهم جنود مظلات .

هنا تجلى لى ابن عبد الناصر ، كان مبتسما ، ودودا ، شرعت فى عناقه غير أنى أحجمت ، نظر إلىَّ ، عرفت أن هذه اللحظة بالذات شهدها هو ، رأيتها أنا من فوق السطح ، ورآها هو من فوق منصة خشبية أرضية ، إنها الدفعة الأولى من جنود جدد ، قوة جديدة قدر لأصلى بعد سنوات عديدة أن يصحب فصيلاً منهم ، أن يطير معهم صوب منطقة من سماء الصحراء الغربية ، أن يرى لحظة فتح الباب الخلفى للطائرة ، واختفاء الجند واحدا اثر الآخر فى الفراغ المعتم ، مما أدهشنى أن هذه اللحظة لم ترد على ذهن أصلى عند صعوده الطائرة مع الرجال أو عند بدء تحليقها ، فما أعجب ذلك !.

حدث صاحبه الشهيد يوما فقال : بعد قفزى بالمظلة أول مرة ، واثر نزولى إلى شوارع المدينة مشيت واثقا ، وعندى رغبة المجاهرة بما قمت به ، وعندى ثقة لا حد لها ، أرى صدر الشهيد سليما لم يمسه أذى ، أتته الشظية من خلف ، نفذت إلى القلب عبر الضلوع من الظهر ، أمضى ، أطوى مسافات متداخلة ، يلوح لى هذا الملعب ، وتلك المناسبة ، افتتاح نادى الجالية الرياضى ، ساحة مفروشة بالرمال ، خطوط بالجير تحدد وتؤطر ، مدرجات تزدحم بالخلق ، بالونات مثبتة إلى الأرض ، منصة بعيدة عن موضعنا ، محاطة بقماش السرادقات ، لافتات معلقة لا يمكنني قراءة العبارات ، المدى بعيد غير أنى أرى ضباطا يصلون فيدوى تصفيق ، وترتفع هتافات ، ابن عبد الناصر يتوسط

الداخلين ، يقول أحد الجالسين بجوارى :

«سيزرعون تلال الدراسة أشجاراً ..» .

أستعيد وقفة روحية جارتنا إذ تتابع طائرات محلقة ظهر الثالث والعشرين من يوليو ، تقول ،

«الجيش سيرخص الأسعار ، ويجعل ركوب الترام بالمجان !» .

يعلو الفرسان من أول الملعب إلى آخره ، يميلون بأجسادهم حتى أظن أنهم على وشك السقوط ، يفرقعون البالونات المثبتة إلى الأرض ، يقف ابن عبد الناصر ، يعلو صوته ، إنه لطويل ، باسق ، أسمعه يتحدث لكن من زمن آخر ، ليس من هذه المناسبة ، إنما من لحظات شتى ، متباعدة ، متفرقة ، الوقفة فى مكان ، والصوت آت من زمان مغاير ، فصل لى بين ما لا ينفصل ، فما أجل ذلك ، يغمرنى انفعال وتأخذنى رعدات ، أين دليلى ومرشدى ، إنما أنا فى حاجة إلى شرح وتفصيل ، أين ابن عبد الناصر الذى تجلى لى منذ لحظات هينة ، لم يجبنى مرشدى ، إنما بدأ تردد واهن بعيد يتلو فى مسامعى شعرا نظمه ابن جاهين الشاعر ، فأصغيت :

وقف الشريط فى وضع ثابت
دلوقت نقدر نفحص المنظر
مفيش ولا تفصيلة غابت
وكل شىء بيقول وبيعبر
من غير كلام ولا صوت
أول ما ضغط الموت
بخفة وجبروت فى يوم؟

على زر فى الملكوت
وقف الشريط فى وضع ثابت

* * *

دلوقت نقدر نفحص الصورة
انظر تلاق الراية منشورة
متمزعة لكن ما زالت فوق
بتصارع الريح اللى مسعورة
وانظر تلاقى جمال
رافعها باستبسال
ونزيف عرق سيال على القورة
وف عنفوان النضال
وقف الشريط فى وضع ثابت

* * *

لم ارتو ، لم أهدأ ، فزادنى ..
وحشتنا نظرة عيونك للبلد يا جمال
والحزم والعزم فيها وحبها المكنون
وحشتنا عبسة جبينك وأنت بتفكر
ونبرتك وأنت بتعلمنا وتفسر
بسمة الود لما تواجه الملايين
وقبضة اليد لما تدق ع المنبر

* * *

قبضتى أنا تدق ، يدى تلوح ، إنه يتكلم محتدا ، بينما ملامحى أنا هى التى تعبر ، تصفيق يقاطعه بين حين وحين ، ورجل يرتدى جلبابا أبيض وطاقية بيضاء يقف قريبا ، لا أسمع ما يقول ، فنظرى محدق بلحظة مغايرة حط عندها رحله ، أتزود بمعارف شتى ، تلك مكتبة ضخمة ، جدرانها مرتفعة مغطاة بالكتب ، مجلدات مختلفة أشكالها وأحجامها ، أصلى يقف فى القاعة الفسيحة وحيدا ، يقلب صحفا عتيقة ، يتوقف عند عنوان رئيسى مأخوذ عن خطاب ألقاه ابن عبد الناصر فى افتتاح نادى الجمالية الرياضى ، إنه يتمعن ، يدقق ، يحاول استعادة الملامح والمعانى ، يحدق فى صور الاحتفال ، المدرجات المزدحمة ، لا تبدو الملامح فيها ، سمتى هنا ، ملامح الوالد واسماعيل منبثة ، غير أنها مندغمة ، تائهة فى المنظر

عند هذا الحد شعرت بظل على مقربة منى ، تجاه الحد الشرقى ، تلاشت جدران المكتبة وتبددت المجلدات ، ها هو ذا ابن عبد الناصر ، اتطلع إليه وأنا مليم ، كمن اشتاق زمنا لرؤية من أحب ، حتى إذا لقيه أمامه فجأة بدون تمهيد ، لزم السكينة ، نزل عليه صمت ، أخفى أثار الشوق .

تعلم أصلى من أمه ألا يظهر عواطفه ، ألا يبوح بها سهلة ، كلما بعدت البذرة فى عمق التربة ، ازدادت متانة الجذع ، وندرت الثمرة ، غير أننى لم أسكت عن شجى وتأثر ، إنما لعتاب أيضا أضمرته فى قرارتى ، ألم يسجن أصلى فى زمنه ؟ ، ألم يوقع قرار فصله بنفسه ، ولم يكن وقتئذ إلا موظفا صغيرا ، وعندما اطلع الوالد الكريم على امضائه غشى عليه ، أيقن أن جرم ولده شنيع ، ثم .. من أين له بتوقيع مماثل يعيده إلى مصدر رزقه ؟ .

أتطلع إليه :

«انظر من ذرف الدمع عليك ، انظر . من حفظ عهدك ؟ »

«يقول متأسيا :

«لم تخل النية من فتق ، وكان الرتق عين الفتق ..»

لا يكف :

«من بددت شملهم ، عانوا من أجلك ما عانوا بعدك . »

يقول :

«الرضا بالحال عين الموت»

لاح عنده غم ، لم أعبأ ، إنما تأهبت كي أواصل بينما يميل بوجهه إلى ، تلك فترة طالما استعادها أصلى بعد غيبته ، وهنا ، فى هذه اللحظة التى يصعب تعيينها أوتيت من حيث لا أدرى بكتاب قيل لى إن الراحل ابن عبد الناصر ألفه فى البرزخ الأبدى بعد غيابه النهائى عن العيون. ، وأن فى هذا الكتاب شرحا وتفصيلا ووصية ، وتفسيرا لأمور جمة طال غموضها ، وتمادى إبهامها ، أما لغته ورموزه ومعانيه فلا يدركها إلا من قطع مسافة شاسعة فى الطريق .

قيل لى : فض الكتاب واقرأه بعد فراغك مما أنت فيه ، ولا تصرح بمضمونه إلا بعد إذن ، لا تسرف .. لا تفرط ، لا تبدل القول . قيل لى ، أيها النائى ، المغترب ، لا تنس ذاتك ، انتبه إلى غيك ، اذ كدت تتطاول على من تعلق به أبوك وأمثاله من المستضعفين ، فى محاورتك معه غلظة ، هل تجرأت على من تجلى لك من السادة . المجاهدين مثلما تجرأت عليه ؟ هل خاطبتهم بمثل ما خاطبته ؟ انتبه ولا تغفل .

قيل لى : لا تزعم أنك فى الأسفار والمواقف والمقامات كنت شخصا وأنت الآن فى الأحوال شخص آخر .

قيل لى : ما أنت إلا واحد . واصغ إلى هذه المروية ..

قيل لى : إن رجلا حلف الأيمان المغلظة ان العارف بالله الطشطوشى بات عنده ليلة كذا ، فحلف صاحب له أنه بات عنده نفس الليلة فاختلفا ، فاحتكما إلى صديق ثالث، قال لهما ، الشيخ لم يبت عندك أو عنده ، لكنه بات عندى فى هذه الليلة ، وأقسم ، فأرسلوا إلى الشيخ الطشطوشى ليعرفوا الحقيقة ، وليعلموا من حنث فى يمينه ؟ فقال :

«لو أن أربعة قالوا أننى بت عندهم لصدقوا كلهم ..» فما حنث واحد منهم قط»

قيل لى : كن حشيما ، اغمض ..

قيل لى : اعمل الصحبة الجميلة ، واظهر الود ..

قيل لى : الطريق وعر ، والمفازة موحشة ..

قيل لى : ما تجزع منه اليوم ، قد تأنس به غدا ..

قلت : إنى معه بقلبى ، ولكن للمحاسبة أوان ..

قلت : كيف أصبر على ما أمرّ أصلى وأرسى كدوراته .. ؟.

قلت : من يعيد مسلويات أصلى ، من صور وكراسات وأيام شاطة ؟

قلت : من وأد الأحلام الكبرى ؟.

قيل لى : لا تكن جهولا ، تعلم أن الظرف غلب ، وأن الأمر نفد ، وأنه واجه ما لا طاقة له به ..

قلت : لو أن البنية سليمة .

قيل لى : لو أن .. تفتح عمل المساوئ فانتبه .

قيل لى : إن زمنك محيط بك ، ومن أحاط بك فقد أطبق عليك .

قيل لى : ليس لك منفذ مع وجود الاحاطة ..

قيل لى : لا تنس أن الإنسان حيثًا كان ما يزال صاحب فوت ، لأ

الأمر لا يتناهى وما تذكره عن خلقك الأول فى الفائت المستأنف ، والفائت فى الماضى ، فإنه لا يرجع ، إذا لو رجع لتكرر.. وما فى الوجود تكرار أصلا ، وأنت لا يستعاد لك ما انقضى ، إنما تسرى سريان الماء فى الماء ، واللون فى المتلون ، فاطلع على ما أنت كائن..

قيل لى : اعلم أنه لابد لكل مجتمع من افتراق ، ولكل دان من تناء.

قيل لى : أنت وأصلك شىء واحد ، والشيء لا يضاف إلى نفسه ، لأن الإضافة لا تكون إلا بين مضاف ومضاف إليه ، فمالك تضيق ؟ ، مالك تتململ ؟.

قيل لى : إن العالم مربوط ببعضه البعض ، فلم تنبت سنبلة إلا عن زارع وأرض ومطر. عند هذا الحد ، أشهرت المجادلة ، أبطلت الانصياع ، أبطلت المطاوعة ، فنشأ خطر ، إذ تهدد مضيى واستمرارى ، والكف سكون ، والسكون موت ، وهنا أطل على فى سماء رحيلى ، نجم هذا الوجود وسر أنسه ، بهى الطلعة ، سيد شباب الأولى والآخرة ، من اغتيل بعد ظمأ ، صاحب الولاية علىّ بحق وجودى القديم ، وبؤرة وجودى المحدث ، أطل فأملت خيرا ، وحدق عندى ففهمت أمورا جمة ليست مباحة ولا ينبغى تدوينها ، مصانة فى المحظورات ، المحجوبات ، يكف فلا أكف ، يبطل الالقاء فلا أنه التلق ، يرد على سؤاله بدون نطق :

«إلى متى التوقف والرحيل مستمر..».

أقول :

«يا نور الأحبة ، يا من ظننت أن عهدى انقطع به ، يا حسينى ، من رحل تمشى به السفينة وهو قاعد..».

يبتسم ، يترقرق ما بخاطرى وهو جليل ، يقول لى :

جهاتك أصلك ، فارحل .. »
أشير إلى مطلع الشمس ، أقول :
« لم أتم بعد .. » .
يهز رأسه يمينا وشمالا ، أقول :
« سمعا وطاعة .. »
أمضى مستعينا بالله من الضلال ، أسأله الحياطة ، واطابة أخبارى !

الجهة الشمالية

.. جئتها وأنا حيى ، خجل ، مع أن ظهور الحبيب ندانى ، غير أننى استكثرته علىَّ ، والمعروف أنه لا عذاب على النفوس أعظم من الحياء حتى يود صاحبه ان لم يكن شيئا ، كما قالت الكاملة ، المكملة « يا ليتنى مت قبل هذا ، وكنت نسيا منسيا » .

قال من بيده أمرى « ولكن أكثر الناس لا يعلمون » ، وإننى لأحمده وأسبح بفضله إذ جعلنى من أدنى القليلين الذين يعلمون .. هذا فى قديمى ، وأبدى العذر إذ أقول : إننى حتى لحظة استقبالى هذه الجهة لم أتوحد ، لم أصبح أنا هو . فجمال الذى جئت بديلا له عنده خلجات أجهلها وأحاسيس لم تراودنى أبدا ، وتجهم فى غير محله أنا فى غنى عنه ، ورضا زائد عن الحد أستنكره ، وخطايا لا ذنب لى فى تحمل تبعاتها ، واختيارات لم أشرع فى التوجه إليها ، ومعارك لا أرغب فى خوضها .

صحيح أن ميلا هفا علىَّ إلى الأم مبعثه انسانية حضورها ، وشفافية وجودها ، وغربتها فى هذا الكون ، وتحملها المقادير بجلد ، كذا حنين الأب

جهاده القديم والمحدث ، لكننى لست ابنهما ، ما أنا إلا قائم بأمره ، أنا اسم ، سو ، لست على نفسى بمسيطر . أما الصحبة والرفقة فليست خياراتى ، من شرط الصحبة الموافقة ، وأنا لست على وفاق ، قيل لى ، الرضا بالحال عين الموت ، وانى يا سادة ، يا أياما لم أعشها وينبغى لى أن أشهدها ، يا ليالى قدر لى أن أستظل بنجومها ، يا أفلاكا قدر لى أن أدور وتدور بى ، يا أفقا أضنانى الوقوف عند حده أو على مرأى منه ، إنى غير قانع ، غير مقتنع ، أقول هذا وحبك ياحسينى أدثره ولو عندى خصاصة ..

أتطلع إلى الجهة الشمالية حيث تلوح طرق شتى ، من جهات أدنى إلى جهات أعلى ، من مكانة زلفى إلى مستوى أزهى ، إلى حيث ما لا يقال ، لم أر فى البداية شيئا ، لم تلح لى شذرة ، ثم أدركت الأمر ، فثمة ما تبقى لى رؤيته من الجهة الشرقية ، لكننى لن أراه كما ينبغى لى رؤيته ، فالأعالى سأراها أسافل ، والأول آخرا ، هذا فناء خرب ، قام فوقه قديما بيت جميل وسط حديقة فيها بئر عذبة لذة للشاربين ، نوافذه من دقيق الخشب المشغول المبطن بزجاج ملون ، أقام به شيخ جليل من مشايخ الأزهر ، تبرك به أهالى قصر الشوق وتيمنوا ، تحدث الأب عنه ، عن بلدته فى أقصى الصعيد ، عن وقفاته ومما روى عنه أنه قدم للمحاكمة إثر انكسار هوجة عرابى وخمود حركته ونفيه غريبا عن موطنه ، قدم الشيخ إلى المحاكمة ، وعندما دخل على قضاته بسط هيبته حتى على آسريه الانجليز ، ولما سأله القاضى البريطانى :

« هل وقعت عريضة تطالب فيها بعزل الخديو ؟ » .

تطلع إليه القوم ، ما الذى يمكن أن يجيب به شيخ هرم عجوز ، خاصة بعد تساقط من هم أشد منه بعد انكسار عرابى تلك الكسرة المهولة . نزل صمت مهيب ، قال الشيخ :

«لا .. لم أوقع ..» .

إجابة منتظرة من المتطلعين ، المحملقين ، غير أنه لم يكن قد أتم كلامه . قال مواصلا ما بدأه :

«لكننى لو أحضرتم الآن عريضة تطالب بخلعه ما ترددت . سأوقعها فورا ..» .

نزل على القاعة بهت . كان الأب يردد عبارة الشيخ الأخيرة بطرق شتى حتى أنه كان يعتدل لينطقها إذا كان متمددا ، أو يقف متصبا ، ليقولها إذا كان قاعدا . أحيانا وأثناء مشيه يتوقف فجأة ، يمد يده ، يلفظ العبارة بصوت منغم مرتفع ، هذا من طبعه ، أصغى إليه جمال مرارا ، يصف خروج الشيخ منفيا إلى الصعيد، وداع أبناء الناحية له، لم يدخل بيته مرة ثانية، بقى فى إقليم المنيا حتى وافته منيته ، خرب البيت ، نبت الهيش والأذى فى حدائقه ، مالت جدرانه ، هبط سقفه ، وفى زمن أصلى لم يكن قد تبقى منه إلا بقايا أعمدة رخامية مصفوفة ، وشجرة عتيقة قرب فوهة البئر التى ردمت ، غير أنه بعدما يقرب من مائة عام على وقفته تلك ، حصل تدبير وتم نقل جثمانه . أعيد دفنه عند الناحية الشرقية من ضريح مولانا الحسين، صار بين الأكرمين لا يذكرون اسمه إلا مقرونا بسيدى ، أدرك الأب ذلك ، وتزود منه ، طاف بالمثوى ، ناجى سيدى حسن العدوى برقيق اللفظ ، لطالما أطل على بقايا البيت من فوق السطح ، يقول لمن أنجب : هنا عاش عظيم : ثم يردد العبارة ، وكأن الشيخ ينطقها فى ساحة المحكمة . إننى أرى الساحة المسورة مقلوبة ، الباب إلى الغرب مع أن موضعه فى الشرق .

هذا عم رضوان السباك ، يتردد هنا بين حين وحين ، يفتح حجرة بنيت من فلق النخيل، يقضى وقتا ثم ينصرف، أراه منقلبا رأسه تلامس الأرض،

«دماه تخطوان فى فراغ ، بقدر الخطو يكون السعى لسبب ما سماه الأب «عم أونه» يلفظ الاسم ثم يضحك ، اعتاد تسمية البعض بأسماء من عنده ، نطقها غريب ومدلولها عجيب .

أرى «أونة» بوضوح أتم ، كأنه يتطلع عبر فراغ نقى شفاف ، يقول الأب مشيرا إليه ، هو الذى سيصنع لكما الدراجتين ، كثيرا ما تحدث عن عجلتين ينوى شراءهما واحدة لجمال ، وأخرى لاسماعيل ، يسأل أصلى عن عجلته ، كيف هى ؟» يقول الأب «كبيرة» يعاود الاستفسار «أكبر من عجلة اسماعيل ..» ، يومئ الأب ولا يصرح . يسأل ، مالونها ؟» يقول الأب ، حمراء يغضب أصلى ، «وعجلة اسماعيل أيضا حمراء ؟»» يقول الأب «عجلة اسماعيل زرقاء»» عندئذ يبكى اسماعيل ، «أريد عجلة حمراء» ، يصر أصلى اصرارا غتيتا لا يرضينى «كلا .. زرقاء» ، ثم أراه طفلا بعد فأتغاضى وأتجاوز . يصيح الأب عبر السور ، «يا أونة خلص لنا العجلتين» يرفع الرجل وجهه ، لا يبدو غاضبا ، بل باسما ، «العجل ؟ حاضر .» .

أرى فى الخرابة التى كانت يوما حديقة ومتنزها لأهل البيت ثلاثة رجال يجيئون بفرس حمراء اللون ، وثلاثة آخرين يأتون بحصان أسود فاره الرقبة ، أرى هذا كله مقلوبا ، يقف عم أونة مشرفا وناصحا ، ثمة اشارات وأصوات من الرجال الثلاثة ، الحصان الأسود يلتحم بمؤخرة الفرس يشب بقائميه الأماميين راسما خطوطا غير مرئية فى الفضاء ، يهتز جسده ، يتلفت ، يعاود الوثبة ، ترتجف قوائمه، ينفض رأسه يمينا وشمالا ، يتطاير عرف رقبته ، يبدو مزهوا ، مختالا ، مجيدا ، يقترب من الفرس يسمح بطنها برأسه ، ثم يرفع رأسه فى صهيل قوى ، فرح .

يغيب هذا كله ، غير أن هذا الفناء يدع عندى أثرا ، وروائح وأمورا

ستى ، أرى وجها بلا ملامح ، أرى عينين سوداوين ، أرى فما تبرز منه أسنان ذهبية فيثير ذلك خوفا غامضا عندى ، من هذا النثار المتباعد يبرز صوت مذيع متحمس ، إنه مذياع الست وجيدة الوحيد فى البيت قبل شراء الست روحية لجهاز آخر فيما بعد ، المذيع يعلن بحماس عن خطاب ، يردد اسما .. سوكارنو ، أصغى إلى لغة لا أفهمها ، تصفيق ، غير أنه منبثق من لحظات أخرى ، هذا زمن يمكننى تحديد عمر أصلى عنده ، التاسعة من عمره ، أما الوقت فغروبى ، يتدفق صوت ابن عبد الناصر غاضبا ، تتضح ملامح هرج بعد طلقات الرصاص ، يختلط صياح خلق ..

«كلكم جمال عبد الناصر..» .

«ليثبت كل منكم فى مكانه ..»

«كلكم جمال عبد الناصر .» .

يفارق أصلى السور .

«الحق يا أمى .. الحق .. ضربوا جمال عبد الناصر .» .

يسأل اسماعيل :

«كيف .. كيف ؟» .

«ضربوه بالرصاص ..» .

تقول الأم متأسية :

«عينى عليك يا هند .. سيأخذون زوجها الآن ..» .

تعنى بذلك أحمد الهجرسى ساكن الطابق الثالث ، سبق سجنه عام ألف وتسعمائه وثمانية وأربعين ، قضى شهورا وأفرجوا عنه لكنهم يسعون إليه ، يسجنونه ، كلما وقع اضطراب ، أو اختلت الأمور .

حدث أيها الإخوان عند اجتياز أصلى مدخل المعتقل عام ألف وتسعمائة

وستة وستين ، أن نظر إلى الممر المؤدى إلى الفناء ، رأى عم المجرسى ، فى ثياب تشبه قماش أجولة الطحين ، أومأ الرجل مشجعا ـ محييا ، فكر أصلى « إذا خرج قبلى يمكنه إخبار أمى وأبى بمكانى وبحالى »، ثم فكر، « وإذا خرجت قبله فسأخبر امرأته وأولاده .. » ، غاب المجرسى لحظات ، رجع وبيده نصف قطعة جبن مطبوخ قدر الأصبع الصغيرة مغطاة بورق معدنى ، رماها ناحيته ، تلقفها أصلى متعجبا ، « ما هذا ؟ »، أيكلف نفسه مشقة من أجل قطعة صغيرة كهذه ؟ » . بعد أيام قليلة أدرك أن قطعة كهذه تعد من نفائس الطعام هنا » ما أغرب ذلك ! .

عند هذا الحد بدأت أطوى الجهة الشرقية طيا ، يمر أمامى ما يصعب تفسيره من ملغزات ، وما يمكن الإشارة إلى قبس من كنهه ، فمن ذلك وقفة بجوار الأب فى شارع عريض ، عربات عسكرية تمضى متتابعة ، ضباط يرفعون أيديهم بالتحية ، لمن ؟ لا أدرى ، ها هو ذا الأب يمضى وحيدا ، مسرعا ، بمشيته ميل ، عند حدود خلاء فسيح لا يصحبه أحد ، لا يؤنسه أحد ، تبدو ملامحه متعبة كأن مشيه بدأ منذ دهر ، أرق وأشفق ، هذه قمة مئذنة أى مئذنة ؟ ، الأزهر ؟ المؤيد ؟ القلعة ؟ أم الرفاعى ؟ .

أرى حشدا من الخلق ، وجودهم متميع ، كأنهم قدورا من سائل مجهول الهوية ، عربات يركبها جند مسلحون ثم عربة لونها أحمر ، لا يركب مثلها إلا الملك ، إنه فاروق ، الملك الذى يتساءل الأطفال عنه فى الحارة . أيقضى حاجته كبقية الناس؟ أى طعام يتناوله؟ مامدى قوته؟ وإذا صارع ابن جوريون قائد اسرائيل فمن الغالب ؟ فاروق طبعا ، يقول طفل إنه ضخم ، قوى ، يمكنه أن يسحق الآخر فى ثوان ، يتساءل آخر ، لماذا هزمنا فى الحرب ؟، يتساءل طفل ، ومن قال أنا هزمنا ؟. يقول عجوز يجلس على

مقوية عن الحاج عبده مدير الكلوب ، إن فاروق يشرب صباح كل يوم كوبا من خلاصة مخاصي القرود ، وما من امرأة تطيقه ، تغيب الأصوات ، تهليل جماعي ، لحظات نشوة فى ذكر ديني ، جمع من الناس ، لغاتهم غامضة

أرى طريقا ممتدا مدثرا بالظلال فى نهايته مسجد عتيق ، يظهر رجال يتمددون بجوار بعضهم البعض فوق الأرض ، يمسك كل منهم سيفا مشهرا ، حد السيف يلامس الصدور ، عيونهم محملقة ، فيها انتظار واستسلام ، يظهر جواد أبيض ، يمتطيه شيخ مغربي ، عباءته بيضاء ، متوشح بحزام أخضر ، يقترب على مهل شديد ، يدوس أول المستلقين ، لا يمضي مسرعا ، إنما بطيئا يتلفت حوله ، رأس الحصان يتبعه أينما نظر ، عندما يتوسط الطابور يبدأ رقصة غريبة ، يتواثب الحصان فوق السيوف المسلولة ، يتتابع يشبه خروج البخار المتتابع من قاطرة تتأهب للانطلاق ، الصوت يخرج من صدور الرجال .

يتبدل الوقت ، هذا جمع من الناس يلوحون ، يرفعون أحدهم فوق الأكتاف ، يده ممتدة ، يقول شيئا يردده الخلق ، الأب يبتعد بولديه ، ينأى بهما ، يقول «هذه مظاهرة» ، أرى حدأة تحوم ، تقترب ، يظهر عدد منها على ارتفاع قصي ، نقط سوداء تسبح متمهلة ، للسماء لمعة وحدة ، هذه ظهيرة نائية . بعيدة جدا ، تنتمي إلى ماض سحيق ، تحدق الأم وعصابة رأسها تغطي جبهتها حتى حافة الحاجبين :

«تحوم فوق شيء ميت» .

ثم تقول :

«لو أنها ترى كتاكيت طليقة»

يسأل جمال :

«هل ترى من هذا العلو؟» .

تقول :

«إنها ترى سعى النمل . » .

أحيانا تستقر الحدأة فوق هوائى المذياع ، يطيل التحديق إلى عينيها الصفراوين ، المنقار المدبب ، تقول الأم :

«إنها مؤذية» .

يولى ذلك . تولى الظهيرة ، انتظارات الأم ، سكوناتها ، اطراقاتها ، تنأى إلى الأبد أى فرصة أو إمكانية للاطلاع على قبس مما دار فى ذهنها أو عبر مخيلتها . وحرك تداعياتها ، يستحيل هذا كله إلى عدم محض ، أتم ، فسبحان من يحيى العظام وهى رميم .

يولى الصمت وضجيج المدينة المدغم وبقايا الأصوات النائية ، من ذلك صفارة الظهيرة الممطوطة ، الطويلة المنطلقة لحظة انعدام الظل ، يحل اللاشىء فى اللاشىء ، تتحول حجارة المآذن والمبانى السامقة إلى ابخرة نعاسية شفيفة الآن أدرك أن عهدى بالجهة الشرقية قد انقضى ، وأننى شأن من يركب قطارا بدأ يتحرك متمهلا ، تتراجع مبانى المحطة من أرصفة وحجرات انتظار ومقاعد ومودعين ومقبلين ومتسكعين ، تتزايد السرعة فتتقارب الخطوط وتذوب الفواصل ، تنطمس المعالم ، إذا دقق الراكب أرهق البصر وكلّ النظر فيودع المرء أرضا قد لا يبلغها مرة أخرى ، وقوما ربما لن يراهم ، فما تدرى نفس ماذا تكسب غدا ، وما تدرى نفس بأى أرض تموت ؟

أرانى كل يوم فى انتقاص
ولا يبقى مع النقصان شىء

بدأ ولوجى إلى هذه الجهة وأنا أرى أصلى طفلا يعى ، كنت محملا ،

مثقلا بما أشهدته، مع أنى لم ألمح إلا شظايا مارقة، ونثار عمر ظن أصلى يوما أنه مكتمل دائما، لن يبدأ أبدا، لم يتصور أنه سيسعى جاهدا يوما ليتلمس بعضا من سر لحظة ، أو استجلاء غوامض موقف عاشه بملء الحس ونفاذ البصيرة ، ثم على مهل عجيب لا يرصد ولا يلحظ ، نال منه القادر على كل شيء فطمسه ، كأنه تلك العملة المصبوبة من فضة أو نحاس أو حديد ، ومع انتقالها وتداولها وطول حفظها تبهت وتملس ويغيم المعدن ، تتغير ملامحه بدون صهر ، إنما بتأثير ملامسة خفيفة تعقبها أخرى ، لا يمكن تحديد اللحظة التى وقع فيها التغير أو التحول ، هل يمكن لمخلوق تحديد اللحظة التى تم فيها مشيب شعرة من رأسه أو لحيته ؟ .

أصلى أدرك جوهر الخفى الذى لا يرى ، من يبدلنا دون أن ندرى ، يغير قسماتنا بغير أعلامنا ، أدرك أصلى أنه محيط بنا ، متغلغل فينا كطعم الثمرة فى الثمرة، كاللون فى المتلون، كالاسم فى المسمى به، فإذا توجه النظر فإليه، وأن تم السمع فمنه ، وإن اكتمل العقل فعنه ، وإن سعى الفكر ففيه وإن هاج الشوق فاليه ، «إن ما توعدون لواقع » .

هب علىَّ نسيم بلل روحى ، لا عجب ، أليست الجهة شمالية ؟ مصدر اللطائف والنسائم الرقيقة ، قصدت التوجه إلى هذه الجهة فعبرت عرض السطح ، لا شيء يتخلل السور الشمالى ، لا غرفة أخرى ، ولا دورة مياه . ولا منور ، مصمت ، غير منقوص ، أتم ، فوقه كان جمال يدفع العربة الصغيرة التى اعتاد الأب شراءها أيام الأعياد يمشى رافعا يده ممسكا بها ، يديرها ، يحاذر ألا تقع ، وراء السور فراغ يؤدى إلى الحارة مباشرة

مع اقتراب العيدين الأكبر والأصغر يصحب الوالد الكريم ولديه إلى الموسكى ، يقفا حائرين ، زائغى البصر ، تغمرهما روائح شتى ، البالونات ،

الطلاء الحديث ، صناديق الورق المقوى ، قش توضع فيه الأوعية القابلة للكسر، ألوان اللعب مبهجة براقة ، أثناء العودة لايطيق أصلى صبرا، يحاول فتح العلبة، يقول الأب ناصحا «انتظر» ، عربة زرقاء يجلس داخلها سائق صامت أبدا ، يوقن إنه يتحرك ، يفارق السيارة أثناء الليل ، قبل اغفائه ينصت ، ربما يستمع إلى خطاه ، عربة ترام ، من كل نافذة يبرز وجه راكب ، غير أن لون العربة أحمر أما ترام شارع الأزهر فأصفر ، وقد حيره هذا زمنا ، وشغل من ذهنه وقتا ليس هينا ، اسماعيل يختار لعبة مختلفة ، جمال يتقرب منه ، يتودد إليه يطلب منه مشاركته اللعب ، يقترح المبادلة ، العربة مقابل الدبابة ، يستدير مرة أخرى ، يقترح ضم هذه إلى تلك ، يقدمها اسماعيل طائعا ، إنه يلبي ما يطلبه يقلد ما يفعله ، يتشبه به ، حتى إذا تم الأمر وحاز اللعبتين انفرد بهما ، لا يعبأ ببكاء أخيه .

هنا أمعنت النظر فى أصلى هذا، إنه طفل مازال، ولكن تبدر منه قسوة تجاه شقيقه ، لا أذكر أننى كنت على شيء من هذه القسوة فى خلق الأول ، بل إننى دفعت الكدورات عن أشقائى، أما جمال هذا فلكم يبدو مأوى ومجمعا للمتناقضات ، وملتقى للمتباينات ، يتحايل حتى يستأثر بحاجات أخيه ، وإذا بكى اسماعيل لا يعبأ ، غير أنه عند نزوله الحارة للعب يتذكر شقيقه ، فيود لو عاد إليه مسرعا ، يدركه ندم ، يقول لنفسه ، ليتنى لم أضايقه ، أنه صغير ، يرتجف خوفا من احتمال اصطدام اسماعيل بشيء صلب أثناء جريه ، أو تدحرجه فوق درجات السلم ، يعد النفس ألا يضايقه ، أن يترك لعبه ، ألا يحاول الاستئثار بها مرة أخرى ، حتى إذا عاد إلى السطح ، ودخل الغرفة ، ورأى اسماعيل ، عاد سيرته الأولى .

منذ البكورة وأصلى دائما فى الفوت، عنده القسوة، وعنده المنة، وأشد

ما يظهر منه بهذا الخصوص ما يبين عند المضاجعة ، لكم يبدو رقيقا ، يمس الشفتين مسا ، ويلامس النظر بالنظر ، ويمر بأطراف الشعر ، وعند لحظة بعينها قد ينشب أظافره فى كتفى المحبوبة فتفلت منها آهة ، أو يتشبث بالشعر فيشده ، أدركت لور ذلك فى خلقه البديل ، قالت له ، «أبنت توجعنى» ، ثم قالت فى لحظة الاسترخاء ، «بقدر ما فيك من رقة، بقدر ما عندك من عنف..» ، يحيرنى أنا من حللت محله ، أى يحير ذاته بذاته ، فما أتعسه ما أبأسه .

كدت أعلن الضيق وأجهر بالأسى على ما آل إليه حالى ، غير أننى ذكرت مولانا الأقدس ، وتجليه لى بعد غياب ، فخجلت وكتمت ، وحدقت البصر إلى هذه الجهة ، وقد اختصت بعمارتها بالنساء ، لذلك هى الأرق ، الألطف ، الأرطب .

اعلموا أن هذا السطح هو الأعلى ، ليس فى حارة الطبلاوى ، إنما فى ناحية قصر الشوق أمامى بيتان متلاصقان ، متشابهان ، سبقت الإشارة إليهما ، الأول يعرف ببيت «خضر» ساكن الطابق الأول ، عنده دكان لتصليح مواقد الغاز وفيه مآرب أخرى ، المجاور له يعرف ببيت الفيومى ، نسبة إلى عائلة قيل إن أصلهم من ناحية الفيوم، نوافذهم لم تر مفتوحة إلا نادرا ، وعلى أوقات متباعدة ، ثم عرف فيما بعد ببيت الكودية ، بعد أن نزلت به عائلة سودانية تخصص أفرادها فى إقامة واحياء حفلات الزار ، قيل إن بانى المنزلين شخص واحد . ثم بيع أحدهما إلى تاجر ، والثانى إلى آخر .

قبل امعان النظر لابد من ذكر القوائم الخشبية المثبتة إلى السور، فمن ذلك القائمان النحيلان الخاصان بهوائى مذياع أحمد عمرو ، وقائمان آخران أغلظ وأخشن. الأول فى الزاوية اليمنى، والثانى فى اليسرى، قرب منتصف كل منهما عارضة خشبية تثبتها ، إليها يشد حبل الغسيل ، فوق العارضتين يشب

أصلى ، ينظر إلى ما وراء السور ، إلى الأسطح المجاورة ، يتطلع إلى أفق الدنيا ، إلى الخيالات النائية ، إلى الصور الباهتة ، يرمق «صفاء» . تطلع إلى سطح بيت خضر عصرا، دائما بمفردها، تسقى الدجاج والبط والأوز فى عشة الصفيح ، أو تلم الغسيل الذى جف ، تبدو مرتدية جلبابها ، بلا أكمام فهى عارية الذراعين ، أحيانا تطل من السور المواجه ، تميل ، ينحسر ثوبها حتى يتعرى باطن الفخذين ، هذا ما ثبت منها فى وضع أصلى ، تلك الانحناءة ، امتداد ذراعيها إلى الحبل ، هذا أمر لا يخص أصلى وحده ، إذ نرى شخصا مدة من الزمن ، فإذا تقدم الرحيل بنا ، ذلك رجع بعيد ، إذا استعاده وعينا الحفيظ ، لا تذكره إلا فى وضع معين ، أو بعبارة واحدة تتبقى من كل ما لفظه ، لا ينطبق هذا على الأغراب وحدهم ، بل يشمل ذلك الأقربين ، تبصره لما تبقى من الذكرى .

انظروا الىَّ مثلا ، إذ عرفت ما لم يدركه غيرى ، خلق أول منقض تماما ، وخلق ثان مفروض على ، مكلف به ، وإذ أستعيد واحدا ممن عرفت ، أو قريبا ممن أحببت ، فلا أراه إلا فى وضع بعينه ، لا أعى من لفظه إلا جملة .

إنى لمخبركم الآن بواقعة أرجأت تدوينها حتى الآن ، إذ حدث بعد نزولى مباشرة مدينة فاس المباركة ، وبعد مضى وقت يسير على ، مع أول خطوى فى الطريق ، أنى تمنيت من سادة الديوان زيارة البيت لأتبرك ولأتمكن ولأستوثق ، فاستجابوا لى ، على أن يلزمنى دليلى ومرشدى ، الفارق بيننا أنه مستتر، أما أنا فباد إذ أن ظهوره بين القوم وفى هذا الحين بالذات سيثير فتنة ولجاجا ، كفاهم ما هم فيه .

أثناء طوافى بالكعبة رأيت رجلا يتخذ وضعا معينا ، إذ كان يقف منحنيا إلى الأمام قليلا ، وفى عينيه تساؤل قديم ، لمت نظرى وضعه ، فلما دققت

النظر وتحققت تبين لى أنه جد من جدودى الأقدمين ، سمّى لى نفسه ، سألته عن زمان مدته ، فقال لى ، منذ سبعين ألف سنة ، سألته عن آدم أبو البشر ، فقال لى ، عن أى آدم الأقرب أو آدم الأبعد ؟ ، فقلت : اياك أعنى ، قال لى ، لا أعلم للعالم حدا نقف عنده لأنه ما يزال خالقا ، وما يزال دنيا وآخرة والآجال فى المخلوق بانتهاء المدد لا فى الخلق ، فالخلق يتجدد مع الأنفاس ، فاستفسرت لماذا يتخذ هذا الوضع ، لم هذه الوقفة ؟، يقول لى : لأن هذه الوقفة يذكرنى بها جل أحفادى ، ولو أنك ممن رأونى حيا أسعى لما ذكرتنى إلا بها ، لذا أتخذها دوما كلما تجليت لأحدكم ، ثم قال : إنى مفارقك إلى لقيا لن تتم ، عندئذ أختفى من محيط نظرى ، غاب عن ادراك بصرى ، وبقيت فى الطواف ، لكننى .. لماذا أثقل ، وأذكر لكم الملغزات ؟ إنى لمتسائل ..

وهنا رأيت دليلى .

«أنت تغرب .. » .

أستفسر :

«أليس ذلك عين الطريق ؟ » .

يأمرنى :

«الزم الخطة .. »

أجادله :

«إنى مدون ما يتراءى لى» .

يقول :

« أرجئ ذلك .. » .

استفسر :

«إلى متى ؟ » .

يقول :

«إلى أن يشاء صاحب الأمر كله ..» .

أمتثل ، ألزم الجهة الشمالية ، أضمر مانويت ، لم أحد ، التحذير قاس ، وأنا أجهل العاقبة ، أعاود النظر ، ها هى ذى صفاء ، تمشى ، تتوقف ، تضرب الأرض بمقدمة حذائها ، تطوف عند أصلى عواطف مبهمة ورؤى ، يرغب البقاء متابعا ومحققا ، لو تأخر ظهورها يشـ ـ ، البصر عند مدخل السطح ، تدركه وحشة ، يثقله فقد ، تجىء ، تطل تجاه الناحية الغربية ، تشير بيدها ، فى البدء تلويحاتها خجلى ، حيية ، تحاذر أن يراها أحد ، ترقبنى ، تعرف اننى متطلع ، شاخص ، غير أنها تبتسم ، أو تحيد البصر عنى ، ثم ترجعه تجاهى فجأة ، أخجل ، ثم أتابع النظر ، اشاراتها أكثر جرأة ، إلى موضع الساعة حول المعصم ، أصابعها ترسم أرقاما ومعانى ، ترفع باقة أناملها إلى فمها ، تقبلها ، تشيع قبلتها عبر الفراغ ، لمن ؟ لا يرى أصلى أحدا فى مدى رؤيته ، البيوت فى هذه الجهة منخفضة ، تبدو الحجرات المنعزلة فوق الأسطح ، إحداها قريبة ، نافذتها دائرية ، حيره ذلك ، لماذا النافذة دائرية ؟ تمشى صفاء مطرقة .

لا يدرى أصلى متى ظهر محمد أبو رأسين ، شاب طويل ، عريض الصدر ، منتفخه ، لذلك يبدو مائلا إلى الخلف فى وقوفه أو مشيه ، أخته زكية طويلة جدا ، الغريب أن أمها قصيرة ، نحيلة ، أما والدهما فلم يره أحد ولم يعرفه أحد ، يبدو أنه يعيش فى مكان ناء ، إن محمدا ضخم الرأس ، ناتئ الجبهة ، عريضها ، عيناه واسعتان ، يقال فى الحارة إنه تراهن على جر عربة بأسنانه ، وقد فعل ، قيل إنه مدرس ، وأنه يرفع الأثقال بنادى الجمالية الجديد ، متى ظهر محمد هذا فوق السطح المجاور لصفاء ، والذى يمكن

اعتباره امتدادا لسطحها عدا سور نحيل عرضه طوبة واحدة يفصلها .

فى البداية كان يقف عند أقصى السور بقامته الفارهة ، موليا وجهه شطر الجهة الشرقية ، موليا صفاء ظهره ، بينما تلملم غسيلها متمهلة ، أو تعلق الملابس إلى الحبال ، إيماءة تقابلها إيماءة يوما بعد يوم يقتربان ، يعقد يديه أمام صدره ، تضربه بقبضتها ، لا يرد ، إنما يبتسم ، مرة تالية يمسك معصمها ، يشدها ، تتلفت حولها ، عبثا تحاول تخليص نفسها ، تشير ناحية البيوت ، إلى الفضاء فوقها ، غير أنه يجذبها على مهل ، أصلى يثنى ركبتيه حتى لا يرى ، يدرك أن ما يشهد يستوجب اختفاءه ، يتواريان خلف الغسيل ، ينحنى ناحيتها ، الضوء الرمادى يغمق ، تتحول البيوت إلى ظلال ، تتميع الملامح ، تتداخل الفواصل ، يتردد صوت مناديا صفاء . ترد بصوت متخمر ، متخثر ، الأم تنادى على أصلى أيضا وكأن النداء جالب للنداء ، تطلب منه أن يعود إلى الغرفة ، الليل مكتمل ، تخشى عليه مما يدب فوق السطح ، مرة قتلت عقربا ، ومرة رأت ثعبانا طوله أكثر من متر ، البيوت عتيقة ، والشقوق عديدة ، والخطر كامن ، يجيب أصلى « حاضر » ، غير أنه يحدق ، عله يفسر الملامح ، ما يجرى فى العتمة .

بعد حين . يسمع أطيط شبشب صفاء تنزل السلم متمهلة ، مودعة الفراغ منها أثرا ، بينما يتردد صفير محمد أبو رأسين ، إنه يتجه إلى السور المطل على ساحة عم «أونة» ، لا يكف عن صفير مبتهج ، منغم ، يوقن أصلى أن صفاء فارقت ، فيرتد عن السور وبصدره أثر حز لانكفائه زمنا .

عصر يوم آخر ، لم أحدده ، وإن أيقنت أنه خريفى ، ها هى ذى صفاء على مرأى من أصلى تعانق أبو رأسين ، إنها أقصر ، تقف بين ركبتيه ، إنه يجلس فوق السور غير عابئ ، هى لا تعبأ ، لا تبالى ، لا تتلفت حولها خائفة

هذا مغيب يوم آخر ، أصلى يلعب عند نهاية السطح ، غير أنه مصغ إليهما ، الحارة تتكلم عن صفاء ، تقول الأم : «دم يكسر رقبتها .. إنها فاجرة»، يقول الأب: «إنه ينام معها لكنه يحفظها بكرا»، ثم يقول «كثير من بنات مصر يفعلن هذا» ، تقول الأم : ماذا يتبقى بعد أن تتعرى البنت وتشلح سروالها يقول الأب: «تربية ناقصة»، ثم يقول: «أهلها يحاولون لها بأية طريقة»، أتراجع إلى الوراء قليلا، تلك خلوة كلامية يتحدثان فيها، صوتهما هادئ ، والتوتر ناء ، والهم بعيد ، أما اللحظة فمدثرة بظلال العصر الرمادية ، ورائحة الغسيل المنشور ولم يجف بعد ، أصوات الطريق بعيدة ، وضجة المدينة نائية ، باهتة .

تلك أيام تالية ، السطح يخلو من صفاء ، لا تظهر أبدا ، امرأة عجوز تطلع لتسقى الدجاج وتطعم الأوزة وتقضى الحوايج ، ها هو ذا أصلى فى الحارة ، يرى شابا أحمر الوجه ، أشقر الشعر ، شعيرات رموشه خفيفة جدا ، لا يقدر على التحديق فى الضوء الطبيعى ، يسمون أمثاله عدو الشمس ، إنه فتحى الكهربائى ، قال قائل من الجيران : «أراد أبوها أن يستر عليها ، زوجها إلى فتحى ، هذا» ، صفاء تعبر الحارة ، إنها منتفخة البطن ، تمشى مطرقة ، نحل جسمها ، تهدل صدرها ، مال بعد نهوض ، كف ثدياها عن النفور الأشد ، إنها فوق السطح ، تقعد فى الشمس ، على حجرها رضيع ، تخرج ثديها الأيمن ، رخوا ، مستطيلا كشمامة ، إنها وحيدة ، تحملق فى الفراغ ، تحط التراب بأصبعها ، قد تتطلع أحيانا إلى السطح الآخر ، لكنه تطلع عابر ، غير متأن ، ماذا يعبر خاطرها والسطح خال ؟.

هذا أصلى يمشى وراء محمد أبو رأسين فى حارة الوطاويط ، إنه بصحبة زميل له لا يسمع من حوارهما إلا عبارة واحدة .. «مجهد أكثر..» ، لم يدر

أى شىء مجهد ، ماذا يقصد ، غير أن ما يمثل فى وعيه أن هذا الضخم عانق صفاء ، وشدها إليه وأقعدها فوق حجره ، أحاط بنهارها ، وعجل بدنو عصرها ، إن صفاء تدخل الحارة الآن تحمل على كتفها طفلا لا يمكنه المشى ، تمسك بيدها آخر يمشى ، تلتقى عيناها بنظر أصلى ، تجهله ، ربما لا تذكر أنها لوحت له .. لم تخرج لسانها يوما له معاتبة ، يمشى أمامها فتحى عدو الشمس ، امرأة البنان تقول عنها : «سبحان من هدها كانت فائرة» .

يدرك جوهر المعنى ، يستعيد حركتها فوق السطح ، مشيها ، استدراتها المفاجئة مفرودة الذراعين ، انحناءها فوق السور ، هذا كله راح أوانه ، لكنه أودع عنده أثرا ، فلم ير صبية ترتدى فستانا ينتمى إلى اللون الأصفر ودرجاته إلا طفت صفاء إلى وعيه ، ولم ير شعرا ذهبيا هفهافا إلا استعاد خصلاتها أو استرخاء ضفيرتها الغليظة، ولا يسمع نداء أنثويا متأججا متلهفا إلا أصغى إلى بقايا صوت صفاء النائى إذ ترد على أمها التى تتعجل نزولها، ولم ير راقصة منتشية مزهوة إلا استعاد دورانها فوق السطح وامتداد ذراعيها كأن كل عضو منها يبغى المضى إلى الطريق ، أما طيورها التى أطعمتها الحب فقد ذهبت ، خلت عشة السطح منها ، مالت جدرانها وانكشف داخلها ، وعاء مستدير معدنى بقى .

أودع هذا كله عنده حزنا فريدا ، صار جزءا من أحزانه الكامنة التى لازمته أو صاحبته ، حزن شجى كالهواء الذى يعقب المطر ، كعلامات دالة على أنواء قادمة ، وحيث أن النظر أحاط بصفاء ، فإنى محدثكم عن الحمراء صحيح أن موقعها بعيد ، غير أننى أعد بالاختصار قدر الطاقة ، ذلك أن الأسرة اعتادت قضاء الصيف فى جهينة ، استمر الحال على ذلك ، حتى عام ألف وتسعمائة وستة وخمسين ، يصحبهم الأب ، يقضى أياما معدودات

يطوف خلالها بالأقارب والصحب ، يسلم ويطمئن ويستفسر ، ثم يعود إلى مقر عمله ، فى نهاية الصيف يجىء إلى جهينة ليصحب الزوجة والأولاد

كان جمال قد قطع من الطريق ست أو سبع سنوات ، هنا لن يمكننى تحديد ما لم يقدر على تعيينه هو ، فالحمراء أول من تعلق بها قلبه ، أول أنثى حركت مشاعر كانت فى هذا الزمن غامضة ، غضة ، الحمراء فتاة من الحد الشمالى لبيت خاله ، تمت إليه بصلة قرابة ، تجىء للسلام ، تقضى وقتا فى البيت تساعد امرأة الخال فى قضاء بعض الشئون ، هى ممشوقة ، فارهة العنق ، حريرية الشعر ، لملامحها صدى فى النفس وترجيع ، ابتسامتها مضيئة يتمنى المرء دوامها ، أما عيناها فكأنهما حفتا بترديد ضوئى غير مرئى ، منها تفوح خميرة الأنثى ، إذ تبدو يتبعها أصلى ، لا يحيد بوجهه عن عينيها تداعبه ، يقول لها : تتزوجينى يا حمراء ؟ ، تضحك أمه وتضحك جدته نجمة وتضحك الدودة التى تلقته على يديها عند مجيئه إلى الدنيا تقول : «كل هذا يطلع منك يا ابن الغيطانى ..» تضحك الجارات ، يضحك الوقت ، تقول نجمة : «الحمراء ستتزوج ولد الحويج» ، عندئذ يجعر أصلى ببكاء ، يضرب الأرض بقدميه ، تميل الحمراء عليه ، تغمره رائحتها المخملية ، تقول له ، «لن أتزوج غيرك يا جمال»

إذ تنصرف من البيت ، يتسع المكان ، يشعر بفراغ .. كأن قبضة لا مرئية انتزعت قلبه ، ثم قفلت السنون يجر بعضها بعضا حتى شد أصلى رحله إلى جهينة بعد تمام طريق الأب وبدء هجرته العظمى إلى الحق .

فى صحن بيت الخال الذى بدا ضيقا قعد فوق الدكة بالمدخل ، جاء جمع للسلام عليه ، ولنطق عبارات العزاء ، كان خاله الذى قارب بصره على الكف يعرفه بهم ، ويذكر الاسم متبوعا بالقرابة ، جاءت امرأة بيضاء ، نحيلة

تخفى شعرها بطرحة سوداء ، لم تنصرف ، إنما قعدت فى مواجهة جمال ، تنظر وتبتسم ، ترفع الملامح المثقلة بالغضون وتبتسم ، قالت امرأة الخال : ألا تعرفها ؟.. إنها الحمراء ؟ لم يبد عليه رد فعل يشى بأنه استعاد ، ملامحه بقيت جامدة ، كررت امرأة الخال : «إنها الحمراء»

حدق بعينين جامدتين ، عندما قامت الحمراء صافحته ، فوجئ بخشونة يدها ، تقدد جلدها وتشقق ، قالت امرأة الخال : «مسكينة .. بعد انجابها خمسة طلقها زوجها وتزوج أخرى من طهطا» ، لم يجب أصلى ، تذكرها ليلا ، ما بين اليقظة والنوم ، انتبه مستعيدا هيئتها فى القديم الآفل ، وفى المحدث ، تأسى ، وتعجب ، فتقلقل نومه ، تمنى لو يراها مرة أخرى ، لكنها فى النهار التالى لم تأت ، وكان عليه أن يفارق ليلحق قطار الثالثة ، فسبحان المبدل ، المغير ، مقلب الأحوال واليسر ، من أدرك أصلى كنهه بعد اجتيازه مقام الجوى فحكم عليه بالتذرية فى فضاءات الكون ، فمن يرده إلى ميعاد ؟ ذلك رجع بعيد ، صعب ، مستحيل الشروع فيه ، أو الخوض ، لذا أنا محدثكم عن علياء .

هذا صباح ناء ، يقف أصلى فوق أرض عطفة با جنيد ، لهذه الفترة من النهار طابع وملامح، لا ضجة تسمع إلا صياح الأطفال، إذ يجرون، يتنادون ، نوافذ معظمها مفتوح ، الأغطية معرضة للهواء ، مبسوطة عند الحافات ، وقت التنظيف وترتيب الحاجات ، قد يسمع سقوط آنية ، أو خبطات تنفض التراب عن وسادة أو حشية ، بعد قليل سيبدأ دخول الباعة ولمجيئهم ترتيب ، اقتضته الحاجة فهو غير مقصود فى ذاته ، أول القادمين باعة الخضر ، باعة البصل والثوم والحبوب من فول وقمح وذرة ، أما بائع السمك فلا يجيء إلا ظهرا ، باعة البطاطا المشوية وحلاوة رماد والفطائر يهلون

عصرا، ألحظ ما لم ينتبه إليه أصلى ، إنه لاه ، سادر فى غيه ، حدود دنياه هذه الحارة ، الاحساس بالبعد ، بالنأى عن موطن الألفة ، يبدأ عند فرن الحاج ناصيف الذى يقع على مسيرة ثلاثين خطوة من البيت وعنده تنحنى الحارة ، مع انقضاء الأوقات وسعى الدهر تطول المسافة وتمتد وتعظم حتى تترامى إلى أطراف الكوكب الأرضى ، لهذا تفسير ربما أتيت به ، لكن فيما بعد .

هذا صباح بعيد ، أصلى لا يعبأ بتحديد الوقت ، ليومه علامات بهتت بعدئذ وتلاشت ضمن ما تبدد من مكنونه الدفين ، من ذلك مجىء النهار وغروبه ، وخروج الوالد إلى سعيه كارها ثم عودته ، وفراغ الوالدة من تنظيف البيت وترتيب الفراش ، وبدء قعدتها أمام الغرفة ، كذا وقت النزول إلى الحارة للعب ، ها هو ذا أصلى يقف مرتديا جلبابه وصندله الجلدى ، لم تسمح له الوالدة بالنزول حافيا قط ، تخشى شظية مدسوسة أو ذنب عقرب ، أن ينتظر من يماثله عمرا ليلعب معه ، ها هى ذى علياء تقبل ، نحيلة ، سمراء ، طولها يماثل طوله ، كذا نحافتها ، غير أن بشرتها شاحبة ، إنها واسعة العينين ، ناعمة شعر الرأس .

تقول : « تعال نلعب ستات » ، تمسك يده ، يتبعها صامتا ، لعبها مرات ولكن فى جمع ، يجلس كل صبى وصبية فوق بسطة من السلم ، يرصان علب السجائر الفارغة ، وصندوقا أو اثنين من الصفيح ، تصبح هذه العلبة سريرا ، والأخرى صوانا ، أما الابنة أو الابن فعروس محشوة بالقش !

يحدث أن تطلب منه رفيقته زيارة الأقارب ، فلا يكلفها الأمر بعدا أو مشقة ، ما عليها إلا الصعود بضع درجات أو النزول ، لم يلعب إلا جماعة ، أما الآن فهو بمفرده ، شعور غامض يبدأ عنده لحظة اجتياز البوابة ، رائحة

تراب مغطى بالظل زمنا طويلا ، رائحة أخرى لا يدرك كنهها ، ربما بقايا مبيد حشرى ، أو آثار عطن ، باب الشقة مغلق ، أم علياء تخرج فى هذا الوقت ، يقال إنها تعمل دلالة ، تبيع بضائع فى حوار بعيدة ، منذ زمن توفى والد علياء ، ثم تزوج أحد أقاربه أمها ، هذا رجل لا تقع عليه العين إلا نادرا ، يخرج مبكرا ويعود فى غميق الليل ، لم يره أصلى أبدا .

علياء تفترش الأرض تحت السلم الذى يرتفع درجة ، درجة ، مؤديا إلى الطابق الثانى حيث يسكن محمد أبو رأسين ، يذكره فيستعيد صفاء وفردها ذراعيه ومشيها فى الأرض مرحة على أطراف أصابعها واقترابها من محمد وعناقها والدهشة والوجل والنظرة المختلسة ، علياء تدنو منه ، تمسح شعر رأسه يبادلها فعلا بفعل دون أن يفقه قولا ، يميل إليه ، تسند رأسها إلى صدره ، تنظر إليه بعينى طفلة صغيرة وتعبير أنثى مستوية مستعار من بعيد .

حرت فيما أطلع عليه .. هل رأت عينى أمها عند المضاجعة ؟ تقبله ، تهمس «تعال نعمل زى ماما وزوجها» ، لا تنتظر رد فعله ، إنما تتمدد ، تراب ناعم ، آثار بلاط مخلوع ، طلاء أصفر قديم ، تشلح جلبابها ، تزيح سروالها تباعد ساقيها فيواجه فرجا ، صغيرا ، دقيقا ، أملس ، شقه كخط قصير ، إنه الأول الذى يراه ، لم ينمح أبدا من مخيلته ، تشده إليها ، «يالله يا حبيبى» يخلع عنه سرواله ، تحتضنه ، تهزه ، ترفعه ، تخفضه ، ولأنه جاهل للفعل فإنه يهز جسده يمنة ويسرة كأنه يتأرجح ، وهذا مبهم ، ذلك أن رد فعله جاء تلقائيا ، ثمة فكرة مسبقة عنده ، من أين واتته فى هذه السن المبكرة ؟ ، لم أقف على المصادر ولم أعرفها ، إنما المقصود من وقوفى بهذا المحط أمر واحد لاغير ، اطلاعى على هذا الفرج الأول ، فيما بعد رأى فروجا عديدة .

عند هذا الحد نهيت عن الاستمرار ، فهمت أن الأمر ليس مشابها لما كان فى دهرى الأول ، وأن تفصيلى مثل هذه الأمور قد يثير لجاجا ونفورا ، وربما سبب لى نصبا ، فامتنعت ممتعضا ، فقد وددت صادقا أن أفضى إليكم بسيرة كل فرج ولجه أصلى أو لامسه كذا وصفه ، غير أننى أعتذر . لذا أكف مكتفيا بذكرى هذا الفرج الذى صار إلى عدم عدا طيف ملامحه التى بقيت عند مخيلة أصلى ، فقد فنى منذ زمن ، كيف جرى ذلك ؟ ، هذا ما أذكره فى عجالة ، بعد اجتيازها الصبا ، صارت فارغة ، لا تتلفت حولها أثناء مشيها ، يراها ، تلتقى عيناهما ، فكأنها لا تعرفه . يفكر ، تتجاهلنى ، ويوما ما اطلعت على ما تخفيه الآن .

عصر يوم سرت ضجة تنذر بشؤم ، خرج إلى الشرفة ، أطلت الأم ، الكل مطل ، منتظر ، يعبر الحارة ضابط وراءه ثلاثة من جنود الشرطة .

ماذا جرى ؟.

علياء ماتت .

كيف ؟.

من قول هنا ، ولفظ هناك ، تجسد المصير وبان المنتهى ، عادت الأم من إحدى خرجاتها ، وجدت ابنتها متمددة فوق السرير الحديدى وسلك الكهرباء مقطوع يلامس رأسها ، قال قائل : إنها اغتصبت قبل موتها ، وأكد آخر أن التشريح أثبت أنها امرأة مكتملة وليست عذراء ، وقيل بوجود علاقة بين البنت وزوج أمها ، وأن الأم قتلت ابنتها بهذه الطريقة المتقنة ، رابع قال إن زوج أمها حاول اغتصابها ولما قاومته خشى الفضيحة فكهربها ، تعددت الأقاويل ، وغزرت الريبة حول الأم ، لم يرق لها أحد ، ولم يشفع لحزنها أحد . ولم يرث لارتدائها السواد أحد ، لم يمر شهر إلا رحلت .

عند خروج العربة التي يجرها بغل محملة بأثاث البيت رمت أم زهرة وراءها قلة من فخار تناثرت شظاياها إظهارا لفرحة أهل الحارة بخلاصهم من المرأة التي تسترت على قاتل ابنتها ، أعوذ بالله من الخوض فى سيرة الخلق ، غير أن ثمة ما يجب ذكره .. إذ حدث بعد عامين من موت علياء أن روت امرأة دلالة من ناحية بعيدة أثناء زيارتها للحارة ما جرى بعد خروج أم علياء وزوجها ، إذ يبدو أن بعضهم أرسل إلى الشرطة أو إلى جهة ما مطالبا بإعادة الكشف على الميتة ، وقيل إنه أخ لها غير شقيق يقيم فى بلد بعيد ولم يرها أبدا وحدث بالفعل أن أعيد الفحص ، فتبين أن علياء رحلت مقتولة ، قبض على زوج الأم ، واعترف ، ما شغل أهل الحارة ، كيف تتكشف حقيقة كهذه بعد عامين ، وهل يقدر الطب على ذلك ؟، إننى أحدق عبر حجب الجهة الشمالية لعلى أرى ما تبقى من أطياف هذه البنية ، لكننى لم أبصر ، فالحجابات كثيرة ، لذا فارقت متجها إلى ذلك اليوم الذى عرف فيه أصلى سناء !.

تلك حافظة سوداء صغيرة ، قفلها معدنى أبيض ، ملقاة أمام عتبة مسجد سيدى مرزوق ، يقف مترددا ، تطل منها أطراف أوراق مالية ، خمسة ، عشرة قروش ، يتلفت حوله ، لا أحد . ينحنى مادا يده إلى صندله البنى ، يتظاهر بتعديل رباطه ، تقبض يده الكيس ، يقف ، يدسه فى جيب جلبابه ، يمضى متمهلا ، ابتسم لذلك ، أعجب لحيطته وحذره ، أبتسم لذلك ، يمشى متمهلا حتى دكان محمد بائع الصحف ، الدكان تحت مسجد الأمير الجمالى ، ثلاثة محال متجاورات .. الأول لبائع فحم ، والثانى لتاجر أدوات المقاهى .. نرجيلات ، أكواب زجاجية وفناجين خزفية ، أتعجب لموقعهم تحت المسجد ، لو أنى أحطت علما بالفوت الذى تحولت فيه الخانات الثلاثة إلى دكاكين ، لكن هذا ليس ميسورا الآن، إنى مقيد فى رحيلى

هذا ، هاهوذا يمضي وجلا ، فى جيبه مبلغ من المال لم يمسك بمثله أبدا ، حائر .. لا يدرى كيف ينفقه .

منذ لحظات اشترى خمس حبات حلوى على هيئة ثمار الفراولة ، تراها فتحسبها حقيقية انتزعت لتوها من أصلها الذى هو فرع ، أكل اثنتين خلسة واحتفظ بثلاث ، يتمنى أن يبقى لشقيقه واحدة ولأمه أخرى ، لكنها ستسأل : من أين له بالمال ؟ أو .. من قدمها إليه ؟، ستغضب لأن المال حرام ، كان يجب ألا يأخذه ، كما أنها حذرته مرارا من الاستجابة لأى غريب ، أو قبوله شيئا ممن لا يعرفه ، أو الأكل عند الجارات إذا دعته إلى طعام ، أما تحذيرها إياه من الغرباء فخشيتها الغجر الرّحل ، الذين يجوبون البلاد وأعينهم على الصغار .

فى جهينة إذ يسمعون بقرب الغجر أو الغوازى أو الحلب كما يعرفون ، يغلقون الأبواب ، يمنعون الصغار من الخروج إلى الباحات ، تخشى عليه لصوص الأطفال المنتشرين فى المدن ، أنبأتها أم هدهد أنهم يأسرون الأطفال ، يعذبونهم يعلمونهم السرقة والميل ، والغواية تعنى أن يستدرجه ذكر أكبر منه فيتلفه ويفسد كينونته الناموسية الطبيعية ، كانت تلوح له بذلك ولا تصرح ، قبل نزوله الحارة تقول بصوت هادئ ، مبتدئة بمأثورها «جمال يا ولدى» ، ثم تذكر فى لين تحذيرها ، مخافة أن يستميله شاذ أو عابث ، تحذره من الانحناء ، وركوب أى طفل صغير أو كبير فوق ظهره أثناء اللعب ، تقول وقد اكتست ملامحها جدية وصرامة إن هذا من أقبح الأفعال ، أنه رجل ، والرجل يجب ألا ينحنى أبدا ، تنبه إلى ضرورة ابقاء جلبابه مسدلا .

تلقى إليه القول مبدية اللامبالاة أحيانا ، كأنها تحكى أمرا هينا ، غير ذى أهمية ، كثيرا ما يكون ذلك فى قعدة الظهيرة بعد فراغها من أمور البيت ،

وبدء انتظارها اليومى ، تقول ماتضمر ، بينما معراجها الداخلى على أشده ، «إنى رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر» .

أما تحذيرها له ألا يأكل عند امرأة غريبة ، فلأن الإنسان يجب أن تكون عنده عزة نفس ، فإذا لقى نفسه جائعا والمقام غير مناسب ، ومن غير المناسب الجهل بصاحب الطعام ، يجب أن يكبح جوعه ، وألا يمد يده إلا إلى صحن يألف صاحبه . ويكون قادرا على ردّ مقابل لما أكل ، تلك أصول وجذور وعلامات يجب عدم الحيدة عنها ، فنعم عقبى الدار .

يمتثل أصلى ، حتى إذا قرصه الجوع أثناء اللعب ، يهرع إلى منتصف السلم مناديا : ماما .. أنا جائع ، ابعتى لى رغيف ، فإذا دعته إلى الصعود ليأخذ ما طلب ، عنى ذلك أنها لن تستبقيه وستسمح له بالعودة ، يعرف أنها لا تقول شيئا وتفعل ما يغايره ، فإذا دعته إلى الصعود ثم العودة للعب صدق ، وأمتثل ، إذا أرادت منعه تعلنه فى غير ذى عوج ، أدرك من قديمه لا تموه ولا تستدرج ، لا تلفظ قولا له أصل وظل إنما صورته فى أصله ، هذا حالها ، وقد بقيت عليه وثبتت .

ينادى جمال :

«ابعتى لى رغيف ..» .

تلك بارقة ، جملته ، لم يدرك ناطقها أنها ستصير علامة دالة واشارة إلى ومتكأ على .. ، وأن ألفاظا قالها طفل لا يعى ، ستقلب دهرا عتيقا وتبعث زمنا آفلا ، وتبدد مغارة النسيان ، عبارة مندثرة الآن من عالم الممكنات ، قائلها شب وأمعن المضى فى الطريق ، حتى أن ادراك كنه الصلة بين ما كان عليه وقت نطقها وما أصبح عليه قبل معراجه يحتاج جهدا ومشقة ، عبارة تبدد ناطقها فى فسحات الكون وذرى ، يصعب التنقيب عنها فى منزل الأصوات

الباقية ، أمر يحتاج إلى جهد جهيد ، أنا هو ، لكنني لم أفه بها ، لهذا كله
سأطنب في البيان اراحة لي قبل الآخرين ، وربما لظمئي قبل ري غيري ، حق
عليّ إفراد فصل بعد التماس الإذن ورجاء الإشارة

تفصيل

أقول كما قال القائل :

ديار بأكناف المغيب بلمع
وما أن بها من ساكن وهي بلقع
ينوح عليها الطير من كل جانب
فيصمت أحيانا وحينا يرجع
فخاطبت منها طائرا متفردا
له شجن في القلب وهو مروع
فقلت على ماذا تلوح وتشتكي
فقال على دهر مضى ليس يرجع

يا من يتلقى عني ، يا من لم ألتق به ولن .. يا من لن يدرك جوهري الأول ، تلك عبارة لا تعني شيئا عند الجم الأعظم ، ولكن لا تستخف ولا تسخر ، فعند حين مقدر قد يتخلص ما عاشه الإنسان في تموجات عبارة ، أو ايماءة ، أو ظل لون كوني ، هذه العبارة بدأت تلوح في أفق حنين الأم عند عمر معلوم ، بعد أن شب وسعى مبتدئا حياته بعيدا عنها ، أراها تتحدث إلى

جارة قريبة لم أتبين ملامحها ، تقول وعلى وجهها ضياء ابتسامة :

«كان جمال يلعب النهار كله فى الحارة ، حتى إذا تعب .. وقف فوق السلم وصاح ..» .

هنا تتغير ملامح الوالدة الكريمة تغيرا طفيفا ، تبدأ محاولة ظاهرها محاكاة صوت من سكن رحمها جنينا قبل أن يسعى ، وباطنها استعادة لحظة مندثرة ، واحياء حقبة غاربة ، إنها تلفظ العبارة وعندها من الدهشة قدر غير يسير ، جمال يسافر بمفرده ليسعى فى بلاد نائية لم ولن تراها ، الدهشة تميد فتتحول إلى تأثر ، غير أنها تتقن الاحتفاظ بما تبطن فلا تظهره إلا فيما ندر ، وهذا من أقوى وأجل خصالها ، لكم أخفت ، ولكم كتمت فما صرحت حتى لا تقلق عزيزا ، أو تزعج غاليا بألم قد يشعر به .

هاهى ذى تقف بأحد الأسواق ، تخاطب الحاج فؤاد تاجر الأثاث القديم ، فى عينها نظرة حيرى ، تدرك أنها تبدى التعجب من أمور لا ينبغى إظهار الدهشة من تحقق وقوعها ، تقول :

«جمال كبر الآن يا حاج ، الأيام فاتت بسرعة ، والله كأنى أراه البارحة عندما ..» .

ثم تذكر الموقف ، وتتلو العبارة ..

تلك قعدتها فى صالة البيت الذى خرجت منه إلى الأبد ، المقعد بعينه . الفراغ الذى تنظر إليه ، تعبره بعينيها ، فيهما أصداء سفر ، وآثار رحلة منهكة ، هى مجهدة ، يثقل دماغها ، تتوالى الأفكار ، تتقلب صورا ولحظات متداخلة بما حوت ، توشك أن تعقو ، تهن رقبتها . تكاد ذقنها أن تلامس صدرها ..

«يا ماما .. ابعتى لى رغيف ..» .

تنتبه ، يتوالى شهيقها وزفيرها ، ناداها بالحس ، أصغت ، تستعيد واقعها إذ تتم يقظتها ، يستجيب صدرها بتنهيدة خافتة ، مثقلة ، كأنها غمامة ، خفيفة نائية ، مقبلة ، تسوقها رياح ، منذرة بسحب تتبعها مسحة ..

ها هى ذى فى صالة البيت ، بعد نقله الكتب إلى بيته الجديد ، بعد فراغ رفوف المكتبة ، تصغى إلى صدى صوت الجدة «الدودة» إذ تقول : «مبروك يا بخيته جاءك ولد» ، تصغى إلى الصرخة الأولى ، كان جمال صامتا لا يحب الكبار أن يعاملوه معاملة الصغار ، فى يوم بعيد رجع باكيا لأن الأسطى سيد الحلاق نهره عن قراءة الجريدة خوفا من تمزقها ، يغيم وجهها ، تعلو متجاوزة الفراغ الذى يشغله وجودها المادى ، تتجاوزه ، تحوش ابتسامتها ، دمعتان دنتا من مشارف مقلتيها ، تحاذر البكاء وجمال يستعد ليوم عرسه ، شؤم ينبغى تجنبه ، لا تدرى من قال يوما على مسمع منها إنه يخشى على أولاده من بعده ثلاثا : جور السلطان ، وغلبة النسيان ، وافتقاد الحنين.

عندما اقترنت بأحمد ، كانت كالعدد الصحيح ، يبتدىء من أقل الكمية ، اثنان ، ثم يتزايد بلا نهاية ، جاء خلف ، وتذكره خالقه ، جاء كمال وأوفى مدته طفلا ، جمال أول من عاش ، جاء اسماعيل ، وجاء محمد الذى لم يتم ، وجاء من تجهل فقد أجهضت حملها ثلاث مرات ، وجاءت نوال ، وجاء على ، وكل منهم واحد ، سيصير اثنين ، وفى عين الوقت الذى سيتزايدون فيه ستنقص هى ، سينأون عنها ، تصبح كأول الكسور ، تبدأ من النصف ثم تمر فى التجزؤ بلا نهاية ، كلاهما من حيث الابتداء ذو نهاية ، ومن حيث الانتهاء غير ذى نهاية ، الأصل واحد لكنه هنا يتكاثر وهنا يتجزأ ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون ، هاهى ذى أصابع يديها متشابكة ، مستغرقة فى جلستها الأمومية كأنها على وشك أن تجنو مع عدم وجود المحنى عليه ، فى عينيها دهشة وجلى ، تقف

عند تخوم انبهار حزين واستغراب للسهولة التى انقضت بها الأوقات ، لليسر الذى يتم به الفراق ، إلى ربك يومئذ المساق ، وهنا أكف عن الإطناب خوف الملال والنفور فأعطف صوب ما كنت عليه ! .

رجعى

إنه مدخل الدرب ، إنه ضريح سيدى المجاهد مرزوق ، تلميذ سيدى أحمد البدوى ، إنها ظلال المسجد العتيق تلزم مدخل الحارة ، روائح شتى ، مزيج من رائحة الجير المنطفئ ، والأصباغ المنبعثة من دكان عبد الحميد المبيض . هذه رائحة عطر غامض منبعث من نوافذ الضريح المبارك ، رائحة الظلال المستقرة منذ اكتمال البنيان ، رائحة قِدَمْ ، وبلاط مضلع يغطى أرضية الحارة ، وأخرى غامضة يصعب تحديد مصادرها ..

هنا .. تقف سناء ، أكبر منه بعامين أو ثلاثة ، لا أقف على تفاصيل الملامح ، غير أن ما يحف بها من بهاء أسنى لا يخطئه نظر ، لا تجيء إلى الحارة إلا نادرا ، لا تلعب مع الأطفال ، لا تخالط كاميليا ، أو علياء ، أو عزة ، رآها مرتدية أثوابا عديدة ، غير أنها مثلت فى وعيه دائما مرتدية فستانها الأخضر ، ذا الياقة المرتفعة ، تماما كما استقرت لور فى لب حشاشة قلبه مرتدية دائما قميصها الأحمر النبيذى الصوفى ، وبنطلونها الأسود القطيفى المضلع .

إنه يقترب من سناء ، فى جيبه تلك المحفظة ، لم أدر كيف اتصل حوارهما كيف بدأ؟ رأيتهما يمشيان ، يقفان عند دكان عم حسن تحت المسجد القديم ، عم حسن يرتدى جلبابا ، وطاقية لا تفارق رأسه صيفا أو شتاء ، دكانه منخفض عن الطريق ، جدرانه حجرية ، لا يبدو منه إلا رأسه وكتفها ، إذ يخاطب

الزبائن ويلبي حاجاتهم ، رائحة السجائر قوية ، كذا التبغ والنشوق ، أما الحلوى فستقرة داخل أوعية زجاجية منتفخة ، غير أن أهم ما اشتهر به ، بيعه أوراق اليانصيب ، وأن الكثيرين يتفاءلون به ، فى ثلاثة أعوام متعاقبة فازت ثلاث ورقات باعها بالجائزة الكبرى فى يانصيب الاسعاف .

يمد أصلى يده إلى جيبه ، لا يبرز المحفظة ذاتها ، ربما رآها صاحبها ، تصير فضيحة أمام سناء ، كما أنه يخشى العاقبة ، يبتسم عم حسن فيلوح الفراغ فى مقدمة فمه الخالى من الأسنان ، قطعتا شيكولاته ، تتناول سناء إحداهما ، لا تنظر إليه ، لا تلتفت ، تحتفظ بها دقائق ، قرب حارة الميضأة تبدأ فض الورقة، فيبدأ يرقبها خلسة ، لن يأكل قبل أن تبدأ هى ، شفتاها ورديتان، نديتان ، تقضم قطعا صغيرة ، يتوقفان أمام بائع للجيلاتى ، بقدر سروره يكون خجله ، يظن أن عيون الخلق كلها ترقبهما ، مدركة هويتهما .

قبل باب النصر توقفا ، لم يتجاوزاه ، هذا حد لم يبلغه ، كما أن شواهد القبور فوق المرتفع خارجه يمكن رؤيتها من موضعهما ، خشية غامضة تثيرها هذه القبور عنده ، عندما صحب الوالد فى عصار ولت إلى هذه الناحية ، وجلسا فوق السور الحجرى الذى يحد الخندق العميق الممتد تحت حائط القاهرة القديم ، كان يحاذر ألا يقع نظره على الشواهد البادية فوق مرتفع من الأرض ، شعور غامض لم أدركنه يغمره ، يقبضه إذ يقترب من القبور .

فى مرحلة متقدمة من طريقه غزاه خوف من الموت ، عانى من حدة الادراك ، وخشية المجهول ، والحسرة على فوت كل ما هو بهيج ، فأعان الخالق من بدأ احتضاره فى عز شبابه ، استمر سنين قبل تمام الأجل القدر ، وبارك ربى البررة الكُمل الذين قطعوا الطريق كله وهم لا يهابون ، وأمضوا الوقت كله لا تلهيهم تجارة ، وقد كانت أمى وكان أبى من أهل ذلك فى خلق

الأول ، كذا أمى وأبى فى حلولى هذا ، لم يشطا ، لم ينأيا ، فسبحان من له الخلق والتبديل ، ويأخذ ويعطى لا معقب لحكمه وهو على كل شىء قدير

هذه سناء تجلس أمام أصلى داخل دكان الفطير عند مدخل حارة الرشيدى تنظر إلى المارة ؟ ربما ، إلى الطريق ؟ ربما ، إلى الطبق ، جائز ، غير أنها لا ترنو إليه ، تمسك الشوكة فى يد ، والسكينة فى يد ، تمضغ على مهل ، حيره استخدامها الشوكة ، يخشى مجاراتها فيرتبك ، أو يبدو منه ما لا يليق ، الفطيرة ساخنة ، يبرز منها حشو الكريمة البيضاء ومربى حمراء ، غير أنه لا يقربها ، لو أنه بمفرده لتناولها بأصابعه ، لفها وقضمها ، يسأله الرجل : «لماذا لا تأكل ؟» يقول : «نفسى تعبت فجأة» ، يتساءل الرجل : «ألفها لك ؟» ، يتطلع إلى سناء ، يتمنى لو قال : نعم ، لكنه يخشى أن يبدو ذلك أمرا غير لائق ، يمضى ، هى إلى جواره ، لا تخاطبه ولا تجاوره ، فقط تسأله من حين إلى آخر ، «كم بقى معك ؟» .

يعبران حارة الدرب الأصفر إلى شارع المعز ، قربها يسرى عنده ، فيه لذة ، شربا سوبيا ، أحب المشروب الأبيض السميك ولكن لم يرتق إلى مرتبة الخروب . ارتشفه متمهلا ، مضغ اللوز والبندق وأحب ذرات القرفة ، حاذر ألا يصدر عن فمه صوت مفاجئ يبدو منكرا ، خاصة أن حسواتها مقتصدة ، إن وحشة مفاجئة تقسو عليه ، كيف يأكل شيئا لم تتذوقه أمه ! كيف يطعم ما لم يوضع أمام أبيه وشقيقه !.

سناء تمشى الهوينا، تتقدمه دائما بخطوة أو اثنتين، كأنه لا يصحبها. ولا تصحبه ، مشيا عبر درب قرمز ، وعندما احتواهما برطوبته وظلاله المعتمة ازداد قربا منها فعرف العبير الأنثوى ذا الخصوصية ، وهذا عبير معين يقوى فى إناث دون غيرهن ،، وينعدم عند أخريات ، لا عجب ، فن الزهور ما كان متعة.

للنظر ، بدون عبق ، ومنها الفواح المسكر ، عرفها أصلى فى قلة من إناث ألفهن ، وتمكنت حواسه منهن .

حدث فيما بعد أن صحب حسن صاحبه لزيارة معارف فى ناحية الدرب الأحمر ، عندما فتح الباب ، بدت شابة خمرية ، طويلة الشعر ، معها ضمخ البيت كله رائحة الأنوثة تلك فياضة ، طاغية ، جسدها يشب داخل الثوب قلقا ، فائرا كالماء يغلى فى قدر مكتوم ، يود لو أفلت ، لو عبر ، غير أن ما لفت انتباهه واستنفر حواسه قاطبة ، رائحتها الأنثوية ، وهذه الرائحة أو ذاك العبير من المسائل الدقيقة ، من الصعب الاحاطة بكنهها أو مصدرها ، أو التعبير عنها بمفردات الكلام ، عرفها فى قلة ، كما صادفها فى امرأة مضمومة ، مدملجة ، حنون ، تبيع الهوى فى بيت قديم ناحية العباسية ، دهش وأدركه عجب ، إذ ظن الرائحة لا تبعث إلا عن كائن خص بوضع مكنون ، مستور ، فمن أين لهذه المرأة بها والرجال يتبدلون عليها فى اليوم الواحد مرات ، خاصة لما عرف عنها من رقة ، وعذوبة مجاوبة ، واحاطة بالموضوع ، ما شده إليها أنها كانت فواحة ، لها حضور ، وحنانها باد ، حتى أننى عاينت منه فى هذه الجهة مالم أره منه إلا فى خلقه البديل ، عند مضاجعته لور ، إذ يدفس أنفه فى ثنايا شعرها ، ويمرغ الوجه عل النهدين ، ويتمنى التلاشى .

هذه الرائحة الأنثوية عرفها داخل هذا القبو العتيق الممتد كالمهبل ، لم يكن اقترابه من سناء بدافع شهوة تحركت ، إنما بتأثير جذب غامض مبعثه هذه الرائحة ، بعد اجتيازهما القبو يتنفس بعمق ، غير أن رائحة سناء يتبدد بعض منها ، القبو لملمها وصانها .

لما خرجا إلى ميدان بيت القاضى التفتت إليه ، تستفسر بصوت حيادى ، كم تبقى معك ؟ ، يهز رأسه ، لا شىء ، تقول : هيا بنا ، غير أنى لم أتبعها ، لم

التفت إلى الجهة التي غربت عندها ، ذلك أنني رأيت لور ، هي بعينها ، بأطيافها ، بحضورها الباسق ، تقف تحت شجرة من بلاد شمالية ، أما الأرض المغروسة فيها فضمن إقليم جنوبي ، وأما فروعها فمنتشرة فى فراغ مدينة تقوم حيث لاجهة يمكن تعيينها ، لور ، ظل الندى ، وصدى الخاطرة ، هذا وقتها الأرق ، وتلك وقفتها الشفيفة ، واطلالتها ذات السهوب .

هنا أكشف عن خبيئى ، ذلك أن لور هذا اسم أمر صاحبى وأصلى بتسميتها به ، إذ أنه كلف بالستر على أمور بعينها ، من بينها اسم هذه البنية ، فكتمته فى هذا التدوين ، أما اسمها الحقيق فقد توزعت حروفه فى ثنايا مقام الاغتراب ، وجرى التلميح إليه خفية ، فمن رغب التدقيق والتحقيق فليراجع ما تم تدوينه .

لور تقف بين عناصر متباعدة متقاربة ..

فماذا جاء بها إلى هذه الجهة ؟.

من أتى بها إلى الزمن المبكر ؟.

ظمئت إليها ولم أرتو ، تقت ولم أهتد ، فحننت إلى انتظارها قدومى ، وسنا عينيها إذ تراني ، لم أعد قادرا على تتبع البنت التى صحبت أصلى فى هذا اليوم النائى ، أشرفت لور على الجهة كلها فلم يعد إلا هى ، وتبدد ماعداها ، وقد كنت أنوى الحديث عن عزة التى أصبحت راقصة فيما بعد ، وكاميليا التى اجتازت عمرها بدون رفيق ، وثريا الجميلة الراسخة التى مضت إلى بلد بعيد ، وعن محاسن التى أنجبت أحد عشر ذكرا واثنيين ، كلهن لزمن هذه الجهة ، غير أن ظهور لور أبدل الخطة ، لم يعد إلا هى ، إنها الأصل ، غمرنى ماكان سيمر به أصلى ، ما أذهلنى أن الوقت انقضى ، وأننى مختتم مشاهدتى هذه الجهة ، لابد من الاقلاع ، ولأننى راحل ، ماض قسرا ، فقد أنشدت :

أقطع الليل كله باكتئاب

وزفير فما أكـــاد أنـــام

نحو قومى إذ فرقت بيننا الدار

وحادت عن قصدها الأحلام

وأنشدت :

كفى حــزنـا فـراقـهـم وأنى

غـــريب لا أزار ولا أزور

وهنا سمعت من ينادى :

«الزم ولا تحد .» .

أتطلع إليه كابيا ، أدرك أن عهدى بهذه الجهة قد ولى ، وأننى ماض إلى آخر الجهات المعلومة ومختتمها ..

* * *

الجهــة الغــربيّــة

«وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا..»

(قرآن كريم)

.. جئتها يصحبني دليلي ، رأيت درجات الشفق ، بدايات الليل ، قرب اكتمال الغروب ، هنا أطلعني دليلي على عدة كتب تخص والديّ ، كتاب يحصي أنفاسهما ، يقرن كل نفس بموقفه ، وكتاب يحصي خطواتهما ، ويحدد مواطئ السعي ، وكتاب فيه كافة ما حلما به ، إن في يقظتهما أو منامهما ، وكتاب يلخص مثيرات أحزانهما ، ملحق به فصل دون بواعث أفراحهما ، وكتاب حوى تفصيل كل ما وقع عليه بصرهما . لم أقرأ إلا العناوين ، لم أحط بما دون ، لم أدر سبب اطلاعي على عناوين هذه الكتب دون الوقوف على تفاصيلها ، أو الإلمام بما احتوته ، ولىّ فضولي إذ أطلعني بسرعة على لحظات متباعدة ، متفرقة ، غير أنني أشهدتها متجاورة ، كل منها تعقب الأخرى ، برغم انتماء هذه إلى حقبة وتلك إلى أخرى ، فما أبلغ النفار ، وأعمق التضاد !.

رأيت في لحظة حرقة أصلي على الفراق حتى ظننته يوشك أن يهلك ، في لحظة أخرى يستعيد ما كان ثم ينسى ، في الثالثة يسعى إلى المثوى ، حتى إذا دنا واستوى جالسا تذكر وسعى فبكى ، وفي الرابعة يمشي قاصدا زيارة المثوى غير أن فكره يسعى متطرقا إلى أمور شتى ، أدهشني تفكيره في مقدار الشقة التي ينوء بها إذ يمضي إلى مرقدهما ، تلك لحظة أخرى ، يهب عليه حزن مفاجئ فيطرق حتى يكاد يقعى ، أما هذه اللحظة فتمت إلى فجر عيد الأضحى ، إنه يستيقظ

مرهقا وإذا به يتثاءب ويتمطى ، يقول إن القيظ فى الخارج لشديد ، ذهابه سيكلفه عسرا .

ها هو ذا يدخل البيت الذى عاش معها فيه ، الذى خرجا منه إلى الأبدية ، فلا تطوف به صورة ولا ترد عليه ذكرى، هاهو ذا يمضى الأوجاع العتيقة ، والأزمنة التى كانت مألوفة نائية ، يقسم برحمة أمه وأبيه ، القسم الذى تجنبه طويلا ، الذى عاف النطق به وخشى ، صار عنده مألوفا ، يقسم به صدقا وأحيانا كذبا ، فهل عاد كالعرجون القديم ؟.

أتساءل :

هل اكتمل الغروب .. هل دنت لحظة يبدو فيها ماكان كأنه لم يكن ؟.

لا إجابة من مرشدى ، إنما يتردد فى سمعى قول قديم للأم ، لم أدر متى قالته أو مناسبة قوله ، حتى أننى ظننت مصدره جهة الغروب ذاتها .

تقول متأسية :

«أصل الإنسان نسّاى يا ولدى .. »

أستعيد من وجودى القديم ما حيرنى وأثار عندى ما أثار ، ذلك أن طريق اليومى كان يمر بموضع المقابر خارج المدينة ولسبع سنوات متصلة صباح كل ثلاثاء ، وأمام شاهد محدد ، أرى امرأة شابة وحيدة تجثو ، تذرف دمعا ، تنحنى فى مناجاة صامتة ، لا أدرى مما تقول شيئا ، ولم ينقطع عهدى بها إلا بعد نأيى عن هذا الطريق ، فما لأصلى تبهت عنده الأصول ، ولم يتم من الأعوام إلا خمسة على رحيل الوالد الكريم .

يقولون إن الدنيا تشغل الإنسان حتى عن ذاته !.

إنى غير مقتنع ، غير متقبل لما اطلعت عليه .

يجىء مرشدى إلى موضع غروب الشمس ، ما رآه أصلى من فوق السطح

عند تطلعه ، فمن ذلك بؤرة المدينة ، مركزها ومبانيها ، مصدر الأصوات المتداخلة ، المندغمة ، أرى أفقا مشربا بحمرة ، خفيفة وردية ، غامقة ، ثم ياقوتية تتدرج إلى سواد ، فى لحظات معينة بعد ميل الشمس يشف الفراغ ويخف ، فتصح الرؤية وتمتد ، يرى الأهرامات الثلاثة كالظلال عند حد الأفق ، لا يحول دون بصره حائل ، كثيرا ما توقف الوالد وحدق ، أمعن البصر ، لا ينطلق ، لا أدرى فى أى الأمور فكر وتأمل ، ولى هذا تماما ، اندثر..

يطلعنى دليلى على من جاء إلى هذا السطح وعبر ، فهذا رجل من جهينة ، خرج الوالد عند صلاة الفجر فلقيه بجوار ضريح الحبيب الحسين ، بدا متعبا ، ضائعا ، سكته صعبة ، وماله قليل ، فأقسم الأب واصطحبه . الرجل ليس غريبا ، يمت بقرابة إلى الوالدين ، مد الأب حبلا فى وسط الغرفة ، ثبت إليه ملاءة حجبت نصف المساحة ، أقام الرجل ليلتين ، فى الصباح يخرج مع الأب ، يفترقان عند الإمام الحسين ، يسعى كل منهما ، وفى المغرب يلتقيان ، ترقبهما الأم أثناء العشاء ، بعد شرب أكواب الشاى الثقيلة ، يتمددان ، تنسحب إلى ما وراء الملاءة يتمدد أصلى بجوارها ، وصغير لا أتبين ملامحه ، فلا أدرى ، أهو كمال أم اسماعيل .

الغرفة تفيض برائحة الضيف ، العرق الممتزج بنسيج الصوف ، يغيب الرجل ، غير أنه يتردد من حين إلى آخر ، شال عمامته أصبح نظيفا ، ملامحه أقل اجهادا ، عنده تجارة ، وشونة غلال ، ومال وخير وفير ، من المدينة تزوج بامرأة أخرى ، قاهرية ، بيضاء شعرها طويل ، مكشوف ، قال إن وجهها ذو فأل حسن عليه ، تباعدت زياراته ، ثم جاء زمن انقطع فيه عن المجىء ، غير أن الوالد لم يكف عن زيارته ، وعندما علم بخبر المقبرة التى بناها قرب ضريح

الإمام الشافعي ، قال موصيا اياه : ادفني هناك . فليس لنا مأوى ، ضحك الرجل قائلا ، يا سلام يا أحمد .. أنت ستشيعنا كلنا ، وقد كان ! . إذ مشى أبي في جنازته ، وليلة العزاء وقف بجوار الأولاد يصافح من قدموا وهم كثير ، غير أن المقام لم يطل به ، بعد أربع سنوات أتم طريقه ، وبدأ هجرته الكبرى ورقد على مقربة من الرجل .

أشار دليلي إلى رجل بدين أصلع ، قال إن اسمه الطيب ، إنه يجلس فوق حشية أمام باب الحجرة ، أصلي يقعد إلى جانبه ، يتلقى درسا ، خشي الأب ألا ينجح في امتحان نهاية العام ، غير أن جمال رجا الوالد أن يدعه يتم دراسته بدون مساعدة ، لم يجئ الطيب إلا مرة واحدة ، إنها التي رأيته فيها ، هل استجاب الوالد لرجاء الابن . أم أنه انقطع لسبب آخر ؟. هذا ما لم أقف عليه ، غير أنني علمت متعجبا ، دهشا أن أصلي عاش حتى بدء اسرائه من مدينة فاس يذكر خطوط الرجل في كراسته . كذا توقيعه ، لا يقدر على استعادة وجهه ، أو ملامحه .. فما أعجب ذلك !.

نبهني دليلي إلى عبد العال ، كان ينادي الوالدة قائلا : يا خالة . وهي ليست شقيقة أمه إنما تمت إليها بقرابة ، في ملامحه شبه خفي منها ، إنه منتظم الزيارات ، لم ينقطع عن المجيء إلى السطح ، أصلي يقعد بجواره ، يصغي مبهورا إلى ما يرويه عن قوم يعيشون في الغابة ، يأكلون لحوم البشر بعد طهيهم أحياء ، إنه يشم رائحة عبد العال ، لماذا يوقن أن رائحتهم تشبه رائحته ؟.

بعد رحيل الوالد الكريم ، وذات يوم كان أصلي يهبط الدرج ، رأى عبد العال أمامه ، رأسه منخسف بين كتفيه ، هل صار أقصر ؟ ربما ، قال إنه تردد على العمل مرات ولم يجده ، دعاه إلى مكتبه وأن بدا متعجلا ، وعندما خاطبه فوجئ به يقول له : يا ولد الخالة ، ثم بدأ يقول له ، سيادتك ، حضرتك ،

فتحرج أصلى من ذلك ، هو الذى كان يجلس إلى جواره طفلا غريرا يصغى إلى مروياته ، وما يقصه عليه من أنباء العالم الذى كان فسيحا بقدر وقتئذ ، رجاه عبد العال بحكم الصلة ، والأيام المنقضية ألا يهمل شأنه ، عنده من الأولاد خمسة ، والراتب شحيح ، والظروف معسرة ، لو لاحت أى فرصة للعمل ، للسفر .. لعله يعرف أحدا ذا صلة ! .

يطلعنى مرشدى على ابراهيم أبو الفضل ، إنه من الأقربين ، ممن رافقوا الوالد آجالا ، لم أره فى مقهى الفندق ، أو فى صلاة الجمعة ، أو فى لقائه الأسبوعى بالوالد أو فى بيته بالعباسية عند انجابه الابنة التى شهد أصلى زواجها بعد سنين طوال ، لا أره عند عبوره ميدان الحسين ، لا أشهده مرتديا جلبابا بلديا ، يمضى فى القرية مرشحا نفسه ، ساعيا إلى أصوات الناخبين ، إلى جواره دائما الوالد ، إنما أراه عند عبور السطح منصرفا عقب افطار رمضانى ، يجلس أصلى إلى جوار الأم وراء الباب ، يقول إبراهيم أبو الفضل : « تسلم يداك ياأم جمال .. الكنافة حلوة جدا .. » .

حلوى الأم هذه لها شرح يطول ، إذ أنى ورثت عن أصلى تفضيله لها ، ودقة تذوقه لها ، ولأنى عشت رحيل الأم بدلا منه ، فقد افتقدت مذاقها ، صرت أبحث عنه بدون جدوى ، ولهذا تفصيل قادم ، أما إبراهيم هذا فعرفت برحيله المفاجئ ، المباغت ، أفضى لى أحد أبناء البلدة بالنبأ ، وعندما جلست إلى الأم وكان ذلك أول أيام عيد الفطر ، عندما صحبت امرأة أصلى وولديه الصغيرين ، أنا أبوهما ، رحت أتطلع إلى وجه الأم الذى بدا منهكا ، متعبا ، يوشك أن يوفى المدة ، لكن من يدرى ومن يعلم ماذا سيصير غدا ؟ . رأيت تعبها بعد صيامها شهر رمضان كله ، فى زمنها هذا كنت أدنو منها ، معها وبها أوشك على مصالحة ذاتى على ذاتى ، كنت أرقب حمرة الغروب ، ولاأعلم ، أرقب دنو الليل وا كتماله قلت :

«البقاء فى حياتك ..» .

«من ؟» .

«ابراهيم أبو الفضل ..» .

«ياه ..» .

متأملة بدت ، رجتنى المضى إلى أولاده ، ألا أهمل العزاء ، الرجل كان عزيزا على الوالد ، غاليا عنده ، أطرقت ، رأيها كدرة ، ندمت على إخبارى لها ، ما خفف عنى أننى لم أقدم إلا على ما يطابق جبلة أصلى وجوهره ، هنا أطلعنى مرشدى على كل من وفد إلى السطح ، أشار إليهم ، سماهم . أدركت أن أوانا انتهى ، أن ما يشبه الشفق يولى ، وأننى أجتاز الحد الذى يبدأ بعده الغسق ، وأننى مقدم على طور أعانى فيه ما أعانى ، ليس باعتبارى بديلا للجمال ، أو صورة منه ، أو ظلاله ، ولكننى باعتبارى أنا أنا ، عندئذ يتغير الحال ، وتلوح الحقائق ، فليس من تكلم عن نفسه كمن أخبر عن غيره ، ليست الثكلى كالنائحة المستأجرة ، وليس من شرب ماء بئر واحدة كمن شرب من آبار ، متى ستحقق ذلك ؟ مطلب هذا وعر ، صعب ، ولكن مع تحول الأضواء إلى عتمة كابية ، مع قرب اكتمال الغروب ، ومضى الشمس بعيدا ، وحاجتى تتزايد مع مجىء الليل إلى الرفقة ، تعمق وحدتى ، أدرك بحس خفى أن ما ظننته بعيدا يدنو ، غير أن اكتمال الغروب يجب أن أشهده حتى أقف على بعض مما احتوته هذه الجهة .

أرى صاحب البيت ، قصير القامة ، ممتلئا ، الشيخ حسين ، يقف عند منتصف السطح ، إلى جواره رجلان ، أحدهما يرتدى جلبابا ، يشيران ، يقيسان ، وعند لحظة بعينها يخطو الشيخ ليقيس السطح بخطواته بعد أن شمر جبته قليلا ، الأب ، الأم ، مطرقان ، مهمومان ، أمر لم يعدا له العدة ،

لا يقدران على منعه ، على رده ، شرع صاحب البيت فى بناء ثلاث حجرات من الخشب «البغدادلى» المطلى بالجير والجص ، ستكون دورة المياه للجميع ، هذا ما لم يعدا له العدة ، لم يتوقعا حدوثه يوما ، آن لفراغ السطح أن يتبدد ، وقعدة العصر ألا تتكرر ، والإبحار مع النظر عبر السبل المؤدية إلى الأفق .

الشيخ حسين صاحب البيت ، متصرف فيه ، شاء بناء السطح وسيفعل ، إنه ليس مستأجرا يمكن منعه من الصعود، إن عهدا ينقضى، ستقوم جدران، ستسد الجهة الشمالية ، لن يمكن القعاد فى شمس الشتاء ، أو الوقوف والتحديق الصامت إلى تلك الجهات ، سيجىء غرباء ، سيصغى كل منهم إلى تقلبه فى فراشه سيسمع تردد أنفاسهم ، دورة المياه لن يلقاها متاحة عند الضرورة ، سيقف رجل غريب ، فضولى ، متخيل ، ينتظر بينما امرأته تقضى حاجتها .

منذ أعوام لم يرض بسكنى حجرة تشترك فى دورة مياه مع حجرات أخرى مع أن الحال كان معسرا ، ضنكا ، هل يقبل الآن وأطفاله أربعة والحال ميسور بعض الشىء ، واقع جثم عليه ، لا يمكنه دفعه ، لكن كيف الانتقال إلى مسكن آخر؟ العثور على إيجار زهيد مماثل مستحيل الآن ، أى الأمور تخفيها الأيام ؟، لم يمض وقت طويل حتى ظهر البناءون جاءوا بألواح الخشب ، وأكياس الجير، وصفوا علبا شتى ، وصناديق ، بعضها صغير ، والبعض كبير ، أوصى امرأته ألا تخرج إلى السطح ، غرباء لا يعرفهم ، أوقات طويلة انقضت والباب مغلق ، لا تفتح إلا عند عودة جمال من المدرسة ، تبقى النافذة مفتوحة ، لولا صحبة العيال ، وانشغالها بهم ، وهذه النافذة المطلة على البيوت ، لتشابهت الأوقات ، يسعى الأب ، لكن أين المأوى المناسب ؟. الأمر يحتاج إلى جهد وبذل مال .

أخيرا اكتملت الحجرات ، قامت فوق فراغ السطح ، سدت الجهات الأخرى ، من خلف الباب تصغى إلى قدوم المتفرجين ، يدخلون ، يتفقدون دورة المياه ، يسألون عن قاطنى هذه الحجرة فتسمع من يقول لهم ، أناس فى حالهم طيبون .

فى احدى الليالى ترددت فوق السلم خطى ، اتجهت عبر السطح إلى جهة الغرف الجديدة ، أطل الأب مستطلعا ، رأى شابا ، إنه أسمر ، غزير الشعر ، ناعمه يحمل حقيبة ، قال إن اسمه عبد الهادى ، كاتب فى فرن أفرنجى ، قال إنه متزوج ، امرأته مقيمة فى قريتها بمديرية الشرقية وأن والدها اشترط عليه تهيئة مسكن مناسب حتى يسمح لابنته بالذهاب إلى مصر.

كان عبد الهادى يستيقظ مبكرا ، يسمع صوت قبقابه عند توجهه إلى دورة المياه ، ثم ينصرف ، لا يرجع إلا بعد العشاء ، الحق أنه فى حاله ، لم يبدر منه ما يزعج ، لكن ضيق الأب لم يتبدد ، هذا لا يليق ، لو أن الأمر وصل إلى البلدة لصارت جرسة ، ولد الغيطانى يسكن بجوار أعزب ، هذا ما سيقولونه ، الناس ألسنتهم طويلة .

فى ليلة طرق الباب ، فتح عبد الهادى بابه ، بدا مدغمس العينين ، يحمل لمبة غاز، رأى الأب طبقا به بقايا فول ، بجواره كسرة خبز، واجهه الأب بعينين مزرورتين، طلب منه أن يقسم أنه متزوج ، فأقسم ، تناول حافظته من جلبابه ، فرد ورقة مؤكدا أنها وثيقة زواجه ، قال إنه يدبر أمره ، بعد أيام سيشترى سريرا ودولابا ، ثم يسافر إلى البلدة ليعود بزوجته ، ابتسم وقال : يعنى ياعم أحمد .. هل أنا راض عن حياتى هذه؟ قال الأب إنه مستعد كى يصحبه إلى تاجر أثاث قديم ، يعيد ترميمها وطلاءها ، ويبيعها بثمن بخس .

فى اليوم التالى رجع مبكرا عن موعده ساعتين ، مضى بصحبة الوالد إلى الحاج

فؤاد بشارع أمير الجيوش، ثم الأمر، بدت الغرفة ضيقة بعد نصب السرير الخشبى.

مر أسبوع ، أسبوعان ، فى كل عشية يستفسر الأب عن موعد وصول الزوجة ، حتى استيقظ صباح الجمعة ، قابل عبد الهادى خارجا من دورة المياه مبتلا ، نضرا ، قال مبتسما ، غامزا بعينه ، الجماعة وصلوا يا عم أحمد !.

فى اليوم نفسه زارت الأم جارتها الشابة التى وصلت ليلا ، لكم بدت حيية ، هادئة ، إنها جميلة ، شعرها أسود غزير ، لوجهها شفافية كمقل العصافير ، ملامحها متعة للناظرين ، قالت الأم : لو احتجت أى شىء ستجدينه ، اتبعت قولها اقراضها طبقا من الصاج ، لم يكن لديها إلا طبق واحد ، ولما لاحظت أنها لا تمتلك طشتا لتغسل وتستحم فيه ، قالت إنها ستعيرها ما لديها عندما تطلبه .

فى الليل قالت الأم : البنت هادئة وخجول ، ثم قالت : غريبة ، ثم قالت : وأنا فى مصر غريبة ، عادت الأم إلى قعدتها أمام الغرفة ، فى مواجهتها تجلس هدى ، هدى تزور الأم ، تدخل عليها نهارا مرات ، عند اقتراب عودة الأب تدخل كل منهما وتغيب عن نظر الأخرى ، تغيب المنغصات غير أن الأب لم يهدأ إنه يجد حرجا عند الخروج من دورة المياه ، لا يمكنه النظر فى خط مستقيم ، كما أنه لم يقترب من عبد الهادى ، كلما دنت الأم من هدى ، ثمة ما ينفره منه ، يذكره بكثيرين من أبناء المدينة الذين تجنبهم ، ونأى عنهم ، ليت الأمر أقتصر على عبد الهادى !.

بعد زمن غير قصير بقيت فيه الغرفتان الأخريان خاليتين، سكنتا فى أسبوع واحد، بل فى يوم واحد، استأجر الأولى رجل نقاش اسمه عيد، جاء بزوجته وسبعة أطفال ، أما الأخرى فنزلها رجل عجوز يبيع الروائح العطرية عند ضريح

الحبيب، وأحيانا داخله، إنه بمفرده، وقد جاء بعدد من الأجولة، وصناديق ورق مقوى، وزجاجات فارغة ضاقت بها الغرفة، وضع بعضها فى فراغ السطح الضيق.

أصوات عيد وامرأته وعياله تسمع حتى ساعة متأخرة من الليل، كما أنهم يشغلون دورة المياه أوقاتا طويلة، امرأته محبة للشجار، تحرشت بالأم مرات، غير أنها تجنبتها، أما هدى فلم تفلت منها، علا صوتها مهددة بضرب فرجها وقص شعرها، وعندما عاد عبد الهادى أول الليل كاد أن يطرح عيد أرضا، لولا تدخل الأرب ودعوته كلا منهما أن يذكر ربه كثيرا، أن يهدئ حاله.

فوق السلم، قال المجرسى للأب:

« لم يعد السطح مناسبا لك ياأحمد .. ».

بعض زملائه من السعاة أخبروه عن مساكن مناسبة قرب الوزارة، أو فى الهرم، غير أنه أبى، لن ينأى عن ضريح الحبيب الحسين، قال إن روحه هناك.

أراه يقف فى شرفة بيت، ينظر حوله متفحصا، ويبدو أن الأم بصحبته لكننى لم أتمكن من التدقيق.

مشاهد عديدة تتوالى، لا أتبين على وجه الدقة ما تحوى، تتداخل الحدود، وتذوب الملامح، أضطر إلى تقطيب عينى، أتبين جاهدا الأم، تلملم حاجاتها، الأب انتهى لتوه من فك السرير، والدولاب، العربة التى يجرها حمار هزيل تقف تحت فى الحارة، إنها لحظات الانتقال من طور إلى طور، من حال إلى حال.

أعلم أن الأب أقدم على تأجير شقة صغيرة فى عمارة حديثة، على ناصية الدرب الأصفر القريب، الايجار خمسة جنيهات وربع، أى ما يتجاوز نصف

راتبه الشهرى بقروش ، غير أنه مضطر ، الأم تستعد لمفارقة السطح ، جزء من عمرها موزع هنا ، فى هذه الغرفة جاءها المخاض ، فأرسلت جمال إلى أم حليمة الداية ، جاءت المرأة ، وضعت وعاء الماء فوق الموقد ، هكذا وفدت نوال إلى الدنيا ، نوال ابنتها الوحيدة ، مستودع سرها فيما بعد ، وأقرب الخلق منها ، لكم رغبت وتمنت من قبل أن تنجب ابنة ، فالابنة للأم غير الابن ، فى الغرفة أيضا جاء على ، آخر من أنجبت ، بعده أجهضت مرتين ، ختمت بعلى ، عانت فى ولادته وعانى معها ، عندما أطل على الوجود جزعت لمرأى رأسه المستطيل ، فزعت أكثر لرجفاته المتتابعة ، حتى أنها أبدلت اسمه ثلاث مرات ، من محمود إلى إبراهيم إلى .. على ، بعد أن سمته عليا زالت الرجفات فرضيت بالأمر..

هنا فوق السطح ، فى بقعة يقوم فوقها الآن جدران وسقف غرفة عبد الهادى بكت أمها ، سحت دموعها حزنا وألما ، إنها ظهيرة نائية من ذلك العام فوجئت برجوع أحمد من عمله مبكرا على غير العادة ، بدا متثاقلا ، مهموما ، إنها تعرفه ، لا يمكنه اخفاء نبأ عنها ، وعندما قعد فى هذه البقعة بعينها ، جلست فى مواجهته ، استفسرت ، مالك ؟. قال : لا شىء ، قالت : لكنك على غير عادتك ؟، قال : لا ، بعد صمت لحظات لفظت السؤال الذى خشيت اجابته ، هل هناك مكروه فى البلدة ؟، تطلع إليها ، لا يقدر أن يخفى ، أخرج من صديريته خطابا ، قال : أنت مؤمنة يا أم جمال ، صرخت ملتاعة . أمى ؟، مد الخطاب إلى أصلى الذى وقف يرقب ما يكون ، بدأ يقرأ الخطاب المرسل من خاله ، يخبر عن مرض الجدة عائشة مرضا طويلا ، وأنها طلبت منهم إخفاء ذلك عن ابنتها حتى لا تضطرب و لا تنخض ، حتى اشتد الأمر وطلع لها خراج كبير فى فخذها الأيسر ، فذهبوا بها إلى طهطا ، إلى أحسن طبيب فى البندر

الناشى ، قال إن الأوان تأخر ، وأن مرض السكر قديم ولم يعالج منذ بدئه ، عادوا بها إلى جهينة ، لم يطل الأمر ، إذ شاء القدير على كل شيء ألا يطيل عذابها .

قبل آذان الفجر استرد صاحب الأمانة وديعته ، فمضت راضية مرضية ، لم تصرخ ، لم تلطم ، إنما انقضبت ملامحها ، وضمر وجهها ، قالت بحس مكتوم وقعه أشد وأنكى من الزعيق والصراخ : آه يا أمى ، وبقيت فى بهت إلى ما بعد العصر ، حتى رجاها الوالد أن تبكى ، أن تلطم ، أن تشق ثيابها حتى ، وردد ما يمكن قوله عن قضاء الله ، والموت الحق على كل إنسان ، صحيح أن الفراق صعب ، لكنه قدر لا قبل لنا به ، ولا قدرة على رده ، ومن شاء غير ذلك يكون كافرا .

بقيت صامتة ، التصق بها أصلى ، أدرك أن أمرا ثقيلا قد وقع ، وأنها المرة الأولى التى يواجه فيها مثل ذلك، أيقن أنه لن يرى جدته مرة أخرى، لن يستمع إليها أبدا، وكما لزمت أمه الصمت، سكت هو، فى الليل بكت الأم، اهتز جسدها وكان نشيجها خافتا، مرا، وفى الصباح بدت عيناها محتقنتان، مغيومتان ، غير أنها أعدت الشاى ، وأصرت على ذهاب أحمد إلى شغله .

فوق هذا السطح ، فى قعدتها وفى عمق وحدتها أغفت ، جاءها والدها فى المنام ، مرتديا البياض ، بدا كما هو ، تماما كيوم خروجه ملبيا نداء الجمال ، لامس ذقنها بأطراف أصابعه ، طمأنها ، قال إن أمها فى أحسن حال ، وأوصاها ألا تبكى فالبكاء يؤلم الميت ، يوذيه ، ويقلقل مضجعه الأبدى ، ولتقرأ لها فاتحة الكتاب الشريف ترحما عليها مساء كل جمعة ، لتذكرها بالخير أمام أولادها ، ولتذكر أن الدنيا لا تدوم ، قال ما قال ثم اختفى

فى هذا الموضع قرب الجهة الشرقية كانت تجلس صباح يوم بعيد ترتق

ثوبا ، على مقربة منها اسماعيل وجمال يطل إلى الجهة الغربية ، عندما طنت حولها ذبابة غريبة ، زرقاء الجناحين كأنهما صيغا من ضوء شفيف ، رفعت أصبعها ملامسة فمها محذرة ، يجب الصمت ، الكف عن النطق ، خشعت ، دارت الذبابة مرات حولها ، حطت على كتفها ، ثم ارتفعت مولية ، بقيت ساكنة تترقب فلما أيقنت من نأيها ، من ذهابها ، قالت : إنها روح جدتكما جاءت لتزورنا !.

بالضبط كان ذلك فى هذا الموضع ، إنها تنزل الدرج ، تحمل حقيبة ، تولى ظهرها لعمر أتم ، لن تصعده مرة أخرى ، فلم تعد إلى السطح أبدا ولن تصافح جارتها ، توغل فى النزول ، متنقلة من طور إلى طور ، من زمن إلى زمن من مكان إلى آخر ، ومنذ هذه اللحظة رضيت ونفرت ابتعدت واقتربت ، تقلبت فى أمور شتى ، تعاقبت عليها مشاعر لا حصر لها ، ونزلت مساكن شتى ، وكل سكن وعاء لزمن ، اكتسبت كافة ما مر به أصلى ، وهو غزير ، غريب .

لكم كان بودى أن أطلعكم على المراحل كلها ، أن أقف بكم عند كل محط ومستقر ، لكن مع اكتمال الغروب ضاعت ملامح الجهة الغربية ، ونوديت أن أولى شطر مشارف المجير الأعظم ، أمر صدر ، وكان على أن أمتثل ، كما أننى نهيت عن التصريح، وأن أبقى مادونته تحت عنوان «السرائروالقول» مكتما، أن أصونه حتى يجىء الإذن ويلوح التصريح، فأظهره، وأشهر تفاصيله، وأنشر ماحواه من أحداث وأحوال متى تلوح البشارة؟ هذا ما أجهله الآن، وإن كنت ملما بأن على الإنسان أن يعلم الكثير حتى يدرك أنه لا يعلم ، أما الآن فإننى مأمور بالولوج إلى حال الوداع ، يتقدمنى مرشدى الذى نهيت عن التصريح بهويته ، والوداع حال عزيز ، وعر صعب الاقتراب منه كذا الخروج عنه ،قدم لى على ما عداه ، وعندى لاحت لى منه بشائر الهداية ، واقتربت الذات من

الذات ، فيه اتضحت نيتى ، وللنية فى الأمور سلطان عظيم ، مثل المسافر الذى يرد مدينة ويبقى مدة ، فإنه لا يصير مقيما ما لم ينو الإقامة ، وإذا نوى صار مقيما ، ومع ادراكى هذا عرفت أيضا أن كل ما هو عابر لا يبقى ..

* * *

حال الوداع

«تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ»

(قرآن كريم)

.. صال عليّ زمني ، وكرت أيامي ، فاستدلت الأمور إلى أصولها ، ودنت الغصون الأقاصي من جذوعها ، قال الشيخ الأكبر ، ما أن التقى طرفا الدائرة حتى حدث المحيط . إذ يكتمل فإنما يدل على نقطة الدائرة التي أوجدها ، فالمحيط يحفظ النقطة علما ، والنقطة تحفظه وجودا ، أمي كانت المحيط ، وأنا بمنزلة النقطة .. الإجابة فرع من السؤال ، والسؤال عويص ، منتهى الدائرة نقطة بدئها ، ينعطف الأول على الآخر ليتلاشى كل منهما ، فما حار أهل الحيرة سدى ، أمر عظيم ، وخطب جسيم ، المشهد عام ، والوجود طام ، الحكم نافذ ، أما اللحظة فحرجة .

هكذا ولجت الحال لحظة خروجي من باب البيت ، يرزؤني ثقل غير مرئي ، قطعت الطريق الطويل غير مصدق ، عند دنوي تطلعت عبر النافذة إلى شرفة صاحبي ، يوسف ، رأيته واقفا ، مرتديا حلته ، أم عياله ترتدي السواد ، ياسواد لباب حظي ، هذا نهار المحنة لم يزل بعد في بدايته ، وقوفها علامة ، طاف عندي خاطر ضعيف ، لعلها لم تتم بعد ، لعل النزع قائم ، وجهها مستسلم هادئ ، طريح ، أنا الذي لم أعتد رؤيتها هاجعة ، لعلّ ظلال الأنفاس باقية ، مترددة ، فيتاح تبادل عبارة ، أو مجاوبتها بنظرة ، ذاك حسبي !.

يلقاني جار قريب ، أواجهه منحنيا ، مثقلا بما لا يدرك ولا يرى ، يوصيني

بالصبر والشدة ، أذن .. يترسخ اليقين ، أصعد السلم مستندا إلى الجدار ، هذه الدرجات نزلتها منذ عشر ساعات ، عندما جئتها مصطحبا عيالى مودعا ، إذ يجب علىَّ الرحيل فجر اليوم التالى ، يصل إلى مسمعى بكاء مكتوم ، نشيج متصل ، وبرغم انشاحه بالجوى الملوع أتعرف على نحيب أختى ، تنادى أمنا أن تقوم ، أن تنهض ، أن ترد عليها كما كانت ترد ، أمنا التى لم تتأخر عنا ، تسعى منا وإلينا ، ترجوها ألا تطيل رقادها هذا ، لقد طلع النهار ، وهى لم تقابل النهار نائـمة أبدا .

باب المسكن مفتوح ، كأنه لم يغلق أبدا ، مباح للموت ، أجتازه ، أعبره إلى داخل خلا منها ولم يخل بعد ، هى هنا وليست هنا ، وجود ولا وجود ، وهذا أشق ما يواجهه إنسان .

من عويل شقيقتى ، من قعدة جارتنا فوق الأريكة داخل الغرفة التى بقيت تخصنى حتى بعد انتقالى إلى بيتى الجديد، تتمدد فى الموضع عينه الذى أشغله كلما جئت ، فوق سريرى ، أتجه إلى الشرفة ، أخشى لحظة المواجهة واليقين فأرجئها ، أميل إلى الجدار ، يهمس القوم ، تجلد ، أنت الأخ الأكبر ، أخوك مريض ، أما أختك فتوشك أن تنفطر ، إنها تقعى بجوار السرير ، تنشب أظافرها فى جلباب أمنا المهاجرة من هذا الكون ، نوال تأبى الحركة قيد أنملة منذ تمام الأمر وأنقضاء الأجل ، أما اسماعيل فيفصله عنا بياب شاسع ، أنه هناك ، انقضى على سفره أربعة شهور ، يطلب العلم فى الطرف الآخر من المحيط الأعظم ، باق على عودته ثلاثة شهور ، جئت إليه مودعا ليلة سفره ، لقيته مضطربا ، يشكو وجع المعدة ، رأيت الأم معصوبة بحزن عتيق لا يبدو إلا فى أوقات الشدة ، إنها ضنينة بأوجاعها .

قالت لى : إن اسماعيل مريض ، وأمامه سفر طويل ، تطلعت إليها ،

أدركت كم تعانى لتحجب ، والكتمان خصلة قديمة معها ، منذ وحدتها فى جهينة قبل أن يصحبها أبى إلى مصر ، فى تتبعها لأحوالنا ، واحتفاظها بأحزانها لفراقنا ونأينا عنها ، وسكوتها عن فعالنا ، عدا إبدائها اللوم من بعيد ، وقعه علىّ أثقل من تصريحها ، قطعت رحلتها ساعية لأرضائنا ، وبث الطمأنينة عندنا ، وذبّ المكاره عنا ، وهنا أمر بطول شرحه ، غير أننى أكتفى بالإشارة ، ليس عن ترفع انما عن عجز.

فى ليالى سهرى المنقضية ، المبادة ، أيام تحصيلى الدرس ، أو عند بدء المجاهدة لأعلم مالم أعلم ، لم تكن تغفو أبدا ، تقعد على مقربة ، تشاركْ بالحضور والصمت ، حتى إذا تمكن منها تعب ، ومال رأسها مثقلا ، مرغما ، فإنها تفيق فجأة ، تفتح عينيها دهشة ، تحملق مبتسمة ، تؤكد بلفظ موجز ، دال ، « أنا صاحية » ثم تأوى إلى سكون شديد ، على شفتيها نبأ بابتسامة ، فأى الصور أى البواعث، أى الصور والأفكار أى ؟، يا حرقة السؤال الذى لن يلقى إجابة أبدا .

قالت يوما لأم عيالى : عندما كنت أنده على جمال ولا يجيبنى ، أعرف أنه مشغول ، مستغرق ، فلا أكرر النداء ، أما سعيها وكدها زمن العسر والمشقة ، فلا يمكن الإحاطة به ، أمى التى قضت زمنا مددا تجهل الدروب والشوارع وانعطافات النواصى ، لا تخرج إلا بصحبة أبى ، عرفت الطريق إلى عبد الهادى البقال ، إلى باعة الخضر ، إلى جزار تخصص فى بيع لحم الأبل رخيص السعر ، تلتف بملاءتها السوداء ، تتلفت حولها حذرة ، تعبر مسرعة ، ساعية فى الزحام ما أنا إلا امتدادها ، فأنا منها ، وهى منى ، ذلك حشر علينا يسير.

حدثتنى الكاملة التى تم سعيها ، التى خلفت آثارا صعب على عيون الغرباء تبينها ، حدثتنى فقالت : « خرج أبوك يوما متعبا ، حاله ضنكا ، خفت عليه

وخشيت ، فسعيت وراءه ، أدركته عند عبد المنعم البقال ، رأيته متهدل الأكتاف ، يرجوه أن يعطيه جبنا وبيضا . أن يصبر عليه يومين .. فقط يومان ، يقول له البقال : أبدا لن أبيعك بقرش واحد ، صعب عليّ حال أبيك ، أعلم يا ولدى أن أوعر شيء عند المرأة أن ترى رجلها منكسرا ، أو مهانا ، شدّيت يده ، قلت بصوت مرتفع : تعال يا أحمد .. سيبك منه ، يا جمال .. أبوكم ، أبوكم ذاق المر ، يومها قلت له أن يبيع السرير ، يمكننا النوم فوق الأرض ، لكن .. لا يمكن أن يقف هذا الموقف أبدا » .

قبل سفر إسماعيل رصدت تشاؤمها ، لمحت وجلها ، حزنها الدفين ، لكم بذلت من جهد ، أشد ما تخشاه أن تطفر من عينيها عبرة عند سفر ابن ، هذا نذير تتجنبه، ألم تودع أمها مبتسمة عند خروجها من جهينة إلى مصر، مع أنها أخفت ما أخفت ، فكيف تدع إسماعيل ؟كيف تتركه يرحل وآخر صورها عنده مبللة بالدمع ؟، سفره أرقها ، أعتم خواطرها ، وألقى ظلالا على توقعاتها ، وأعتم زمنها الخاص المستعاد بالمخيلة ، غير أنها لم تبح .

قالت : أخوك مريض ، أنا قلقة عليه ، أمامه سفر طويل ، صحبته إلى طبيب ، كشف وفحص وأشار بعلاج يسير ، نصح بالسفر ، إنما الأمر اضطراب عصبي وله بالمعدة أعراض ، ودعت إسماعيل ليلة سفره ، وكما يحدث عند الفراق ، يكتشف الإنسان أنه لم يعرب عن كثير ، لم يفصح عن كنه مشاعره ، إن فرصا عديدة ضاعت ، يتمنى لو تأجل الأمر مقدارا هينا يعوض فيه ما فات ، تحل أحزان غامضة ، هذا حالى وأنا الأخ الأكبر ، فما البال بحالها هى ، وإسماعيل منها بمنزلة الضياء من العينين ، فهو مؤنسها وصحبها بعد زواجى ، وبعد رحيل الوالد الكريم ، ما بال حالها هى المريضة بداء السكر منذ سبعة عشر عاما ، قبل سفره عانت ما عانت ، دارت بها الأرض ، راحت

تهوى فى جب سحيق أسود ، حتى أيقنت أنه التفاف الساق بالساق ، وأن الفراق واقع .

كانت وحيدة فى ذلك العصر ، تصادف مجىء الجارة الطيبة ، أم محمد ، بعد افاقتها من غشيتها قصت ما جرى ، وما عن لها من رؤى ، طلبت منها أم محمد أن تتمدد .. عصرت ليمونتين ، قالت لها لابد من ذهابك إلى طبيب كبير .

هنا لابد من وقفة . فهذا حد مسلط علىّ ، ذلك أنى دخلت عليها يوما ، زيارة من الزيارات التى كان أصلى يقوم بها ، استقبلتنى صامتة ، لم تقل لى ما بها ، كنت أجئ ـ مثله ـ بادى التعب ، ما أرجوه أن أراها بخير ، فيسكن قلبى ، ويهدأ بالى لراحتى ، وهذا عين الأنانية ، ولب انفصالى عنها وعن ذاتى ، لكنه طبع جبل عليه أصلى ، ليس منى ، لايمت إلى جوهرى العتيق ، وما أنا إلا مأمور ، مكلف باتباع ما كان عليه أصلى ، ولو رمت إبدال أمر بأمر عسر ذلك وصعب .

رأيتها ساهمة واجمة ، فلما استفسرت لم تجبنى تصريحا ، لم تبادر بالافصاح ، فمن خصالها كتمان ما بها حتى الأوان المواتى ، لاتفاجئ عزيزا بنبأ مزعج حال دخوله عليها ، إنما تنتظر ، وشيئا فشيئا تبوح حذرة ، خشية منها وحرصا ، لم يغب عنى يومئذ سكوتها ، وتشقق نظراتها ، إذن .. ثمة أمر تحجبه ، لم يرث أصلى هذا عنها ، لم ينتقل إليه ، إذ كان يبدى ما عنده حال رؤيته لها ، لا يبقى على أمر ولو لحظة ، لا يلفظه على حاله ، إنما يضخمه ، فتبدى الجزع وتصغى ، تعطف وتحنو ، تبذل الجهد الأتم لتخفف وتضمد .

سددت إليها البصر أثناء تناولى طعامى ، لم تنتن الىّ ، لم تلتفت ، هى التى تنتبه بمجرد تطلعى إليها حتى إذا كانت مولية الوجه والبصر بعيدا عنى ، خفت

فتساءلت ، التفتت اليّ ، قالت باختصار :

« يا ريت تشوف لى دكتور كويس يا جمال .. »

قالت إن علاج المستشفى لم يعد كافيا ، لا تلقى الاهتمام ، سكتت مقدار لحظة ، قالت :

« والله ، افتكرت نفسى راح أموت يوم الخميس ... »

قصت علىّ ما جرى ، غير أنها خففت الوقع ، انصرفت مهموما ، وعندما ابتعدت عن البيت استعدت عناقها لى ، ضمتها الأمومية ، مضيت إلى المقهى ، قلت لواحد من أقرب الخلق اليّ ما أخبرتنى به ، حكيت عن لهجتها المختصرة الدالة ، المشوبة بنذير ، قال منبها ، ناصحا :

« جمال .. لا تهمل أمك .. »

استفسرت عن اسم طبيب كبير ، ذكر كل منهم اسما ، معددا فضائله ، بعد أيام ثلاثة جئتها ، لم أكن بعد قد اتصلت بالطبيب ، حال دخولى عليها ، سألت :

« حجزت لى ؟ »

« أين ؟ »

قالت :

« عند طبيب .. »

قلت :

« الليلة سوف .. »

قاطعتنى معاتبة ، وفى الصوت مرارة :

« ألم أقل لك ، ألم أطلب منك ... »

هذا أقصى غضبها ، وأصعب عتابها ، تلك خيبة أملها ، كل فى ذروته ،

ى أوجه ، وأنا بمنزلة البليد ، الصدئ ، لماذا لم أفعل ؟ لماذا أجلت ؟ أوَ مِثْل ذلك يحتمل الإرجاء ؟ .

قالت بعد لحظات :

« على أية حال .. اسماعيل ذهب بى إلى طبيب فى مصر الجديدة .. »

عندئذ مر بى ماكان سيشعر به أصلى ، راحة وانزياح ثقل لأن شقيقه قام بما وجب عليه هو ، وإن بقيت خجلا ، أحيد بعينى وأنأى بنظراتى .

فيا بعد قصت علىّ بعضا من أنباء هذا الطبيب ، كيف يلقاها ؟ ترحيبه بها ، إيثاره لها ، أمره بدخولها عليه فور وصولها ، كان يقول لها إنها تذكره بأمه ، ليس فى الهيئة ، لكن فى الجوهر ، قبل سفر إسماعيل قالت لى إن الدوار البغيض فاجأها أثناء تأهبها للصعود إلى العيادة ، تميعت أرضها ، واضطربت موجوداتها .

قال :

« والله يا جمال أنا خائفة .. »

فيما بعد ، فيا تلا اكتمال المحنة ، حدثتنى شقيقتى ، وقد كانت أقربنا إلى الكاملة ، أختى التى يتردد عويلها الآن فى مسمعى ، قالت : رأيت أمنا صباح يوم بعيد ساهمة ، كمدة ، قلت : ماذا بك ؟ لم تفض إلىّ ، إنما هونت بإشارة من يدها ، لاشىء ، غير أنى ألححت ، فأفضت إلىّ بما أعتم وجودها ، قالت إنها رأت المرحومة عائشة ـ قريبة لها ـ فى المنام تبتسم وتدعوها أن تجىء ، أن تأتى ، ألا تهاب ، فخطت نحوها ، لامانع يوقفها أويردها . قلت لها ، دعك يا أمى من الأحلام إنما هى هواجس ، ومادمت قد أفضيت بها ، فهذا يعنى فساد أثرها ، تطلعت إلىّ ، لم تجب ، قالت نوال أختى : كانت نذرا تلوح وبوارق تومض لكننا لم ننتبه ! .

عندما سافر اسماعيل لم تقل له أن قلبها ينبئها إنها لن تراه مرة أخرى ، وأنه

سيرجع فلن يلقاها ، إنها سترحل قبل عودته ، لم تصرح ، ولم يطلعها أنه أدرك جواها ، فسبحان علام الغيوب ، ودعته بقلب منفطر ، وفؤاد ملتاع ، غير أنها كتمت فلم تبح ، سلت إبتسامة من أغوارها لتواجهه بها ؛ يجب أن يتذكرها مبتسمة ، إنه ماض إلى اغتراب ، ويا .. عالم متى يلتقى الحى بالحى ؟ فأى أرزاء ناء بها قلبها أى !.

ماذا رأت من المرئيات عند خروجه ؟كيف توالت دقات قلبها ، كيف شجا فؤادها عندما وصل زميله ليصحبه إلى مطار الاقلاع ؟ كيف ترددت أنفاسها عندما اختفت السيارة من مجال بصرها ، عندما غاب عنها اسماعيل ، عندما غربت بالنسبة له وهى لم تزل بعد تسعى ، عندما انقلبت إلى عدم وهى بعد باقية ، كيف ؟ ، هذا ما لن أعلمه أبدا ، هذا ما توارى ، ما انطبقت عليه الغياهب ، بيانه مجهول ، غامض عندى ، مستعصى الكنه علىّ ، وعر الإدراك ، ذلك أننى تقاعست ، فلم أودع اسماعيل ، تحججت برحيله مبكرا ، ومنزل اقامتى البعيد.

فى اليوم نفسه جئت إليها ، أعرف قسوة نهارها ، فليس أطول ولا أثقل من يوم الفراق ، بادرتنى باللوم على غير عادتها :

« ليه ما جيتش الصبح لتسلم على إسماعيل ! »

تعثر نطقى ، قلت شيئا عن بعد المسافة ، وشيئا عن الوقت المبكر ، ثم حدت عن المجرى ، فقلت : لا تحزنى على سفر اسماعيل ، تقبليه بقلب راض سيرى الدنيا ، تعرفين أنه تعب ، مرهق ، وأن فرص سفره قليلة ، هذه الشهور ستفرج عنه ، ادعى له بالسلامة . أومأت واجمة ، وعندما حان انصرافى قبلتها مودعا ، إذ كنت على سفر فى اليوم التالى ، سفرى لأيام ، ورحيله لشهور ، سفرى متكرر ، معتاد ، أما غربته فغير مألوفة لها ، ثم إنه هو المقيم بقربها ، خلا

عالمها منا ، إسماعيل وأنا ، لا يمكنني معرفة كنه الأيام الأولى بعد أن خوى البيت ، بعد أن صار انتظارها عقيما ، لا ينتهى بوصول من تحب ، الثالثة ظهرا تدنو ، وإسماعيل ناء ، الطريق قفر ، ممتد ، ولا أمل فى ظهوره بين العابرين ، عيناها لن تقعا على من تبغى رؤيته وتتمنى قربه .

حدثتنى أختى بعد أن وقعت الواقعة ، كأنها تكلم نفسها ، أنها لمحت الغالية تفتح صوان الملابس يوما ، تقلب هدوم إسماعيل ، تنفض الغبار عنها ، تعدل وضعها ، تقربها من شفتيها ، تتحسس رائحتها بأنفها ، ثم تغمض عينيها ، تلف وجهها بقميصه ، تتنسم رائحته ، فهل كانت تدرى أنها لن تراه ، وأنه لن يراها أبدا ؟ وأنها عندما ودعته صباح ذلك اليوم البعيد من شهر مارس أنها كانت تبدأ وداع الأقربين ؟ قالت نوال إنها كانت تنفض فراشه صباح كل يوم ، تنظف حاجاته ، ترتب كتبه ، وأوراقه ، وعلبه الصغيرة التى تحوى أسلاكا ومفاتيح دقاقا يستعين بها فى عمله ، ومصباحا يدويا ، وزجاجة عطر ، وفرشاة حلاقة ، ومنفضة صغيرة من بلاستيك أعتاد.نش الذباب بها ، تنظف اطارات صوره ، كأنه سيرجع فى موعده ، تماما .. فى الثالثة ، أو الثالثة وبضع دقائق إن تأخر .

فى الليل تمر بغرفته تماما .. كما كانت تطمئن عليه بعد نومه واستغراقه أحيانا يعكم الفراغ قلبها فتولى داعية خالقها ، من بيده الأمر ، ألا يحرمها من طلته أبدا ، تتناول طعامها فى الوقت الذى اعتادته فى وجوده حوالى الرابعة بعد أن يكون قد فرغ هو ، وفى مطلع النهار تدلى السلة ليضع البائع الصحف التى اعتاد قراءتها ، أما أقسى أيامها فعطلات أيام الجمع الأسبوعية ، كان يتأخر فى نومه ، لا توقظه مبكرا ، كانت تجد الوقت والفرصة لتتحدث إليه ، لتفضى هى وليصغى هو ، فى هذه الأيام التى بدت لها باردة ، جوفاء ، تجلس فى الصالة صامتة ، راحلة بفكرها فى ثباتها ، مطرقة ، وإذ يفيض بها الشجن ، وتشتد

عليها أنواء الوحشة ترفع رأسها متنهدة متسائلة :

« يا ترى .. أنت فين يا اسماعيل يا ولدى ! »

فأى الصور ؟ أى الأفكار ؟ أى خلجات ؟ أى أحاسيس ؟ أى بواده ؟ أى هواجس ؟ أى شوق ؟ أى توق ؟ أى خوف ؟ أى رجاء ؟ أى مواقف متوالية انبعثت فجأة ثم ولت؟ أى روائح عتيقة مرقت؟ أى خواطر لم تلفظ؟ وكم من حال ـ أرخى عليه العدم سدوله ـ فاض به وضج هذا الجثمان الذى سكن ، الذى همد ، الذى بدأ اقلاعه صوب الفناء والأبد ، محتويا رحما كان محل تكوينى ومبعث نشأتى ، أول موطن لى ، لا يتقلب ، لا يتهدج ، لا يملك من أمره شيئا ، موجود وغير موجود ، فما أمر اللحظة ، وما أوعر الخطوة ؟ إنى مضطرب ، مثقل .. أقوم ، أنقل خطى بطيئة صعب جرها ، أولى وجهى تجاه الحجرة ، على الأريكة تقعد جارتنا الجنوبية ، الطيبة ، بجوار السرير تقعى نوال ، ربنا لا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا ، أعوذ بك من كآبة المنظر ، وسوء المنقلب ، وعناء السفر ، ربنا لا تحملنا مالا طاقة لنا به .

تقول الجارة :

« نوال تأبى الابتعاد عنها .. هذا حالها منذ الفجر .. »

أدنو ، اقترب ، ألمس كتفها ، تقول الجارة :

« دعوه ينظر إليها .. »

ممدة هى ، مغطاة كلها بملاءة ثقيلة ، المرة الأولى التى أراك فيها نائمة اقترب فلا تنتبهين ، أدنو فلا تنهضين وعلى وجهك ابتسامة تخففين بها عنى وزر ازعاجك واقلاق نومك ، ازيح الملاءة ، أتطلع إلى العمر الذى تم ، إلى أصلى الذى ذوى ، إلى جذرى الذى يبس وجف ، إلى أول الخط ومنتهاه إلى بداية الدائرة وآخرها ، تغيرت ملامح كان عهدى بها طويلا ، غيَّر النزع الشديد

القسمات ، هذا عناء ، هذه مجاهدة ، العينان مغلقتان إلى أبد آبد ، والفم مزموم بعد أن حاول دفع مالا يمكن دفعه ، ونطق مالا يمكن نطقه ، اليد منثنية ، والزبد الأبيض لم يجف بعد عند الشفة السفلى ، فأى ألم اجتاح الكيان الذى لم يعش إلا ليحنو ، ولم يسع إلا ليشفق .

الوشم الباهت يتوسط الذقن ، أما الشعر فرمادى ، معظمه أشيب ، المرة الأولى التى أراه فيها هى آخر مرة ، دائما كانت تغطى الرأس بعصابة ، لم أرها حاسرة قط إلا فى هذه اللحظات النهائية ، كنت مأخوذا عنى ، غير أن أشياء كثيرة انحسرت لا يسعنى إيرادها بتفاصيلها ، فى هذه اللحظة أدركت تمام الرحلة ، وانقضاء الشوط ، غير أن الأمر لم يكن عبثا ، لم يكن بددا ، إنى أقف شاهدا على رقدة ما بعد المجاهدة التى أثمرت وأعطت ، وتفرعت فى الكون سبلا شتى .

عند هذه اللحظة تمت المصالحة ، تم اللدمج ، تم الحلول فى الحلول ، لم يعد بإمكانى القول أنها أم أصلى ، إنها أمى أنا ، جمال أنا ، وأنا هو ، لم يعد فى ناحية وأنا فى ناحية ، أمامها تمت المصالحة ، هى التى ولت ، هى التى لم تعد ترى ، ولا تصغى إلى صاحب أو قريب حميم ، التقى المسعى بالسعى ، غير أن هذا تم بعد فوات الأوان ، وهنا أمر دقيق ، عسر تفصيله ، صعب بيانه ، ربما أفضت فى شرحه إذا سمح الدهر وإذن لى بتدوين السرائر التى لم أفصح عنها والمخاطبات التى سكت عنها عمرا .

على مهل ، بدون قصد ملت على الجبين والوجه الذى تناثرت عليه بقع خضراء ، آثار النزع الوعر ، فماذا جنت ، وأى ذنب أتت حتى يكون تمامها مؤلما ، فظا ، قبلت الجبين الذى همدت حرارته ، وطويت ببصرى الملامح التى انطفأت ، والوجه المكدود ، الذى تقلصت ملامحه ، بين السماء والطارق .

على مهل سحبت الملاءة الثقيلة ، ورأيت العمر الذى ولى كشهاب ثاقب ، قيظ يوليو يشتد، والنهار يتقدم وئيدا، بطيئا خرجت من الحجرة، هنا فى هذا المكان ، بجوار تلك المنضدة كانت تجلس منذ ساعات ، أو الليل الفائت عندما جئتها لأسلم وأودع قبل سفر كان مقدرا له أن يبدأ بعد ساعات ، ومن عادتى إذا شرعت فى الرحيل ، إلى خارج الوطن أو داخله ، أن أجىء فأسلم ، وأودع ، أتم ذلك فى اليوم الذى يسبق سفرى مباشرة ، فانظروا يا صحب إلى التدبير المحكم فى الكون ، ذلك أننى قضيت يوم الجمعة بصحبة عيالى وأضمرت العزم والنية على الذهاب إلى أمى غداة السبت للسلام ، قبل دنو الأصيل اتصل بى صاحب لى من أرض الحجاز ، قال إنه فى زيارة عابرة وأنه ماض من بلد إلى بلد ، يود لو رآنى ، حددنا للقائنا موعدا قبل الغروب ، توجهت بالسؤال إلى امرأتى ، أن تصحبنى مع عيالى ، نمر بالصاحب ، لن أتأخر بصحبته إلا دقائق معدودات ، ثم نمضى إلى أمى ، أراها وترانى ، أودعها وتودعنى ، ثم ان ذهابى إليها بصحبة محمد إبنى وماجدة ابنتى أحسن وقعا عندها من ذهابى بمفردى غدا ، فلكم تحب رؤياهم ، وتحرص على إبقائهم .

منذ عشرة أيام ــ وقتئذ لم أكن أدرى أن العمر بقى منه عشرة لاغير ــ كان من المفروض أن أصحبهم إليها ، غير أننى خرجت مبكرا بمفردى إلى اجتماع يخص سفرى هذا ، مضيت وحيدا إليها ، ولما دخلت رأيتها تجلس فوق الأرض ، تعد باذنجانا أبيض محشوا يحبه ولدى حبا جما ويطلبه منها عند مجيئه إليها ، تساءلت :

« أمال فين الأولاد ؟ .. »

تضمن صوتها لوما ومرارة رحت أبدى أعذارا شتى ، دخلت الغرفة ، لامست الموضع الذى تتمدد فوقه الآن ، جف قلبى فجأة ، سؤالها عنهم فيه

حدة لم أعتدها منها ، لوحت بيدها غاضبة ، نافثة آهة حزن ، لم تخف ، لم تدار ضيقها ، حتى إنها تبعتنى ، ولامتنى ، وأبدت الغضب ، مما دفع بالحرج والحيرة عندى ، فقلت مخاطبا شقيقى :

«يظهر أن أمى غاضبة علىّ أكثر من أى مرة ، سأنصرف وأرجع بعد أن تهدأ ... »

كنت ألوح بما لن تقبله ، بل أهدد بما أعلم ردة فعلها عليه ، بما لن ترضى به ، وكما توقعت ، عادت إلىّ ، اقتربت منى ، وانحنت حتى كاد وجهها يلامس وجهى ..

« لما ترعل منى ياجمال ياولدى .. كان نفسى أشوف ماجدة ومحمد .. أصلهم وحشونى ... » .

لماذا تكاسلت ، لماذا تقاعست عن صحبتها ، لماذا ؟ لماذا حلت بينها وبين أمر بسيط ، كان سيرضيها ، ويهدئ خاطرها ، لماذا ؟ هذا ما فات أوان استدراكه ، ما لفت نظرى غضبها منى ذلك اليوم ، وأن تظهر ما أظهرت فهذا يعنى أن بداخلها أضعافا مضاعفة ، فأى الأمور وارتها ولم تعلنها أبدا ، هذا ما ضاع منى إلى أبد ! ، وسبحان من ألهمنى صحبة ولدىّ مغرب هذه الجمعة ، أهو وحى خفى بحكم نشأتى القديمة ، أو بحكم طورى الجديد ؟، لم تكن المصالحة قد تمت بعد ، فإلى أيهما يمت الخاطر الطيب ، الذى جعلنى أصحب عائلتى ، وأمضى لأسلم وأودع وداعا لم أدر أنه الأخير ، عندما رأيتها تقف بالمدخل كان النظر القصير يكشف لى أن ما تبقى على سفرى ست وثلاثين ساعة ، ولكننى كنت جاهلا بالموضع الذى ستكون فيه مساء الغد ، ليت الإنسان يعلم بما ليس يدرى، أتت بما عندها من مشروب طيب وفاكهة، ولما أبدت زوجتى رغبتها فى شرب فنجان من القهوة، أسرعت تعده لها، لم تتكلم إلا

قليلا ، طوال الوقت تسند وجنتها إلى راحتها ، توزع النظر بيننا ، وأى نظر؟ أى نظر؟ كانت بالجانب الغربى وما كنا بالعالمين ، كان يدنو بها العمر ونحن جهال لا نعى الإشارة التى تنطوى عليها هذه النظرة ، لم يتوقف الخاطر أمام طبيعتها وكنهها وسرها الدفين ، والنبوءة ، والمعنى الذى يعز فهمه ، وإن أثارت عندى رجعا بعيدا وأصداء استعصى علىَّ تفسيرها ، أطالت التحديق شأن من يتزود برؤى لن تقع عليها عينيه قط ، أو من توقن بإقلاع وشيك لا إياب منه ولا عودة فتسعى إلى التزود قدر الإستطاعة بملامح الأحبة الأقربين ، تقف عند نهاية عمر أشرف على التمام ، غمرها الشوق ، فانبعثت ترنو إلى الأم ، حدثتنى امرأتى فيما بعد فقالت : كلما تذكرت سلامها علينا بنظراتها ، وطواف عينيها بنا واحدا ، واحدا ، تدركنى رجفة ، كيف لم ندرك ، كيف لم نفهم ؟ .

عند هذه النظرة وقفة ، واطلالة ، ومحاولة تلمس ، فالمعانى عديدة وليست مفردة ، أدق وأرق من أن تلمح ، مستعصية على الرصد ، غير أنى باذل جل الجهد للمحاولة ، أقول إنها حوت الدعة والرقة والسلام الأبدى ، سلام يحل بمن يشعر أنه صار قاب قوسين أو أدنى ، فيها الوعى بالفراغ من أمر هذا الكون المرئى، فما من تبدل بعد ، ما من تغير ، ما من غضب آت ، أو ضغينة يحملها المرء أو يضمرها له غير مترصد ، سلام أبدى فيه بيان للناس ، هذا من جانب ، ومن جانب آخر فيها الأسى على ما لم يتحقق ، والحسرة لفراق الأحبة ، والقلق الممض على ما ينتظرهم وخشية المجهول ! .

ربما يصح قولى هذا ، وقد لا يصح ، غير أن ما أقوله أنا جمال ابنها ووالد حفيدتها ، أن تلك النظرة استقرت عندى فى قرار مكين ، اختصرت ما عداها ، دخلت غرفة شقيقى الغائب ، قلت إنى تعب ، قالت : لا تتعب نفسك يا جمال ، وهوّن من الأمر ، ثم قالت : خد بالك من نفسك ، لم أدر

أنها تقول آخر وصاياها ، أنّى لى العلم؟ عندما دنا الحين ، قلت إن طريقنا طويل ، والليل يوغل ، وأننا سنعرج على حسن صاحبى الذى جاء من بلاد نائية حيث يعمل ويقيم ، وأنا على سفر ، سأرجع فلا ألقاه ، ما من فرصة متاحة لرؤيته إلا الليلة ، ودعتنا ، صافحت وسلمت وعانقتنا ، ضممتها إلىّ ، حتى نفذت رائحة شعرها إلى أنفى ، قبلت رأسها ، حتى أنها قالت لشقيقى بعد انصراف : « جمال سلم علىّ واحتضننى بشدة .. أرجعه الله سالما » . لوحت لها من الطريق ، نفس الموضع الذى رأيت منه أبى من قبل ، تلك الجمعة الأخيرة ، عندما دارت العربة مبتعدة ، تذكرت فجأة دواء الضغط ، طال بحثى عنه حتى عثرت عليه فى الصيدلية القريبة من عملى ، دواء شحيح فى الأسواق ، قلت لزوجتى ارجعى ، نسيت الدواء معى ، وقفت تحت الشرفة ، صحت مناديا ، أطلت ، طلبت منها أن تدلى السلة لأضع فيها الدواء ، رأيت يديها مرفوعتين ممسكتين بالسلة ، صحت بعد أن وضعت الدواء :

«ارفعيها يا أمى ..»

جاءنى صوتها ..

« مع السلامة يا جمال ..»

ثم جاءنى مرة ثانية :

« مع السلامة ..»

ثم وصل سمعى لآخر مرة :

« مع السلامة يا جمال ..»

هذا آخر عهدى ، ومنقطعى ، ومختتم سماعى لصوتها .

ركبت العربة ، أنّى لى أن أعرف أن شمس اليوم التالى لن تطلع عليها ، أنى لى النفاذ إلى ما ستجىء به الساعات القادمة ؟ . آه .. ليت الجاهل يعلم بما

ليس يدرى . أنىّ لى ذلك ؟.

زرت صاحبى ، انصرفنا ، سلكنا الطريق ، تمددت فوق الفراش متعبا ، علىَّ أن استيقظ مبكرا ، ثمة أمور يجب أن أقضيها فى الغد ، رحت فى النوم مقدار ساعة ، أو ساعتين ، صحوت على نداء زوجتى ، ما بين الإغفاء واليقظة سمعتها تقول إن بنتا اسمها منى تحدثت ، وقالت إن شقيق على سوف يتصل ، تساءلت ، من منى هذه ؟ من ؟ غير أن توجست ، أدرت قرص الهاتف ، أيقظت يوسف صاحبى ، من قدر له أن يشهد رحيل أبى ، تساءلت : أثمة أمر غير عادى فى البيت ؟ قال إنه لا يدرى ، طلب أن أمهله حتى يطل من الشرفة ، إذ يمكنه رؤية النوافذ الخلفية ، عاد ليخبرنى أن النور مضاء ، ثم قال إنه سينزل إلى هناك ليستطلع الأمر، وضعت السماعة وقد بدأ انحنائى، رن الجرس ، جاءنى صوت شقيق ، قال إن أمنا تعبة ، وأن الطبيب جاء ، وقال إن النبض ضعيف ، قلت : انقلوها إلى المستشفى القريب ، وإنى لقادم . اذ صمت الليل فى مسمعى ، قلت لامرأتى : « أمى ماتت » ، ثم قلت « أمى ماتت » ، ما من خبر يقين ، لكن حدسى أكد لى وقوع الواقعة التى ليس لها كاشفة ، نطقت بدون حذر ، لم أتردد فى التصريح بالموت .

فى الطريق والفجر مقترب كنت أميل إلى الأمام ، كأنى أحاول تلمس مدى أوسع للرؤية، ماذا جرى ؟ ، لماذا يكون موتنا دائما عند الفجر، لماذا نفارق العالم فجأة ، هكذا رحل أبى ، وهكذا أمى ، عندما تسارعت أنفاسها ، وارتفع الشخير ذو النذير ، راحت تتطلع إلى نوال أختى وعلى أخى ، وجاراتنا اللاتى جئن فى هذا الهزيع الليلى ، تبسط يدها ، تصارع قوى غامضة ، لانراها ، لا نعرف كنهها ، وعندما برز لسانها قليلا أمكنها التفوه بكلمتين ، « هاتوا لى جمال .. » ، ثم أغمضت العينين وانقلبت متمددة فوق السرير ،

وجهها إلى الجدار ، منهية الرحلة ، مختتمة السفر ، وإنا لمنقلبون كما انقلبت .

هذا أنا أجرجر خطاى ، الباب مازال مفتوحا ، المقاعد مضطربة ، فوق أحدها طرحة أمى ، كل ما وضعته فى مكانه حتى ليلة الأمس باق حتى تلملمه الأيدى ويتروى فلا يراه إنسان أبدا ، صعدت السلم إلى مسكن الجارة حيث الهاتف ، أدرت القرص ، لابد من الاتصال بأقاربى الذين استضافوا جثمان والدى فى مقبرتهم ، هاتف كبيرهم عوض لا يرد ، أدرت رقما آخر لشقيقه الأصغر الذى يسكن بعيدا عنه ، جاءنى صوته مثقلا بالنوم ، قال إن هاتف الحاج عوض معطل ، فاعتذرت ، أدرت قرص صاحب لى من الأقربين ساعيا إلى المدد ، لكنه لم يجبنى ، نزلت الدرج .

تنوح شقيقتى، تؤكد أنها نائمة، وأنها سوف تجيبها، وأن ماجرى كابوس ، ملت عليها ، رجوتها أن تحافظ على أمنا ، أن تساعدنى حتى يكون رحيلها كريما ، أن تدعها هادئة فى رقدتها ، ثم تساءلت : هل تظنين أنها راضية الآن عما تفعلينه ؟ .. لا أظن ! ، بذلت المحاولة حتى فككت يدها عن ثوب أمى ، ساعدتها على الانتقال إلى الحجرة الأخرى ، باكية نائحة ، والجارات بصحبتها ، أغلقت الباب ، أمى وحيدة الآن ، كما ستكون بمفردها الليلة ، نائية عنا ، مطوية طى السجل للكتب ، أما ما يجب مواصلته الآن فتجهيزها للرحلة ، ومعاونتها على المضى إلى المثوى ، فمن سيعيننى ، من سيرعانى ؟، وددت كشف وجهها ، ومخاطبتها ، تمنيت أن أقول لها ما لم أقله ، إن ابنك ــ الذى هو أصلى ــ رحل منذ زمن بعيد ، وأنك عشت أمدا غير قليل ، وأنت ثكلى ، ولا تدرين ، لعلك تعلمين الآن ، لم تبكيه عند رحيله ، جئتك بدلا عنه فلم تخاطبى إلا صورته ، ولم تحنى إلا على بديله ، كنت قريبة منى ، وكنت نائيا عنك .

جال هذا كله بذهني ، غير أني لم ألفظ كلمة واحدة من مضمون الخاطر .
ذلك أني أدركت برحيلها ما لم أدركه في سعيها ، إذ صالحت ذاتي على ذاتي ،
وحللت في الموضع الذي لا يمكن تحديده ، كي أكون ابنها ، لا يعذبني وعيي
أنني لست هو ، ولا يضنيني انها أم غريبة عني ، ولي هذا كله لكن بعد أن
اكتمل يتمي ، وانقضى الأوان المقدر ، ذلك هو الفوت الأعظم ، فمن
اغتراب إلى اغتراب ، ومن فقد إلى فقد ، ذاك أمري !

أولي ظهري للبيت الذي سنخرج منه أمي بعد زمن قصير إلى أبد آبد ،
يرفقني صاحبي ، وجار طيب آثر ألا يفارقني ، سعينا إلى الأقارب ، من
استضافوا أبي في رقدته الأخيرة ، صباح حار ، والطريق يمر قرب المرقد والمحط
الأخير لرحلتها ، بعد قليل ستواري المجاهدة في هذه الجهة ولا يكون سعي إليها
من بعد إلا لمجابهة الصمت ، والوقوف عند حافة العدم ، فمن الله العون
والعصمة ، فناء لا يجري عليه التبديل ، وبقاء لا يقبل التغيير ، فلا الفاني يصير
باقيا حتى يكون الوصل ، ولا الباقي يصير فانيا حتى يتم القرب !.

أطرق الأبواب المغلقة ، لا أعرف بيت الحاج عوض ، أقصد بيت شاب
أجهل درجة قرابتي منه ، تفتح الباب امرأته الشابة ، ترتدي ثياب النوم ،
مكشوفة الذراعين ، طالة النهدين ، فتية ، عفية ، ملامحها ولهجتها تنبئ أنها
من البلدة ، كذا لهجتها ، قلت دامعا أن أمي رحلت ، وأنني أريد الوصول إلى
بيت الحاج ، إني أجهل الطريق إليه ، تبدي جزعا ، تطلب مني الدخول حتى
توقظ زوجها ، تولي ظهرها لنا ، أعجب وأخجل من تعلق نظري برد فيها !،
ومنطوق جسدها ، أمازلت منفصلا ؟ غير أن واردا هب عليّ فأدماني ، إذ
ذكرت مجيء أمي من البلدة ، أيامها الأولى في المدينة ، غير أنها بقيت غريبة ،
لا بيت لها ، ولت هذه الأيام ، قفل عليها ، كذا سعيها في الأسواق ، ترى

أى يوم جاءت فيه من البلدة ؟ أهو سبت كيوم رحيلها اذا ؟ أم أحد ، أو اثنين ؟ أى يوم أى ! أبى رحل يوم ثلاثاء ، فى أى يوم سيكون مختتمى ؟ لا تدرى نفس ماذا تكسب غدا ، ولا تدرى نفس بأى أرض تموت ، أمى ودعت أبى ، وأنا أعيش وداعها ، فمن سيسعى فى أثرى ؟ من سيشيعنى ، وأى لحظات دامعة سيذكرها ولدى أو ابنتى أو امرأتى إذا لم أقض غريبا ، وشهدوا ذهابى ؟ وعلى أى مشهد سأغمض مقلتى إلى الأبد ؟ أى موقف سيبرق من الماضى بينما العتمة تهوى علىّ ؟ .

يجىء الشاب إلى الصالة .

« البقية فى حياتك .. »

صيغة العزاء ، أصغى إليها دهشا ، أمى التى كانت تسعى أنقلبت إلى ماض . يتساءل :

« هل يمكننا أن نشرب شايا .. »

أومئ شاكرا ، يغيب عنا ، يعود حليق الذقن ، رائحة عطر تنبعث منه ، يصحبنا إلى البيت القريب ، نقف عند المدخل ، أواجه ضوء النهار ، أول نهار يخلو من أمى ، أتابع سعى الخلق ، هذا حزنى المتعثر لا يدرى أى سبيل يسلك ؟ نشيج ، نواح ، أم عويل ؟ يتزل الحاج عوض ، وعنده شبه عظيم بأبى ، يصافحنى ، يطالبنى بالشدة والجلد ، يقول :

« أدت رسالتها كاملة .. وتركتكم رجالا .. »

أدت رسالتها ؟ كل من يخاطبنى يذكر التتمة والنهاية ، ومع كل ذكر كأنى أفيق على ما جرى ، يجىء الحاج يونس ، أرى أيام قدومه من جهينة ، قبل استقرار أمره وتيسر حاله ، قيام أمى عند الفجر لتعد الشاى ، والافطار قبل خروجه بصحبة أبى ساعيا فى هذه الدنيا ، يقول جارنا إنه سيمضى إلى مقر عمله

ليستأذن فى الغياب ، يقول صاحبي إنه سيمر بمقر عمله وينبئهم بما جرى حتى يرتبوا أمورهم بدونه فى هذا اليوم ، سيلحق بنا ، إنما هى مسافة الطريق لا غير أركب العربة ، بجوار الحاج يونس يمصمص شفتيه آسفا ..

« يا سلام على الدنيا ! » .

لماذا قال ما قال ، أى باعث ! أولى وجهه صوب الطريق ، ماذا يفعل اسماعيل الآن وما يفصلنا عنه ليل ونهار ، الوقت عنده الآن ما بعد منتصف الليل ، رحيلها عندنا فجرا ، وعنده غروب ، كيف يتلقى النبأ ؟ أم أبذل المحاولة لإخفاء الأمر عنه ! ، تقترب السيارة من المرقد والمثوى ، هنا أبى ، لكم جاءت أمى زائرة ، كانت تقعد فوق الحصيرة ، صامتة ، متطلعة إلى ما نجهل ، تضع أمامها ما جاءت به فطائر ، وبلح ، وفاكهة تمد يدها إلى الصغار المتوافدين عليها ، ما أضيق المسافة ، وما أسرع المدة بين غيابه وغيابها ، لم تكتمل ثلاث سنوات بعد ، فيما جزعى ، بعد كم سألحق بهما ؟ ، هذا عبده ، من حمل أبى ونزل به الدرجات الحجرية ، ومدده ، وفك رباط كفنه ، يميل دانيا من نافذة السيارة ، يعرفنى ، لكم صافحته ، لكم استفسرت منه عما يجرى للجثمان ، يقول الحاج عوض :

« إفتح العين الجديدة .. »

يستفسر عبده كأنه يدرى :

ـ الحريمى ؟ .

تستدير العربة بطيئة ، الطريق غير ممهدة ، ترابية ، وعرة ، كل حركة تقربنى ، وكل سعى يدنينى من لحظة آتية لا ريب فيها ، ما تزال شقيقتى تناديها أن تقوم ، كعادتها التى لم تنقطع منذ مجيئنا إلى الدنيا ، أن تضع حدا لهذا الكابوس ، أن تسأل عما نحتاج إليه ؟ أن تسعى ، أن تودع ، أن تنتظر ، أن

تلقانا ، أن تجلس ، أن تنظر إلينا كما أعتادت ، لكن .. ما من مصغ ، ما من مجيب ..

صرخات حادة ، متقطعة ، تدخل إلى الصالة امرأة لا أعرفها تحمل سلة من خوص تحوى قماشا أبيض ، وآخر أخضر ، تراني فتطلق صرختين ، هذا من لوازم عملها عند حانوتي الناحية ، ظهر شاب في أعقابها ، يحمل خشبة قوائمها مثنية ، طلب ازاحة المقاعدة من الغرفة التي تتمدد بها أمي ، يختل النظام ، ينتفي الاتساق ، يخرج الشاب من الغرفة ، ينظر إليّ ، يقول :

« هل سنمشي بمجرد الأنتهاء »

يشير إلى الغرفة ، أومئ مجيبا .. نعم ، يقول بلهجة فيها حدة :

« يعني لن تقول لى إن أشخاصا سيجيئون .. ويجب الأنتظار .. »

تطلعت إليه صامتا ، غير قادر على المجادلة ، نهره جارنا الذي وصل لتوه ممسكا بشهادة رسمية تثبت وفاة الكريمة ..

« خلاص يا أخينا .. »

في الغرفة أزيحت الكنبة ، والمقعد ، والبساط العتيق ، وطويت المخدة ، أما خشبة الحانوتي فنصبت ومدت ، تقول بهية امرأة صاحبي إن المياه لم تنقطع ، ولكن للحيطة ملأت عدة أوعية ، أصغى إليها ، إلى أصداء شتى قادمة من بقاع بعيدة وأزمنة مندثرة ، ثقل لساني ، وعاد إليّ وجومي ، أتحرك كأنني أخطو في فراغ ، أروح وأجيء ، أصغى إلى نواح نوال ، اتخذ بعدا غامضا ، كأنه قادم من بعيد ، اقترب من الغرفة ، بهية وأم محمد جارتنا ، وأستاذة جامعية تسكن في الطابق الأخير ، والمرأة الحانوتية ، يتهيآن لأداء الواجب الأخير ، وكلهن معرفة السنوات الأخيرة ، وإحداهن مجهولة لم ترها أمي أبدا ، ولم تسمع بها ، وفي مثل هذا الوقت من الأمس المنقرض كانت

تسعى فى ناحية ، وأمى فى ناحية ، والآن قدرهما أن يلتقيا عند تخوم الأبد ، كشفن الغطاء عن الكريمة ، التى ختم على جهادها ، وصبرها ، وصمتها ، وزهدها ، وتجردها واخفائها الكرب عمن تحب ، وضعها لم يتبدل ولن ، مستسلمة بعد غياب الروح الحساس .

ذهبت اللحظات وبقى المعنى ، غابت الصورة وثبت الظل ، فهل ثمة فارق بين ما هى عليه الآن قبل أن يطويها المثوى ، وبين ما ستكون عليه بعد عام أو عامين أو مائة ، أم أن الأمر يستوى منذ اغماضة العينين ، منذ بدء الاحتضار وتمامه ، إذ يشتد الهول ويبدأ الحال الأعظم ، ويرى البصر ما لا يراه المحيطون ، القائـمون، فالموت نزع ، والموت جهل ، والموت فراق ، وغيبة .

قال شيخى الأكبر الذى طالت غيبته عنى ، الموت فزع للمؤمن لما قدم من اساءة ، وفزع للعارف لحيائه من الخالق عند القدوم عليه ، وندم للكافر لفقد المألوفات ، أقول إنه كم كمد لافتراقها القسرى عمن أحبت ورعت ، ومن لم تطمئن عليهم بعد ، الغائب الذى لم يصل ، والصغيرة التى لم تزل بعد وحيدة ، رلابن ذو العلة ، الفزع واحد وإن اختلفت المسببات

أقف عند باب الغرفة ، بطنها الذى كان أول موطنى ومحل تكوينى علا ، أكبر حجما مما كان عليه عندما رأيتها أول مرة صباح هذا النهار ، الزبد الذى غطى الشفتين انزاح إلى أسفل عند الذقن ، تميع قوامه ، وتلاشت فقاعاته ، لا يملك الميت لنفسه ضرا ولا نفعا ، تلك كينونتها العدمية ، تنأى بالعزل لا بالاعتزال ، تحضر بالعلم لا بالانتقال ، تغيب بالاحتجاب لا بالارتحال ، لاشىء يمكن أن يظلها ، ولا شىء تحتها فيقلها ، ولا شىء أمامها فيجدها ، ولا وراءها فيدركها ، ذاك حسبى !.

تقترب بهية ، وأم محمد ، تبسطان الأيدى ، لابد من حملها ونقلها

وتمديدها فوق الخشبة التى اكتمل نصبها ، وتحتها وضعوا آنية فارغة من نحاس ، تتراجعان ، الحمل ثقيل ، تشير بهية إلىّ ..

« تعال يا جمال .. ساعدنا »

لكن !!

بدر منى ما حيرنى ويحيرنى حتى زمن تدوينى هذا ، إذا وليت وجهى ، ونأيت ببصرى ، لم أقدم على حملها هى التى حملتنى مضغة فعلقة فجنينا فطفلا فكبيرا مستويا ، هى من كان صدرها مرعاى ، وحجرها فراشى ! ، أعيانى تفسير ذلك فيما بعد ولمت نفسى مرارا .. هل مبعث ذلك تقزز منها ، من الموت ، من همودها ، أم أنه الخوف والخشية ، ألوذ بأخف تفسير يمكن الرضاء به ، عدم احتمالى الموقف الصعب ، لكن عبثا حاولت أن أهدئ نفسى .

« طيب :. تعال يا محمد ..»

يتقدم صاحبى ، ما بين صرير الفراش وصرير الخشبة انتقل الجثمان الهامد من موضع إلى موضع ، تقول بهية :

« أخرج يا محمد »

قبل اغلاق الباب ، أشبع البصر عبر فراغ الحجرة ، أمى وجهها ناحيتى هل تبدو ملامحها أكثر هدوءا ؟ هل خفت تقلصاتها ، وهذه الأوردة المختنقة على صفاء الجبين ؟ ربما .. وربما هذا ما خيل إلىّ .

عند ركنى عينيها لمحت دمعتين ، من أنفها سالت نقطتين لا يمكننا مسحهما أو إخفاؤهما ، شأن الطفل إذ يغزر بكاؤه فتسيل أنفه ويتصل دمعه ، قيل فيما بعد إنها كانت تبكى أثناء غسلها ، اذ فارقت وأمنيات شتى لم تتحقق وأحباب كثر لم تنل منهم طلة .

أطلت النظر ، تعلقت بملامحها ، هذه القسمات لن أراها أبدا ، لن تقع

عيناى عليها ، ستصبح مجرد مكونات لأخيلتى وذكرياتى المسترجعة إن طال بى العمر ، وقد تبهت فأعجز عن استعادتها وقد يجىء وقت لا تعاودنى حتى فى رؤى منامى ، هذه الملامح أمامى وغير كائنة ، تلك المعالم لن تكون ، انتهى زمنها وبدأ رحيلها ، رحيل لن يوقفه أحد أبدا .

يتساءل أحد الأقارب :

« هل تعرفن الغسل الشرعى ؟ »

أجابته إحداهن ، لكنه راح يشرح كيفية صب الماء ، بأى عضو يجب البدء ، تراجعت عن الباب المغلق ، نواح شقيقتى دام ، رحت وجئت ، وعندما صاحت احداهن تطلب زجاجة ماء الورد ، خرج شقيقى على ممسكا بها ، كان صامتا ، والكتمان هنا خطر لذا خشيت عليه ، غير أنه ألقى فجأة بالزجاجة أرضا ، جعر صارخا ، دامعا ، قال لى فيما بعد إنه اشترى قبل رحيل أمنا المجاهدة زجاجتين من ماء الورد عند زيارته لضريح الحبيب الحسين ، كانا نذير شؤم ، لام نفسه ، قلت له ، تشاءون وتشاء الأقدار .

أتوقف بجوار الصوان ، قالت شقيقتى إن زجاجه طرشق فجأة قبل طلوع الصبح ، ألوم نفسى ، لماذا أبدو متعجلا ، لماذا أود مواراتها بسرعة ، أهذا نصيبها عندى ! وهنا أصغيت خائفا إلى صوت غريب ، لا يمت إلى أى من الحاضرين :

« يا جمال ، قد ورد أن العجلة من الشيطان إلا فى ثلاث ، منها تجهيز الميت ، ومن تجهيزه الاسراع به إلى مثواه .. »

على مهل أراه ، يستوى أمامى شيخى الأكبر محيى الدين ، غاب طويلا ، إنما جاء فى هذا الوقت بالذات لينوب عن كثيرين ، ليخبر عن أشياء وليومئ ملمحا ، لم يره إلا أنا ، ولم يسمعه إلاى ، كنت أخاطبه بالنظر ، فيجيبنى

لأصغى أنا وحدى ، استفسرت منه عن دليلى ، كيف لا يجىء فى لحظة كهذه ..

« منذ الآن إنما أنت دليل ذاتك ، فمنذ أن تمت المصالحة لم يعد لك به حاجة .. » .

قلت :

« ولكنها مصالحة متأخرة .. »

قال :

« هذا تقدير .. »

ثم أمرنى أن أبقى هوية دليلى سرا ، لا أطلع عليه أحدا ، ولا أصرح به ، ولا أذكره بسوء ، لم أستفسر ، فلابد أن فى الأمر سرا وسببا ، لماذا يلوح بين خضم أحزانى إحساس مبهم أننى لن أرى الشيخ الأكبر ، وأن هذا تجليه الأخير عندى ، كأنه أدرك ما أفكر فيه ، هذا ما بدا فى عينيه ، لكنه لم يجبنى ، لم يفسر لى ، إنما تلى فى وعيى ، «إن ما توعدون لواقع » ، أمرنى أن أفتح نوافذ البيت كلها ، فامتثلت دون أن استفسر ، أومأت وإن لم يلحظنى أحد ، أتطلع إلى باب الغرفة المغلق ، غير أن قلبى ، غير موصد ، والقلوب كما علمنى شيخى ثلاثة ، قلب مثل الجبل لا يزيله شىء ، وقلب مثل النخلة أصلها ثابت والريح تميلها، وقلب كالريشة يميل مع الريح يمينا وشمالا ، وقلبى أنا كالنخلة ، جذعه راسخ لكنه يميل مع كل هبوب ، هينا كان ، أو صرصرا عاتيا .

يتطلع شيخى الأكبر إلى الأرض ، يتبع نظره ، الماء يتسرب من تحت باب الغرفة ، كل قطرة منه لامست الكريمة ، هذا الوجه المولى جهتى ، والفم المزموم ، وآثار النزع ، يحيط الماء شيخى من كل جهة ، لكنه لا يفارق ، ولا يبرحنى ، تمضى اللحظات ، وهن الوقت ، فلا يسرع ولا يبطىء ، صمت من

ورائه نهار حار ثقيل ، تخرج أم محمد :

« ادخل وسلم على أمك .. »

التفت إلى مولاى محي الدين ، لا يدرى أحد إلى من أنظر ، ولا من أستشير ، فلم إذن تقدمت ؟، مغطاة تماما ، « لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة » ، ملفوفة فى كفن أخضر وأبيض ، والكفن للميت كاللباس للمصلى ما يصلى عليه لا فيه ، ما يحول بينه وبين الأرض ، تقول المرأة :

« قل سامحتك يا أمى .. »

أنا ، أسامحها أنا ؟، قال أبي قبل رحيله « سامحونى » ، أنحن من نسامح ؟! أم نحن الذين يجب أن نرجو السماح والمغفرة لتقصيرنا ، ولما أتيناه فى حقها بقصد وبدون قصد ، لم يطاوعنى لسانى ، فكررت المرأة :

« قل سامحتك يا أمى .. »

فلفظ لسانى ما صح عندى ..

« سامحينى يا أمى »

فكأنى الميت ، هممت بالتراجع ، غير أن المرأة كررت :

« قل سامحتك يا أمى .. »

رددت :

« سامحينى يا أمى .. أنا مسامحك .. »

دخلت نوال ، جاء على ، ظهر الحانوتى الشاب المتعجل ، حملوها ، لم أدر، لم أدقق من؟، وقفت قريبا من أختى الملتاعة، وعندما مروا بأمنا أمامها مدت يديها تروم امساكها ، تبغى إيقافهم ، لكن من يحوش ، من يمنع ! ، هذا لاراد له أبدا .

قلت راجيا :

« لا نريد لأمنا البهدلة .. »

فجأة ، تهرول أم محمد ، تلطم وجنتيها صارخة :

« مع السلامة يا أميرة .. مع السلامة يا مجاهدة .. »

أنزل السلم منحنيا ، وضعوها داخل النعش الذى أسندوه أمام المدخل ، دفعوا به وبها إلى جوف العربة ، لم نمش وراءها ، لم تنتظم صفوف ، اكتمل الركب فى هذه السيارة ، ركبت عربة صاحبى .

الظهيرة تدنو ، قيظ يوليو يشتد ، هجير ، والطريق شبه خاوية على غير العادة ، كنا ثمانية من عالم الحس ، وواحد من عالم الغيب ، أما الثمانية فهم أقارب ثلاثة انقطع عهدها بهم منذ أمد بعيد ، وجاران لم تعرف منهما إلا الاسم ، وصاحبان لى أعرفهما بقدر ، وأخى ، أما الذى جاء من حيث لا يمكن لى أن أعرف أو أدرى فهو مولاى الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربى ، هؤلاء من سعوا خلفها ، من ودعوها عند سفرها الأخير ، من الشرفة انبعثت صرخات أختى ، الشرفة ذاتها التى وقفت فيها وأطلت منها قبل ساعات ، انطوى الليل ، وطلعت الشمس على دنيا خلت منها ، وأسعى الآن فى وداعها ..

قبل ركوبنا ، قال أحد الأقارب :

« هل أوصت بالصلاة عليها فى مسجد بعينه » .

قلت : لا .

قال الحانوتى الشاب :

« مسجد السيدة عائشة فى طريقنا ، لو دخلنا إلى مسجد السيدة زينب أو الحسين سنحتاج وقتا .. اليوم سبت والزحام شديد فى البلد »

لماذا لم أصر على الصلاة عليها عند ضريح الحبيب ومثواه القاهرى ؟ لماذا

لزمت الصمت ؟ أهذا لعجلتى ؟ لماذا فكرت فى السفر الذى كان يجب أن أبدأه بعد ساعات ؟ لماذا ؟ هل انتابنى طيف ضيق وندم لامتناع سفرى ؟ هذا ما أرقنى زمنا ، خاصة أننى قارنت بين حزنى الأشد على رحيل الوالد ، وبين آلامى التى بدأت فجر هذا السبت ، فهل اعتدت الموت وتأهبت له ، أم أن فى الأمر قضية ؟.

قطعنا طريق صلاح سالم الممتد خارج المدينة ، عند القلعة لمحت بين زحام العربات وتدافعها المركبة التى تحمل جثمانها ، لمحت الشيخ الأكبر يلزمها ، يمشى إلى جوارها طاويا المسافة بخطى يشق علىّ تفسيرها . فى هذه العربة نعش .. يحتوى خفوت أمى وهمودها ..

كأنى أدرك ذلك أول مرة ، بدا الأمر مستعصيا على التصديق ، فبدأت بث حزنى ، اندلع نواحى ، ممتدا ، مرا ، وعندما توقفت العربة نزلت سارعت للمشاركة فى حملها ، أقبل مجهولون ، أناس لا أعرفهم ، لم ترهم أمى أبدا ، تناوبوا حملها ، داخل المسجد المدثر بالظلال العتيقة جاء آخرون ، اصطفوا أمام النعش ، مال علىّ شيخى الأكبر ، ولما كنت أجهل صلاة الجناز ، لقننى ما يجب أن أعمله ، قال : لا ركوع ، بل قيام ، وكل وقوف له تكبيرة .

علمنى رفع الأيدى عند كل تكبيرة ، إذ أن رفعها يؤذن بالافتقار ، يقول المصلى على الميت ، هذه أيدينا قد رفعناها إليك فى كل حال ، ليس فيها شيء ، ولا تملك شيئا ، علمنى التكتيف إذ أنه شافعى والشافعى سائل ، والسؤال حال ذلة وافتقار فيما يسأل فيه ، سواء كان ذلك السؤال فى حق نفسه أو حق غيره ، فالسائل فى حق الغير ، هو نائب فى سؤاله عن ذلك الغير ، فلابد أن يقف موقف الذلة والحاجة لما هو مفتقر إليه فيه ، علمنى التكتيف ، وهو صفة الضعفاء الذين لا يمكنهم تبديل الأمر ، وصفته وضع اليد على الأخرى ،

بالقبض على ظهر الكف والرسغ والساعد ، فيشبه أخذ العهد ، فى الجمع بين اليدين ، يد المعاهد والمعاهد ، أى أخذت علينا العهد أن ندعوك ، وأخذنا عليك العهد بكرمك فى أن تجيبنا ، « وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان ».

علمنى قراءة الفاتحة بعد التكبيرة الأولى ، والصلاة على الحبيب المصطفى بعد التكبيرة الثانية ، والدعاء بعد الثالثة ، « اللهم أبدل له دارا خيرا من داره » ، قال لى شيخى : المصلى داع أبدا ، والمصلى عليه ميت أو نائم أبدا ، فمن نام بنفسه فهو ميت ، ومن مات بربه فهو نائم نومة العروس والحق ينوب عنه

هكذا لقننى ، ثم قال لى : لابد من الخير ولو بعد حين ! ، ثم قال لى : إن الميت قد يرى فى الطريق أهوالا عظاما ، لهذا ينبغى أن تكون الشفاعة له ، قال لى : فإذا فرغت فانصب .

أسارع إلى حمل النعش مع الحاملين ، أعود إلى مقعدى فى العربة ، المثوى قريب ، أقطع الخطى الأخيرة ، يشتد أنينى ، يتعاظم وعيى ، إنها النهاية ، ألفظ باكيا « يا خرابى » ، ألطم وجنتى ، يطالعنى الشيخ الأكبر لائما ، يقول بالصمت ، ألهذا جئتك ؟ ، غير أننى لم أكف ، لم أتوقف ، نزلت مترجلا ، كف نواحى ، رأيت مقاعد مصفوفة ، المدخل المؤدى إلى داخل المقبرة مفتوح ، بداية درجات حجرية تغيب بقيتها عن النظر ، لم أدر ماذا يجرى ، لمحت انصراف الحانوتى الشاب ، سمعت محرك العربة عندما أقفلت راجعة ، رجلان يحملانها ، رائحة ماء الورد الذى ضمخت به قوية ، يتقدمان باتجاه الفوهة ، أراها محمولة ، لم أرها إلا ساعية ، لم أرها إلا ماشية ، فى الطريق المجاور لضريح الحبيب ، بمفردها تشترى خبزا لنا ، بمفردها تصحب أخى على

إلى الطبيب ، بإلى جوارى صامتة ، مستسلمة عندما شك الأطباء أن ورما فى صدرها ، بمفردها إلى الحاج فؤاد تفاوضه على تقسيط ثمن أريكة وصوان قديم ، إلى جوار أبى عند اعتقالى ، يذهب إلى أحد المعارف ، تبقى منتظرة نبأ عن ضناها الغائب ، أراها طفلة تعدو عبر الزمن العتيق ، واقفة ، متطلعة ، منتظرة قدوم أحدنا ما زاغ البصر وما طغى .

تروح وتجىء ، فرحة نشطة عند قدومى بصحبة حفيديها ، تلك طلتها ، وهذه نظرتها ، واللحظة الأولى لظهورها ، وذلك سلامها ، أصغيت إلى صوت غنائها ، والغناء يعنى ذروة انفرادها ، وتوحدها ، وهجرتها الداخلية إلى مالا أعلمه ولن ، أراها فى هيئة لم أعهدها ، لم تمر بى أبدا ، قاعدة ، تمد إحدى ساقيها وتثنى الأخرى ، تنظر نظرة جانبية ، مجللة بسواد غريب ، محمرة العينين ، باكية ، متحسرة على فراقنا ، فهذه هيئة ما بعد الرحيل ، والنجم إذا هوى ، ما ضل صاحبكم وما غوى ، إنما هو وحى يوحى ، ها هى ذى تبدأ سعيا أجهل كنهه ، رحلة لا أعرفها ، ألم يقل عز من قائل « إلى ربك الرجعى » ، فالرجعى تستلزم السعى ، الرجعى تعنى قطع اللامسافات التى لا أدرى من أمرها شيئا ، « ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون » .

هذا تاريخ بأكمله يغيب ، يتوارى عنى ، جذرى يأفل ، وأصل كينونتى وأول موطنى ، أقوم على مهل ، محدقا ، محاولا اختراق الحجب ، مجاهدا لمعرفة السبب ، أرقب الحبيبة ، المجاهدة تغيب شيئا فشيئا ، فمن جاء ، ومن رحل ، من أعطى ومن أخذ ، من أقبل ، ومن رجع ؟! .

أشير بسبابتى إلى فراغ عقيم ، لا تصلنى منه اشارة ، غير أنى مدرك ، موقن ، هو وجود كل شىء ، المقصود فى كل شىء ، المترجم عنه فى كل شىء ، الظاهر عند ظهور كل شىء ، الباطن عند فقد كل شىء ، الأول من

كل شيء ، الآخر من كل شيء ، يتدفق جميرى ، لكن أنى لى بإيقاف الدهر ، الدهر الذى لاراد له ، من تنعدم عنده الأمكنة والبقاع . اللحظات والأزمنة ، أنى لى بوضع حد لذلك الذى أوجدها ، وغاب بها ، وسيمحو أحزانى عليها .

أنقلب من حيث جئت ، إلى نفس ما مر به أصلى قبل تبدده وتوزعه بعد أن أفشى ! تتبدل علّى المشاعر وتتعاقب ، أهوى قابضاعلىّ التراب ، ناثرا ذراته فوق رأسى ، يمسك بى الشيخ الأكبر ، يمسك بى الأقارب وصاحبى والقوم ، أقمى جاثيا متطلعا إلى شيخى ، يبدو غاضبا ، غير أننى لا أعبأ ، لا يوقفنى إيماء ، أو همس ، ولا يمنعنى ردع ، أو تلويح بتهديد ، أقول بصوت مرتفع غير عابئ بمن يحيطون بى ، جاهلين من أخاطب ، « لن أكون ذلك الذى وصفته أبدا ، لماذا تناقض ذاتك بذاتك ، ألست القائل ، ألست المتسائل ، من أقهر الناس لنفسه؟ ألست المجيب على تساؤلك بنفسك ، إنه الراضى بالمقدور ، فلماذا تريد منى ذلك الآن ، لماذا؟ لست أنا ، ولن أكون » .

يرفع يده ، بينما يمد القوم أيديهم ليمسكوا بى ، يحولون بينى وبين التراب ، يختلط جميرى بنواحى ، فما قلته ذلك الذى لم أقله ، وما لم أقله ذلك الذى قلته ، فأين المفر ، أين المفر؟ .

عند هذا الحد أضطر إلى التوقف ، فلم يكن بوسعى إلا الامتثال ، بعد أن بدأت صيرورتى تلق ما لا قبل لى بوصفه أو التعبير عنه ، لذا أنهى هذا السفر على غير رغبة منى ، أما إذا سنحت الفرصة ، وسمحت الوسيلة ، فربما جمعت ما تبدد ، ولملمت ما تشظى ، علىّ أصوغ يومًا القول والمخاطبات والسرائر ، فينكشف من السر قدر جلل ، أما الآن ، فأدنوا منى ، وحنوا علىّ ، ففقدانى قريب ، ولا تبخلوا بدموعكم لتكون تأنيسا فى وحشتى ، ورحمة لى فى غربتى التى لاتنتهى إلا لتبدأ ، ولاتنقطع إلا لتتصل ، فياحسرتى على القرب بعد بدء البعاد .

كان الفراغ منه ليلة الاثنين الموافق سادس إبريل ، ألف وتسعمائة ستة وثمانين المنقضى على ميلاد السيد المسيح ، السابع والعشرين من رجب ، عام ألف وأربعمائة وستة المنقضى على هجرة من لانت له الأرض ، وظللته الغمامة ، وبكى الغزال بين يديه .

فبادروا ! .

١٩٨٠ ـ ١٩٨٦

الفهـــرس

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٧/٢٣١٧

I.S.B.N- 977 - 01 - 5084 - 3